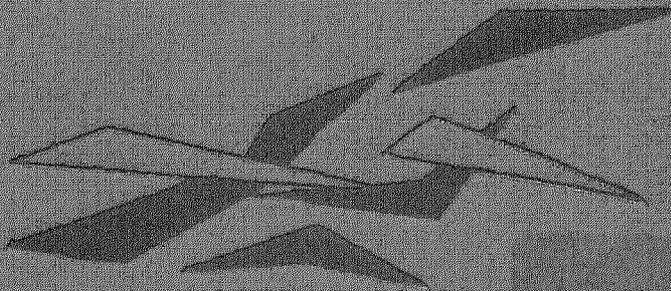
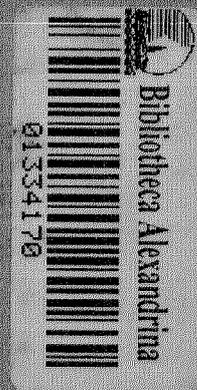


قصة الفلسفة

وزن ديورانت



مكتبة المعارف
بغداد



قصة الفلسفة

الطبعة السادسة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

يطلب من مكتبة المعارف - بيروت ص٠ ب٠ ١٧٦١

قصد الفلاسفة
من افلاطون إلى جون ريبوي
حياة وآراء اعظم رجال الفلسفة
في العالم

تأليف
ول ديورانت

ترجمة
الدكتور
فتح الله محمد المشعشع

الكتاب الذي أعيد طبعه عدة مرات
وبيع منه فوق المليون وربعمليون نسخة

منحورات
مكتبة المعارف
بيروت

جميع الحقوق محفوظة للناس

مكتبة المعارف
بيروت

الفصل الاول

١ - افلاطون

اذا نظرت الى خريطة اوروبا فانك تلاحظ ان بلاد اليونان تشبه اليد التي تمتد اصابعها الملتوية الى داخل البحر الابيض المتوسط . والتي تقع في جنوبها جزيرة كريت العظيمة التي استولت هذه الاصابع المنقبضة منها في الالف سنة الثانية قبل المسيح ، على بداية المدنية والحضارة . والى الشرق عبر البحر الايحي تقع آسيا الصغرى التي يسودها الهدوء والجمود الان ، والتي كانت تخفق في الايام السابقة لأفلاطون بالصناعة والتجارة والفكر . والى الغرب عبر ايونيا تقع ايطاليا ، التي تقف كبرج مائل نحو البحر ؛ وصقلية واسبانيا ، التي نجحت كل منها في استعمار جزء من بلاد اليونان في تلك الايام . وفي النهاية تقع اعمدة هرقل (التي نسميها اليوم جبل طارق) تلك البوابة الكئيبة المعتمة التي لم يجرؤ الكثير من البحارة والملاحين على اجتيازها في تلك الايام . وفي الشمال تقع تلك البلاد التي كانت في تلك الايام لاتزال نصف بربرية وغير متحضرة والتي سميت بعد ذلك باسم مقدونيا . انظر مرة ثانية الى الخريطة وسترى تضاريس لاتعد من السواحل ، ومرتفعات من الاراضي ، حيث تجد الخللجان والبحر في كل مكان ، وتنقلب الاراضي الى جبال وهضاب . لقد فصلت هذه الحواجز الطبيعية من الارض والبحار بلاد اليونان وقسمتها الى اجزاء منعزلة ، حيث كان السفر والمواصلات في تلك الايام اكثر صعوبة ، واشد خطورة منه في هذه الايام .

لذلك فقد تطور كل واد في بلاد اليونان الى اكتفاء اقتصادي ذاتي ، وكانت له حكومته المستقلة ، ونظمه واسلوبه ودينه وحضارته . وفي كل حالة كانت تقوم مدينة او مدينتان تمتد حولهما سفوح الجبال والاراضي الزراعية ، وعلى هذا النمط كانت مدن الولايات اليونانية التي تشمل اسبارطة واثينا وغيرها . انظر الى الخريطة للمرة الاخيرة ، ولاحظ موقع اثينا : انها ابعد مدينة شرقية من المدن اليونانية وكان موقعها حسناً حيث كانت الباب الذي يخرج منه اليونانيون الى مدن آسيا الصغرى المشغولة التي عن طريقها كانت ترسل تلك المدن الكبرى حضارتها وترفها الى بلاد اليونان اليافعة . وكانت اثينا ذات ميناء كبير تجد فيه الكثير من السفن مأوى لها من امواج البحر الهائجة . ولها اسطول بحري كبير . وبين عامي ٤٩٠ - ٤٧٠ قبل الميلاد تناست اثينا واسبارطة المنافسة والغيرة التي كانت بينهما ووجدت قواتها وجيوشها في محاربة الفرس تحت حكم داريوس الذي اراد تحويل اليونان الى مستعمرة لامبراطورية اسيوية . وفي هذا الكفاح والصراع بين اوروبا الفتية ، والشرق الهرم ، قدمت اسبارطة الجيش بينما قدمت اثينا الاسطول البحري الحربي . وعندما انتهت الحرب سرحت اسبارطة جيوشها ، وقاست من المشاكل الاقتصادية الناجمة عن هذه العمليات العسكرية وتسريح الجيوش بينما حولت اثينا اسطولها الحربي الى اسطول تجاري واصبحت احدى المدن التجارية العظيمة في العالم القديم . وعادت اسبارطة الى عزلة زراعية . بينما تحولت اثينا الى سوق كبيرة وميناء ومكان اجتماع للكثير من الرجال ، من مختلف الاجناس والعادات والمذاهب . وحملت خلافاتهم واتصالاتهم ومنافساتهم الى اثينا التحليل والفكر والمقارنة ، حيث تبارت التقاليد وتطاحنت العقائد في هذه المراكز ذات الاختلاط المختلف الكثير . عندما يقدم لنا الف عقيدة ، يساورنا الشك في جميع هذه العقائد ، او بعبارة اوضح فان كثرة المذاهب والعقائد وتضاريفها يولد الشك فيها جميعاً . وربما كان التجار اول من اظهروا شكهم ورببتهم ، فقد رأوا الكثير في اسفارهم وتعذر عليهم الاعتقاد بهذا الكثير ، كما ان ميل التجار العام الى تقسيم جميع الناس الى حمقى او اوغاد ،

جعلهم يميلون الى استجواب كل عقيدة ومذهب . وبالتدريج فقد تطور هؤلاء التجار بالعلم ، فتطور الحساب بزيادة تعقيد التبادل التجاري، وتطور الفلك بزيادة مخاطر الملاحة ، وقدمت الثروة المتزايدة والفراغ والراحة والامن وغيرها الأمور اللازمة في البحث والتأمل والفكر . لم يسأل الآن الناس النجوم والكواكب هديهم وارشادهم طريقهم عبر البحار فحسب، ولكنهم سألوها عن تقديم جواب عن الغاز الكون ايضاً ، وكان اول الفلاسفة اليونان فلكيين فخورين بما انجزوا ووصلوا اليه كما قال ارسطو . اندفعوا الى ابعاد الحدود بعد الحرب الفارسية ، واستقدموا جميع انواع المعرفة الى بلادهم ، وبحوثوا اعظم الدراسات . وبلغت بهم الشجاعة انهم حاولوا ايجاد تفسير للحوادث التي كانت تنسب في الازمنة الماضية الى قوى ما فوق الطبيعة الخارقة والمعجزات . وافصح السحر والحرافات والطقوس الدينية طريقاً للعلم وبدأت الفلسفة . لقد كانت هذه الفلسفة في البداية فلسفة طبيعية مادية ، ونظرت الى العالم المادي وتساءلت عن اصل الاشياء النهائي . وكانت النهاية الطبيعية لهذا النوع من الافكار هي مادية ديمقرطيس (٦٤٠ - ٣٦٠) قبل الميلاد (لا يوجد اي شيء في الحقيقة سوى الذرات والفراغ) لقد كانت هذه احدى الاتجاهات الرئيسية للفكر والتأمل اليوناني . وبقيت مندثرة مدة من الوقت في ايام افلاطون . ولكنها ظهرت وبرزت في أبيقور (٣٤٢ - ٢٧٠ قبل الميلاد) وتحولت الى سيل عباب من الفصاحة في لنيوكريئس (٩٨ - ٥٥ قبل الميلاد) ولكن التطور العظيم الحصيب في الفلسفة اليونانية اتخذ شكلاً له في السفسطائين ، معلمي الحكمة المتجولين والطوافين ، الذين وجهوا اهتمامهم الى طبيعتهم وافكارهم ، بدلاً من توجيهه الى عالم الاشياء . وكانوا جميعاً من اهل البراعة والحذق ، ونخص بالذكر منهم على سبيل المثال (جورجياس وهيبياس) وكان الكثيرون منهم على جانب كبير من الادراك والعمق مثل (بروتاجوراس وبروديقوس) ومن النادر ان تجد مشكلة او حلاً في فلسفتنا الحالية العقلية والمسلكية ، لم يتحققوا منه او يتناولوه بالبحث . لقد وجهوا اسئلة عن كل شيء ، ووقفوا بلا وجل امام الحرمات

الدينية والسياسية ، وأخضعوا كل عقيدة ومذهب ونظام للعقل . اما في السياسة فقد انقسموا الى مدرستين ، قالت احدهما مثل روسو ، ان الطبيعة خير والمدنية شر ، وان جميع الناس متساوون بالطبيعة ، وان النظم الطبيعية المصطنعة هي التي قضت على هذه المساواة بينهم ، وفرقتهم الى طبقات ، وان القانون هو من اختراع الاقوياء من الرجال ، ليقيدوا ويحكموا الضعفاء منهم . وادعت المدرسة الاخرى مثل نيتشه ، ان الطبيعة وراء الخير والشر ، وان الناس بالطبيعة غير متساوين ، وان الاخلاق من اختراع الضعفاء لتقييد وكبح الاقوياء ، وان القوة هي التفضيلة العليا ، والرغبة العليا التي يرغب بها الانسان ، وان الدولة الارستقراطية هي الافضل والاحكم ، والاكثر تناسباً طبيعياً من جميع انواع الحكومات . لا شك ان هذا الهجوم على الديمقراطية ، يعكس ظهور الاقلية الموسرة في اثينا التي اطلقت على نفسها اسم حزب الاوليجاركية (حزب الخاصة او القلة) والتي وصفت الديمقراطية بكونها ضعيفة وعاجزة وكاذبة ومصطنعة . لم يكن هناك ديمقراطية بالمعنى المفهوم لنبذها ومهاجمتها ، لأن عدد العبيد في اثينا بلغ (٥٠٠,٠٠٠) من اصل (٤٠٠,٠٠٠) من السكان وكانوا مجردين من الحقوق السياسية من اى نوع . ومن بين الاحرار البالغ عددهم (١٥٠,٠٠٠) لم يتمكن سوى عدد قليل منهم من تمثيل انفسهم في الجمعية العامة حيث كانت تبحث وتقرر سياسة الدولة . ومع ذلك فان هذه الديمقراطية التي كانت لديهم ، كانت ديمقراطية تامة ومتقنة ولا مثيل لها . لقد كانت الاكسليزيا او الجمعية العامة المصدر الأعلى للسلطة ، والجهاز الرسمي الأعلى في الدولة . وكانت للديكاستيريا او المحكمة العليا تتألف من اكثر من الالف من الاعضاء . (لجعل الرشوة متمذرة وباهظة التكاليف) وكانت تختار حسب الحروف الابدادية من سجل جميع المواطنين . لا نجد نظاما اكثر ديمقراطية من هذا النظام الذي عرفته اثينا ، ولا اكثر سخافة وبطلاناً كما كان يقول معارضو هذا النظام عنه .

وفي اثناء عصر الحروب البلوونيزية الطويلة التي امتدت من عام (٤٣٠) -

٤٠٤ قبل الميلاد) والتي حاربت فيها اسبارطة ائينا ، وهزمت اخيراً الاسطول
الائيني البحري . ايد الحزب الاوليجاركي بزعامه كريتياس اقضاء النظام
الديمقراطي ، والتخلي عن الديمقراطية ، على اساس عجزها وفشلها في الحرب
واطرى سراً على حكومة اسبارطة الارستقراطية (حكومة الاشراف او
الدوات) وابعده الى المنفى الكثير من زعماء الحزب الاوليجاركي . ولكن عندما
استسلمت ائينا نهائياً ، كان احد شروط الصلح الذي فرضته اسبارطة على
ائينا هو اعادة هؤلاء الزعماء الارستقراطيين من منفاهم . وبمجرد عودتهم اعلنوا
بزعامه كريتياس ثورة الاغنياء على الحزب الديمقراطي الذي كان يحكم ائينا اثناء
نوائب الحرب . ولكن هذه الثورة اخفقت . وقتل كريتياس في ميدان المعركة
والان فقد كان كريتياس تلميذاً لسقراط وعماً لأفلاطون .

★ ★ ★

٢ - سقراط

اذا جاز لنا ان نحكم من مشاهدة التمثال النصفي الذي وصل اليه من انقاض التماثيل القديمة ، فقد كان سقراط بعيداً عن الوسامة ، برأس اصلع ، ووجه كبير مستدير ، وعينين عميقتين ذات فراسة ، وانف كبير عريض زاهر ، لقد كان رأسه في الحقيقة اقرب الى رأس عتال ، منه الى رأس اعظم الفلاسفة شهرة . ولكننا لو نظرنا مرة ثانية ، فاننا نرى من خلال الحجر الخام الذي صنع منه هذا التمثال شيئاً من الدماثة واللطافة الانسانية والبساطة ، التي جعلت من هذا الفيلسوف والمفكر الوطني ، معلماً محبوباً من احسن شباب اثينا . اننا نعرف القليل عنه ، ومع ذلك فنحن نعرفه معرفة بالغة ، اكثر بكثير من افلاطون الارستقراطي وارسطو العالم .

ونستطيع ان نرى من وراء الفين وثلاثمئة سنة هيئته الغليظة ، المكسوة دائماً بنفس الثوب المهلهل ، وهو يسير على مهله في الاماكن الطلقة ، غير مهم بسخافة السياسة ، يسك بتلايب مناقشه وفريسته ، ويجمع الشباب والمتعلمين حوله ، ويستدرجهم الى احدي الزوايا المظلمة في اروقة المعبد ، ويسألهم ان يحددوا ويعرفوا كلامهم .

وكان هؤلاء الشبان يلتفون حوله في جماعات كثيرة ، ساعدته في خلق فلسفة اوروبية . وكان بينهم رجال اغنياء مثل افلاطون والسبيادس ، وكانوا يستمعون بتحليله وهجومه وقدهه للنظام الديمقراطي في اثينا وكان من بين هؤلاء الشباب بعض الاشتراكيين مثل انتيثناس الذي احب في سقراط عدم

اهتمامه بفقره : وواحد او اثنين من الفوضويين مثل اريستيبوس الذي تأقت نفسه الى عالم لا وجود فيه للاسياد او العبيد ، بحيث يكون سكان هذا العالم جميعهم احراراً بعيدين عن القلق مثل سقراط ، ان جميع المشاكل التي تثير المجتمع الانساني اليوم ، وتقدم مادة لنقاش الشباب الذي لا ينتهي اثاره وهيجت ايضاً تلك الجماعة اليونانية الصغيرة من المفكرين والمحدثين ، الذين شعروا مع معلمهم ، ان الحياة بغير بحث وحديث ، ليست جديرة بان يعيش فيها الانسان. لقد مثلت تلك الحلقات جميع الاتجاهات الفكرية والاجتماعية ، وربما كانت هذه الاجتماعات اصل هذه الاتجاهات الفكرية الاجتماعية .

من الصعب ان يعرف احد كيف عاش سقراط . فهو لم يعمل في حياته قط ، ولم يهتم بالغد ، وكان يأكل عندما يسأله تلاميذه ان يشرف موائدهم . وهذا يدل على انهم احبوا عشرته ومرافقته . ولكنه لم يكن يستقبل في بيته استقبالا احسناً ولم يرحب به ، لأنه اهل زوجته واولاده ، وكان كسولاً في نظر زوجته لا يصلح لشيء ، لم يوفر لعائلته من الغذاء اكثر من الخبز . لقد احبت زوجته الحديث والحوار بكثرة مثله ، ويبدو انه كان يدور بينها حوار اخفق افلاطون في تسجيله عنهما ، ومع ذلك فقد احبته هي ايضاً ، ولم تقو على رؤيته يموت عندما تجرع كأس السم ، مع انه تجاوز السبعين من عمره . ما هو السبب في تبجيل تلاميذه له بهذا الشكل ؟ قد يكون السبب انه كان رجلاً كما كان فيلسوفاً ، فقد عرض نفسه مرة للخطر وانقذ حياة السيبيادس في المعركة ، وكان يقدر على الشرب باعتدال كإنسان فاضل نبيل بغير وجل او افراط ، ولكن لاجدال في انهم احبوا فيه اكثر اعتداله في حكمته ، فهو لم يدع الحكمة ولكن البحث عنها بشغف واهتمام ، فقد كان هاوياً للحكمة لا محترفاً لها . لقد قيل ان صوت الرب قد اعلن ان سقراط احكم اهل اليونان ، وانه فسر هذا القول على انه استحسان للأدرية التي كانت نقطة البداية لفلسفته . « لا اعرف سوى شيء واحد وهو انني لا اعرف شيئاً » ان الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الانسان يتعلم الشك - وخصوصاً الشك

في المعتقدات التي يجبها ، والعقائد والبدهييات او الحقائق المقررة التي يؤمن بها ويقدها . من يعرف كيف اصبحت هذه المعتقدات العزيزة علينا حقائق يقينية بيننا ، وفيما اذا كانت لم تلدها خلصة رغبة سرية ، ملبسة الرغبة ثوب الفكرة؟ لا وجود للسياسة الحققة ما لم يتجه العقل الى فحص نفسه ، لقد قال سقراط اعرف نفسك .

لقد جاء فلاسفة قبله طبعاً : فلاسفة اقوياء مثل طاليس وهرقليطس ، وفلاسفة دهاة مثل بارميندس وزينون ، وعرافون مثل فيثاغورس وامباذقليس ولكنهم كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة طبيعيين . لقد بحثوا عن طبيعة الاشياء الخارجية ، عن قوانين واصول العالم المادي ، لقد قال سقراط عن هذه الفلسفة الطبيعية انها فلسفة حسنة ، ولكن هناك فلسفة اجدر بالفلاسفة ان يدرسوها اكثر من جميع هذه الاشجار والحجارة التي تملأ الطبيعة ، وحتى اهم من جميع هذه النجوم والكواكب ، وهي عقل الانسان . ما هو الانسان ، وإلى اي شيء سيتحول في المستقبل ؟

وهكذا فقد اتجه الى سبر غور الروح الانسانية . يستطلع الافتراضات ، ويستجوب اليقينيات . واذا تحدث الناس عن العدالة المتعارفة ، كان يسألهم بهدوء ، ما هي هذه العدالة ؟ وماذا تعنون بهذه الكلمات المجردة التي تحلّتون بها بمثل هذه السهولة مشاكل الحياة والموت ؟ وماذا تعنون بكلمة الشرف ، والفضيلة ، والاخلاق والوطنية ؟ وماذا تعني بنفسك؟ لقد احب سقراط ان يتناول بالبحث والسؤال مثل هذه الاسئلة الاخلاقية والنفسانية . لقد عانى البعض من طريقة سقراط في السؤال والبحث التي كانت تحتاج الى تعريف وتحديد محكم صحيح وتفكير واضح ، وتحليل حقيقي . وقد اعترض هذا البعض على طريقته هذه ، وقالوا له انه يسأل اكثر مما يجب ، ويترك عقول الرجال اكثر اضطراباً مما كانت عليه قبل المحاوراة والنقاش او الحديث ، ومع ذلك فقد قدم الى الفلسفة جوابين ثابتين لسؤالين تناولا مشكلتين من اكثر مشاكلنا تعقيداً ، وهما ما هو معنى الفضيلة ؟ وما هي افضل دولة ؟ .

والواقع اننا لا نجد موضوعا كثر اهمية وحيوية ، بالنسبة الى الشباب في ذلك الجيل الأثيني من بحث هذين الموضوعين . لقد دمر السفسطائيون ايمان هؤلاء الشباب بألهتهم وآلهاتهم ، وحطموا القانون الخلقى الذي كان يعززه خوفهم من عقاب هذه الآلهة لو قاموا بارتكاب ما يخالف رضاها . واصبح من الواضح الان انه لا مانع من ان يسير الانسان على هواه ، ويفعل ما يطيب له ، ما دام يفعل ذلك في داخل حدود القانون . لقد اضعفت روح الفردية الخلق الأثيني ، وتركت المدينة اخيراً فريسة امام الاسبارطيين الأشداء بطبعهم . اما بالنسبة الى الدولة ، اي شيء اشد سخرية من هذه الديمقراطية التي تقودها وتزعمها الجماهير التي تسوقها العاطفة . هذه الحكومة التي تقوم على النقاش الشعبي ، وهذا الاختيار المتنور المندفِع ، وعزل القواد وتنفيذ الاعدام فيهم ، هذا الاختيار الذي - لا اختيار فيه - للبطاء من المزارعين والتجار في تناوب وتعاقب ايجدي كأعضاء للمحكمة العليا للبلاد ؟ وكيف السبيل الى ايجاد قيم اخلاقية جديدة في اثينا . وكيف يمكن انقاذ الدولة ؟

ان الانجاية على هذه الاسئلة هي التي دفعت اثينا الى الحكم على سقراط بالموت ، متهمه اياه بالفساد الخلقى ، لقد كان المواطنون الاثينيون الكبار في السن على استعداد لتشريفه لو حاول استعادة الدين القديم الذي يؤمن بتعدد الآلهة ، ولو انه دعا الشباب المتحرر من الخرافات والاساطير القديمة الى المعابد والحدايق المقدسة . وطلب منهم مرة ثانية تقديم الاضاحي لآلهة آبائهم . ولكنه اعتقد ان تلك سياسة انتحارية لا امل فيها وانها تقدم الى الورا . لقد كان له ايمانه الخاص به ، لقد آمن بآله واحد ، وآمن باعتدال بان الموت سوف لا يقضي عليه تماماً ، ادرك ان هناك شريعة اخلاقية ابدية لا يمكن ان تقوم على دين ضعيف كالدين الذي آمنت به اثينا في ذلك الوقت . واذا كان الانسان يقدر على بناء نظام من الاخلاق مستقل تماماً عن المبادئ الدينية ، ويطبق على الملحد والقسيس على السواء ، عندئذ قد تأتي الديانة وتروح من غير ان تحمل الامتت الاخلاقي الذي يجعل من الافراد مواطنين مسالمين في المجتمع . اذا كانت كلمة الخير على سبيل

المثال تعني عاقل والفضيلة تعني الحكمة ، واذا كان من الممكن تعليم الناس ان يروا بوضوح مصالحهم الحقيقية ، وليروا من بعيد النتائج البعيدة لأعمالهم ، وينقدوا ، وينسقوا رغباتهم في انسجام بناء له اهداف ، فان هذا قد يقدم الى الرجل المتعلم والسفطائي القيم الاخلاقية التي تعتمد في الأمي الجاهل على الشريعة والسيطرة الخارجية . قد تكون جميع الخطايا اخطاء او تحيزاً في الرؤية وضعفاً او حماقة او سخافة ؟ وقد يكون في الرجل الذكي العاقل نفس طابع العنف والبواعث والدوافع بطريقة افضل من الجاهل ، ويقل المحذارة عن الجاهل في تقليد الوحش ففي المجتمع الذي يقوم حكمه على العقل ، وهو المجتمع الذي يعيد الى الفرد في سلطات واسعة اكثر مما اخذ منه في حرية مقيدة تكن فائدة كل شخص في سلوكه وولائه الى المجتمع . وبذلك فان الحاجة تقتضي بصيرة واضحة لضمان السلم والنظام والنية الطيبة . ولكن اذا كانت الحكومة نفسها حكومة تسودها الفوضى والسخافة ، تحكم ولا تساعد ، وتأمر ولا تقود ، كيف تستطيع ان تمنع الفرد في مثل هذه الدولة على ان يطيع القوانين ، ويحصر بحثه الذاتي داخل دائرة الخير العام ؟ ولا غرابة ان يتجه القبياس ضد دولة لا تثق بالمقدرة والكفاءة والمواهب ، وتقدر العدد اكثر من المعرفة ، ولا غرابة ان تعم الفوضى في البلاد التي يسودها الجهل ، حيث تقوم الجماهير بوضع القرارات في سرعة وجهل ، أليس من الجهل ان يحل مجرد العدد محل الحكمة ؟ وعلى العكس الانرى الناس مجتمعين في جماعات اكثر سخافة ، وعنفاً ، وقسوة منهم وهم منفصلين ومنفردين ؟

أليس من الخزي ان يقوم على حكم الشعب الخطباء الذين يضيعون وقتهم في خطبهم الطويلة كالأوعية النحاسية التي اذا دقت وقرعت تستمر في الدق والقرع الى ان نضع ايدينا عليها ونوقف دقها ؟
لاجدال في ان ادارة الدولة مسألة تحتاج الى افكار اعظم العقول واحسنها ، اذ كيف يمكن انقاذ مجتمع او جعله قوياً الا اذا تولى امر هذا المجتمع احكم رجاله واعقلهم ؟

تصور ردّ فعل الحزب الشعبي الديمقراطي في اثينا على هذا الانجيل الارستقراطي الذي كان يدعو له سقراط ، في وقت استدعت فيه ضرورة الحرب اسكات كل نقد ولوم لسياسة الحكومة . وعندما كان الاغنياء والمثقفون يعدون الخطط للثورة . وتصور شعور انايتس الزعيم الديمقراطي الذي رأى ابنه يصبح تلميذاً لسقراط ويتحول عن عبادة آلهة والده ويسخر منه في وجهه . ألم يتنبأ « ارسطو فان » بدقة بمثل هذه النتيجة في تبديل الفضائل القديمة بالذكاء والعقل .

وبعدئذ اشتعلت الثورة ، وحارب الرجال لها وعليها ، بمرارة حتى الموت ، وعندما فازت الديمقراطية تقرر مصير سقراط واصبح واضحاً ، فقد كان الزعيم العقلي للحزب الثائر ، مها كان مسالماً هو نفسه ، فقد كان مصدر الفلسفة الارستقراطية البغيضة ومفسد الشباب الذين اسكرهم النقاش ، ورأى انايتس ومليتس زعماء الديمقراطية ، ان من الأفضل ان يموت سقراط .

وبقية القصة يعرفها جميع العالم ، لأن افلاطون سجلها في نثر اشد روعة من الشعر . ومن الأفضل ان نقرأ لأنفسنا ذلك « الاعتذار » او الدفاع البسيط الذي اعلن فيه اول شهيد للفلسفة حقوق الانسان ، وضرورة حرية الافكار ، ورفض ان يطلب الرحمة من الجماهير التي احتقرها دائماً . لقد كانت لديها السلطة لتعفو عنه ، ولكنه رفض باحتقار ان يناشدها الرحمة . لقد اراد القضاة اطلاق سراحه بينما صوتت الجماهير الغاضبة مطالبة اعدامه ، ألم ينكر وجود الالهة ؟ ويل له لأنه علم الناس فوق طاقتهم على التعلم وهكذا حكموا عليه بشرب السم . وجاء اصداقائه الى سجنه وعرضوا عليه مهراً سهلاً ، فقد رشوا الموظفين الذين يقفون بينه وبين الحرية والفرار ، ولكنه رفض فقد بلغ السبعين من عمره (٣٩٩ قبل الميلاد) وربما اعتقد ان الوقت قد حان ليفارق الحياة ، وانه قد لا يموت ابداً بمثل هذه الطريقة المفيدة لتدعيم مبادئه . لقد قال لأصدقائه الحزينين افرحوا وقولوا انكم توارون في التراب جسدي فقط ، وعندما نطق هذه الكلمات قال افلاطون في فقرات تعد من اعظم فقرات الأدب في العالم .

نهض سقراط ودخل غرفة الحمام مع كريتو الذي طلب منا ان ننتظر وانتظرنا
نفكر ونتحدث ... في حزننا الكبير . فقد كان لنا بمثابة الأب الذي سنفقد
بعد قليل ونعيش بقية حياتنا يتامى ... لقد اقتربت ساعة غروب الشمس اذ
مر وقت طويل ونحن في الداخل . وعندما خرج علينا جلس معنا مرة ثانية ...
ولكننا لم نتحدث سوى القليل ، ودخل السجان ... ووقف بجانبه قائلاً أليك
يا سقراط يا أنبل وألطف وأفضل من جاءوا الى هذا المكان ، سوف لا أتهم او
استدنب شعور الرجال الاخرين الذين يثورون ويغضبون ويسبون ويشتمون
عندما اقدم لهم السم واطلب منهم ان يشربوه اطاعة لأوامر السلطة . وانا على
يقين بانك سوف لا تغضب مني لأنني لست المذنب كما تعرف والجرم يقع على
الاخرين ، وهكذا استودعك وارجو ان تتحمل ما تستدعيه الحاجة ، انت
تعرف مأموري ، وبعدئذ انفجرت دموعه وخرج . لقد نظر سقراط له وقال
« اقابل تحياتك الطيبة وسأفعل ما طلبت » وبعدئذ اتجه لنا وقال يا له من رجل
ساحر لطيف ، منذ ان جئت الى هذا السجن وهو يحضردائماً لرؤيتي ... والان
تشاهدون كبير حزنه علي . ولكن يجب ان نفعل بما يقول . دعهم يحضرون
السم يا كريتو اذا كان معداً ، او دع الخادم يعمل على اعداده . فيما بعد قال
كريتو ان الشمس لاتزال فوق أعلى الهضاب والكثيرون تناولوا جرعة السم في
وقت متأخر ، وبعد ان اعلنوا بحكم الاعدام اخذوا يأكلون ويشربون وينهمكون
في مباحث شهوانية ، لذلك لاتتسرع اذ لازال هناك وقت . وقال سقراط ،
نعم يا كريتو اولئك الذين تتحدث عنهم على حق وفي فعل ما فعلوه لأنهم كانوا
يعتقدون باستفادتهم من التأخير في الشرب . ولكنني مصيب في التسرع وعدم
التأخير واعتقد ان تأخري في شرب السم لن يجدي نفعاً ، لأنني بذلك اكون
قد وفرت حياة قد انتهت ، ولا يمكنني سوى الضحك على نفسي بذلك . لذلك
ارجوك ان تفعل كما اقول ولا ترفض قولي . وعندما سمع كريتو هذا اشار الى
الخادم الذي ذهب وغاب بعض الوقت وعاد بعدئذ مع السجان يحمل كأس السم .

وقال سقراط « انت يا صديقي السجن المحرب في هذه الامور هل تدلني كيف أفعل وكيف أتقدم في شرب السم » . وأجاب الرجل عليك ان تمشي فقط الى ان تشعر بثقل قدميك فتستلقي وبهذا يسري السم في جسدك وفي الوقت ذاته قدم الكأس الى سقراط الذي اخذه باسهل والطف طريقة ، وبدون وجل او تغير في لونه او قسماث وجهه ناظراً الى الرجل بملء عينيه كمادته دائماً وقال « ما رأيك لو تقربنا بهذا الكأس لأحد الآلهة ؟ هل افعل ذلك او لا أفعل ؟ » وأجاب الرجل « نحن نعد يا سقراط فقط ما نعتقد انه الكفاية » وقال سقراط « افهم ومع ذلك يجب ان اصلي الى الالهة لتسهل رحلتي من هذا العالم الى العالم الاخر ، لذلك هل من الممكن ان تمنح لي صلاتي » ورفع الكأس الى شفثيه في هدوء تام وابتهاج .

لقد تمالك معظمنا شمووره حتى ذلك الوقت ، ولكن عندما شاهدناه يشرب ورأيناه ايضاً ينتهي من شربه لم نعد نقدر على تمالك شعورنا واحتمالنا ، وانهمرت دموعي على الرغم مني ففطيت وجهي ربكيت على نفسي لمجرد تفكيري في مصيبي لفقدي مثل هذا الصديق . ولم اكن انا الأول في البكاء ، لأن كريتيو الذي وجد نفسه عاجزاً عن ضبط مشاعره وكبت دموعه نهض وابتعد وتبعته . وفي تلك البرهة أرسل ابولودوروس الذي كان مستغرقاً في البكاء طيلة الوقت صرخة عالية اظهرتنا جميعاً بمظهر الجبن . لقد احتفظ سقراط وحده بهدوئه وقال « ما هذا الصراخ والصخب ؟ لقد ابعدت النساء عن هنا كيلا اشعرا بالاهانة في مثل هذه الطريقة ، فقد سمعت بوجوب ترك الرجل يموت في سلام . إهدأوا واصبروا » . وعندما سمعنا ذلك خجلنا من انفسنا وكبنا دموعنا ، واستمر سقراط في المشي هنا وهناك الى ان بدأت ساقاه كما قال السجن تخونه ولاتقوى على حمله فاستلقى على ظهره . وكان الرجل الذي قدم له السم ينظر الى ساقيه وقدميه ، وبعد فترة جس قدميه بشدة وسأله فيما اذا كان يشعر ، واجاب سقراط بالنفي ، فجس ساقه واستمر يضغط على جسمه اعلى فأعلى وقال لنا

انه اصبح بارداً وجامداً ، وشعر سقراط بذلك وقال « ستكون النهاية عندما يصل السم الى القلب » وبدأ البرود يصل الى فخذه فكشف وجهه (لأنه كان قد غطى نفسه ؛ وقال وكانت كلماته الأخيرة « يا كريتو انا مدين بديك إلى اسكيببوس ارجوك ان لا تنس دفع هذا الدين ؟ » وقال كريتو « سأدفع الدين هل هناك شيء آخر » ولم يسمع جواباً لهذا السؤال وبعد دقيقة او اثنتين سمعنا حركة وقام الخادم بتغطيته وقام كريتو باغلاق عينيه وفمه .

هكذا كانت نهاية صديقنا الذي اسمه بحق ، احكم واعدل وافضل جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتي .

٣ — تهيئة افلاطون

لقد كان اجتماع افلاطون بسقراط نقطة تحول في حياته ، فقد نشأ افلاطون في جو وثير مريح وربما في جو من الثروة . وكان شاباً وسيماً وعنيفاً ، وسمى افلاطون على ما يقال بسبب عرض كتفيه ، وكان جندياً فائقاً وبارزاً ، ونال الجائزة مرتين في الألعاب . لم تجر العادة ان ينشأ الفلاسفة في مثل هذه السن من المراهقة ، ولكن روح افلاطون الداهية وجدت بهجة جديدة في لعبة سقراط المنطقية الجدلية ، ووجدت لذة لرؤية السيد سقراط يدحض البراهين والاعتقادات ويخترق الفرضيات باسئلته الحادة . ودخل افلاطون الى هذه الرياضة التي كانت أشد خشونة من المصارعة . وراح تحت رعاية سقراط وارشاده ينتقل من مجرد النقاش الى تحليلات دقيقة ومحادثات مثمرة ، واصبح مشغولاً بالحكمة وبعلمه سقراط ، واعتاد ان يقول اشكر الله الذي خلقني يونانياً لا بربرياً حراً لا عبداً رجلاً لا امرأة ولكن فوق الجميع اني ولدت في عصر سقراط .

لقد كان في الثامنة العشرين عند موت سقراط ، وترك هذا المصير المحزن أثراً على كل تفكير التلميذ ، وملأه احتقاراً للديمقراطية وكرهية للجمهور والجموع التي ولدتها في نفسه نشأته الارستقراطية ، وساقه الى قرار يستدعي ضرورة القضاء على الديمقراطية واستبدالها بحكم الأعقل والأفضل من الرجال . وقد أمضى حياته وعمره باحثاً عن وسيلة تهديه الى اكتشاف أعقل الرجال وأفضلهم واقناعهم وتمكينهم من الحكم .

وفي الوقت ذاته فان جهوده في محاولة انقاذ حياة سقراط اثارت الريبة والشك حوله من جانب الزعماء الديمقراطيين ، وحثه اصداقؤه على مغادرة اثينا التي اصبحت اقامته فيها محفوفة بالأخطار ، ولم تعد مكان امن له . وكانت هذه فرصة مناسبة له تتمكنه من مشاهدة العالم ، وهكذا سافر في عام (٤٩٩) قبل الميلاد . والواقع اننا لا نستطيع ان نقول ان ذهب في رحلته ، هذه على وجه التجديد ، وهناك خلاف بين العلماء حول كل مرحلة من رحلته ، ويبدو انه قد سافر اولاً الى مصر وتأثر عندما سمع من طبقة الكهنة التي كانت تحكم مصر يومئذ ان اليونان دولة وضعه تنقصها التقاليد الثابتة والحضارة العميقة ، وكان فلاسفة النيل في ذلك العهد لا يعيرون اليونان أهمية بالغة او اهتماماً جديساً . ولكن لا شيء يعلم الانسان اكثر من الصدمات واهتزاز المشاعر . ان ذكريات هذه الفئة المثقفة المستنيرة التي كانت تحكم شعباً زراعياً ساكناً بقيت حية في تفكير افلاطون ، ولعبت دوراً في كتابته عن الدولة الفاضلة المثالية . ثم اجر الى صقلية واطاليا ، وهناك التحق لفترة من الزمن في المدرسة او المذهب الذي انشأه فيثاغورس ، ومرة ثانية تأثر عقله بذكرى جماعه صغيرة من الرجال انصرفت للعلم والحكم ، تعيش عيشه بسيطة على الرغم من ان سلطة الحكم كانت في يدها . لقد تجول اثنتي عشرة سنة مرتشفاً الحكمة من كل نبع ومنهل ، وجالساً في كل كعبة ومزار ، متذوقاً كل شريعة وقانون . وقد ذكر البعض انه ذهب الى فلسطين وانعجن فترة من الوقت في طينة الأنبياء الذين كان معظمهم من الاشتراكيين ؛ وانه شق طريقه الى ضفاف الغانج وتعلم التفكير والتأمل من الهندوس . ولكننا لا نعرف .

وعاد الى اثينا في عام (٣٨٧ قبل الميلاد) . انه الآن رجل في الأربعين من عمره ، وقد اكتملت رجولته ونضجه باختلاطه بشعوب مختلفة ، وامتصاصه الحكمة من اقطار كثيرة ، لقد فقد القليل من حماسة الشباب الحارة ، ولكنه اكتسب افكاراً ومشاهدات تعتبر كل تطرف واندفاع نصفاً للحقيقة فقط . لقد اكتسب معرفة وفنا ، ولأول مرة يعيش الفيلسوف والشاعر معاً في شخص

افلاطون وروحه ، وابتدع لنفسه وسيلة في التعبير وجد الجمال والحقيقة فيها مكاناً لها ، ومسرحاً لتوجيه الحوار . لم تلبس الفلسفة على ما نعتقد اطلاقاً مثل هذا الثوب الجميل اللامع الذي بدا في اسلوب افلاطون قبله او بعده ، وعلى الرغم من الترجمة نجد هذا الاسلوب يشرق ويتلألأ ويسطع ويقفز ويتدفق . لقد قال شيلي احد المعجبين والمحبين لأفلاطون ، انه يعرض الاتحاد النادر بين العبارة والمنطق ، بحاسة الشعر مذوبة ببهاء وجلال عصره وتناسق وانسجام زمنه ، ويحيلها الى جدول رقرق من النغمات والتعابير الموسيقية التي تندفع قواها المقنعة بلا توقف ، ولم يكن عبثاً ان بدأ الفيلسوف الصغير حياته كاتباً مسرحياً .

ان الصعوبة في فهم افلاطون تكمن في هذا المزيج المسكر بين الفلسفة والشعر والعلم والفن ، حيث لا نستطيع ان نذكر في اي نوع من الحوار يتحدث الكاتب او في اي شكل ، وهل هو حرفي ام مجازي ، وهل هو مازح ام جاد . ان حبه للمداعبة والتهكم والخرافة والاسطورة يتركنا في حيرة احياناً ، ونستطيع ان نقول عنه انه لا يقوم بالتدريس الا مستعيناً بالأمثال والحكايات « هل يجب ان اتحدث معكم كشخص كبير في السن وكرجال في سن الشباب مستعيناً بالمثل او الحكاية » .

هذه المحاورات التي وصلتنا كتبها افلاطون للمطالعة العامة في ايامه ، وبفضل اسلوبها في التحدث وصراعها الحيوي في ما لها وما عليها ، وتطورها التدريجي ، وتكرارها المستمر لكل جدال هام ، نعتقد انها وضعت واعدت بشكل قاطع لتتناسب مع فهم الرجل الذي يتذوق الفلسفة في مناسبات تتوفر فيها الراحة ، لذلك ينبغي ان نعد انفسنا لما في هذه المحاورات من الجواز والمداعبة ، والكثير من الامور الغامضة الملتبسة ، التي لا يدركها سوى طلاب العلم والاجتماع والادب في عصر افلاطون ، والكثير من الامور التي تبدو اليوم غير ملائمة او خيالية ، ولكنها يمكن تذوقها بنفس الطعم والمذاق لطبق زآخر من الافكار ، روعي في وضعه كونه مهضوماً بالنسبة الى عقول لم تعتمد على تذوق طعام الفلسفة .

«عنا نمترف ايضاً ان افلاطون تتوفر فيه بكثرة الصفات التي ينتقدها
ويقرعها . فهو ينتقد ويهاجم الشعراء وأساليبهم الخرافية الوهمية ، ولكنه هو
نفسه شاعر وبذلك يضيف شاعراً الى الشعراء، ومئات من الاساطير والخرافات .
انه يشكو من الكهنة ورجال الدين (الذين يواصلون التخويف من جهنم
ويقدمون طريقة الخلاص والقداء من الخطايا والذنوب) كما جاء في كتابة الجمهورية
صفحة (٣٦٤) ومع ذلك فقد كان كاهناً وواعظاً واخلاقياً مثالياً . وهو
يعترف مثل شكسبير بأن المقارنة ليست سوى مراوغة ، ولكنه يراوغ من
واحدة لأخرى وأخرى ، وأخرى . انه يقرع السفسطينيين ويتهمهم بالمنافسة
في تجارة الكلام والعبارات ، وهو نفسه لا يرتفع عن تفتيت المنطق وتحويله
« ان الكل أعظم من الجزء » بالتأكيد والجزء أقل من الكل ؟ نعم . . . لذلك
يتضح وجوب حكم الفلاسفة الدولة .

ولكن هذا هو أسوأ ما يمكن أن نقوله في أفلاطون ، وبعد ذلك نقول ان
المحاورات الأفلاطونية ستبقى إحدى الكنوز الثمينة في العالم وافضلها
كتاب الجمهورية ، وهو كتاب تام في حد ذاته ، حيث نجد في هذا الكتاب
المجاز الأفلاطوني وعلمه اللاهوتي ، وفلسفته الأخلاقية الادبسية والنفسانية ،
وفنه التعليمي وسياسته ، ونظريته في الفن ، هنا في كتاب الجمهورية نجد المشاكل
التي تواجه العالم اليوم ، من الشيوعية الى الاشتراكية ومبدأ مساواة المرأة بالرجل
في الحقوق ، وتقييد النسل ، وعلم تحسين النسل والمشاكل التي أثارها نيتشه
الفيلسوف الالماني حول علم الاخلاق والحكومة الارستقراطية . والمشاكل التي
بحثها روسو الفيلسوف الفرنسي حول العودة في حياتنا الى الطبيعة وحرية التعليم .
هنا نجد فلسفة برجسون وفرويد ، كل شيء موجود في هذا الكتاب ، انه وليمة
للفوة والقلة يقدمه مضيف كريم سخّي . قال (امرسون) ان أفلاطون هو
الفلسفة والفلسفة أفلاطون وأنعم على كتاب الجمهورية بكلمات عمر بن الخطاب
عن القرآن عندما قال أحرقوا المكتبات لان قيمتها موجودة في هذا الكتاب .
والآن دعنا ندرس جمهورية أفلاطون .

٤ - المشكلة الأخلاقية

يدور هذا الحديث في بيت سيفالوس ، وهو أرسقراطي موسر ، واشترك في الجماعة التي حضرت هذا الحديث جلاكون وادمانتوس شقيقا أفلاطون وثراسيماخوس وهو سفسطائي مثير وشرس ، وسقراط الذي يتحدث بلسان أفلاطون في هذا الحوار ، وهو يسأل سيفالوس ، ما هي اعظم البركات والخيرات التي جنيتها من الثروة والمال ؟

ويجيب سيفالوس ان الثروة نعمة له ، لأنها مكنته من ان يكون سخياً وكريماً وعادلاً . ويسأله سقراط بطريقته الماكرة ، ماذا يقصد بكلمة العدالة ، وهنا يطلق سراح كلاب الحرب الفلسفية ، اذ لا شيء أصعب من التعريف ، ولا شيء أشد في فحص الصفاء العقلي من محاولة تعريف الأشياء وتحديد المقصود منها . ان سقراط يجد في هذا طريقة سهلة لتدمير التعاريف التي تقدم له الواحد تلو الآخر . لقد اثارت طريقة سقراط ودحضه لكل تعريف يقدم له ثراسيماخوس الذي كان اقل صبراً من الحاضرين فانفجر صارخاً وقال :

ما هذه السخافة يا سقراط ؟ وما بالك جميعاً تسقطون امامه الواحد تلو الآخر بهذه الطريقة الماكرة ؟ لأنني أقول أنك اذا كنت تريد ان تعرف ما هي العدالة يجب عليك ان تجيب لا أن تسأل ، ولا تفخر لأنك تدحض ما يقوله الآخرون ... لأن الكثير من الناس يقدرون على السؤال ولكنهم لا يقوون على الإجابة .

ولم يرهب هذا التحدي سقراط أو يخيفه ، واستمر في القاء الأسئلة بدلاً من الإجابة .. وبعد مدة من المراوغة والدفع اخذ يثير ثراسيماخوس ويدفعه الى الزام نفسه بتعريف . أصغوا اذاً ، يقول السفسطائي بغضب ، انني أعلن ان القوة هي الحق ، وان العدالة هي مصلحة الاقوى ... ان الحكومات المختلفة تسن القوانين سواء أكانت حكومات ديمقراطية او ارسقراطية او اتوقراطية .

كل هذه الحكومات تقوم بسن القوانين وفقاً لمصالحها ، وتستخدم هذه القوانين التي وضعتها بنفسها لتخدم مصالحها ، ان هذه الحكومات تقدم لشعوبها ما نسميه بالعدالة مثلاً وتعاقب كل فرد يتجاوز حدود هذه العدالة او ينتهك حرمتها ... انني اتكلم عن العدالة على نطاق واسع ، وهذا المعنى الذي اقصده سيظهر اكثر وضوحاً في الحكومة الأتوقراطية التي تستولي بالفش والفساد والقوة على املاك الاخرين بالجملة وليس بالتدريج ، والان بعد ان يغتصب الرجل اموال المواطنين ويحيلهم الى عبيد ، عندئذ بدلاً من ان نسميه لصاً ومحتلساً ونصائباً نسميه سعيداً وباركاه الجميع ولا يجرؤ أحد على لومه أو انتقاده على المظالم التي أوقعها بهم بسبب الخوف من بطشه ..

هذا هو الميثاق الذي ينسب اليوم قليلاً او كثيراً الى نيتشه الفيلسوف الالماني ، عندما يقول : حقاً انني اسخر كثيراً من الضعفاء الذين يفكرون انفسهم صالحين ، لانهم ليس لديهم مخالف لينشبوها ، لقد عبر شيرنر عن هذه الفكرة باختصار عندما قال ، حفنة من القوة خير من كيس من الحق ، ربما يكون هذا المبدأ خير من وضعه افلاطون نفسه في تاريخ الفلسفة في حوار آخر ، «جورجياس» حيث ينبذ السفسطائي كاليكلس الاخلاق ويستنكرها على اساس كونها بدعه من اختراع الضعفاء لتقييد قوة الاقوياء .

انهم يوزعون المديح واللوم بالنسبة الى مصالحهم ، ويقولون ان عدم الامانة عار والحيانة فضيحة والقوة ظلم ، ويقصدون بعدم الامانة الرغبة في الحصول

على أكثر من سبيرانهم ، لأنهم يعرفون ضعفهم وعجزهم ويفرحون بالحصول على المساواة والدعوة لها ..

ولكن اذا قام رجل قوي لديه القوة الكافية (وهنا يدخل السوبرمان الذي نادى به نيتشه) واستطاع ان يهز هذه القيود والسلاسل الاخلاقية ومحطمها ويخرج منها ، فانه سيقوض تحت أقدامه جميع قوانيننا وسحرنا ودساتيرنا وشرائعنا وتعاويننا وخرافاتنا التي تتنافى مع طبيعة الكون والحياة . ان من يريد الحياة حقاً يجب ان يسمح لرغباته في الانطلاق الى اوسع مدى ، ولكن عند بلوغ هذه الرغبات مداها الاقصى ينبغي ان تتوفر لديه الشجاعة والذكاء في توجيهها واشباعها ، واؤكد ان هذا هو النبيل والعدالة الطبيعية ، ولكن الكثيرين من الناس لا يقدررون على فعل ذلك ، لذلك فهم يلومون مثل هؤلاء الاشخاص الأقوياء ، والسبب هو عجزهم وضعفهم الذي يريدون التستر عليه ومواراته . وبذلك يسمون الافراط سفالة ودناءة . انهم يستعبدون الطبائع النبيلة ، ويمدحون العدالة ، لأنهم جبناء ضعفاء .

ان مثل هذه العدالة ليست للرجال ولكنها لاقزام الرجال ، انها اخلاق العبيد وليست اخلاق الأبطال ، ان فضيلة الرجل الحقيقية هي الشجاعة والذكاء . ربما تكون هذه اللااخلاقية نتيجة لتطور الاستعمار في سياسة اثينا الخارجية ، ومعاملتها القاسية الشديدة للدول الاضعف منها . ان امبراطوريتكم قال باركليز ، تقوم على قوتكم لا على نية رعاياكم الطيبة . وبذكر المؤرخ ثوسيديدس الذي روى خطبة باركليز ان مبعوثي اثينا اجبروا جزيرة ميلوس على الانضمام الى الاثينيين في الحرب ضد اسبارطة قائلين ، انكم تعرفون كما نعرف ان الحق ليس سوى مسألة بين دول متساوية في القوة ، والقوي يفعل ما يقدر على فعله ، والضعيف يقاسي ويعاني لضعفه . لدينا هنا جوهر المشكلة الاخلاقية ولب نظرية السلوك الادبي والحلقي ، ما هي العدالة ؟ هل هي التقوى ، ام هي

القوة ؟ وهل من الافضل ان تكون صالحاً وطيباً ام الافضل ان تكون قوياً وشجاعاً ؟

كيف يواجه سقراط الذي يتحدث افلاطون بلسانه هذا التحدي الناجم عن هذه النظرية في العدالة والاخلاق . انه لم يراجها في بادئ الامر بتاتا ، و اشار الى ان العدالة عبارة عن علاقة بين الافراد تعتمد على التنظيم الاجتماعي ، وهذا بالتالي يمكن دراسته بطريقة افضل في جزء من بناء المجتمع احسن من دراسته كصفة في سلوك الفرد ، ويقول اننا اذا استطعنا ان نصف دولة عادلة يتوفر فيها العدل فاننا نكون في موقف افضل لوصف الفرد العادل ، ويعتذر افلاطون لهذا الانحراف بقوله اننا في فحص قوة نظر الانسان نجعله يقرأ حروفاً كبيرة ثم نطلب منه قراءة الحروف الصغيرة ، ويقول ان من الاسهل تحليل العدالة على نطاق واسع اي في الدولة كمجموعة من تحليلها في سلوك الفرد على نطاق ضيق ولكن يجب ان لا ننخدع .

لان افلاطون في الواقع يصل كتابين بعضهما ببعض ، ويستخدم النقاش والحوار كصلة وذريعة لانه لا يريد التحدث عن الاخلاق الشخصية فحسب ولكن ايضاً عن مشاكل إعادة البناء الاجتماعي والسياسي . فهو لديه دولة مثالية تحت اكمه ، وصمم على تقديمها وانتاجها ، ومن السهل ان نغفر له ونساعه في هذا التباعد بسبب قيمة كتابه .

٥ - المشكلة السياسية

يقول افلاطون ان العدالة كانت ستكون مسألة بسيطة ، لو كان الناس بسطاء ، ولكانت القوضوية الشيوعية تكفي في مثل هذه الحال ، وهو يصف فيما يلي تصورهِ للحكومة التي يزيد ان يقدمها فيقول :

دعنا نتأمل اولاً كيف تكون حياة الناس في هذه الدولة . . . انهم سينتجون قمحاً وخبزاً ، وملابس وأحذية ، ويبنون بيوتاً ومنازل لأنفسهم ؟ وعندما تصبح لهم بيوت يشتغلون في الصيف في صفوف مشتركة واقدام عارية ، وفي الشتاء لابسين ومنتعلين ، ويميشون على القمح والشعير ، خابزين القمح وعاجنين الدقيق ، وصانعين الفطائر وأرغفة الخبز التي يقدمونها على حصيرة من القصب واوراق الشجر النظيفة ، متكئين على سرر من السدر او غصون الرياح ، وبأكلون ويتمتعون هم وأولادهم ، ويشربون الخمر التي صنعوها بأيديهم ، تغطي رؤوسهم اكاليل الزهور ، ولا تقتر شفاههم عن حمد الآلهة وشكرها ، يعيشون في مجتمع جميل ، ويحرصون ان لا يتجاوز اسرهم او عائلاتهم الوسائل المعدة لها ، لأنهم محتاطون للفقر والحرب . . . وبالطبع سيستوردون بهاراً وملحاً ، وزيتوناً وجبناً ، وبصلًا وملفوفًا وخضاراً وعشباً ، من بلاد اخرى تناسب الطبخ والفلي . ونقدم لهم حلوى من التين والقطاني والفاصولياء وحب الآس والجوز التي يشوونها على النار ، ويشربون في اعتدال . وبمثل هذه الوجبة يتوقعون ان يعيشوا في سلام وبلغوا كهولة طيبة ، ويقدموا حياة مماثلة لاطفالهم من بعدهم . لاحظ هنا الاشارة الى تحديد عدد السكان والحياة النباتية والعودة الى الطبيعة .

الى بساطة الحياة البدائية التي تصورها الاساطير العبرانية . وهي جميعها تشبه ما قاله ديوجين الذي اعتقد بوجود عودتنا لنعيش مع الحيوانات المسالمة الاليفة . وبهذا فاننا نريد ان نضع افلاطون في هذه الناحية مع سانت سيمون ، وفورييه ، ووليم موريس وتولستوي ، ولكنه اكثر ريبية من هؤلاء في نية الانسان الطيبة ، وهو يمر بهذا السؤال بهدوء ويتساءل ، لماذا لم تتحقق هذه الجنة البسطية التي وصفها في حياة الانسان ؟ ولماذا لم تتحقق هذه الحياة المثالية ، في حياة البشر وتبرز في خريطة العالم ؟

ويجب على ذلك بقوله ، بسبب شرارة الانسان والترف . ان الناس لا يقتنمون بالحياة البسيطة ، وهم بطبعهم يحبون الاقتناء والطموح والغيرة والمنافسة ، ويميلون بسرعة بما لديهم ، ويتوقون الى اقتناء ما ليس عندهم ، ويشتهون ما في يد غيرهم ، والنتيجة لذلك هو اعتداء جماعة على املاك الجماعة الاخرى ، وتنافس الجماعات على موارد الارض الذي ينتهي عادة بالحرب فيما بينها ، وتنمو التجارة والمال الذي يحدث فوارق وطبقات جديدة ، وتصبح كل مدينة في الحقيقة مدينتين احدهما مدينة الفقراء والثانية مدينة الاغنياء . وكل واحدة منها في صراع وحرب مع الاخرى ، وفي كل قسم نجد اقساماً اصغر ، ونرتكب خطيئة لو اعتبرناها ولايات واحدة . وتنهض في هذه الحالة طبقة بورجوازية من التجار التي يبحث افرادها عن مكانه اجتماعية عن طريق الثروة ، وينفقون الاموال الطائلة على زوجاتهم ، وهذا التغيير في توزيع الثروة يؤدي الى تغييرات اجتماعية ، وعندما تزيد ثروة التجار على ثروة اصحاب الاراضي يفسح النظام الارستقراطي الطريق ليحل محله النظام الاوليجاركي ، وهو حكومة الاغنياء ، ويحكم الدولة التجار ! الاغنياء واصحاب المصارف والبنوك ، وعندئذ تحل السياسة التي تعبر عن خطة الحزب السياسي وشهوته في مفسانم الوظائف والحكم ، محل ادارة تدبير الدولة التي تقوم على تنسيق القوى الاجتماعية وتكيف السياسة مع النمو والتطور .

وكل نوع من انواع الحكومات ينحل وينهار بسبب الافراط وتجاوز مبداه الاساسي . فالحكومة الارستقراطية تدمر نفسها بسبب تحديد وتضييق الدائرة التي تحصر بها السلطة ، وتدمر حكومة الاغنياء نفسها بسبب التهافت السريع على جمع الثروة ، وتكون النتيجة في كلتا الحالتين وقوع ثورة ، وعندما تحدث الثورة يبدو انها قد اشتعلت من اسباب صغيرة ونزوات طفيفة ، ولكن على الرغم من كونها تشتغل من مناسبات خفيفة فانها تكون عادة نتيجة اخطاء جسيمه بالغة خطيرة متراكمة ، فعندما يضعف الجسم نتيجة اهمال طويل للمرض فان مجرد تعرض هذا الجسم قد يحدث فيه مرضاً خطيراً . وبعندئذ تأتي الديمقراطية ويتغلب الفقراء على منافسيهم ومعارضهم ، وتقدم للشعب نصيباً متساوياً في الحرية والسلطة .

ولكن حتى الديمقراطية تدمر نفسها ، بالافراط في الديمقراطية ، ان مبدأ الديمقراطية الاساسي هو مساواة الجميع في حق الحصول على المنصب وتقرير السياسة العامه ، ان هذا الترتيب يبدو ساراً لدى النظرة الاولى ولكنه يتحول الى كارثة ونكبة ، لان الشعب ينقصه الاعداد الكافي في التعليم لاختيار افضل الحكام وافضل الخطط ، والشعب لا يفهم ، ويعيد ما يجبره له زعمائه من عبارات يجب سماعها ، ولقبول مبدأ او رفضه من الضروري مدحه ، او التهمك عليه في رواية شعبية (وهي اشارة واضحة بلا شك الى اريستوفان الذي هاجمت رواياته الهزلية كل فكرة جديدة تقريباً) ان حكم الجماهير او الفوغاء بجر هائج يتعذر على سفينة الدولة ركوبه والسير فيه ، وكل ربح من الخطابة والشعوذة من جانب الخطباء تحرك المياه فيه وتعطل المسير ، وتكون نتيجة مثل هذه الديمقراطية حكم الطغيان او حكم الاوتوقراطية وهو الحكم المطلق - ان الجماهير تحب المداهنة والمداجنة ، وهي جائعة جداً ، وتواقه للعسل ، وبهذا ينهض الى الحكم اخيراً اكبر مداهن ومداج ويدعو نفسه حامي الشعب ويستولي على السلطة العليا المطلقة في البلاد .

وكلما زاد افلاطون تفكيراً في هذا كلما زاد في فزعه ودهشته لسخافه ترك

نزوة الفوغاء وهواما وسلامة نيتها ، وسهولة الخداعها في اختيار موظفي الدولة السياسيين . هذا بالاطافة الى ترك هذا الاختيار في يد المشبوهين من صنعة وعملاء اصحاب المال والثروة الذين يشدون حبل الاوليجار كيسة وراء المسرح السياسي الديمقراطي . ويشكو افلاطون من اننا في المسائل التافهة مثل صناعة الأحذية نعتمد على المختص في صناعة الأحذية لصنعها لنا ، أما في السياسة فاننا نفترض ان كل شخص يقدر على احراز الاصوات يستطيع ادارة المدينة او الولاية . عندما نصاب بالمرض فاننا ندعو لمعالجتنا طبيباً اخصائياً حصل على شهادته ودرجته بعد اعداد ودراسة خاصة وكفاءة فنية ، ولا ندعو في هذه الحال اوسم طبيب ، او اكثر الاطباء فصاحة وزلاقة لسان ، وعندما تصاب الدولة كلها بالمرض ألا يجدر بنا ان نبحث عن خدمة وهدى أفضل الرجل فيها واحكمهم وأعقلهم؟ وان نعمل على ايجاد وسيلة لمنع عدم الكفاءة والمكر من الوصول الى المناصب العامة ، ونختار ونعد أفضل الرجال ليحكموا لمصلحة الجميع ، هذه هي مشكلة الفلسفة السياسية .

٦ - المشكلة النفسانية

ولكن وراء هذه المشاكل السياسية تكمن طبيعة الانسان . ولنفهم السياسة يجب علينا لسوء الحظ ان نفهم علم النفس . تختلف الحكومات باختلاف اخلاق الرجال . . وتتألف الدول من الطبائع البشرية في داخلها ، وتستمد الدولة شكلها من مواطنيها ، فهي صورة طبق الاصل لمن فيها ، ومرآة تعكس شكل سكانها ، لذلك يجب ان لا نتوقع ايجاد افضل دول حتى يكون لدينا مواطنون افضل ، حيث تذهب كل التغييرات عبثاً بغير تغيير ، يا لسحر الناس انهم دائماً يعالجون ، ويزيدون ، ويعقدون اضطرابهم واختلال النظام بينهم ، متوهمين انهم يمكنهم معالجته بدواء خفي من عقاقير مجهولة ، يشير عليهم بعضهم بتجربتها ، وبذلك لن تتحسن أحوالهم ابداً بل تسوء من سيء الى اسوأ ، انهم يحاولون وضع يدهم على التشريع متوهمين انهم بفضل الاصلاحات يمكنهم وضع حد لنذالة وسفالة وغدر العالم غير عالمين انهم في الحقيقة يقطعون رأس افعوان خرافي كلما قطعوا رأساً نبتت له رأس أخرى .

دعنا نخصص لبرهة وجيزة المادة الانسانية التي يفبغى على الفلسفة السياسية ان تتناولها بالبحث .

يقول افلاطون ان السلوك الانساني يجري من منابع ثلاثة رئيسية وهي الرغبة والعاطفة ، والمعرفة . ان الرغبة والشهوة والباعث امر واحد ، والعاطفة والروح والطموح والشجاعة امر واحد ، والمعرفة والفكر والذكاء والمقل أمر

واحد . ان الرغبة تجد مكانها في الاسود ، وهي خزان يتفجر حيوية وخصوصاً في الناحية الجنسية ، والعاطفة مكانها في القلب في قوة ومسرى الدم انها الدوي الأساسي للتجربة والرغبة . والمعرفة مكانها في الرأس وهي عين الرغبة وبصرها ويمكن ان تصبح مرشد الروح وهاديا . هذه الصفات والقوى موجودة كلها في كل الرجال ، ولكن في درجات مختلفة . فان بعض الرجال ليسوا سوى صورة مجسدة للرغبة ، بأرواح متمسكة بحبة للكسب ، منهمكة في المناقسه والنزاع المادي ، تحرقها شهوة الترف والبذخ والمظهر ، وتعتبر ارباحها ضئيلة بالمقارنة مع أهدافها المستمرة ، هؤلاء هم الرجال الذين يسودون ويحتكرون الصناعة ، ولكن هناك آخرون يملؤهم الشعور والشجاعة ، ولا يبالون كثيراً بمن يحاربون ، وكل مهم هو الحصول على النصر لذاته ، انهم يحبون المشاكسة لا الكسب ، ويفخرون في احراز السلطة لا في احراز المال والاملاك ، وفرحهم في ميدان المعركة وليس في السوق ، هؤلاء هم الرجال الذين يصنعون الجيوش والاساطيل الحربية في العالم . وأخيراً القلة من الرجال الذين يحدون بهجتهم في التفكير والتأمل والفهم ، والذين لا يتوقون الى المال ولا الى النصر ، ولكن الى المعرفة ، والذين يناون بوجوههم عن السوق والربح وميدان المعركة لينصرفوا في هدوء وصفاء الى الفكر والتأمل ، والذين تكون ارادتهم من نور وليس من نار ، هؤلاء هم رجال الحكمة ، الذين يقفون جانباً لا يعرف العالم كيف يستفيد منهم ، ولا يعرف قدرهم وقيمتهم .

والآن كما تدل أفعال الفرد الفعالة على ان الرغبة وان كانت تدفئها العاطفة فان المعرفة ترشدها ، فكذلك في الدولة المثالية فان القوى الصناعية تنتج ولكنها لا تحكم ، وتتولى المعرفة والعلم والفلسفة الحكم في البلاد . ان الشعب بغير هدى المعرفة ، جمهور بغير نظام . وهو بذلك كالرغبات بغير نظام أو القطيع بغير راع . ان الشعب يحتاج الى هدى الفلاسفة ، كما تحتاج الرغبات الى ضوء المعرفة ، والحراب يحل بالبلد عندما يصبح التاجر الذي يملؤ قلبه حب

الثروة حاكماً ، أو يستخدم القائد العسكري جيشه ويقيم حكومة عسكرية دكتاتورية ، ان افضس مكان لرجال الانتاج هو الميدان الاقتصادي . والمحارب أو العسكري يبرز ويلعب في الميدان والمعركة ؛ وكلاهما لا يصلح للمنصب السياسي والوظيفة العامة ، وتتحول ادارة الدولة في يدهم الخاصة الى سياسة ، لان ادارة الدول علم وفن ، وعلى الشخص ان يخصص العمر لهذا العلم والفن ، ويمد اعداداً طويلاً لهذا العلم والفن . ولا يصلح لهداية الشعب سوى ملك فيلسوف . سوف لا تنجو المدن والجنس البشري من الشرور والفساد والمرض ؛ الا اذا أصبح الفلاسفة ملوكاً أو الملوك فلاسفة ؛ واجتمعت الحكمة والزعامة السياسية في نفس الرجل . هذا هو حجر الاساس في قنطرة افكار افلاطون .

٧ - الحل النفساني

حسناً ما العمل إذن ؟

يجب ان نبدأ بإخراج جميع السكان في المدينة الى الارياف من الذين تزيد اعمارهم عن العشر سنوات ، ونضع يدنا على الاطفال ، الذين سنحميهم بعدئذ من عادات آبائهم . اذ لا نستطيع ان نقيم مدينة مثالية بأولاد صغار أفسدهم كبارهم ، يجب ان نبدأ بمد بلاط جديد ، قد يمدنا بعض الحكام المستنيرين بالمساعدة في تحقيق هذه البداية بمنحنا جزءاً من بلاده ، او مستعمرة تحت حكمه (وقد فعل احد الحكام ذلك كما سنرى على اية حال يجب ان نمنح كل طفل منذ بداية تعهده مساواة تامة في فرصة التعليم ، لا احد يعرف من اين يشتغل ضوء العبقرية حيث يجب ان نبحث عن ضوء العبقرية هذا في كل مكان وفي كل نوع وجنس . والمرحلة الاولى من طريقنا هي تميم التعليم في البلد .

وفي العشر سنوات الاولى من حياة الطفل ينبغي ان يكون التعليم معنياً في الدرجة الاولى بأجساد الاطفال ، حيث يقسام في كل مدرسة ملعب وساحة رياضية ، ويشغل اللعب والرياضة البدنية كل منهاج التعليم . حيث نقوي صحة الاطفال في العشر سنوات الاولى ، ولا يكون هناك حاجة الى العلاج . ان الحاجة الى الدواء والعلاج تنجم عن حياة الترف والراحة والكسل والاسترخاء التي تسبب انتفاخ البطن بالغازات وامراض الزكام والبرد . ان نظامنا الحالي في العلاج قد يسكن الامراض

ويقصيها الى ابعد مدة ممكنة ، ولكن لايشفيها ، وهذا ناجم عن حياة الغنى والكسل ، عندما يمرض النجار فانه يطلب من الطبيب دواء سريعاً وقوي المفعول ، من مقيء او مسهل او مطهر او كي او اجراء عملية . ولكن لو اخبره احد انه يجب ان يستمر في نظام طويل من الحمية ، او ان يعصب ويقط رأسه ، وغير ذلك من الامور ، يجيب فوراً انه ليس لديه وقت لهذا المرض لأن عمله لايسمح له بذلك ولأنه يعتمد في معيشتة على رزق يومه بيومه ، وانه لايرى لذة في حياة يمضيها في معالجة مرضه الذي يؤدي الى اهمال عمله ، وبذلك فانه يترك مثل هؤلاء الاطباء الى غير رجعة ويستأنف اكله العادي ، وبذلك اما ان تتحسن حالته ويعيش ويواصل عمله او تخونه صحته ويموت وينتهي امره . نحن لانقدر على اقامة شعب ومجتمع من المرضى والضعاف والممارضين .

ولكن مجرد الرياضة البدنية والتدريب الجسدي لا يكفي ، اذ يجعل من الشخص متطرفاً في الحشونة . كيف السبيل الى ايجاد طبيعة لطيفة وشجاعة كبيرة في وقت واحد ؟ - اذ يبدو ان هاتين الصفتين ، اعني الشجاعة واللطافة طبيعتان متضاربتان احدهما مع الأخرى ، وطبعاً فنحن لانريد شعباً من حملة الألقاب والمصارعين وفائزي الجوائز والمداليات من ابطال الرياضة - قد تحصل الموسيقى مشكلتنا هذه ، اذ تتعلم الروح عن طريق الموسيقى الايقاع والانسجام والتناسب ومحبة العدل . ولا يمكن لشخص تم بناءه بطريقة متوازنة ومتعادلة ان يكون ظالماً ؟ اليس كذلك يا جلاكون ، ما هو السبب في قوة التدريب الموسيقى ، السبب هو ان التناغم والانسجام الموسيقي يجدان طريقهما الى خفايا الروح ، ويحملان الجمال والجلال والحسن والكناسة في حركاتها ويجعلان الروح رشيقة ولطيفة وظريفة . ان الموسيقى تحلي الخلق وتشترك في تقرير القضايا الاجتماعية والسياسية ، لقد اخبرني دامون - وانا اعتقد تماماً بما يقول ، وهو انه عندما تتغير اساليب الموسيقى تتغير معها قوانين الدولة الاساسية .

قال دانيال اوكنيل « دعني اكتب اغاني الشعب ولا ابالي بمن يضع قوانينه »

ان الموسيقى ثمينة ونفيسه لا لأنها تحدث صفاء في الشعور والخلق ، ولكن لأنها تحفظ وتسترد الصحة . هناك بعض الأمراض التي لا يمكن معالجتها الا عن طريق العقل ، وهكذا عالج القسيس النساء المصابات بالهستيريا بآلة موسيقية هيجتهن ودفعتهن الى الرقص والرقص الى ان سقطن على الارض من شدة التعب ، واتجهن الى النوم ، وعندما استيقظن وجدن انفسهن في صحة جيدة ، وقد شفين من مرضهن حيث تمس هذه الوسائل وتهدي المنابع الغير واعية في العقل البشري ، حيث تلتف جذور العبقرية في هذه الاركان من السلوك والمشاعر . لا يصل رجل في حالة اليقظة الى الحقيقة او بصيرة النفس الملهمة ، ولكن عندما تكون قوة التفكير مقيدة ومكبلة في النوم او المرض او الجنون ، لذلك فان العبقرى اخ للمجنون . وهنا يمر افلاطون بتحليل نفساني رائع فيقول ، ان نفسيتنا السياسية محيرة ، لأننا لم ندرس دراسة وافية شهوات وغرائز الانسان ، ربما تقدم لنا الاحلام مفتاحا وحلا لهذه الميول والنزعات الخبيثة المراوغة ، من المعروف ان بعض المذات والغرائز المعينة محرمة ، ويبدو ان هذه المذات والغرائز موجودة في كل انسان ولكنها تم اخضاعها في بعض الاشخاص عن طريق القانون والعقل ، حيث سادت وسيطرت عليها رغبات افضل . وهي اما ان يكون قد تم اخضاعها تاما ، او تم تخفيض قوتها وعددها ، بينما تكون هذه الرغبات في بعض الاشخاص كثر وفرة وقوة . واعني بذلك على وجه الخصوص الرغبات التي تصحو وتستيقظ عندما تكون القوة العاقلة والمهذبة الحاكمة في الشخص في حالة نوم وغفوة . ان الوحش الشرير الكاسر في طبيعتنا النهمة للحم والشرب ينهض ويطوف عاريا متخوفا ، ولاترك مثل هذه الطبيعة سخافة او جريمة مها كانت غير طبيعية او نحلة بما في ذلك الفحشاء ومضاجعة المحارم او قتل الوالدين لا تقوم بارتكابها . ولكن عندما يكون نبض الانسان سليما ومعتدلا ويذهب الى النوم باردا ومعقولا بحيث يكون قد اشبع شهواته باعتدال لا افراط وبما فيه الكفاية ليدعها تنام ، فهو بذلك اقسل عرضة للاحلام الغير مشروعة

وتصوراتها . يكمن هذا الوحش الشرس الذي يصحو ويستيقظ اثناء نومنا فينا جميعنا بما في ذلك افضل الاشخاص منا .

ان ميزان الموسيقى يضيفي نعمة ولطفًا وصحة الى الروح والجسم ، ولكن مرة ثانية فان الافراط في الموسيقى خطير كلافراط في الرياضة ، فكما ان مجرد الاقتصار على الرياضة يحيل الانسان الى التوحش . فالأقتصار على الموسيقى يضعف الانسان ويُلَيِّئُه ويتجاوز نفعه ، ولا بد من دمج الرياضة والموسيقى معا ، وبعد سن السادسة عشرة يجب التخلي عن ممارسة الموسيقى ، ولكن يستمر الغناء الكنائسي والألعاب العامة مدى الحياة . لاتكون الموسيقى مجرد موسيقى فقط ويجب ان تستخدم في تقديم اشكال جذابة تمهيدا للعلوم لاثثير الرغبة احيانا في نفس التلاميذ كالتاريخ والعلوم والرياضيات ، اذ لا يوجد سبب يمنعنا من تسهيل هذه العلوم الصعبة وتنميتها . بوضعها في ابيات من الشعر وتجميلها بالأغاني ، وحتى في ذلك الوقت لا ينبغي فرض هذه العلوم على العقول التي لاتقبلها او تستسيغها ، لكي تسود حرية الروح ، يجب ان تقدم عناصر التعليم .. الى العقل في سن الطفولة ، ولكن بغير اكراه او ارغام ، لأن الرجل الحر ينبغي ان يكون حراً ، ايضاً في حصوله على المعرفة ، والمعرفة التي يتم الحصول عليها بالارغام لا تبقى في العقل . لذلك لا تستخدموا الارغام وارفقوا التعليم في المرحلة الأولى منه بنوع من التسلية ، وهذا يمكنكم بطريقة افضل في العثور على ميل الطفل ورغبته .

وينمو العقول بحرية كهذه ، وتقوية الاجسام بالرياضة والهواء الطلق والمنتزهات والاماكن الخلوية من كل نوع ، يتوفر لدولتنا المثالية قاعدة نفسانية وجسدية واسعة لدرجة تكفي لمواجهة كل امكانية وكل تطور وينبغي ايضاً تقديم قاعدة خلقية ، حيث يتم توحيد افراد المجتمع في وحدة ، وتعليمهم التضامن والاتحاد وانهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً وانهم مدينون لبعضهم بالتزامات وواجبات ونعم معينة ، والآن باعتبار ان الناس بالطبيعة يميلون الى الكسب والغيرة والمنافسة والنزاع

والشهوة كيف يمكننا اقناعهم بان يسلكوا سلوكاً لائقاً ؟

هل نتوصل الى ذلك بهراوات رجال الشرطة ؟ انها طريقة قاسية وحشية ومثيرة وتكلف الكثير ، هناك وسيلة افضل وهي ان يكون للمجتمع ايمان ودين .

ويعتقد افلاطون ان الشعب لا يمكن ان يكون قويا ما لم يؤمن بالله ، وهو اله حي يستطيع ان يحرك الخوف في القلوب التي استولت عليها الاثرة والانانية الفردية ويحملها على الاعتدال في نهمها وشرها وبعض السيطرة على عواطفها . وفوق ذلك اذا اضيف على الايمان بالله الايمان بوجود حياة ابدية في الآخرة . لأن الايمان بالحياة الأخرى يمدنا بالشجاعة في مواجهة الموت ، وتحمل موت احبائنا ، ويتضاعف تسلحنا اذا كنا نحارب بايمان ، على فرض استحالة اثبات هذا الايمان بالله او اليوم الآخر . وقد يكون الله بعد كل شيء المثال الذي شخصه حبنا واملنا ، وان الروح مثل موسيقى القيثارة تغني مع الالة التي ادتها شكلها . ومع ذلك فان هذا الايمان لا يضرنا وقد يكون خيراً كبيراً لنا ولاطفالنا لأننا اذا كنا سنشرح ونبرر كل شيء لعقولهم البسيطة ، سنواجه وقتاً صعباً عندما يبلغون العشرين من اعمارهم ، ويواجهون اول فحص لما درسوه طيلة هذه السنين من المساواة في التعليم ، هنا تبدأ عملية فرز وتنقية قاسية لارحة فيها بينهم ، او ما يمكن ان نطلق عليه عملية التصفية والغريزة الكبيرة بتقديمهم الى الامتحان ، بحيث لا يكون ذلك الامتحان مجرد امتحان علمي ، وسيكون امتحاناً عملياً ونظرياً ، بحيث يتعرضون الى عناء وتعب وآلام وصراع حيث يفسح المجال وتقدم الفرصة امام اصحاب المقدرة لظهار مقدرتهم ومواهبهم ، ويلقى الضوء على الكسالى الضعاف ويبت في امرهم ، اولئك الذين يخفقون ويفشلون في هذا الامتحان يجهون للاعمال الاقتصادية في البلد ويصبحون رجال اعمال وكتبة في الدوائر وعمالا في المصانع ومزارعين ، ويكون الامتحان عادلاً ومجرداً عن المحاباة ، ولا يتم تقرير مصير الشخص ليصبح مزارعاً او فيلسوفاً عن طريق المحسوبية او احتسكار الفرص لانه سيراعى في هذا الاختيار

ان يكون ديمقراطيا اكثر من الديمقراطية .

وأولئك الذين ينجحون في هذا الفحص الاول يتلقون عشر سنوات اخرى من التعليم والتدريب الجسدي والعقلي والخلقي ، وبعدئذ يواجهون امتحانا آخر اشد صعوبة من الاول ، وأولئك الذين يفشلون في هذا الامتحان الثاني يصبحون مساعدين او مساعدين تنفيذيين او ضباطا عسكريين في الدولة وهنا في هذه التصفية والفرز اثناء الامتحان نحتاج الى استخدام كل وسائل الاقناع ، لاقناع الذين سقطوا في الامتحان على قبول مصيرهم بسلام وروح طيبة ، اذ ما الذي يمنع تلك الاكثية الكبيرة التي سقطت في الامتحان الثاني ، من حمل السلاح وتحطيم الدولة المثالية وجعلها اثرا بعد عين ؟ وما الذي يمنعها من اقامة عالم يتولى فيه الحكم مرة ثانية مجرد القوة او العدد ، وتعيد الرواية الهزلية للديمقراطية المزورة نفسها مرة ثانية . في هذه الحالة يكون الدين والايمان هو الحل الوحيد لذلك : حيث نخبر هؤلاء الشباب الصغار ان الاقسام التي سقطوا فيها ، هي من صنع الله قسمها لهم ، وفرضها عليهم ، وهي قطعة وباتة ولا مرد لها ، ونقص عليهم قصة المعادن ونعلمها لهم . ايها المواطنين انكم اخوة ، ومع ذلك فقد خلقكم الله مختلفين . وبعضكم تتوفر فيه مقدرة الزعامة وهؤلاء خلقهم الله من الذهب ، وهؤلاء يتوجههم اعظم الشرف والبعض خلقهم من الفضة ليقوموا باعمال المساعدين ، والبقية خلقهم من النحاس والحديد ، وهم الفلاحون والمزارعون والعمال . وبما انكم من نفس العائلة الاصلية فان الابوين الذهبيين قد ينجبان ولداً من فضة والابوين الفضييين قد ينجبان احيانا ولدا ذهبيا ويقول الله . . . اذا كان ابن الوالدين الذهبيين او الفضييين يجمع في نفسه مزيجاً من الحديد والنحاس ، فان الطبيعة تقتضي تحويل المراتب ويجب ان لا ينظر الحاكم الذهبي بعين العطف على ولده لأن مرتبته قد انخفضت واصبح فلاحا او صانعا ، تماما كما يقفز آخرون من طبقة العمال الى طبقة الحكام والمساعدين . لأن الله يقول عندما يقوم الرجال المصنوعون من النحاس والحديد على حماية الدولة وحراستها فان مصير هذه الدولة سيكون الدمار .

ربما نستطيع ان نؤمن بمثل هذه الاسطورة الملكية موافقة جيل لتعضيد هطتنا ، ولكن الآن ما هو مصير البقية السعيدة التي نجحت في جميع مراحل هذا الاختيار المتعاقب ؟

سنقوم بتعليمهم الفلسفة ، لقد بلغوا الان سن الثلاثين ، وليس من الحكمة ان ندعهم يتذوقون لذة الفلسفة العزيزة في سن مبكرة ، لأن صغار الرجال عندما يبدأون في تذوق طعم الفلسفة في افواههم ، يناقشون ويتحدثون للتسلية ، وفي الأغلب يعارضون ويدحضون ... كالكلاب الصغيرة التي تفرح وتسرع في خطف وتمزيق وسحب من يقتربون منها . هذه الفلسفة العزيزة السارة تعني شيئين ، اول ان تفكر بوضوح وشفاء وهي الميتافيزيقا او « البحث عن الحقيقة النهائية الاساسية » وان نحكم بحكمة وهي السياسة . لذلك يجب ان يتعلم صفوة شبابنا التفكير بوضوح . ومن اجل هذا الغرض يجب ان يدرسوا مبدأ المثل ولكن مبدأ المثل هذا جعلته شاعرية افلاطون وخياله موضوعاً مزخرفاً ومديحاً غامضاً ، ويحدث حيرة وارتباكاً للتميذ الجديد مشبهاً للهمة ، وقد يكون امتحاناً صعباً لهؤلاء الذين نجحوا في جميع الامتحانات الصعبة السابقة . قد تكون فكرة الشيء « فكرة عامة » للطبقة التي ينتمي اليها (ان الفكرة عن جون أودك أو هاري هي انه انسان) او قد تكون القانون او القوانين التي تسير الاشياء وتعمل وفقاً لها . او قد تكون الهدف التام والمثال الذي يتطور اليه الشيء ونوعه ، ومن المحتمل ان تكون جميع هذه الامور وهي الفكرة او الصورة الذهنية ، والقانون والمثل الاعلى . وراء سطح الظواهر والخصائص التي تواجه حواسنا ، يوجد تعميمات وقواعد ، واتجاهات من التطور لاتدرسه حواسنا ولكن يمكن ادراكها بالعقل والفكر . هذه الافكار والقوانين والصور العقلية اكثر ابدية وبذلك فهي اكثر حقيقة من الاشياء الخاصة التي تدرسه الحواس التي نتصورها عن طريقها ونستخرجها . ان الانسان اكثر بقاء وخلوداً من جون وتوم أو هاري ، ان هذه الدائرة تتشكل بحركة قلبي

ولكنها تزول عندما انحورها بالمحاة ، ولكن فكرة او صورة الدائرة الحقيقية تستمر موجودة الى الابد . هذه الشجرة تبقى وتسقط ولكن القوانين السقي تقرر اي الاجسام تسقط ، وحق ، وكيف ، ليست لها بداية ، وهي موجودة الان وستبقى بلا نهاية . هناك كما يقول الفيلسوف سبينوزا . عالم من الاشياء تدركه الحواس ، وعالم من القوانين نستنتج ونستدل عليه بالفكر ، نحن لانرى قانون عكس المربعات ولكنه موجود هناك وفي كل مكان ، وكان موجودا قبل بدء الاشياء ، وسيدقى حتى بعد انتهاء عالم الاشياء . امامنا جسر ، ان العين تدرك وترى خليطا من الاسمنت والرمل والحديد لمئة مليون طن ، ولكن المهندس يرى بعين العقل الجرأة والتنظيم الدقيق لجميع هذه المواد بالنسبة الى القوانين الميكانيكية والهندسية والحسابية ، هذه القوانين التي يقوم عليها تركيب وصناعة جميع الجسور القوية . فاذا انتهكت حرمة اخترقت هذه القوانين فان الجسر ينهار ويتساقط في مياه النهر الذي يقوم عليه هذا الجسر . ان القوانين هي الله الذي يمسك الجسر بيديه . لقد اشار ارسطو الى هذا القبيل عندما قال ان افلاطون يعني بالمثل ما قصده فيثاغورس بالاعداد والارقام عندما ذكر ان هذا العالم عالم اعداد (وقد كان يعني على ما يحتمل ان هذا العالم يحكمه قانون ونظام رياضي) ويخبرنا بلوتارك ان الله بالنسبة الى افلاطون دائما يهندس او كما وضع سبينوزا نفس الفكرة عندما قال ان الله وقوانين البناء والعمل امر واحد وحقيقة واحدة والرياضيات بالنسبة الى افلاطون كما هي بالنسبة الى برتراند رسل الفيلسوف البريطاني فاتحة ضرورية ولازمة للفلسفة ، وهي اعلى شكل لها ، وقد وضع افلاطون فوق الاكاديمية هذه الكلمات : « لا تدع رجلا جاهلا بالرياضيات يدخل الى هنا » .

بغير هذه الافكار ، هذه التعميمات والانظمة والقوانين يبدو لنا العالم كما يبدو في عين الطفل لأول مرة تنفتح فيها عيناه . كتلة من المشاعر المشوشة عديمة المعنى ، لأن الاشياء تأخذ معنى لها بعد ترتيبها وتنظيمها وتعميمها ، وايجاد

القوانين التي اوجدتها ، واهداف ، واغراض نشاطها والعالم بغير هذه الافكار والقوانين يكون ككومة من عناوين الكتب سقطت مصادفة من الفهرس بالمقارنة مع نفس هذه العناوين فيما اذا كانت مرتبة وفقا لاصنافها وانواعها واغراضها . سيكون العالم كالظلال في كهف بالمقارنة مع الحقائق في ضوء الشمس التي تلقي بهذه الظلال او الخيال في صورة اشباح وهمية داخل الكهف . لذلك فان جوهر كل تعليم هو البحث عن هذه الافكار والقوانين ، لان التعاميم والافكار والقوانين وصور التطور تقع وراء اشياء ينبغي ان نكتشف علاقتها ومعناها ومنوالها وقانون عملها ، والعمل او الهدف الذي تعمل له وتحجبه ، ويجب تنظيم وتنسيق تجارب حواسنا في شكل قانون وغرض ، وبتقص هذا فقط يختلف عقل المعتوه عن عقل قيصر .

حسناً وبعد خمس سنوات من التدريب في مبدأ المثل العويصة الغامضة ، هذا الفن في تصور اشكال هامة وامكانيات مثالية وسط اضطراب ومخاطرة الاحساس ، بعد خمس سنوات من التدريب على تطبيق هذا المبدأ على سلوك الانسان وسير الدول ، بعد هذا الاعداد الطويل من سن الطفولة والشباب حتى بلوغ سن النضوج في الخامسة والثلاثين ، يصبح الآن هؤلاء الرجال المتصفين بالكمال على استعداد للقيام باعظم اعمال الحياة العامة ؟ وقد صدوا اخيرا الى مرتبة الفيلسوف الذي سيتولى الحكم ويحرر الجنس البشري ؟

ولكن يا للأسف لم يتم اعدادهم بعد . وتعليمهم لازال ناقصا لم ينته بعد ، اذ انه بعد كل هذا التعليم والتدوين والفرز الطويل في التعليم النظري ، تستدعي الضرورة اضافة شيء آخر على تعليمهم النظري ، او بعبارة اوضح ترك حملة شهادة الدكتوراه في الفلسفة ينزلون الان من اعلى قمة الفلسفة الى كهف عالم الناس والاشياء ، اذ لا قيمة للتعاميم المجردة اذا لم نغم بتجربتها في هذا العالم المتناسك ، ولنترك طلابنا يدخلون ذلك العالم بدون رحمة او شفقة او تفضيل ، ليتنافسوا مع رجال الاعمال من ذوي الرؤوس الفردية اليابسة ،

ومع رجال النحاس والحديد الدهاة ، وفي هذا السوق من المنافسة سيتعلمون من كتاب الحياة نفسها ، ويؤذون اصابعهم ، ويحكون ذقونهم الفلسفية امام حقائق العالم القاسية . وسيقومون بكسب خبزهم وزبدتهم بعرق جباههم وهذا الامتحان الاشد قسوة سيستمر دون رحمة او شفقة مدة خمسة عشر عاما اخرى وسينهار بعض انتاجنا الكامل هذا تحت وطأة هذا الضغط القاسي ، وتفمرهم موجة الفرز والتصفية العائية الاخيرة . واولئك الذين ينجون وقد بلغوا سن الخمسين وامتازوا بالرشد والاعتماد على النفس بعد ان جردتهم قسوة الحياة من الزهو والخيلاء ، وقد تسلحوا الان بكل الحكمة التي قدمتها لهم التجارب والتقاليد والحضارة والثقافة ، يصبح هؤلاء بطريقتهم آلية حكام الدولة .

٨ - الحل السياسي

ان الديمقراطية آلياً - بغير نفاق التصويت والانتخاب . تعني مساواة تامة في الفرص ، امام الجميع ، خصوصاً في التعليم ، ولا تعني تناوب نوم او هاري او جورج للمنصب العام . وسيكون لكل واحد فرصة متساوية ليعد نفسه للمهات الحكومية المعقدة . ولكن اولئك الذين اثبتوا افضليتهم وصلابة معدنهم ونجحوا في جميع الامتحانات بوسامات البراعة يحق لهم ان يحكموا البلاد ، بحيث يتم اختيار موظفي الدولة الكبار لا على اساس التصويت والانتخابات ، ولا على اساس الاحزاب التي تسحب الاسلاك الخفية في التظاهر بالديمقراطية ، ولكن باختيارهم على اساس مقدرتهم التي ثبتت في الديمقراطية الاساسية لمجلس تسود المساواة بين افراده ، كما لا يجب ان يشغل اي رجل منصبا من غير ان يكون معدا او مدربا تدريباً خاصاً ، او يشغل منصبا كبيرا كبيرا قبل ان يكون قد شغل منصبا اصغر واثبت جدارته .

هل هذه ارستقراطية ؟ حسنا ، يجب ان لا نخشى القول اذا كانت الحقيقة التي تشير اليها حسنة . نريد ان يحكمنا افضل الرجال الذين تعينهم كلمة ارستقراطية . السنا نتوق ونتلهف لان يحكمنا افضل الرجال ؟ ولكننا اعتدنا ان نفكر بان حكم الارستقراطية هو الحكم الوراثي دعنا نلاحظ بعناية ان هذه الارستقراطية الافلاطونية ليست من هذا النوع الوراثي وهي ارستقراطية

حري بالمرء ان يسميها ارستقراطية ديمقراطية لان الشعب بدلا من ان ينتخب بطريقة عمياء اقل الشرين من المرشحين الذين تقدمهم الاحزاب السياسية بطريقة التعيين او الترشيح ، يكون كل واحد من الشعب مرشحا في ارستقراطية ويتلقى فرصة متساوية في التعليم . وهو تعليم يؤهله بطريق الانتخاب الطبيعي الى المركز او المنصب . لا يوجد نظام طبقي هنا في ارستقراطية افلاطون الديمقراطية ، ولا وراثة للمناصب او المميزات ، او عقبات امام المواهب بسبب فقر التلاميذ وعدم مقدرتهم على مواصلة دراستهم . حيث يبدأ ابن الحاكم دراسته على قدم المساواة والمعاملة مع ابن ماسح الاحذية وغاسل الصحون ، فإذا كان ابن الحاكم غيبا فانه يسقط في دراسته في الامتحانات الاول و اذا اثبت ابن ماسح الاحذية او غاسل الصحون مقدرة ، فان الطريق مفتوح امامه ليصبح حاكما في الدولة . وتكون الوظائف مفتوحة امام المواهب اينما وجدت وولدت . هذه هي ديمقراطية المدارس والتعليم وهي اشرف مئة مرة ، واكثر تأثيرا من ديمقراطية صناديق الانتخابات .

وهكذا يعتمد حراس الدولة وحكامها عن كل عمل ويهبون انفسهم تماما الى المحافظة على حرية الدولة . واقفين انفسهم على هذا العمل . ولا يشغلون انفسهم باي عمل يتنافى مع هذا الهدف والغاية . وتتألف منهم الهيئة التنفيذية والتشريعية والقضائية وحق القوانين لاتربطهم بعقيدة في وجه تغير الظروف وسيكون حكمهم حكما قائما على الذكاء والحكمة المرنة التي لاتربطها قوانين او دساتير او سوابق .

ولكن كيف يكون لهؤلاء الحكام في سن الخمسين العقل المرن ؟ الانحشي ان يؤثر العمل الرتيب (الروتين) على مرونة عقولهم ويحذفها ؟ لقد اعترض اديمانتوس (الذي اظهر شككا في ذلك في إحدى المناقشات التي جرت في بيت افلاطون) وقال ان الفلاسفة هؤلاء اما ان يكونوا مغفلين او نخادعين . ويحكمون البلاد حكما سخيفا او انايبا او الاثنين معا . ان هؤلاء الذين نذروا

حياتهم واوقفوها للفلسفة . والذين واصلوا الدراسة لا في سن الشباب فقط ولكن في سنوات نضجهم ايضا . انهم ينشأون في حياة غريبة جدا والنتيجة ان يقل انتفاع العالم بهم بسبب طول انقطاعهم الى الدراسة التي تمجدها وتطري عليها .

قد ينطبق هذا الوصف بحق على بعض الفلاسفة الحديثين . ولكن افلاطون اجاب بانه اتخذ الحيلة امام هذه المصاعب بان قدم لفلاسفته تدريب الحياة بالاضافة الى تعليم المدارس . وانهم سيكونون في النهاية رجال عمل لا رجال فكر فقط . رجالا اعدوا الى اهداف عظيمة وطبع نبيل . وتعرضوا الى تجربة طويلة وخبرة . ان افلاطون يعني بالفلسفة تثقيفا فعالا وحكمة مزوجة باعمال الحياة ولا يعني بها خيالا ميتافيزيقيا مغلقا او محبوسا غير عملي .

وهكذا بالنسبة الى العجز وعدم المقدرة او الاحتيال والغش نقوم بحمايتهم وتحصينهم باقامة نظام شيوعي بين حكام الدولة وحمايتها .

فلا يقتنون املاكا وراء الضرري جدا ولا يملكون بيوتا خاصة بهم ذات قضبان حديدية ومزاليج مغلقة في وجه من يفكر في دخولها . وتقدم لهم اقواتهم بما فيه الكفاية فقط بالنسبة الى محاربين ومدربين ذوي شجاعة واعتدال ووافقون على ان يتلقوا من بقية المواطنين دفعة محدودة تكفي لمواجهة نفقاتهم ومصاريفهم طيلة السنة فقط وليس اكثر . وستناولون الطعام في وجبات مشتركة ، ويعيشون عيشة مشتركة مع بعضهم كالجند في معسكر . وسنخبرهم انهم سيتلقون الذهب والفضة من الله . وان المعدن الاكثر قداسة موجود فيهم وبذلك فهم ليسوا في حاجة الى ذلك المعدن الارضي الذي يتداوله الناس باسم الذهب وان لا يدنسوا الالهة المقدس بذلك الخليط الارضي لان هذا الذهب اصبح مصدر اعمال كثيرة غير مقدسة . ولكن الذهب الموجود في نفوسهم والذي اختاره الله لهم لا يتدنس او يتلوث . وانهم وحدهم من بين جميع المواطنين ينبغي ان لا يمسا او يتعاملوا بالذهب او الفضة او يتخذوه حلية لهم

او يلبسوه او يقتنوه او يشربون في آنية مصنوعة من الذهب او الفضة . ففي هذا خلاصهم ونجاتهم ونجاة الدولة . ولكنهم لو امتلكوا البيوت او الاراضى او اموال خاصة بهم ، فانهم بذلك يتحولون الى مدبري منازل ومزارعين وليس حراسا للدولة وحكامها . ويصبحون اعداء وطغاة بدلما ان يكونوا حلفاء مع بقية المواطنين فيصبحون ، كارهين ومكروهين ، متأمرين ومعرضين لتآمر عليهم ، ويتعرضون في حياتهم الى رعب وارهاب اعدائهم في الداخل اكثر من اعدائهم في الخارج ، وتكون ساعة الدمار لهم وللدولة اقرب اليهم من ايديهم .

هذه التنظيمات ستجعل حماة الدولة وحكامها لا يقوون على الاستفادة المادية واستغلال مناصبهم في جمع الثروة والمال والكسب المادي . وتجعل من الخطر عليهم استغلال مناصبهم في تفضيل وتقديم مصلحة طبقتهم واينارها على مصالح الشعب كما تفعل الاحزاب السياسية اليوم ، كما سيحميمهم هذا النظام من الحاجة في اعتدال ونبل ، حيث تقدم لهم فقط الضروريات اللازمة لمعيشتهم كل سنة ، وبهذا نبعدهم عن الحاجة ومخاوف الحياة والفقر . ولكن في الوقت ذاته ستحول هذه التنظيمات بينهم وبين طموح الجشع ، وشراهة المال ، والبخل والخساسة والدناءة . بحيث يقدم لهم دائما ما يلزمهم للمعيشة وضروريات الحياة ليس الا . وسياكلون سوية كما يفعل الكهنة في الاديرة ، وينامون سوية في معسكر واحد كالجنود في بساطة ، اذ يجب على الاصدقاء الاشتراك في كل شيء كما كان يقول فيثاغورس . وبذلك نكون قد عممنا سلطتهم وازلنا السم منها . وسيكون الشرف وخدمة الشعب ، هو المكافأة الوحيدة لهم . وسيكونون رجالا اعدوا بقصد منذ البداية على الرضى والموافقة على هذه الوظائف ذات الموارد المادية المحدودة . وتعلموا في النهاية بفضل اعدادهم وتدريبهم الشديد الطويل تقدير قيمة وسمعة الحاكم الاداري وتقديمها على ارباح ومرتبات رجال السياسة الباحثين على المناصب والكراسي ، التي تدر عليهم الارباح الطائلة الوفيرة .

وبقدوم هؤلاء الفلاسفة الذين هيأهم افلاطون لحكم الدولة وحماتها ينتهي الصراع والمنافسة بين الاحزاب السياسية الذي تعاني منه الكثير من الدول في يومنا هذا .

ولكن ما هو موقف زوجات هؤلاء الفلاسفة منهم ؟ هل سيقنعن بالابتعاد عن ترف الحياة وبذخها ، وزخارفها ومتعها وزينتها ؟ سوف لا يكون لهؤلاء الحماية والحكام والولاة زوجات . وستكون شيوعتهم خالية من الزوجات كما هي خالية من المتاع . بحيث لا تحرر نفوسهم من اثره النفس فحسب ، بل ومن اثره العائلة ايضا . وتكون حياتهم خالية من قلق ومتاعب الكسب التي تنخص الزوج ، فلا تكون حياتهم للزوجات بل للشعب باسره . وحتى اطفالهم لن يكونوا لهم على وجه التعيين والتخصيص ، حيث يؤخذ اطفالهم من امهاتهم ، عند ولادتهم لتربيتهم تربية مشتركة بعيدة عن العائلة . وبذلك تضيع ابويتهم . ستعنى جميع الامهات الحارسات باطفال الحماية والحكام . وتتطور اخوة الانسان في داخل هذه الحدود تدريجيا من الاسم للحقيقة وكل ولد يصبح اخا للولد الاخر وكل بنت تصبح اختا للبنت الاخرى وكل امرأة تصبح اما للجميع .

ولكن من اين تجيء هذه النساء ؟ بعضهن بلا شك ، يطلب يدهن الحماية من نساء الطبقة العسكرية او الصناعية وبعضهن يكن قد اصبحن من طبقة الحماية والحكام نفسها بفضل جهودهن وحققن . اذ لا يمنع افلاطون حق النساء في الوصول الى اعلى مراتب الدولة اذا نجحن في جميع الامتحانات والمطالب الشاقة التي يتطلبها الوصول الى هذه الطبقة الحاكمة ولا يفرق بين المرأة والرجل ومساواتها معه في التعليم . حيث تقدم امام البنات نفس الفرص التي تقدم للاولاد . وتكون امامها نفس فرصة الولد في النهوض الى اعلى المراتب في الدولة وعندما اعترض جلاكون على ذلك بقوله ان انتساب المرأة في احدى المناصب على الرغم من انها اجتازت الفحوص والامتحانات يتنافى مع مبدأ

توزيع العمل ، على اساس انصراف المرأة للبيت والرجل للعمل ، تلقى من افلاطون جوابا حادا بقوله ان تقسيم العمل يجب ان يكون قائما على المقدرة والاهلية والكفاءة ، لا على الجنس . واذا اثبتت المرأة مقدرتها على الادارة السياسية ، دعها تحكم . واذا اثبت الرجل نفسه قادرا على غسل الصحون ، دعه يقوم بالعمل الذي اعدته العناية الالهية له .

غير ان الشركة في الزوجات لاتعني التزويج والتوليف بغير تمييز . اذ سيقوم اشراف دقيق على جميع انواع التناسل وتحسينه ، وهنا بدأت مناقشة تربية الحيوانات لأول مرة . فاذا كنا نحصل على مثل هذه النتائج الحسنة في تربية وتوليد الماشية التي اختيرت لجودة نوعها ، وفي التوليد من افضل هذه الماشية في كل وقت ، لماذا لانطبق مثل هذا التناسل على البشر ! لأنه لا يكفي تعليم الطفل تعليماً حسناً ، وينبغي توليده توليداً حسناً ، من ابوين قويين صحيحين ، يجب ان يبدأ التعليم قبل الولادة . فلا يتناسل رجل وامرأة ما لم يكونا في صحة جيدة . ويطلب من كل عريس وعروس تقديم شهادة تثبت صحتها . فينجب الرجال بعد سن الثلاثين فقط ، ودون سن الخامسة والاربعين ويدفع الرجال الذين بلغوا سن الخامسة والثلاثين ولم يتزوجوا ضريبة الهناء ، والنسل الذي يلد بغير تصريح او اذن في التناسل ، او مصاب بعاقة ، او مشوه الخلق ، يكشف عليه ويترك ليموت . وقبل وبعد السن المخصصة للتناسل يباح الاتصال الجسدي ، ويكون حراً ، شريطة اسقاط الجنين واجهاضه . نحن نمنح هذا الاذن مقرونا باوامر شديدة على النساء والرجال بان يبذلوا كل جهودهم وقوتهم في ان لا يرى جنين ضوء الشمس في مثل هذه الحالة . وان يفهموا ان هذا التناسل لا نقره وان ينظموا امورهم وفقاً لذلك . ان تزواج الاقارب محظور لأنه يضعف النسل . ويتزوج افضل الرجال مع افضل النساء كثيراً بقدر

الامكان . وضعاف الرجال مع ضعاف النساء . وان تشرف النساء على تربية نسل واحد دون الآخر ، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة في حفظ الجماعة في افضل الشروط ... ويباح لاشجع شبابنا وافضلهم بالاضافة الى القاب الشرف والجوائز الاتصال بعدد اكثر من النساء . لان مثل هؤلاء الآباء ينبغي ان ينجبوا اكثر عدد ممكن من الاولاد .

والا نقتصر في حماية مجتمعا نذي النسل الحسن من الامراض والفساد في الداخل فحسب ولكن ضد الاعداء من الخارج ، بأن يكون مستعدا اذا استدعت الضرورة لشن حرب ناجحة . ان مجتمعا النموذجي سيكون طبعا مجتمعا مسالما ، لانه سيحدد عدد السكان ضمن حدود موارد البلاد وامكانياتها . ولكن الدول المجاورة التي لم تنظم نفسها مثل نظامنا تنظر الى الرخاء المنظم في دولتنا المثالية ، ويدفعها هذا الرخاء الى غزونا ونهبنا . لذلك ، مع اننا نأسف لاتخاذ هذا الاجراء الذي تستدعيه الضرورة للدفاع عن دولتنا ، يجب ان نجد من طبقتنا المتوسطة عددا كافيا من الجنود المدربين تدريباً حسناً ، ويعيشون عيشة خشنة وبسيطة مثل حماتنا وحكامنا ، على موارد بسيطة يسيرة ذكرناها يقدمها لهم الشعب . وفي الوقت ذاته ينبغي التحساذ كل حرص ممكن لتجنب الحرب . والسبب الاول الذي يجب ان نتجنبه هو الزيادة في السكان ، والثاني التجارة الخارجية وما يترتب عليها من نزاع لامفر منه ، لان المنافسة التجارية في الواقع نوع من انواع الحرب ، والسلام في هذه الحالة اسم فقط . لذلك من الافضل اقامة دولتنا المثالية في الداخل لا على الساحل . وذلك للابتعاد به ، واغلاق ابوابها امام اي تطور كبير في التجارة الخارجية ، لأن البحر يغمر البلاد بالتجار والمرابين والساعين لجمع المال والبضائع والمساومة . وينمي في عقول الرجال الشره والنهم المالي وعدم الاخلاص ، في علاقاتهم الداخلية والخارجية

على السواء . كما تستدعي التجارة الخارجية بناء اسطول حربي كبير لمحايتها والدفاع عنها ، والبحرية الحربية لاتقل سوءاً عن العسكرية الحربية . وفي الحالتين يكون المسؤول عن جريمة الحرب فئة قليلة من الناس ، بينما يكون معظم الشعب مسالماً . ان اكثر الحروب وقوعاً على وجه التدقيق واكثرها خسة وحقارة هي الحرب الاهلية التي يحارب فيها اليونانيون بعضهم . فليؤلفوا فيما بينهم عصبة الامم الهيلينية العامة ، ويتحدوا لئلا يقهوا جميعاً في يوم من الايام تحت استعمار الشعوب . وهكذا فان بناءنا السياسي تعلوه طبقة صغيرة مسن الولاة والحكام ، وتحميه طبقة كبيرة من الجنود « والمساعدين » ويقوم على القاعدة الواسعة من الشعب وهي طبقة التجار والعمال والفلاحين . ان هذه الطبقة الاخيرة من الشعب تحتفظ بالملكية الفردية ، او بعبارة اوضح يحق لهما اقتناء الاملاك الخاصة والزوجات الخاصة والمائلات والاسر الخاصة . ولكن يقوم الحكام بتنظيم التجارة والصناعة لمنع الافراط في الثروة والفقر . وكل شخص يملك اكثر من اربعة اضعاف الحد المتوسط لما يملكه المواطنون يجب ان يترك هذه الزيادة الى الدولة ، وقد نعمل على منع الفسادة على الاموال (الربا) وتحديد الارباح . ان شيوعية الحكام لن تكون عملية بالنسبة الى الطبقة الاقتصادية في الشعب ، لان الصفات المميزة لهذه الطبقة هي غريزتها القوية الى الكسب والربح والاقتناء والمنافسة . قد يوجد بين افراد هذه الطبقة الاقتصادية بعض النفوس النسيطة الحرة من حمى الصراع على الامتلاك ، ولكن اكثرية افراد هذه الطبقة تملكهم رغبة التملك والاقتناء ، وليست بهم رغبة قوية في بلوغ التقوى والصلاح والشرف ، ولكن لمضاعفة التملك والكسب والاقتناء بلا نهاية . ان الذين يشغلهم جمع المال والسعي وراء الثروة لا يصلحون لحكم الدولة . وكل خطتنا تقوم على امل انه لو قام الحكام بالحكم جيداً ، وعاشوا ببساطة كما ذكرنا ، فسيقوم رجال الاقتصاد

طوعا بتركهم يمتكرون الحكم وادارة البلاد ، اذا سمحوا لهم باحتكار الرخاء
والثروة . وبالاختصار فان المجتمع المثالي الكامل هو الذي تعمل كل طبقة وكل
وحدة فيه العمل الذي يتناسب مع طبيعتها وينسجم مع اهليتها وصلاحيتها
ومقدرتها . حيث لا تتدخل طبقة بامور الاخرى ، او فرد باعمال الآخر ،
ولكن يعمل الجميع في تعاون لانتاج عام فعال ومنسجم ، لاشك ان مثل
هذه الدولة ستكون دولة عادلة .

★ ★ ★

٩ - الحل الاخلاقي

والآن فقد انتهى انحرافنا السياسي . ونحن الآن على استعداد للاجابة على السؤال الذي بدأنا به ، ما هي العدالة ؟ يوجد في هذا العالم ثلاثة اشياء جديرة بالاهتمام وهي العدالة والجمال والحقيقة ، وقد يكون من المتعذر تعريف اي واحد منها ، لقد تساءل حاكم روماني في فلسطين بعد اربعمئة سنة من افلاطون عن الحقيقة ؟ ولم يجب الفلاسفة كما لم يخبرونا ما هو الجمال . ولكن افلاطون خاطر ووضع تعريفاً للعدالة فهو يقول ان العدالة هي ان يملك الشخص ويفعل ما هو ملكه .

ان سماع هذا التعريف مثبتط للهمة ، ونحيب للأمل ، فقد توقعنا بعد هذا الانتظار الطويل ان نسمع منه وحياً منزهاً عن الخطأ . ماذا يعني بهذا التعريف ؟ انه يعني ببساطة ان كل انسان يجب ان يتلقى ما يساوي انتاجه ، وانت يؤدي العمل الذي يتناسب مع طبيعته ومقدرته . فالانسان العادل هو الانسان الذي وضع في مكانه الحق . باذلاً جهده ومقدماً تماماً ما يساوي ما يتلقاه . وبذلك فان المجتمع الذي يتألف من الرجال العدول سيكون مجتمعاً عظيم الانسجام والفعالية . حيث يكون كل عنصر فيه موضوعاً في مكانه ، قائماً بانجاز اعماله المناسبة له كآلات الفرقة الموسيقية الكاملة ، حيث تكون العدالة في المجتمع اشبه شيء بانسجام العلاقات التي تجمع الكواكب في حركتها المنتظمة . او في حركتها الموسيقية كما

يقول فيثاغورس . ان مجتمعا منظما يمثل هذا النظام يكون صالحا لبقاء .
وعندما يخرج الناس من اماكنهم الطبيعية ، وعندما يحط رجل الاعمال من
قيمة رجل الدولة ، وعندما يغتصب الجندي مكان الفيلسوف يفسد
التنسيق بين الاجزاء وتفسد المفاصل ، ويفسد المجتمع وينحل . وعلى هذا
فالعدالة تنسيق فعال . والعدالة في الفرد ايضا تنسيق وترتيب فعال . وعمل
العناصر المنسجمة في الانسان ان يكون كل عنصر في مكانه ، وكل عنصر يؤدي
دوره المرتب في السلوك في كل فرد نظام او اضطراب من الرغبات ، والعواطف
والافكار ، دع هذه تعمل بانسجام . وبذلك يعيش الفرد وينجح . ودعها
تترك مكانها وعملها المعين حيث تحاول العاطفة توجيه العمل ، وتزويده بالضوء
والحرارة (كما في المتعصب) اودع الفكر يوجه العمل ويمده بالضوء والحرارة
(كما في العاقل) هنا يبدأ انحلال الشخصية ، ويقترب الفشل . ان العدالة نظام
وجمال اجزاء الروح ، وهي للروح كالصحة للجسم . ان جميع الشرور
ناجمة عن عدم الانسجام بين الانسان والطبيعة ، او بين الانسان والناس ،
او بين الانسان ونفسه .

وهكذا يجيب افلاطون على السفسطائي ثراسيماخوس وعلى كاليبس ،
وعلى جميع اتباع نيتشه جوابا ابديا بقوله ، ان العدالة ليست مجرد القوة
ولكنها انسجام القوة والرغبات . والعدالة ليست حق الاقوى ، ولكنها
الانسجام الفعال للكل . حقا ان الفرد الذي يخرج من مكانه الذي اعدته له
طبيعته ومواهبه قد يجني بعض الفوائد والمنافع حيناً من الوقت ، ولكن
الانتقام الالهي يتبعه ويلاحقه كما ذكر اناكساجوراس ان فوريس (آلهة
الانتقام عند اليونان) تتبع كل كوكب يبتعد عن مداره . ان عصا الطبيعة
الخفيفة تعيد الآلة الموسيقية المجرحة الى مكانها والى مقام
نغمتها . قد يحاول اليوزباشي الكورسيكي (نابليون) حكم اوروبا بطغيان

يتناسب مع دولة ملكية مطلقة قديمة اكثر من تناسبه مع دولة ولدت في يوم
وليلة ، ولكن سينتهي في سجن على صخرة في البحر تشهد بانه عبد لطبيعة
الاشياء وان الظلم لا يدوم .

لا جديد في هذا الرأي . والواقع اننا نفعل خيراً في الشك في كل مبدأ
فلسفي يفخر بكونه جديداً ، ان الحقيقة تغير اوثابها دائماً (مثل كل سيدة)
ولكنها وراء العادة الجديدة تبقى كما هي دائماً . وفي الاخلاق لا نحتاج
الى بدع مفرعة . وعلى الرغم من مخاطرات السفسطائيين وغيرهم من اتباع
نيتشه فان جميع الآراء الاخلاقية تدور حول مصلحة الجميع . ان علم الاخلاق يبدأ
مع الاجتماع والتنظيم . والحياة في المجتمع تستدعي التنازل عن جزء من سيادة
الفرد للنظام العام ، واخيراً يصبح جوهر السلوك صلاح الجماعة . ان الطبيعة
تريدها بهذا الشكل ، وحكمها يكون دائماً قاطعاً ونهائياً . تتوقف حياة الجماعة في
منافستها وصراعها مع جماعة اخرى ، على وحدتها وقوتها ،
ومقدرة اعضائها في التعاون ، من اجل الغايات المشتركة . وأي تنسيق يكون
افضل من ان يقوم كل شخص بفعل الامور التي يجيدها ويتقنها اكثر من
غيرها ؟ هذا هو هدف التنظيم الذي يجب ان ينشده كل مجتمع اذا اراد الحياة ،
لقد قال المسيح ان الاخلاق هي ابداء اللطف نحو الفقراء . وقال نيتشه انها
شجاعة القوي ، وقال افلاطون هي الانسجام الفعال للكل . ربما يجب جمع هذه
المبادئ الثلاثة لايجاد اخلاق كاملة ، ولكن هل نستطيع ان نشك ، اي قول
من هذه الاقوال هو الاساسي .

والآن ما الذي ينبغي ان نقوله في هذه الدولة المثالية ؟ هل هي عملية ؟ واذا لم تكن كذلك هل تنطوي على اية معالم عملية يمكن استخدامها والاستفادة منها في ايامنا المعاصرة . وهل تحققت هذه الدولة المثالية في اي مكان من الامكنة ؟ .

لا شك ان الجواب الاخير على هذه الاسئلة يكون في صالح افلاطون . فقد حكم اوروبا لمدة الف سنة تقريباً نظام من الحراس والحكام شبيه بالنظام الذي وضعه فيلسوفنا . وقد جرت العادة في القرون الوسطى على تنظيم السكان في البلاد المسيحية الى طبقة من العمال ، وطبقة من الجنود واخرى من رجال الدين . وقد احتكرت الطبقة الاخيرة على الرغم من قلة عددها وسائل التعليم ، وحكمت حكماً مطلقاً اعظم قارة في قوتها في العالم . لقد احتلت هذه الطبقة الحاكمة مناصب الدولة ومراكزها لا عن طريق الانتخابات والتصويت ، ولكن بفضل مواهبها في الدراسات الدينية والادارية ، وميلها الى حياة الفكر والتأمل والبساطة (ومن الممكن ان نضيف الى ذلك) وبنفوذ اقاربها في الدولة والكنيسة . وفي النصف الاخير من حكم هذه الطبقة ، حررت نفسها من مسؤوليات العائلة كما اراد افلاطون . وفي بعض الحالات لم تتمتع بجرية الاتصال الجنسي او التناسل الذي اباحه افلاطون لحكامه وحراسه . لقد كانت

الفردية والعزوف عن الزواج جزءاً من البناء النفساني لسلطة رجال الدين .
وبذلك تحرروا من الأثرة والانانية العائلية الضيقة ، هذا بالإضافة الى ان
سيطرتهم الواضحة على نداء الجسد زادت في رهبة الآثمين والمفئدين منهم
واستعدادهم للاعتراف بخطاياهم وذنوبهم لهم .

لقد استمدت السياسة الكاثوليكية الكثير من (كذبة افلاطون الموكية)
التي تحدثنا عنها ، او تأثرت بها ، ان فكرة جهنم والاعراف او المطهر ، والجنة
في اشكالها التي عرفت بها في القرون الوسطى مستمدة من الكتاب الاخير
من جمهورية افلاطون ، كما ان القزمولوجيا «علم نظام الكون» التي تعود الى درجة
كبيرة الى المذهب الواقعي (الحقيقة الواقعية الموضوعية للافكار العامة)
كانت تفسيراً لمبدأ المثل الافلاطوني . وحتى البرنامج التعليمي (الحساب
والهندسة والفلك والموسيقى) صيغ على نمط منهاج افلاطون التعليمي . وبهذا
المبدأ تمكن رجال الدين من حكم اوروبا بسهولة وبدون اللجوء للقوة . وقبلت
شعوب اوروبا هذا الحكم طوعاً حتى انها قامت بتقديم المساعدات المادية
الكبيرة لحكامها لمدة الف سنة تقريباً ، ولم تطالب هذه الشعوب الاوروبية
بالاشتراك في الحكومة . وركع التجار والجنود وامراء الاقطاع على ركبهم امام
روما التي بنت اعظم منظمة شاهدها العالم . لقد كان اليسوعيون
(الجزويت) الذين حكموا براغواي نصف حراس وحكام افلاطونيين .
وكانوا جماعة دينية ذات معرفة وبراعة في وسط السكان المتوحشين .
كما اتخذ الحزب الشيوعي الذي حكم روسيا بعد ثورة نوفمبر عام ١٩١٧
شكلاً شبيهاً لدرجة تدعو الى الدهشة بما جاء في جمهورية افلاطون .
فقد كان الحزب الشيوعي عندما استولى على السلطة في روسيا في ذلك الوقت
اقلية صغيرة جمعت افرادها بعضهم لبعض عقيدة دينية (الشيوعية) ككرست

نفسها لاهدافها بشدة كما كرس القديسون انفسهم لدياناتهم . وتعيش عيشة معتدلة ومقتصدة مع انها تحكم نصف اوربا .

ان هذه الامثلة تشير الى ان خطة افلاطون خطة عملية اذا ادخل عليها بعض التقييدات والتعديلات، والحقيقة ان افلاطون نفسه قد استمد افكاره الى مدى كبير من انظمة عملية شاهدها اثناء سفره وتجواله . لقد تأثر بحكومة رجال الدين في مصر . حيث وجد هناك شعباً عظيماً ، ومدنية قديمة تحكمها طبقة صغيرة من رجال الدين ، بالمقارنة مع حكم الطغيان والنزاع والضعف وعدم المقدرة الذي بان يطبع نظام الحكم في اثينا في ذلك الوقت . فقد شعر افلاطون ان الحكومة المصرية تمثل دولة ارقى وارفع بكثير من دولة اثينا . كما اقام في ايطاليا بعض الوقت مع الجماعة الفيثاغورية . وهي جماعة نباتية وشيوعية ، سادت اجيالاً طويلة المستعمرة اليونانية التي كانت تعيش فيها . وشاهد في اسبارطة طبقة صغيرة حاكمة ، تعيش عيشة مشتركة بسيطة وخشنة وسط الشعب الذي تحكمه ، تأكل سوية وتحدد التزاوج لاسباب تناسلية ، وتقدم للشجاع ميزة تعدد الزوجات . ولا شك انه سمع يوربيد يدعو الى الاشتراك في الزوجات وتحرير العبيد ، وانحلال السلام في العالم اليوناني باقامة العصبة الهيلينية . ولا شك ايضاً ان افلاطون قد عرف بعض الكليبيين الذين تطوروا بجمركة شيوعية قوية بين ما نسميهم الآن اليساريين السقراطيين . وبالاختصار ، لا بد ان يكون افلاطون قد شعر انه في عرض خطته لم يتجاوز تقديم خطة تقوم على الحقائق التي شاهدها بنفسه اثناء طوافه وتجواله .

ومع ذلك فقد وجد النقاد من ايام ارسطو حتى ايامنا هذه في جمهورية افلاطون فجوات وفتحات كثيرة للاعتراض والشك . لقد قال ارسطو عن هذه الاشياء التي جاء بها افلاطون باختصار انها عرفت الشعوب منذ اجيال

بميدة . ويقول ، حقاً انه امر جميل ان تضع خطة لاقامة مجتمع يرتبط فيه الرجال برابطة الاخوة . ولكن توسيع هذا المجتمع بحيث يشمل جميع الذكور المعاصرين يؤدي الى فتور الرغبة والهمة والحرارة . وينطبق هذا ايضاً على الاشتراكية في الاراضي والاملاك ، لانه يعني اضعاف الشعور بالمسؤولية . عندما يشارك الجميع في ملكية الاشياء ، يخف اهتمامهم بها ، ويستطرد ارسطو والمحافظة الكبير فيقول ، ان الشيوعية ستلقي بالناس الى اتصال بعضهم ببعض بطريقة مستمرة وبشكل لا يطاق او يحتمل . وسوف لا تترك مكاناً للفردية او الحرية البيئية والعزلة والوحدة ، وتفترض ان بعض الفضائل مثل فضيلة الصبر والتعاون لا يقوى عليها سوى الاقلية من الناس التي تحيط حياتها القداسة . هذا بالاضافة الى اننا لا ينبغي ان نقدم مستوى للفضيلة فوق طاقة الشخص العادي بحيث يجب اعتبار الحياة التي يستطيع اكثرية الشعب المشاركة فيها ، واشكال الحكومات التي تستطيع ان تلبها الدول على وجه العموم ، او بعبارة اوضح فان نظام افلاطون مفراط في المثالية ، وفوق مستوى طاقة الناس . وحكومته المثالية التي وصفها في كتابه الجمهورية حكومة غير عملية ومفرطة في المثالية .

وهكذا فان نقد ارسطو اعظم تلاميذ افلاطون (وأشدهم غيره) يسير في نفس الاتجاه مع نقد معظم النقاد المتأخرين لافلاطون .

لقد ذكر ان افلاطون قلل من اهمية العرف والعادة المتأصلة في نظام وحدة الأزواج « عدم تعدد الأزواج والزوجات » والناحية الاخلاقية المرتبطة بهذا النظام وقلل من اهمية غيره الرجال ورغبتهم في امتلاك المرأة مفترضاً اقتناع الرجل بنصيب وجزء من هذه المرأة . كما قلل من غريزة الامومة في المرأة مفترضاً موافقة الامهات على اخذ اطفالهن ممنهن ، وتربيتهم بغير ان يعرفوا ابويهم . وفوق كل شيء فقد نسي في الغائه لنظام الاسرة انه يقضي على اعظم مصدر للتربية

الخلقية . ويدمر المصدر الاساسي لهذه العادات الشيوعية والتعاونية التي اراد لها ان تكون القاعدة النفسانية لدولته ، وبفعله ذلك فقد نشر بيده غصن الشجرة التي يجلس عليها .

ونستطيع الاجابة ببساطة على جميع هذه الانتقادات التي وجهت لافلاطون بانها ليست في محلها او موضعها ، وهي كمن يحاول تدمير شبح وهمي او مخلوق خيالي . لان افلاطون يستثني بصراحة اكثرية الشعب من خطته الشيوعية ، ويدرك بوضوح كاف ان القلة من الرجال فقط يقدررون على التضحية بالامور المادية والمنافع الذاتية . وهذه القلة هي التي يقترح افلاطون تأليف الحكومة منها . حيث تكون الاخوة خاصة بهذه الطبقة فقط ، حيث يعتبر كل رجل الآخر اخاً ، وكل بنت اختاً ، ويحرم الذهب والمتاع على هذه الفئة فقط . اعني فئة الحكام والحراس للدولة . او بعبارة اوضح الطبقة الحاكمة . اما اكثرية الشعب فستحتفظ بجميع النظم والحقوق من العقار والمال والترف ، والمنسافة وكل حرية خاصة ترغب بها . وستكون زوجاتهم خاصة بهم لا يشاركهم بها احد ، وما تقوم عليه الاسرة ونظام وحدة الازواج والزوجات من فضائل خلقية . وسيحتفظ الآباء بزوجاتهم ، والامهات باطفالهن . اما بالنسبة الى الحكام ، فهم لا يحتاجون الى نزعة شيوعية بمثل ما يحتاجون الى معنى الشرف ومحبه والتعلق به ، والفخر وليس اللطف هو الرابطة التي ستربطهم وتجمعهم . اما بالنسبة الى غريزة الامومة فهي لا تكون قوية قبل الولادة حتى نمو الطفل ، فان الام العادية تقبل المولود الجديد باستياء اكثر من الفرح ، وحب الطفل ينمو ويتطور مع الوقت وليس معجزة مفاجئة ، وينمو هذا الحب بنمو الطفل ، بفضل جهود الام وعنايتها في تربيته .

اما الاعتراضات الاخرى على افلاطون فهي اعتراضات اقتصادية اكثر منها نفسانية . وتشير هذه الاعتراضات الى ان افلاطون في جمهوريته استنكر تقسيم

كل مدينة الى مدينتين كما ذكرنا وهما مدينة الفقراء ومدينة الاغنياء ، وبعدئذ نجده يقدم لنا مدينة تنقسم الى ثلاث مدن . والجواب على هذا الاعتراض ان التقسيم في الحالة الاولى ناجم عن الصراع الاقتصادي بين الاغنياء والفقراء . اما في دولة افلاطون فقد استثنى الحكام والمساعدين من الاشتراك في هذه المنافسة حول الذهب والمتاع والمادة . وهنا يرد على افلاطون اعتراض وهو ان نظامه سيجعل من الحكام اصحاب سلطة بغير مسؤولية ، وقد يؤدي هذا الى تحولهم في حكومتهم الى طغيان . او بعبارة اوضح فان الحكام الذين اعتبرهم افلاطون فوق القانون ، والذين لا يقيد حكمهم برلمان عن الشعب يكون بمثابة العين الحارسه لتصرفاتهم ، وبمناية صمام الامان لحكمتهم قد يحيلون هذه السلطة في ايديهم الى مصالحهم الخاصة ، وبذلك يتحول حكمهم الى طغيان واثرة لمنافعهم . ولكن هذا الامر مستبعد لان سلطتهم سياسية وتوجيهية وليست اقتصادية او مادية . او بعبارة اوضح فان ما في يدهم هو السلطة السياسية والتوجيهية وليس الاقتصاد والثروة . وبذلك تستطيع الطبقة الاقتصادية المؤلفة من العمال والمزارعين والتجار وغيرهم اذا كانت غير راضية عن تصرف هؤلاء الحكام وطريقتهم حجب تقديم المؤنة والطعام عنهم ، وبذلك تأمن انحرافهم وتحويل السلطة التي في يدهم لمصلحتهم .

ولكن اذا كانت سلطة الحكام سياسية وليست اقتصادية كيف يمكنهم الاحتفاظ بهذه السلطة ؟ ألم يظهر كارل ماركس وهارينجتون وغيرهم بان السلطة السياسية ليست سوى انعكاس للسلطة الاقتصادية ، وتصبح مزعجة ومقلقة بمجرد ان تنتقل السلطات الاقتصادية الى الجماعة الخاضعة سياسياً ، كالطبقات الوسطى في القرن الثامن عشر ؟ .

ان هذا يمثل اعتراضاً جوهرياً ، وربما كان اعتراضاً ممتاً . وقديكون الجواب عليه هو ان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي ركع امام سلطتها حق

المالوك ، كانت تقوم في القرون الاولى من حكمها على العقيدة اكثر منها على الثروة ، ولكن ربما تكون سيادة الكنيسة الطويلة هذه بسبب اوضاع اوروبا الزراعية ، حيث تميل الشعوب الزراعية الى الايمان بالقوى الخارقة بسبب اعتمادها اليائس على اهواء العناصر الطبيعية ، وعجزها عن السيطرة على الطبيعة التي تؤدي دائماً الى الخوف الذي يؤدي الى العبادة . وتتطور الصناعة والتجارة ، ظهر نوع جديد من العقول والرجال ، اكثر واقعية ودينية ، وبدأت سلطة الكنيسة في الانهيار بمجرد ان بدأ الصراع بينها وبين هذه الحقيقة الاقتصادية الجديدة . يجب على السلطة السياسية باستمرار تكيف نفسها مع ميزان القوى الاقتصادية المتغير . ان اعتماد حكام افلاطون الاقتصادي على الطبقة الاقتصادية سيحلبهم الى حكام سياسيين خاضعين لهذه الطبقة الاقتصادية . وحتى احتكار السلطة العسكرية في ايديهم سوف لا يحول دون هذه النهاية التي لا مفر منها ، تماماً كما اخفقت القوات العسكرية في روسيا الثورية في منع زيادة امتلاك الارض امتلاكاً شخصياً بين الفلاحين الروس الذين يسيطرون على الاطعمة وبذلك يسيطرون على مصير الشعب . وهنا سوف لا يبقى لافلاطون سوى ان نقول فقط ، وهو انه على الرغم من ان السياسات السياسية تقررها الجماعة المسيطرة على الاقتصاد في البلد ، فان من الافضل ان يقوم على ادارة هذه السياسة موظفون اعدوا خصيصاً لهذا الغرض ، بدلاً من رجال يتعثرون ويقفزون من الاوساط التجارية والصناعية الى المناصب السياسية بغير اعداد او تدريب في شؤون ادارة الدولة .

ان ما ينقص افلاطون على ما يحتمل ، هو (معنى) التدفق والتغيير ، فهو حريص جداً على وضع صورة هذا العالم المتغير في اطار ثابت دائم . فهو يجب النظام بشكل خاص ، كأبي فيلسوف هياج وجيل ، ارجعه الاضطراب الديمقراطي في اثينا ودفعه الى تطرف كبير في اغفال قيمة الفرد ، فهو

ينظم الناس ويرتبهم في طبقاتهما يرتب عالم الحشرات الذباب ، ولا يتورع عن استخدام الترنجات الدينية لتأمين هذه الغاية. ان دولته دولة ساكنه ، ويمكن ان تتحول بسهولة الى مجتمع قديم يتمسك بالقديم ويحكمه الشيوخ الجامدون المادون لكل اختراع وتغيير . ان دولته علم مجرد عن الفن ، فهي تعظم النظام العزيز على العقل العلمي ، وتهمل الحرية التي هي روح الفن ، انها تعبد اسم الجمال ، ولكنها تنفي الفنانين المبدعين وحدهم للجمال والمبرزين له . انها اسبارطة او بروسيا ، وليست دولة مثالية .

والآن بعد توجيه هذا النقد اللازم الصريح . يتبقى علينا ان نعرب عن ولائنا وتبجيلنا الى القوة والعق في تفكير افلاطون . فهو بالضرورة على حق ، اليس كذلك ؟ ان ما يحتاجه العالم هو حكم افضل الرجال واحكمهم ، وينبغي علينا تكييف افكاره مع الوقت الذي نعيش فيه . يجب ان نأخذ اليوم الديمقراطية كقضية مسلم بها ، اذ لا نستطيع تقييد وتحديد حق التصويت كما يقترح افلاطون ، ولكننا نستطيع وضع قيود على تولي المناصب ، وبهذه الطريقة نضمن ونؤمن ذلك المزيج بين الديمقراطية والارستقراطية التي يبدو انها كانت في ذهنه . ويجب ان نتقبل بلا نزاع قوله بوجود تدريب رجال السياسة تماماً كما نقوم بتدريب رجال الطب . بتأسيس اقسام للعلوم السياسية وشؤون ادارة الدولة في جامعاتنا . وعندما تبدأ هذه الاقسام في عملها ، نشترط في المرشحين الى المناصب السياسية ان يكونوا من خريجي هذه المدارس السياسية . ونستطيع ايضاً ان نشترط تدريب الشخص كأساس لتوليه المنصب ، وبذلك نتخلص من نظام التعيينات السياسية المعقدة التي يكمن فيها فساد نظامنا الديمقراطي . حيث ندعو الناخبين الى اختيار اي انسان تؤهله مؤهلاته وتدريبه لترشيح نفسه ، وبهذه الطريقة يكون الاختيار الديمقراطي أوسع مما هو عليه الآن.

ولا يحتاج هذا لأكثر من ادخال تعديل دستوري لتنفيذ هذه الخطة وحصر المنصب في خريجي الاعمال الاداريه . وان يفتح باب المساواة في التعليم امام جميع الرجال والنساء . بفض النظر عن ايراد عائلاتهم الى التدريب الجامعي والتقدم السياسي . ومن السهل تقديم مساعدات دراسية من البلديات والمقاطعات والولايات لجميع خريجي مدارس القواعد اللغوية ، والثانوية والكليات من الذين اظهروا مستوى معيناً من المقدرة ، ولم يتمكنوا من مواصلة دراساتهم المقبلة بسبب عجز ذويهم ، اذ ان مثل هذا يجعل الديمقراطية جديرة باسمها .

واخيراً ، من العدل ان نضيف ان افلاطون يعرف ان دولته المثالية لم تظهر بعد في حيز العمل . ويعترف بانه وصف دولة مثالية صعبة التحقيق . ويحيب على هذا بقوله ، ان هناك فائدة في رسم هذه الصور التي في اذهاننا ، وان اهمية الانسان تكمن في قدرته على تصور عالم أفضل ، وتحقيق جزء على الأقل من هذه الدولة المثالية . ان الانسان حيوان يعمل الدول المثالية ، ونحن ننظر امامنا وخلفنا ونتوق الى ما ليس في ايدينا ، وهذا لا يعني ان هذا بلا نتيجة ، فقد نما للكثير من الاحلام اطراف فمشت ، او نمت لها اجنحة فطارت ، كحلم ايكاروس حول طيران الناس ، وحتى مجرد رسمنا للصورة قد يفيدنا بجملها هدفاً ونموذجاً لحكومتنا وسلوكنا . وعندما يتمكن عدد كاف منا من رؤية الصورة وتتبع وميضها ولعانها ، ستجد الدولة المثالية عندئذ طريقها الى خريطة العالم . وفي الوقت ذاته نكون قد وضعنا في الساء نموذجاً لهذه المدينة لمن يشاء ان يصل اليها ، ويحكم نفسه وفقاً لها . ولكن سواء أكان يوجد في الحقيقة مثل هذه المدينة ، او سيوجد مثلها على الأرض ، فانه سيعمل وفقاً لقوانين تلك المدينة فقط ، وليس غيرها . لأن الانسان الفاضل سيهبط القانون الكامل حتى في المدينة الناقصة .

ومع ذلك فقد كان السيد افلاطون شجاعاً جداً، الى مدى المخاطرة بنفسه، عندما سنجحت له فرصة لتحقيق خطته . فقد تلقى افلاطون في عام ٣٨٧ قبل الميلاد دعوة من ديونيسيوس حاكم سرقسنة المزدهرة القوية عاصمة صقلية في ذلك الوقت . للحضور وتحويل دولته الى دولة مثالية . وأعتقد افلاطون ان من الاسهل تثقيف رجل واحد حتى ولو كان ملكاً من تثقيف جميع الناس ، ووافق، ولكن عندما وجد ديونيسيوس ان الخطة تستدعي بان يصبح فيلسوفاً او يتوقف عن كونه ملكاً ، بدأ بينهما نزاع مرير ، والقصة تقول ان افلاطون بعد هذا النزاع بيع في سوق العبيد ، حيث قام بعد ذلك بشرائه وتحريره من العبودية تلميذه وصديقه الاثيني انيسيرس ، الذي رفض ان يدفع له اتباع افلاطون من الاثينيين الفدية التي دفعها لاعتناق افلاطون ظالبا منهم ان لا يستأثروا وحدهم في شرف مساعدة الفلاسفة . قد تكون هذه التجربة الاليمة قد اضافت الى خيبة آمال افلاطون ودفعته الى اتخاذ موقف محافظ كما يظهر في كتابه الأخير وهو كتاب القوانين .

ومع ذلك فقد كانت السنوات الاخيرة التي اختتمت حياته سنوات سعيدة ، وانتشر تلاميذه في كل مكان واتجاه ، واحاطه نجاحهم في حياتهم بالشرف في كل مكان . وعاش في سلام في داخل الاكاديمية ، ينتقل من جماعة لاخرى من تلاميذه مقدماً لهم المسائل والواجبات لوضع اجاب عنها ، لقد عرف افلاطون كيف يتعلم مثل صولون ويعلم مثل سقراط ، ويرشد الشباب ويحظى بحبهم ، فقد احبه تلاميذه كما احبهم ، وكان صديقاً كما كان فيلسوفاً ومرشداً لهم .

وقام احد تلاميذه بدعوته لحضور عقد قرانه ، وحضر افلاطون ناعماً

بأعوامه الثمانين وشارك الموجودين سعادتهم ، وبعد انتهاء ساعات السعادة والفرح ، جلس الفيلسوف الأعظم المسن على كرسي في إحدى الزوايا الهادئة ليصيب غفوة صغيرة من النوم ، وفي الصباح بعد انتهاء الحفلة اتوا لايقظاه فوجدوه قد انتقل من غفوته الصغيرة الى غفوة ابدية ، وسارت كل اثينا وراءه الى مثواه الاخير .



الفصل الثاني

ارسطو والعلم اليوناني

١ - النشأة التاريخية

ولد ارسطو في اسطاغيرا وهي مدينة مقدونية تقع على بعد نحو مئتي ميل من شمالي اثينا ، في عام ٣٨٤ قبل الميلاد . وكان والده صديقاً وطيباً للملك مينتاس ملك مقدونيا وجد الاسكندر الكبير . ويبدو ان ارسطو نفسه اصبح عضواً في جمعية اخوة اسكيبيادس الطبية . وشب في شذا الطب كما شب الكثيرون من الفلاسفة المتأخرين في شذا الطهارة والقداسة . وتوفرت امامه كل فرصة وتشجيع للنمو بعقلية علمية . وأعد منذ البداية ليكون مؤسس العلم .

لدينا بعض القصص عن حياته ايام شبابه . واحدى هذه القصص تصوره مبعثراً الاموال التي ورثها في حياة ثائرة ، اضطرته الى الالتحاق في الجيش

ليتنجب الموت جوعاً . ويعود الى اسطاغيرا ليارس الطب، ويذهب الى اثينا في سن الثلاثين ليدرس الفلسفة تحت اشراف افلاطون .

وتذكر قصة اخرى انه ذهب الى اثينا في سن الثامنة عشرة . وانه تتلمذ منذ ذلك الوقت على السيد افلاطون العظيم . وتشير هذه القصة ايضاً الى حياة ارسطو المغامرة الشاذة الطائشة . وتجمع القصتان على ان ارسطو استقر اخيراً بين حدائق الاكاديمية الهادئة .

لقد درس على افلاطون ثماني سنوات او عشرين سنة ، والواقع ان تأملات ارسطو الافلاطونية النافذة الشاملة ، تدل على ان دراسته على افلاطون قد استغرقت عشرين سنة . وحتى افكاره المعارضة لافلاطون توحى بهذه المدة الأطول . يود المرء ان يتصور ان هذه السنوات كانت من سني ارسطو السعيدة . تلميذ لامع تحت ارشاد استاذ لا يضاهى . يسير كعشاق اليونان في حدائق الفلسفة ، وكان كلاهما عبقرياً ولكن التفاهم بين العباقرة امر صعب كتفاهم النار والديناميت . لقد فصلت بين افلاطون وتلميذه ارسطو خمسون سنة تقريباً . وكان من الصعب سد الفجوة التي احدثتها بينهما هذه الاعوام ، واخفاء هذا التناقض بين روحيهما . لقد ادرك افلاطون عظمة هذا التلميذ الجديد الغريب القادم من الشمال من بلاد كانت اثينا لا تزال تعتبرها بلاداً همجية . ووصفه مرة بانه الذكاء المحسم في الاكاديمية . لقد انفق ارسطو باسراف في شراء الكتب وجمعها ، ولم يضاهه في جمع الكتب سوى يوربيد ، لقد جمع ارسطو مكتبة كبيرة ووضع الاساس لتصنيف وتبويب الكتب وهذا من جملة ما ساهم به للعلم . بما دفع افلاطون الى تسمية بيت ارسطو بيت القاريء . ويبدو انه اراد ان يقدم لارسطو أخلص تحياته القلبية . ولكن يبدو ان خلافاً حقيقياً وقع بينهما في اواخر ايام افلاطون ، وان شابنا الطموح بدأ يعاني عقدة ضد والده الروحي في

حب الفلسفة والخطوة بها . وبدأ يشير الى ان الحكمة سوف لن تموت بموت افلاطون . بينما كان الحكيم المسن يشبه تلميذه بمريرفس امه الفرس بعد استنزافها وتجفيفها . وهذا يدل على نشوب خلاف بينها اذ لا دخان بغير نار .

لا تزال الجوانب الاخرى عن حياة ارسطو في هذه الفترة الاثنية غير ثابتة وقابلة للاحتمال . ويخبرنا بعض كتاب مشاهير التاريخ والسير ان ارسطو انشأ مدرسة لتدريس الخطابة لمنافسة ايسوقراط وانه كان بين تلاميذه في هذه المدرسة الموسر هيرمياس الذي اصبح بعد مدة وجيزة حاكماً لمدينة ولاية اتارنيس . حيث دعا ارسطو الى بلاطه ، وفي عام ٣٤٤ قبل الميلاد كافأ استاذة على فضله عليه بتزويجه اخته (ويقال ابنة اخته) . يشك المرء ان تكون هذه مكافأة يونانية . ولكن المؤرخين يسارعون في الجزم بان ارسطو على الرغم من عبقريته . عاش بسعادة مع زوجته ، وكان يذكرها بالحب والخير . وبعد سنة فقط دعاه الملك فيليب ملك مقدونيا الى بلاط بيلا ، وعهد اليه بتثقيف الاسكندر . وقد دلت هذه الدعوة على ذبوع شهرة فيلسوفنا، واتجاه أعظم ملك في ذلك الوقت الى اعظم معلم . واختياره ارسطو ليكون معلماً للاسكندر الذي سيغدو سيد العالم في المستقبل .

لقد عزم فيليب على تقديم كل ميزة من مميزات التعليم لابنه . لانه قد اختط له خططاً واسعة ، فقد مكنه غزوه لتراقيا والاستيلاء عليها في عام ٣٥٦ قبل الميلاد من السيادة على مناجم الذهب التي بدأت فوراً تقدم له من هذا المعدن النفيس عشرة اضعاف كمية الفضة التي كانت ترد على اثينا من لوريوم . كما امتاز سكان بلاده الفلاحين بالعنف والمقدرة الحربية . ولم تفسدهم بعد مفاسد المدينة ورذائلها وترفها . وقد توفر له بذلك ، الامور اللازمة التي تمكنه من اخضاع

مئة من دول المدن الصغيرة ، وتوحيد اليونان توحيداً سياسياً. لم يشعر فيليب بأي عطف نحو الفردية التي غذت الفن والعقل في اليونان . ولكنها في الوقت ذاته ادت الى تمزيق نظامها الاجتماعي . ولم ير في هذه العواصم الصغيرة التمدن والثقافة المبهجة ، والفن الذي لا يجازي ، بل رأى الفساد التجاري والفوضى السياسية . فقد رأى تجاراً وأصحاب مصارف استبد بهم الجشع وتملكهم الشره واخذوا يمتصون موارد الشعب الحيوية ، ورجال سياسة عاجزين ، وخطباء مفوهين ضلوا الشعب وساقوه الى مؤامرات وحروب وكوارث . وطبقات تمزقت الى جماعات وزمر ، وطبقات تجمعت في شيع وقبائل . لقد قال فيليب ، ان هذا ليس شعباً ولكنه خليط من الافراد ، عباقرة وعبيد ، وانه سيحيل هذا الاضطراب الى نظام ، ويوحد اليونان ويقويها ، ويجعلها مركز العالم السياسي وقاعدته . لقد درس في شبابه في مدينة طيبة فن الخطط العسكرية ، والتنظيم المدني تحت اشراف النبيل ايامينوداس ، وبشجاعة لا تقل عن طموحه ، هزم الاثينيين في عام ٣٣٨ قبل الميلاد . ووجد اليونان في النهاية ، على الرغم من كونه توحيداً مقيداً بالسلاسل . وبعد انتصاره هذا وضع الخطط التي تمكنه هو وابنه من سيادة العالم وتوحيده . ولكنه وقع صريع اغتيال اودى بحياته .

لقد كان الاسكندر عند قدوم ارسطو شاباً متوحشاً في الثالثة عشرة من عمره ، وكان عاطفياً ومصاباً بالصرع وكحولياً في الأغلب ، ويصرف وقته في ترويض الخيل الوحشية . ولم تجرز جهود الفيلسوف في تبريد نار هذا البركان الثائر فائدة كبيرة . لقد احب الاسكندر لفترة من الوقت ارسطو العزيز محبة لا تقل عن محبته لابيه ، قائلاً انه على الرغم ان والده انجبه الى هذه الدنيا فقد علمه ارسطو فن الحياة فيها . (يقول مثل سائر يوناني ان الحياة هبة الطبيعة ، ولكن الحياة الجميلة هبة الحكمة) لقد قال الاسكندر في رسالة له لارسطو ،

انني قد افرطت في معرفة الأفضل اكثر من معرفتي عن كيفية توسيع سلطتي
وبسط نفوذي ، ولكن هذه الاشارة لم تكن اكثر من تحية ملوكية فنية من
الاسكندر الى ارسطو . لقد كان وراء حماسة الفلسفة الحديثة العهد دراسة
الطبع المتوقدة لابن ملك متوحش . ولم تقو كوابح العقل على تقييد هذه
الاحاسيس الوراثة المنطلقة . وترك الاسكندر الفلسفة بعد سنتين ليرتقي
العرش ويفتح العالم . ان التاريخ يفسح امامنا الحرية في (على الرغم من ريبتنا
في هذه الافكار السارة) الاعتقاد بأن رغبة الاسكندر في الوحدة قد استمدت
بعض قوتها وعظمتها من معلمه ، اعظم مفكر تركيبي في تاريخ الفكر . وان
الغزو السياسي من جانب التلميذ ، والغزو الفلسفي من جانب المعلم ليسا سوى
جانبيين مختلفين لمشروع واحد نبيل وحماسي . حيث يقوم مقدونيان عظيمان في
توحيد عالمين تسودهما الفوضى وعدم النظام .

عندما خرج الاسكندر لغزو آسيا ترك وراءه في المدن اليونانية حكومات
موالية له ، ولكن شعوب هذه المدن كانت معادية له . لان الحرية قد تأصلت في
هذه المدن اليونانية بالاضافة الى ماضي ائينا الامبراطوري . مما جعل اخضاع
هذه المدن حتى بالنسبة الى فاتح متألق شهير امراً لا يحتمل . كما ان فصاحة
ديموستين جعلت الجمعية العامة دائماً على حافة الثورة ضد الحزب المقدوني
الذي كان يتولى زمام الحكم في المدينة . وعندما عاد ارسطو بعد جولة اخرى
في الخارج الى ائينا عام ٣٣٤ قبل الميلاد كان من الطبيعي ان ينضم الى الجماعة
المقدونية . ولم يخف تأييده وموافقته على حكم الاسكندر وتوحيده للمدن
اليونانية . وعندما ندرس الاعمال البارزة المتعاقبة في التأملات والابحاث التي
نشرها ارسطو في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته ، ونزقه في مهامه
المتشعبة ، في تنظيم مدرسته ، وتنسيق كنوز المعرفة التي لم تمر اطلاقاً قبل ذلك

بعقل رجل واحد ، فلتتذكر بهذه المناسبة ان هذا لم يكن طريقاً اميناً
وهادئاً في البحث عن الحقيقة . وان الجو السياسي قد يتغير في اية لحظة ،
ويؤدي الى هبوب عاصفة في هذه الحياة السياسية المسالمة . وبوضع هذا الموقف
موضع الاعتبار في اذهاننا نستطيع ان نفهم فلسفة ارسطو السياسية ونهايته
المحزنة .



٢ - اعمال ارسطو

لم يكن عسيراً على معلم ملك الملوك العثور على تلاميذ له حتى في مدينة معادية كأثينا . وعندما بلغ الثالثة والخمسين من عمره ، انشأ مدرسته ، (اللوقيون) ، واجتمع حوله الكثير من التلاميذ مما استدعى ضرورة وضع ترتيبات معقدة لحفظ النظام . حيث قام التلاميذ انفسهم بتقرير النظام وانتخبوا كل عشرة ايام واحداً من بينهم ليشرف على المدرسة . ولكن ينبغي ان لا نفكر بأن هذه المدرسة كانت ذات نظام صارم ، فالصورة التي جاءت لنا تصور لنا طلبة علم يتناولون طعامهم بالاشترك مع استاذهم ويتعلمون منه عندما كانوا يذرعون معه الميدان الرياضي الذي استمدت المدرسة اسمها منه .

لم تكن المدرسة صورة طبق الأصل من المدرسة التي تركها افلاطون وراءه ، حيث اقتصرت اكااديمية افلاطون فوق كل شيء بالرياضيات والفلسفة السياسية التأملية . اما مدرسة ارسطو فقد مالت اكثر الى تدريس علم الاحياء والعلوم الطبيعية . واذا جاز لنا أن نصدق ما ذكره بلييني ، فان الاسكندر امر رجال صيده وبساتنته وصيادي اسماكه بان يمدوا ارسطو بكل المواد الحيوانية والنباتية التي يرغب بها ، ويخبرنا كتاب قدامى آخرون انه كان تحت تصرفه في وقت واحد الف رجل انتشروا في انحاء آسيا واليونان ، يجمعون له

النائج والمينات الحيوانية والنباتية من كل ارض . وقد تمكن بهذه الثروة المادية من انشاء اول حديقة حيوانية عظيمة شاهدها العالم . ومن العسير ان نبالغ في تأثير هذه المجموعة على علمه وفلسفته .

كيف جمع ارسطو الاموال لتمويل هذه الجهود الكبيرة ؟ لقد كان نفسه في ذلك الوقت رجلاً ذا دخل واسع . فقد ذكر ائيناوس (مع شيء من المبالغة) ان الاسكندر اعطى ارسطو نحو (٨٠٠) وزنة من المال مما يعادل القوة الشرائية لاربعة ملايين دولار في يومنا هذا . ويذكر البعض ان الاسكندر بطلب من ارسطو ارسل بعثة باهظة التكاليف لاكتشاف منابع النيل ، وكشف اسباب فيضانه كل سنة . ان اعمالا كهذه كتتنسيق مئة وثمانية وخمسين دستوراً سياسياً اعدت لارسطو ، يشير الى وجود عدد كبير من المساعدين والموظفين معه ، وبالاختصار ، لدينا هنا اول مثال في التاريخ الاوروبي على تقديم مقادير كبيرة من المال في خدمة العلم . والواقع اننا سننجي كسباً وافراً لو قامت الحكومات في ايامنا بتمويل الابحاث بمقادير كبيرة من المال .

ومع ذلك فاننا نعلم ارسطو لو تجاهلنا المعدات المحدودة التي رافقت هذه المصادر والتسهيلات التي حصل عليها . فقد كان مرغماً على تعيين الوقت بغير ساعة ومقارنة درجات الحرارة بغير ميزان للحرارة ، ومراقبة السماء بغير مرصد والطقس بغير باروميتر... فقد كان لديه من بين جميع المعدات والآلات الرياضية والمصرية التي في حوزتنا ، المسطرة والبوصلة فقط . مع بعض الآلات الاخرى الناقصة ، اذ ان التحليل الكيماوي والمقاييس الصحيحة والاوزان ، وتطبيق الرياضيات على العلوم الطبيعية لم يكن معروفاً بعد . كما ان قانون الجاذبية والظواهر الكهربائية ، وشروط التركيب الكيماوي ، وضغط الهواء وتأثيره ، وطبيعة الضوء ، والحرارة والاحتراق وغيرها وبالاختصار ، فان جميع الحقائق التي تقوم عليها نظريات العلم الطبيعية الحديثة ، كانت جميعها او معظمها لم يتم اكتشافها بعد .

انظر الآن كيف تصنع الاختراعات التاريخ . ان علم الفلك الذي وضعه ارسطو ليس سوى سلسلة من الحكايات المضحكة لعدم وجود مرصد في ذلك الوقت ، وبسبب افتقاره الى المجهر تاه علم الاحياء بعيداً عن الحقيقة ، والواقع ان اليونان تأخرت بعيداً في الاختراعات الصناعية والتقنية عن المستوى العام لمسا قامت به من اعمال اخرى لا تبارى . ان احتقار اليونان للاعمال اليدوية ابتعد بكل شخص باستثناء العبيد عن الاطلاع المباشر لعمليات الانتاج ، واستخدام الآلات والاتصال بها وهو الحافز الذي يكشف عن عيوبها ، لقد كان الاختراع الفني متوفراً فقط لأولئك الذين ليست لهم رغبة به ، والذين لا يصيبهم اي نفع او فائدة مادية منه . ربما يكون رخص العبيد سبباً في ضعف الاختراعات . فقد كانت العضلات لا تزال ارخص من الآلات ، وهكذا ففي الوقت الذي غزت التجارة اليونانية البحر الابيض المتوسط ، وغزت الفلسفة اليونانية عقول شعوب هذا البحر ، هام العلم اليوناني على وجهه ، وبقيت الصناعة اليونانية في مستوى الصناعة الايجية عندما غزا اليونان هذه البلاد قبل آلاف السنين . وهذا هو السبب بلاشك الذي ابتعد ارسطو عن التجربة والاختبار الا في حالات قليلة ، لان الآلات اللازمة في التجارب لم تكن مصنوعة بعد . واقصى ما يمكن ان يقوم به هو الاعتماد على الملاحظة الكونية المستمرة . ومع ذلك فان المعلومات الواسعة التي جمعها مع اعوانه ، اصبحت اساساً لتقدم العلم ، ونصوصاً للمعرفة لمدة الف سنة .

يبلغ عدد الكتب التي وضعها ارسطو المئات . ويذكر بعض الكتاب القدامى ان عددها بلغ اربعمئة كتاب . والبعض يقول بلغت الألف . ولكن لم يبق منها سوى الجزء ، ومع ذلك فهي مكتبة في حد ذاتها ، تصور مدى وعظمة الكل . وهي تحتوي أولاً على كتابات منطقية ، « المقولات » « الموضوعات » « المقدمة » « التحليلات التالية » « الموضوع والمحمول » و « الدحض السفسطائي » . اقد جمع هذه الاعمال وحررها الرواقيون تحت

اسم وسائل التفكير الصحيح . وثانياً الاعمال العلمية ، « الطبيعيات » « وفي
السياسة » « التطور والانحلال » « علم الظواهر الجوية » « التاريخ الطبيعي »
« عن النفس » « اجزاء الحيوان » وثالثاً اعمال في فن الذوق والبلاغة « البلاغة »
« علم العروض » ورابعاً تأتي الأعمال الفلسفية « الاخلاق » « السياسة »
« الميتافيزيقا » و« العلم الالهي » .

هنا نجد بوضوح موسوعة اليونان ، كل مشكلة تحت الشمس تجد مكاناً لها ،
ولا غرابة ان نجد اخطاء وسخفاً في ارسطو اكثر من اي فيلسوف آخر ، هنا
يبحث تركيبي للمعرفة والنظرية لم يبلغه انسان اطلاقاً حتى عصر سبنسر . لقد
كانت فلسفة ارسطو غزواً للعالم افضل من غزو الاسكندر للعالم وانتصاره
الهمجي ، واذا كانت الفلسفة سعيًا للوحدة فان ارسطو جدير بالاسم العظيم
الذي اطلقه عليه القرن العشرون - وهو اسم ، الفيلسوف .

وطبيعي ان لا نجد في عقل ارسطو العلمي الاسلوب الشعري الجميل الذي
يتسم به اسلوب افلاطون ، وعلينا الا نتوقع ذلك الأدب اللامع الذي يناسب
باشراق وجمال في صفحات افلاطون المسرحي . وبدلاً من ان يقدم لنا ارسطو
ادباً عظيماً ، تتجسم فيه الفلسفة (وتبدو غامضة) في الاسطورة والخيال
والاشباح . فهو يقدم لنا علماً فنياً مجرداً مركزاً . ولو ذهبنا له للزهوة والترفيه
ودفعنا اجرة دخولنا ، فاننا سنحتاج على ما شاهدنا ونطالب باعادة اموالنا لنا .
فهو بدلاً من الانصراف الى الاسلوب والعبارة الادبية كما فعل افلاطون ، قام
ببناء الاصطلاحات الفنية للعلم والفلسفة ، ومن العسير ان نتحدث اليوم عن أي
علم بغير استخدام عبارات ابتدعتها . وقد يكون هذا الانتقال من الحوار البهيج
الذي امتاز به اسلوب افلاطون الى الكتاب العلمي الدقيق خطوة ضرورية في
تطور الفلسفة والعلم العمود الفقري للفلسفة . لقد كتب ارسطو ايضاً
محاورات ادبية ذاعت شهرتها في ايامها كمحاورات افلاطون ، ولكنها ضاعت
ولم تصل لايدينا تماماً كما فقدت كتب افلاطون العلمية .

ربما يكون الزمن قد احتفظ لكل واحد منها افضل جزء من كتاباته .

واخيراً ، من الممكن ان لا تكون الكتابات التي نسبت الى ارسطو من كتاباته ، وربما كان معظمها من جمع وتصنيف التلاميذ والاتباع الذين طيبوا وعطروا في مذكراتهم جوهر محاضراته الجافة . ويبدو ان ارسطو لم ينشر في حياته اية كتابات فنية باستثناء كتاباته عن المنطق والبلاغة ، والشكل الحالي لمؤلفاته في المنطق قد حرر بعد ذلك ، اما بالنسبة الى كتاباته ومقالاته او رسائله في الميتافيزيقا والسياسة ، فيبدو ان الرسائل المختصرة التي تركها قام بجمعها منفذ وصيته بغير تنقيح او تغيير . وقد تكون حتى وحدة الاسلوب التي تميز كتابة ارسطو ، وتدعم اولئك الذين يؤيدون كتابته لها ، ناجمة عن تحرير المدرسة الرواقية المشترك لها . ان الدخول في تفصيلات حول هذا الموضوع لا يهم القارئ المشغل . وقد نكون على يقين في جميع الحالات ان ارسطو هو الكاتب الروحي لجميع هذه الكتب التي تحمل اسمه ، وقد تكون اليد في وضع هذه الكتب في بعض الحالات يداً اخرى ولكن الرأس والقلب فيها رأس ارسطو وقلبه .

٣ - اصل المنطق

ان أول تمييز عظيم يمتاز به ارسطو عن سلفه ، وهو من وضعه وتفكيره ، هو وضعه لعلم جديد وهو المنطق . يعتقد رينان بضرورة تدريب العقل بطريقة مباشرة او غير مباشرة على الطريقة الادبية اليونانية . ويرى ان العقل لا يكتمل بدون هذا التدريب . والواقع ان العقل اليوناني نفسه كان في حالة من الفوضى وعدم النظام الى ان قدم ارسطو وسيلة لفحص وتصحيح الفكر . وحتى افلاطون كان روحاً منطلقة غير محكمة ، تتخلله سحابة الخرافة دائماً ، ويحجب جمال اسلوبه وجه الحقيقة . كما ان ارسطو نفسه كما سنرى قد خالف القواعد التي وضعها كثيراً ، ولكنه في ذلك الوقت كان لا يزال متأثراً بالماضي ، لا المستقبل الذي قامت افكاره بعد ذلك ببنيه . لقد ادى انحلال اليونان السياسي والاقتصادي الى ضعف العقل والاخلاق الاغريقية بعد ارسطو ، ولكن عندما جاء جنس جديد بعد الف سنة من التأخر والظلام ووجد مدمرة ثانية الراحة والمقدرة على الفكر والتأمل ، قام بيوثيوس بترجمة منطق ارسطو (٤٧٠ - ٥٢٥ ميلادية) الذي اصبح نموذجاً للفكر في العصور المتوسطة ، وأما للفلسفة في القرون الوسطى التي على الرغم من انها كانت مجذبة وعقيمة بسبب العقائد المحيط بها ، فقد تمكنت من تدريب الفكر والعقل الاوروبي اليافع على التفكير والتعقل

والتأمل والذكاء ووضع الاصطلاحات الفنية للعلم الحديث ، وارتت قاعدة النضوج العقلي لينمو ويقلب نفس النظام والوسائل التي اوجدته وأمدته بالحياة .

ان المنطق يعني ببساطة ، الفن والاسلوب الذي يساعدنا على تصحيح تفكيرنا . انه نظام واسلوب كل علم ، وكل نظام ، وكل فن ، وحتى الموسيقى تلجأ اليه . انه علم ، لان وسائل التفكير الصحيح يمكن اختصارها الى مدى كبير وتحويلها الى قواعد كالطبيعيات والهندسة ، وتدريسها لكل عقل عادي . انه فن لانه بالممارسة يقدم للفكر اخيراً ذلك الاتقان والدقة والضبط اللاشعوري السريع الذي يرشد ويوجه اصابع عازف البيانو بانسجام سهل في العزف على آلته . لا شيء اثقل على الفهم من المنطق ولا شيء اكثر منه اهمية .

لقد وردت اشارات عن علم المنطق الجديد هذا في مناقشات سقراط التي كان يلج فيها دائماً على وضع تعريف للاشياء ، كما ان رسالة ارسطو الصغيرة عن « التعاريف » تظهر ان منطقاً قد تغذى من هذا المنبع . اقد قال فولتير اذا كنت ترغب في التحدث معي عرف ما تقول وحدد قولك . كم من نقاش قد ينكمش ويتحول الى مقطع لو تجرأ المتناقشون على تحديد عباراتهم وجملهم ، هذا هو الأول والآخر في المنطق ، وقلبه وروحه ، بان تخضع كل عبارة هامة في حديث جدي الى أشد انواع التعريف والتحديد والفحص . انها طريقة صعبة ، وامتحان لا رحمة فيه للعقل .

كيف يمكننا تحديد الموضوع او العبارة ؟ ويجيب ارسطو على ذلك بقوله ، ان كل تعريف جيد يتألف من جزئين ، ويقف على قدمين ثابتين . فهو أولاً ،

يعين الموضوع الذي يتناوله السؤال الى طبقة او جماعة تشترك معه في مميزات العامة . لذلك يكون الانسان أولاً وقبل كل شيء حيواناً ، وثانياً فهو يشير الى اي شيء يختلف فيه عن جميع الاعضاء الآخرين في طبقته ، وهكذا فإن الانسان في طريقة ارسطو حيوان عاقل . والفرق الوحيد الذي يميز الانسان عن بقية الحيوانات هو كونه عاقلاً (هنا اصل الاسطورة الجميلة) حيث يسقط ارسطو الموضوع في بحر طبقته ، وبعدئذ ينتزعه وهو يقطر بالمعنى النوعي ، بعلامات نوعه وجماعته . بينما تشع فرديته وفارقه بالمزيد من الوضوح ، نظراً لتلاصق ذلك الموضوع والمواضيع الاخرى التي تشبهه مثل ذلك الشبه الكبير ، وتختلف عنه اختلافاً كذلك .

ان من اهم ما ادخله ارسطو على الفلسفة هو مذهبه في القياس ، والقياس تدليل مؤلف من ثلاثة اجزاء ، وهذه الاجزاء الثلاثة هي . مقدمة كبرى ، ومقدمة صغرى ونتيجة ، وهذه النتيجة تنتج عن الحقيقة المسلم بها في المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى . مثال على ذلك الانسان حيوان عاقل ، ولكن سقراط انسان ، لذلك فان سقراط حيوان عاقل . ان القارئ الرياضي سيرى فوراً ان بناء القياس يشبه التدليل القائل بان الشينين المساويين الى نفس الشيء يكون احدهما مساوياً للآخر . فاذا كانت (ا) هي (ب) و (س) هي (ا) عندئذ تكون (س) هي (ب) فقد وصلنا الى النتيجة كما في القضية الرياضية بالغاء الحد المشترك (ا) من المقدمتين . وهكذا نصل الى النتيجة في القياس بالغاء الحد المشترك وهو « انسان » من المقدمتين ووصل ما بقي . ان وجه الصعوبة كما اشار رجال المنطق من ايام بيرو الى ايام ستيوارت مل ، تكمن في ان المقدمة الكبرى في القياس تأخذ النقطة المراد اثباتها قضية مسلماً بها ، لانه اذا لم يكن سقراط عاقلاً (ولا احد يشك في ان سقراط انسان)

عندئذ لن تكون القضية القائلة بأن الانسان حيوان عاقل صحيحة صحة شاملة.
ويجب ارسطو بلا شك على انه عندما يتوفر في الفرد عند من الصفات المميزة
لنوع « سقراط انسان » فإن هذا يدل على افتراض اشتراك الفرد في الصفات
الاخري المميزة للنوع، وهي « العقلية ». ولكن القياس على ما يلوح ليس نظاماً
آلياً لكشف الحقيقة بقدر ما هو توضيح للعرض والفكرة .



٤ - تنظيم العلم

١ - العلم اليوناني قبل ارسطو

يقول رينان ، ان سقراط اعصى العالم افلسفة ، وان ارسطو اعطاه العلم ،
القد كانت الفلسفة موجودة قبل سقراط وكان العلم موجوداً قبل ارسطو ،
وتقدمت الفلسفة والعلم تقدماً كبيراً بعد سقراط و ارسطو ، ولكن هذا التقدم
جميعه كان مبنياً على الاسس التي وضعها هذان لفيلسوفان . لقد كان العلم قبل
ارسطو جينياً ، وولد بجيئه .

لقد قامت المدنيات السابقة قبل اليونان بمحاولات علمية ، ولكن هذه
المحاولات العلمية كانت مرتبطة بالنواحي الدينية ، كما يظهر من افكارهم التي
تعبّر عنها كتاباتهم الهير وغليفية والاشورية التي لا يزال الغموض يكتنفها . او
بعبارة اوضح فان هذه الشعوب التي سبقت اليونان كانت تفسر كل ظاهرة
طبيعية غامضة تفسيراً دينياً خارقاً حيث نجد الآلهة في كل مكان .

والواضح لنا ان اليونانيين في ابونيا هم أول من أقدموا على تقديم تفسيرات
طبيعية عن تعقيدات الكون وحوادثه الغامضة . لقد بحثوا في الطبيعيات عن
الاسباب الطبيعية وراء الحوادث المعينة ، كما بحثوا في لفلسفة عن نظرية
طبيعية للكل .

لقد كان طاليس ابو الفلسفة فلكياً ، وقد ادّعى ان سكان ملطيا عندما ذكر لهم ان الشمس والكواكب (التي ينبغي عليهم ان لا يعبدوها كآلهة) ليست سوى كرات من النار . واعتقد تلميذه انكسمندر (٦١٠ - ٥٤٠ قبل الميلاد) وهو أول يوناني يقوم بوضع خرائط جغرافية وفلكية ، ان العالم قد بدأ من كتلة متشابهة ، وان الاشياء كلها مستمدة من عنصر اولي واحد ، نشأت منه جميع الاشياء بانفصال الكميات المتعارضة . وان التاريخ الفلكي يعيد نفسه في اوقات دورية في نشوء والمحال عدد من العوالم لا حصر لها . وان الأرض تقوم في الفضاء بواسطة توازن الدوافع الداخلية ، وان جميع كواكبنا كانت سائلاً في وقت من الأوقات وكانت تتبخر بفعل الشمس ، وان الحياة اتخذت شكلها الأول في البحر ، ولكنها خرجت الى البر برسوب الماء ، وان بعض هذه الحيوانات الساحلية تطورت فيها مقدرة تنفس الهواء ، وأصبحت اسلافاً وجدوداً لجميع الاحياء التي تناسلت منها على الأرض .

لقد وصف اناكسانس وهو من ملطيا ايضاً (عام ٤٥٠ قبل الميلاد) اصل حالة الاشياء كتلة لطيفة تكاثفت تدريجياً الى هواء فقيوم فماء فتراب فضخور . وان الاشكال الثلاثة للمادة وهي الغاز والسائل والجسامد كانت مراحل تقدمية للتكثف ، وان الحرارة والبرودة كانتا مجرد تخلخل وتكثف ، وان الزلازل ناجمة عن تجمد تراب مائع الأصل ، وان الحياة والروح واحدة ، وان قوة باعثة للحياة ومتسعة موجودة في كل شيء وفي كل مكان . ويبدو ان اناكسجوراس (٥٠٠ - ٤٢٨ قبل الميلاد) معلم باركليز قد قدم تفسيراً صحيحاً عن كسوف الشمس وكسوف القمر . واكتشف طرق التنفس في النباتات والاسماك .

وهرقليطس (٥٣٠ - ٤٧٠ قبل الميلاد) الذي ترك الثروة والفنى ليعيش
عيشة فقر ودراسة في ظل المبد . وتحول بالعلم من الفلك الى الاهتمام بالأرض .
فهو يقول ان جميع الاشياء تجري وتتدفق وتتغير ، وحق في أكثر المواد
سكوناً نجد تدفقاً وحركة غير منظورة ، وان تاريخ الكون يجري في دورة
متكررة ، تبدأ كل منها وتنتهي في نار (هنا احد مصادر المبدأ الرواقى
والمسيحي عن اليوم الآخر وجنهم) ويقول ان كل شيء يوجد ويفنى .. وان
الحرب أب وملك على الجميع ، وهي التي جعلت بعض الافراد آلهة وبعضهم
بشرا ، وبعضهم عبيداً وبعضهم احراراً ، وحيث لا يوجد كفاح يوجد فناء ،
والمزيج الذي لا يخض يفسد وينحل وفي هذا التدفق من التغيير والصراع
والاختيار ، يوجد شيء واحد ثابت فقط ، وهو القانون ، وهذا النظام يسري
على الجميع ولم تصنعه آلهة او بشر . وكان موجوداً دائماً وهو موجود
وسيبقى .

ودفع امباذقليس (٤٤٥ قبل الميلاد في صقلية) بنظرية النشوء مرحلة
الى الامام حيث قال :

ان الاعضاء تنشأ بالاختيار لا بالوضع ، وان الطبيعة اجرت الكثير من
التجارب والاختبارات على الاعضاء ، حيث تجمع الاعضاء المختلفة الانواع .
وعندما يواجه هذا المزيج من الاعضاء الجسدية حاجات البيئته فانه يعيش
ويخلد مثله . وعندما يفشل هذا التركيب العضوي في مواجهة البيئته
يزول ويتم استئصاله ومع مرور الوقت تتكيف هذه التركيبات العضوية بنجاح
مع البيئته المحيطة بها . وأخيراً نأتى الى آخر مرحلة من مراحل العلم الذي سبق
عهد ارسطو في ليوسبوس الذي ازدهر في (٤٤٥ قبل الميلاد) وديمقريطس
(٤٦٠ - ٣٦٠) وهي مرحلة ذرية مادية لقد قال ليوسبوس ، كل شيء
مدفوع بالضرورة وقال ديمقريطس كل شيء مدفوع في الحقيقة

يوجد أو وجد وسيوجد عدد غير محدد من العوالم ، وفي كل لحظة تصطدم الكواكب بعضها ببعض وتفنى . وتظهر عوالم جديدة من الاضطراب من مجموع الذرات الاختياري ذات الحجم والشكل المتماثل ، وليس هناك تصميم او تخطيط وراء خلق هذه العوالم ، والكون يسير بطريقة آلية مثل المكنة .

هذا موجز طفيف عن قصة العلم اليوناني قبل ارسطو، ومن الممكن التسامح بعباراتها وافكارها الفجة اذا اعتبرنا الدائرة الضيقة في المعدات والآلات اللازمة في التجارب والاختبار التي ارغمت فيها هذه الطبيعة من العلماء على العمل . ان جمود وركود الصناعة اليونانية تحمت كابوس نظام الرق حالت دون التطور التام لهذه البداية الهامة . كما حول تعقيد الحياة السياسية السريع في اثينا السفسطائيين وسقراط وافلاطون بعيداً عن البحث في الطبيعة والاحياء الى النظرية السياسية والاخلاقية .

ومن مآثر ارسطو انه قام بوصل هذين الخططين من التفكير اليوناني ومما الفيزيائي والاخلاقي ، اللذين يعودان الى ما قبل معلمه افلاطون . حيث امسك مرة ثانية بجبل التطور العلمي الذي اتخذ طريقه في اليونان في الفترة السابقة لايام سقراط ، وواصل اعماله بتفصيل اكثر جزساً ، وملاحظات واستقصاء اكثر تعدداً ، وجمع كل النتائج المتراكمة في مجموعة هامة من العلم المنظم .

٢ - الاخلاق وطبيعة السعادة

عندما نضج ارسطو والتف الشباب حوله في عدد كبير طلباً للعلم والتهديب بدأ عقله يتحول اكثر فاكثر عن التفصيلات العلمية الى المشاكل الاخلاقية الاوسع والاشد غموضا . وبدا له بوضوح ان السؤال الاساسي الذي يفوق جميع الاسئلة التي تناولت العالم الطبيعي هو السؤال ؛ عن الحياة الفاضلة ، ما هي الحياة الفاضلة ؟ وما هو الخير الاعظم في الحياة ؟ وما هي الفضيلة ؟ كيف نستطيع بلوغ السعادة وتحقيقها .

كان ارسطو واقعيابسيطاني اخلاقه ، لان تدريبه العلمي يبتعد به عن التبشير بمثل عليا فوق مستوى البشر ، ونصائح فارغة عن بلوغ الكمال . يقول «سانتيانا» ان ادراك الطبيعة البشرية في ارسطو صادق تماما . لكل مثل اعلى قساعة طبيعية ، ولكل شيء طبيعي تطور مثالي ، ويبدأ ارسطو بالاعتراف بصراحة بان هدف الحياة ليس الخير في حد ذاته ، بل السعادة ، لاننا نختار السعادة لذاتها ، لالشيء آخر ، ونحن نختار الشرف ، والسرور والادراك ... لاننا نعتقد اننا نصل عن طريقها الى السعادة ، ونكون سعداء بفضلها ، ولكن ارسطو يعرف ان تسمية السعادة بالخير الاسمي مجرد حقيقة اولية ، وما زريده هو تفسير اوضح عن طبيعة السعادة ، وطريق الوصول اليها ، وهو يرجو ان

يجد لهذا الطريق بسؤاله عما يجعل الانسان مختلفا عن الكائنات الاخرى ،
وبافتراض ان سعادة الانسان ستكمل في العمل التام لهذه الصفة المختصة
بالانسان .

يمتاز الانسان عن غيره بقوة فكره التي بفضلها يتفوق ويحكم جميع اشكال
الحياة الاخرى ، وبما ان نمو وتطور هذه المقدرة على الفكر مكنته من
السيادة ، لذلك يمكننا ان نفترض ان تطور هذه المقدرة الفكرية سيحقق له
السعادة .

عندئذ تكون حياة العقل شرطا للسعادة باستثناء قضاء بعض السوازم
الجسدية ، وتوقف الفضيحة او بالاحرى الفضل على الرأي الواضح ، وضبط
النفس وتناسق الرغبات وفن الاعتدال ، وهي ليست ملكا للانسان البسيط او
هبة للقصد البريء . ولكنها نتيجة خبرة الانسان المتصور تطورا كبيرا .
ومع ذلك هناك طريق لبلوغ السعادة ، ومرشد لبلوغ الفضل قد يوفر
علينا الكثير من التأخير والعناء . وهو الطريق الوسط ، او الوسط الذهبي ،
حيث تنظم الاخلاق في شكل ثلاثي يكون الطرفان الاول والاخير فيه طرفا
ورذيلة . والوسط فضيلة او فضل . وهكذا يكون بين التهور والجنون فضيلة
الشجاعة ، وبين البخل والاسراف فضيلة الكرم ، وبين الكسل والجشع فضيلة
الطموح ، وبين الخضوع والعتو فضيلة الاعتدال ، وبين الكتمان والثروة فضيلة
الامانة ، وبين الكآبة والمزاح فضيلة البشاشة وبين محبة الخصام والتعلق فضيلة
الصدقة . عندئذ لا يختلف الصواب في الاخلاق والسلوك عن الصواب
في الرياضيات والهندسة ، حيث يعني الصحيح والمناسب وافضل
عمل لافضل نتيجة ، على كل حال فان الوسط الذهبي ليس كالوسط الرياضي ،
أي متوسط محكم لتقيضين محسوبين بدقة . ولكنه تسدبذب مع الظروف
المحاذية لكل وضع ، ويبدى نفسه للعقل الناضج المرن فقط . ان الفضيلة فن

يمكن كسبه بالمران والمادة . اننا لانعمل الصواب لان لدينا فضيلة او فضل .
ولكن الفضيلة موجودة فينا لاننا عملنا الصواب . هذه الفضائل تتشكل في
الانسان بعمله لها . اننا عبارة عما نفعل دائما . ان الفضل او الخير في الانسان
هو عمل النفس في طريق الفضيلة طيلة حياته .. وكما ان ظهور عصفور الجنة
او السنونو او وقوع يوم صحو من الامطار لا يعني اننا في فصل
الربيع لذلك لا يكفي يوم واحد او زمن قصير لجعل الانسان صالحا
وسعيدا .

الشباب هو زمن التطرف ، وعندما يرتكب الشباب خطأ فإن هذا الخطأ
يمنح الى جانب التطرف والمبالغة . ان صعوبة الشباب الكبرى هي في الخروج
من تطرف والوقوع في تطرف معاكس له . لان التطرف الواحد يؤدي بسهولة
الى الاخر سواء بسبب زيادة التقويم او غيرها . اولئك الذين يشعرون بتطرفهم
في امر من الامور لا يطلقون اسم الفضيلة على الوسط ولكن على التطرف المقابل
لتطرفهم . قد يكون هذا حسنا احيانا ، لاننا اذا كنا نشعر باخطائنا في
امر واحد متطرف ، ينبغي ان نوجه هدفنا الى الاخر ، وبهذا قد نصل الى
الموقف الوسط ، كما يفعل الناس في تقويم جذع الشجرة المنحني ولكن المتطرفين
الذين لا يشعرون بتطرفهم ينظرون الى الوسط الذهبي على اساس كونه رذيلة
كبرى ، ويتقاذفون الانسان المعتدل فيما بينهم كما يتقاذفون الكرة ، فالجبان
يعتبر الشجاعة تهورا واندفاعا ، كما يعتبر المتهور الشجاعة جبنا وضعفا ، وقس
على ذلك بقية الامور .

من الواضح ان مبدأ الوسط والاعتدال هذا يميز تقريبا كل منهج
من مناهج الفلسفة اليونانية . لقد كان هذا الوسط في ذهن افلاطون عندما عرف

الفضيلة بانها انسجام في العمل ، وسقراط الذي عرف الفضيلة بالمعرفة ،
لقد اوجد الحكماء السبعة تقليد الاعتدال والوسط هذا عندما نقشوا على معبد
ابولو في دلفي عبارة لا شيء في افراط ، ربما يكون جميع هذا كما يقول نيتشه
الفيلسوف الالماني محاولات من جانب اليونان لكبح عنفهم ودوافع اخلاقهم .
والأصح انها كانت تعكس الشعور اليوناني بان العواطف ليست رذائل في
حد ذاتها ، وإنما التطرف والانحراف في العواطف رذيلة والانسجام والاعتدال
فضيلة .

ويعتقد ارسطو بان الوسط الذهبي ليس كل السعادة ، بحيث يجب ان
يتوفر لدينا جانب من متاع الدنيا وحاجاتها ، والفقر يجعل من الانسان بخيلا
شحيحاً ، بينما المال يحرر الانسان من الحرص والشره . ان انبل الامور التي
تساعد في الوصول الى السعادة هي الصداقة ، حقا ان الصداقة ضرورية للانسان
السعيد اكثر من الانسان التعميس . لان السعادة تزيد وتتضاعف بمشاركة الاخرين
فيها ، وهي اكثر اهمية من العدالة ، اذ لا حاجة للعدالة عندما يكون الناس
اصدقاء . ولكن عندما يكون الناس عادلين مقسطين ، تبقى الصداقة نعمة وفضل ،
فالصديق روح واحد في جسدين ، ومع ذلك فان الصداقة تعني قلة الاصدقاء
لاكثرتهم ، وذلك الذي له اصدقاء كثيرون لا صديق له . ومن المتعذر ان تكون
صديقا لكثير من الاصدقاء اذا اردت الصداقة المخلصة . والصداقة الحققة تقتضي
الدوام لالشدة المتقطعة ، وهذا يعني استقرار في الاخلاق ، والمخلال الصداقة يعود
الى تقلب الاخلاق في الشخص ، هذا كما ان الصداقة تتطلب المساواة ، لان الامتتان
يكسوها قلبا وتلونا . اذ نرى اهل الجود والاحسان يحملون في نفوسهم صداقة
نحو الذين يساعدونهم اكثر من الصداقة التي يحملها هؤلاء لهم . وجوهر المسئلة
ان ترضي معظم الناس ، ان البعض دائن والآخر مدين . . . والمدينون يتمنون

التخلص من دائنيهم ، بينا اصحاب الدين حريصون عى المحافظة على مدينيهم .
ولكن ارسطو يرفض هذا التفسير ، و يعتقد ان لطف المحسن ينبغي
ان يتساوى مع حب الفنان لعمله ، وحنو الام على طفلها . اذ 'تناحب ما
صنعتة ايدينا .

ولكن على الرغم من ان اعمال الخير والعلاقات اخارجية ضرورية لمساعدة
فان جوهرها يبقى في داخلنا ، في معرفة واسعة وروح صافية ، واذا كانت
السرور او اللذة ليس الطريق ، فان ذلك الطريق يكون دائرة ، كما عبرسقراط
عن ذلك الرأي الابيقوري السمج ، اتنا نحك لنهرش ونهرش لنحك . كما ان
المنصب السياسى ايضا ليس حريقا للسعادة ، لاننا بذلك نسير وفقا لنزوات
الشعب واهوائه ، رلا شيء اشد تقريبا من الجمهور . كلا ، يجب ان تكون
السعادة في لذة الذهن ، وان لانتق بها الا اذا صدرت عن البحث عن الحقيقة او
الوصول اليها . ان عمل الفكر لا يستهدف شيئا وراء ذاته ، ويجد في ذاته السرور
الذي ينعشه الى مضاعفة عمله . وبما ان الاكتفاء الذاتي ، والمثابرة والمقدرة
على الراحة تنتمي بوضوح الى هذا العمل الفكري ، لذلك يجب ان تكون
السعادة كاملة فيه .

إن الانسان المثالي في رأي ارسطو هو الذي لا يعرض نفسه بغير
ضرورة للمخاطر ، ولكنه على استعداد لان يضحى حتى بنفسه في الازمات
الكبيرة ، مدركا ان الحياة لا قيمة لها في ظروف معينة . وهو يعمل
على مساعدة الناس ، ولكنه يرى العار في مساعدة الناس له ، لان مساعدة
الناس وتقدمهم دليل التفوق والعلو ، ولكن تلقى المساعدات منهم دليل التبعية
والمحطاط المنزلة ، ولا يشترك في المظاهر العامة ، وينأى بنفسه عن التفاخر
والتظاهر . وهو صريح في كراهيته وميوله ، وقوله وفعله ، بسبب استخفافه

بالناس وقلة اكتراثه بالاشياء . لايهزه الاعجاب بالناس او اكبارهم ، اذ لاشي يدعو الى الاعجاب والاكبار في نظره ، ولا يساير الاخرين ؛ الا اذا كان صديقا لان المسيرة من شيم العبيد ، ولا يشعر بالفل او الحق ابدًا ، ويففر الاساءة وينسأها ، ولا يكثر الحديث ولا يبالي بمدح الناس له او ذمهم لغيره . ولا يتكلم سوءا عن الاخرين ولو كانوا اعداء له ، شجاعته رصينه ، وصوته عميق ، وكلامه موزون ، لا تأخذه العجلة ، لان اهتمامه قاصر على اشياء قليلة فقط . ولا تأخذه الحدة او يستبد به الغضب ، لانه لا يبالي بشيء ، لان حدة الصوت وحث الخطى تنشأ في الشخص بسبب الحرص والاهتمام . ويتحمل نوائب الحياة بكرامة وجلال ، باذلا جهده قدر طاقته وظروفه ، كقائد عسكري بارع ينظم صفوفه بكل ما في الحرب مز خطط . وهو افضل صديق لنفسه ، ويتهيج في الوحدة ، بينما نرى الجاهل العاجز المجرد عن الفضيلة او المقدرة عدو نفسه ويخشى الوحدة .

هذا هو الرجل المثالي في نظر ارسطو .

٣ - السياسة

١ - الشيوعية ومذهب المحافظين

طبيعي ان تؤدي هذه الاخلاق الارستقراطية التي تميز ارسطو الى فلسفة سياسية ارستقراطية شديدة . وليس من المتوقع ان نجد في معلم الامبراطور (الاسكندر) أو زوج الاميرة روابط وثيقة مع عامة الشعب . او حتى مع طبقة التجار البورجوازية ، ان سياستنا تكمن في كنوزنا او بمعبارة اوضح من ثروتك اعرف ميولك . اضف الى ذلك ان ارسطو كان محافظاً اميناً بسبب الاضطراب والكارثة التي نجمت عن الديمقراطية الاثينية . وكمال مثالي نموذجي فقد تاق الى النظام والأمن والسلام . وشعر ان الوقت غير صالح للتطرف والاندفاع السياسي . ويقول ارسطو ان عادة تغيير القوانين باستخفاف واستهتار عادة سيئة ، وعندما تكون الفائدة من تغيير القوانين صغيرة ، من الأفضل مواجهة العيوب سواء كانت في الحاكم او القانون وتقويمها بالسامح الفلسفي . وسيكون كسب المواطن من تغيير القانون أقل من خسارته بعدم اطاعة الأوامر . ان سلطة القانون في تأمين الطاعة والولاء والحفاظة على الاستقرار السياسي تقوم الى مدى كبير على العرف ، والاستخفاف بسهولة

بالقوانين القديمة واستبدالها بقوانين جديدة سيؤدي الى اضعاف اعماق جوهر القانون . يجب علينا ان لا نستخف بتجارب الاجيال الماضية ، ولا شك ان « هذه الاشياء » الجديدة لو كانت صالحة لما بقيت مجهولة من الناس في الاعوام الطويلة الماضية .

« وهذه الاشياء » يعني ارسطو جمهورية افلاطون الشيوعية . ان ارسطو بحارب واقعية افلاطون في الكليات ومثاليته في الحكومات . فقد وجد بقعاً سوداء عدة في الصورة التي رسمتها ريشة الأستاذ . ولم يستغ طعم فكرة المعسكرات التي فرضها افلاطون على فلاسفته ، وكثرة الاتصال والاحتكاك فيها . وباعتبار كونه محافظاً فهو يضيف اهمية وتقديراً على صفات العزلة والانفراد والحرية ، ويضعها فوق المقدرة الاجتماعية والسلطة . ولا يحرص على مناداة كل معاصر بأخ أو اخت ولا كل مسن بأب أو ام ، واذا كان الجميع اخوتك ، فلا اخوة لك . ليس من الأفضل ان تكون خالاً او عمًا حقيقياً البعض عن ان تكون أباً على طريقة افلاطون . وفي الدولة التي يشترك فيها النساء الاطفال يكون الحب مائماً . ان امتلاكك للشيء يبعث في نفسك حبه والاهتمام به ، ويوقظ الحب الحقيقي في نفسك وهذا مستحيل في دولة كدولة افلاطون .

ربما شاهد الماضي البعيد المظلم ، مجتمعاً شيوعياً ، كانت الاسرة فيه الدولة الوحيدة ، وكانت المراعي والفلاحة وسيلة الحياة الوحيدة . ولكن في دولة ذات مجتمع أكثر انقساماً حيث ينقسم العمل الى اعمال غير متساوية الأهمية تؤدي الى اتساع الفوارق وعدم المساواة بين الناس ، هنا في مثل هذا المجتمع تنهار الشيوعية لانها لا تقدم حافزاً كافياً لجد وكد الفئة المتفوقة في قدرتها . ان باعث الكسب ضروري للكندح في العمل المضني . كما ان حافز الملكية ضروري للصناعة والفلاحة والاهتمام في العمل .

وعندما يملك كل فرد كل شيء لا أحد يهتم بأي شيء . واشتراك الكثيرين من الناس في الشيء يدعو الى قلة اهتمامهم به ، كل انسان يفكر أولاً في مصلحته وما تملك يده . وبالكاد ان يفكر في المصالح العامة . ومن الصعب دائماً ان يعيش الناس مع بعضهم في معسكرات مشتركة ، او يشتركون في ملكية الاشياء وخصوصاً في اشتراك الملكية . ان اشتراك الاصدقاء في السفر (من غير ان تذكر شيئاً عن صعوبة الزواج الشيوعي ومتاعبه) خير مثال على هذه الناحية فهم يتخاصمون في الطريق ويتشاجرون على اتفه الاشياء وأصغرها .

ان الدولة المثالية تستهوي افئدة الناس وتثير اهتمامهم وتجذب استماعهم والتفاتهم . وتغريهم بسهولة الى الاعتقاد بانها بطريقة رائعة ستجعل من كل انسان صديقاً للآخر ، خصوصاً عندما يسمعون المبشر بالدولة المثالية يعلن استنكاره لشرور العالم ومفاسده القائمة . . ويدعي ان هذه المفاسد والشرور ناجمة عن الملكية الخاصة . لكن هذه الشرور تنهض من مصدر آخر ، وهو سوء الطبيعة البشرية وميلها الى الشر . ان العلم السياسي لا يصنع الناس ، وينبغي ان يأخذهم على سجايام الطبيعة .

ان طبيعة الانسان ، الانسان المتوسط اقرب الى الوحش منها الى الاله ، ومعظم الناس اغبياء وكسالى بالطبيعة ، وفي كل نظام مهما كان نوعه نجدهم يهبطون الى أسفل الدرك ويفطسون في الاعماق . وتقديم المساعدات الحكومية لهم كصب الماء في برميل مثقوب يسيل . مثل هؤلاء الناس يجب ان يحكموا سياسياً ويوجهوا صناعياً بموافقتهم اذا امكن ، او بغير موافقتهم اذا استدعت الضرورة الى ذلك . لقد طبع الناس منذ الساعة الاولى من ولادتهم ليكون بعضهم حكاماً وبعضهم محكومين . وذلك الذي يدرك بعقله اعدته الطبيعية ليكون سيداً ، وذلك الذي لا يقدر على العمل الا يحسمه اعدته ليكون عبداً . ان العبد من السيد كالجسم من العقل ، وبما ان الواجب خضوع الجسم للعقل

لذلك من الأفضل ان يتدرج جميع الضعاف تحت حكم السيد . ان العبد آلة حية ، والآلة عبد لا حياة فيها ، وبعدئذ يكتب ارسطو وكأنه قد لاحظت امام عينيه الامكانيات التي قدمتها الثورة الصناعية لايدينا ، لو قامت كل آلة بالمجاز عملها ، ولو قام المكوك بالعزل والنسيج ، وعزفت الريشة على القيثارة بغير يد تحركها وترشدها عندئذ لا يحتاج رؤساء العمال الى مساعدين ، ولا الاسياد الى عبيد .

هذه الفلسفة توضح احتقار اليونان للاعمال اليدوية . لم تصل هذه الاعمال اليدوية في اثنينا الى درجة التعميد الشديد الذي وصلت اليه في ايامنا . عندما اصبح الذكاء المطلوب في كثير من التجارة اليدوية اكثر بكثير من الذكاء المطلوب في الاعمال التي تقوم بها الطبقة السفلى المتوسطة ، لقد كان العمل اليدوي مجرد عمل يدوي ، وقد نظر ارسطو الى الاعمال اليدوية نظرة ترفع ، من فوق الى اسفل ، من اعالي الفلسفة واعتبرها جديرة بصغار العقول او الذين لا عقول لهم . تتناسب مع العبيد فقط .

وهو يعتقد ان العمل اليدوي يؤدي الى بلاءه العقل واتلافه . ولا يترك وقتاً او نشاطاً للذكاء السياسي ويرى نتيجة لذلك ضرورة اشتراك من تتوفر لهم اوقات الفراغ في الحكومة .

وينبغي على أفضل دولة ان لا تقلل الميكانيكيين كمواطنين متجنسين فيها ، لقد كان في طيبة قانون ينص على منع تولي اي شخص منصباً حكومياً مالم يكن قد تقاعد عن العمل قبل عشر سنوات . وحقى التجار واصحاب المصارف وضعهم ارسطو في طبقة العبيد ، وتجارة المفرق ليست طبيعية في

نظرة ، ... ووسيلة يكسب بها الناس بعضهم من بعض . وأكثر أنواع هذا التبادل المالي كراهية في نظره هو الربا . . . اذ ان الربا يستخرج الربح من المال نفسه ، ولا يستخدم المال استخداماً طبيعياً ، لأن المقصود بالمال ان يكون وسيلة للتبادل ، لا لتوليد الفائدة ، هذا الربا الذي يولد المال من المال أكثر وسائل الكسب بعداً عن الطبيعة ، ويجب عدم توليد المال من المال . وبذلك فان بحث الشؤون المالية جدير بالفلسفة ، ولكن الانشغال في الشؤون المالية او كسبها لا يليق بالرجال الأحرار .



٢ - الزواج والتعليم

ان المرأة من الرجل كالعبد من السيد ، وكالعمل اليدوي من العمل العقلي ، وكالبربري من اليوناني . والمرأة رجل ناقص ، تركزت واقفة على درجة دنيا من سلم التطور . والذكر متفوق بالطبيعة ؛ والمرأة دونه بالطبيعة ، والاول حاكم والثانية محكومة ؛ وهذا المبدأ ينطبق بالضروة على جميع الجنس البشري . ان المرأة ضعيفة الارادة ، وبذلك فهي عاجزة عن الاستقلال في المرتبة والخلق . وافضل مكان لها حياة بيتية هادئة ، تكون لها السيادة المنزلية بينما يحكمها الرجل في شؤونها الخارجية . يجب ان لا تتساوى النساء مع الرجال كما في جمهورية افلاطون ، ولا يبد من زيادة الفوارق بينهما . لاشيء اشد جاذبية من الاختلاف ، ليست شجاعة المرأة متائلة مع شجاعة الرجل كما افترض سقراط ، شجاعة الرجل في القيادة ، وشجاعة المرأة في الطاعة . . او كما يقول الشاعر صمت المرأة مجد لها .

يبدو ان ارسطو يرتاب في تحقيق هذا الاستعباد المثالي للمرأة بالنسبة الى الرجل ، ولكي يقدم للذكر فائدة لا بد منها ينصح ان يؤخر

الزواج حتى يبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، وبعدئذ يتزوج من امرأة في نحو العشرين من عمرها . والذي يدفع ارسطو الى هذا الحساب في الزواج ، هو التفكير في ان هذين الشخصين سيفقدان قوتها التناسلية وعاطفتها في نفس الوقت تقريبا . لأنه اذا كان الرجل لا يزال قادرا على انجاب الاولاد ، بينما تكون المرأة عاجزة عن الحمل ، او العكس ؛ يؤدي ذلك الى نشوب الخلاف والنزاع بينهما . ولما كان زمن التناسل محددًا عموماً في سن السبعين في الرجل وسن الخمسين في المرأة ينبغي ان يتناسب الشروع في اتحادهما واتصالهما مع هاتين المسدتين . ان الاتصال الجسدي بين النساء والرجال في سن مبكر امر سيء بالنسبة الى تكوين الاطفال . وفي الحيوانات يكون نسل الحيوانات الصغيرة في السن ضعيفا وهزيلا وفي الاكثر اناثا ، والصحة اكثر اهمية من الحب ، بالاضافة الى ان التريث في الزواج وعدم الاستعجال به يساعد على الاعتدال . لان النساء اللاتي يتزوجن في سن مبكرة ينزعن الى الهوى والطيش والتقلب ، وفي الرجال ايضا يتوقف النمو الطبيعي في بناء اجسامهم عندما يتزوجون وهم في طور النمو . يجب ان لا تترك هذه الامور الى هوى الشباب ونزواته . ويجب ان تكون تحت اشراف الحكومة وسيطرتها ، بحيث تقرر الحكومة الحد الاعلى والادنى لسن الزواج في كل جنس ، وافضل الفصول للحمل ، ومعدل الزيادة في السكان . واذا كان معدل الزيادة في السكان مرتفعاً جداً يحل الاجهاض والاسقاط محل وأد الاطفال . بان تقوم بالاجهاض قبل بدأ الحياة في الجنين . هناك عدد مثالي للسكان في كل دولة ، يختلف مع اختلاف مكانها ومصادرها . والدولة التي تتألف من عدد صغير من السكان لا تكفي نفسها بنفسها فان كانت تضم عدداً كبيراً من السكان تصبح شعباً بالدولة ، وتصبح في الاغلب عاجزة عن اقامة حكومة دستورية ،

او وحدة قومية او سياسية . وكل زيادة في السكان عن العشرة الاف غير مرغوبة .

كما يجب ان يكون التعليم ايضا في يد الدولة . ان اكثر شيء يساعد في بقاء الدستور هو تكبير التعليم مع شكل الحكومة . . . اذ يجب تكبير المواطن مع شكل الحكومة التي يعيش فيها ، وبإشراف الحكومة على المدارس وسيطرتها عليها قد نتمكن من تحويل الناس عن الصناعة والتجارة الى الزراعة . ونتمكن من تدريبهم مع الحفاظ على الملكية الخاصة على فتح ممتلكاتهم واستعمالها مشاعباين الجميع . هناك قول مأثور يقول بالنسبة الى استعمال الممتلكات ، بوجود اشتراك الاصدقاء في كل شيء ، ولكن فوق كل شيء يجب تعليم المواطن الناشئ اطاعة القانون والا كان قيام الدولة مستحيلا . لقد قيل ان ذلك الذي لم يتعلم ابدا كيف يطيع الاوامر لا يصلح ان يكون قائدا صالحا . .

اذ يجب ان يكون المواطن الصالح قادرا على اطاعة الاوامر والقيادة معا . والنظام المدرسي الحكومي وحده هو الذي يستطيع تحقيق الوحدة الاجتماعية بين الاجناس والسلالات المختلفة . والدولة تجمع وتعدد لطوائف مختلفة يجب توحيده عن طريق التعليم . كما يجب تعليم الشباب ايضا النعم والبركات التي افاضتها الدولة عليهم وحققتها لهم ، والامن المستمد من التنظيم الاجتماعي ، والحرية الناجمة عن القانون . ان الانسان افضل الحيوانات اذا تم اعداده وتعليمه وتدريبه جيدا ، ولكنه اسوأها اذا اغفل امره واهمل شأنه . لان الظلم اشد خطرا عندما يكون مسلحا ، وقد تسلح الانسان منذ ولادته بسلاح الذكاء ومؤهلات خلاقية قد يستخدمها في اسوأ الغايات . واذا لم تتوفر لديه الفضيلة يكون اشد من الحيوانات وحشية ورجسا . يمرر بالنهم والشراسة والشهوة

والضبط وحده يعطيه الفضيلة . لقد تطور الناس بفضل المقدرة على الكلام الى مجتمع . وعن طريق المجتمع الى ذكاء ، وعن طريق الذكاء الى نظام ، وعن طريق النظام الى تمدن . وفي دولة منظمة كهذه يجد الفرد امامه الاف الفرص وسبل التطور مفتوحة له ولا يمكن ان تقدمها له حياة وحيدة مقفرة ، اذ لا يستطيع ان يعيش وحده سوى الاله او الوحش .

لهذا السبب تكون الثورة دائما تهورا وطيشا ، قد تحقق بعض الفوائد ولكن لقاء الكثير من الشرور التي تأتي بها ، واشد هذه الشرور هو اشاعة الاضطراب ، وربما انحلال النظام والبناء الاجتماعي الذي يعتمد عليه كل خير سياسي .

قد يرحب الشعب بنتائج البدع المباشرة التي تحدثها الثورة وقد يتمكن من احصائها : ولكن النتائج الغير مباشرة لا يمكن عدّها وتسبب كوارث في الكثير من الاحيان . اولئك الذين يحسبون حساب القليل من الامور يسهل عليهم اعلان حكمهم فيها ، كما ان الانسان يسرع في حزم رأيه في البسيط من الامور ، ومن السهل تضليل الشباب ، لسهولة بعث الآمال في نفوسهم . ان كبح العادات القديمة المتأصلة في النفوس منذ مدة طويلة سيؤدي الى قلب الحكومات التي تدخل بدعا جديدة بسبب تأصل العادات القديمة بين الناس وتشبثها بالبقاء . ان تغيير العادات ليس سهلا كتغيير القوانين . والدستور الذي يكتب له البقاء والدوام هو الدستور الذي ترضى عنه كل فئات الشعب وترغب بمحض ارادتها في المحافظة عليه . لذلك ينبغي على الحاكم الذي يريد ان يتجنب الثورة ان يمنع في بلاده تطرف الفقر وتطرف الثروة ، ويشجع (مثل البريطانيين) الاستثمار في الخارج كمخرج لتكاثف

السكان الخطير في بلاده . ويكون متدينا وينمي النزعة الدينية في بلاده .
كما ينبغي ان يظهر الحاكم ، وخصوصا الحاكم المطلق او المستبد اهتمامه في
اقامة شعائر الدين وعبادة الالهة ، لان الناس اذا اعتقدوا بتدين الحاكم
وتوقيره للالهة ، يقل خوفهم من نزول الظلم بهم على يديه ، ويقل ميلهم
وتدبيرهم في التآمر عليه ، لاعتقادهم بان الالهة ستحارب بجانبه .



٣ - الديمقراطية والارستقراطية

وبفضل هذه التحسينات في الدين ، والتعلم ، وتنظيم حياة العائلة . يكون كل نوع من انواع الحكومة التقليدية تقريبا صالحا ومرضيا ومحققا للغرض المطلوب منه . ان جميع انواع الحكومات تحمل في جنباتها مزيجا من الخير والشر . وروعي في وضعها منفصلة تكيفها مع الظروف المختلفة . ان الحكومة المثالية من الناحية النظرية تعني تركيز جميع السلطات السياسية في افضل انسان وهو ميروس على صواب عندما قال ، ان تعدد الرؤساء امر سيء ، ومن الافضل ان تجعلوا شخصا واحدا حاكما لكم وسيدا عليكم ، ويكون القانون بالنسبة الى هذا الحاكم الافضل اداة وليس قيادا او حدا ، اذ لا قانون يسري على اصحاب المقدرة البارزة من الرجال ، انهم هم القانون ، ومن السخرية ان يحاول احدنا وضع قانون لهم . وسيكون جوابهم على من يحاول وضع ذلك بما ذكر في اسطورة أنتيشيناس ، قالت الاسود للارانب في مجلس الوحوش عندما طالبت الارانب بالمساواة للجميع ، ان نخالبك ؟

والحكومة الملكية من الناحية العملية اسوأ انواع الحكومة ، بسبب عدم تحالف الفضيلة الكبرى والقوة الكبرى تحالفا وثيقا . لذلك فان افضل نظام عملي للحكومة هو الارستقراطية وهي حكم القلة من المثقفين واصحاب

المؤهلات والمقدرة . والحكومة امر معقد جدا ولا يجوز ترك مصير تقرير قضاياها للعدد والكثرة ، في حين تترك القضايا الاقل اهمية في ايدي رجال المعرفة والمقدرة . وكما يجب ان يحكم على الطبيب ، طبيب مثله ، كذلك ينبغي ان يحكم على الرجال عموما بامثالهم واندادهم . والان هل ينطبق نفس هذا المبدأ على الانتخابات ؟ لان الانتخابات الصحيحة لا يقوى على القيام بها الا اصحاب المعرفة . فالمهندس على صواب في اختياره شؤون الهندسة ، والطيار على حق في امور الطيران ، لذلك يجب ان لا يترك امر انتخاب القضاة او محاسبتهم للعدد الكثير « للشعب »

ولكن وجه الصعوبة في هذه الارستقراطية الوراثية انها لا تقوم على قاعدة اقتصادية ثابتة ، لان طبيعة حب المال الابدية ستجعل المنصب السياسي ان عاجلا او اجلا لمن يستطيع ان يدفع أكثر . ومن المؤسف ان تباع اعظم المناصب وتشتري . . والقانون الذي يسمح بمثل هذا الانتهاك يجعل الثروة اكثر اهمية من المقدرة ، وبذلك تسود الدولة كلها شراة المال ونهم الثروة ، لان بقية المواطنين ستحذو حذو رؤسائها في تكديس الثروة وشراء المناصب والقاب الشرف . وعندما لا تحتل الكفاءة والمقدرة المكان الاول في الدولة ، لا تكون تلك الدولة دولة ارستقراطية بالمعنى الحقيقي .

تأتي الديمقراطية عادة نتيجة ثورة على حكومة الاغنياء (البلوتقراطية) ان حب الكسب والربح في الطبقات الحاكمة يؤدي الى تضائل عسدها ، وهذا يقوي الجماهير التي تتمكن في النهاية من التخلص من اسيادها واقامة حكومة ديمقراطية . ان حكم الفقراء هذا له بعض الفوائد اذ ان الناس على الرغم من كونهم كافراد اقل مقدرة على الحكم من اصحاب المعرفة والتخصص لكنهم كمجموعة افضل منهم كافراد . وفوق ذلك قد يحكم على عمل الفنانين من لا يفهم الفن خيرا من حكمهم على انفسهم . كما ان ساكن البيت او صاحبه اصدق حكما على البيت ممن قام ببنائه .

والضيف اقدر على الحُكْم على الوليمة من الطباخ ، والكثرة اقل استعدادا للفساد من القلة ، وهي كالماء الكثير اقل عرضة للفساد من الماء القليل ، والفرد قد يمتلكه الغضب وتسوده العاطفة وبذلك يفسد رأيه ويزيغ حكمه . ومن الصعب افتراض استبداد العاطفة بعدد كبير من الناس وارتكابهم الخطأ في وقت واحد .

ومع ذلك فان الديمقراطية كمجموعة اقل مرتبة وقدر من الارستقراطية ، لانها تقوم على افتراض كاذب من المساواة . اذ انها تقوم على فكرة ان المتساوين في حق واحد (حق المساواة امام القانون مثلا) يكونون متساوين في جميع الحقوق . ولما كانت الناس متساوين في الحرية فهم يطالبون بالمساواة في كل شيء . والنتيجة لذلك تضحية الكفاءة والمقدرة على مذبح العدد ، والجاهير عرضة للغش والخداع لانها سهلة التضليل ، متقلبة الالهواء . لذلك يجب ان يكون الانتخاب قاصرا على العقلاء . وما نحتاج اليه هو مزيج من الديمقراطية والارستقراطية .

والحكومة الدستورية تقدم هذا الاتحاد السعيد بين الديمقراطية والارستقراطية . انها ليست افضل حكومة يمكن تصورها لان افضل حكومة هي حكومة المتعلمين الارستقراطية . ولكن الحكومة الدستورية افضل حكومة ممكنة . يجب ان نبحت عن افضل دستور لمعظم الدول وعن افضل حياة لمعظم الناس ، والانفكر في مستوى للفضيلة فوق طاقة الاشخاص العاديين ، والانفكر في دولة مثالية لا تزال في عالم الاماني والخيال . بل نفكر في حياة تستطيع اكثرية الشعب الاشتراك فيها ، وشكل حكومة تستطيع الدول بلوغها على وجه العموم . من الضروري ان نبدأ بافتراض مبدأ يمكن تطبيقه تطبيقا عاما ، بأن يكون الجزء الذي يرغب في بقاء الحكومة اقوى من الجزء الذي لا يرغب في بقائها ، وهذه القوة ليست في كثرة العدد وحده ، ولا في الملكية وحدها ،

ولأ في المقدرة العسكرية او السياسية وحدها ، بل في كل هذه الامور ، وبذلك نكون قد اخذنا بعين الاعتبار والاهتمام ، الحرية ، والثروة ، والثقافة ونسبل المحتد ، او المولد ، والتفوق العددي ايضا . والأن كيف السبيل الى ايجاد اكثرية ساحقة لدعم حكومتنا الدستورية ؟ قد يكون هذا متوفرا افضل في الطبقة الوسطى . وهنا نمود إلى الوسط الذهبي مرة ثانية ، والحكومة الدستورية وسط بين الديمقراطية والارستقراطية . سيتوفر في دولتنا ديمقراطية كافية اذا كان الطريق لكل منصب في الدولة مفتوحا امام الجميع . وارستقراطية كافية اذا اغلقت ابواب المناصب ولم تفتح الا للتعلمين الذين قطعوا مرحلة طويلة في التعليم . من اي جهة نقرب فيها من مشاكلنا السياسية الدائمة نصل الى نفس النتيجة ، وهي وجوب تقرير الامة لغاياتها واهدافها التي ستسير عليها ، شريطة قيام الخبراء باختيار وتطبيق الوسائل . ووجوب توسيع الاختيار توسيعا ديمقراطيا ، ووجوب حجز المناصب لافضل الناس استعدادا لها وهم اصحاب المقدرة والعلم .

٤ - ارسطو العالم في التاريخ الطبيعي

اننا لو بدأنا هنا بكتابه عن الفيزياء فان هذا الكتاب سيخيب املنا ، لان هذا الكتاب الصغير في الواقع ليس الا كتابا عن الميتافيزيقا وهو تحليل غامض عن المادة والحركة والفراغ والزمان واللانهائية والعلّة وغيرها. ان احدى المقاطع الحيوية التي جاءت في هذا الكتاب هجومه على ديمقريطس الذي اعتقد ان كل شيء مركب من ذرات ، وان هذه الذرات يفصلها بعضها عن بعض فراغ ، حيث ينكر ارسطو وجود الفراغ ويقول بعدم وجود فراغ في الطبيعة ، لان جميع الاجسام تسقط في الفراغ بسرعة متساوية ، وبما ان هذا مستحيل ، فان الفراغ المفترض يتحول الى ان لا يكون فيه شيء . لقد جرت عادة فيلسوفنا ان يبدأ اقواله بوصف تاريخي مختصر عما ذكر سابقا عن الموضوع الذي يريد بحثه ، ويضيف على كل شيء ذكر في الموضوع دحضه له ، لقد قال فرنسيس بيكون عن ارسطو انه يسير على الطريقة العثمانية وهو انه لا يستطيع ان يحتفظ بالحكم الا اذا قتل جميع اخوته . ولكننا مدينون لأرسطو وطريقته في دحض اقوال غيره بالكثير من معرفتنا عن الفكر اليوناني السابق لسقراط .

وللاسباب التي ذكرناها سابقا فان علم فلك ارسطو يمثل تقدما صغيرا عن

اسلافه ، فهو يرفض ما قاله فيثاغورس من ان الشمس هي مركز نظامنا ، ويفضل ان يقدم هذا الشرف للارض ، ولكن الكتاب الصغير عن علم الظواهر الجوية الذي كتبه حافل بالملاحظات الرائعة ، وحق تأملاته تشع نورا ونارا . فهو يقول ، ان هذا العالم دوري تبخر فيه الشمس الى الابد مياه البحر ، وتجفف الانهار والينابيع ، وتحول اخيرا المحيط الواسع الى صخور عارية ، وبعدئذ تتجمع الرطوبة والنداوة المتصاعدة وتتحول الى غيوم تتساقط بمطارها وتملأ الانهار والبحار مرة ثانية ، يسير التغيير في كل مكان بطريقة فعالة لا ندرسها . ان مصر من صنع النيل ، وانتاج رواسبه عبر الالف السنين . هنا البحر يتخطى البر . والبر يغوص تدريجيا في البحر . وتظهر قارات ومحيطات جديدة وتختفي محيطات وقارات قديمة . ويتغير وجه العالم كله مرة فمرة في انقباض وامتداد من النمو والانحلال ، وقد تحدث هذه التأثيرات بفترة ، وتدمر قواعد المدنية الجيولوجية والمادية ، وتقضي حتى على الحياة . لقد جردت الكوارث الارض بطريقة دورية وهبطت بالانسان مرة ثانية الى البداية الاولى ، مثل مدينة الملك سيسقوس التي بلغت اوجها مرات كثيرة لتعود الى حياة همجية بربرية ، وتبدأ في الصعود والتقدم في رحلتها من جديد . وسبب هذا التكرار الابدي في ظهور المدينة بعد المدينة في نفس الاختراعات والاكتشافات ، ونفس العصور المظلمة ذات التطور الثقافي والاقتصادي البطيء ، ونفس مولد التعليم والعلم والفن مرة ثانية ، لا شك ان بعض الحرافات والاساطير الشعبية ، هي تقاليد غامضة مبهمه عاشت وانحدرت لنا من الحضارات السابقة الفانية الاولى . وهكذا تسير قصة الانسان في دائرة خفيفة . لانهم يخضع بعد الارض التي يعيش عليها .

٥ - اصل علم الاحياء

وعندما كان ارسطو يطوف ويتجول في حديقته الحيوانية ، اقتنع بان من الممكن ترتيب التنوع الغير منتهي في الحياة في سلسلة مستمرة ، لا تختلف كل حلقة فيها في الاغلب عن الثانية . ففي كل ناحية سواء في البناء ، او نمط الحياة ، او التناسل ، او التربية او الاحساس والشعور ، يوجد تدرج دقيق وارتقاء من احط الانظمة العضوية الى اسمائها . ومن الصعب ان نفصل في درجات السلم الدنيا بين الحي والميت . فالطبيعة تجعل مرحلة الانتقال من الحالة الميتة الى الحالة الحية بشكل يجعل الحدود التي تفصل بينهما غامضة ومرببة . قد يوجد درجة من الحياة حتى في الجماد اللاعضوي . والكثير من الانواع لا نستطيع ان نطلق عليها بالتاكيد اسم نباتات او حيوان . كما ان من المستحيل تعيين هذه الانظمة العضوية الدنيا الى نوعها وفصيلتها ، لانها متشابهة جداً ، وهكذا فان استمرار التدرج والتسلسل والخلاف في كل نظام من الحياة جدير بالاعتبار كالخلاف في الاعمال والاشكال . ولكن في وسط هذه الوفرة والخصب المذهل المثير في البناء نقتنع بوقوف بعض الاشياء . ان الحياة قد تطورت باستمرار في تعقيد وقوة . وان الذكاء والعقل قد تقدم مرتبطاً مع تعقيد البناء وتحرك النوع ، وان هناك تخصصاً متزايداً في العمل ، وتركيزاً مستمراً من السيطرة والضبط الوظيفي

وبالتدريج خلقت الحياة لنفسها جهازاً عصبياً وعقلاً، وتحرك العقل بحزم لسيادة البيئة المحيطة به .

ومما يبعث على الدهشة ان ارسطو على الرغم من هذه التدرجات والمشايات التي تثب امام عينيه ، فانه لم يصل الى نظرية التطور . ورفض نظرية امباذقليس الذي يقول ببقاء الاصلح من الاعضاء والاجسام ، ورأى اناكسجوراس بأن الانسان اصبح ذكياً باستخدام يديه في الاعمال اليدوية اكثر من الحركة . اما ارسطو فيعتقد عكس ذلك وهو ان الانسان قد استخدم يديه لانه اصبح ذكياً والحقيقة ان ارسطو قد ارتكب الكثير من الاخطاء وهو أمر منتظر من انسان اوجد علم الاحياء . فهو يعتقد مثلاً ان عنصر الذكر في التناسل يجسي ويقوي الجنين فقط ، ولم يخطر على باله (اننا الآن نعرف من الاختبار عن طريق التناسل او الحبل الذاتي بغير تلقيح من ذكر) ان العمل الاساسي للسائل المنوي لا يقصد منه كثيراً تخصيب الرحم بقدر مد الجنين بالصفات الوراثية لوالده ، وبذلك السماح للنسل بالتنوع العنيف والمزيج الجديد من الابوين . وبما ان التشریح البشري لم يكن يستعمل في ايامه ، فقد وقع في اخطاء وظائفية فيسيولوجية ، ولم يقدر على التمييز بين الاوردة والشرايين ، وكان يعتقد بان الدماغ عضو لتبريد الدم ، واعتقد ان في جمجمة الرجل تداريز اكثر من المرأة . وارت للرجل ثمانية اضلاع فقط في كل جهة ، وان اسنان المرأة اقل من اسنان الرجل ، (يبدو ان علاقته مع النساء كانت خالية من العض والعراك) ومع ذلك فقد احرز اعظم تقدم في علم الاحياء من اي يوناني قبله او بعده . وهو يتصور ان الطيور والزواحف متقاربة في البناء والتركيب . وان القرود في شكله وسط بين الحيوانات والانسان . واعلن مرة بشجاعة ان الانسان ينتمي الى مجموعة واحدة من الحيوانات الولود (ذات الثدي) ويشير الى

ان النفس في الرضيع يصعب تمييزها عن النفس في الحيوان ، وان الطعام والغذاء غالباً ما يقرر نمط واسلوب الحياة ، وان بعض الوحوش ولوفة وتعيش متجمعة ، وبعضها تعيش منفردة منعزلة فهي تعيش في الطريقة الافضل لها للحصول على الطعام الذي تختاره . كما توقع قانون فون باير المشهور بان الصفات العامة في الجنس (مثل العين والاسنان) تظهر في الجسم الحي قبل الصفات الخاصة بنوعها (مثل شكل تركيب الاسنان) او بفرديتها (مثل اللون الأخير للعيون) وتوقع قبل الفي سنة تعميم سبنسر وهو انه كلما كان النوع او الفرد اكثر تطوراً وتخصصاً كلما قل عدد نسله ، لقد قام بملاحظات حيوانية رفضها مؤقتاً بعض علماء الاحياء ولكن اثبتتها الابحاث الحديثة عن الاسماك التي تصنع اعشاشها مثلاً واسماك القرش او كلب البحر التي تعازي بخلص حنينها .

واخيراً اوجد ارسطو علم الاجنة . فهو يكتب ان الشخص الذي يرى الاشياء تنمو وتكبر منذ بدايتها او ولادتها سيكون لديه افضل الرأى فيها . لقد قدم ابقراط ابو الطب واعظم طبيب يوناني مثلاً حسناً عن الطريقة التجريبية وذلك بكسر بيض الدجاج في مراحل مختلفة من حضانة البيض . وطبق نتائج هذه الدراسات في كتابه الصغير (عن اصل الطفل) وحذا ارسطو حذو ابقراط واجرى تجارباً ممكنته من وصف تطور الصوص او الكتكوت اثار اعجاب علماء الاجنة حتى في يومنا هذا . ويجب ان يكون قد اجرى بعض التجارب التناسلية او الوراثة النادرة . فهو يرفض النظرية التي تقول ان جنس الطفل يعتمد على الخصية التي تزود السائل التناسلي ، مستنداً الى -الة كانت فيها خصية الاب اليمنى مربوطة وعاجزة عن العمل ، ومع ذلك فقد جاء الاولاد من اجناس مختلفة . كما اثار بعض المشاكل الوراثة الحديثة ، فقد تزوجت امرأة من (ليس) رجلاً زنجياً . فولدت اولاداً جميعهم من البيض . ولكن ظهر اولاد زنجي في احفاد العائلة ، ويتساءل ارسطو اين كان السواد مخفياً في الجيل

الوسط . لم يكن بين هذا السؤال الذكي وبين تجارب جريجور ميندل
(١٨٢٢ - ١٨٨٢) سوى خطوة واحدة . عندما يعرف الشخص كيف يسأل
يكون قد عرف نصف الجواب . على الرغم من الاخطاء التي تشوه هذه
الاعمال البيولوجية فانها تشكل اعظم وثيقة علمية قام بوضعها انسان
بفردده .



٦ - الميتافيزيقيا وطبيعة الله

لقد نشأت ميتافيزيقيا ارسطو من علم احيائه . كل شيء في العالم يحركه باعث داخلي ليصبح شيئاً أكبر مما كان عليه . وكل شيء هو كلتا الصورة او الحقيقة التي نشأت عن شيء كان مادة لها . والذي قد يكون بدوره مادة لصور أكبر تنشأ عنه . وهكذا فان الرجل هو الصورة الذي كان الطفل مادة لها . والطفل هو الصورة التي كان الجنين مادة لها . والجنين هو الصورة والبويضة هي المادة . وهكذا نمود الى الخلف الى ان نصل بطريقة غامضة الى تصور المادة بغير صورة اطلاقاً . ولكن هذه المادة بغير صورة سوف لا تكون شيئاً ، لأن كل شيء صورة . ان المادة بمعناها الأوسع ، هي امكانية الصورة . والصورة هي الحقيقة ، الحقيقة التامة للمادة . المادة تسد والصورة تبني ، ان الصورة ليست الشكل فقط ولكنها القوة المشكّلة . وهي ضرورة داخلية وبعث يعجن المادة المجردة الى شكل وغرض خاص . انها تحقيق مقدرة المادة القوية . انها كمية القوى الكامنة في اي شيء ليعمل ويكون ويصبح . ان الطبيعة غزو الصورة للمادة والتدرج والتقدم الدائم وانتصار الحياة .

كل شيء في العالم يتحرك بشكل طبيعي الى تحقيق شيء معين . ومن بين الاسباب المختلفة التي تقرر حادثاً ، يكون السبب الأخير الذي يقرر الغرض اكثر الاسباب اهمية وحسماً . ان اخطاء وسخافات الطبيعة ناجمة عن قوة

استمرار مقاومة المادة لقوة الغرض المشكلة . ان التطور ليس عرضياً او مصادفة ، كل شيء يرشده من داخله ارشاد معين ، بطبيعته وبنائه ، ان بيضة الدجاجة مصيرها ان تصبح كتكوتاً لا بطة . وجوزة البلوط تصبح بلوطة لاصصافاً . ان هذا لا يعني وجود عناية إلهية خارجية تنظم الحوادث والبناء . ان هذا النظام والتصميم بالنسبة الى ارسطو أمر داخلي وينشأ من نوع الشيء وعمله ، فهو يعتقد بأن العناية الإلهية تنسجم تماماً مع عملية الاسباب الطبيعية .

ومع ذلك هناك اله . مع انه قد لا يكون الإله البسيط في صورة الانسان الذي تصوره العقل الساذج اليافع . يعالج ارسطو هذه المشكلة من المشكلة القديمة المحيرة عن الحركة . وهو يتساءل كيف تبدأ الحركة ؟ وهو لا يقبل امكانية ان تكون الحركة بلا بداية كما تصور ان تكون عليه المادة ، قد تكون المادة أبدية ، لانها الامكانية المستمرة الدائمة لصور المستقبل ، ولكن متى وكيف بدأت هذه العملية الواسعة للحركة والتشكيل التي ملأت اخيراً الكون الواسع باشكال لا نهاية لها . وارسطو يقول انه لا بد ان يكون للحركة مصدر اذا اردنا ان لا نفطس في رجوع لا نهائي . واضعين خلفنا مشاكلنا خطوة فخطوة الى ما لا نهاية . ويجب ان نقوي الايمان بالله المحرك الاكبر ولكنه هو نفسه لا يتحرك ، وهو كائن ، مذبذب لا مادي ، غير مرئي ، ولا مكان له لا مذكر ولا مؤنث ، ولا يتغير او يتأثر ، تام وأبدي . ان الله لا يخلق العالم بل يحركه ، ولا يحرك العالم كقوة ميكانيكية ولكن كمحرك كلي لجميع عمليات العالم . ان الله يحرك العالم كما يحرك المحبوب المحب . انه السبب النهائي للطبيعة . والقوة الدافعة للاشياء وهدفها ، انه صورة العالم ، ومبدأ حياته . ومجموع تفاعله الحيوي وقوته ، وهدف نموه الغريزي . وهو حيوية محض خالصة ، وربما القوة الغامضة للفيزياء الحديثة والفلسفة - ، وهو ليس شخصاً كما هو قوة مغناطيسية جاذبة .

ومع ذلك فان ارسطو بتناقضه المعتاد يصور الله روحاً مدركة لنفسها ، او بالاحرى يصوره روحاً غامضة مبهمه . لأن الله لا يفعل شيئاً ابداً في نظر ارسطو وليست له رغبات ولا ارادة ولا هدف . انه حيوية خالصة لدرجة انه لا يعمل ابداً ، وهو كامل كلاً مطلقاً ، لذلك ليس بمقدوره ان يرغب بأي شيء لذلك فهو لا يفعل شيئاً ، وعمله الوحيد هو التفكير في جوهر الاشياء . وبما انه نفسه جوهر جميع الاشياء وصورة جميع الصور . فان وظيفته الوحيدة هي التفكير في ذاته ، ياله من اله فقير هذا الاله الذي يعتقد به ارسطو ، انه ملك لا يفعل شيئاً ملك بالاسم لا بالفعل . ولا غرابة في ان يحب البريطانيون ارسطو لأن إله صورة طبق الاصل من ملكهم ، او صورة عن ارسطو نفسه ، لقد احب فيلسوفنا التأمل والفكر الى درجة ان ضحى من اجل هذا التأمل بمفهومه عن الله . ان الهه من نوع لا خيال فيه ، وهو منعزل في برجه العاجي بعيداً عن صراع الاشياء .

٧- علم النفس وطبيعة الفن

ان علم نفس ارسطو يشوهه غموض وتذبذب مماثل . هناك مقاطع ممتعة جدا . ومنها تأكيد قوة العادة ، ويسميا للمرة الاولى الطبيعة الثانية ، كما تجد قوانين الاجتماع هنا على الرغم من عدم تطورها وصفا محدودا لها . ولكن مشكاتي الفلسفة وعلم النفس الاساسيتين وهما حرية الارادة وخلود النفس تركتا في شك وغموض . ان ارسطو يتحدث احيانا كرجل جبدي . فهو يقول اننا لانستطيع ان نريد مباشرة ان نكون خلافا عما نحن ، ولكنه يسترسل في النقاش ضد الجبرية بقوله ، اننا نستطيع ان نختار ما سنكون ، باختيار البيئة التي تصوغنا وتشكلنا . وهكذا فنحن احرار بمعنى اننا نصوغ اخلاقنا وعاداتنا باختيارنا للاصدقاء والكتب والاعمال واسباب المتعة والتسلية ، وهو لا يتوقع جواب الجبري الفوري الجاهز ، وهو ان هذه الامور الاختيارية المشتقة في حد ذاتها تقرر عادات واخلاق اسلافنا ، وانها في النهاية نتيجة وراثية وبيئة لا اختيار لنا فيها ، وهو يؤكد بان استخدامنا الدائم للمدح واللوم يدل على مسؤولية اخلاقية وارادة حرة ، ولم يدرك ان الجبري قد يبلغ من المقدمات ذاتها نتيجة معاكسة تماما ،

وان توجيه المدح والذم قد يكون جزءا من العوامل المقررة للعمل
اللاحق .

ان نظرية ارسطو عن النفس تبدأ بتحديد ممتنع ، وهي ان النفس
المبدأ الحيوي التام لاي جسم حي . ومجموع قواه وتفاعله ، والنفس في النباتات
ليست سوى قوة مغذية مولدة . وفي الحيوانات ايضا تكون قوة حساسة محركة
وفي الانسان ايضا قوة العقل والتفكير ، والنفس كمجموعة قوى الجسد لتعيش
بدونه ، اي انها تفتى بفنائها والنفس والجسد اشبه شيء بالشمع وشكله ، يبدو
انفصالهما في الفكر فقط ولكنها في الحقيقة شيء واحد . ان النفس الخاصة
والشخصية تستطيع ان تعيش فقط في جسدها ، ومع ذلك فان النفس ليست
مادة كما ارادها ديمقريطس ان تكون ، وهي ايضا لا تفتى كلها . ان جزءا من
القوة العاقلة في النفس الانسانية مستكن او مستسلم ، وهو مربوط بالذاكرة ،
ويموت مع الجسد الذي يحمل الذاكرة ، ولكن « العقل الفعال » وهو قوة
الفكر المحضة مستقل عن الذاكرة ولا يصيبه الفناء ، ان العقل الفعال هو
العنصر العام الذي يمتاز عن العناصر الفردية في الانسان . ان الذي يخلد ليس
الشخصية برغباتها وعواطفها المتغيرة العابرة ، بل العقل في شكله المجرد
الاشخصي .

وبالاختصار فان ارسطو يدمر النفس ويجعل للعقل ابدية وخالودا .
ولا يسمع الانسان الا ان يبدي دهشته احيانا هل كانت هذه الطريقة الميتافيزيقية
حول النفس حيث نرى ارسطو يأكل الكعكة ويبقيها عندما يدمر النفس

وينفنيها ويبقي جزءا منها وهو العقل او الفكرة المجردة التي يقول
بخلودها ، قد يكون وسيلة بارعة لجأ لها ارسطو لانقاذ نفسه خوفا من ان يحكم
عليه الفريق المعادي للمقدونيين في اثينا بالاعدام بشرب السم ، اذا جاهر
صراحة بفناء النفس .

وهو يكتب باصالة اكثر في ميدان اكثر امنا وسلامة كالميدان
السيكولوجي ، فقد اوجد دراسة نظرية الجمال والفن ، فهو يقول ان الخلق
الفني ينبع من الباعث المكون والشوق او الحنين الى التعبير العاطفي . ان
شكل الفن يسمى الى تقليد الحقيقة ، وهو مرآة للطبيعة ، وفي الانسان
لذة ومتعة في التقليد ، لأنجدها في الحيوانات السفلى على ما يظهر ، ومع ذلك
فان هدف الفن لايقوم على تقديم المظهر الخارجي للاشياء ولكن اهميتها
الداخلية ، لان الحقيقة تكمن في هذه الاهمية الداخلية لا في التصنع والتكلف
والتفصيل الخارجي .

ان اعظم الفنون نبلا هي التي تؤثر على العقل والمشاعر ايضا (وهو مثل
السمفونيا لا تؤثر علينا بانسجامها وسياقها فحسب بل ببنائها وتطورها ايضا)
وهذا السرور العقلي هو اعظم اشكال السرور الذي يمكن ان يرتفع له
الانسان . كما ان عمل الفن ينبغي ان يستهدف الشكل . وفوق كل شيء
الوحدة ، التي هي عمود البناء الفقري ومركز الشكل ، حيث يجب توفر
وحدة العمل في الرواية او القصة المسرحية بأن لا يكون فيها مؤامرات
منحطة مخزية ، او حوادث شاذة . بحيث ينبغي ان يكون عمل الفن
منظفا ، ومنقيا لان الانفعالات التي تتراكم فينا تحت الضغط والكبح
الاجتماعي وتكون قابلة لمخرج مفاجيء في اعمال مخزية غير اجتماعية ،
يتم اصلاحها عندما يمسه التهييج المسرحي الانيس عن طريق الخوف والشفقة

التي تؤثر على تنقية هذه المشاعر وتطهيرها . لقد نسي ارسطو معالم معينة في الرواية المسرحية المحزنة « وهي تصادم المبادئ والشخصيات مثلا » ولكنه قدم في نظرية التطهير اقتراحا سيبقي على مر الازمان في تفهم قوة الفن التي يكتنفها الغموض في معظم الاحيان ، وهو شاهد ساطع على مقدرته في الدخول الى كل ميدان من الفكر وتزيين كل ما يمسه بفكره .



٤ - نقد

ماذا نقول عن هذه الفلسفة ؟ قد لا نجد فيها شيئاً مطربياً ، من الصعب ان تأخذك الحماسة بارسطو ، لأنه هو نفسه لم يكن متحمساً لشيء ، اذا طلبت مني البكاء وجب عليك ان تبكي انت اولاً . كما ان اسلوبه وامثله لا تثير الاكبار والاعجاب . اننا نفقد فيه حماسة افلاطون للاصلاح ، وحبه للانسانية المتوقد الذي حدابه الى انذار مواطنيه ، كما نفقد فيه اصالة افلاطون استاذه وجرأته ، وخياله الشامخ ، ومع ذلك ، فانتنا بعد قراءة افلاطون لا شيء ينفعنا اكثر من ارسطو الهاديء المرتاب .

دعنا نلخص عدم اتفاقنا معه ، ان ما يثير فينا الاستياء منه اولاً اصراره على المنطق ، فهو يعتقد بان القياس وسيلة الانسان الصحيحة على التفكير السليم ، مع انه مجرد وسيلة يلبس فيها تفكيره لأقناع عقول الآخرين ، وهو يفترض بان الفكر يبدأ بالمقدمات والبحث عن نتائجها . بينما يبدأ الفكر في الحقيقة بالنتائج الافتراضية والبحث عن مقدماتها المبررة لها ، والبحث عنها بطريقة افضل بملاحظة الحوادث المعينة في حالات التجربة المنفصلة ، ومع ذلك ينبغي الا ننسى ان الفبي سنة لم تغير سوى منطق ارسطو العرضي وان « اوكام ، وبيكون ،

وويل ، ومل ، ومئات الآخريين لم يجدوا سوى بقع صغيرة في شمس ارسطو ، وأن خلقه لهذا النظام الجديد في الفكر ، ووضعه الحازم لخطوطه الضرورية ستبقي احدى الاعمال العظيمة الخالدة للعقل البشري .

ومرة ثانية نجد ان افتقاره الى التجربة والاختبار والآراء العلمية ترك علمه عن الطبيعة كتلة من الملاحظات الفجة عسيرة الهضم ، لقد امتاز في جمع المعلومات وترتيبها ، وفي كل ميدان نجده يحسن استعمال تنسيقاته ويضع فهارس لها . ويسير جنباً الى جنب مع هذه الميول والمواهب في الملاحظة انشغاله وانها كنه في الميتافيزيقا الافلاطونية . وهذا يجعله يطوف في كل علم ، ويورطه في مقدمات واسعة ، وهنا يكمن عيب اليونان الكبير الذي كان يعوزه النظام والتحديد والتقاليد الثابتة ، فقد جال بحرية في ميدان غير محدود ، وجرى طوعاً الى النظريات والاستنتاجات وبذلك فقد حلقت الفلاسفة اليونانية وقفزت فوق مرتفعات لا يمكن بلوغها مرة ثانية ، بينما تخلف العلم اليوناني وراءها . ان الخطر الذي يواجهنا في الوقت الحاضر مقابل لهذا تماماً ، اذ ان المعلومات المستنبطة ، تنصب فوقنا من كل حذب وطرف كحجم بركان فيزوف ، وتكاد تخنقنا الحقائق المبعثرة غير المنسقة ، وعقولنا مفرقة بسبب زيادة العلوم وتفرعاتها التي ادت الى القوضى والاضطراب والبلبلة بسبب حاجتها الى فكر متناسق وفلسفة موحدة .

واخلاق ارسطو فرع عن منطقته ، والحياة المثالية في نظره تشبه قياسه ، انه يقدم لنا كتاباً موجزاً عن اللياقة والحشمة لا يثير فينا باعث الاصلاح والتحسين . لقد قال عنه احد النقاد القدماء بأنه معتدل الى حد الافراط في الاعتدال . وقد يصف احد المتطرفين « الاخلاق » عند ارسطو بانها ضربت رقماً قياسياً في جمع سخافات الادب وتوافهه . وسيعزي السياسي البريطاني نفسه بالتفكير في ان الانجليز في شبابه قد كفروا مقدماً عن خطاياهم الاستعمارية في

كحولتهم وسنوات نضجهم ، لأنهم كانوا يجبرون على قراءة كل كلمة في اخلاقي
ارسطو في جامعتي اكسفورد وكمبريدج . ويخبرنا (ماتثوارنولد) ان الاساتذة
في اكسفورد في وقته كانوا يعتبرون كتاب الاخلاق الوضعية معصوما
عن الزلل والخطأ . لقد شكل هذا الكتاب عن الاخلاق عقلية الطبقة البريطانية
الحاكمة وربما دفع بها الى تحقيق اعمال نبيلة وعظيمة ولكنه اضفى عليها قدراً باردة
وقاسية . يا ترى ، كيف تكون النتيجة لو تملكنا سياداً اعظم الامبراطوريات على الخامس
المقدس والمحافظة البناءة التي تطبع كتاب جمهورية افلاطون ؟ .

هذا بالاضافة الى ان ارسطو لم يكن يونانياً ، فقد رسخ وتكون قبل ان يحضر الى
اثينا ولا شيء فيه يطبعه بالطابع الاثيني المتسرع ، أو التجارب الاثينية الفكرية
التي جعلت اثينا تخفق بالنزاع السياسي الذي ساعد في اخضاعها الى الاسكندر
الذي كان يعمل لتوحيد اليونان . لقد ادرك ارسطو تماماً الاوامر المكتوبة على معبد
دلفي التي تنص على تجنب الافراط . لقد حرص كثيراً على تقشير نقاشه
الافراط الى درجة لم يترك فيها شيئاً . انه يخشى الفوضى كثيراً لدرجة
انسته الخوف من العبودية والرق . ويخشى عواقب التغيير لدرجة دفعته الى
تفضيل عدم التغيير الذي يعني الجمود والموت . وينقصه معنى التدفق الذي
امتاز به هرقليطس . وينسى بأن شيوعية افلاطون كانت تقصد الأقلية فقط ،
وهي الأقلية البعيدة عن الشراة والاثرة . ولكنه مع ذلك ينتهي الى النتيجة
الافلاطونية بالانحراف عندما يحث على استخدام الملكية الخاصة
استخداماً مشاعراً ومشاركاً انه لم ير (ومن المتعذر ان يرى في تلك الأيام)
ان السيطرة الفردية على وسائل الانتاج كانت حافزاً منعشاً عندما كانت
وسائل الانتاج بسيطة يستطيع ان يشتريها كل انسان ، وان زيادة التعقيد فيها ،
وزيادة تكاليفها تؤدي الى احتكارها والى تركيز خطر في الملكية والقوة ، وأخيراً
الى تباين وخلاف كبير يؤدي الى تفكك وتمزق في المجتمع .

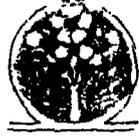
ولكن بعد هذا النقد الضروري لارسطو ، ستبقى فلسفته أبدع النظم

الفكرية وأكثرها تأثيراً ، والتي قام بوضعها عقل واحد فقط . ونشك في ان يكون مفكر آخر قد ساهم بمثل هذه الكثرة في تثقيف العالم وتنويره . لقد استمدت الاجيال كلها من ارسطو ، ووقفت على كتفيه لترى الحقيقة . لقد استمدت ثقافة الاسكندرية العظيمة من كتاباته ، واستوحت الهامها ومعرفتها الغزيرة من فلسفته ، ولعب منطقها دوراً كبيراً في تشكيل العقول في العصور الوسطى البربرية وفي تثقيفها وتهذيبها وصلقلها وتنظيمها في افكار متماسكة منظمة .

وقام المسيحيون من اتباع المذهب النسطوري بترجمة اعماله الاخرى الى اللغة السريانية في القرن الخامس بعد الميلاد ، والى اللغة العربية في القرن العاشر . و تم ترجمت الى اللغة اللاتينية حوالي عام ١٢٢٥ ، بحولة الفلسفة اللاهوتية من بداية فصاحتها في (ابلارد) الى نهايتها في توما الاقوييني . لقد اعاد الصليبيون معهم نسخاً يونانية من كتب ارسطو اكثر دقة ، وأحضر العلماء اليونان في القسطنطينية معهم كنوزاً أكثر من افكار ارسطو عندما هربوا من المدينة اثناء حصار الاتراك لها في عام ١٤٥٣ . لقد كانت اعمال ارسطو بالنسبة الى الفلسفة الأوروبية بمثابة الأنجيل للدين . واعتبرت نصوصها منزهة عن الاخطاء والزلل وحل لكل مشكلة . وقام جريجوري التاسع في عام ١٢٣١ بتعيين لجنة لتهديب هذه النصوص وتنقيحها . وفي عام ١٢٦٠ بدأ تدريس ارسطو في كل مدرسة مسيحية . كما فرضت الجمعيات الكنائسية عقوبة الضلال على المنحرفين عن آرائه . ويصف لنا شوسير سعادة تلميذه في اقتناء عشرين كتاباً من كتب ارسطو . يقول دانتي في الحلقات الاولى من كتابه الجحيم « رأيت ارسطو هناك وسط الاسرة الفلسفية ، وسط اكبار الجميع وتقديرهم ، وهناك رأيت افلاطون وسقراط يجلسان بجانبه على اقتراب اكثر من الجميع » .

هذه السطور تشير الى الشرف الذي احاط بارسطو طيلة الف عام . وبقي

كذلك الى ان تمكنت المعدات والآلات العلمية الحديثة ، والتجارب المتراكمة ،
والملاحظات والتجارب الواسعة من تطور العلم ، وزودت « اوكام ، وراموس ،
وروجر وفرانسيس بيكون ، بأسلحة لا تقاوم ادت الى انتهاء تأثير ارسطو
وسيطرته . لم يتحكم عقل آخر في عقول البشر هذه المدة الطويلة مثل
ارسطو .



٥ — أيامه الأخيرة وموته

لقد تعقدت الحياة امام فيلسوفنا تعقداً كبيراً ، وبدأ الشقاق بينه وبين الاسكندر لاحتجاجه على اعدام كاليثينيس (ابن اخت ارسطو) الذي رفض ان يعبد الاسكندر الذي فرض الوهيته على الشعب : وقد اجاب الاسكندر على هذا الاحتجاج مشيراً الى انه لن يتورع عن اعدام الفلاسفة ايضاً ، وان هذا ضمن نطاق قدرته . وكان ارسطو في الوقت ذاته منهمكاً في الدفاع عن الاسكندر بين الاثينيين ، وآثر التماسك اليوناني على الولاء الوطني للمدينة الواحدة ، واعتقد بان انتهاء النزاع وزوال سيادة المدن واستقلالها بامورها سيؤدي الى ازدهار العلم والثقافة . ورأى في الاسكندر ما رآه (جوته) بعد ذلك في نابليون ، رأى فيه الوحدة الفلسفية لعالم تسوده الفوضى والاستياء . وسخط الاثينيون الجائعون للحرية على ارسطو وزاد سخطهم عندما اقام الاسكندر تمثالاً لارسطو في قلب المدينة المعادية . وفي وسط هذا الاضطراب ينتابنا شعور عن ارسطو يختلف تماماً عن ذلك الذي اوجدته فينا فلسفته الاخلاقية . فنحن لا نواجه الانسان البارد الأعصاب والهاديء ، بل الشجاع المحارب الذي يواصل اعماله وسط اعداء يحيطونه من كل جانب ، ومنهم خلفاء افلاطون في الاكاديمية . والجماهير الغاضبة التي الهبتها فصاحة ديمستين النارية ، والتي تأمرت ونادت بنفيه او موته .

ومات الاسكندر بعد ذلك فجأة . وطفعت الفرحة الوطنية على اثينا ،
وقام انقلاب أودى بالحزب المقدوني الحاكم وأعلن الاثينيون استقلالهم ، واتجه
انتسبتر خليفة الاسكندر وصديق ارسطو المقرب في اتجاه اثينا الثائرة ، وهرب
معظم المقدونيين ، واقام يورميدون الاسقف الأول دعوى على ارسطو ، واتهمه
بانه قال بعدم فائدة الصلاة والقرابين ، وعندما وجد ارسطو ان مصيره قد
ينتهي في محاكمته وسط جماهير اشد عداء من تلك التي قتلت سقراط ، ترك
المدينة بحكمة قائلاً انه سوف لا يقدم لأثينا فرصة ارتكاب خطيئة ثانية ضد
الفلسفة . ولا ينطوي عمله هذا على الجبن ، اذ جرت العادة في اثينا دائماً على
تخيير المتهم بين النفي او المحاكمة . وعندما وصل الى تشاليسيس وقع
مريضاً وقيل انه انتحر بشرب السم بسبب تحول الامور ضده . على كل حال
فقد كان مرضه ميمتاً ، وبعد شهور قليلة من تركه اثينا مات وحيداً في عتمة
(٣٢٢ قبل الميلاد) وعمره ٦٢ سنة .

وفي السنة ذاتها شرب ديمستين الد اعداء الاسكندر السم وعمره ٦٢ سنة
ايضاً وفي اثني عشر شهراً فقدت اثينا حاكمها الأعظم وخطيبها الأعظم
وفيلسوفها الأعظم ، وذوى مجد اليونان بيزوغ فجر الرومان . ولكن عظمة
روما قامت على عظمة القوة لا على ضوء الفكر . وأندثرت عظمة روما بعد
ذلك وساد اوروبا ظلام طويل استمر الف سنة ، انتظر العالم فيها بعث الفلسفة
من جديد

الفصل الثالث

فرنسيس بيكون

١ - من ارسطو الى عصر النهضة العلمية .

عندما حاصرت اسبارطة اثينا وانزلت الهزيمة بها في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد تحولت السيادة السياسية عن اثينا ام الفلسفة اليونانية والفن ، مما أدى الى انحطاط نشاط واستقلال العقل الاثيني . وبعدها سقراط في عام (٣٩٩ قبل الميلاد) ماتت روح اثينا معه ، لتتربث قليلا في تلميذه الفخور افلاطون . - ثم هزم فليبي المقدوني الاثينيين في عام (٣٨٨ قبل الميلاد) واحرق الاسكندر مدينة طيبة العظيمة بعد ذلك بثلاثة اعوام . ان سيادة ارسطو المقدوني على الفلسفة اليونانية تعكس خضوع اليونان السياسي لشعوب الشمال الشجاعة الفتية ؛ وقد سارع موت الاسكندر في عام (٣٢٣ قبل الميلاد) بهذا الانحلال اليوناني . لقد بقي الاسكندر متوحشا على الرغم من جهود ارسطو في محاولة تثقيفه ، ولكن على الرغم من وحشيته هذه فقد تعلم توقيير الثقافة اليونانية واحترامها ، وكان يحلم بنشرها في الشرق ابان انتصارات جيوشه . لقد اوجد تطور التجارة اليونانية ، وزيادة المراكز التجارية اليونانية ، في جميع انحاء

اسيا الصغرى ، قاعدة اقتصادية لتوحيد هذه المنطقة كجزء من الامبراطورية الهيلينية . واعتقد الاسكندر بان الفكر سيسطع من هذه المراكز اليونانية التي تخرج منها البضائع اليونانية ايضا . ولكنه في اعتقاده هذا قلل من اهمية قوة الاستمرار والمقاومة في العقل الشرقي . واغفل جوهر وعمق الحضارة الشرقية . لقد كان ذلك من اوهام الشباب فقط ، اذ من الصعب فرض حضارة لم يتم نضوجها ، وتوطيد اقدامها واستقرار امورها ، على حضارة شرقية اكثر اتساعا واشد تأصلا في اكثر التقاليد وقارا . فقد تغلبت روح الشرق على الاسكندر نفسه في ساعات اوج انتصارته وتزوج (بالاضافة الى عدة زوجات اخرى) ابنة داريوس ملك الفرس وتبنى التاج والكساء الرسمي الفارسي في الدولة . واستقدم الى اوروبا الفكرة الشرقية عن حق الملوك المقدس . واخيراً فاجأ اليونان باعلان نفسه الها بطريقة شرقية جلييلة . وسخرت اليونان منه ، ولاقى بعد ذلك حتفه . وقد تبسح اشرب الجسم اليوناني المضمنى بهذه الروح الشرقية ، انصباب الطقوس الدينية ، والديانات الشرقية الى اليونان عبر نفس خطوط المواصلات والطرق التي شقها الفاتح الشاب . وتداعت السدود المنهارة امام سيل الافكار الشرقية ، التي تدفقت على الاراضي الاوروبية التي لا زال العقل فيها فتيا . وزاد انتشار الديانات الخرافية الغامضة التي كانت قد تأصلت في نفوس الهيلينيين الاكثر فقرا ، وانتشرت في كل جانب ، ووجدت روح الاستسلام والجمود الشرقية تربة خصبة صالحة في اليونان المضمحلة اليائسة . ولم يكن استقدام الفلسفة الرواقية او الزينوتية ، التي جاء بها التاجر الفينيقي زينون الى اثينا حوالي عام (٣١٠ قبل الميلاد) سوى وجه واحد للتسرب الشرقي الواسع الذي دخل الى اليونان ، لقد كان المذهب الرواقي والابيقوري استسلاما وقبولا للهزيمة ، وجهودا لمحاولة نسيان الهزيمة في احضان اللذة والسرور ، ونظريات حول كيفية بلوغ الانسان السعادة على الرغم من ذل الاستعباد والخضوع . تماما

كما كانت فلسفة شوبنهاور الرواقية الشرقية المتشائمة ، وفلسفة رينان الابيقورية اليائسة في القرن التاسع عشر شعارات للثورة المبعثرة وفرنسا المحطمة .

لم يكن هذا التناقض الطبيعي في النظرية الاخلاقية جديدا بالنسبة الى اليونانيين . اذ نجده في الفيلسوف المكتئب هرقليطس ، والفيلسوف الضاحك ديمقريطس ، وانقسام تلاميذ سقراط الى كليين ساخرين بالعالم ولا يؤمنون بصلاح البشر او قورينائيين يقولون بان الملذات غاية الحياة بزعامة انتستينس واريستبوس حيث مجدت اولى هاتين المدرستين الجمود ومجدت الثانية السعادة . ومع ذلك فقد كانت فلسفة هاتين المدرستين غريبة على التفكير اليوناني ولم تأخذ بها اثينا . ولكن عندما رأت اليونان كيرونيا تتحول الى دمء وطيبة الى رماد ، اصغت الى تعاليم ديوجينس السكبي . وعندما فارقها المجد اصبحت معدة لتعاليم زينون وابيقور .

لقد بنى زينون فلسفته الجامدة على جبرية وجد احد الرواقين المتأخرين وهو كريسموس صعوبة في تمييزها عن القدرية الشرقية . وعندما كان زينون الذي كان لا يؤمن بنظام الرق يضرب عبدا له ارتكب ذنبا ، توسل العبد ان يخفف من ضربه له ، قائلاً له ان فلسفته تقول انه مصير لا تخير في ارتكاب ذنبه ، فاجابه زينون بانه هو ايضا مصير لا تخير في ضربه له ، وكما ظن . شوبنهاور ان من العبث ان تحارب الارادة الفردية ضد الارادة الكلية اعتقد الرواقيون ان عدم الاهتمام الفلسفي هو النظرة المعقولة الوحيدة للحياة المحكوم على الصراع من اجل المعيشة فيها بالهزيمة التي لامر منها . واذا كان النصح مستحيلا لذلك ينبغي احتقاره . ان سر السلام يكمن في ان لا نجعل منجزاتنا متساوية مع رغباتنا ، ولكن في خفض رغباتنا الى مستوى ما نحققه من امور . لقد قال الرواقي سنيكا الروماني الذي توفي (عام ٦٥ بعد الميلاد)

إذا كان ما لديك لا يكفيك ، عندئذ ستكون بائسا وفقيرا حتى ولو ملكت العالم .

لقد نادى هذا المبدأ السام مطالبا ببدء ما كس له . وعلى الرغم من ان ابيقور كان في حياته رواقيا مثل زينون ، فقد قام بتقديم هذا المبدأ المعاكس . لقد اشترى ابيقور حديقة جميلة كان يحرثها ويزرعها بنفسه ، وانشأ مدرسته فيها ، وعاش فيها مع تلاميذه حياة لطيفة سارة مرضية . وكان يعلمهم وهو يمشي ويعمل . . . لقد كان لطيفا وانيسا ودودا مع جميع الناس ، وقال انه لاشيء انبل من تكييف الانسان نفسه على الفلسفة وتطبيقها على نفسه . واعتقد باستحالة جمود الشاعر ، وان اللذة (ليس من الضروري ان تكون اللذة الحسية) هي الغاية الشرعية الوحيدة التي يمكن ادراكها للحياة والعمل . ان الطبيعة تسوق كل جسم حي الى تفضيل خيره على كل خير آخر ، وهو يجسد مسرات الفكر اكثر من مسرات الحس الاخرى ، ويحذر من اللذائذ التي تهيج النفس وتزعجها بحيث تكون هذه اللذائذ هادئة ومسالمة . وفي النهاية يقترح ان لا نبحت عن اللذة في معناها المادي ولكن في هدوء واتزان العقل وراحته وهجوعه .

وعندما قام الرومان بنهب هيلنيا (في عام ١٤٦ قبل الميلاد) وجدوا هذه المدارس المتنافسة تتقاسم الميدان الفلسفي . وبما ان الرومان لم يكن لديهم الوقت والفراغ او القدرة على التأمل والتفكير انفسهم ، فقد عادوا بهذه الاراء الفلسفية مع جملة مفاهيم الى روما . لقد اتجه كبار المنظمين الى الاساليب الرواقية . وهكذا فقد كانت الفلسفة السائدة في روما تقريبا فلسفة زينون الرواقية ، سواء اكانت هذه الفلسفة في مرقص اورليوس الامبراطور ، او ابكتاتوس العبد وحتى لو كريتوس كان يتحدث عن الابيقورية بطريقة رواقية ، وانهي انجيله العبوس عن اللذة بالانتحار . . وشعره النبيل عن طبيعة الاشياء يسير على منوال

ابيقور في لمن اللذة في مدح ضعيف . لقد عاصر يوليوس قيصر وبومبي وعاش في جو من الاضطراب والرعب . وكانت يراعه العصبية المرتعشة تدعو دائما الى الصلاة من اجل الهدوء والسلام . ويصوره احدهم بانسه كان نفسا هيابة وجلة ، وان المخاوف الدينية طبعت شبابه بلون قاتم اسود . فهو لم يتعب من اخبار قرائه بعدم وجود جحيم الالهة ، وعدم وجود آلهة باستثناء الهة فاضلة تعيش في حديقة ابيقور في السحاب ، وهي لا تتدخل في حياة البشر ، ويمترض على انتشار فكرة الجنة والنار بين السكان في روما بنظرية مادية قاسية ، ويقول بان النفس والعقل يتطوران مع الجسم وينموان بنموه ، ويتألمان باله ويمتلان بعلمته ويفنيان بفناسه . ولا شيء يبقى سوى الذرات والفراغ والقانون ، وقانون القوانين هو قانون التطور والانحلال في كل مكان .
لا شيء يبقى وكل الاشياء تقنى .

تنمو الاشياء بالتصاق القطع الصغيرة بعضها ببعض الى ان نعرفها ونسميها ، فتأخذ في الفناء تدريجيا ، ولا تعود الاشياء التي كنا نعرفها ونعدها .

العالم من الذرات ، تتساقط ببطء او بسرعة ، ارى الشمس ونظام رفعها ، واشكالها ، وحق الشمس ونظمها ستعود ببطء الى حركتها الابدية .

وانت ايضا ايتها الارض ستذهبن وامبراطورياتك ، وارضيك ، وبجارك ، ستذهب ، وانت ذاهبة ساعة فساعة مثلها .

لا شيء يبقى

وبجارك في ضباب ناعم

ستذهب وتقنى .

وستهجر هذه الرمال التي يضيئها القمر مكانها ، وتأتي بحار اخرى تحتل مكانها . وتحصد في مناجلها البيضاء خاجان اخرى .

وهو يضيف الى التطور والانحلال الفلكيين اصل الانواع وفنائها فيقول . لقد حاول الكثير من الوحوش ذات الحلقة الغربية التي ظهرت على الارض التناسل والتكاثر ، وهي وحوش غريبة الوجوه والايدي والارجل ، بعضها بغير اقدام وبعضها بغير ايدي ، وبعضها بلا افواه وبعضها بلا عين . . لقد انتجت الارض هذا النوع من الوحوش ولكن بغير فائدة ، لان الطبيعة اوقفت زيادتها وتكاثرها ولم تستطع بلوغ زهرة العمر ، ولم تجد طعاما لها ، او تتحد بالزواج ، والكثير من الاجناس والانواع الحية قد ماتت وعجزت عن التناسل والتوالد والاستمرار لأن جميع الأنواع التي نراها تتنفس انفس الحياة . . قد حمتها الشجاعة او السرعة او الحيلة منذ البداية . وحافظت على انواعها . . .

اما الانواع التي لم تهبط الطبيعة مثل هذه الصفات فتبقى فريسة وغنيمة لغيرها الى ان تستأصل الطبيعة نوعها .
والشعوب ايضا كالأفراد تنمو ببطء وتقنى حتما . بعض الشعوب تتكاثر ، واخرى تتناقص وتزول . وتتغير الاجناس الحية في مدى قصير ، وتفارق الحياة بسرعة وفي وجه الصراع والموت الذي لا مفر منه ، لا حكمة سوى الهدوء والبرود الفلسفي ، والنظر الى الاشياء بعقل هادى مطمئن .

يبدو لنا هنا بوضوح اختفاء السرور الوثني القديم بالحياة ، وعزف روح اجنبية على القيثارة المحطمة . واذا كانت هذه هي روح اتباع ابيقور فما هي الروح التي طبعت الرواقيين من امثال اورليوس الامبراطور او ابكتاتوس العبد .
لا شيء يقبض النفس في تاريخ الادب اكثر من « رسائل » المبدما لم تزد عنها « تاملات » الامبراطور .

« لاتطلب وقوع الاشياء كما تختارها بل اختارها على اساس حدوثها كما تقع

لسكي تعيش في نجاح » .

وتزوى لنا قصة ان سيد ابكتاتوس الذي كان عبدا كما ذكرنا كان يعامله بقسوة شديدة ، وانه ذات مرة اخذيلوي ساقه للتسلية ، فقال ابكتاتوس لسيده لو واصلت لويك لساقى فانك ستكسرهما ، قال هذا بهدوء ، ولكن سيده استمر في لويها حتى كسرهما ، وهنا قال ابكتاتوس بلطف ورقة ، الم اقل لك بانك ستكسرهما ؟ ومع ذلك فاننا نلمس نبلا غامضا معنا في هذه الفلسفة كما في شجاعة بعض المستفسكين المسالمة ، لا تقل ابدا اني فقدت شيئا ، ولكن قل استعدادته ، اذا مات طفلك فهو عائد ؟ واذا ماتت زوجتك فهي عائدة واذا جردوك من اراضيك . هل تعود ايضا ؟ اننا نشعر من هذه العبارات باقترابنا من المسيحية وشهادتها البواسل . الم تدع الاخلاق المسيحية الى انكار الذات الم يدع المثل الاعلى المسيحي السياسي الناس الى الاخوة ، وفلسفة الحشر والنشر المسيحية عن الاحتراق النهائي لبيع العالم الم تكن مستمدة عن المبدأ الرواقي .

لقد فقدت الروح اليونانية الرومانية وثنيتها في ابكتاتوس . واصبحت معده لدين جديد . «وتأملات» اورليوس لاتبعد سوى خطوة واحدة عن تعاليم المسيح .

وفي الوقت ذاته اخذ الماضي التاريخي يذوب ويتحول الى مشاهد جديدة . ونلس هذا التحول من قراءه بعض المقاطع البارزة في ليوكريتس الذي يصف قدهور الزراعة في الدولة الرومانية ويعزوها الى جفاف الارض وتعبها . مهما كان السبب ، فقد تحولت ثروة روما الى فقر ، وتنظيمها الى فوضى ، وقوتها ومجدها الى جمود وخراب ، وتضاءلت المدن الى اطراف نائية صغيرة . وتمطلت الطرق ولم تعد تصلح للتجارة التي كانت تدوى فيها كدوي النحل . واخذت القبائل الجرمانية العنيفة تزحف سنة بعد اخرى عبر الحدود . واستسلمت الحضارة

والثقافة الوثنية الى الطقوس الدينية الشرقية . وتحولت الأباطورية بلا شعور الى البابوية .

لقد دعم الاباطرة الكنيسة في القرون الاولى من قيامها . وامتصت الكنيسة تدريجياً سلطة الملوك والاباطرة ، ونمت نمواً كبيراً في عددها و ثروتها ونفوذها . وفي نحو القرن الثالث عشر اصبحت الكنيسة تملك ثلث الارض في اوروبا . وامتألت خزائنها بتبرعات وهبات الاغنياء والفقراء . واستطاعت ان توحد لمدة الف سنة تقريباً معظم شعوب القارة الاوروبية بفضل سحر دستورهما وعقيدتهما الموحدة . ولم يشاهد العالم ولن يشاهد مثل هذه المنظمة في انتشارها ومسالمتها . ولكن هذه الوحدة استدعت وجود ايمان مشترك ينتظمه تصديق بما فوق الطبيعة يعلو على عوامل التغيير والتآكل في الزمان . لقد اقلت الكنيسة بعقيدة محدودة ومحددة طوقت بها العقل الاوروبي اليافع في المعصور الوسطى ، واحاطت هذه العقيدة العقل الاوروبي كما تحيط الصدفة الحيوان البحري الصغير في داخلها .

لقد تحركت الفلسفة المدرسية من داخل هذه الصدفة الضيقة من العقيدة والايان الى العقل ، وعادت ثانية الى الوراء في دائرة غيبية للأمل ، ومشبطة للعزيمة من فرضيات مسلم بها ولا يمكن نقدها واستنتاجات تم فرضها وتنظيمها مقدماً . وفي القرن الثالث عشر تحرك العالم المسيحي وتنبه بما ترجمه العرب واليهود عن فلسفة ارسطو . ولكن سلطة الكنيسة كانت لاتزال قوية لتأمين نفسها عن طريق توما الاقوييني وغيره بتحويل فلسفة ارسطو الى فلسفة إلهية للقرون الوسطى . ولم تكن نتيجة هذا حكمه بل خبثاً ومكرراً لأن فطنة الانسان وتقلبه كما يقول فرنسيس بيكون تحمل على البحث ، وفقاً للموضوع ومادته وبذلك يكون معيناً ، ولكن عندما يعمل حول نفسه ، كما يصنع العنكبوت نسيج بيته ، عندئذ يكون عمله عقياً يدور في دائرة لغافة ، وينسج نسيجاً من العلم يستحق التقدير بسبب جمال الخيوط وصنعها

ولكنه نسيج مجرد عن اللب والفائدة .

وبعد الف سنة من العزق والفلاحة ، اينعت التربة وازدهرت مرة ثانية . وكثر الانتاج وزادت البضائع وأدت الى توسع التجارة . وأنشأت التجارة عبر طريقها مدناً عظيمة مرة ثانية ، وتعاون الناس فيها على تغذية الثقافة واعادة بناء المدينة . وفتح الصليبيون الطريق الى الشرق ، وأدخلوا معهم لدى رجوعهم كثيراً من الترف والبدع الدينية التي قضت على الزهد والتقشف والعقيدة . واستوردوا الورق باثمان زهيدة من مصر ، ليحل محل الجلود الرقيقة باهظة الثمن التي كانت تستخدم في الكتابة ، والتي جعلت الرهبان والقسس يحتكرون العلم والتعليم بسبب فداحة اثمان هذه الجلود . وبرزت الطباعة التي طال انتظارها وكانت تكاليفها رخيصة وانتشرت في كل مكان . وخاطر الملاحون المسلحون الآن بالبوصله بشجاعة في عبور البحار المظلمة وتغلبوا على جهل الناس حول الأرض وخاطر المراقبون ورجال الفلك المزودون بالمرصد وراء حدود العقيدة الدينية ، وتغلبوا على جهل الانسان حول الفلك والماء . هنا وهناك في الجامعات والأديرة وأماكن العزلة الخفية توقف الناس عن الخلاف والنزاع ، وبدأ البحث يتجه الى تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب عن طريق السيمياء ، وتحولت السيمياء الى كيمياء ، وتحول الرجال عن التنجيم وتلمسوا طريقهم بشجاعة الى علم الفلك ، وتحولت اساطير التحدث بلسان الحيوانات الى علم الحيوان .

لقد بدأت اليقظة بروجربيكون الذي توفي في عام ١٢٩٤ وكبرت وترعرعت في ليوناردو (١٤٥٢ - ١٥١٩) وبلغت كمالها في فلك كوبر نيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) وجاليلو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وفي اجاث جلبرت (١٥٤٤ - ١٦٠٣) في المغنطيسية والكهربائية واثبات فاسيليوس (١٥١٤ - ١٥٦٤) في علم التشريح واثبات هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) في الدورة الدموية . وعندما نمت المعرفة ، ضعف الخوف . وضعف تفكير الناس في عبادة المجهول وزاد في محاولة التغلب عليه وارتفعت كل نفس نشيطة بثقة جديدة وتحطمت

الحدود ، ولم يعد هناك حدود أمام ما يمكن الانسان ان يصنع . وراحت السفن تجوب العالم ، وتجاوزت حدود التطرف والافراط في اجتيازها الحدود . وبذلك فقد تخطت حدود التطرف والافراط التي يصورها مثل قديم عن سفينة تعود بعد ان وصلت الى مضيق جبل طارق في البحر الأبيض المتوسط ، وقد نقش عليها عبارة « لا افراط ولا تفريط » .

لقد كان عصر تحقيق وأمل وعنف ، لبدايات ومشاريع جديدة في كل ميدان . عصرأ انتظر صوتاً ينادي به وروحاً محللة تجمل روحه وتشهد عزمه .

وقام فرنسيس بيكون أعظم عقل في العصور الحديثة وقرع الجرس الذي جمع المقول والذكاء ، وأعلن ان اوروبا قد أقبلت على عصر جديد .

٢ - حياة فرنسيس بيكون السياسية

ولد بيكون في الثاني والعشرين من شهر يناير من عام ١٥٦١ ، في بيت يورك في مدينة لندن . وهو المنزل الذي كان يقيم فيه والده السيد نيقولاس بيكون ، الذي كان في العشرين سنة الاولى من حكم الملكة اليزابيث حارساً للختم الملكي الاعظم . ويقول ماكولي الكاتب الانجليزي المعروف ، ان شهرة الابن قد طفت على صيت والده الذي لم يكن شخصاً عادياً . اذ ان العبقرية ذروة تسير نحوها العائلة عن طريق المواهب . وقد تجلت ذروة هذه المواهب في فرنسيس بيكون الذي بلغ قمة المجد السياسي والفلسفة . وكانت امه السيدة آن كوكي عديلة السير وليام سيدسل لورد بورغلي امين خزينة الملكة اليزابيث ، وكان من اعظم الرجال سلطة وقوة في انكلترا . كان والدها المعلم الأول للملك وارد السادس . وكانت هي نفسها عالمة بلغات كثيرة ومعلمة لاهوت . وجعلت من نفسها معلمة لابنها ، ولم توفر وقتاً في تعليمه وثقيفه . ولكن عصر الملكة اليزابيث كان المرابي الحقيقي والمعلم الرئيسي لعظمة بيكون . لقد كان عصر اليزابيث اعظم العصور لأعظم دولة من الدول الحديثة . لقد حول اكتشاف اميركا التجارة من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاطلسي وبذلك ارتفع شأن الشعوب الاطلنطية وهي اسانيا - وفرنسا - وهولندا - وانكلترا واحتلت السيادة التجارية والمالية التي كان تحتلها ايطاليا، التي جعلت منها نصف الدول الأوروبية مرفأ لها في تجارتها الشرقية . وبهذا التغيير انتقلت النهضة من

فلورنسا وروما وميلانو والبندقية الى مدريد وباريس وامستردام ولندن. وبعد تدمير قوة الاسطول الحربي الاسباني في عام ١٥٨٨ ، انتشرت التجارة الانكليزية في جميع البحار ، وخفقت مدنها بالصناعات الداخلية وطاف ملاحوها بجرأ حول العالم وظفر ربابنتها بأمريكا . وأينع الأدب فيها في شعر سنسر ونثر سيدني وخفق مسرحها بروايات شكسبير ، ومارلو وبن جونسون، ومئات من اصحاب الأقلام الهميفة . لا يمكن لانسان ان يخفق في بلوغ النجاح والازدهار في مثل هذا الوقت والبلد ، اذا كان يحمل في جنباته بذوراً . وأرسل ليكون عندما بلغ الثانية عشرة من عمره الى كلية الثالث في جامعة كبردج حيث بقي فيها ثلاث سنوات وتركها ساخطاً على نصوص كتبها ووسيلة تعليمها . واستقر رأيه على نقل الفلسفة الى تربة اكثر خصوبة تحولها من الجدال والنزاع والحوار المدرسي ، الى التحسين والتحرر وزيادة خير الانسان . وعلى الرغم من كونه يافعاً في السادسة عشرة من عمره فقد عرض عليه وظيفة مع السفير الانكليزي في باريس ، وبعد تفكير طويل في هذه الوظيفة وما عليها قبلها . وهو يتحدث في مقدمة كتابه « تفسير الطبيعة » عن هذا القرار الذي حوله من الفلسفة الى السياسة ، ولا بد لنا من ذكر هذا المقطع الذي جاء في الكتاب لأهميته .

لقد اعتقدت بأنني ولدت لخدمة الناس وقدرت اهمية الخير العام بأن أكبرس نفسي لخدمة الواجبات والحقوق العامة ، التي يجب ان يتساوى فيها الجميع كمساواتهم في استنشاق الهواء والحصول على الماء لذلك فقد سألت نفسي عن أكثر الامور نفعاً للناس ، وما هي المهام التي اعدتني الطبيعة لادائها او ما هي المهام التي تتناسب مع مؤهلاتي الطبيعية ، وبعد بحث لم أجد عملاً يستحق التقدير أكثر من اكتشاف الفنون والاختراعات والتطور بها للرفي بجياة الانسان ...

وفوق كل شيء اذا قدر لأي انسان ان ينجح لا في ابراز اختراع معين الى الوجود فحسب مهما كان نافعا بل في اشعال كوكب نير درى في الطبيعة يلقي في أول بزوغه بعض الضوء على الحدود الحاضرة للاكتشافات الانسانية ، ويكشف كلما زاد ارتفاعه وضوحاً عن كل شق وزاوية في دياجير الظلام . لقد بدا لي ان مثل هذا المكتشف جدير بأن يسمى الباسط الحقيقي لمملكة الانسان فوق الكون وبطل الحرية الانسانية ، ومحطم القيود التي تكبل الانسان في العبودية ، وبالإضافة الى ذلك فقد وجدت في طبيعتي مقبرة على البحث عن الحقيقة ، وعقلاً دواراً يكفي للبحث عن تلك الغاية العظيمة اعني ادراك الامور المتشابهة ، وفي الوقت نفسه فقد كان عقلي مركزاً تركيزاً ثابتاً للملاحظة ارجه الخلاف ، وكانت بي رغبة للبحث ومقدرة على ارجاء الرأي بالصبر والتأمل والتفكير . والقبول بجرص ، والاستعداد ، لتصحيح الانطباعات المزيفة وترتيب افكاري في عناء وشك وريبة . لم تكن بي هفة للجديد او تقدير أعسى للقديم ، أو كراهية شديدة لكل ادعاء وتدجيل من كل نوع ، لذلك من اجل هذه الاسباب كلها وجسدت في طبيعتي وميولي نوعاً من الصلة والقرابة التي تربطني بالحقيقة .

ولكن مولدي وتربيتي وثقافتني اتجهت بي جميعها الى السياسة لا الى الفلسفة ، فقد كنت على ما يبدو مشرباً بالسياسة منذ طفولتي . وكنت اشعر بأن واجباتي تجاه بلادي تستدعي مطالب خاصة مني . واخيراً فقد رجوت ان اتمكن بفضل احتلالي لمنصب مشرف في الدولة من تأمين المساعدة والسند في اعمالني بالنسبة الى تحقيق المهمة المقصورة لي . وبهذه الدوافع توجهت للسياسة . ولكن والده توفي بفترة عام ١٥٧٩ . لقد اراد ان يوفر له ضيعة تساعد في مستقبله ولكن الموت حال بينه وبين امنيته ، واستدعي السياسي الشاب الى لندن بسرعة ليجد نفسه في الثامنة عشرة من عمره يتيماً معدماً ، لقد اعتاد على حياة الترف

والبنخ في عصره ووجد صعوبة في تكييف نفسه على حياة البساطة التي فرضت عليه . بدأ يمارس القانون بينما الح على اقاربه من ذوي النفوذ لتمينه في احدي المناصب السياسية لتحرير نفسه من المخاوف الاقتصادية ، ولكن رسائله الملحة لم تسفر عن نتيجة ، على الرغم من جلال اسلوبها وعنفها ومقدرة كاتبها . وقد يكون السبب في عدم تلبية طلبه انه لم يقلل من مقدراته ، واعتبر نفسه جديراً بالمنصب مما جعل قريب امه اللورد بيرغلي يخفق في الاجابة المرغوبة على هذه الرسائل او قد يكون اسرف في رسائله في اثبات ولائه في الماضي والحاضر والمستقبل الي اللورد ، ففي السياسة كما في الحب لا ينفذ ان يقدم الشخص نفسه كلها للحبيب ، وان يقدم نفسه في جميع الاوقات لا كل نفسه في وقت من الاوقات ، والعرفان يغذيه الرجاء .

واخيراً اخذ بيكون في الصعود من غير ان يرفعه احد . ولكن كل خطوة كلفته عدة سنوات . وفي عام ١٥٨٣ انتخب عضواً في البرلمان ، واحبه ناخبوه واعادوا انتخابه مرة بعد مرة ، لقد كانت به فصاحة انيقة العبارة محكمة السبك جليلة ساطعة في النقاش ، وكان خطيباً مفوهاً . قال بن جونسون عنه لانجد انساناً يتحدث اكثر منه رشاقة وتأكيداً ووزناً او اقل منه سخافة وفراغاً ، ولا يملك سامعوه لو سعلوا او حولوا ابصارهم الا ان يخسروا . وكان مسموعاً ومجانباً ايما تكلم مالكاً عواطف المستمعين بقوة لا يجاريه فيها شخص آخر وكان تأثيره في خطبه كبيراً لدرجة انهم كانوا يخشون ان ينتهي من خطابه ، لقد كان خطيباً مفوهاً ومحسوداً .

لقد كان احد الاصدقاء من ذوي النفوس والجاه سخياً مع بيكون ، وهو الايرل اسيكس الذي فشلت الملكة اليزابيث في حبها له ، وبذلك تحول حبها الي كراهية . وفي عام ١٥٩٥ اهدى اسيكس الي بيكون ضيعة جميلة في

تويكنهام ، لفشله في تأمين منصب سياسي له . لقد كانت هدية عظيمة يفترض فيها الانسان ان تربط ببيكون برباط الولاء والعرفان مدى الحياة ، ولكن هذا لم يحدث . فقد قام اسيكس بعد سنوات قليلة بتنظيم مؤامرة لخلع الملكة اليرابيث وزجها في السجن . واختيار ولي عهدها للعرش . وكتب بيكون الرسالة تلو الرسالة الى المحسن له ، محتجاً فيها على هذه الخيانة ضد الملكة ، وعندما الحج اسيكس على السير في المؤامرة ، انذره بيكون بأنه سيضع ولاءه للملكة فوق عرفانه بجميله . وقام اسيكس في محاولته ، وفشل ، والقى القبض عليه ، وتوسل بيكون الى الملكة بالنيابة عن صديقه اسيكس للعفو عنه ، الى ان طلبت منه في النهاية ان يتحدث في اي موضوع يشاء الا في موضوع اسيكس . وعندما اطلق سراح اسيكس مؤقتاً ، اخذ يجمع قوات مسلحة حوله ، وزحف على لندن ، وحاول اثارة سكانها ، ودفعمهم الى الثورة . وهنا اتجه بيكون بفضب شديد ضده . وفي الوقت ذاته فقد عين عضواً في المحاكمة ، وعندما اعتقل اسيكس مرة ثانية وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة ، اشترك بيكون اشتركاً فعالاً في المرافعة ضد صديقه المقرب الذي احسن اليه .

وحكمت المحكمة على اسيكس بالموت ، وأفقده اشراكه في المحاكمة شعبيته مدة من الوقت . ومنذ ذلك الوقت بدأ يعيش في وسط اعداء يترهبون الفرص للايقاع به والقضاء عليه ، ولكن طموحه الجشع لم يترك له وقتاً للراحة ، ولم يكن راضياً او قانماً ابداً ، وبقي مبذراً ومسرفاً ومتلافاً ، تزيد نفقاته على دخله . وكان التظاهر بالنسبة له جزءاً من السياسة ، وعندما تزوج في الخامسة والاربعين من عمره ، انفق جزءاً كبيراً من المهر الذي تقدمه الزوجة عادة على الاحتفال بزواجه . وفي عام ١٥٩٨ القى القبض عليه لمعجزه عن

سداد ديونه ، وعلى الرغم من ذلك استمر في تقدمه ، ومكنته مواهبه ومقدرته ومعرفته الواسعة من ان يفدر عضواً ذا قيمة في تشكيل كل لجنة هامة . وفتحت الوظائف العليا امامه تدريجياً ، وفي عام ١٦٠٦ عين وكيلاً للمدعي العام ، وفي عام ١٦١٣ عين مدعياً عاماً ، وفي عام ١٦١٨ في سن السابعة والخمسين تولى منصب رئاسة الوزارة .



٣ - المقالات

ان صعود بيكون الى اعلى مناصب الدولة اوشك ان يحقق احلام - افلاطون عن الملك الفيلسوف . لان صعوده خطوة فخطوة نحو السلطة السياسية جعله يمتطي ذرى الفلسفة . نكاد ان لا نصدق ان يكون هذا الانتاج الادبي الغزير ، والمعرفة والاطلاع الواسع الذي طبع حياة هذا الرجل ، نتيجة تسلية وهو حياة سياسية هائجة ومضطربة . لم يستطع اتخاذ قرار فيما اذا كان يفضل حياة التأمل والفكر ، ام الحياة الفعالة - السياسية اكثر . وكان يرجو ان يكون فيلسوفاً وسياسياً ايضاً . مع انه كان يرتاب في ان يؤخر هذا الاتجاه المزدوج نحو الفلسفة والسياسة معاً وصوله الى ما يبتغي ويقلل من بلوغ اهدافه . وهو يكتب عن هذا الجمع بين السياسة والفلسفة فيقول « ان من الصعب ان نقرر فيما اذا كان الجمع بين التفكير والتأمل والحياة الفعالة ، او - الاقتصار اقتصاراً تاماً على حياة الفكر والتأمل يضعف العقل ويؤخره كثيراً . »

لقد شعر ان الدراسة ليست غاية او حكمة في حد ذاتها وان المعرفة ان لم تكن مقرونة بالعمل ليست سوى زهو وغرور علمي شاحب فهو يقول : « ان انفاقك في الدراسة النظرية وقتاً طويلاً ضرب من الكسل والخمول ، والتخلي بها تصنع وتكلف ومحبة في الظهور واستنادك في حكمك دائماً على احكام الدراسة النظرية وقواعدها ضرب من مجون العلماء ومزاجهم ... ان

رجال الاعمال يذمون الدراسة والبسطاء يكبرونها والحكام يستخدمونها .
لان الذين يتلقون الدراسة النظرية لا يتعلمون طريقة استخدامها عملياً لان
الدراسة النظرية لا تعلم وسيلة استخدامها لانها نظرية في حد ذاتها . وهناك حكمة
خارجة عن الدراسة النظرية وهي افضل منها وهي حكمة تكتسب
بالملاحظة . »

ان تعليق يكون هذا على الدراسة النظرية يضع حداً للفلسفة
المدرسية ، ويضع اهمية التجربة والنتيجة التي تميز الفلسفة
الانكليزية ، والتي بلغت ذروتها في فلسفة البراجماتزم . « او المذهب العملي »
وهو المذهب الذي يقول ان اهمية المبادئ في نتائجها العملية . ان هذا لا يعني
ان يكون توقف عن حبه للكتب والتأمل والتفكير ، فهو يكتب في كلمات
تذكرنا بسقراط ، « لا يستطيع الحياة بلا فلسفة » ويصف نفسه بقوله اني
رجل يصلح بطبيعته للادب اكثر من اي شيء آخر ، ولكن شاءت الاقدار
ان تبعده عن ميول عبقريته ، وتحوله الى الحياة السياسية الفعالة . لقد كانت
« مديح المعرفة » تقريباً اول منشوراته وحماسته للفلسفة في هذه الرسالة تجبرنا على
اقتطاف بعض ما جاء فيها .

« سأقدم مديحي للعقل نفسه ، العقل هو الانسان ، والمعرفة هي
العقل ، وليس الانسان الا ما يعرف . ليست لذائد العاطفة والحب اقوى من
لذائد الحواس ، ليست لذائد العقل اعظم من لذائد الحب . اليس حقاً اننا لا
نشبع من لذة البحث عن الحقيقة ؟ وان المعرفة وحدها تنقي العقل من جميع
انواع التيهيج والاضطراب . كم من الاشياء موجودة ولا نتصور وجودها . كم
من الاشياء تنال تقديرنا اكثر من قيمتها وقدرها ؟ هذه التطورات والتخيلات
التي لا طائل تحتها ، هذه الاراء والافكار والقيم الضعيفة ، التي ستكون
سحباً للاخطاء التي ستتحول الى عواصف من الاضطرابات والهياج . هل هناك

سعادة كسعادة انتشار عقل الانسان من فوضى الاشياء واضطراباتهما ، حيث يتوفر له امر احترام نظام الطبيعة واخطاء الناس ، الا نلفظن ايضاً الى ثروة الطبيعة كما نلفظن لجمالها . هل الحقيقة عتيمة مجدبة ، أليس في وسعنا انتاج امتعة ذات قيمة ، واعطاء حياة الانسان سلماً لا نهاية لها . »

ان ابداع مقالته الادبية تظهره لا زال حائراً وموزعاً بين هذين الحبيبين، حبه للسياسة وحبه للفلسفة . ففي « مقال الشرف والشهرة » نراه يبطي كل درجات الشرف الى الاعمال السياسية والعسكرية العظيمة ، ولا يعطي شيئاً للفلسفة والادب . ولكنه يكتب في مقال « الحقيقة » ان البحث عن الحقيقة وهو حبه وتعشقه ، ومعرفة الحقيقة وهي حمداً ومدحها ، والايمان بالحقيقة ، وهو التمتع بها ، هو سلطان الخير للطباع البشرية . ففي الكتب نتحدث مع الحكماء وفي الاعمال نتحدث مع الاغبياء ، ذلك اذا كنا نحسن اختيار كتبنا: بعض الكتب تذاق ، بعضها تبلع ، وبعضها تمضغ . وجميع انواع هذه الكتب تشكل بلاشك قطرة صغيرة جداً من شلالات الخبر وبحاره التي يغتسل فيها العالم ويفرق كل يوم .

ان المقالات تعد حتماً من بين الكتب القليلة التي تستحق المضغ والمضم . ومن النادر ان تجد كمية كبيرة من اللحم حمرة وطيبته وطعمته وبهرت في صحن صغير كهذا . ان يكون يمقت الحشو واطالة الشرح ، ويحتقر اضاعة الكلام ، ويقدم لنا ثروة كبيرة في عبارة صغيرة ، وكل واحدة من هذه المقالات تقدم لنا في صفحة او اثنتين براعة وحذفاً مقطراً ، لعقل استاذ متمكن من قضية هامة كبرى من قضايا الحياة . ومن المتعذر ان نفضل بين اسلوبه ومادته ، اذ ان لفته بلغت من جمال الشر ، ما بلغه شكسبير من جلال الشعر ، واسلوبه محكم ولكنه مصقول . والواقع ان بعض الایجاز في اسلوبه يعود الى تبنيه البارع للاسلوب والجملة اللاتينية . ولكن ثروة الجواز والامثلة في اسلوبه

صفة من صفات عصر الملكة اليزابيث التي تعكس غزارة النهضة . لا نرى رجلاً في تاريخ الأدب الانكليزي اكثر خصوبة وجمعا لجوامع الكلم والمقارنة منه . ان اسرافهم في لباس الالفاظ حللا قشبية هو احد عيوب اسلوبه . ان الاستعارات - والتشبيهات والتوريات التي لا نهاية لها تنصب على اعصابنا كالسياط فتلهبها وترهقها في النهاية . ان المقالات كالطعام الثقيل الذي يتعذر هضمه لو تناولنا منه كمية كبيرة دفعة واحدة ، ولكن عندما نقرأ اربعاً او خمساً منها في كل وقت ، تكون ابداع الغذاء الفكري في اللغة الانكليزية - ماذا نلخص من هذه الحكمة المخصصة ؟ ربما تكون اعظم تحول وبداية ، واعظم ارتداد عن ازياء فلسفة العصور الوسطى ، هل قبوله يكون الصريح للاخلاق الابيقورية ، تلك الفلسفة التي تقول ، لا تستخدم كيلاً ترغب ولا ترغب كيلاً تفزع يدك على عقل ضعيف خجول جبان . والواقع ان معظم مبادئ الفلاسفة لا يوثق بها ، وهي تعنى بالناس اكثر مما تتطلبه طبيعة الاشياء ، فهي تزيد من مخاوف الموت بما تقدم ضده ، ما دامت تجعل من حياة الانسان اعداداً للموت وتنظيماً له . ان من المستحيل على العدو الا ان يظهر مخيفاً عندما لا يكون نهاية للدفاع ضده . لاشيء اكثر ضرراً للصحة من كبت الرواقين للرغبات ، اذ ما قيمة الحياة الطويلة التي احالها كبت المشاعر وجودها الى موت سابق لأوانه ؟ هذا بالاضافة الى انها فلسفة مستحيلة ، لان الغريزة ستخرج ، لان الطبيعة دائماً محتبئة ، وقد تنقلب عليها ، ولكن من النادر استئصالها . والقوة تجعل الطبيعة اشد عنفاً في عودتها ، والمبادئ والحديث تجعل الطبيعة اقل الحافاً ولجاجة ، ولكن العادة وحدها التي تغيرها او تخضعها ... ولكن لا ينبغي على اي انسان ان يثق في انتصاره على طبيعته ، كثيراً ، اذ ان الطبيعة قد ترقد دفيناً وقتاً طويلاً ، ولكنها تنهض مع المناسبة والاعزاء . كما حدث مع عذراء السوب التي تحولت من قطة الى امرأة وجلست بحشمة في نهاية المائدة الى ان مر فأر امامها . لذلك على الانسان

ان يتجنب الباعث او المناسبة دفعة واحدة ، او يضع نفسه فيها حتى يقل تأثره بها . والواقع ان يكون يعتقد بوجود تعويد الجسم وتمرينه على التطرف والافراط ، وتعويده على الكبح والكبت ايضا . لثلا تقضي عليه برهة انطلاق وعدم مقدرة على الكبح .

« وهكذا فإن الشخص الذي يتعود على اكل اكثر الاطعمة سهولة في الهضم يشعر بعسر الهضم والاستياء عندما تحول الضرورة او النسيان بينه وبين عادته » ومع ذلك فان تنويع المسرات افضل من الافراط فيها « لان « قوة الطبيعة في الشباب تمر بمجالات افراط وتطرف كثيرة ، تملك الانسان حتى موته . ان نضج الانسان يدفع ثمن شبابه . ان طريق الصحة الملوكية الوحيدة هي الحديقة ، وهو يتفق مع كاتب سفر التكوين والخلق في التوراة « ان الله العزيز زرع حديقة في الاول » ومع فولتير الذي يقول بوجود زراعة ساحات بيوتنا الخلفية .

ان فلسفة مقالات بيكون الاخلاقية تنزع الى الميكيا فيليه اكثر منها الى المسيحية . « اننا مدينون بالفضل الى ميكيا فيلي وامثاله من الكتاب الذين اعلنوا بوضوح وبغير تستر او التواء عما يفعل الناس ، لا عما ينبغي ان يفعلوه لان من المستحيل ان تجمع بين حكمة الشعبان وبراءة الحمام من غير معرفة سابقة بطبيعة الشر . اذ بدون ذلك تبقى الفضيلة معرضة بلاحراسة او حماية ، وهناك مثل ايطالي يقول ، انه صالح جدا لدرجة انه لا يصلح لشيء . ان بيكون يوفق بين اقواله واعماله ، وينصح بمزيج فطين بين النفاق والامانة كخلط المعدن الذي يحول المعدن الانقى والاطرى الى معدن اقوى على البقاء مدة اطول . انه يريد حياة تامة متنوعة . . . والمعرفة توسع العقل او تعمقه وتقويه وترهفه . انه لا يكبر او يقدر مجرد حياة الفكر والتأمل وهو في هذا مثل « جوته » الذي يحتقر المعرفة التي لا تؤدي للعمل ، يجب على الناس ان يفهموا

ان الملائكة والآلهة هم المتفرجون وحدهم في مسرح الحياة الانسانية . « ان دينه على وجه الخصوص كدين الملك ، على الرغم من انه اتهم بالاحاد اكثر من مرة ، كما كان اتجاه فلسفته كله اتجاها دنيويا وعقليا . وقد دافع عن اتهامه بالاحاد بفضاحة واخلاص بقوله « قد لا اعتقد بجميع القصص والاساطير التي جاءت بالكتب الدينية ولكن لا يمكن ان اعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم . ان القليل من الفلسفة ينزع بعقل الانسان الى الاحاد ولكن التعمق فيها ينتهي بعقول الناس الى الايمان لان عقل الانسان عندما ينظر الى الاسباب الثانوية المبعثرة قد يتوقف عندها ولا يتجاوزها ، ولكن عندما يشاهد تسلسلها واتصالها بعضها بعضا ينتهي به ذلك الى الايمان بوجود العناية الالهية . ان قلة الاكتراث بالدين تعود الى كثرة المذاهب والانقسامات الدينية التي تؤدي الى التعصب ، كما ان الانقسامات الدينية تؤدي الى الاحاد . « ولكن قيمة سيكون في الدين والاخلاق اقل منها في النواحي السيكولوجية . فهو محلل صادق النصيح للطبيعة البشرية ، يرسل سهمه الى كل قلب ، وفي كتابته اصالة منعشة حتى في اقدم المواضيع واتفها « يكبر الانسان سبع سنوات في افكاره في اليوم الأول من زواجه . « وقد ذكر هذا في رسالته الى اللورد بيرغلي . .

« كثيراً ما نرى اسوأ الأزواج يتزوجون من افضل الزوجات « يبدو ان يكون قد انصرف الى الاعمال انصرفاً كبيراً ولم يترك للحب وقتاً في حياته او انه لم يشمر به ابدا شعوراً قويا . ويقول « انه لأمر غريب ان نلاحظ هذا الافراط في العاطفة « اذ لانجد انسانا يمتاز بنفسه ويرضى بهوان الحب . . قد لانجد انسانا واحدا بين اعظم الناس واكبرهم قدرا المجرف الى درجة جنونية في احب ، وهذا يظهر ابتعاد النفوس الكبيرة والاعمال العظيمة عن عاطفة الحب الضعيفة . «

انه يقدر الصداقة اكثر من الحب ، مع انه يرتاب بالصداقة ايضا « ان

الصدّاقة نادرة في العالم وخصوصا بين الانداد والمتساوين .

وفي مقاله «عن الشباب والشيخوخة» يقول « ان الشباب اقدر على الابتكار من الحكم وانسب للتنفيذ من المشورة ، وللمشاريع الجديدة من الاعمال الثابتة ، لان تجارب العمر بالاشياء التي تقع داخل محيطها توجهها ولكنها تسيء استعمال الاشياء الجديدة . ان الشباب يتحملون في تسيير الاعمال وادارتها فوق طاقتهم ، ويميلون الى الحركة اكثر من الهدوء ويسارعون الى النتائج بغير تفكير في الوسائل والدرجات ويتبعون بسخافة بعض المبادئ القليلة التي اتاحتها لهم الظروف ، اما المتقدمون في السن فانهم يعترضون كثيرا ويتشاورون طويلا ويحاطرون قليلا ، ويندمون سريعا ، ومن النادر ان يسيروا بالاعمال مدة تامة ، ويقنعون بالمتوسط من النجاح . لذلك من الحذر استخدام الجانبين منهما . . لان فضاءئهما قد تصلح نواقصهما . »

اما آراء بيكون السياسية كما تظهر في المقالات التي كتبها فهي محافظة جامدة ، وهذا امر طبيعي من شخص يطمع في الوصول الى مناصب سياسية كبيرة ، ويعيش في عصر محافظ متمت . لان التطرف في الآراء السياسية في مثل هذه الظروف يعني التضحية بمطامحه السياسية ، ان يكون يؤيد حكومة مركزية قوية . والملكية في نظره افضل انواع الحكومة . وهو يقول بوجود اعمال ثلاثة في الحكومة التحضير والاعداد ، النقاش والفحص ، والكمال (او التنفيذ) واذا كذت تبحث عن السرعة اترك الوسط وهو النقاش والفحص في يد الاكثرية من الشعب ، اما التحضير والاعداد وهو المرحلة الأولى ، والكمال وهو المرحلة الأخيرة ، فيجب ان يترك في ايدي القلة . وهو صريح في ميوله العسكرية . ويأسف لتقدم الصناعة وتطورها لانها تفسد الناس وتصرفهم عن الحرب . ويندب السلام الطويل لانه يخمد الروح الحربية في الناس . ولكنه مع ذلك يدرك اهمية

المواد الخام . لقد قال صولون مرة لقارون (اغنى الاغنياء في ذلك العهد عندما اطلعه على ذهبه) ياسيدي لو جاء شخص لديه من الحديد اكثر مما عندك فنه سيستولي على ذهبك ، (وهذا يعني اهمية الحديد في الصناعة الحربية) ويقدم ليكون بعض النصائح لتجنب الثورات كما فعل ذلك ارسطو من قبله ، ويقول ان افضل وسيلة لتجنب الفتن والثورات ، هو استئصال اسباب هذه الثورات ، اذ لاندرى متى تقدح الشرارة وتشعل النار في الوقود . كما لا ينفع قمع الحريات (كحرية الحديث) بقسوة شديدة للقضاء على الاضطراب ، لأن الاستهانة بها واغفالها كثيرأما يكون افضل في ضبطها والسيطرة عليها ، ومحاوله ايقافها تستغرق العمر كله . ان جوهر الثورة ينقسم الى نوعين . الافراط في الفقر والافراط في الثروة . . . اما اسباب الثورة فهي ، البدع الدينية ، والضرائب ، وتغيير القوانين والعادات ، وتحطيم الامتيازات ، والظلم على نطاق واسع ، وتقديم الاشخاص الذين لا يستحقون التقديم ، والاجانب ، والمجماعات والجنود المسرحون . وهنا ينمو الشعب وتشتد الفتنة ، وكل اساءة توجه الى الناس تزيد في توحيدهم وتوحيد اهدافهم . كل زعيم طبعا يهدف الى بث الانقسام والتفرقة في صفوف اعدائه وتوحيد اصدقائه . ان اثاره الانقسام في العناصر المعارضة للدولة ، وتفرقتها وابعادها عن الحكم ، او على الاقل عدم الثقة بها ليست امورا سيئة على العموم . ولكنها تكون حالة يائسة لو نشب الخلاف والانقسام بين افراد الطبقة الحاكمة ، في الوقت الذي تجمع المعارضة ضدها وحدة الهدف والغاية . وافضل وسيلة لتجنب الثورات هو التوزيع العادل للثروة والمال « ان المال كالسداد لا ينفع الا اذا فرد وبسط . » ولكن هذا لا يعني الاشتراكية او الديمقراطية ، ان يكون لا يثق بالشعب الذي كان محروما من التعليم في ايامه ، ان احط انواع النفاق والرياء في نظره هو مدهانة الشعب وتلقفه . وقد اصاب فوقيون عندما صفق الجمهور له استحسانا لقوله ، وتساءل بقوله اي خطأ صنعت ، اشارة الى ان الجمهور لا يصفق الا لنقص ، وما يريد به يكون اولا جماعة من ضغار المزارعين الذين يملكون

راضيهم ؛ وحكومة ارسقراطية يتربع على رأسها ملك فيلسوف . اذ لا نجد
حكومة واحدة اصابتها الفشل تحت زعامة الناس المتعلمين ، او بعبارة اوضح
كان النجاح حليف جميع الحكومات التي حكمها الفلاسفة المتعلمون الذين ذكر
منهم سنيكا وانطونيوس وبيوس وارليوس ولعله كان يرجو ان تضيف الاجيال
القادمة اسمه الى هذه الاسماء .

٤ - البناء الجديد العظيم

لقد كان قلبه بغير وعي منه في وسط انتصاراته مع الفلسفة . لقد كانت الفلسفة مرضعة له في طفولته ، ورفيقا له في منصبه ، كما كانت سلواه في سجنه وحرمانه . لقد انتحب على السمعة السيئة التي هبطت لها الفلسفة في رأيه، ووضع اللوم في هذا على الفلسفة اللاهوتية . الناس عرضة لاحتقار الحقيقة ، بسبب المناقشات التي اثيرت حولها واعتبار اولئك الذين لا يتفقون معهم في خطأ . العلوم ... تقف جامدة بغير اضافة زيادة عليها جديدة بالجنس البشري . . . ان نظام المدارس كله لا زال نظاما لتخريج علماء واساتذة ، لا مخترعين .

وكل ما احرز حتى الان في العلوم لا يعمدو ان يكون دوامة تدور حول نفسها ، وعاصفة مثيرة دائمة تنتهي من حيث بدأت . لقد كان بيكون يفكر طيلة حياته وفي ايام نجاحه السياسي في اعادة بناء الفلسفة وتجديدها . واعتزم على تركيز كل دراسته حول هذه المهمة ، فهو يخبرنا اولا ، في «خطة اعماله» انه سيكتب بعض المقدمات في كتب صغيرة ، يفسر فيها اسباب ركود الفلسفة بسبب التشبث بالوسائل القديمة ، ويلخص اقتراحاته لبداية جديدة ، كما يحاويل ثانيا وضع تصنيف جديد للعلوم ، مضيفا لها موادها ، ومبيننا المشاكل التي لم يتوصل الي شرحها او حلها في كل ميدان . ويصف ثالثا طريقته الجديدة

في تفسير الطبيعة . ورابعا يجري يده على العلوم الطبيعية الحقيقية ، وبيحث في ظواهر الطبيعة . وخامسا يظهر سلم العقل الذي تسلفه الكتاب السابقون في طريقهم نحو الحقائق التي تأخذ شكلها الان من القرون الوسطى ، وسادسا نجدده يتوقع الوصول الى نتائج علمية معينة كانت على ثقة من الوصول اليها بفضل استخدام طريقته ، واخيرا فهو يصور المدينة الفاضلة التي يتخيلها لاسعاد البشر ، والتي ستزدهر في هذه البراعم العلمية التي كان يرجو ان يكون نبيها لها ، والتي تشكل جميعها البناء الجديد العظيم للفلسفة . لقد كان مشروعها عظيما ، لامثيل له في تاريخ الفكر باستثناء ارسطو . ويختلف عن كل فلسفة اخرى بالاتجاه الى الناحية العملية اكثر من الناحية النظرية . حيث يقوم على انتاج متماسك خاص اكثر من قيامه على تناسق الفكر والتأمل . ان المعرفة قوة ، وليست نقاشا او زينة ، وليست فكرة تتمسك بها ... بل عملا علينا عمله ، وأنا الان اعلم لوضع اساس لا لمذهب او مبدأ ، ولكن لفائدة وقوة . هنا نسمع لأول مرة صوتا ونغما جديدا للعلم الجديد .

١ - تقدم العلم

اذا اراد الانسان ان ينتج اعمالا ، ينبغي ان تكون لديه معرفة بحيث يكون عالما وعارفا . لاننا لا يمكن ان نسود الطبيعة الا اذا درسنا قوانينها ، لذلك دعنا نتعلم قانون الطبيعة ، وبذلك نصبح اسيادا لها . لاننا يجعلنا بها نكون عبيدا لها . والعلم هو الطريق للحياة السعيدة الفاضلة . ولكن هذا الطريق الذي سيوصلنا الى الحياة السعيدة ليس بالطريق الهين . انه طريق ملتف ومعوج ومظلم ، يدور حول نفسه ، ضائع في ممرات وتعرجات عديدة

الجدوى ، لا يؤدي الى الضوء بل الى الفوضى . دعنا الان نبدأ في دراسة العلوم ، ونشير الى ميادينها المميزة لها ، ونضع كل واحد منها في مكانه المعين ، ونفحص عيوبها ، وحاجاتها ، وامكانياتها ونشير الى المشاكل الجديدة التي تنتظر القاء الضوء عليها . وان نقرم على وجه العموم بفتح الارض وتحريكها قليلا عن جذور هذه العلوم .

هذه هي المهمة التي اوقف بيكون نفسه عليها في « تقدم المعرفة » فهو يقول « ان قصدي ان احيط بالمعرفة ، والاحظ الاجزاء المهمة والمغفلة التي تخلى عنها الانسان ولم يتناولها بالتهذيب . وان اعمل بتخطيط صادق على حفز النشاط بين الاشخاص الذين يعمنون في النواحي الخاصة والعامية وتحسين النواحي المهجورة المتروكة » كمن يمسح الارض وينظفها من الاعشاب الضارة تمهيدا لحراثتها وزرعها . وتقويم الطريق ، وتقسيم الحقول بين العمال . لقد كانت خطته خطة جريئة طموحة . ولكنه كان لا يزال في سن الثانية والاربعين ولا يزال صغيرا بالنسبة الى الفلسفة ليخطط اعمالا عظيمة كهذه . فقد كتب الى اللورد بيرغلي في عام ١٥٩٢ رسالة قال فيها « انه اطلع على انواع المعرفة » انه لم يقصد بقوله هذا انه قد اعد نفسه لوضع موسوعة بريطانية ولكنه يشير الى ان عمله يمكنه من الدخول في كل ميدان ، صكناقد ومنسق لكل علم في مهمة تجديد البناء الاجتماعي . ان كبر هدفه يضفي على اسلوبه جلالا وعظمة ويضعه احيانا في قمة النثر الانكليزي .

لذلك نجده يجول على ارض المعركة الواسعة التي يتصارع فيها البحث الانساني وسط العراقل الطبيعية والجهل الانساني . ويضيف تحسينا ويلقي ضوءا في كل ميدان . وهو يعلق اهمية كبيرة على الفيزيولوجيا والطب ، ويمجد الاخير وقدرة على التنظيم ويشبهه بآلة موسيقية بديعة الصنع

والالخان ، ولكنه يعترض على تساهل الاطباء المعاصرين في التجارب الطبيعية ،
وميلهم الى معالجة جميع الامراض بنفس الوصفه التي تكون عادة مسهلا ،
واعتمادهم كثيرا على مجرد تجارب فردية غير منسقة ، اذ ينبغي عليهم التوسع
في تجاربهم ، والقاء ضوء على جسم الانسان بالتشريح . بتشريح الجثث واذا
استدعت الضرورة الى تشريح اجسام الحيوانات الحية من اجل الاغراض العلمية .
وفوق كل شيء وضع سجل عن التجارب والنتائج حيث يمكن الوصول اليه
بسهولة . ويعتقد بيكون بأن يسمح للاطباء في تسهيل الموت والاسراع به اذا
كانت حياة المريض ستطول الى ايام قليلة فقط ، يتعرض فيها الى اشد
انواع الالم . ويحث الاطباء على توسيع دراستهم في فن اطالة الحياة الانسانية ،
« هذا جزء جديد » من الطب وهو ناقص ، على الرغم من انه اكثر نبلا
منها جميعها ، لانه اذا امكن مد حياة الانسان واطالتها ، عندئذ
لا يكون الطب كله قاصرا على تقديم العلاج ، أو اكرام الاطباء في حالة
الضرورة فقط ، بل على اساس كونهم الموزعين لاعظم السعادة على الارض .
قد نسمع احتجاج بعض اتباع الفيلسوف الالماني شوبنهاور ضد هذا الزعم
القائل بان اطالة الحياة نعمة وبهجة ، لانهم يحضون على عكس ذلك ،
ويثنون على السرعة التي يضع بعض الاطباء فيها نهاية لامراضنا . ولكن
بيكون على الرغم من جزعه وقلقه وزواجه لم يشك ابدا في ان الحياة بديمة
وجيلة وجديرة بالاهتمام .

اما في علم النفس فهو « سلوكي » ويطالب بدراسة دقيقة عن الاسباب
والنتائج في العمل الانساني ، ويرغب في التخلص من كلمة « مصادفة » من قاموس
الكلمات العلمية . ان كلمة مصادفة اسم لشيء غير موجود ، وما تكون عليه المصادفة
في الكون تكون عليه الارادة في الانسان هنا يطالمننا عالم له معنى ، وتحدي

الحرب ، في سطر صغير . لقد دفع جانباً بالمبدأ المدرسي عن حرية الارادة ،
وصرف النظر عن الافتراض الكلي عن « ارادة» تتميز عن العقل ، هناك مقدمات
لم يتبعها بيكون ، وهي ليست الحالة الوحيدة التي يضع فيها كتابا في جملة ،
ثم يتابع طريقه في بهجة وسرور .

ومرة ثانية في كلمات قليلة نجده يبتدع علما جديدا ، علم النفس الاجتماعي
فهو يقول « يجب على الفلاسفة ان يبحثوا عن قوى وطاقات العرف ، والعادة ،
والتعليم ، والمثل والتقليد والمناقشة ، والشراكة ، والصدقة ، والمدح والتبكيك
والنصح ، والحض ، والانذار ، والسمعة والقوانين ، والكتب ، والدراسة الى
آخر ما هنالك . لان هذه الاشياء تتحكم في اخلاق الناس وتشكل العقل
وتخضعه . ان هذه الكلمات الموجزة التي ذكرها بيكون تشبه الى مدى كبير
محتويات الكتب التي وضعها علماء من امثال تارد وليبون . وولاس ودور كهام
في علم النفس الجديد . لاشيء فوق العلم ولا شيء تحته ، حيث ينبغي اخضاع
السحر والنبوءات ؛ والاحلام وتبادل الشعور والخاطبة التلبائية
(تلبياثي) والظواهر الروحية والعقلية ، جميعها الى فحص علمي دقيق « لاننا
لانعرف في اية حالات ، والى ابي مدى تشترك فيه التأثيرات المنسوبة الى الخرافات
في الاسباب الطبيعية .» وعلى الرغم من ميله الى العلوم الطبيعية نجده يشعر
بسحر هذه القضايا ، لاشيء يختص بالانسان وغريب عليه . من يعرف ابي علم جديدا و
حقيقة ثابتة قد نخرج عن هذه الابحاث كما خرجت الكيمياء من السيمياء ؟ من
الممكن مقارنة السيمياء مع الرجل الذي قال لاولاده انه ترك لهم مقدارا
من الذهب مدفونا في مكان ما في كرم عنبه ، وعند بحثهم لم يجدوا الذهب ولكنهم
بمفرهم للارض ازاحوا الطين عن جذور كروم العنب وحصلوا على الكثير من
من القطاف والغلة . وهكذا ساعد البحث والجهود في محاولة استخراج الذهب

من المعادن الاخرى (السيمياء) في الوصول الى اختراعات مفيدة
وتجارب بناءة .

وهناك علم آخر يبدأ في النمو في الكتاب الثامن لبيكون وهو علم النجاح في
الحياة . اذ يقدم لنا بيكون وهو لا يزال في اوج نجاحه وقبل سقوطه من الحكم
بعض الاشارات الاولية حول كيفية الصعود والنجاح في الحياة . والمطلوب
الاول في النجاح هو المعرفة . معرفة انفسنا ومعرفة الاخرين .

يجب ان نحيط انفسنا علما بالاشخاص الذين نتعامل معهم ،
بطباعهم ورجباتهم واراتهم ، وعاداتهم وسجاياهم ، والمساعات والمعونات
والضمانات التي يعتمدون عليها اعتمادا كبيرا . ومن اين استمدوا قوتهم وسلطتهم
ونقائصهم وضعفهم ، ونعرف عن اصدقائهم واحزائهم وعملائهم ، والمتمدين عليهم ،
واعدائهم ، وحاسديهم ومنافسيهم ، واورقاتهم وطرق الاتصال بهم والدخول
عليهم ... ولكن ضمن طريقة وافضل مفتاح لفتح عقول الآخريين يدور على
بحث وتفحص وغرلة طباعهم وطبائعتهم او غاياتهم وخططهم . نستطيع ان نحكم على
الاضعف والابسط من الناس بطريقة افضل ، من طباعهم ولكن الاشد دهاءا
وفطنة وغموضا نحكم عليهم بخططهم . ولكن اقصر وسيلة لهذا الاستقصاء
والاستعلام كله تقوم على ثلاثة امور معينة ، ١ - في الحصول على اصدقاء
كثيرين ... ، ٢ - في اتباع الفطنة والاعتدال بين حرية الحديث والصمت ...
ولكن ، لاشيء اضر على الانسان في تقديم نفسه ، وتأمين حقه ، من
الافراط في الرقة والطيبة ، التي تعرضه الى الاذى واللوم ، والاصح ان يرسل
احيانا بعض الشرر الذي لا يقل فيه اللسع عن العسل .

ان الاصدقاء بالنسبة الى بيكون وسيلة للسلطة والقوة ، وهو يشارك

مكيا فيللي في وجهة نظر يميل الشخص في البداية الى عزوها الى عصر النهضة ، الى ان يفكر في الصداقات الجميلة الكثيرة البريئة لميخائيل انجلو ، وموتناني ، والسير فيليب سدني . . ربما يساعدنا تقدير بيكون العملي على تفسير الاسباب التي ادت سقوطه من الحكم . كما تساعدنا آراء مماثلة على تفسير سقوط نابليون ، لان من النادر ان يطبق الاصدقاء فلسفة اعلى في علاقاتهم معه من تلك التي يعلنها في معاملته لهم . وهنا يستشهد بيكون في بياس احد الحكماء السبعة في اليونان القديمة ، « احبب صديقك وكأنه سيصبح عدوا لك ، وعدوك وكأنه سيصبح صديقا لك » لاقض حتى لصديقك عن الكثير من اهدافك وافكارك ، وفي الحديث اسأل اكثر مما تتكلم ، وعندما تتكلم ، قدم معلومات وبيانات اكثر من تقديم عقائد وآراء . عزة النفس الصريحة تساعد على التقدم والمباهاة خطأ في الاخلاق اكثر من السياسة . وهنا يتذكر الشخص نابليون ، كان بيكون مثل نابليون رجلا بسيطاً داخل جدرانه اما في خارجها فقد كان يبدي التصنع والتظاهر والتفاخر ، اعتقاداً منه بأنه ضروري للشهرة العامة . وهكذا نجد بيكون يجري من حقل الى آخر ناثراً بذور افكاره في كل علم . وفي نهاية بحثه يتوصل الى ان العلم في حد ذاته لا يكفي ، حيث ينبغي ايجاد قوة ونظام خارج العلوم لتنسيقها وتوجيهها الى هدف . وهناك سبب قوي استدعى عدم تقدم العلوم تقدماً كبيراً وهو استحالة سيرها في طريق صواب قبل تحديد الهدف نفسه ووضعها في المكان الصحيح ، ان ما تحتاجه العلوم هو الفلسفة ، تحليل الطريقة العلمية وتنسيق الاهداف والنتائج العلمية ، وكل علم بغير هذا يكون سطحياً ، وكما اننا لانستطيع ان نشاهد منظر المدينة تماماً من مكان منبسط او منخفض ، كذلك من المستحيل ان نكتشف الاجزاء البعيدة والعميقة لاي علم ، بالوقوف على مستوى العلم نفسه ، بدون الصعود الى ارتفاع اعلى : وهو يستنكر

عادة النظر الى الحقائق المنعزلة خارج سياقها وعلاقتها ، من غير اعتبار وحدة الطبيعة كمن يحمل شمعة صغيرة يطفوف فيها زوايا غرفة تشع بضوء مركزي .

لقد احب بيكون الفلسفة في النهاية اكثر من العلم ، اذ الفلسفة وحدها هي التي تستطيع ادخال السلام الجليل الناجم عن الفهم حتى الى الحياة الحزينة المضطربة ، ان المعرفة تقهر او تخفف من خوف الموت وتعكس الحظ . ويستشهد بيكون بأبيات الشاعر اللاتيني فرجل :

« سعيد الانسان الذي تعلم اسباب الاشياء ، وداس تحت اقدامه جميع المخاوف ، والقدر العنيد الذي لايلين ، وضجيج كفاح نار الشره » قد يكون افضل ثمرة للفلسفة ان لا تتعلم عن طريقها دروس التملك التي لانهاية لها التي تثيرها البيئة الصناعية بالحاح . ان الفلسفة توجهنا اولا الى البحث عن حاجات العقل ، والبقية اما ان تتوفر لنا او لانحتاجها كثيرا . قليل من الحكمة فرحة الى الابد .

والحكومات كالعلم تماماً تعاني كثيراً من افتقارها الى الفلسفة . ان ارتباط الفلسفة بالعلم وعلاقتها به هونفس ارتباط ادارة الدولة بالسياسة وعلاقتها بها . ان الحركة تهدبها المعرفة التامة والمرئيات ، ضد البحث الفردي الذي لاهداف له ، وكما تحول البحث عن المعرفة الى علم اللاهوت عندما انفصل عن حاجات الناس والحياة الحقيقية ، كذلك اصبح السعي نحو السياسة جنوناً مهلكاً عندما انفصل عن العلم والفلسفة . من الخطأ ان نشق في تطبيق اجسامنا بالدجالين الذين يدعون الطب ، او الممارسين للطب بالخبرة والتجربة ، الذين يعتمدون على القليل من التحصيل ، ولكنهم لا يعرفون اسباب المرض او تركيب اجسام المرضى او خطر الحوادث ، او طريقة العلاج الصحيحة . لذلك من الخطر ايضا ان يدير شؤون الدولة وامورها الدجالون من رجال السياسة ، على اساس استفادتهم

من التجارب والخبرة اثناء الحكم . الا اذا امتزج هؤلاء بالرجال الراسخين في العلم ... قد يتهم من قال بوجوب حكم الفلاسفة للدول بالتحيز والمحاباة ، ما لم يتحول الفلاسفة الى ملوك والملوك الى فلاسفة ، ومع ذلك فقد اثبتت التجارب ان افضل الحكومات هي التي قامت في عهد امراء حكماء عقلاء متململين .

ويذكرنا ببيكون في الاباطرة العظام الذين حكموا روما بعد دوميتسيان وقبل كوموداس من اباطرة الرومان . وهكذا نجد ببيكون مثل افلاطون ومثلنا جميعا يعظم من الفلسفة ويعتبرها منجاة وخلصا للانسان . ولكنه ادرك بوضوح اكثر من افلاطون الحاجة الى اخصائين في العلم والى تخصص عسكري بين الجنود والجيش . لا يستطيع عقل واحد حتى ولا ببيكون نفسه ادارة كل ميدان ومعرفة كل علم حتى ولو كان ينظر من فوق جبل الاولمب نفسه . لقد ادرك ببيكون انه بحاجة الى المساعدة ، وشعر بوحدته وانفراده في مشروعه الذي لايساعده فيه احد .

لقد سأل مرة صديقاله عن اصدقائه الذين يعملون معه ، ثم قال ، اما بالنسبة لي فأنا في عزلة تامة . انه يحلم في علماء ينتظمهم التخصص ويممهم التعاون والاختلاط الدائم . ويفكر في منظمة كبيرة توحد هدفهم . يجب تنظيم العلم في منظمة ، ويجب ان تكون هذه المنظمة دولية ولا تحدها حدود الدول ، حيث تجعل من اوروبا وحدة ثقافية واحدة . ويلاحظ ببيكون ضعف الشعور والرابطة بين الكليات والجامعات في جميع انحاء اوروبا والمجلاتا ويسدعو جميع هذه الجامعات الى تحديد وتوزيع المواضيع والقضايا بينها ، والتعاون في البحث والنشر . بهذا التعاون والارتباط تصبح هذه الجامعات جديرة بالمساعدات والتأييد الملكي ، الذي سيجعلها جامعات مثالية ، تركز على تعليم عادل يسود العالم . ويلاحظ ببيكون ضئالة المرتبات المخصصة للمحاضرات العامة ، سواء في العلوم او الفنون . ويشعر بأن هذا سيستمر الى

أن تتولى الحكومات مهام التعليم الكبرى بنفسها .
« لقد اشتكت حكمة الاجيال القديمة من انشغال الحكومات بوضع القوانين ،
وتهاونها في امور التعليم » وحله العظيم هو تأمين العلم لفزوة الطبيعة
وترسيخ قوة الانسان .

وهكذا نجده يتوسل لتحقيق هذا الهدف الى الملك جيمس الاول ، مستمينا
على اقناعه بشئى ضرور التملك الذي كان الملك يحب ارتشافه وسماعه ، فقد
كان جيمس عالما فخورا بقلمه اكثر من فخره بصولجانه وسيفه . لقد ترقع
شيئا من هذا الملك العالم العلامة . وهو يخبر الملك بان الخطط التي وضعها هي
مهام ملكية في الحقيقة ، ومن الصعب تحقيقها على يد رجل واحد ، وكل محاولة
من جانب شخص واحد لتحقيق هذه الخطط اشبه شيء بتمثال على مفترق
طرق ، يشير باصبعه الى الطريق ولكنه لا يستطيع ان يدوسها او يسير فيها .
ان هذه المشاريع التي سيشرف عليها الملك تحتاج الى الانفاق عليها . وكما
ينفق الامراء والحكومات على جواسيسهم ووكلائهم وعملاتهم لتزويدهم بالمعلومات
التي يحتاجون اليها ، يجب عليهم الانفاق على العلماء الذين يستجوبون اسرار
الطبيعة وغوامضها ، اذا كنا لانريد ان نبقى جاهلين باشياء تستحق اهمية معرفتها
والاطلاع عليها . واذا كان الاسكندر وضع مبلغا كبيرا من المال تحت تصرف
ارسطو للانفاق على صيادي الحيوانات والطيور والاسماك وغيرها ، فان هؤلاء
الذين سيكشفون اسرار الطبيعة ويستطلعون غوامضها احق بالمساعدة والجود في
الانفاق عليهم .

وبهذه المساعدة الملكية يتم مشروع بيكون ، الجديد العظيم في سنوات
قليلة ، وبدونها سيستغرق عدة اجيال ..

والشيء الجديد الذي يبعث على الانتعاش في بيكون ، هو ثقته العظيمة في
غزو الانسان للطبيعة ، فهو يقول « انني اراهن بكل شيء على انتصار

الفن على الطبيعة .» ولكن لم كل هذا الامل ؟ الم يبحث الناس عن الحقيقة .
ويجربوا سبل العلم في الالفى سنة الماضية ؟ وكيف يأمل الانسان الان في تحقيق
نجاح عظيم ، بينما لم يحقق في هذه المدة الطويلة السابقة سوى نجاح معتدل ؟ ان
يكون يوافق على هذا ولكنه يقول ربما يعود السبب في عدم تحقيق
نجاح كبير الى اتباع وسائل خاطئة وعديمة الفائدة في البحث ؟؟ . وبذلك فقد
ضلوا الطريق وذهبت جهودهم ادراج الرياح . اننا نحتاج الى ثورة في وسائل
ابحاثنا وافكارنا ، وفي نظام علمنا ومنطقنا ، ونحن بحاجة الى منطق جديد
افضل من منطق ارسطو ، يتناسب مع هذا العالم الاوسع . وهكذا يقدم لنا
يكون كتابه الاعظم ..

٢ - البحث الجديد

يقول اشد النقاد نقدا لبيكون ان اعظم ما وضعه بيكون هو كتابه الاول عن البحث الجديد ، الذي ادخل فيه حياة جديدة على المنطق لايحاربه فيها انسان آخر ، حيث جعل من الاستنتاج تجربة وغزوا . اذا اراد الانسان ان يدرس المنطق يجب عليه ان يبدأ بقراءة هذا الكتاب . د ان هذا الجزء من الفلسفة الانسانية لا يتفق مع ذوق الكثيرين ، ولا يبدو في نظرم سوى فخ وشرك ينطوي على المراوغة والخبث ... ولكن اذا اردنا وضع الاشياء وفقا لأهميتها وقيمتها الحقيقية ، عندئذ تكون العلوم العقلية ومنها المنطق مفتاح بقية العلوم .» يقول (بيكون) لقد اجديت الفلسفة مدة طويلة لانها كانت تحتاج الى طريقة جديدة لتخصيبيها . كما ان خطأ فلاسفة اليونان الكبير هو انهم صرفوا وقتا كبيرا في النواحي النظرية ، والقليل في الملاحظة والبحث العلمي ، ولكن الفكر ينبغي ان يكون مساعدا للملاحظة لا بديلا لها . وكان بيكون يتحدى كل ما جاء به الفلاسفة من ميتافيزيقا ، فهو يقول ان الانسان كفسر وشارح للطبيعة يدرك ويعمل بقدر ما تسمح له به ملاحظاته عن نظام الطبيعة ، ولا يعرف او

يقدر على اكثر من ذلك . لقد كان اسلاف سقراط على صواب اكثر في هذه الناحية ممن اتوا بعده . وامتاز ديمقريطس بأذف لشم الحقائق اكثر من عين ينظر بها الى السحاب . لاغرابة ان لا تتقدم الفلسفة الا قليلا منذ ايام ارسطو ، فقد كانت تعتمد على استخدام وسائل ارسطو في البحث . وفي التقدم عما وصل اليه ارسطو على ضوء افكار ارسطو يعني ان تفكر اننا باستعارة ضوء منه نستطيع ان نزيد الضوء الاصلي الذي استعرتنا منه الضوء ، او بعبارة اوضح فأننا بذلك نكون كمن يحاول ان يزيد الضوء بالاستعانة بنفس الضوء . والان بعد الفبي سنة من تخريب المنطق وفرمه بالالة التي اخترعها ارسطو ، سقطت الفلسفة الى درجة فقدت احترام الجميع . يجب ان نقذف بجميع نظريات القرون الوسطى والجدل والحوار والنظريات التي تحتاج الى اقامة البرهان بعيدا ونساها . ويجب على الفلسفة كي تجدد نفسها ان تبدأ مرة ثانية بقلم جديد ولوح نظيف وعقل مغسول مطهر .

لذلك تكون الخطوة الاولى هي تطهير العقل وتنقيته وكأننا اطفالا عدنا صفارا ابرياء من الافكار المجردة . وغسلنا عقولنا من التصورات السابقة والآراء المتحيزة . يجب ان نحطم اوهام العقل . ان كلمة وهم كما يستعملها بيكون (تنعكس على ما يحتمل عن رفض البروتستانت عبادة الصور والتماثيل وتقديسها) هي الصورة التي ترسم في الذهن عن الحقيقة ، اي الفكرة الخاطئة عن الشيء ، اخطاء في عقولنا .

ومشكلة المنطق الاولى هي تبسح مصادر هذه الاخطاء وسدها . ويتقدم بيكون الان الى تحليل مشهور لهذه الاخطاء . يقول كونديلاك ، لم يفهم احد اسباب اخطاء الانسان اكثر من بيكون . وهذه الاخطاء هي :

اولا ، اوهام القبيلة ، وهي اوهام طبيعية بالنسبة الى البشرية عموما ، فقد زعم الانسان باطلا (لقد اعتبر بروتاجورس الانسان مقياساً لجميع الاشياء) انه مستوى الاشياء ، والعكس هو الصحيح لان ادراك الانسان العقلي والحسي تصوير لنفسه وليس تصويرا للكون . وعقل الانسان يشبه المرآة غير المستوية التي تعكس خواصها على الاشياء المختلفة ، وتشوهها وتجعلها تبدو قبيحة . ان افكارنا صور عن انفسنا اكثر من كونها صوراً للاشياء . من طبيعة الفهم الانساني الخاصة به انه يفرض في الاشياء درجة من النظام اكبر مما يجده فيها ... من هنا توهم ان جميع افلاك الكواكب دوائر ممتدة . ومن اخطاء العقل انه اذا آمن برأي ما سواء كان ايمانه بهذا الرأي عن طريق التسليم والايان العام به . او من اجل لذة تعود عليه من هذا الرأي ، نجده يرغب كل شيء آخر لتأييد واثبات رأيه ، على الرغم من وجود الادلة الكثيرة القاطعة المغايرة لرأيه ، والتي تثبت بوضوح بطلان رأيه . ومع ذلك فهو اما ان لا يلاحظها او يستخف بها ، او يرفضها ويتخلص منها بعنف وتحيز ضار ، بدلا من ان يضحى بالرأي الذي آمن به اولاً . وعن امثلة محاولة الناس ارغام غيرهم على ارائهم ، واجبارهم على التفكير مثلهم ، القصة التي يسوقها لنايبكون وهي ان رجلا دخل الى معبد وعرضت امامه لوحات كثيرة ، علقها الذين نجوا من خطر الغرق في البحر بعد ان تحطمت بهم السفينة ، استجابة لندورهم التي تقربوا بها الى الآلهة . وطلب منه ان يعترف بعد هذا الذي شاهده بقوة الآلهة وفائدة الندور ... فأجاب ولكن اين لوحات الذين غرقوا وماتوا في البحر على الرغم من ندورهم وايمانهم وتضرعهم ؟ كل الخرافات والاساطير متشابهة ،

سواء أكانت ناجمة عن التنجيم ، او الاحلام ، او الطيرة ، او العقاب وما شابهها .

وبعد ان ينتهي الانسان من تقرير القضية وفقا لارادته ، نجده يلجأ الى التجربة ، فيخضعها ويجعلها موافقة لرأيه ، ويسوقها كأسير في موكب . وبالاختصار فان العقل الانساني ليس ضوءا جافا ولكنه يتأثر بالارادة والعواطف .

يقدم لنا ليكون في هذه الناحية نصيحة ذهبية ليأخذ كل طالب لعلم الطبيعة بها كقاعدة . وهي ان يضع موضع الشك كل شيء يحتجزه عقله ويقتنع به . وان توجه اهتماما اكثر عندما تناول مثل هذه الاسئلة ، لنحتفظ بصفاء العقل وهدوئه . وان لانسمح للعقل بان يقفز ويطيير من المسائل المعينة الى البديهيات البعيدة الامامة الشاملة... يجب ان لانمد العقل بأجنحة والأولى ان نقيده بالاثقال لنحول بينه وبين القفز والطيران . قد يكون الخيال والتصوير الد اعداء العقل ، مع انه يجب ان يكون اختبارا وتجربته فقط . واما الطائفة الثانية من اخطاء العقل التي يسميها بـ «اوهام الكهف» ، فهي الاخطاء التي يختص بها الانسان الفرد ، «لان لكل انسان كهفا خاصا به ، يعمل على حرف اضواء الطبيعة وتغيير لونها» وهذا الكهف هو طبعه كما كونته الطبيعة ، ومزاجه او حالة جسمه وعقله . فبعض العقول مثلا تنزع الى التحليل ، وترى اوجه الخلاف والتباين في الاشياء اينما وجدت ، وبعض العقول بطبيعتها تركيبية تميل الى البناء والتركيب وترى اوجه الشبه بين الاشياء . وينتمي الى الفئة الاولى العلماء والرسامون كما ينتمي الى الفئة الثانية الشعراء والفلاسفة . وبعض العقول تميل كثيراً الى تقدير

كل ما هو قديم ، وبعضها تحتضن بحماس كل امر جديد ، والقليل منها تستطيع الاحتفاظ بالحد الوسط ، فلا تقضي على ما اوجده الاقدمون من امور صحيحة ولا تنظر بعين الاحتقار الى الاختراعات الجديدة النافعة ، لان الحقيقة لاتعرف تحيزا او تحزبا .

اما الطائفة الثالثة من اخطاء العقل فهي اوهاام السوق ، التي تنشأ من التجارة واجتماع الناس بعضهم ببعض . لان الناس يخاطبون بعضهم بعضا عن طريق اللغة التي فرضت كلماتها على الناس وفقا لعقلية اهل السوق والعامه من الناس ، حيث ينشأ عن سوء تكوين هذه الكلمات وعدم موافقتها تعطيل شديد للعقل . ان الفلاسفة يتحدثون عن المسبب الذي لا يتسبب او المحرك الذي لا يتحرك ، ولكن ليس الغرض من هذه المبارات والجلل اخفاء جهلهم الفاضح العاري وقد تدل على ضمير آثم فيهم ؟ ان كل عقل امين صاف يعرف استحالة وجود مسبب بلا سبب او محرك بلا حركة . قد يكون البناء الجديد الاعظم للفلسفة هو هذا ، وهو ايقاف الكذب فيها .

والطائفة الاخيرة من اخطاء العقل ، هي الاوهام التي انتقلت اليها من نظريات الفلاسفة المختلفة ، وقوانين البراهين والادلة الخاطئة ، وهي التي يسميها بيكون بأوهام المسرح . اذ ان جميع الانظمة الفلسفية التي نتلقاها عن الفلاسفة من وقت لآخر ، ليست سوى روايات مسرحية ، تمثل عالما خلقه الفلاسفة انفسهم بطريقة روائية مسرحية .. وقد تلاحظ في روايات هذا المسرح الفلسفي نفس الاشياء التي توجد في مسرح الشعراء . وان القصص التي ابتدعت للمسرح اكثر احكاما وانسجاما وظرفا من قصص التاريخ الحقيقية . ان العالم كما

يصفه افلاطون ليس سوى عالم بناه افلاطون ويصور افلاطون اكثر من تصويره للعالم .

سوف لانتقدم في طريقنا نحو الحقيقة ما دامت هذه الاوهام لاتزال تحلق بنا الى اعلى ، اننا نحتاج الى اساليب جديدة للتفكير ، ووسائل جديدة للفهم والعقل ، وكما كان من المستحيل اكتشاف مناطق الهند الغربية ، قبل اكتشاف البوصلة . كذلك لا غرابة ان لانهج اكتشافات الفنون تقدا كبيرا عندما يبقى فن اختراع واكتشاف العلوم مجهولا ايضا . ومن العار ان يبقى عالم العقل والفكر مغلقا داخل حدود الاكتشافات القديمة الضيقة ، في زمن اتسمت فيه اكتشافات العالم الجغرافية المادية اتساعا كبيرا في ايامنا .

واخيرا ، فان مشاكلنا ومصاعبنا ناجمة عن العقائد والاستنتاجات التي تحول بيننا وبين الوصول الى الحقيقة . اننا لانتوصل الى حقيقة جديدة ، لأننا نأخذ بعض القضايا او الآراء الموقرة كقضية مسلم بها ، ولا نزاع فيها ، مع ان هذه القضايا او الآراء عرضة للسؤال والخطأ . اننا نأخذ هذه القضايا المسلم بها نقطة الابتداء في البحث ، ولا نفكر ابدا في وضع هذه القضايا المسلم بها موضع الفحص والملاحظة والتجربة . لان الانسان عندما يبدأ باليقينيات فانه سينتهي بالشك ولكنه عندما يبدأ راضيا بالشك فانه سينتهي باليقينيات . هنا ملاحظة تطبع الفلسفة الحديثة ، وهي جزء من اعلان استقلالها . وحتى ديكرات يتحدث عن ضرورة « اساليب الشك » اللازمة للاتجاه بالفكر اتجاها امينا . ويشرع بيكون في تقديم وصف يدعو الى الاعجاب والتقدير عن وسيلة البحث والاستفهام العلمية . « هناك يبقى التجربة البسيطة التي لو اخذناها كما تأتي لنا

فانها عندئذ تسمى عرضاً (تجريبياً) واذا بحثنا فيها ، اختباراً . . ان طريقة التجربة الحقيقية تضيء الشمعة اولا (افتراض) وبعدئذ بفضل الشمعة تظهر الطريق (ترتيب وتجديد الاختبار) والشروع بالتجربة المنظمة والمهزومة في وقت واحد باقن وانظام ، ومنها استنتاج الاوليات ، ومن هذه الاوليات الموضوعة تجري اختبارات وتجارب جديدة مرة ثانية (لدينا هنا كما في مقطع آخر يتحدث عن نتائج التجارب والاختبارات الاولى كقطاف اول لارشادنا الى ابحاث اخرى اعتراف صريح للحاجة الى الافتراضات ، والتجربة والاستنتاج ، التي يفترض بعض نقاد بيكون انه قد اهملها تماماً) . يجب ان نتجه الى الطبيعة بدلا من الكتب والتقاليد ، ونحاسبها ونرغمها على ان تشهد حتى ضد نفسها حتى نتمكن من تسخيرها لاغراضنا واستخدامها لغاياتنا . يجب ان نجمع ونجمع من كل ناحية « تاريخاً طبيعياً » للعالم يقوم بينائه ببحث العلماء الاوروبيين متحدثين . يجب ان يكون لدينا استقرار . ولكن هذا الاستقرار لا يعني عدا واحصاء بسيطاً لجميع هذه المعلومات ، لأن هذا لا نهاية له ولا فائدة منه . اذ لا يمكن لاية مادة مجموعة ان تصنع علماً ، وهو اشبه شيء بمطاردة الصياد للصيد فوق ارض فسيحة ، يجب تضيق وتسييج ميداننا كي نمسك فريستنا . كما يجب ان تشمل وسيلة الاستقرار طريقة فنية لفرز المعلومات وتنسيقها واسقاط الفرضيات منها . وهكذا باسقاط والغاء ما لا علاقة له بالظاهرة التي نبحث عنها ، سيبقى معنا واحد منها فقط . ربما يكون انفع شيء في هذه الطريقة الفنية هو « مائدة الاكثر والاقل » التي تشمل امثلة ذات صفتين او حالتين تزيد وتنقص مع بعضها ، وبهذا تكشف على ما يفترض

عن علاقة سببية بين الظواهر الطبيعية المتغيرة في آن واحد . وهكذا عندما يتساءل بيكون عن الحرارة ؟ فانه يبحث عن بعض العوامل التي تزيد بزيادة الحرارة ، وتقل بقلتها ، لقد وجد بعد تحليل طويل علاقة صحيحة بين النار والحركة وانتهى بذلك الى ان الحرارة صورة للحركة ، او بمباراة اوضح ان الحركة هي سبب الحرارة . وهذه النتيجة التي توصل لها بيكون حصول سبب الحرارة هي احدى الاشياء القليلة الخاصة التي ساهم بها في العلوم الطبيعية .

ولكن جمع المعلومات وتحليلها يؤدي بنا الى ما يسميه بيكون «صورة» الظاهرة الطبيعية التي ندرس طبيعتها الغامضة ، وجوهرها الداخلي . ان نظرية الصور عند بيكون تشبه الى مدى كبير نظرية المثل عند افلاطون : ميتافيزيقا العلم . عندما نتكلم عن الصور فاننا لا نعني شيئاً سوى تلك القوانين والقواعد والتنظيمات للعمل البسيط التي تنظم وتشكل كل طبيعة بسيطة ... لذلك فان صورة الحرارة او صورة الضوء لا تعني اكثر من قانون الحرارة او قانون الضوء .

(لقد قال سبيوزا يجهد بمائل ان قانون الدائرة هو جوهرها) . لانه على الرغم من انه لا يوجد في الطبيعة سوى الاجسام الفردية التي تظهر تأثيرات فردية واضحة وفقاً لقوانين خاصة ، ومع ذلك فاننا نجد في كل فرع من فروع العلم والمعرفة ان هذه القوانين والبحث عنها واكتشافها وتطورها يأتي عن طريق النظر والعمل . عن طريق الامور النظرية والعملية ، وفصل الواحدة لا يؤدي الى فائدة . ان المعرفة التي لا تولد عملاً معرفة شاحبة لادم فيها لاتستحق اهتمام الناس . اننا نكافح لتتعلم صور الاشياء لا من اجل الصور

في حد ذاتها ، ولكن لاننا بفضل معرفة الصور ، « القوانين » . قد نتمكن من تجديد صنع الاشياء وفق الرغباتنا .

وهكذا فاننا ندرس الرياضيات لكي نحسب الكميات ونبني الجسور .
وندرس علم النفس لكي نجد طريقنا ونخرج من غابة المجتمع . واذا استطاع العلم ان يكشف لنا صور الاشياء كشفا وافيا فان العالم سيكون عندئذ مجرد مادة خام لاقامة المدينة الفاضلة التي يعتزم على اقامتها .



٣ — مدينة العلم الفاضلة

وباتقان العلم والوصول به الى مرتبة الكمال بهذه الطريقة التي شرحها بيكون ، وباتقان النظام الاجتماعي ، بوضع العلم تحت سيطرتنا واشرافنا ، نكون قد حققنا المدينة الفاضلة المثالية التي علق الانسان آماله عايمها واتجه ببصره لها منذ آلاف السنين . هذا هو شكل العالم الذي وصفه لنا بيكون في كتابه الموجز الذي كان آخر انتاجه واسمه « اطلنطس الجديدة » والذي نشره قبل وفاته بعامين . والذي يقول عنه الكاتب الانجليزي ولز « اعظم خدمة قدمها بيكون للعلم » . لقد رسم لنا بيكون في هذا الكتاب ، صورة لمجتمع وجد فيه العلم اخيرا مكانه الجدير به ، كسيد للاشياء . لقد كانت هذه المدينة الفاضلة التي وصفها بيكون ، روعة ملوكية في الخيال ، اوحى بالكثير للعلماء الذين يكافحون في سبيل الوصول الى المعرفة والاختراع ، والقضاء على الجهل والمرض ، وكانت هدفا لهم طيلة قرون ثلاثة . هنا في هذه الصفحات القليلة نقف على حقيقة بيكون « وصورته » وقانون وجوده وحياته ، وطموح روحه .

لقد ذكر لنا افلاطون في « تيمارس » اسطورة اطلنطس القديمة ، القارة الغارقة في البحار الغربية . لقد شبه بيكون وآخرون غيره ، امريكا الجديدة التي

اكتشفها كولبوس وكابوت بقارة الاطلنطس القديمة التي غرقت . ان القارة العظيمة لم تفرق ولكن الذي غرق هو شجاعة الناس في خوض البحار . ان قارة الاطلنطس القديمة اصبحت معروفة الان «امريكا» ويسكنها شعب عنيف لا يشبه سكان المدينة الفاضلة التي تمورها بيكون . لقد تصور اطلنطس جديدة ، جزيرة تقع في ذلك المحيط الهادي البعيد ، الذي لم يعبره احد سوى ماجيلان ، ودريك . جزيرة بعيدة بعدا كافيًا عن اوروبا والمعرفة . ليقدم مدى واسعا فسيحا لتصور المدينة المثالية الفاضلة .

تبدأ القصة ببراعة عظيمة وبساطة . لقد ابحرنا من «بيرو» في طريقنا الى الصين واليابان عن طريق البحر الجنوبي . ونخيم علينا سكون طويل ، بقيت فيه السفن عدة اسابيع جائئة يهدوء على صفحات مياه المحيط ، التي لاحدود لها كبقع فوق مرآة . وكادت مؤونة المغامرين ان تنفذ ، وعندئذ هبت علينا ريح عاتية ، دفعت السفن بلا رحمة شمالا ، وشمالا فشمالا متوغلين في بحر واسع لانهاية له . وبدأنا نقلل من وجبات طعامنا ، وفشا المرض في الملاحين ، واخيرا عندما استسلم الملاحون للموت ، رأوا وكأنهم لا يصدقون عيونهم ، جزيرة جميلة تلوح في الافق . وعندما اقتربت السفن من الشاطئ ، لم يروا اناسا متوحشين ، بل رجالا يرتدون ملابس بسيطة ولكنها جميلة ، ونظيفة ، ويبدو عليهم الذكاء والتقدم بوضوح .

لقد سمحوا للملاحين بالنزول الى الشاطئ ، واخبروهم ان حكومة الجزيرة لاتسمح للاجانب بالبقاء ، ولكنهم بسبب مرض الملاحين ، سيسمحون لهم جميعا بالبقاء ، الى ان يستردوا صحتهم ويتأثلوا للشفاء مرة ثانية .

وخلال اسابيع النقاهة اخذوا يكشفون يوما بعد يوم غوامض هذه الجزيرة . واخبرهم احد السكان ان ملكا حكم هذه الجزيرة منذ الف وتسعمئة سنة

لا تزال ذكره في قلوبنا ، ولا يزال موضع حبا وتقديسنا ... وكان اسمه سليمان ونحن نعتبره مشرع قوانين هذه البلاد فقد كان له قلب كبير وكرس حياته لسعادة شعبه وبلاده . ومن جملة اعماله العظيمة ، واكثرها رفعة وشأنا انشاء المعهد الذي نسميه «بيت سليمان» وهو من انبل واعظم المؤسسات التي شاهدتها الارض على ما نعتقد ، ودرة هذه المملكة .

ويتبع هذا وصف بليغ لبيت سليمان ارغم ماكولي الكاتب الانجليزي المشهور واعتف من نقد ليكون على الاعتراف به بقوله « لا نجد مقطعا اكثر عمقا وحكمة وبروزا من المقطع الذي وصف فيه بيت سليمان . »

ان بيت سليمان في اطلنطس الجديدة بمثابة البرلمان في لندن وهو مقر حكومة الجزيرة . ولكن هذا البيت لا يضم سياسيين منتخبين متغطرسين ولا يعرف لغواً ولا نفاقا كما يقول كارليل ، ولا احزابا ولا اجتماعات سياسية ، ولا انتخابات اولية ، ولا مؤتمرات ولا حملات سياسية ، ولا شارات حزبية ، ولا نشرات ومطبوعات توزع على الناخبين ، ولا افتتاحيات صحفية ، ولا خطب سياسية ، واكاذيب وانتخابات . ان فكرة شغل المناصب وملئها بمثل هذه الوسائل المفجعة لم يفكر بها ابدا سكان جزيرة اطلنطس . ولكن الطريق للوصول الى اوج الشهرة العلمية مفتوحة امام الجميع . واولئك الذين اجتازوا الطريق بفضل مواهبهم ومؤهلاتهم يجلسون في مجالس الدولة . انها حكومة الشعب للشعب تديرها الصفوة المختارة من الشعب . وهي حكومة يتولى امورها الفنيون والمهندسون المعماريون ، والفلكيون ، وعلماء طبقات الارض ، والبيولوجيون والاطباء ، والكيميائيون ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع ، وعلماء النفس ، والفلاسفة .

الواقع انه لا يوجد حكومة في اطلنطس الجديدة لان هؤلاء الحكام مشغولون في بسط نفوذهم على الطبيعة ؛ والسيطرة عليها اكثر من الحكم على الشعب « ان الغاية من مؤسستنا معرفة اسباب الاشياء وحركاتها الخفية . وتوسيع رقعة الامبراطورية الانسانية للتأثير على كل شيء ممكن » هذه الجملة هي مفتاح سيكون وكتابه . سنجد الحكام مشغولين في دراسة النجوم ، والانتفاع بقوة مساقط المياه في الصناعة وتطوير البخار والغازات لمعالجة الامراض المختلفة واجراء التجارب على الحيوانات لزيادة المعرفة بالعمليات الجراحية ، والحصول على انواع جديدة من النباتات والحيوان عن طريق التركيب والتهجين الى آخر ما هنالك . أن نقلد الطيور في طيرانها ، وقد بلغنا شأوا في الطيران في الهواء ، ونحن نملك سفنا وقوارب تغوص تحت الماء ، وفي البلاد تجارة خارجية ولكنها من نوع غير عادي فان الجزيرة تنتج وتستهلك ما تنتج . ولا تدخل في حرب من اجل تأمين الاسواق الخارجية ، ان تجارتنا ليست للذهب او الفضة او الجواهرات ، وليست للحرير ، ولا للتوابل والبهارات ولا لأي نوع آخر من السلع والمواد ، ولكنها فقط للحصول على ما خلقه الله اولا وهو العلم . للحصول على التطور والمعرفة في جميع انحاء العالم . ان تجار العلم هؤلاء اعضاء في بيت سليمان يرسلون الى الخارج كل اثني عشر عاما ليعيشوا بين الشعوب الاجنبية في كل قطر من اقطار العالم المتمدن ويتعلموا لغاتها ، ويدرسوا علومها وصناعاتها وآدابها ، ويعودوا في نهاية الاثني عشر عاما ، ليقدموا تقاريرهم عن مشاهداتهم وابحاثهم ، الى زعماء بيت سليمان . بينا تحتل جماعة اخرى جديدة من العلماء المستطلعين اماكنهم في الخارج . وبهذه الطريقة يدخل الى اطلنطس الجديدة افضل ما في العالم .

وعلى الرغم من اختصار وصفها فاننا نجد فيها مرة ثانية موجزا لكل مدينة فاضلة وضعها فيلسوف . رجال عقلاء حكماء يرشدون شعبهم في سلام واعتدال ان حلم كل مفكر هو استبدال محترفي السياسة بالعلماء . لماذا بقيت هذه الامنية

حلما بعد كل هذا التجسيد ؟ والسبب هو ان المفكر مثقف واسع الاحلام ، ولا يحاول الدخول في الميدان ليبنى افكاره ويخرجها الى عالم الحقيقة . لان طموح الروح الضيقة المبالاة للتملك والمال ، كتب عليها الى الابد التغلب على اماني الفلاسفة والقديسين اللطيفة الانيقة المدققة . او ان العلم لم يتطور بعد ويبلغ حد النضج والقوة الواعية ؟ وان علماء الطبيعة والكيمائيين والفنيين بدأوا يرون اليوم فقط ان نهوض دور العلم في الصناعة والحرب يقدم لهم مركزا اساسيا في النواحي الاجتماعية . ويشير الى الوقت الذي سيتمكنون فيه بفضل تنظيمهم من اقناع العالم الى دعوتهم الى تولي الزعامة ؟ ربما لا يستحق العلم بعد سيادة العالم . وربما سيبلغ هذا الاستحقاق والجدارة في وقت قريب .



٥ - نقد

والان هل تحظى فلسفة فرنسيس بيكون بتقديرنا ؟

هل هناك شيء جديد فيها ؟ ان ماكولي الكاتب الانجليزي المشهور ، يعتقد ان الاستقراء الذي وصفه بيكون ، موضوع قديم جدا ، ولا يستحق كل هذا الاهتمام والاثر . وطريقة الاستقراء التي جاء بها ، يقوم بها كل انسان من الصباح الي المساء منذ ظهور العالم . والشخص الذي يستنتج بان فطائر اللحم لاتوافق صحته ، لانه اصاب بالمرض بعد اكلها ، والذي يشعر بان صحته تتحسن عندما يتجنب اكلها ، ويشتد مرضه عندما يأكل من هذه الفطائر كميات اكثر ، ويقل مرضه عندما يأكل منها اقل ، فان هذا الشخص يستخدم بغير وعي منه كل ما جاء به بيكون عن طريقة الاستقراء . ولكن من النادر ان يلجأ هذا الشخص او اي شخص آخر الى تطبيق هذه الطريقة . وهي طريقة القليل او الكثير على وجه دقيق . والاكثر احتمالا انه سيستمر في اكل فطائر اللحم على الرغم من آلامه واضطراب معدته . وحتى اذا كان هذا الشخص حكيما وعاقلا في ملاحظة صحته فان هذا لا يجرّد بيكون من اهمية طريقته ، لان عمل المنطق تنظيم تجارب الحكماء ، ومهمة النظام ليست سوى محاولة تحويل فن القلة الى علم ليدرسه الجميع ؟

ولكن ، هل طريقة الاستقراء هذه من وضع بيكون وصنعه ؟ اليست الطريقة التي اتبعها سقراط طريقة استقرائية ؟ الم تكن طريقة ارسطو البيولوجية طريقة استقرائية ؟ الم يزاول روجر بيكون ويدعو أيضا الى هذه الطريقة الاستقرائية التي دعا لها فرنسيس بيكون ؟ الم يصف جاليليو طريقة افضل استخدمها العلم في الحقيقة ؟ ان هذا صحيح بالنسبة الى روجر بيكون ، واكل صحة بالنسبة الى جاليليو ، واكل صحة حتى بالنسبة الى ارسطو ، واكل الاقل بالنسبة الى سقراط . فقد اوجز جاليليو هدف العلم اكثر من وسيلته . رافعا امام اتباعه هدف المعادلة او الصيغة الرياضية والمقدارية لجميع التجارب والعلاقة . لقد مارس ارسطو الاستقراء عندما كان لا يجد امامه شيئا آخر ليفعله ، وعندما كانت المادة لا تستجيب الى ميله في استخراج نتائج خاصة من الافتراضات العامة العظيمة . ولم يمارس سقراط الاستقراء كثيرا - جمع المعلومات - كما كان يمارس تحليل تعريف وتمييز الكلمات والافكار .

لم يزعم بيكون او يدع الاصاله في طريقته فقد تناولت يده برفعة مثل شكسبير كل شيء لمسته ؛ وازافت عليه زينة وجمالا . لكل انسان مصادره ، كما لكل جسم طعامه . والشيء الخاص به هو الطريقة التي يهضم بها هذه المصادر ويحيلها الى لحم ودم .

وكما يقول رولي ، فان بيكون لم يزد ملاحظات غيره ، وكان يضيء مشعله من كل شعبة ، كما انه اعترف بفضل غيره عليه ، فهو يشير الى طريقة ابقرات المفيدة ، وبهذا يرسلنا رأسا الى المنبع الحقيقي للمنطق الاستقرائي بين اليونان ويقول عن افلاطون بأنه يقدم مثلا حسنا عن الاستفهام عن طريق الاستقراء . ومرة ثانية نتساءل ، هل طريقة بيكون الاستقرائية صحيحة ؟ وهل هي اكثر الوسائل التي استخدمها العلم فائدة ؟ والجواب كلا . لم يستخدم العلم جمع المعلومات

«التاريخ الطبيعي» بطريقة سيكون المعقدة ، ولكن العلم استخدم وحصل على افضل النتائج من الطريقة الاسهل وهي الافتراض والاستدلال ، والتجربة . وهكذا فقد ادرك دارون عندما قرأ مقال مالثوس عن السكان فكرة تطبيق الافتراض المalthوسي على جميع الاجسام الحية ، وهو ان زيادة السكان تنزع الى السرعة اكثر من وسائل الرزق والمعيشة . وقد استنتج دارون من هذا الافتراض النتيجة المحتملة ، وهي ان ضغط السكان على وسائل الغذاء والطعام سيؤدي الى صراع من اجل التمايش يكون فيه البقاء للاصلح . وان كل نوع يتغير في كل جيل ليتكيف اكثر مع البيئة التي يعيش فيها . واخيرا (بعد ان حدد دارون المشكلة التي تواجهه ومجال ملاحظاته عن طريق الافتراض والاستدلال) اتجه الى وجه الطبيعة النضر ، واجرى لمدة عشرين سنة فحصا استقرائيا صبورا للحقائق . كما ان اينشتاين اخذ عن نيوتن الافتراض بأن الضوء يسير في خطوط منحنية وليست مستقيمة ، واستدل بذلك على النتيجة بأن النجم الذي يبدو (على اساس نظرية الخطوط المستقيمة) بأنه في مكان معين في السماء يكون في الحقيقة بعيدا قليلا الى جانب ذلك المكان ، واجرى تجربة وملاحظة ليفحص النتيجة ، ومن هذا يبدو لنا بوضوح بأن عمل الافتراض والتصور اكبر مما ذهب اليه بيكون ، وان الطريقة العلمية اكثر مباشرة واحاطة من طريقته . لقد توقع بيكون نفسه الاستغناء عن طريقته ، وان مزاولة العلم بطريقة علمية ستؤدي الى اكتشاف وسائل افضل في البحث ، من طريقته التي توصل لها خلال فترات راحته وابتعاده قليلا عن مشاغل السياسة . فقد ذكر مرة ، ان هذه الاشياء تحتاج الى عدة اجيال لكي تنضج وتصبح صالحة . وحتى اولئك الذين يحبون بيكون ويمجبون به ، لايسعمهم الا الموافقة ايضا على انه في الوقت الذي كان يضع فيه قانون العلم ، فشل في متابعة ما يدور من اجاث علمية في زمنه . لقد رفض ان يأخذ بآراء كوبرنيك ، وتجاهل كبلر وتيشوبراهي وبخس من

قيمة جلبرت ويبدو انه لم يكن عارفا بهارفي . والواقع انه كان يجب الحديث اكثر من البحث . او ربما اعوزه الرقت للقيام بابحاث متعمقة شاقة ، وترك عند موته اعماله الفلسفية والعلمية مبعثرة غير مرتبطة ينقصها التنظيم وطافحة بالتكرار والتناقض ، والطموح ، والمقدمات .

ان الفن طويل والزمن سريع ، هذه هي مأساة كل نفس كبيرة .

ان مواطن العظمة والضعف في بيكون تكمن تماما في ولعه بالوحدة. انه يجب مد اجنحة عبقريته المنسقة فوق عشرات العلوم . وكان يطمح ان يكون مثل افلاطون « رجلا ذا عبقرية سامية ينظر الى جميع الاشياء من فوق صخرة عالية . » لقد تداعى بيكون تحت عبء المهات التي ارهق نفسه بها ، وفشل لانه اخذ الكثير على عاتقه . لم يستطع دخول ارض العلم الموعودة ، ولكنه كما يقول كولي استطاع ان يقف على حدودها ويشير الى جمال معالمها من بعيد . ان اعماله الفلسفية على الرغم من قلة مطالعتها الان « حركت العقول التي حركت العالم » لقد جعل من نفسه صوت التفاؤل البليغ وشارح عصر النهضة . لانجد شخصا مثله اثار الهمم في غيره من المفكرين . لقد رفض الملك جيمس حقا قبول اقتراحاته حول تقديم المساعدة للعلم ، وقال عن كتابه عن البحث الجديد ، بأنه مثل سلام الله الذي يفوق كل عقل . ولكن في عام ١٦٦٢ انشأ رجال افضل ، المجتمع الملكي الذي تحول الى اعظم جمعية للعلماء في العالم . وجعلوا بيكون نموذجا وملهما لهم . كما رجوا ان تمهد منظمة الابحاث الانجليزية هذه ، الطريق الى جمعية اوروبية اوسع ، اسوة بما حث عليه بيكون في بحثه عن تقدم العلم . وعندما قام عظام العقول في عهد التنوير الفرنسي بمهمة وضع المشروع الفكري

العظيم الرائع ، وهو كتاب دائرة المعارف « الموسوعة » اهدوها الى فرنسيس بيكون - وقال ديدرو اننا لو انتهينا من وضعها بنجاح ، نكون مدينين بالكثير الى بيكون الذي وضع خطة قاموس عالمي عن العلوم والفنون في وقت خلا من الفنون والعلوم . لقد كتب هذا العبقرى الفذ عن الاشياء التي ينبغي تعلمها في الوقت الذي تعذر فيه وضع تاريخ للاشياء المعروفة .

لقد اطلق داليمبرت على بيكون اسم اعظم وابلغ واوسع الفلاسفة . ونشر المؤتمر اعمال بيكون على نفقة الدولة . وسارت جميع الاتجاهات والاعمال الفكرية البريطانية على فلسفة بيكون . . لقد قدم ميله لتفهم العالم بطريقة ديمقراطية ميكانيكية اوحى الى سكرتيره « هوبز » نقطة البداية الى مذهبه المادي . كما ان طريقته الاستقرائية اوحى الى جون لوك فكرة علم النفس التجريبي ، المرتبط بالملاحظة ، والمتحرر من اللاهوت والميتافيزيقا .

لقد كان بيكون صوت جميع الاوروبيين الذين حولوا القارة الاوروبية من غاب الى ارض كنوز الفن والعلم وجعلوا منها مركز العالم . قال بيكون لقد وهبنا الله ارواحا تساوي جميع العالم . وكل شيء ممكن بالنسبة الى الانسان . ان الزمن شاب . اعطنا بضعة قرون من السنين ، وبذلك نسود ونعيد بناء كل شيء . وقد نتعلم على الاقل انبل واعظم درس في الحياة ، وهو ان لا يجرب الانسان اخاه الانسان . ويشن الحرب فقط على العقبات والعراقيل التي تحول بين الانسان وانتصاره على الطبيعة . يقول بيكون في واحد من اروع مقاطع الكتائية ان هناك ثلاثة انواع من البشر . والاول ، اولئك الذين يطمعون في بسط نفوذهم وسلطانهم على بلادهم وهم نوع سافل ومنحط . والثاني

اولئك الذين يسعون في بسط سلطان بلادهم وسيادتها على شعوب اخرى .
وهؤلاء اكثري. كرامة حتما عن النوع الاول ، ولكنهم ليسوا اقل شرها ونها ،
ولكن لو حاول انسان اقامة وتوسيع سيادة الجنس البشري نفسه على الكون
فان طموحه بلا شك اعظم نفعا ، واكثر نبلا ، من النوعين الاخرين ، لقد
فرقت هذه المطامح المكافحة من اجل السيطرة على روحه ، مصيره الى
قطع ، وحطمه الى شظايا



٦ - خاتمة

ينقسم الناس الى ثلاثة ، خدم السلطان او الدولة ، وخدم الشهرة ، وخدم الاعمال ، ولا حرية لهم في اشخاصهم او اعمالهم او اوقاتهم . . . ان الصعود يأتي بالمثابرة والاجتهاد ، وبالآلام ينتهي الناس الى آلام اشد . وبالخسة يصل الناس الى الشرف والمقام . الواقف هو المراوغ ، والتراجع سقوط او كسوف .

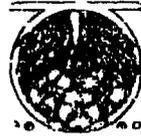
يقول «جوته» ان نقائص الانسان مستمدة من عصره ، وفضائله وعظمته من نفسه . وهذا تحامل وظلم بالنسبة الى روح العصر ، ولكنه حق بالنسبة الى ظروف بيكون . ويقول «ابوت» بعد دراسة دقيقة للاخلاق السائدة في بلاط الملكة اليزابيث ، ان جميع الشخصيات البارزة من النساء والرجال كانوا متشبعين بفلسفة ماكيافيللي ، كما وصف «روجراشام» في ابيات من الشعر الركيك امهات الفضائل المطلوبة في بلاط الملكة بقوله ان الغش ، والكذب ، والنفاق ، والمداهنة امور اربعة لا بد منها للوصول الى الفضل والنعمة واذا كنت مجردا من هذه الكلمات الاربعة اولى بك ان تعود ايها الاخ الطيب الى بيتك . ومن العادات المألوفة في ذلك العصر ، قبول القضاة الهدايا من الاشخاص الذين ينظرون في قضاياهم في محاكمهم . ولم يكن بيكون شاذا عن عصره في هذه الناحية . يبدو ان علاقته مع الملك كانت طيبة ، وعين بارونا على فيرولام في عام

١٦١٨ . وفيكونت سانت البانز في عام ١٦٢١ . وتولى منصب المستشار وهو اعظم منصب في الدولة مدة ثلاث سنوات . وبعدئذ فاجأته الضربة بسرعة ، فقد اتهمه رافع دعوى فاشل بأنه اخذ منه بعض المال للفصل في القضية . لقد كانت مسألة شاذة ، وادرك بيكون ان اعداءه لو استغلوا فان هذا يعني سقوطه فاعتكف في بيته ، وانتظر التطورات . وعندما بلغه ان جميع اعدائه يطالبون باستقالته ، اعترف للملك . وقد اضطر الملك جيمس امام ضغط البرلمان المنتصر الى ارساله الى السجن . ولكنه افرج عنه بعد يومين . وتسامح الملك عن الغرامة المالية الباهظة التي وضعت عليه ولكن كرامته لم تحطم بعد فقد قال « لقد كنت اعدل قاض في إنجلترا في الخمسين سنة الاخيرة . »

وامضى الخمس سنوات الباقية له من حياته في سلام في بيته ، يضايقه الفقر الذي لم يتعود عليه ، ولكنه وجد عزاء وسأوى في متابعة الفلسفة بنشاط . فقد كتب في هذه السنوات الخمس اعظم اعماله اللاتينية ، ونشر طبعة اخرى لمقالاته بعد ان ادخل عليها توسيعات منها تاريخ هنري السابع . وندب حظه لانه لم يبتعد عن السياسة قبل ذلك لينصرف بكل وقته الى الادب والعلم . وحتى الدقيقة الاخيرة بقي منهمكاً في العمل ، ومات في ميدان معركة العمل . لقد اوضح في مقاله « عن الموت » امنيته ان يموت بلا مرض أو ألم ، وقد اجاب الله امنيته وبينما كان راكباً في شهر مارس عام ١٦٢٦ ، من لندن الى هاي جيت ، مفكراً في مدى ما يحتاجه من الوقت حفظ اللحم من الفساد لو غطيناه بالثلج . وعزم على اجراء تجربة سريعة ، فتوقف امام كوخ واشترى دجاجة ، وذبحها ودفنها في الثلج . وبينما كان يقوم بعمله هذا شعر برعشة قوية من البرد ، واحس بالضعف ، وشعر بعجزه عن الرجوع ، وطلب ان ينقل الى بيت اللورد ارونديل القريب من ذلك المكان ، والتزم الفراش ولكنه لم يعتزل

الحياة بعد ، وكتب في فرحة ، لقد نجحت التجربة نجاحاً كبيراً ، وكان
هذه عبارته الأخيرة ، لقد استنفذت حى حياته الصاخبة المتقلبة المختلفة جسده
الذي انطفأ الآن ، واضحى عاجزاً عن محاربة المرض الذي زحف الى قلبه
ببطء . وتوفي في التاسع من شهر ابريل عام ١٦٢٦ في الخامسة والستين من عمره .
لقد كتب في وصيته هذه الكلمات الفخورة :

« اترك روحي الى الله ... ودفن جسدي بغموض ، واسمي للاجيال القادمة
والامم الاجنبية . » وقبلته الاجيال والامم .



الفصل الرابع

سينوزا

١ - سيرته وتاريخه

٢ - تشريد اليهود

ان قصة اليهود منذ تشتيتهم هي احدى صور التاريخ الاوروبي . لقد طردهم الرومان من القدس عند استيلائهم عليها عام (٧٠ بعد الميلاد) وتفرقوا عن طريق التجارة والهجرة بين جميع الشعوب وفي جميع القارات . وتعرضوا لاضطهاد الديانات الاخرى . كما حرم عليهم النظام الاقطاعي حق ملكية الاراضي ، وحالت انتقابات الحرفية بينهم وبين الصناعة .

لقد بدأ انتشار اليهود في جميع انحاء العالم قبل عدة قرون من سقوط القدس في يد الرومان ، فتمد سافروا الى الخارج عن طريق صور وصيدا وموانيء اخرى ، وانتشروا في كل بقعة في منطقة البحر المتوسط ، الى اثينا والاسكندرية وقرطاجنة والى روما ومرسيليا وحتى الى اسبانيا البعيدة ، وبعد تدمير المعبد تحولت هجرتهم الى نطاق واسع ، واخيرا سارت هذه الهجرة والحركة الواسعة

في اتجاهين ، احدهما عبر الدانوب والراين متجها بعدئذ الى بولندا وروسيا ،
والثاني نحو اسبانيا والبرتغال التي كانت خاضعة لحكم المسلمين عام (٧١١ ميلادية)
وقد اتجه اليهود في اوروبا الوسطى الى الاعمال التجارية والمصرفية ، واستوعبوا
في شبه الجزيرة الاسبانية علوم العرب الرياضية والطبية والفلسفية . وتطوروا
بثقافتهم الخاصة في مدارس المدن الاسبانية العظيمة . لقد لعب اليهود هنا في
القرنين الثاني والثالث عشر دورا هاما في نقل الحضارات الشرقية القديمة الى
اوروبا الغربية . هذا في قرطبة قام موسى القرطبي (١١٣٥ - ١٢٠٤) اعظم
طبيب في عصره بكتابة تعليقاته على التوراة « ارشاد الحائر » وفي
برشلونة اعلن حسداي من شبروت آراءه الدينية التي هزت الديانة
اليهودية بأسرها .

لقد ازدهر اليهود في اسبانيا وجمعوا ثروة ، الى ان قام فرديناند باخراج
المسلمين منها نهائياً . وهنا فقد اليهود في اسبانيا الحرية التي تمتعوا بها وعاشوا في
ظلمتها تحت حكم المسلمين المتساهل المتسامح ، وزحف ديوان التفتيش عليهم ،
وخيرهم بين التعميد ومزاولة الشعائر المسيحية ، وبين النفي وتجميد اموالهم ،
لايعني هذا ان الكنيسة كانت تناصب اليهود العداوة ، فقد احتج البابوات باستمرار
ضد اعمال ديوان التفتيش الهمجية . ولكن ملك اسبانيا اراد ان يزيد في امواله
وكنوزه بثروة اليهود الجنس الاجنبي ، وفي السنة التي اكتشف فيها كولمبوس
امريكا اكتشف فرديناند اليهود .

لقد قبلت الاكثوية الساحقة من اليهود الخيار الاكثر صعوبة ، وبجحت عن
مكان تلجأ اليه . وركب بعضهم السفن وحاولوا دخول جنوا ومواني ايطالية
اخرى . ولكن لم يسمح لهم بالدخول ، واجبروا الى ان وصلوا الى الساحل
الافريقي حيث قتل الكثير منهم لاستخراج الجواهرات من بطونهم التي ساد

الاعتقاد بأنهم بلعواها قبل خروجهم من اسبانيا . واستقبل القليل منهم في البندقية « فيليسيا » ، ومول آخرون رحلة كوليبوس على أمل ان يجد لهم هذا الملاح العظيم وطناً جديداً

وركب عدد كبير منهم السفن وابتجروا شمال المحيط الاطلنطي ، بين انكلترا المعادية وفرنسا المعادية ليجدوا اخيراً بعض الترحيب في هولندا . ومن بين الذين نزلوا في هولندا نزلت اسرة برتغالية تدعي سبينوزا .

وبعد ذلك اخذت اسبانيا في الانحلال ، وازدهرت هولندا باليسر والرخاء . وبنى اليهود اول كنيس لهم في امستردام في عام ١٥٩٨ . وبنوا كنيساً آخر بعد خمس وسبعين سنة ، ساعدهم على بنائه جيرانهم المسيحيون . وشعر اليهود الان بالسعادة ، ولكن في نحو منتصف القرن السابع عشر تعكر صفوا الحوادث واحتدم الجدل داخل الكنيس اليهودي عندما كتب « اوريال كوستا » الذي شمر بتأثير الشك الذي ولده عصر النهضة كغيره من اليهود ، كتاباً صغيراً هاجم فيه الاعتقاد بالآخرة هجوماً عنيفاً . لم تكن الناحية السلبية في هذا الكتاب مناقضة للمبدأ اليهودي القديم . ولكن الكنيس ارغمه على التراجع عن اقواله لثلاثين سخط البلد الذي رحب بهم واکرمهم . ومعنى التراجع عن اقواله ان يستلقي الكاتب المتكبر على الارض ، مقابل عتبة الكنيس ليمشي جماعة المصلين فوق جسمه لاذلاله . ولكن اوريال ذهب الى البيت وكتب احتجاجاً شديداً للهجة استنكر فيه مضطهديه واطلق الرصاص على نفسه .

لقد حدث هذا في عام ١٦٤٠ عندما كان باروخ سبينوزا اعظم يهودي في الازمنة الحديثة ، واعظم الفلاسفة في العصر الحديث طفلاً في الثامنة من عمره ، حيث كان التلميذ المحبوب المفضل في الكنيس .

٢ - ثقافة سينوزا

لقد ملأ تشييت اليهود هذا عقل سينوزا ، وجعل منه يهوديا قطعاً ، على الرغم من حرمانه من الكنيس . وعلى الرغم من ان اباه كان تاجراً ناجحاً . لم يظهر الشاب ميلاً للتجارة وآثر تفضية وقته في داخل الكنيس اليهودي ، منكباً على مطالعة تاريخ قومه ودينهم ، وابدى نبوغاً في دراسته استلقت نظر كبار اليهود ، وجعلهم يعلقون عليه آمالاً واسعة في المستقبل ، لعله يبث قبساً من النور في بني قومه . وسرعان ما انتقل من قراءة التوراة ذاتها الى تعليقات التلمود (مجموعة شرائع وسنن وتقاليد اليهود) ومنها الى كتابات ابن ميمون ، وليفي بن جيرسون وابن عزرا وحسداي بن شبروت ، وامتد نهمه في المطالعة الى فلسفة ابن جبريل الصوفية ، وفلسفة موسى القرطبي الصوفية المعقدة . وتأثر بما ذهب اليه موسى القرطبي من وحدة الله والكون واطلع على آراء ابن جيرسون الذي قال بأبدية العالم ، وحسداي الذي اعتقد ان الكون المادي هو جسم الله وقرأ في ابن ميمون بحثاً في نظرية ابن رشد بأن الخلود لا يتعلق بالاشخاص ، ولكنه وجد في كتاب « ارشاد الحائر » حيرة اكثر من الارشاد ، لان الحاخام الاعظم اثار فيه اسئلة اكثر من الاجوبة ، ان ابرع حماة الدين هم اشد اعدائه ، لان آراءهم تولد الشك وتحفز العقل ، واذا كان هذا يصدق على كتابات ابن ميمون فإنه يصدق اكثر على كتابات ابن عزرا ، حيث اثيرت مشا كل الديانة اليهودية

بطريقة مباشرة اكثر ، وفي بعض الاحيان كانت تترك على اساس تعذر الاجابة عليها ، وكلما زاد سبينوزا في مطالعته وتأملاته ، كلما تلاشت اليقينييات في نفسه وتبددت وتحولت الى شك وحيرة . ودفعه حب الاطلاع الى معرفة ما كتبه مفكرو العالم المسيحي حول هذه القضايا العظيمة عن الله ومصير الانسانية ، وبدأ يدرس اللغة اللاتينية على يد عالم هولندي يدعى « دن اندي » ، ودخل بذلك الى مجال اوسع من التجربة والمعرفة . لقد كان في معلمه الجديد بعض الاحاد والهرطقة ، كما كان نقادا للقوانين والحكومات ، دفع به حب المخاطرة والمغامرة الى ان يترك المكتبة ويشارك في مؤامرة ضد ملك فرنسا وحكم عليه بالاعدام شنقا في عام ١٦٧٤ ، وكان لهذا المعلم ابنة جميلة نجحت في منافسة اللغة اللاتينية في الحصول على قلب سبينوزا وحبه ، وكان لهذا الجو المغري من الاثر الجميل على قلب سبينوزا ولكن هذه السيدة الجديدة سرعان ما تركت سبينوزا وفقدت رغبتها فيه عندما تعرفت على رجل آخر احاطها بهداياه الثمينة ، لا شك في ان سبينوزا اصبح فيلسوفا منذ تلك اللحظة

على كل حال فقد تغلب على اللغة اللاتينية واجادها . ودخل عن طريقها الى تراث الفكر الاوروبي في العصور الوسطى والقديمة . ويبدو انه درس سقراط وافلاطون وارسطو ولكنه كان يفضل عليهم اعظم فلاسفة الديرين ، ديمقريطس واپيقور وليوكريتس . كما ترك الرواقيون فيه اثرا لا يندثر . وقرأ الفلاسفة المدرسين ولم يأخذ عنهم علم الاصطلاحات الفنية فحسب بل اخذ عنهم ايضا طريقتهم الهندسية في عرض البدائات والتعريف والقضية والبرهان والحاشية والنتيجة . كما درس فلسفة برونو ذلك الثائر العظيم الذي طاف متنقلا من بلد الى بلد ، ومن عقيدة الى عقيدة ، وكان دائما يخرج من نفس الباب الذي دخل منه باحثا متعجبا ، والذي حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت بغير اراقسة

دمه وذلك بان يحرق حيا . اي ثروة من الافكار والآراء كانت في هذا الفيلسوف الايطالي الثائر اولها ، فكرة وحدة الوجود العظيمة ، كل الحقيقة واحدة في العنصر ، واحدة في العلة ، واحدة في الاصل . والله وهذه الحقيقة شيء واحد واعتقد برونو ايضا بان العقل والمادة شيء واحد ، وكل ذرة من الحقيقة تتألف من عنصر مادي وعنصر روحي غير منفصلين ، لذلك فان موضوع الفلسفة هو ادراك وحدة الوجود في تعدد مظاهره والعقل في المادة ، والمادة في العقل . وايجاد التركيب الذي تتقابل فيه الاضداد والمتناقضات وتندمج . والارتفاع الى ذروة المعرفة عن الوحدة الكلية التي تتساوى فكريا مع محبة الله . لقد اثر كل رأي من هذه الآراء على تفكير سبينوزا .

اخيرا فقد تأثر سبينوزا اشد الاثر بفلسفة ديكارت واطرح التقليد الذاتي والمثالي (كما كان سيكون واضح التقليد الموضوعي والواقعي) في الفلسفة الحديثة . ان الفكرة المركزية في ديكارت هي اسبقية الوعي ، وان العقل يعرف نفسه بسرعة مباشرة اكثر من مقدرته على معرفة اي شيء آخر . حوانه يعرف العالم الخارجي فقط عن طريق اثر ذلك العالم على العقل بالادراك الحسي ، وبناء عليه يجب ان تبدأ كل الفلسفة بعقل الفرد وذاته ، وتبدأ نقاشها الاول في كلمات ثلاث ، انا افكر لذلك انا موجود ، قد يكون في هذه البداية شيء من فردية عصر النهضة . ولكن هذه الناحية من فلسفة ديكارت لم تثر اهتمام سبينوزا ، فهو لا يريد ان يضل في متاهة المنطق والمعرفة ، ولكن الذي اثار اهتمامه في ديكارت هو ما ذهب اليه من ان الوجود ينحل الى عنصرين . عنصر متجانس تنطوي تحته جميع اشكال المادة ، وعنصر متجانس آخر يندرج تحته جميع اشكال العقل . لقد كان تقسيم الوجود هذا الى عنصرين نهائيين تحديا لشعور سبينوزا الذي ينزع الى التوحيد . كما اثر على تفكيره . والذي اثار اهتمام

سبينوزا بديكارت ايضاً ، عو تفسيره للعالم كله ماعدا الله والنفس بالقوانين الآلية والرياضية . وهي فكرد تعود الى ليونارد وجاليلو وربما كانت انعكاساً لتطور الآلات والصناعة في المدن الايطالية . فقد قال ديكارت ان الله دفع العالم الدفعة الاولى (تماماً كما قال اناكسجوراس قبل الفي سنة) وبقية الظواهر الفلكية والجيولوجية وجميع العمليات غير العقلية والتطورات ، يكن تفسيرها من عنصر متجانس وجد اولاً في شكل منحل ... وكل حركة لكل حيوان وحتى في جسم الانسان هي حركة ميكانيكية آلية ، وأن جميع العالم وكل جسم عبارة عن آلة ، ولكن في خارج العالم نجد انها كما في داخل الجسم روحاً . وهنا توقف ديكارت .

٣- حرمانه من الكنيس اليهودي

هذه هي المقدمات العقلية التي استقى منها سبينوزا آراءه وافكاره . هذا هو سبينوزا الشاب الذي كان يبدو هادئا ولكن في نفسه هما وكربا . والذي استدعي امام كبار رجال الكنيس اليهودي في عام ١٦٥٦ بتهمة الهرطقة او الضلال الديني . حيث سألوه ، هل صحيح ما يقال انك قد ذكرت لاصدقائك ان الله جسدا وهو عالم المادة ، وان الملائكة خلط وهذيان ، وان النفس قد تكون مجرد الحياة ، وان التوراة القديمة لم تذكر شيئا عن الخلود ؟

لاندرى بماذا اجاب ، وكل ما نعرف انهم عرضوا عليه راتبا سنويا شريطة ان يوافق على موالاته الكنيس اليهودي والديانة اليهودية ، بكل ما في الطقوس الدينية العبرانية من اجراءات قائمة وصارمة . وكان يسمع اثناء قراءة اللعنة صوت بوق كبير يرسل نغمات نائحة من رقعة لآخر ، وكانت الاضواء ترمي قوية ناصعة في اول الاحتفال ، ثم تجبو الواحدة تلو الاخرى كلما تقدم الحفل ، الى ان خبت آخر جذوة من الضوء الذي يشير الى انطفاء الحياة الروحية في الشخص المحروم ، وبعد ذلك خرج اعضاء الكنيس الى الظلام الحالك .

لقد قدم لنا « فان فلوتين » الطريقة المتبعة في الحرمان من الكنيس . يعلن رؤوساء المجلس الملي اليهودي بعد ان تبين لهم تماما حقيقة آراء باروخ

سبينوزا واعماله الآثمة وبعد ان ، جاولوا بمختلف الوسائل وشق الوعود ارجاعه عن غيه وضلاله ، انهم قد فشلوا في تقويمه وابعاده عن آرائه وافكاره ، وانه تمادى في غيه وضلاله ، وانهم ترد اليهم كل يوم الشهادات الكثيرة عن هرطقته وبدعه الدينية المريعة التي يقدمها ويحاهر بها والسخافة التي تنتشر فيها هذه البدع والهرطقة في الخارج . وان الكثيرين من ذوي القدر والمكانة يشهدون على ذلك . بحضور باروخ سبينوزا ويتهمونه بما ذكرناه من التهم . وقد عرضت القضية وبسطت امام رؤساء المجلس المبي . وتم اقرار بموافقة اعضاء المجلس على انزال اللعنة والحرمان بالمدعو سبينوزا وفصله عن شعب اسرائيل . وانزال الحرم به من هذه اللحظة مع اللعنات الآتية : بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرّم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ سبينوزا ، بموافقة الطائفة المقدسة كلها ، وفي وجود الكتب المقدسة ذات الستة والثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها ، نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة . ولتكن مفضوبا وملعونا ، نهارا وليلا ، وفي نومه وصبحه ، ملعونا في ذهابه وايابه ، وخروجه ودخوله . ونرجو الله ان لايشمله بعفوه ابدا . وان ينزل عليه غضب الله وسخطه دائما ، ويحمله جميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة . ونسأل الله ان يخلص اولي الطاعة منكم وينقذهم . وان لايتحدث معه احد بكلمة ، أو يتصل به كتابة ، وان لايقدم له احد مساعدة او معروفا ، وان لايعيش احد معه تحت سقف واحد ، وان لايقرب احد منه على مسافة اربعة اذرع ، وان لايقرا احد شيئا جرى به قلمه او املاه لسانه .

٤ - عزلته وموته

لقد قابل سبينوزا الحرمان من الكنيس بشجاعة هادئة . قائلا ، لم يرغبني على شيء ولم يحل بيني وبين شيء اعمله . ولكن قوله هذا كان صغيرا في الظلام ، فقد وجد التلميذ الشاب نفسه وحيدا بلا رحمة . لاشيء اكثر رعبا من الوحدة ، وخصوصا فصل الانسان عن بني جنسه ، لقد تحمل سبينوزا فقدان ايمانه وعقيدته الدينية قبل الحكم عليه بالحرمان بوقت قليل ، وهكذا تلقى ضربتين متلاحقتين في وقت وجيز ، كمن يستأصل كل ما في ذهن الانسان في عملية جراحية واحدة ، تترك وراءها جروحا كثيرة دامية . ولم يحاول اعتناق مذهب ديني آخر ، وعاش حياته وحيدا ، وطرده والده الذي كان يتوقع بروز ابنه وتفوقه في العلوم العبرانية . وحاولت اخته ان تحتال عليه لانتزاع بعض حقه في الميراث القليل الذي ترك له . وتجنبه اصدقاءه . ولا غرابة ان لانجد فيه ميلا للمرح والفكاهة عندما يتذكر من وقت لآخر برارة والمحملة الدين والقانون الذين يصفهم بقوله : هؤلاء الذين يريدون البحث عن اسباب المعجزات ، وفهم ظواهر الطبيعة كالفلاسفة ، والذين لا يكتفون بالتحديق فيها في دهشة كما يفعل الاغبياء ، سرعان ما نعتبرهم ملاحدة كفرة . بينما ترفع عامة

الشعب اولئك الذين يتصدون للفلسفة ، وتعتقد فيهم العلم والقدرة على تفسير اسباب الطبيعة والالهة . لان الذين يتربصون بالفلسفة ورجالها يعلمون بان اظهار الحقيقة وتبديد الجهالة ، سيؤدي الى ازالة الغشاوة عن قلوب الناس وعقولهم لأن الجهل هو وسيلتهم الوحيدة للاحتفاظ بسلطتهم ونفوذهم .

وبينما كان سبينوزا يسير ذات ليلة في احد الشوارع ، هاجمه وغد متدين يريد اثبات تدينه بالقتل والجريمة ، وطعنه في خنجر . واستدار سبينوزا بسرعة واسرع في الهرب ، والدم يجري من جرح صغير في رقبتة ، وانتهى بعد هذا الحادث الى الاعتقاد بالخطر الذي يهدد حياة الفلاسفة وقلّة الاماكن الامينة التي يستطيع ان يخلد فيها الانسان للفلسفة بأمان . واستأجر غرفة هادئة في طابق علوي لمنزل يقع في شارع بعيد عن امستردام ، ومن المحتمل ان يكون الان قد استبدل اسمه من باروخ الى بندكت . وكانت العائلة التي سكن معها تدين بمذهب مسيحي يعارض فكرة تعميم الاطفال وبها استعداد لتفهم المرطقة والضلال الديني الى مدى محدود . لقد احبت هذه الاسرة كتابة الحزن التي كانت تعلق قسما وجهه « اولئك الذين يتعرضون للاضطهاد ، ويقاسون الام الحرمان ، بسبب اختلاف مذهبهم عن اكثرية الشعب ، يمتازون بالكياسة اللطيفة او الضراوة العنيفة » وكانوا يرحبون به ، ويسرون بجلسه عندما كان يسهر معهم من وقت لآخر ، يدخن غليونه ، ويفرج عما في صدورهم من كبت وتوتر بجدته . وكان يكسب قوته في بادئ الامر من تعليم الاطفال في مدرسة في فان اندي ، وبعدئذ اشتغل في صقل العدسات البلورية ، وكأنه كان به ميل للعمل في المادة الصعبة . لقد تعلم التجارة النظرية عندما كان يعيش بين الطائفة اليهودية ، فقد كانت شريعة اليهود تحتم على كل تلميذ مزاوله حرفة يدوية

لان الدراسة والتعلم الشريف لا يضمنان في حد ذاتهما المعيشة ، كما قال جباليل ، ان العمل يحفظ للانسان فضيلته بينما يتحول المتعلم الذي اخفق في تعلم التجارة او الحرفة الى التشرد والاحتيال .

وبعد خمس سنوات انتقل صاحب المنزل الذي كان يسكن فيه الى رينسبرج قرب ليدن ، وانتقل سينيوزا معه . ولا يزال هذا البيت قائما حتى يومنا هذا ، ويحمل الشارع الذي يقع فيه هذا البيت اسم الفيلسوف سينيوزا . لقد كانت هذه السنوات سنوات عيش بسيط ، وفكر عظيم . وكثيرا ما كان يبقى في غرفته مدة يومين او ثلاثة لا يرى فيها احد ، يتناول طعامه البسيط الذي يعده له اهل البيت . ولم يدبر عليه عمله في صقل العدسات البلورية سوي الكفاف . لقد احب الحكمة كثيرا ولم يبال في النجاح العملي . يقول لنا كوليروس الذي تتبع سينيوزا في هذا المنزل ، وكتب نبذة قصيرة عن حياة هذا الفيلسوف ، من تقارير اولئك الذين كانوا يعرفونه . انه كان يحرص على جمع حساباته كل ربيع سنة كيلا يصرف اقل او اكثر مما في وسعه صرفه كل سنة ، وكان يقول لاصحاب المنزل احيانا ، انه كالثعبان الذي يشكل دائرة بذنبه في فمه ، يشير بذلك الى انه لاشيء لديه في نهاية العام . ولكنه كان سعيدا في حياته البسيطة ، واجاب على رجل نصحه ان يضع ثقته بالدين والوحي بدلا من العقل والتفكير بقوله « على الرغم من اني اجد احيانا بطلان النتائج التي جرمتها بعقلي وتفكيري الطبيعي ، ولكن هذا لن يزيدني الا اقتناعا ، لانني سعيد في التفكير وجمع المعلومات ولا اضيع اوقاتي في التحسر والحزن ، بل انفقها في السلام والصفاء والسرور » لقد قال احد اعظم الحكماء « لو كان نابليون ذكيا وفطنا كما كان سينيوزا ، لكان آثر ان يعيش في غرفة على السطح مثله وكتب اربعة كتب . »

وسنضيف الى الصور التي وصلتنا عن سبينوزا صورة اخرى وصفها لنا لوليروس ، لقد كان الفيلسوف ربع القامة متوسط الحجم ، وسم الوجه القسبات ، يميل لونه الى السمرة ، شعره اسود ومجعد ، وحاجباه طويلان سودان ، حيث يدرك من ينظر اليه انه ينحدر من اسرة يهودية برتغالية . وكان لايهم بملابسه ، لقد زاره يوما احد اعضاء مجلس الشورى ، ووجده في وب صباحي مهلبل ، ولامه على ذلك ، وعرض عليه ثوبا آخر ، فاجاب سبينوزا ، ان الثوب الجميل لايزيد في قدر الرجل ، واطاف قائلا ، من غير المعقول لف الاشياء الزهيدة بغلاف ثمين

وفي خلال هذه السنوات الخمس التي عاش فيها سبينوزا في رينسبرج كتب فيها رسالته الصغيرة في تحسين العقل ، وكتابا اسمه « الاخلاق مؤيدة بالدليل الهندسي » الذي فرغ من كتابته في عام ١٦٦٥ ، ولم يحاول نشره طيلة عشر سنوات ، ففي عام ١٦٦٨ قام ادريان كويرباغ بنشر آراء مماثلة لآراء سبينوزا وحكم عليه بالسجن عشر سنوات مات بعد قضاء ثمانية عشر شهرا منها ، لقد ذهب سبينوزا في عام ١٦٧٥ الى امستردام ، واثقا في نشر كتابه في امان . ولكنه عدل عن نشره ، فقد سرت في البلد اشاعة على انه سينشر كتابا يقيم فيه الدليل على عدم وجود الله ، كما يقول في رسالة له لصديقه اولدنبرج . ثم يقول ، من المؤسف ان عددا كبيرا من الناس قد صدقوا هذه الاشاعة ، واستغل بعض رجال الدين هذه الفرصة (يحتمل ان يكون رجال الدين هؤلاء هم مصدر الاشاعة) لتقديم شكوى ضدي للامير والقضاة . وعندما تلقيت اشارة من بعض الاصدقاء حول ما يببب لي من شرور وأن رجال الدين يتربصون في كل مكان للايقاع بي ، قررت ارجاء نشر الكتاب الى وقت آخر .

ولم ينشر كتاب الاخلاق الا بعد موت سبينوزا وذلك في عام ١٦٧٧ مع رسالة صغيرة عن السياسة لم يفرغ الفيلسوف من كتابتها بعد . لقد كتبت جميع هذه الكتب باللاتينية التي كانت لغة الفلسفة والعلم في اوربا في القرن السابع عشر . واكتشف فان فلوتن في عام ١٨٥٢ رسالة قصيرة له مكتوبة باللغة الهولندية عن « الله والانسان » قصد بها على ما يلوح ان تكون مقدمة لكتاب الاخلاق . اما الكتب الوحيدة التي نشرها سبينوزا في حياته فهي « مبادئ الفلسفة الديكارتية » و « رسالة في الدين والدولة » وقد ظهرت في وقت واحد في عام ١٦٧٠ ووضعت فوراً في القائمة السوداء ، او قائمة الكتب التي ينبغي « تطهيرها » وحظرت الحكومة بيعها ، وكان هذا دافعا على انتشارها تحت عناوين مختلفة لتضليل الرقابة ، فقد نشرت تحت عنوان رسالة طبية ، واخرى تحت عنوان قصة تاريخية . ووضعت عشرات الكتب لدحضها . ووصفه احدهم بكونه « اعظم الملحدن الذين ظهوروا على هذه الارض فجورا وانما » واطرى احدهم عليها بقوله « انها كنز أبدي عظيم الفائدة » ولم يبق مما وجه لها سوى هذه الملاحظة الاخيرة . وبالإضافة الى هذا فقد تلقى سبينوزا بعض الرسائل التي حاول اصحابها هديه واصلاحه ، ومنها رسالة وردت له من تلميذ سابق له يدعى البرت برج الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي .

لقد زعمت بانك توصلت الى الفلسفة الحققة آخر الامر . كيف عرفت ان فلسفتك افضل جميع الفلسفات قديمها وحديثها ؟ ناهيك عما سيأتي به المستقبل من فلسفات . هل اختبرت الفلسفة كلها قديمها وحديثها ، التي تدرس هنا وفي الهند وفي جميع انحاء للعالم ؟ ولو سلمنا جدلا بانك اختبرتها وامعنت النظر فيها ، فمن ادراك انك اخترت منها افضلها ؟ .. وكيف تجرؤ على وضع نفسك فوق رجال الدين والانبياء والرسول والشهداء والعلماء واباء الكنيسة ؟ انك

لإنسان بائس ودودة تسمي على الأرض ، نعم أنك رفات وطعام للديدان ، كيف تستطيع مواجهة الحكمة الخالدة بكفرك العنيد ، وما هو الأساس الذي يقوم عليه هذا المبدأ اللعين الطائش ، الاحمق الحقيير الذي تنادي به وتدعوه له . واي غرور شيطاني ينفخ فيك ، ويدفعك الى الحكم على خفايا الكون التي يعلن الكاثوليك انفسهم بأنها فوق العقل والادراك ؟ واجاب سبينوزا على هذا بقوله :

انت يا من تدعي أنك وجدت اخيرا افضل الديانات ، واحسن المعلمين ، ووضعت ايمانك فيهم ، كيف عرفت انهم افضل من علموا الديانات ، او يعلمونها الان او سيعلمونها في المستقبل ؟ هل اختبرت كل هذه الديانات ، قديمها وحديثها ، التي تعلم هنا وفي الهند وفي جميع انحاء العلماء . ولو فرضنا أنك اختبرتها جميعها ، فمن انباك أنك اخترت افضلها ؟

ومن هذا يبدو لنا بوضوح ان بمقدور الفيلسوف ان يكون حازما اذا استدعت الضرورة الى ذلك . ولكن لم تكن جميع الرسائل التي وردت على سبينوزا من هذا النوع المكدر المزعج . فقد وصلت له رسائل كثيرة من رجال ذوي ثقافة ومكانة عالية . ومن ابرز هؤلاء الرجال نخص بالذكر هنري اولدنبرج سكرتير المجتمع الملكي في إنجلترا ، وفون تشيرنهاوس وهو مخترع الماني شاب ا وهو يجيز العالم الهولندي ، وليبنتز الفيلسوف الذي زاره في عام ١٦٧٦ ولويس ماير الطبيب في لاهاي ، وسيمون دي فري التاجر الغني في امستردام الذي بلغ اعجابه وتقديره بسبينوزا الى حد توصل فيه اليه ان يقبل مبلغ الف جنيه هدية منه له ، ولكن سبينوزا اقنعه ان يترك ثروته لأخيه بدلا منه . وعندما مات التاجر ، وجدوا انه اوصى بان يدفع الى سبينوزا مبلغ مئتين وخمسين جنيها سنويا من دخل املاكه .

واراد سينوزا ان يرفض هذا المبلغ مرة ثانية قائلاً ، ان الطبيعة يرضيها القليل وانا يرضيني القليل ايضاً ، ولكنهم اجبروه بعد ذلك على قبول مئة وخمسين في السنة . كما اجري عليه صديق آخر وهو جان ديويت قاضي قضاة الجمهورية الهولندية راتباً سنوياً تصرفه له الدولة وقدره خمسون جنياً . واخيراً عرض عليه الملك لويس الرابع عشر مبلغاً كبيراً شريطة ان يقدم اهداء الكتاب الثاني له ، ولكن سينوزا رفض ذلك بطريقة لبقة مهذبة .

ولادخال السرور الى قلوب اصدقائه ومراسليه انتقل الى فوربرج في ضواحي لاهاي في عام ١٦٦٥ ، وفي عام ١٦٧٠ انتقل الى لاهاي نفسها . وفي خلال هذه السنوات الاخيرة تطورت الالفه والمحبة بينه وبين جان ديويت قاضي القضاة في الجمهورية الهولندية ، وعندما قامت الدهماء بقتل ديويت واخيه اعتقاداً منها بانه مسؤول عن هزيمة القوات الهولندية على يد الفرنسيين في عام ١٦٧٢ ، وعلم سينوزا بالحادثة المفجع الذي ذهب ضحيته صديقه انهمرت الدموع من عينيه ، وبعد وقت قصير دعاه الامير دي كورندي قائد الجيش الفرنسي الفاتح الى مقر قيادته ، ليقدّم له الراتب الملّكي الذي اجراه عليه ملك فرنسا ، وليقدّم اليه بعض المعجّبين به الذين كانوا معه ، ولم يجد سينوزا ما يمنعه من تلبية الدعوة ، خصوصاً وانه كان يعتبر نفسه مواطناً اوروبياً ، لا قومياً . ولدى عودته الى لاهاي سرت انباء زيارته هذه بين الشعب ، وظهرت امارات الاستياء والغضب بين الناس . وخاف صاحب البيت الذي كان ينزل به سينوزا الهجوم على منزله ، ولكن سينوزا هدأ من روعه بقوله : انني استطيع ان ابريء نفسي من جميع شبهات الخيانة ... ولكن لو اظهر الناس ادنى رغبة في ازعاجك ،

او تجمهروا وقاموا بضجة امام منزلك ، سأنزل لهم ولو كان مصيري القتل
كصديقي المسكين ديويت . ولكن عندما علم الناس بان سبينوزا مجرد
فيلسوف لا ضرر منه ، قل هياجهم وهذا صخبهم .

لم تكن حياة سبينوزا كما نرى من هذه الحوادث الصغيرة حياة عوز وعزلة ،
كما تواترت عنه الروايات . فقد كاث له مورد يكفل له الطمأنينة واصدقاء من
ذوي النفوذ . لقد اظهر اهتماما بالقضايا السياسية التي كانت تجري في وقته ،
وعرض نفسه بسبب السياسة لمخاطر كادت ان تودي بحياته . واستطاع ان
يشق طريقه على الرغم من حرمان الكنيس له . وان ينال احترام معاصريه الذي
يبدو في العروض التي قدمت له . ففي عام ١٦٧٣ عرض عليه كرسي استاذ
الفلسفة في جامعة هايدلبرج ، واقرن هذا العرض باعتراف شعور التقدير له ، كما
تعهد بمنحه حرية تامة في بسط آرائه الفلسفية . ولكن سبينوزا اعتذر عن
قبول هذا المنصب ، وفضل حياة الهدوء والفكر .

وجاء فصل النهاية في حياته في عام ١٦٧٧ . انه الان في الرابعة والاربعين
من عمره ، ولكن اصدقاءه شعروا بان سنواته اصبحت محدودة . لقد ورت
مرض السل عن والديه ، كما اثرت حياة الحصر التي عاشها والجو المشحون
بالقبار الذي كان يعمل فيه على صحته ، وبدأ يشعر بصعوبة التنفس اكثر
فاكثر ، ونخر المرض رثيته عاما بعد عام . لقد اعد نفسه لهذه النهاية المبكرة ،
ولم يخف الا على كتابه الذي لم يجرؤ على نشره في حياته لتلاخيص اويتلف
بعد موته . لقد وضع كتابه هذا (الاخلاق) في درج مكتب صغير واقفل
عليه واعطى المفتاح لصاحب المنزل ، وطلب منه ان يرسل المكتب والمفتاح
الى الناشر في امستردام بعد موته .

وفي يوم الاحد في العشرين من فبراير ، خرجت الاسرة التي كان يعيش معها الى الكنيسة ، بعد ان اكد لها بانه لا يحس بشدة المرض ، وبقي الطبيب ماير وحده معه ، وعندما عادت العائلة وجدت الفيلسوف مسجى بين ذراعي الطبيب وقد فارقتة الحياة . وبكاه الكثيرون . لقد احبه البسطاء لرقته ، كما احبه العلماء لحكمته . وانضم الفلاسفة والقضاة الى الشعب وساروا وراهم الى مقره الاخير . واجتمع حول قبره رجال من كل مذهب ومن كل دين .

★ ★ ★

٢ — رسالته في الدين والدولة

دعنا ندرس الآن كتب سبينوزا الاربعة وفقا للترتيب الذي كتبها فيه .
قد تكون رسالته في الدين والدولة اقل كتبه متعة لنا اليوم ، والسبب في ذلك
انه افاض كثيرا في التدليل على وجهة نظره ، وبذلك فقدت كتابته الغموض
والابهام الذي يجتذب الفئة المثقفة ويغريها على البحث والدرس . وقد حدث هذا
مع فولتير كما حدث مع سبينوزا في رسالة الدين والدولة .

والمبدأ الاساسي الذي يقوم عليه هذا الكتاب ، هو ان لغة التوراة يطلب
عليها المجاز والاستعارة ، وهذا المجاز والاستعارة امر متعمد ومقصود ، لا لانه
يتناول النزعة الشرقية وميلها الى الادب الرفيع ، وتزيين الالفاظ وتدبيجها ،
والمبالغة في الوصف والتعبير فحسب ، ولكن لان الانبياء والرسل قد لجأوا الى
اثارة الخيال في دعوة الناس الى مبادئهم ومساكنهم ، واضطروا الى تكييف
انفسهم وفقا لرغبات الشعب وتفكيره .

فقد كتب كل كتاب منزل لدعوة شعب معين اولا ، ودعوة شعوب العالم
كلها ثانيا . ويترتب على ذلك ان ينسجم ما جاء في هذا الكتاب ويتناسب مع

عقلية الجماهير ما امكن الى ذلك سبيلا . ان الكتب السماوية المنزلة لا تفسر الاشياء باسبابها الثانوية ، ولكنها تقصها وترويها في طريقة واسلوب قوي متدفق للتأثير على الناس ، ودفعهم الى الايمان والنسك والعبادة ، وخاصة الفئة الجاهلة غير المتعلمة منهم . ان الكتاب المنزل لا يستهدف مخاطبة العقل واقناعه ، بل جذب الخيال والسيطرة عليه . ومن اجل ذلك يكثر فيه ذكر المعجزات وتكرار مظاهر الله .

يعتقد الناس ان قوة الله وعنايته تتجليات بوضوح اكثر بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة . ويظنون ان الله ساكن لا يعمل ما دامت الطبيعة تعمل في نظامها المعبود ، والعكس بالعكس ، وهو ان قوة الطبيعة والاسباب الطبيعية تكون عاطلة وساكنة ما دام الله يعمل ، وهكذا فهم يتصورون قوتين مختلف احدهما عن الاخرى ، قوة الله ، وقوة الطبيعة (وهنا تدخل الفكرة الاساسية في فلسفة سيدنوزا ، وهي ان الله وسير الطبيعة امر واحد) .

يميل الناس الى الاعتقاد بان الله يحطم النظام الطبيعي للحوادث من اجلهم وهكذا يرى اليهود في اطالة النهار معجزة لهم للتأثير على غيرهم « وربما للتأثير على انفسهم » ودفعهم الى الاعتقاد بانهم شعب الله المختار ، لان البيانات الرصينة الحرفية لاتستهيوي مشاعر الناس ولا تحرك نفوسهم ، اذ لا يحرك نفوس الناس ويدفعها الى الايمان والعبادة والتصديق اكثر من المعجزات التي تحرك خيالها وعواطفها ، فلو قال موسى لقومه ان الرياح الشرقية هي التي شقت لهم طريقهم في البحر الاحمر ، لما كان لقوله اثر على عقولهم . ولهذا

السبب لجأ الرسل الى سرد قصص المعجزات كما لجأوا الى سرد الامثلة والحكايات التي تتناسب مع عقلية الشعب . ان تأثير الانبياء والرسل الكبير على الناس بالمقارنة مع تأثير الفلاسفة والعلماء يعود الى الاسلوب البياني الساحر الذي امتاز به اصحاب الديانات من الانبياء والرسل بحكم طبيعة رسالتهم وشدة عواطفهم . ويقول سبينوزا ، اننا لو فسرنا التوراة على هذا الاساس لما وجدنا فيها شيئا يتناقض مع العقل . اما اذا فسرناها تفسيراً حرفياً ، فاننا نجد فيها طافحة بالاطغى والمتناقضات والامور المستحيلة . كذلك الاسفار الخمسة التي جاء بها موسى . اما التفسيرات الفلسفية فتكشف لنا من وراء ضباب البيان والشعر افكار المفكرين والزعماء العميقة ، وتوضح تأثير التوراة الكبير على عقول الناس . وكلا التفسيرين لهما مكان وعمل معين ، فيسلب الناس دائماً ديناً يتسم باثارة الخيال ، ويتحدث عن الحوادث الخارقة . واذا اصيب هذا الدين بالعتب فهم سيخلقون ديناً آخر ليحل في محله . ولكن الفيلسوف يعرف ان الله والطبيعة شيء واحد ، يعملان بالضرورة ووفقاً لقانون ثابت لا يتغير . وهو يقدس ويوقر بالطبع هذا القانون العظيم . وهو يعرف ان الله قد وصف في الكتب المنزلة بكونه مشرعاً او اميراً ، وبكونه عادلاً ورحيماً ، الى آخر ما هنالك من صفات . ليتفق فقط وينسجم مع عقول الناس ومعرفتهم الناقصة التي لم تبلغ حد الكمال .

ان سبينوزا لا يفرق بين التوراة والانجيل ، وينظر الى اليهودية والمسيحية على اساس انها دين واحد ، وذلك عندما تزول البغضاء والخلاف من قلوب الناس . ويجد التفسير الفلسفي جوهر العميقين المتنافستين . فهو يقول - لقد كانت تأخذني الدهشة كثيراً عندما كنت

ارى بعض الناس الذين يفاخرون بتعاليم الديانة المسيحية ، وخاصة بالحب والسعادة والسلام والاعتدال والاحسان الى جميع الناس - يقاتل بعضهم بعضا بمثل هذه الكراهية المريرة التي اصبحت مقياسا لعقيدهم بدلا من الفضائل التي يدعون بها ويعلنون عنها . لقد احتفظ اليهود ببقائهم الى مدى كبير بسبب كراهية المسيحيين لهم ، ودفعهم الاضطهاد الى الوحدة والتاسك لاستمرار بقاء جنسهم . وكان من الممكن لولا هذا الاضطهاد دمجهم وصهرهم مع الشعوب الاوروبية عن طريق الزواج وغيره . وابتلاعهم وسط الاكثريه الساحقة التي تحيط بهم . من كل جانب . ولا سبب يمنع الفلسفة اليهودية والفلسفة المسيحية من الوصول الى اتفاق حول عقيدة تمكنهم من العيش في سلام وتعاون ، وخصوصا بعد ازالة هذه الخلافات التي لامعنى لها .

ويعتقد سبينوزا ان اول خطوة لبلوغ هذا التفاهم والكمال ، هو التفاهم المشترك حول امر المسيح . وتجنبه العقائد المستحيلة . وعندئذ سيدرك اليهود بان المسيح اعظم الانبياء وانبلهم . ان سبينوزا لا يعترف بتأليه المسيح ، ويضعه في مصاف البشر ، فهو انسان . « ان حكمة الله الخالدة ... قد تجلت في جميع الاشياء ، وبوجه خاص في عقل الانسان ، وفي يسوع المسيح بوجه اخص من الجميع . لم يرسل المسيح لتعليم اليهود فقط ، ولكنه ارسل لتعليم الناس كافة . » لذلك فقد كيف نفسه وجعلها ملائمة لادراك الناس وفهمهم . . . ووضع معظم تعاليمه في شكل قصصي ، واستعان بالامثلة البسيطة لتوضيح تعاليمه وجعلها تتناسب مع عقول الناس . وهو

يستبر اخلاق المسيح طافحة دائما بالحكمة . وان توقير المسيح يسمو بالانسان
الى حب الله العقلي » .

وان شخصية المسيح النبيلة لو تخلصت من حواجز العقائد التي تؤدي
الى الانقسام والنزاع فقط ، تستطيع ان تجتذب جميع الناس حولها . وقد
يجد العالم الذي تمزقه الحروب الانتحارية ، حروب السيف والقلم فيها وحدة في
الدين وامكانية نلاخوة آخر الامر .



٣ — تحسين العقل

يبدأ سبينوزا كتابه هذا بمطلع من درر الادب الفلسفي . ونخبرنا عن الاسباب التي دفعته الى التوضيح بكل شيء من اجل الفلسفة :

بعد ان علمتني التجارب ان جميع الاشياء التي تقع في الحياة العادية عبث وباطل ، ورأيت ان جميع الاشياء التي كنت اخشاها وتخشاني ، لاخير فيها او شر الا بمقدار ما يتأثر بها العقل ، عقدت النية اخيرا ان ابحت عما اذا كان هناك شيء يمكن ان يكون خيرا حقا وقادرا على ايصال خيره ، ويمكن ان يتأثر به العقل الى حد يستغني به عن جميع الاشياء الاخرى ، اقول انني عزمتم ان ابحت عما اذا كان في مقدوري ان اكشف وابلغ المقدرة على التمتع بسعادة سامية دائمة .. لقد رأيت في الشرف والثراء فوائد كثيرة ، وانني سأحرم من الحصول عليها اذا اردت البحت باهتمام عن مسألة جديدة . . وانه كلما ازداد حظ الانسان من الثروة والشرف كلما ازدادت سعادته . وازداد تبعاً لذلك تحمسا لزيادتها ، ولكن اذا خاب املنا وفشلنا في جمع المال وبلوغ الشرف ، فان هذا يبعث في نفوسنا اشد الالم . وفي الشهرة ايضا مثل هذا النقص الكبير . فاذا اردنا الشهرة وجب علينا ان نوجه حياتنا بطريقة تبعث الرضي والسرور

في الناس ، وان نتجنب ما يكرهونه ، وان نبحث عما يبحث السرور في نفوسهم ... ولكن التوجه مجبنا الى شيء ابدى خالد سيغذي عقولنا بسعادة خالصة لا الم فيها ... ان الخير الاعظم هو معرفة الاتحاد الذي يربط العقل بالطبيعة كلها .. وكلما ازداد العقل علما ازداد فيها لقواه ولنظام الطبيعة . وكلما ازداد فيها لقواه ازدادت مقدرته على توجيه نفسه ووضع احكام لها ، وكلما ازداد فيها لنظام الطبيعة ازداد مقدرة وسهولة على تحرير نفسه من الاشياء التي لافائدة فيها .

اذن فالعلم وحده هو القوة والحرية . والسعادة الدائمة الوحيدة هي طلب المعرفة ولذة الفهم . ويجب على الفيلسوف في الوقت ذاته ان يبقى انسانا ومواطننا . كيف يكون نمط حياته اثناء طلبه للحقيقة وسعيه وراءها ؟ وهنا يضع لنا سيدنوزا قاعدة بسيطة من قواعد السلوك التي تتفق مع سلوكه اتفاقا تاما على ما نعتقد .

١ - ان يتحدث بطريقة يفهمها الناس ، وان يفعل لهم جميع الاشياء التي لاتحول بينه وبين بلوغ غاياته .

٢ - وان يتمتع فقط بالمذات الضرورية لحفظ الصحة .

٣ - واخيرا ان يبحث فقط عما يكفيه من المال .. الضروري لحفظ حياته وصحته . وان يدعن للعادات التي لاتتعارض مع ما يبحث عنه .

ولكن في وضع مثل هذا البحث يجد سيدنوزا نفسه وجها لوجه مع المشكلة التالية ، وهي ، كيف اعرف ان معرفتي هي المعرفة الحقة ، وهل من الممكن الوثوق بجواسي فيما تنقل الى ذهني من المحسوسات ، وهل من الممكن الاعتماد على عقلي بالنتائج التي يستمدتها من الاحاسيس التي تقدمها له الحواس ؟ اليس من

الواجب ان نبذل ما في وسعنا لاصلاحها ؟ فقبل كل شيء يجب علينا ان نفكر في وسيلة لاصلاح العقل وتنقيته . ويجب ان نميز بين انواع المعرفة ، ولا نضع ثقتنا الا في افضلها واحسنها .

اذ ان اول انواع المعرفة تأتينا عن طريق الاخبار والاشاعات . كمعرفتي مثلا بتاريخ ميلادي ، وثانيها ما يأتي عن طريق التجربة الغامضة كأن يعرف الطبيب علاجاً عن طريق التأثير العام بنجاح هذا العلاج في شفاء المريض . ولكن هذا العلاج لم يتوصل له الطبيب عن طريق التجارب العلمية الثابتة القاطعة . وثالث انواع المعرفة هو ما يأتي عن طريق الاستدلال السريع او المعرفة التي نصل لها عن طريق التفكير . كأن ينتهي بي التفكير الى كبر حجم الشمس ، عندما ارى ان جميع الاشياء يصغر حجمها كلما ابتعدت عن النظر . وهذا النوع من المعرفة ارقى من النوعين الاولين ، ولكنه مع ذلك عرضة للدحض والنقض السريع عن طريق التجربة المباشرة . كما فكر العلم منذ مئات السنين في شق طريقه الى الفضاء بهذا النوع من المعرفة التي لا يستحسنها علماء الطبيعة الان . لذلك فان ارقى انواع المعرفة هو النوع الرابع وهو ما يأتي عن طريق الاستدلال السريع والادراك المباشر كأن نرى ان ٦ هو العدد المحذوف في النسبة ٢ : ٤ = ٣ : ٦ او كما ندرك ان الكل اكبر من الجزء . ويعتقد سبينوزا ان الاشخاص المتضلعين في الرياضيات يعرفون الكثير عن اقليدس بهذه الطريقة البديهية ، ويعترف بحسرة واسف ان الاشياء التي تمكن من معرفتها عن طريق هذا النوع من المعرفة قليلة جدا .

يخفف سبينوزا في الاخلاق النوعين الاولين من المعرفة الى نوع واحد ، ويسمى المعرفة البديهية بكونها ادراك الاشياء في نواحيها وعلاقتها الابدية . وهذه الجملة يقدم تعريفا للفلسفة ، لذلك فهو يحاول ان يجد وراء الاشياء والحوادث قوانينها وعلاقتها الابدية وبذلك يفرق سبينوزا بين النظام المؤقت وهو « عالم »

الاشياء والحوادث وبين «النظام الابددي» وهو عالم القوانين والبناء الذي يسير
هذه الاشياء والحوادث .

دعنا ندرس هذا التفريق بعناية كما يقدمه لنا سينوزا . « جدير بالذكر هنا
ان اقول انني لا افهم هنا من سلسلة الاسباب والوجود الحقيقي سلسلة الاشياء
الفردية المتغيرة ، ولكن بالاحرى سلسلة الاشياء الابدديّة الثابتة . لان من المستحيل
بسبب الضعف البشري تتبع سلسلة الاشياء الفردية المتغيرة ، لا لأن عددها
لا يتجاوز الحصر فحسب ، ولكن بسبب تعدد الحالات في الشيء الواحد نفسه
والتي قد يكون كل واحد منها سببا في وجود هذا الشيء . لان وجود اشياء
معينة في الحقيقة لاعلاقة له بماهيتها وليس حقيقة ابدية ، على كل حال لاحاجة
بنا ان نعرف سلسلة الاشياء الفردية المتغيرة ، لان ماهيتها من الممكن ان توجد
فقط في الاشياء الثابتة الابدديّة ، ومن القوانين المدرجة في تلك الاشياء كقوانين
حقيقية لها . التي تتشكل وتصنع بموجبها جميع الاشياء الفردية . ان هذه
الاشياء الفردية المتغيرة تعتمد بالضرورة على هذه الاشياء الثابتة التي بدونها
لا تقدر على الوجود ولا يمكن ادراكها . »



٤ - الاخلاق

يعتبر كتاب الاخلاق من ارووع وانفس ما انتجته الفلسفة الحديثة . لقد كتب سينوزا هذا الكتاب في شكل هندسي بغية توضيح افكاره وتبسيطها ، ولكن جاءت النتيجة على خلاف ما اراد ، فقد جاء موجزا وغامضا يحتاج كل سطر فيه الى «تلمود» من الشرح والتعليق .

لقد وضع المدرسيون افكارهم بمثل هذه الطريقة ، ولكنهم لم يضعوها بمثل هذه الحدة ، وقد ساعدتهم في توضيح انفسهم نتائجهم المقدرة . لقد رأى ديكارت ان الفلسفة لا يمكن ان تكون محكمة ما لم تعبر عن نفسها في اشكال رياضية . ولكنه لم يتشبث ابدا بمثله الاعلى . ولكن سينوزا يشترط ان يكون العقل الرياضي المدرب اساسا لجميع الابحاث العلمية المدققة وتأثر بما وصل اليه كوبرنيك وكبلر وجاليليو . وبهذا تكون النتيجة بالنسبة الى عقولنا الاكثر تساهلا تركيزا مرهقا ومضنيا في كلتا المسئلة والشكل . وغيل الى تعزية انفسنا بنبذ هذه الفلسفة الهندسية كعبة شطرنج من الافكار المصطنعة التي نتناول فيها البدييات والتعاريف والادلة والقضايا ، كما نتناول في لعبة الشطرنج احجار الشاه والفيل والفرس والكايب . وحدة منطقية اخترعها سينوزا ليتعزى بها عن وحدته .

النظام ضد طبيعة عقولنا ، ونحن نفضل ان نتبع خطوط الاوهام الضالة ، وان نحيك فلسفتنا من احلامنا . ولكن سينوزا كانت له رغبة ملحة ، لتحويل الفوضى في العالم الى نظام ووحدة . فقد كان به جوع اهل الشمال في البحث عن الحقيقة اكثر من شهوة الجنوب في البحث عن الجمال . والفنان بالنسبة الى سينوزا مهندس صرف ، يبني نظاما من الافكار لتناسق وشكل تام .

والطالب الحديث يجد نفسه مرة ثانية يتعثر ويتضجر من المصطلحات التي استعملها سينوزا . فقد اضطر بسبب استخدامه اللاتينية في الكتاب الى وضع افكاره الحديثة في عبارات واصطلاحات المدرسية والقرون الوسطى ، بسبب عدم وجود لغة اخرى للفلسفة يمكن فهمها في ذلك الوقت . لذلك فهو يستعمل كلمة جوهر حيث نضع كلمة حقيقة الى آخر ما هنالك .

وبالاختصار لا تكفي قراءة سينوزا بل يجب دراسته . وان تدرسه كما ندرس اقليدس . مدركا انه كتب في المئتي صنعة المختصرة افكار حياته بطريقة رواقية لكل شيء لازم وغير لازم . ولا تفكر بانك ستجد لبه وقلبه بقراءة عاجلة . اذ اننا لانجد عملا في تاريخ الفلسفة يتكبد فيه القارئ خسارة بتخطيه سطور قليلة مثل هذا الكتاب ، وكل جزء منه يعتمد على الاجزاء السابقة وقد تتحول بعض القضايا الواضحة والتي تلوح بانها لاحاجة لها الى ان تكون اساسا لتطور منطقي جليل . كما انك لن تفهم اي فصل هام فهما تماما ما لم تكن قد قرأت وتفكرت وامعنت النظر في كل الكتاب .

كما ان سينوزا نفسه يعرف صعوبة فهم كتابه ، فهو يقول في الجزء الثاني من كتابه « هنا سيرتبك القارئ بلا شك ، وستذكر عدة اشياء تنتهي به الى

التوقف ، ولهذا ارجوه ان يتقدم معي برفق والا يحكم على هذه الاشياء حتى يقرأ الكتاب كله . لا تقرأ الكتاب كله مرة واحدة ، وقرأ القليل منه في كل مرة ، ربما ان تنتهي منه ، اعتبر نفسك انك قد بدأت تفهمه ، وقرأ بعد ذلك بعض التعليقات كتعليقات بولوك على سينوزا ، او مارتينييه في دراسة سينوزا ، ار الافضل قراءة الاثنين معا ، وقرأ الاخلاق مرة ثانية ، وسيبدو كأنه كتاب جديد بالنسبة لك . وعندما تفرغ منه للمرة الثانية ، فانك ستعشق الفلسفة طيلة حياتك ، واليك اهم ما جاء في هذا الكتاب .



١ — الطبيعة والله

اننا نجد في اسلوب سبينوزا ثلاث كلمات او اصطلاحات محسورية ، وهي جوهر ، ويعني بها الحقيقة الاساسية الثابتة وبناء وقوانين العالم وصفة وهي احدى مظاهر الجوهر او الحقيقة الغير متناهية كالاتساع او الفكر ، وعرض وهو شيء معين ، او شكل او حادث او فكرة .

سنترك الكلمة الثانية وهي صفة جانبا مؤقتا بسبب ببساطتها . اما العرض فهو كما ذكرنا اي شيء او حادث فردي او اي شكل او صورة معينة زائلة ، فانبت وجسمك وافكارك وفصيلتك ونوعك وكواكبك ونجومك جميعها اعراض ، جميعها صور واشكال وهيئات من حقيقة ابدية خالدة ثابتة لا تتغير تقع وراء هذه الاشياء العرضية وتحتها .

ما هي الحقيقة التي تقع تحت هذه الاشياء ؟ ان سبينوزا يسميها جوهر كما تدل عليه اصل هذه الكلمة التي تعني ما يقف تحت ، لقد ساد الخلاف حول حقيقة هذه الكلمة ثمانية اجيال . ولذلك يجب ان لا تثبط همتنا اذا اخفقتنا في حل هذه القضية في مقطع واحد من كتابنا ، ولكن هناك غلطة واحدة يجب ان نتجنب الوقوع فيها وهي ان كلمة جوهر لا يعني بها سبينوزا المادة التي تشكل

الشيء كما نقول عن الحشب مادة الكرسي . اننا لو قارنا الان تقسيمه للعالم الى جوهر وعرض مع تقسيمه له في كتابه اصلاح العقل الى نظام ابدى للقوانين وعلاقات ثابتة من جهة ، والنظام المؤقت للاشياء الزائلة من جهة اخرى ، فان هذا يسوقنا الى النتيجة ، وهي ان سبينوزا يعني بالجوهر هنا تقريبا ما قصده بالنظام الابدي هناك .

فلنعتبر ذلك كعنصر واحد في كلمة جوهر ، وبهذا فانه يشير الى بناء الوجود ذاته الكامن تحت كل الاشياء والحوادث ، والذي يشكل لب العالم .

ولكن سبينوزا يمثل الجوهر بالطبيعة والله . وهو يتصور الطبيعة او الكون ذات مظهرين فهي فعالة حيوية خالقة من جهة ، وهي منفعة مخلوقة من جهة اخرى . وان هذا الجانب المنفعل هو المادة وما تشتمل عليه الطبيعة من غابات ، وهواء وماء وجبال وحقول وعشرات الالوف من الاشياء الخارجية . وهذه الطبيعة كلها من انتاج الجانب الفعال وخلقة ، وعندئذ يكون في الكون قوة خالقة تخلق الاشياء وهي التي يسميها « جوهر وهي الله » وفيه اشياء مخلوقة وهي الاعراض او العالم .

ومن هذا يتضح لنا ان سبينوزا يقسم الكون الى جوهر وعرض ، الى قديم وحادث ، الى الله والعالم المحسوس . اما الجوهر او الله فهو حقيقة لامادة لها ، بخلاف عالم الاشياء . قد يساعدنا المقطع الاتي على توضيح فكرة سبينوزا « اني اتصور الله والطبيعة في صورة تختلف تماما عن الصورة التي يصورها مسيحيون المتأخرون عادة ، لانني اعتقد ان الله هو الاصل وليس الطارىء ، وان الله هو السبب لجميع الاشياء ، اقول ، ان كل شيء كامن في الله ، وكل شيء

يحيا ويتحرك في الله ، واني متفق في هذا مع الرسول بولس ، وربما اكون متفقاً مع كل واحد من فلاسفة القديم . على الرغم من ان طريقتي تختلف عن طريقتهم ، وقد اجروا على القول ان رأبي هو نفس الرأي الذي جاء به العبرانيون في القديم . على كل حال لقد اخطأ فهمي اولئك الذين يقولون ان غرضي هو ان ابين ان الله والطبيعة شيء واحد ، والقائلون بهذا يفهمون من لفظ الطبيعة كلمة معينة من المادة المحسدة ، انني لا اقصد ذلك .»

وهو يكتب مرة ثانية في رسالته عن الدين والدولة «انني اقصد بمساعدة الله ، نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغير ، او سلسلة الاحداث الطبيعية » ان قوانين الطبيعة العامة واورام الله الخالدة شيء واحد . وان كل الاشياء تنشأ من طبيعة الله اللانهائية كما يذشأ من طبيعة المثلث ان زواياه الثلاث تساوي قائمتين . وان الله بالنسبة الى العالم كقوانين الدوائر بالنسبة الى الدوائر كلها . فالله هو السلسلة السببية ، الكامن وراء كل الاشياء ، وهو قانون تركيب العالم . وهذا الكون المتناسك من الاعراض والاشياء من الله بمثابة الجسر من تصميمه وبنائه ، وتركيبه ، والقوانين الرياضية والميكانيكية التي بني عليها .

فهي جوهر الجنس والقاعدة الاساسية التي بني عليها . والتي بدونها يتداعى وينهار . وان العالم نفسه مدعوم ومسند ببنائه وقوانينه ، مدعوم بقوة الله كالجسر المدعوم في بنائه وتصميمه بالقوانين الرياضية والميكانيكية التي بني عليها .

ان ارادة الله وقوانين الطبيعة اسمان يطلقان على حقيقة واحدة . ويتبع ذلك ان كل الاحداث التي تقع في العالم ان هي الا نتيجة آلية لقوانين الطبيعة الثابتة ، وليست نزوة من نزوات حاكم مطلق يجلس في النجوم ، وليست هذه

الآلية قاصرة على المادة والجسم فقط كما ذهب ديكارت ، فان سبينوزا يرى انها تشمل الله والعقل ايضا .

ان العالم جبدي ، وليس مقصودا او له غرض . انه عالم مجبر يسير في طريقة لامناص منها او محيص . ولاننا نعمل من اجل غايات واعية مستيقظة فاننا نفترض ان جميع الاتجاهات والحوادث لها مثل هذه الغايات . ولاننا بشر فاننا نفترض ان جميع الحوادث تنتهي الى الانسان . وانها وضعت بطريقة تصلح لحاجاته . ولكن هذا وهم كالكثير من الاوهام في تفكيرنا . ان جذور اعظم الاخطاء في الفلسفة تقع في ابراز اغراضنا البشرية والمقاييس والاشياء التي نفضلها في سير العالم . ومن هنا نشأت مسألة الشر ، فاننا نكافح لتوفق بين شرور الحياة مع خير الله ، ناسين الدرس الذي علمه الله الى ايوب ، ان الله فوق خيرنا وشرنا . وان الخير والشر نسبيان وفي الغالب يعودان الى اذواق البشر وغاياتهم .

وعندما يبدو لنا اي شيء في الطبيعة مضحكا او سخيفا ، غامضا او شراً فذلك لأننا ليست لدينا سوى معرفة قليلة بالاشياء ، واننا جاهلون بنظام الطبيعة ونماسكها ككل واحد ، ولأننا نريد ان تجري الاشياء وفقاً لتفكيرنا وارائنا ، مع ان ما يعتبره عقلنا سيئاً او شراً ليس شراً او سيئاً بالنسبة الى نظام الطبيعة وقوانينها الشاملة الكلية . بل بالنسبة الى قوانين طبيعتنا الخاصة المنفصلة . اما بالنسبة الى كلمة الخير والشر فانها لاتدل على شيء ايجابي في حد ذاتها .. لأن الشيء الواحد نفسه قد يكون في وقت واحد خيراً او شراً ، او لا هذا ولا ذاك كاللوسيقى مثلاً فانها خير بالنسبة الى المنقبض النفس ، وشر بالنسبة الى النائح الحزين الذي فقد شخصاً عزيزاً عليه وهي ليست خيراً او شراً بالنسبة الى الميت

ان الخير والشر اعتباران لاتعترف بهما الحقيقة الخالدة . والحق هو ان بصور العالم طبيعة اللانهائي التامة ، لا مثل الانسان العليا المعينة فقط . وكما ان الخير والشر امران اعتباريان فكذلك القبح والجمال امران اعتباريان ايضا لا يدلان على حقيقة ثابتة « اني لا اعزو الى الطبيعة جمالا او قبحا ولا نظاما او اضطرابا . والاشياء توصف بالجمال او القبح والنظام او عدسه بالنسبة الى مداركنا وتصورتنا فقط . فان كانت الحركة التي تستقبلها الاعصاب من الاشياء التي امامنا بواسطة العين باعثة للصحة فانها تسمى جميلة واذا لم تكن كذلك تسمى قبيحة . » وسينوزا في هذه الفقرات يتجاوز افلاطون الذي اعتقد ان آراءه في الفن والجمال ينبغي ان تكون قوانين الخلق واحكام الله الابدية .

هل الله شخص ؟ وكما ادخل الانسان شخصه في النظر الى الحقيقة الخالدة من حيث الخير والشر والجمال والقبح ، فقد نظر الى الله ايضا من وجهة نظر بشرية محضة . اما سينوزا فيرفض هذه النظرة رفضا باتا ، وينكر ان يكون الله « شخصا باي معنى من معاني هذه الكلمة . ويشير الى الاعتقاد الشعبي السائد بين الناس في تصوير الله في صورة المذكر لا في صورة المؤنث ويرفض بشجاعة تصوير الله بصورة المذكر التي تنعكس عن تبعية المرأة للرجل وخضوعها له على هذه الارض . ويحيب سينوزا على رجل اعترض عليه في تصويره الله بصورة مبهمه غير شخصية بقوله : « عندما تقول اني انكر بان يكون لله بصر وسمع وارادة وما الى ذلك فانك لاتعرف اي نوع من الله إلهي ، واظن انك تعتقد بان لا اله اعظم كالا من الله الذي يتصف بالصفات السابقة ، وهذا لا يدعو الى اثاره الدهشة في نفسى . لانني اعتقد ان المثلث لو استطاع ان يتكلم لقال بنفس الطريقة على ان الله مثلثي في اضلاعه ، ولقالت الدائرة ان طبيعة الله دائرية في سموها ، وهكذا يخلع كل شيء صفاته الخاصة على الله . »

واخيرا ، لا العقل ولا الارادة ينطبقان على طبيعة الله بالمتى العادي الذي تعزى فيه هذه الصفات البشرية الى الله . ولكن ارادة الله هي مجموع الاسباب كلها والقوانين كلها . وعقل الله هو مجموع العقول كلها . ان عقل الله كما يفهمه سينوزا هو كل القوى العقلية المنتشرة في ارجاء المكان والزمان ، وهو الوعي والادراك المنتشر الذي يبعث الحياة في العالم ، كل الاشياء حية بدرجات ، والحياة والعقل وجه واحد لكل ما نعرفه من اشياء كما ان الامتداد المادي او الجسم وجه آخر . وهذان العقل والجسم هما الوجهان او الصفتان اللتان بهما ندرك عمل الجوهر او الله . وبهذا المعنى يمكن ان يقال ان الله وهو الحقيقة الابدية وراء تدفق الاشياء له عقل وجسم . فلا العقل وحده ولا المادة وحدها هي الله ، ولكنه العمليات العقلية والعمليات الذرية التي تشكل تاريخ العالم المزدوج ، هذه واسبابها وقوانينها هي الله .

٢ — المادة والعقل

ما هو العقل ، وما هي المادة ؟ هل العقل مادي ، كما يظن بعض الناس من ذوي الخيال المحدود ، او هل الجسم مجرد فكرة ، كما يفترض بعض الخياليين ؟ هل العملية العقلية هي السبب ام النتيجة لعملية الدماغ ، او انها مستقلان ولا يمت احدهما للآخر ، ويسيران في خطين متوازيين كما ذكر مالبرانش .

ويجيب سينوزا على هذا التساؤل بقوله ، ان العقل ليس مادة ، ولا المادة فكرا ، وليست عملية الدماغ سببا ، كما انها ليست نتيجة او اثرا ، وليست هاتان العمليتان مستقلتين ومتوازيتين ، اذ ليس هنا عمليتان وليس هنا وجودان . بل هناك عملية واحدة نراها من الداخل فكرا ، ومن الخارج حركة هنا وجود واحد نراه من الداخل عقلا ومن الخارج مادة . ولكنه في الحقيقة ليس الا مزيج مندمج من الاثنين . والعقل والجسم لا يؤثر احدهما بالآخر لانها ليسا شيئين بل شيئا واحدا ، ولا يستطيع الجسم ان يحمل العتل على ان يفكر ولا يستطيع العقل ان يحمل الجسد على ان يبقى في حركة او سكون او يتخذ وضعا آخر . والسبب في ذلك بسيط وهو « ان حكم العقل ورغبة الجسم وميوله شيء واحد بعينه . وكل العالم متحد بنفس هذه الطريقة المزدوجة . فاينما وجدت

اعلاماديا فليس ذلك الا جانبا واحدا من العملية الحقيقية ، التي لا يراها بوجهها الا النظر الشامل الذي يمكنه ان يدرك العملية العقلية الباطنة المستترة وراء الظاهرة المادية . والعملية العقلية الداخلية ترتبط في كل مرحلة مع العملية الخارجية المادية . ونظام الافكار وارتباطها هو نفس نظام الاشياء وارتباطها . وبهذا فان عنصر الفكر وعنصر المادة شيء واحد يبدو مرة فكريا ومرة امتدادا .

وبعد ان ازال سبينوزا الفرق بين الجسم والعقل ، وجعل منها حقيقة ذات وجهين او مظهرين ، نراه يتجه الى تقليل الفرق بين العقل والارادة . ويقول انها حقيقة واحدة ، وكل ما بينهما من فرق فهو فرق في الدرجة لا في النوع . اذ لا يوجد في العقل ملكات ، ولا موجودات منفصلة تسمى عقلا و ارادة او خيالا او ذاكرة ، لأن العقل ليس وكالة للبيع تتجر بالافكار . ولكنه هو الافكار نفسها في سيرها وتسلسلها . ولفظة العقل مجرد كلمة مجردة موجزة نطلقها على سلسلة الافكار ، كما نطلق لفظ الارادة على سلسلة الاعمال والمشينات . ان العقل والارادة مرتبطان مع هذه الفكرة او تلك الفكرة او الرغبة كالصخرية في هذه الصخرة او تلك الصخرة . واخيرا الارادة والعقل شيء واحد بعينه . لأن المشيئة فكرة طال بقاؤها في الشعور ثم تحولت الى عمل ، وكل فكرة تصير عملا ما لم تؤخرها فكرة معارضة . فالفكرة نفسها هي المرحلة الاولى لعملية عضوية متحدة يتمها العمل الخارجي .

ويعتقد سبينوزا ان ما يسمى غالبا بالارادة هو في الحقيقة رغبات او غرائز أساسها جميعا حفظ بقاء الفرد ، ان ما يسمى غالبا ارادة ، كالقوة الباعثة التي تقرر استمرار الفكرة في الشعور ينبغي ان يسمى بالرغبة التي هي جوهر الانسان . ان الرغبة عبارة عن شهوة او غريزة نشعر بها ، ولكن الغرائز لاتعمل دائما عن

طريق الرغبة الواعية ، اذ ان وراء الغرائز يكمن المجهود الغامض لحفظ البقاء .
وسبينوزا يرى هذا المجهود في حفظ البقاء في جميع البشر تماما كما يرى شوبنهاور
ونيتشه ارادة الحياة او ارادة القوة في كل مكان ، ومن النادر ان يختلف الفلاسفة .
فكل نشاط بشري منها تنوع صادر عن هذه الرغبة في حفظ البقاء .

كل شيء يحاول ان يبقى على وجوده ، وليس هذا المجهود لحفظ بقائه الا
جوهر حقيقته ، والقوة التي يستطيع بها الشيء ان يبقى هي قوام وجوده
وجوهره ، وكل غريزة هي خطة ارتقت بها الطبيعة للمحافظة على بقاء الفرد .
والسرور والألم هما ارضاء الغريزة او تعطيلها ، وهما ليسا سببين لرغباتنا بل
نتيجة لها ، اننا لانرغب في الاشياء لانها تسرنا ، ولكنها تسرنا لاننا نرغب فيها
ولا مناص لنا من ذلك .

ويترتب على ذلك ان لا يكون للانسان ارادة حرة ، لان ضرورة البقاء
تقرر الغريزة ، والغريزة تقرر الرغبة ، والرغبة تقرر الفكر والعمل . وقرارات
العقل ليست سوى رغبات ، وليس في العقل ارادة مطلقة او حرة ، وهناك
سبب يسير العقل في ارادة هذا الشيء او ذاك ، وهذا السبب يسيره سبب آخر ،
وهذا يسيره سبب آخر وهكذا الى ما لانهاية ، يظن الناس انهم احرار لانهم
يدركون رغباتهم ومشياتهم ، ولكنهم يجهلون الاسباب التي تسوقهم الى ان
يرغبوا او يشتهوا ، ويقارن سبينوزا الشعور بالارادة الحرة بحجر رمي الى الفضاء
وان هذا الحجر لو وهب شيئا من الشعور لظن اثناء رميه وسيره في الفضاء انه
يقرر مسار قذفه ، ويختار المكان والوقت الذي يسقط به على الارض .

وبما ان الاعمال البشرية تعمل وفق قوانين ثابتة كقوانين الهندسة ، لذلك ينبغي
علينا دراسة علم النفس في شكل هندسي ، وبطريقة رياضية . وفي هذا يقول
سبينوزا « سأكتب عن الكائنات البشرية ، وكأنني اكتب عن الخطوط والسطوح

والاجسام الجامدة . « وقد حرصت على ان لا اسخر او انذب او العن او
اكره الاعمال البشرية بل افهمها ، ولذلك نظرت الى العواطف . . لا باعتبار كونها
رذائل وشروراً في الطبيعة البشرية ولكن بوصفها خواص لازمة لها كتلازم
الحرارة والبرودة والعواصف والرعد وما شابهها لطبيعة الجو . ان هذا العدل
وعدم التحيز في البحث اضفى على دراسة سبينوزا للطبيعة البشرية تفوقاً قال
عنه فرويد العالم السيكولوجي انه « اكمل دراسة قام بها فيلسوف اخلاقي حتى
الآن . » ولم يجد « تين » طريقة افضل لمذح تحليل بيلى من مقارنته مع سبينوزا ،
وكتب يوهانس ميلر في موضوع الغرائز والعواطف ، « بالنسبة الى علاقات
العواطف احداها للآخرى ما عدا حالاتها الوظيفية ، من المستحيل ان نقدم
دراسة افضل من الدراسة التي وضعها سبينوزا بتفوق لا يبارى .

٣ — العقل والاخلاق

واخيرا تندرج الاخلاق في اشكال ثلاثة فقط ، أي ان هناك ثلاث صور للمثل العليا والحياة الاخلاقية . اولها ما دعا اليه بوذا والمسيح من فضل الرحمة واللين والمحبة التي تدعو الى المساواة بين الناس ، وتدفع الشر بالخير ، وتعتبر الحب هو الفضيلة ، وتميل في السياسة الى الديمقراطية المطلقة . وثانيها ما دعا اليه ماكيافيلي ونيتشه من فضائل العنف والرجولة التي تدعو الى عدم المساواة بين الناس ، وتمجد الحرب والفتح والحكم ، وتعتبر القوة هي الفضيلة ، وتعظم الارستقراطية الوراثية في الحكم . وثالثها اخلاق سقراط وافلاطون ، وارسطو التي تنكر امكانية تطبيق النوعين الاولين من الاخلاق تطبيقا شاملا ، وتعتقد ان العقل الناضج المثقف وحده هو الذي يستطيع ان يحكم تبعا للظروف المختلفة متى يجب ان يسود الحب ومتى ينبغي ان تتحكم القوة ، وبذلك تكون الفضيلة في نظر سقراط وافلاطون وارسطو هي العقل ، ويدعو هؤلاء الفلاسفة الى نظام من الحكم يجمع بين الارستقراطية والديمقراطية في الحكومة .

هذه هي الصور الثلاث للاخلاق المثالية كما يراها بوذا والمسيح وماكيافيلي ونيتشه وسقراط وافلاطون وارسطو . فالفضيلة في الاولى هي الحب

والفضيلة في الثانية هي القوة والفضيلة في الثالثة هي العقل .

ويحيى سبينوزا ويوفق بحركة لاشعورية منه بين هذه الصور الفلسفية المتنافرة المتضاربة ويجبكها في وحدة منسجمة ، ويقدم لنا نظاما اخلاقيا يعد اسمى ما وصل اليه الفكر الحديث .

يبدأ سبينوزا بحثه بأن يجعل السعادة هدفا للاخلاق ويعرف السعادة ببساطة بكونها وجود اللذة وانتفاء الالم . ولكن اللذة والالم امران نسبيا وليسا مطلقين ، وليساه حالتين معينتين بل انتقاليين . « ان اللذة هي انتقال الانسان من حالة كمال اقل الى حالة اعظم كمالا . » واللذة تأتي هنا من زيادة قوة الانسان . « والالم هو انتقال الانسان من حالة كمال اعظم الى اخرى اقل كمالا ، وانا اقول انتقال لأن اللذة ليست كمالا في حد ذاته : فلو ولد انسان كاملا لما شعر بعاطفة اللذة ، ونقيض هذا يزيد الامر وضوحا . » ان جميع العواطف والمشاعر تحرك وانتقال نحو الكمال والقوة او انتقال وهبوط من الكمال والقوة . فالعواطف والمشاعر جميعها انتقال وتحرك الى القوة والكمال او هبوط منها . ويقول سبينوزا « انا افهم من العاطفة اوضاع الجسد التي تزيد فيه او تنقص قوة العمل والتي تساعد او تقيد هذه القوة ، وافهم منها في الوقت ذاته الافكار التي ترافق هذه الاوضاع . » (ان نظرية العواطف هذه تنسب الى جيمس ولانج ولكن سبينوزا وضعها هنا بدقة واحكام اكثر من هذين العالمين النفسانيين ، وتتفق كثيرا مع ما وصل اليه البروفسور كانون) . فالعاطفة او الشعور ليست خيرا او شرا في نفسها ، ولكن بمقدار ما تنقص او تزيد من قوتنا . « وانا اقصد بالفضيلة والقوة نفس الشيء » لأن الفضيلة هي قوة العمل ، فهي نوع من المقدرة ، وكلما زادت مقدرة الانسان في الاحتفاظ ببقائه والبحث عما ينفعه كلما

زادت فضيلته . « . ولا يطلب سينوزا من الانسان ان يضحى بنفسه من اجل مصلحة الاخرين ، انه اكثر لينا وتساهلا من الطبيعة . والانانية عند سينوزا نتيجة لازمة للفريزة العليا ، وهي غريزة الاحتفاظ بالنفس . « لا يهمل انسان شيئا نافع له الا اذا كان يرجو خيرا اعظم منه . » وهذا في نظر سينوزا معقول جدا . « فاذا كان العقل لا يطلب شيئا يتعارض مع الطبيعة . لذلك يجب على كل انسان ان يحب نفسه ، ويبحث عما يفيده ، ويسعى الى كل شيء يؤدي به في الحقيقة الى حالة اعظم من الكمال . وان كل انسان يجب ان يحاول المحافظة على بقاءه كلما استطاع الى ذلك سبيلا . » وهكذا فان سينوزا لا يقيم اخلاقه على محبة الآخرين وطبيعة الخير في الانسان كغيره من المصلحين المثاليين ، ولا على الانانية وطبيعة الشر في الانسان كالمحافظين الكليبيين ، ولكنه يقيما على ما يعتبرها انانية لامفر منها ولها ما يبررها . ان نظام الاخلاق الذي يدعو الناس الى "الضعف ويعلم الانسان ان يكون ضعيفا هو نظام لا قيمة له وغير جدير بالاهتمام . ان اساس الفضيلة ليس الا مجهود الانسان في الاحتفاظ ببقائه ، وسعادة الانسان تتألف من قوة الانسان على حماية وجوده .

وسينوزا مثل نيتشه لا يؤمن بالتواضع ، والتواضع في نظره نفاق وتلق من جانب من له غرض ، او خجل ووجل ومن صفات العبيد . ويدل على الضعف والمعجز بينما جميع الفضائل في نظر سينوزا متفرعة عن القوة والمقدرة ؛ ويترتب على هذا ان يكون لوم الضمير او الندامة تقصا وليس فضيلة ، والندم والتأسف يضاعف من شقاء الانسان ويزيد في ضعفه ، ولكن سينوزا لا يسرف في تضييع الوقت في القدر والندم في التواضع مثل نيتشه الفيلسوف الالماني ،

لأن التواضع امر نادر بين الناس ، وكما قال شيشرون اعظم خطباء الرومان وفلاسفتهم ، وحق الفلاسفة الذين يفتخرون الكتب في مدح التواضع يحرصون على وضع اسمائهم على غلاف الكتاب رغبة منهم في اظهار اسمائهم والدعاية لانفسهم . وكما يكره سينيوزا التواضع نجده يكبر ويقدر الاعتدال ، ويعترض على الفخار أو الكبر ان لم يكن مقرونا بالعمل . ان الكبرياء او الخيلاء تشير الاذي والضرر ، وتبعث القلق والازعاج بين الناس . والانسان المتكبر يتحدث عن اعماله العظيمة وينسب اعمال الشر الى الآخرين ، ويبتهج في مجلس الناس الذين دونه في المرتبة والمنزلة ، الذين يسبحون بكماله ويطرون اعماله ، ويستغلونهم الى ان يصبح ضحية الذين يمجذونه ويحرقون بخور المدح والثناء بين يديه اكثر من غيرهم . اذ ليس بين الناس من يؤخذ بالتملق والمداهنة والاطراء اكثر من الشخص المتكبر الفخور .

حق هذا الحد نجد فيلسوفنا اللطيف يعرض علينا اخلاقا اسبارطية ، او بمباراة اوضح نوعا من الاخلاق كانت تسير عليها اسباطة . ولكنه يخفف من نعمته هذه في مقاطع اخرى ، فهو يبدي دهشته من كثرة الحسد والحقد والبغض وتحقير الناس بعضهم لبعض وتصغيرهم لبعض ، ولا يرى علاجا لامراضنا الاجتماعية الا بالتخلص من هذه النزعات والمشاعر السيئة وامثالها . وهو يعتقد ان التخلص من هذه النزعات الخبيثة امر سهل وميسور . فالبغض مثلا يمكن التغلب عليه بالحب اكثر من تبادل البغض بالبغض . لان البغض يشتعل بسبب تبادل الشعور فيه . اما الذي يحس في نفسه بانه محبوب من الشخص الذي يبغضه فانه يصبح فريسة للمواطف المتضاربة ، عواطف الحب والبغض وبما ان الحب (كما يعتقد سينيوزا بتفاؤل كبير) ينزع الى توليد الحب لذلك فان بغضة يذوب ويفقد قوته . ان البغض اعتراف منا بنقصنا وخوقنا ، اننا لا نبغض عدوا نثق

باننا في وسعنا التغلب عليه ، ان ذلك الذي يريد ان ينتقم من شخص اصابه منه الاذى بصب بغضه عليه سيعيش في شقاء ، وتصبح حياته لا تطاق . اما الذي يحارل ان يدفع البغض بالحب ، فانه يكافح من اجل هذه الغاية بسعادة ولذة وثقة ، وفي وسعه ان يقاوم بالتساوي رجلا او عدة رجال ، ومن النادر ان يحتاج الى مساعدة ، واولئك الذين يتغلب عليهم يستسلمون له عن طيب خاطر وسرور . ان التغلب على العقول لا يأتي عن طريق السلاح والعنف ولكن عن طريق الحب وعظمة النفس « ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم . »

ولكن على الرغم من هذه النزعة المسيحية نحو الحب ، فإن اخلاق سينيوزا اخلاق يونانية في جوهرها اكثر منها مسيحية ، لانه « يعتسب بمحاولة الفهم الاساس الاول والواحد للفضيلة . » وهو هذا يتفق مع سقراط تماما الذي ذهب الى ان الفضيلة هي المعرفة . اننا نتقاذفنا الاسباب الخارجية من كل ناحية ، ونتحرك كامواج تدفمها رياح معاكسة لانعرف شيئا عن مصيرنا . والانسان اذا تحكمت به العواطف لا يرى الا جانبا واحدا من الموقف . وبالفكر وحده يستطيع الانسان ان يرى موقفه من جميع نواحيه . ان العاطفة فكرة ناقصة . والعواطف الغريزية عظيمة كقوة دافعة ولكنها خطيرة كمرشد لنا ، لان كل واحدة من الفرائض تبحث عن اشباع رغباتها ، غير مهتمة بمصلحة الشخصية كلها . اي دمار نزل بالناس بسبب الافراط في الطمع وحب الخصام او الشهوات حتى غدوا عبيد غرائزهم التي تسيطر عليهم . ان العواطف التي تهاجنا كل يوم مرتبطة بجزء من الجسد الذي يتأثر بها اكثر من بقية الاجزاء ، والعواطف متطرفة وتمنع العقل من التفكير الا في موضوع واحد ،

ولا يعود يقوى على التفكير في الاشياء الاخرى . ولكن الرغبات التي تنبعث من اللذة او الالم التي لها ارتباط مع جزء او اجزاء معينة من الجسم لافائدة للانسان منها بالمرّة .

ان هذا كله طبعاً هو التمييز الفلسفي القديم بين العقل والعاطفة ، ولكن سبينوزا يضيف على ما جاء به سقراط والرواقيون ناحية هامة . فهو يعرف بان العاطفة تكون عمياء اذا تجردت عن العقل وان العقل يكون ميتاً اذا تجرد عن العاطفة ، وان العاطفة لا تكبح او تكبت الا بعاطفة معاكسة لها اقوى منها فبدلاً من عقم معارضة العقل للعواطف ومحاولة كبتها والسيطرة عليها وهو نزاع ينتهي بانتصار العواطف الاكثر رسوخاً وتأصلاً وقدماً . يرى سبينوزا ان نحارب العواطف الهوجاء التي لا تقوم على العقل بالعواطف التي يسندها العقل . وبذلك يتعاون العقل والعواطف على الوصول الى الهدف المطلوب . ويقول سبينوزا ان الفكرة يجب ان لا تنقصها حرارة الرغبة ، كما ان الرغبة يجب ان لا ينقصها ضوء الفكرة . لان العاطفة لا تظل عاطفة اذا ما تكونت في الذهن عنها فكرة واضحة جلية . وبعبارة اوضح كلما استطاع العقل ان يحول ما فيه من عواطف الى افكار كلما صار اقوى وابتعد عن ان تؤثر عليه العواطف الجامحة . وشهوة الانسان ان كان مصدرها الذي تولدت عنه فكرة مبهمّة ناقصه عدت عاطفة ، اما اذا نشأت عن فكرة مضبوطة واضحة كانت فضيلة محمودة . فكل ما يعمله الانسان ويكون مبنياً على اساس من العقل والتفكير ، لا على المشاعر والعواطف فهو عمل فاضل واذن لا فضيلة في رأي سبينوزا الا بالعقل . ان جميع الشهوات تكون عواطف فقط ما دامت تقوم على افكار غير سديدة او مناسبة ، وتتحول هذه العواطف الى فضائل عندما تتولد عن افكار سديدة .

ان اخلاق سبينوزا تسير مع فكرته فيما وراء الطبيعة . فكما ان العقل في الميتافيزيقا يحاول ان يدرك القانون الكامن وراء الاشياء الجزئية التي تقع تحت الحس ، فهو يقرر هنا ان العقل يجب ان يضع قانونا ينتظم رغبات الانسان المتنافرة . وبعدئذ يستطيع الانسان ان يسلك سلوكا يتفق مع ما يليه العقل الذي يميننا على ان ننظر الى المواقف المختلفة نظرة واسعة شاملة تنفذ بمساعدة الخيال الى ابعاد النتائج . فبالعقل والخيال معا يستطيع الانسان ان يتنبأ بما عساه يحدث ، وبهذا يستطيع ان يتحكم في مستقبله وان يحرر نفسه من الكثير من القيود .

بهذا وحده يكفل الانسان حريته ، اذ الحرية الحقة هي سيطرة العقل وفعاليته وهي التخلص من اغلال العواطف العمياء التي لاتسترد بهدى العقل . ولن يكون الانسان حرا الا بقدر ما هو عالم عاقل . ولكي تكون انسانا كاملا لاينبغي ان تتحرر من قيود المجتمع ونظامه ، لان سمو الانسان هو في التحرر من فردية الفرائض وتحكمها ، وبهذا وحده يكمل الانسان الحكيم . ان الانسان الحكيم في نظر سبينوزا يختلف في شخصيته عن شخصية البطل الأرسطراطي الذي تحدث عنه ارسطو . وهو اقل من الانسان الاعلى المثالي الذي تحدث عنه نيتشه ، ولكنه اكثر الفة وهدوءا واتزاناً عقلياً .

ان الرجال الحكماء في نظر سبينوزا هم رجال صالحون بفضل عقولهم ، رجال يسترشدون العقل في البحث عما ينفعهم ويحبون لانفسهم ما يحبونه لغيرهم . وكونك عظيماً لا يعني انك فوق الانسانية وتتحكم بالآخرين ، بل يعني ان تقف فوق الشهوات وان تحكم نفسك بنفسك . ان

حكم الانسان لنفسه هو اعظم ما يطلبه من حرية . وهي حرية انبل من التي يسميها الناس بالارادة الحرة ، لان الارادة ليست حرة ، وقد لا يكون هناك ارادة ، وهذا لا يعني ان يفترض الانسان لانه ليست له ارادة حرة انه ليس مسئولاً عن سلوكه واعماله وبناء حياته من الناحية الاخلاقية .

ان عقيدتنا بالجبر تصلح من حياتنا الاخلاقية وتعلمنا ان لا نكره او نسخر من احد او نفضب من احد ، وان الناس في الواقع براء بما يقترفون من آثام ، وان تأخذنا الرحمة في معاقبة الاشرار لانهم لا يعلمون ما يفعلون .

كما ان الجبرية تقوينا على احتمال متاعب الحياة وارزائها . لاننا نتذكر ان جميع الاشياء تسير وفقاً لقوانين الله الابدية . وربما تعلمنا محبة الله العقلية . وان نتقبل قوانين الطبيعه بسرور . ان الانسان الذي يرى الاشياء تسير وفقاً لقوانين الله لن يستاء او يتذمر ، مع انه قد يقاوم ، لانه يرى الاشياء تسير تحت نظام ابدى ممين ، وبذلك يرقع الانسان من لذات العواطف المتقلبة الى صفاء الفكر والتأمل السامي الذي يري جميع الاشياء اجزاء من نظام وقطور ابدى خالد . ويتعلم الابتسام في وجه الامور الختمية التي لامفر منها ولا مناص من وقوعها . ويتعلم الدرس القديم بان الله ليس شخصية متقلبة الاهواء منهمكا في شؤون المتعبدين له وامورهم الخاصة . ولكنه الثابت المدبر لنظام الكون . لقد ذكر افلاطون نفس هذه النظرية بكلمات جميلة حيث قال ان الذي يركز فكره وعقله على حقيقة الكون والوجود . لن يكون لديه وقت لينظر الى شؤون الناس التافهة او تأخذه الغيرة او يستبد به العداء في الصراع معهم . لان عينيه دائماً متجهة الى المبادئ الثابتة المستقرة . وفي هذا يقول

نيتشه « ان ما هو ضروري لا يضرني لأن حب القدر نواة طبيعتي » . ان هذه الفلسفة الجبرية تعلمنا ان لا نفكر كثيرا بالموت ، لأن الانسان الحر لا يفكر في شيء اقل من تفكيره في الموت . وحكمته التأمل في الحياة لا في الموت . كما انها تخفف من انانيتنا وحبنا لذاتنا وقد تؤدي بنا الى الاستسلام والتواكل والاستكانة المعروفة عن اهالي الشرق . ولكنها اساس لا بد منه للحكمة والقوة .

٤ — الدين والخلود

لقد دعا سبينوزا في فلسفته حتى الى حب العالم التي عاش فيه منبوذا ووحيداً . لقد خفف عنه بعض الوقت اعتقاده بأن العالم يسيره قانون ثابت مبهم . ولكن روحه الدينية حولت هذا العالم الى شيء محبوب جداً . فقد حاول ان يدمج رغباته الخاصة مع النظام الشامل للاشياء ، ويصبح جزءاً لا ينفصل عن الطبيعة . وهو يقول « ان اعظم الخير هو معرفة الاتحاد بين العقل والطبيعة كلها . » والحقيقة ان انفصالنا الفردي مجرد وهم . اننا اجزاء من مجرى القانون والسبب العظيم . اجزاء من الله ، اننا اشكال من وجود اعظم من انفسنا . وهو باق لا ينتهي بينا نحن فانور . ان اجسامنا خلايا في جسم الجنس ، وجنسنا طارئ عرضي في رواية الحياة ، وعقولنا اضواء متقطعة من ضوء ابدى . ولان الانسان جزء من الكل فهو خالد لان العقل الانساني لا يفنى كله مع الجسم الانساني ، اذ ان جزءاً من العقل الانساني سيبقى وهذا الجزء الخالد هو الذي يدرك الاشياء . وكلما ادركنا الاشياء اكثر كلما كانت افكارنا ابدية اكثر . وهنا يبدو سبينوزا اكثر غموضاً من العادة . وعلى الرغم من نزاع لا ينتهي بين المفسرين والشارحين له فان لغته لاتزال تتحدث بطريقة مختلفة . الى عقول مختلفة .

وهنا يختلف المفسرون في تفسير ما يقصده سبينوزا من معنى الخلود ، فيذهب بعضهم الى انه يريد به الشهرة او الذكر ، حيث يبقى اجمل ما في تفكيرنا وحياتنا اثرأ خالداً على مر السنين . وبعضهم يرى ان سبينوزا عندما يتكلم عن الخلود انما يعني خلوداً فردياً شخصياً . ومع ذلك فهو يفرق بين الابدية والبقاء فيقول « اننا اذا وجهنا اهتمامنا الى الرأي السائد في الناس نجسدهم يدركون ابدية عقولهم ، ولكنهم يخاطون بين الابدية والبقاء ، وينسبوننا الى الخيال او الذاكرة التي يعتقدون ببقائها بعد الموت . » . ولكنه مثل ارسطو على الرغم من انه يتحدث عن الخلود فانه ينكر بقاء الذاكرة الشخصية . « ان العقل لا يقدر على التصور او التذكر الا اذا كان في الجسم . » وهو لا يعتمد بالثواب والعقاب في الآخرة فهو يقول « ان الذين ينظرون الى الفضيلة على اساس كونها اذلال النفس ويتوقعون ان يجزيهم الله على قدر اذلال نفوسهم ، ويعتقدون بزيادة ثوابهم كلما ازدادوا اذلالا واستعبادا لنفوسهم ، لأبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة فهم صحيحاً . لأن الفضيلة وعبادة الله هي السعادة نفسها والحرية الكبرى . » ليس النعيم ثواب الفضيلة ، ولكن الفضيلة نفسها هي النعيم والسعادة .

وبهذا ينتهي كتاب الاخلاق . ومن النادر ان نجد كتاباً حوى مثل هذا التفكير الغزير ، واثار مثل هذه التعليقات الكثيرة ، كما انه لا يزال ميدان معركة ضارية لتفسيرات مختلفة . وقد يكون ما ورد فيه من ميثافيزيقا خطأ ، وما ذكر فيه من نواح سيكولوجية ناقصاً ، وما جاء فيه من لاهوت غامضاً ، ولكن لايسع الانسان الا ان يقف موقف الاحترام والتقدير امام جوهر الكتاب وعمقه وروحه . وفي المقطع الاخير من هذا الكتاب تشع علينا روح سبينوزا في بلاغة سهلة لا تكلف فيها .

« وهكذا فقد اكملت كل ما ارادت ان اظهره حول سلطان العقل على
العواطف . او حرية العقل الذي يبدو واضحا في تقدم الانسان العاقل وتفوقه
على الجاهل الذي تسوقه الشهوة فقط كما ان الجاهل لا يتمتع اطلاقا براحة العقل
وقناعاته الحقيقية ولو مرة واحدة . ويميش لا يعرف نفسه والله والاشياء . اما
العاقل فلا تحركه نفسه الا قليلا ، ويعرف وجوده والله والاشياء . ويتمتع
براحة العقل ورضاه دائما . ومن الممكن اكتشاف الطريق الذي يؤدي الى
اوضحته على الرغم من صعوبته . ومن الواضح ان يكون صعبا لندرة وجوده ،
اذ ان جميع الاشياء العظيمة الممتازة تكون صعبة ونادرة . »



٥ - الرسالة السياسية

لم يبق امامنا الان سوى الرسالة السياسية التي كتبها سبينوزا في اعوام نضجه الاخيرة . ولكن الموت اختطفه بغتة قبل ان يتم كتابتها . ولكنها جاءت مليئة بالافكار على الرغم من قصرها . ولا يسع الانسان الا ان يشعر بالخسارة الجسيمة بانتهاء حياة هذا الفيلسوف في البرهة التي بلغ فيها اوج نضوجه الفكري . لقد وضع سبينوزا الذي كان صديقا الى ديويث الجمهوري فلسفة سياسية عبرت عن آمال الاحرار والديمقراطيين في هولندا في ذلك الوقت . واصبحت احدى المناصب الاساسية لجدول الافكار التي بلغت اوجها في روسو والثورة الفرنسية . لقد وضع سبينوزا فلسفته السياسية التي يؤيد فيها الديمقراطية في نفس العصر الذي كان فيه « هوبز » يجد الملكية المطلقة في إنجلترا ، ويستنكر ثورة الشعب الانجليزي على ملكه بنفس الشدة التي كان ملتون يدافع فيها عن هذا الشعب .

يمتقد سبينوزا بان الفلسفة السياسية تتبع من التمييز بين النظام الطبيعي والاخلاقي او بعبارة اوضح بين حياة الانسان البدائية قبل تنظيم المجتمعات ، وبين حياته بعد تنظيم المجتمعات . وهو يرى بأن الناس كانوا يعيشون قبل نشأة

المجتمع في فوضى بغير قانون او تنظيم اجتماعي . ولم يكن لديهم مفهوم عن الصواب والخطأ او العدل والظلم ، وكانت القوة عندهم هي الحق .

ولم يكن في هذه الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها الانسان قبل تنظيم المجتمع شيئاً يسمى خيراً او شراً . لأن كل انسان في هذه الحالة الطبيعية لا ينظر الا الى مصلحته فقط . ولا يعتبر نفسه مسؤولاً امام احد خلا نفسه . وليس لاحد سلطة قانونية عليه ، لذلك من المستحيل ادراك معنى الفضيلة في هذه الحالة الطبيعية ، لأن معنى الفضيلة لا يمكن ادراكه او تصوره الا في الحياة المدنية حيث يتقرر بالموافقة العامة واجماع الاراء ما هو الخير وما هو الشر . ويصبح كل واحد مسؤولاً امام الدولة .

ان قانون الطبيعة وشريعتها لا يقيد رغبات الانسان ولا يعارض الصراع بين الناس ، ولا يمنع الحيانة والبغض والغضب او اي شيء تملته النفس .

ونستطيع ان نلمس قانون الطبيعة هذا ، او بعبارة اوضح قانون الغاب او انعدام القانون اطلاقاً في سلوك الدول بعضها مع بعض . اذ لا وجود لمحبة الغير بين هذه الدول ، لأن القانون والاخلاق لا توجد الا في ظل نظام متفق عليه ، وهذا يعني وجود سلطة مشتركة معترف بها .

ان حقوق الدول الان هي حقوق الافراد سابقاً ، والقوة والحق شيء واحد بالنسبة لها . وكل دولة من هذه الدول تسعى لمنفعتنا بفض النظر عما اذا كان هذا حقاً لها او يتضارب مع مصالح غيرها . واذا استطاعت الدولة ان تظفر باقليم او بلد كان حقاً لها . وما ذكرناه عن الدول يسرى على فصائل الحيوان التي لا يجمعها نظام او يقيدتها قانون . والقوي منها يأكل الضعيف

ويفعل به ما يريد .

ولكن حاجة الناس بعضهم لبعض استدعت تبادل المساعدة فيما بينهم . وهذا ادى الى استبدال الحالة الطبيعية التي كانت السيادة فيها للقوة ، الى حياة المجتمع المنظم الذي يسود فيه القانون والحقوق . لأن حياة العزلة بعيدا عن المجتمع تثير في الناس الخوف ، كما ان الانسان الذي يعيش في عزلة ليست لديه القوة الكافية للدفاع عن نفسه وتأمين ضروريات معيشته . وهذا ادى الى اتجاه الانسان الى اقامة مجتمع منظم ليحمي نفسه ضد الاخطار التي يتعرض لها لأن قوة الفرد وحده لا تكفي لمواجهة هذه الاخطار . ولا بد للناس من اقامة مجتمع وتبادل المساعدات فيما بينهم . ان الناس ليسوا مهينين بطبعهم لاحتمال النظام الاجتماعي ، ولكن الخطر هو الذي ولد فيهم الاجتماع . والاجتماع يقوي الفرائض الاجتماعية . ان الناس لم يولدوا مواطنين اجتماعيين ويجب تدريبهم واعدادهم على ذلك .

ان النزعة الفردية تسود معظم الناس . وهي متأصلة في قلوبهم . وفي نفسهم ثورة على القانون والعرف والتقاليد . والفرائض الاجتماعية اضعف من الفرائض الفردية ومتأخرة عنها . وتحتاج الى تقويتها وتعزيزها . والانسان ليس خيرا وصالحا بطبيعته (كما اعتقد روسو) . اننا نجب من يشبهنا في شكلنا ، ونشعر بالعطف والشفقة لاعلى من نجبه فقط ولكن على من يشبهنا ايضا . ومن هنا ينشأ تقليد العواطف واخيرا تنشأ درجة من الضمير . ان الضمير على كل حال ليس فطريا ولكنه مكتسب ، ويختلف باختلاف الارض والمكان : وهو ودیعة في عقل الفرد النامي . وبالضمير يخلق المجتمع لنفسه حليفا وصديقا ضد روح الانانية الفردية الطبيعية عدوة كل مجتمع . واخذ الانسان تدريجيا يتنازل عن قوته وسيادته الفردية التي كانت

لديه في حياته البدائية الطبيعية الى سلطة - الجماعة القانونية في المجتمع المنظم . لازالت القوة هي الحق ، ولكن قوة الجماعة كلها حددت من قوة الفرد ، بان يتفق استخدامه لقوته مع حرية الآخرين من افراد المجتمع . لقد تنازل الفرد عن جزء من قوته وسيادته الطبيعية الى الجماعة المنظمة مقابل توسيع مدى ما تبقى له من القوة والسيادة . فقد تخلينا مثلا عن حق العنف والغضب لتأمين انفسنا من خطر اعمال العنف من جانب الآخرين . او بعبارة اوضح فقد تنازلنا عن اعمال العنف مقابل تنازل الآخرين عن اعمال العنف . ان القانون ضروري لأن الناس تسيطر عليهم العواطف والاهواء . ولو كان الناس جميعا مسوقين بالعقل لما كان المجتمع في حاجة الى القوانين . والقانون الكامل بالنسبة الى الافراد بمثابة العقل الكامل من العواطف . وستكون مهمة القانون تنسيق القوى المتنازعة في المجتمع لتجنبه الدمار وزيادة سلطة الجماعة . وكما ذهب سبينوزا في الميتافيزيقا « الى ان العقل هو البصيرة المدركة للنظام بين الاشياء وكما ذهب في « الاخلاق » الى ان العقل اقامة النظام بين الرغبات ، فهو ايضا في السياسة اقامة النظام بين الناس . فالدولة الكاملة ينبغي ان لا تحسد من قوة مواطنيها الا اذا ادت هذه القوة الى الحاق الضرر والاذى بافراد المجتمع . وينبغي على الدولة ان لا تنزع حرية من مواطنيها الا اذا اضافت في مكانها حرية اوسع منها .

ليست الغاية الاخيرة من الدولة التسلط على الناس او كبحهم بالخوف ، ولكن الغاية منها ان تحرر كل انسان من الخوف كي يعيش ويعمل في جو تام من الطمأنينة والامن . ويعيش في وئام مع جيرانه فلا يضرهم ولا يضرونه .

انني اكرر القول بان الغاية من الدولة ليست تحويل الناس الى وحوش

كأسرة والآت صماء ، ولكن الغاية منها تمكين اجسامهم وعقولهم من العمل في امن واطمئنان . وان ترشدهم الى حياة تسودها حرية الفكر والعقل . كيلا يبددوا قواهم في الكراهية والفضب والغدر ، ولا يظلم بعضهم بعضا . وهكذا فان غاية الدولة هي الحرية في الحقيقة .

ان هدف الدولة هو الحرية ، لأن عمل الدولة هو ترقية النمو والتطور ، والنمو يتوقف على المقدرة وتوفر الحرية . ولكن ماذا يفعل الناس لو صجبت القوانين النمو وخنقت الحرية ؟ وماذا يفعل الناس لو اتجهت الدولة الى ايشار مصلحة الطبقة الحاكمة والتسلط على الشعب واستغلاله ، وسمى الحكام الى الاستئثار بالمناصب والكراسى وعدم افساح المجال لغيرهم للوصول الى الحكم ؟ ويحيب سينيوزا على هذه الأسئلة بوجود اطاعة القوانين حتى ولو كانت جائرة وظالمة ما دامت الحكومة لاتمنع الناس من حرية الكلام والاحتجاج للوصول الى تغيير الاوضاع بالوسائل السلمية . اذ ان حرية الكلام والاحتجاج والنقدستؤدي في النهاية الى تغيير الاوضاع الفاسدة بالوسائل السلمية . يعترف سينيوزا ببعض المساوىء الناجمة عن مثل هذه الحرية ، ولكنه يقول لايمكننا تجنب المساوىءفي حل قضية من القضايا مهما اوتينا من حكمة ، والناس غير معصومين عن الاخطاء . ان القوانين التي تقيد حرية الكلام والفكر والنقد تهدم جميع القوانين في الدولة . لان الناس لن يلبثوا زمنا طويلا على احترامهم للقوانين التي لايجوز لهم نقدها .

وكلما زادت الحكومة في مكافحة حرية الكلام وخنقها ، كلما زاد الشعب عنادا في مقاومتها . لن يتصدى لمقاومة هذه القوانين اصحاب الشره والطمع من رجال المال ، بل اولئك الذين تدفعهم ثقافتهم واخلاقهم وفضائلهم الى اعتناق الحرية . فقد جبل الناس بوجه عام على الا يطبقوا كبت آرائهم التي

يعتقدون بانها حق والاّ يصبروا على محاربتها واعتبارها جرائم ضد القانون .
وعندئذ لايعتبر الناس ان مقت القوانين والامساك عن مقاومة الحكومة عار
وخزي بل شرف عظيم .

وينتهى سبينوزا كأبي مواطن امريكي دستوري صالح بقوله « لو
جعلنا الاعمال وحدها اساس المقاضاة والمرافعة وتدخل القانون ، واطلقنا الحرية
لل كلام والنقد ، لكننا بذلك قد جردنا الثورة من جميع مبرراتها ومسوغاتها .
فكلما قلت رقابة الدولة على العقل ، ازداد المواطن والدولة صلاحا .
وبينا نجد سبينوزا يعترف بضرورة الحاجة الى الدولة فهو لا يثق بها . ويعرف
ان الحكم مفسدة ويفسد حتى الصالحين . ولا ينظر بعين الرضى الى امتداد سلطة
الدولة من اجسام الناس واعمالهم الى نفوسهم وافكارهم . لان هذا يؤدي الى
توقف نمو الجماعة وموتها . وهكذا فهو يعارض سيطرة الدولة على التعليم .
وخصوصا في الجامعات . ان المؤسسات العلمية العامة التي تنفق عليها الحكومة
لا تستهدف تنمية امكانيات الناس الطبيعية بل تقييدها . اذ ان العلوم والفنون
تزدهر اكثر في المعاهد العلمية الحرة اذا سمح لكل انسان بالتعليم على مسؤوليته
ومجازفته . كيف السبيل الى ايجاد وسيلة وسط بين الجامعات الحكومية
والجامعات الخاصة ، وهي مشكلة لم يقدر سبينوزا على حلها . لقد كان يستهدف
على ما يلوح نوعاً من التعليم العالي مماثلا لذلك التعليم الذي ازدهر في
اليونان ، وهو لا يقوم على المعاهد بل على الافراد ، كالمعلمين السفسطائيين الذين
كانوا يتجولون من مدينة الى اخرى . وكان تعليمهم مستقلا وبعيدا عن السيطرة
العامة او الخاصة .

اذا نال الناس هذه الحرية . فلن يضيرهم اي نوع من انواع الحكومة
تتولى امورهم ، سواء اكانت ديمقراطية او ارسطوقراطية او ملكية او غيرها .

وهنا سبينوزا يميل الى تفضيل الحكومة الديمقراطية . اي نوع من انواع الحكومة يفى بالعرض ما دام يستهدف تربية الفرد وتوجيهه الى تفضيل حق الجماعة العام على مصلحته الخاصة وهذه هي مهمة المشرعين وواضعي القوانين ويصف سبينوزا الحكومة الملكية بكونها قادرة ولكنها مستبدة وظالمة وعسكرية . وهو يعارض وضع السلطة في يد رجل واحد فيقول :

يظن الناس ان وضع السلطة كلها في رجل واحد يؤدي الى السلام وتوطيد الامن وتوحيد الصفوف في الدولة . اذ لانجد دولة بين الدول لبثت امداء طويلا ولم تتعرض لحوادث وتغييرات هامة تعكر صفو السلام والامن فيها كدولة الاتراك التي يحكمها رجل واحد . ومن جهة اخرى لانجد بين الدول اقصر اجلا واقل عمرا واكثر عهينا وتمردا من الدول الشعبية او الديمقراطية . ولكن اذا كانت العبودية والوحشية والخضوع تدعى سلافا فليس اتعس للناس من هذا السلام . ولا شك ان النزاع بين الاباء والابناء اشد واكثر من النزاع بين السادة والعبيد . ومع ذلك فليس في صالح الاسرة ان يتحول حق الاب في ادارتها وتوجيهها الى امتلاكها ومعاملة اولاده معاملة العبيد . ومن هذا يتضح لنا ان وضع السلطة كلها في يد رجل واحد يؤدي الى العبودية لا الى السلام .

ويضيف سبينوزا الى ما تقدم كلمة عن الدبلوماسية السرية .

يتشدد الذين يتمطشون الى السلطة المطلقة بقولهم ان مصلحة الدولة تقتضي تسيير شؤونها في جو من السرية والتكتم الشديد حرصا على سلامتها ، ومنما من تسرب اخبارها الى العدو وهذا التكتم يستحيل ايجاده في دولة ديمقراطية تطلع الشعب على سياستها . ولكن مثل هذه الأقوال التي تحارول اخفاء نواياها وراء ستار مصلحة الشعب لن تؤدي الا الى زيادة استعباده . كما ان معرفة العدو لاخبار الدولة خير من اخفاء اسرار الحكام الطفافة عن الشعب

ان هؤلاء الذين يتصرفون في شؤون الشعب بالسر ، يخضعون هذا الشعب اطلاقاً لسيطرتهم ؟ وكما يتآمرون على العدو في زمن الحرب ، سيتآمرون ايضاً على مواطنيهم في زمن السلم .

فالديمقراطية افضل انواع الحكومة . لان سلطان الحكومة الديمقراطية يمتد الى اعمال الناس لا الى عقولهم وتفكيرهم . وبما ان الناس يختلفون في تفكيرهم ، فان صوت الاكثرية هو القانون . اما النظام العسكري لهذه الدولة الديمقراطية فيجب ان يقوم على اساس الخدمة العسكرية العامة . وقاعدتها المالية الضريبة المفردة . ان عيب الديمقراطية هو في ميلها الى وضع طبقة العامة في السلطة ، والطريقة الوحيدة لتجنب هذا العجز في الديمقراطية ، هو حصر المناصب في الدولة في اصحاب الكفاءات والمؤهلات والخبرة والبراعة . لان الحكمة ليست في كثرة الناس . وقد ينتخب الشعب اكثر الناس بلاهة وبلادة ويضعهم في اعظم مناصب الدولة ، لا لشيء الا لمقدرتهم على تملق الشعب ومداهنته . كما ان الجماهير متقلبة في ميولها واهوائها ، وهذا التقلب في طبيعة الجماهير يدفع اصحاب الخبرة والمواهب الى اليأس . لان الجماهير تسوقها العواطف وتحكمها الاهواء لا العقل . وهكذا تصبح الحكومات الديمقراطية في يد المشعوذين والدجالين والمنافقين الذين يسايرون اهواء الشعب ، وهذا يؤدي الى اشمزاز اصحاب المواهب والقدر والذكاء والابتعاد عن ترشيح انفسهم في انتخابات تضعهم تحت حكم من هم اقل منهم مقدرة وخبرة وذكاء . وسيثور اصحاب المواهب والمقدرة ضد هذا النظام ان عاجلاً او آجلاً على الرغم من كونهم اقلية . « وهنا على ما اعتقد تتحول الديمقراطية الى ارسقراطية ثم تنقلب الارسقراطية الى ملكية في آخر الامر . . . » ويفضل الناس في النهاية حكم الطاغية على الفوضى . ان مساواة الناس في السلطة امر متعذر التحقيق وينقصه

الاستقرار . لان الناس غير متساوين بطبيعتهم . وذلك الذي يبحث عن المساواة بين غير المتساوين يبحث عن المستحيل . وينبغي على الديمقراطية ان تحل هذه المشكلة الخطيرة التي تواجهها ، وذلك بحصر حق الترشيح في الانتخابات في اصحاب المواهب والمقدرة والعلم والخبرة ، واشترك الناخبين في انتخاب من يريدون من بين هؤلاء ، وبذلك نكون قد اغلقنا باب المناصب الكبيرة في الدولة امام الدجالين والمنافقين والجهلاء والاغنياء وغيرهم .

من يدري اي ضوء من العبقرية كان سيلقيه سبينوزا على مشاكل السياسة الحديثة لو طالت حياته وفرغ من كتابة هذه الرسالة السياسية؟ وحتى هذه الرسالة السياسية التي وصلت لايدينا لم تكن سوى المسودة الاولى لافكاره قد اختطفه الموت عندما كان يكتب فصلا عن الديمقراطية .



٦ — تأثير سبينوزا

لم يحاول سبينوزا ان يضع مذهباً ، ولم يضع مذهباً ، ومع ذلك فقد نغذت افكاره الى الفلسفة من بعده . لقد كان اسمه مصدر بغض ومقت في الاجيال التي اعقبت موته . ويقول لنا ليسينج ان الناس كانوا يتحدثون عن سبينوزا باحتقار وكأنه كلب ميت . ولكن ليسينج هو الذي اعاد له شهرته وذكره . واثار دهشة الناقد الكبير جاكوبي في احاديثها المشهورة في عام ١٧٨٠ بقوله انه قد تأثر بسبينوزا الى درجة كبيرة في اعوام نضجه ، مؤكداً له ان لا فلسفة الا فلسفة سبينوزا . وبعد سنوات قليلة استلقت كتابات هيردر عن سبينوزا اهتمام معلمي اللاهوت الاحرار الى كتاب (الاخلاق) وكتب زعيمهم شلايخار عن سبينوزا المقدس المحروم والمنبوذ . واطلق عليه الشاعر الكاثوليكي نوفاليس اسم (الله مسكر الناس) .

وفي الوقت ذاته فقد اثار جاكوبي اهتمام جوته بسبينوزا ، الذي قال بعد قراءة كتاب (الاخلاق) لأول مرة ، انه الفلسفة التي تأقت لها روحه ، والتي طفت بعد ذلك على شعره ونثره واثرت على تفكيره ومجرى حياته . وبدمج فلسفة سبينوزا مع فلسفة « كانت » عن المعرفة والمنطق توصل فخته وشلنج وهجل الى وحدة الوجود كما رآها كل واحد منها . كما تأثر به شوبنهاور ونيتشة

وبرجسون . لقد اعترض هجل على فلسفة سبينوزا وقال عنها بانها جافة ولا حياة فيها ، ولكنه اعترف بأمانة بان من يريد ان يكون فيلسوفا ينبغي ان يقرأ سبينوزا.اولا .

لقد ارتفع تأثير سبينوزا في إنجلترا اثناء الثورة ، وتأثر به كوليبرج وويردسورث واقتبس شيلى من رسالة الدين والدولة ، وبدأ في ترجمتها، ووعده بيرون بوضع مقدمة لها ، ووقعت بمض اجزاء هذه الترجمة في يد ميدلتون الذي حسبها من انتاج شيلى واطلق عليها اسم (تأملات تلميذ مدرسة) وقامت اليوت بترجمة (الاخلاق) ولكنها لم تنشرها . وقد يكون سبنسر قد اطلع على هذه الترجمة بحكم صداقته مع الكاتبة اليوت وتأثر بها . وفي القرن الثاني بعد سبينوزا جمعت التبرعات لاقامة تمثال له في لاهاي ، وانهالت هذه التبرعات من كل حدب من العالم المثقف . وعند ازاحة الستار عن تمثاله في عام ١٨٨٢ القى ارنيست رينان كلمة اختتمها بقوله (ويل لمن يرام امام هذا التمثال ، ويوجه اهانة او لعنة لهذا السيد والفيلسوف المفكر ، لانه سيعاقب بخسته كما تعاقب جميع النفوس الخسيسة العاجزة عن تصور الله . سيشير هذا الرجل من وراء تمثاله الصوان الى جميع الناس الى طريق النعيم الذي اهتدى اليه . وستمر الاجيال ويقول السائح الذكي المثقف الذي يمر من هنا في قلبه ، قد تكون اصدق بصيرة عن الله جاءت من هنا .

الفصل الخامس

فولتير وعصر التنوير الفرنسي

١ - باريس

كان فولتير في باريس عام ١٧٤٢ يدرّب الممثلة دوميشل كي تبلغ ذروة الحزن في تمثيلها ، اثناء تمرينها على الالقاء في روايته « ميروب » فاشتكت بقولها لا بد ان يكون الشيطان في نفسها كي يثير فيها هذه العاطفة التي يطلب منها اظهارها . فاجابها فولتير ان ما تقولين هو الصحيح ، ويجب ان يكون في نفسك شيطان لتنجحي في اي نوع من انواع الفنون . وقد اعترف نقاده واعدائه بان الشيطان قابض في نفسه ، وكان ديستر يسمي فولتير بالرجل الذي وضعت جهنم في يديه كل نارها وقوتها .

كان فولتير قبيحاً بشعاً ، مختالاً ، معجباً بنفسه ، فصيحاً بديماً ، مستهتراً ، واحياناً غادراً وفاسقاً . لقد كان رجلاً يحمل اخطاء زمنه وعصره ومكانه ومع ذلك فقد كان ينقلب احياناً ويصبح لطيفاً رصيناً ، منصفاً ، سخياً مسرفاً في تبديد نشاطه وماله في مساعدة اصدقائه وتحطيم اعدائه ، وكان قادراً على قتل عدوه بضربة قلم . هذا هو فولتير الرجل المتناقض .

ولكن هذه الصفات كلها خيرا وشرها صفات ثانوية لا تدل على حقيقة فولتير ، لان الشيء المدهش المثير فيه هو خصوبة وتآلق عقله الذي لا ينضب اويكل . لقد كتب في حياته تسعة وتسعين كتابا ، تتألق كل صفحة من صفحاتها بنور الحكمة والفائدة ، على الرغم من تنقلها من موضوع لآخر حول العالم . وامتاز بشجاعته وسعة اطلاعه وصراحته . « تجارتي ان اقول ما اعتقد » وكل ما فكر به كان دائما قيما ، كما كان قوله رائعا ، واذا كنا لا نقرأ له الان ، فلأن المناقشات والمعارك اللاهوتية التي خاضها من اجلنا قد استوفت زمنها ، ولم تعد مألوفة لنا او تثير اهتمامنا . قد نكون قد انتقلنا الى ميادين اخرى ، من القتال ، وزاد اهتمامنا وانها كنا باقتصاديات الحياة الدنيا اكثر من اهتمامنا بالحياة الآخرة . ان انتصار فولتير الساحق على سلطة القساوسة والخرافات ، قضت على هذه القضايا التي كانت تدب فيها الحياة في عصره . كما ان الكثير من شهرته ايضا يعود الى مقدرته الكلامية التي لا تبارى ، لان الكلمات المكتوبة تبقى ، اما الاحاديث فتذهب وما بقي لنا هو الكثير من لحمه ، والقليل جدا من نار روحه السنية . ومع ذلك مهما كان مظلما كما نراه من خلال منظار الزمن ، اي روح كانت فيه ، لقد كان ذكيا صريحا جليا ، يحول الغضب الى هزل ، والنار الى ضياء وكان مخلوقا من الهواء واللهب واسرع الناس تهيجا . وربما كان اعظم المفكرين حيوية ونشاطا في كل التاريخ ؟ .

لا جدال في ان انتاجه الفكري كان اعظم انتاج في عصره ، ولا يضاهيه اي مفكر آخر في غزارة انتاجه ، وكثرة كتبه ، ومضاعفة اوقات عمله . لقد قال ان من لا يعمل لا قيمة لحياته ، وكل الناس اخيار الا الكسالى . لقد ذكرت سكرتيرته عنه انه لم يكن بخيلا بشيء سوى بوقته . وهو يقول :
« كلما تقدمت في العمر اكثر شعرت بضرورة العمل اكثر ، واصبح العمل لذني

الكبرى ، وحل في مكان اوهام الحياة ، اذا اردت الا ترتكب الانتحار ، اوجد لنفسك عملاً . ، ربما كانت فكرة الانتحار تطارده وتستهويه ، لانه امضى حياته كلها في العمل ، لقد ملأ بحياته حياة عصره كله . كان عصره من اعظم العصور الاوروبية ، وكان هو جوهر عصره وروحه . لقد قال فكتور هوجو ، ان اسم فولتير يصف القرن الثامن عشر كله . لقد كان لايطاليا نهضة ، ولألمانيا اصلاح ، ولكن فرنسا كان لها فولتير . فقد كان لبلاده بمثابة النهضة والاصلاح ، وكان نصف ثورتها . لقد جمع بين شك مونتاني وفسكاهة رابليه وحارب الفساد والخرافات بضرارة وفعالية اكثر من لوثر أو اراسموس أو كلفن . وساعد في صنع البارود الذي مكن ميرابو ومارا ودانتون وروبسيير من نسف النظام الفرنسي القديم . قال لا مارتين ، اذ كنا سنحكم على الرجال بافعالهم عندئذ يكون فولتير اعظم كاتب في اوروبا الحديثة بلا منازع . . . لقد وهبه الله ثلاثاً وثمانين سنة من العمر ، ليتمكن من تحليل العصر الفاسد . وكان لديه الزمن ليحارب الزمن ، وعندما سقط كان المنتصر .

لا نجد كاتباً له من النفوذ في حياته مثل فولتير . وعلى الرغم من النفي والسجن ومصادرة اتباع الكنيسة والدولة كل كتبه تقريباً ، فقد شق طريقه بجرأة وقوة لاعلان الحقيقة . الى ان طلب الملوك والاباطرة والبابوات رضاه ، واهتزت العروش امامه ، ووقف نصف العالم مصغياً لسباع كلمة منه . لقد كان عصره عصراً نادى فيه كل شيء بظهور مدمر ، قال نيتشه ، لا بد للاسود الساخرة من ان تجيء ، وجاء فولتير فأذل الطغاة بسخريته . وكان له فضل كبير هو وجان جاك روسو في الانتقال السياسي والاقتصادي الكبير من حكم النظام الارستقراطي الاقطاعي الى حكم الطبقة المتوسطة . عندما لا تتراح الطبقة الناهضة في البلد الى قوانين البلد او عاداتها ، وتريد نخرجاً منها فانها

تحارب القانون بالدعوة الى الرجوع الى حياة الطبيعة الاولى ، عندما كان الانسان حراً طليقاً لا يقيدده قانون ، ولا تثقله مدنية . وتحارب التقاليد القديمة المحافظة بالدعوة الى التحرر من هذه التقاليد القديمة والاعتماد على العقل والتفكير . وهكذا ايدت الطبقة البورجوازية الغنية اسلوب فولتير العقلي ومذهب روسو الطبيعي ، فقد دعا الاول الى التخلص من الحزافات والتقاليد البالية ، وهاجم الثاني القوانين والمدنية ، ودعا الى العودة الى الطبيعة . لقد كان من الضروري حل قيود العادات القديمة والتقاليد والعرف لتجديد وتنشيط الشعور والفكر ، لتفتيح العقول للتجربة والتغيير تمهيداً للثورة الفرنسية . لم يكن فولتير ولاروسو السبب في الثورة الفرنسية ، وربما كانا والثورة نتيجة للقوى التي كانت تقور وتموج تحت سطح الحياة الفرنسية السياسية والاجتماعية . لقد كان الضوء واللهب المنبعث من نار البركان المشتعل . ان الفيلسوف من التاريخ بمثابة العقل من العواطف وفي كلتا الحالتين نجد عملية لا شعورية تقرر من الاسفل الفكرة الواعية الشاعرة في الأعلى .

ومع ذلك يجب ان لا نذهب بعيدا في محاولة تصحيح ميل الفيلسوف في المبالغة بتأثير الفلسفة . لقد قال لويس السادس عشر في سجنه بعد ان رأى نتيجة اعمال فولتير وروسو .

لقد دمر هذان الرجلان فرنسا ، ويعني بذلك تدميره وتدمير النظام الملكي في فرنسا . وقال نابليون لقد كان في وسع العائلة المالكة البقاء في الحكم لو سيطرت على الاقلام وراقبت الكتابة . لقد قضى ظهور المدفع على النظام الاقطاعي ، وسيقضي القلم والحبر على النظام الاجتماعي الحديث . وقال فولتير ان الكتب تحكم العالم ، او على الأقل فانها تحكم الشعوب التي لها لغة مكتوبة ، اما بقية الشعوب فلا تم . لا شيء يقضي على العبودية كالتعليم وتقدم فولتير

ليحمرز فرنسا . عندما يبدأ الشعب في التفكير مرة من المستحيل ان يقف ، وبظهور فولتير انتعش التفكير في فرنسا .

ولد فولتير في باريس عام ١٦٩٤ ، وكان والده كاتب عدل ناجحاً ، وامه ذات نزعة ارسقراطية . وقد يكون مديناً لوالده بدهائه وسرعة غضبه ، ولامه بشيء من طيشه وذكائه . جاء الى العالم في عناء وضيق ، فقد ماتت امه اثناء ولادته . وكان طفلاً مريضاً هزيباً مما حمل المرضة ان تقول انه لن يعيش اكثر من يوم واحد . ولكنها كانت مخطئة قليلاً ، فقد عاش اربعة وثمانين عاماً . كان يشرف على تثقيفه اخوه الاكبر ارماند ، وكان مثالياً تقياً ولكنه نزع الى الاحاد وحكم عليه بالموت . واعتاد والدهما ان يقول ، ان الله قد رزقه ولدين مجنونين احدهما مجنون بالشعر ، والثاني بالنثر . والواقع ان فولير كان ينظم الشعر بنفس السهولة والسرعة التي يكتب فيها اسمه ، وقد ادى هذا الى اقتناع والده العملي الذي لا يؤمن بالامور النظرية ان ابنه لن يصلح لشيء ولن يرجى منه خيراً . ولكن السيدة المشهورة نينو دي اونكل ، التي كانت تعيش في ضواحي المدينة التي عاد اليها والد فولتير بعد ولادته ، رأت في الولد علامات النبوغ والعظمة ، وتركت له بعد موتها مبلغ الفين فرنك لشراء الكتب . التي كانت مصدر ثقافته الاولى . كما علمه رئيس دير الشك في صلاته . وعلمه اليسوعيون بعد ذلك الحوار الذي ادى به الى الشك . وهوفن اثبات كل شيء ، والذي ينتهي عادة بعدم الايمان في شيء . وبرع فولتير في النقاش ، وفي الوقت الذي كان كل الاولاد يلعبون في الملاعب ، كان يبقى للبحث في اللاهوت مع العلماء ، ولما يناهز الثانية عشرة من عمره . وعندما حان الوقت ليعمل ويكسب قوته ، خيب رجاء والده ، باصراره على احترام الأدب . لقد قال له والده « ان الأدب مهنة ستنتهي بصاحبها الى ان يكون عالة على المجتمع وعبئاً على اهله ،

ويموت جوعاً ، ولكن فولتير اتجه للادب .

كان يعود متأخراً في الليل ، بعد جولة يطوف فيها بالمدينة ، ويمتسح نفسه بمياهها وملاهيها ، مما حمل والده الساخط الى ارساله ليعيش مع قريب له في مدينة اخرى ، ولكن قريبه هذا وقع اسير ذكائه وفكاهته ، واطلق له العنان ليسهر كما يريد . واخيراً ارسله والده مع السفير الفرنسي الى لاهاي وارصاه بمراقبة الولد المجنون مراقبة شديدة ، الا ان فولتير وقع لتسوه في حب سيدة صغيرة ، وراح يخلوها في مقابلات مسكرة ، وكتب لها رسائل غرامية كان يختتمها دائماً بقوله « سأحبك الى الابد » وسرعان ما تم كشف هذه المقابلات وارسل الى بلده ، وبقي يذكر تلك السيدة الصغيرة عدة اسابيع .

وفي عام ١٧١٥ اصبح فخوراً ببلوغه الحادية والعشرين من عمره ، وذهب الى باريس في الوقت الذي مات فيه لويس الرابع عشر . وعجز لويس الصغير الذي ورث عرش البلاد عن السيطرة والحكم لصغر سنه . وافلت زمام السلطة من يده الى وصى عليه . وفي خلال تلك الفترة وقعت مظاهرات في باريس عاصمة العالم في ذلك الوقت ، واشترك فولتير فيها ، واكتسب شهرة وصيتاً ، ولمع اسمه كثيراً وعندما باع الوصي على العرش لاسباب اقتصادية نصف الخيول التي كانت تملأ الاسطبلات الملكية اشار فولتير الى ذلك بقوله ، لقد كان من الافضل اطلاق نصف الحمير التي تملأ البلاط الملكي . واخيراً انصبت المتاعب التي كانت تدور في باريس على رأسه ، ووصل الى علم الوصي لسوء الحظ قصيدتان من الشعر نظمها فولتير واتهم فيها الوصي بمحاولة اغتصاب العرش . وهاج الوصي وماج وقابل فولتير ، في الحديقة ذات يوم وقال له « ايها السيد ، اراهنك على ان اريك شيئاً لم تره في حياتك ابداً ، ماهو ذلك الشيء؟ » داخل

سجن الباستيل « ورأى فولتير الباستيل في اليوم التالي اي في السادس عشر من ابريل عام ١٧١٧ .

وعندما كان في الباستيل تبنى اسم فولتير لاسباب لانعرفها اذ ان اسمه الحقيقي هو فرنسوا اريت . واقبل على الشعر واصبح شاعرا ، وقبل ان يمضي احد عشر شهرا في السجن كتب قصة شعرية طويلة جدية بالاهتمام سرد فيها قصة هنري نافار . وعندما تبين للوصي ان فولتير قد يكون بريئا اطلق سراحه واجرى عليه معاشا . وبعد ذلك كتب فولتير رسالة الى الوصي شكره فيها على الاهتمام بامور معاشه وسأله ان يسمح له بالاهتمام بامور سكنه بنفسه .

انتقل الان مضطرا من السجن الى المسرح ، وانتج روايته المحزنة مأساة اوديب في عام ١٧١٨ . التي ضربت الرقم القياسي في باريس ، واستمر تمثيلها خمسا واربعين ليلة متواصلة . جاء والده المسن لتوبيخه ، وجلس في احدى مقصورات المسرح ، واخذ يخفي سروره باظهار التذمر والاستياء من وقت لآخر بقوله ، آه اللثيم ، آه النذل ، وعندما قابله الشاعر فونتينيل بعد عرض الرواية اطرى عليها بالمديح والثناء .

لقد عادت هذه الرواية عليه بريسع صاف قدره اربعة الاف فرنك ، استثمرها بحكمة غير مألوفة من رجال الادب ، ففي عام ١٧٢٩ اشترى جميع تذاكر البانصيب الحكومية في مشروع حكومي ضعيف التخطيط ، وكسب كمية كبيرة من المال . ولكنه بعد ان اصبح غنيا زاد كرمه وسخاؤه ، واحاطت به جماعة من الصنائع كلما كان يخرج الى نزواته المسائية . لقد استفاد من براعته في الجمع بين المال والقلم ، لان روايته الثانية فشلت واحس فولتير

بالفشل تماما . فقد كانت حساسا تجاه الرأي العام ، وكان يحسد الحيوانات
لأنها لاتعرف ما يقوله الناس عنها وشاء القدر ان يزيد في آلام فشله ، فقد
اصابه مرض الجدري ، وعالج نفسه بان شرب مئة وعشرين بنشا من عصير
الليمون والكثير من الادوية . وعندما تمافى بعد انتصاره على شبح الموت ،
وجد ان قصته الشعرية « هنرييت » قد جعلت منه رجلا مشهوراً . احسن
الناس استقباله ووفادته في كل مكان ، واحاطت به الطبقة الارستقراطية ،
واحالته الى اعظم رجل مثقف لامع في العالم ، وسيد الحديث الذي لايشق له
غبار ، ووارث اعظم ثقافة وحضارة في اوروبا . واستدفاً لمدة ثماني سنوات في
ضوء شمس الصالونات الارستقراطية والنوادي الكبيرة ، وبعدها اشاح الحظ
بوجهه عنه . لم يذس بدمض افراد الطبقة الارستقراطية ان فولتير ليسر له
ما يشرفه في الجلوس معهم سوى عبقريته ، ولا يحمل من الالقاب سوى نبو ،
ولم يغفروا له هذا التمييز والفارق . وذات يوم بعد تناول الغداء في احد المطاعم
الفاخرة ، اخذ فولتير يتحدث بضع دقائق ببلاغته وفصاحته الجريئة المعهودة .
وهنا تساءل النبيل دي روهان قائلاً : من هذا الشاب الذي يتحدث بصوت
عال ، واجباب فولتير بسرعة ، ياسيدي ، ان من يتحدث لا يحمل اسما كبيراً ،
ولكنه ينال احترام الناس باسمه . لقد كان الجواب على نبيل امرالايغتفر ،
ودفع اللورد النبيل جماعة من الاوغاد للاعتداء على فولتير ليلاً ، وطلب منهم
الا يهسيبوا بالضرب رأسه قائلاً ، قد يخرج رأسه شيئاً عظيماً في يوم من الايام .
وظهر فولتير في اليوم التالي على المسرح معصب الرأس واتجه وهو يهرج الى
الشرفة حيث كان يجلس اللورد روهان وتحداه الى المبارزة . وبعدئذ انصرف الى
بيته ، وامضى طيلة اليوم يتمرن على السيف استعداداً للمبارزة . ولكن اللورد
النبيل لم يكن على استعداد لأرسال روحه الى السماء على يد شاب عبقري .

وتوسل الى عمه الذي كان وزيراً للشرطة لكي يحميه . وتم اعتقال فولتير
واعيد الى بيته القديم سجن الباستيل مرة ثانية . تم الافراج عنه فوراً شريطة
ان يغادر البلاد منفيًا الى إنجلترا . فصدع للامر ولكنه بعد ان وصل تحت
الحراسة الى دوفر ، عاد وعبر القنال متنكراً ليثار لنفسه ، ولكنه انذر
باقتضاح امره ، واوشك ان يقبض عليه للمرة الثالثة ، فركب السفينة ثانية
وسافر الى إنجلترا حيث بقي هناك ثلاث سنوات .



٢ — رسائل عن الانجليز

بدأ يدرس اللغة الانجليزية بصبر وشجاعة . وسرعان ما اجاده وملك زمامها في سنة واحدة . وقرأ افضل الادب الانجليزي في ذلك العصر . وقدمه الثور بولينج بروك الى رجال العلم والادب ، وتناول الطعام معهم الواحد بعد الاخر ؛ وحتى مع دين سويفت المراءوغ الساخر ، لم يدع فولتير الاصل او الحسب ولم يطلب اصلا او حسبا من احد . وعندما ذكر كونيغريف بان رواياته هو نفسه تافهة ، وابدى رغبته في ان يعتبره الناس سيدا ذا نعمة ورخاء لا ادبيا اجابه فولتير بحدة قائلا ، لو كنت مجرد سيد شريف كبقية الاسباد الاخرين لما زرتك ابدا .

لقد اثار دهشته الحرية التي كان يعمل في ظلها الكتاب الانجليز . فقد كتب بولينج بروك وبوب واديسون وسويفت كل ما ارادوا في جومن الحرية التامة .

هنا شعب له اراؤه الخاصة به ، شعب اصلى دينه وشنق مليكه ، واستورد ملكا اخر ، وانشأ مجلسا نيابيا اقوى من اي حاكم في اوروبا . ولا وجود لسجن الباستيل هنا . هنا ثلاثون مذهبا دينيا بغير قسيس واحد .

هنا اشجع المذاهب الدينية جميعا ، مذهب الاصحاب (الكويكر) الذين اثاروا دهمشة العالم المسيحي باخلاقهم المسيحية .

لقد كانت إنجلترا ايضا تخفق بالنشاط العقلي الجريء . وكان اسم بيكون لا يزال محلقا في الاثير . وكانت طريقته الاستقرائية تجرز الانتصار في كل مكان . وتطور هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) بروح الشك التي امتاز بها عصر النهضة وروح استاذه بيكون العملية الى مادية تامة صريحة كانت تؤدي به لو كان في فرنسا الى حبل المشنقة بتهمة الكفر والضلال . كما قام لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) بكتابة تحليل سيكولوجي (مقال عن العقل البشري ١٦٨٩) من غير ان يقيم آراءه وافراضاته على المعجزات . وقام كولينز وتندال وغيرهم من المؤمنين بوحداية الله وانكار الوحي والانظمة الدينية بتأكيد ايمانهم بالله . ومات نيوتن في ذلك الوقت وحضر فولتير جنازته ، وكان يذكر دائما الانطباع الذي تركه في نفسه التكريم والشرف القومي الذي احاط بهذا الانجليزي الذي ينحدر من طبقة متوسطة .

لقد تساءلت جماعة عن اعظم رجل انجبه العالم ، هل هو قيصر ام نابليون ام كرومويل واجاب احدهم بأنه نيوتن . وهو على صواب ، لانه هو الذي استحوذ على عقولنا بقوة الحقيقة لا اولئك الذين استمبدوها بالعنف . اننا مدينون له بالاحترام . لقد غدا فولتير تلميذا مجتهدا لآراء نيوتن ، واضحى بعد ذلك البطل الاول في رواية افكار نيوتن في فرنسا .

لا يسع المرء الا ان يعجب بالسرعة التي استوعب فيها فولتير آداب إنجلترا وعلومها وفلسفتها . لقد جمع كل هذه العناصر المختلفة من المعرفة وسبكها بنار الثقافة والروح الفرنسية ، واخالها الى ذهب من البلاغة والفصاحة الفرنسية . لقد سجل انطباعاته عن إنجلترا في رسائل عن الانجليز ، وزعها على اصدقائه ،

ولم يجرؤ على طباعتها لعلمه بان الرقابة الملكية لن تستطيع مذاقها ، لانها
قارنت بين الحرية السياسية الانجليزية والاستقلال الفكري في انجلترا والطغيان
والاستعباد الفرنسي . وهاجمت الطبقة الارستقراطية الكسولة في فرنسا ،
ورجال الدين الذين يستنزفون الشعب بجمع الاعشار والصدقات والتبرعات
واللجوء الى سجن الباستيل كجواب لكل سؤال وكل شك . لقد حثت هذه
الرسائل الطبقة الفرنسية الوسطى ان تنهض وتتبوأ مكانها في الدولة . اسوة
بنظيرتها في انجلترا . لقد كانت هذه الرسائل بلا قصد او معرفة من فولتير نعتق
الغراب الاول في الثورة الفرنسية .

* * *

٣ - الروايات

ومع ذلك وبغير علم بهذا الغراب ارسل الوصي على عرش فرنسا اذنا فولتير بالعودة الى فرنسا عام ١٧٢٩ . وتمتع فولتير خمس سنوات اخرى بحياة باريس التي كانت خمرها تجري في عروقه ، وروحها تسري في قلمه . الى ان وقعت هذه الرسائل في يد ناشر لثم ارسلها الى الطباعة بغير اذن فولتير او اطلاعه . وباعها بيعا كبيرا واسعا . واصدر البرلمان قرارا بحرق الكتاب اعلنا ، واعتباره مناقضا للدين والاخلاق واحترام الدولة . وادرك فولتير انه في طريقه مرة ثانية الى سجن الباستيل ، وكفيلسوف طيب شمر عن ساقيه وحرك مهازه وهرب خفية مع امرأة متزوجة .

لقد كانت المركيزة دي شاتيله في الثامنة والعشرين من عمرها وكان فولتير مع الاسف في الاربعين . وكانت امرأة بارزة ، درست الرياضيات على يد كبار الرياضيين ، وكتبت ترجمة علمية شرحت فيها مبادئ نيوتن ، ونالت تقديرا اكثر من فولتير نفسه في منافسة للحصول على جائزة قدمتها الاكاديمية الفرنسية عن مقال عن طبيعة النار . وبالاختصار فقد كانت امرأة لا يتوقع الانسان منها الاقدام على الفرار مع رجل اجنبي . ولكن زوجها المركيز كان نيبا جدا ، على عكس فولتير الذي كان ممتعا ومثيرا . فهو مخلوق محبوب من

كل جانب كما كانت تسميه ، اجمل حلية في فرنسا . وبادل حبها له باعجاب شديد الحرارة ، وكونت عن طريقها وعن طريق عدد كبير من النساء رأيه بمساواة المرأة الفرنسية عقليا مع الرجل . لقد كان التركيز زوجها بعيدا بفيلقه الذي كان يأوى اليه كثيرا هربا من رياضيات زوجته ، ولم يعترض على الاجراءات الجديدة . لأن الاخلاق في ذلك الوقت كانت تبيح للمرأة ان تضيف حبيبيا بجانب زوجها ، شريطة ان يجري هذا الحب بطريقة لا تتنافى مع احترام الناس وخاصة اذا لم يقع اختيار المرأة على حبيب فحسب بل على عبقرى . كل العالم يسامحها . وقد نشأ هذا التساهل بسبب اقبال الكهول الاغنياء على زواج الشابات الصغيرات اللواتي سئمن خرف الشيخوخة ، واندفعن في جوع الى الحب .

ولم يضيع فولتير والمركيزة وقتها في القصر (سيرى) في العناق والتقبل والحب بل انصبا على العمل والدرس والبحث طيلة النهار . واقام فولتير مختبرا باهظ التكاليف مجهزا للعمل في العلوم الطبيعية . وتبارى الحبيبان عدة سنوات في البحث والتحليل . وكانا يستقبلان الضيوف الكثيرين . وكان هؤلاء الضيوف يقومون بخدمة انفسهم طيلة النهار ، حتى وقت العشاء في الساعة التاسعة ، وبعد العشاء ينتقل الحديث عن المسرحيات وشؤون المسارح او يقوم فولتير بقراءة احدى قصصه على ضيوفه . واصبح القصر في (سيرى) في فترة وجيزة باريس العقل الفرنسي . واشترك ابناء الطبقة الارستقراطية والبورجوازية في الحج الى هذا المكان ليستقوا من خرف فولتير وحكمته . ويشاهدونه وهويقوم بالتمثيل في رواياته المسرحية . وكان يسعده أن يكون مركز هذا العالم الفاسد واللامع ، ولم يحمل الامور محمل الجد ، وكان شعاره ان يضحك ويضحك واطلقت عليه كاترين امبراطورة روسيا اسم « آله السرور » وكان يقول لو لم تهبنا الطبيعة شيئا من الاستخفاف واللهو لكننا اتعس الخلوقات ، ولولا روح

المرح والاستخفاف في بعضنا لشنق الاكثية منا نفوسهم . ويل للفلاسفة الذين لا يضحكون ، وانا انظر الى الجد والوقار نظرتي الى المرض . ومن الحلاوة ان نكون مجانين بعض الوقت .

لقد بدأ في هذا الوقت في كتابة رواياته السارة المبهجة ، كنديد ، صادق ، ميكروميغاس ، لانجينو ، لوموند كوم الفا الخ .

لقد اظهرت هذه الروايات روح فولتير بصفاء اكثر من اي شيء آخر في مؤلفاته التسعة والتسعين . لم تكن هذه روايات بل كانت من نوع جديد ، ابطالها آراء ، والاوغاد فيها خرافات ، والحوادث افكار ، وبعضها يتألف من فصول قصيرة مثل لانجينو وهي روسو امام جون جاك . وهو هندي جاء الى فرنسا برفقة بعض الرواد المكتشفين ، واول مشكلة واجهته هي تحويله الى الديانة المسيحية . لقد قدم له احد رؤساء الاديرة نسخة عن العهد الجديد « الانجيل » الذي احبه الهندي كثيراً . وقدم نفسه لا للتعميد فقط بل وللظهور ايضاً . لانه يقول ، لانني لم اجد في الكتاب الذي وضع في يدي شخصاً واحداً لم يتطهر ، ومن الواضح اذن ان اقدم تضحية للعادة العبرانية ، وكلما كان ذلك اسرع كلما كان احسن . ولم يكدي ينتهي من عملية الظهور هذه حتى واجهه مشاكل الاعتراف ، ويسأل في اي مكان من الانجيل امرنا الله بالاعتراف . ويرشدونه الى مقطع في رسالة سانت جيمس حيث تقول « اعترف بخطاياك الى الاخرين » ويقوم الهندي بالاعتراف ولكنه بعد ان اعترف سحب القسيس من كرسي الاعتراف ، واجلسه على المقعد ، وطلب منه ان يعترف له عن خطاياها بدوره قائلاً ، تعال يا صديقي ، لقد قيل باننا يجب ان نعترف بذنوبنا لبعضنا لبعض ، وقد اعترفت لك بذنوبي ، ولن تتحرك من هنا حتى تعترف لي بذنوبك .

وبعد ذلك وقع الهندي في حب الانسة سانت ايفيس ، ولكنه قيل له انه لا يستطيع ان يتزوجها لانها قامت بدور ام الاله اثناء تعميده ، وهنا ثار غضبه لهذا المصير ، وتوعد بالانسحاب من التعميد ، وبعد ان اذن له بالزواج منها ، اندهش من اجراءات الزواج التي تقتضي وجسود المسجلين والقسس والشهود والمعقود والحل ... ويقول ، ان هذه الاحتياطات تدل على كونكم مخادعين وغشاشين ، والا لما اشترطتم هذا الاحتياط والحذر . وهكذا تسير القصة من حادث الى آخر ، حيث ادخل التناقض بين المسيحية البدائية والكنائسية على المسرح . وهنا يفقد المرء في مثل هذه الرواية العدل الذي يميز العالم ، والتساهل واللين الذي يميز الفيلسوف . ولكن فولتير بدأ الحرب ضد الخرافات ، وفي الحرب لا نطلب الانصاف والعدل واللين الا من اعدائنا .

امسا رواية ميكروميجاس فهي تقليد للكاتب الانجليزي سويفت ، ولكنها تمتاز بتصوير الكون ، لقد زار الارض ساكن من سكان كلب الجبار في الفلك وطولة خمسمئة الف قدم ، هو طول يتناسب مع طول مواطن لهذا النجم الكبير . وفي طريقه في الفضاء ، التقط رجلا من سكان زحل الذي ابدى حزنه لأن طوله بضعة الاف من الاقدام فقط . وعندما كانا يسيران فوق البحر الابيض المتوسط بلبل العملاق الاول كعبيه في ماء البحر . وسأل زميله الذي من زحل عن عدد الحواس عند سكان زحل ؟ فأجابه «لدينا اثنتان وسبعون» وكم سنة تمعمرون عادة ؟ يا للأسف انها مجرد سنوات قليلة تافهة ، اذ ان القليل من سكان عالمنا يتجاوزن الخمسة عشر الف سنة من اعمارهم . وهكذا كما ترى لانسكاد نولد حتى نموت ، ان حياتنا ليست اطول من نقطة ، وبقاءنا برهة ، وعالمنا ذرة ، ولا نسكاد نبدأ ان نتعلم قليلا حتي يتدخل الموت قبل ان نبدأ نستفيد من تجاربنا ، وعندما كانا واقفين في البحر رفعا سفينة كما يرفع الانسان ذبابة صغيرة

في يده ، ووضعها المملاق الاول من سكان كلب الجبار على ظفر ابهامه ،
محدثاً الكثير من الاضطراب والهياج بين ركاب السفينة . « واخذ القسس في
السفينة في ارسال التعاويذ والعزائم ، والبحارة في الدعاء والصلوات واخذ
الفلاسفة في تفسير هذا الحادث الذي افسد قانون الجاذبية ، وانحنى ساكن كلب
الجبار الى الامام كسحابة مظلمة قائلاً لهم .

انتم يا صغار الاذكياء ، يا ذرات الاذكياء يا من احب الله ان يوضح
فيكم علمه وقوته ، لا شك ان سعادتكم على هذه الارض نقية رائعة ، بتجردكم
عن المادة . لذلك ينبغي ان تمضوا حياتكم في السعادة والسرور والفكر والتأمل ،
وهي متع الروح الحقيقية ، لقد وجدت السعادة الحقيقية اصلاً ولكنها تسكن
هنا حتماً .

لدينا الكثير من المادة ، اجابه احد الفلاسفة من على ظهر السفينة ،
ونرتكب الكثير من الاذى ... ويجب ان تعرف ان هناك عشرة الاف من بني
جنسنا يلبسون البرانيط يذبجون عدداً مائتاً من مخلوقات مثلهم يلبسون
العمائم ، او على الاقل فهم يقتلون ويقتلون . وهذه هي الحالة عادة في جميع
انحاء الارض منذ فجر التاريخ . « كفار جاحدون » صاح العملاق من سكان
كلب الجبار « افكر بان اخطو خطوتين او ثلاث واسحق هؤلاء القتلة المقتالين
جميعهم تحت قدمي . » « لا تزعج نفسك » اجاب الفيلسوف فهم جادون تماماً
في سحق انفسهم . وبعد عشرة اعوام لن يبقى من هؤلاء البائسين جزء من مئة
بالاضافة الى ان العقاب يجب الا ينزل بهم بل بالمتوحشين القعدة الكسالى الذين
يصدرون الاوامر من قصورهم بقتل الملايين من الناس ، وبعدئذ يشكرون الله
على نجاحهم .

تعتبر قصة صادق من أفضل قصص فولتير باستثناء قصة كنديد التي كتبها في الفترة الاخيرة من حياته . لقد كان صادق فيلسوفاً بابلياً وحكيماً . . وكان يعرف عن الميتافيزيقا قدرأ لم يعرفه احد من قبل ، يعني قليلا او لا شيء اطلاقا . لقد جعلته الفيرة يمتقد انه على حب مع سميرة . وفي الدفاع عنهم اصيب بجرح في عينه اليسرى .

وارسل رسول الى ممفيس لاستدعاء الطبيب المصري العظيم هيرميس . الذي جاء محاطا بالكثير من الاتباع والخدم والحشم . وزار صادق ، واعلن ان المريض سيفقد عينه . وتنبأ حتى باليوم والساعة التي سيحدث فيها هذا الحادث الميت . وقال « لو كانت العين اليمنى لكان في وسعي علاجها بسهولة ؛ ولكن جرح العين اليسرى لا يمكن علاجه » لقد بكى جميع البابلين على مصاب صادق ومصيره ، واكبروا مقدرة الطبيب المصري ومعرفته العميقة . ولكن بعد يومين انفجر الخراج حول عين صادق بطبيعته وتم شفاؤها ؛ وكتب الطبيب المصري كتابا يثبت فيه ان صادق ما كان لها ان تشفى ولكن صادق لم يقرأ الكتاب .

واسرع صادق الى سميرة ، لسمع انها بعد سماع تقرير الطبيب المصري عن عينه كتبت كتابها على رجل آخر ، قائلة ؛ انها لا تستطيع مقاومة اشتمزازها وتفورها من الزواج برجل ذي عين واحدة . وبعد ذلك تزوج صادق من امرأة فلاحية . راجيا ان يجد فيها الفضائل التي لم يجدها في سيدة البلاط سميرة . ولتأكد من اخلاص زوجته ، تم الاتفاق بينه وبين صديق له بان يتظاهر صادق بالموت ، وان يتظاهر صديقه بالحب لزوجه بعد ساعة من وفاته . وهكذا علنت وفاة صادق ، ونام في داخل التابوت ، وواسى صديقه الارملة اولا ،

وبعد ان بلغ من الحكمة ذروتها ، عينه الملك وزيرا له . وحقق صادق الرخاء والازدهار والعدل والسلام في الدولة . ولكن الملكة وقعت في حبه ، وشعر الملك بذلك وبدا عليه الاضطراب ، ولاحظ ان حذاء الملكة ازرق وحذاء صادق ازرق وان وشاحها كان اصفر وقبعة صادق صفراء . وقرر ان يسم الاثنين معا . ولكن الملكة اكتشفت المؤامرة وارسلت رسالة قصيرة الى صادق « اهرب ، اتوسل اليك بجبنا المتبادل وشاحنا الاصفر المتبادل ، وهرب صادق مرة ثانية الى الغابات . »

واخذ يصور لنفسه الجنس البشري كما هو على حقيقته كمجموعه من الحشرات تلتهم احداها الأخرى على نبتة صغيرة . لقد بددت هذه الصورة الحقيقية عن البشر مصيبته وجعلته يشعر بتفاهة وجوهه ووجود بابل . وانطلقت روحه هائمة الى مآلنهايه ، وانفصلت عن حواسه مفكرة ومتأملة في نظام الكون الثابت الذي لا يتغير . ولكن عندما افاق الى نفسه بعد ذلك ، شعر بالخوف على الملكة . قد تكون ماتت او انتحرت بسببه وهنا طار عقله وزاغ الكون عن بصره .

وفي طريق عودته الى بابل رأى رجلا يضرب امرأة بقسوة شديدة . ولبى صادق صراخها وهب لنجدتها ، وقاتل الرجل ، واخيرا لينقذ نفسه انزل بالرجل ضربة قوية اودت بحياته واتجه للسيدة بقوله ماذا تريد مني ان افعل لك ايتها السيدة بعد ذلك . « مت ايها الوغد ! ، لقد قتلت حبيبي ، آه لو كنت استطيع تمزيق قلبك ! »

والقي القبض على صادق ، وبيع عبدا في سوق العبيد . واشتراه احد
الاسياد وعلم صادق سيده الفلسفة ، واصبح مستشاره وموضع سره و اشار عليه
الغاء القانون الذي يقضي بدفن الارملة مع زوجها ، وسن قانون جديد يقضي
ان تقضي الارملة ساعة مع رجل وسم قبل استشهادهما ودفنها ، وعندما ارسل
في بعثة الى ملك سرنديب ، علم الملك ان يختار افضل وزير له من بين احسن
الراقصين في البلد ، وقبل استدعاء الراقصين ملأ الممر المؤدي الى صالة الرقص
بما خف حملة وثقلت قيمته من النفائس والمجوهرات ، وطلب ان يدخل كل مرشح
عن طريق ذلك الممر وحده بلا رقابة عليه ، وعندما دخلوا جميعهم طلب منهم
أن يرقصوا . ولم يحدث ان قام راقصون برقص اقل فتورا واداء وتوقيعا من رقصهم
في ذلك اليوم . فقد تدلت رؤوسهم وانحنى ظهورهم ومرت ايديهم على
جيوبهم المثقلة بالمسروقات . وهكذا تسير القصة . ومن هنا نستطيع ان نتصور
ليالي فولتير في (سيرى) .

٤ - بوتسدام وفردريك

وارثك الذين لم يتمكنوا من القدوم اليه كتبوا له . وفي عام ١٧٣٦ بدأت المراسلات بينه وبين فردريك الكبير الذي كان اميراً ، وقبل ان يصبح كبيراً « فردريك الكبير » لقد كانت رسالة فردريك الاولى لفولتير اشبه شيء برسالة صبي الى ملك . اذ ان الاسراف بالرسالة يعطينا فكرة عما وصل اليه فولتير من شهرة . لقد نوه فردريك في رسالته بان فولتير اعظم رجل في فرنسا ، وانه شرف اللغة الفرنسية ... وقال ، ويشرفني ان ولدت في عصر رجل عظيم ، قام باعمال رائعة ... لا يستطيع كل انسان ان يجعل العقل يضحك . لقد كان فردريك مفكراً حراً ينظر الى العقائد كمنظرة الى الرعية . وعلق فولتير عليه املاً كبيراً في تحقيق النهضة الفكرية عندما يتولى العرش . وربما اراد ان يلعب الدور الذي لعبه افلاطون مع ديونيسيوس . وعندما اعترض فردريك على التملق والمديح الذي اجاب فيه فولتير على رسالته اجابه فولتير بقوله « ان الامير الذي يعترض على التملق ، فريد كالبابا الذي يعترض على العصمة عن الخطأ . » وارسل له فردريك نسخة عن كتاب له انتقد فيه ما كيا فيلي وتحدث فيه حديثاً جميلاً عن اثم الحروب وشروها ، وواجب الملك في صيانة السلام ، وبكى فولتير فرحاً لهذه الروح السلمية الملكية .

ولكن بعد اشهر قليلة تولى فردريك العرش وغزا سيليزيا ، واغرق اوربا في بحر من الدماء طيلة جيل كامل .

وفي عام ١٧٤٥ اتجه الشاعر والمركيزة الرياضية الى باريس ، ورشح نفسه لعضوية الاكاديمية الفرنسية ، وليبلغ هذا الامتياز الذي لازوم له ، فقد اطلق على نفسه اسم الكاثوليكي الطيب . وجمال بعض اليسوعيين من ذوي الجاه والسلطان ، وكذب كثيرا بلا تعب أو ملل ، وعلى العموم فقد سلك سلوكايسير فيه كل واحد منا في مثل حالته . لقد فشل ولكنه ظفر في هذا المنصب بعد سنة اخرى . والقى خطابا يعتبر من اروع الخطب في تاريخ الأدب الفرنسي . وبقي في باريس فترة يتنقل من صالة الى اخرى ، وينتج رواية بعد رواية ، من اوديب في الثامنة عشرة الى اربن في الثالثة والثمانين . كتب سلسلة طويلة من الروايات المحزنة ، فشل بعضها ، ونجح معظمها ، فقد فشلت بروتوس في عام ١٧٣٠ واريفيل في عام ١٧٣٢ ، وحسنه اصدقائه على ترك الروايات المحزنة ، ولكنه في نفس السنة انتج رواية زير التي صادفت اعظم نجاح له . واتبعها برواية محمد في عام ١٧٤١ ، وميروب في عام ١٧٤٣ ، وسميراميس في ١٧٤٨ ، وترانكريد في ١٧٦٠ .

وفي الوقت ذاته فقد دخلت المأساة والفكاهة حياته الخاصة . وبعد خمس عشرة سنة ضعف حبه لمدام دو شاتليه ، وقل النزاع بينها ، وفي عام ١٧٤٨ وقعت المركيزة في حب الشاب الوسيم المركيز دي سانت لامبيرت ، وعندما اكتشف فولتير هذا الحب ثارت ثائرتة ، ولكن عندما طلب سانت لامبيرت الصفة منه عفا عنه ومنحه بركته . لقد بلغ الان اوج حياته ، ولاح له شبح الموت عن بعد ، وقال هذه هي النساء ، لقد انتزعت المركيزة من زوجها ريشيليو وانتزعتها سانت لامبيرت مني ، هذا هو نظام الاشياء ، ظفر يخلع ظفر ، هذه هي الدنيا ، وهكذا يسير العالم . وكتب شعرا جميلا عن هذا الظفر الثالث يقول فيه :

سانيت لامبيرت كل شيء لك
الزهرة تنمو
وكل شوكتها لي وكل وردتها لك .

. وفي عام ١٧٤٩ اختطف الموت بغتة مدام دوشاتليه اثناء مخاضها،
وشاءت الاقدار ان يجتمع في جنازتها زوجها وعاشقها سانيت لامبيرت وفولتير
بغير كلمة واحدة من تبكيت او تعنيف ، واحالتها هذه الخسارة المشتركة
الى اصدقاء .

لقد حاول فولتير نسيان حرمانه منها وفقدانه لها بالعمل ، وشغل
نسه فترة من الزمن بالكتابة عن لويس الرابع عشر . ولكن الذي انقذه من
ياسه تجديد فرديريك الكبير دعوته له للحضور الى بلاطه في بوتسدام ؛ وكانت
دعوة ارفقها بمبلغ ثلاثة الاف فرنك لنفقات السفر لا يمكن اغفالها او مقاومتها .
واخذ فولتير طريقه الى برلين في عام ١٧٥٠ . لقد طيب خاطرته وسكن نفسه
تخصيص جناح فاخر له في قصر فرديريك ، وقبوله على قدم المساواة مع اقوى
ملك في ذلك العصر . وطفحت رسائله بالبشر والرضى اولا ، ففي الرابع
والعشرين من يوليو كتب الى ارجنتال يصف بوتسدام بقوله « ١٥٠٠٠٠ ر
جندي اوبرا ، روايات هزلية ، فلسفة ، شعر ، جلال ، ابهة ، ونعم ،
وفن ، وبوق ، وكمان ، وامسيات افلاطون ، مجتمع وحرية . من يصدق
بذلك ؟ ومع ذلك فهو حقيقة . » لقد كتب قبل سنوات ، يا لها من حياة جميلة
ظروبه عندما يعيش ثلاثة او اربعة من اصحاب المواهب مع بعضهم بعضا في
هدوء بلا غيره او حسد ، يتذوقون فنون بعضهم ويتحدثون عنها ، ويستنبرون
بآراء بعضهم ، لقد تخيلت نفسي بانني سأعيش في هذه الجنة الصغيرة
وها انا فيها .

لقد تجنب فولتير تناول الطعام في الحفلات الرسمية . اذ كان لا يقوى

على احاطة نفسه بالجنرالات العسكريين المنتفخين . واحتجز لنفسه مكانا في
العشاء الخاص الذين كان يدعو فيه فردريك نخبة صغيرة ممتازة من رجال العلم
والفكر والادب من اصدقائه . لقد كان فردريك اعظم امراء عصره وكان
يصبو لان يكون شاعرا وفيلسوبا . لقد كانت الاحاديث في هذه الامسيات
غالبا باللغة الفرنسية ، وحاول فولتير تعلم اللغة الالمانية ، ولكنه تحول عنها .
وقال احد الذين استمعوا لهذه الاحاديث التي كانت تدور في تلك السهرات بانها
اكثر متعة من احسن الكتب في العالم . لقد تحدثوا عن كل شيء ، وبسطوا
آراءهم وافكارهم . لقد كان ذكاء فردريك مضاهيا لذكاء فولتير ، ولم يجرؤ
على اجابته سوى فولتير وكان جوابه دائما جميلا ومفحما لبقا . وكتب فولتير
عن هذه الاحاديث بابتهاج « هنا يفكر الانسان بشجاعة وحرية . ان فردريك
يجرح في يد ويداوي باليد الاخرى ... لاشيء يزعجني ، لقد وجدت ميناء
ارسو به بعد عاصفة استغرقت خمسين عاما ، ووجدت فيه حماية الملك وحديد
الفيلسوف ، وسحر الانسان ، كلها اجتمعت في رجل واحد ، واساني في همومي
طيلة ستة عشر عاما وآواني من اعدائي . » اذا جاز للانسان ان يجزم بشيء فأنا
جازم من اخلاق فردريك ملك بروسيا ، ولكن في نوفمبر من هذه السنة اراد
فولتير ان يحسن وضعه المالي باستثماره في سندات سكسونية على الرغم من منع
فردريك لهذا الاستثمار . وارتفعت قيمة السندات واستفاد فولتير ، ولكن
وكيله هيرش حاول استغلاله بتهديده بنشر هذه الصفقة المالية ، وهناك قفز
فولتير عليه واطبق على رقبته والقاء ارضا « وعلم فردريك بالحسادت وثار
تأثرته » وقال « اني لازلت في حاجة اليه سنة اخرى » وقال الى لامتري « ان
الانسان يعصر البرتقالة ويلقي بالقشر بعد ذلك » وربما كان لامتري مهتما في
التخلص من منافسيه فقد اوصل ما قاله فردريك الى فولتير . واستمرت
حفلات العشاء والاحاديث ولكن قشرة البرتقالة هذه ازعجت احلام فولتير ..

وعلى كل حال فقد كانت به رغبة للعودة الى وطنه . وجاءت اللحظة الحاسمة في عام ١٧٩٢ عندما استدعي فردريك العالم الرياضي العظيم ميبيرتويس من فرنسا مع علماء آخرين في محاولة للنهوض بالعقل الالماني باقصال مباشر مع رجال التنوير الفرنسي ، وحصل خلاف بين هذا العالم واحد مرافقيه من العلماء حول تفسير نيوتن . ودخل فردريك في النقاش الى جانب ميبيرتويس . اما فولتير الذي كان يتصف بالجرأة اكثر من العمل فقد ايد كوينج العالم الفرنسي الاخر . وقد كتب بهذه المناسبة الى مدام دينيس يقول ، لسوء حظي اني كاتب ايضاً وأقف في المعسكر المعارض للملك . لست املك صولجانا ولكني املك قلماً . لقد جرى هذا في وقت كانت فيه فردريك يكتب الى اخته « ان الشيطان متجسد في رجال الادب الذين حولي ، لاعمل اطلاقاً معهم ، ومواهبهم تنحصر في النواحي الاجتماعية فقط . »

وفي هذا الوقت كتب فولتير كتابه (دكتور اكاكيا) الذي شهر به بالعالم الرياضي ميبيرتويس ، وقرأه على فردريك الذي بقي يضحك طيلة الليل ، ولكنه طلب من فولتير ان لا يطبعه . وتظاهر فولتير بالاذعان ، ولكنه كان قد ارسل الكتاب للطباعة ، والكاتب لايسعه ان يقتل بنات قلبه وحبوات فكره وعندما ظهر الكتاب غضب فردريك غضباً كبيراً ، وهرب فولتير من نار غضبه .

ولكن وكلاء الملك اوقفوه واعتقلوه في فرانكفورت على الرغم من كون هذه المدينة خارج سلطان الملك . ومنعوه من الخروج الى ان يسلم لهم بعض اشعار الملك التي لاتتناسب مع بلد متمدن . وزاد في الطين بلة ان هذه الاشعار كانت موضوعة في صندوق فقدسمنه في الطريق . وبقي فولتير عدة اسابيع موقوفا الى ان عثر على الصندوق . وظن بائع كتب له على فولتير بعض الدين انها فرصة سانحة لمطالبته بالذي عليه وتصفية حسابه معه . وما كان من

فولتير الذي كان في حالة غضب شديد الا ان ناوله لكمة على اذنه ، وقام
سكرتيره كوليني بمواساة بائع الكنب قائلا له ، ياسيدي لقد تلقيت لكمة على
اذنك من اعظم رجل في العالم .

وبعد ان اطلق سراحه اخيرا ، واوشك دخول الحدود الفرنسية ،
وصلته رسالة تمنعه من الدخول واعتبار نفسه منفيًا . واحترار فولتير المعجوز
المطاردين يتجه ، وفكر بعض الوقت في الاتجاه الى بنسلفانيا ، يستطيع
المرء ان يدرك يأسه ، وامضى شهر مارس من عام ١٧٥٤ بحثا عن مكان مناسب
ليدفن نفسه وهمومه به . واشترى اخيرا في ضواحي جنيف ضيعة قديمة سماها
النعيم جعلته بعيدا وآمنا من مطاردة حكام باريس وبرلين المستبدين . وانصرف
الى زرع حديقته واسترداد صحته . وعندما بدأت حياته تسير في طريق الهرم
والشيخوخة ، دخل في انبل واعظم انتاجه الفكري .



٥ - مقال الاخلاق

ما الذي دفعهم الى نفيه في منفاه الجديد ؟ ذلك لانه نشر في برلين اعظم انتاج له جراءة وطموحاً وغزارة وقيمة . وعنوان هذا الكتاب ، مقال عن اخلاق وروح الشعوب من ايام شارلمان الى لويس الثالث عشر . لقد بدأ في كتابته لمدام شاتليه . ولكنه توقف عن الكتابة لانها لم تنل رضاها بقولها انها تقويم قديم « اذ ما بهم امرأة مثلي اعيش في ضيعتي ان تعرف ان أبغل خلف هاكون في السويد وان عثمان هو ابن ارطوغرل ؟ لقد قرأت بشغف تاريخ اليونان والرومان ، وقدم لي هذا التاريخ صوراً معينة اجتذبتني ، ولكنني لم انته من مطالعة اي تاريخ طويل عن دولنا الحديثة . واكاد لا اجد فيها سوى الاضطراب ، انها سرد لعدة حوادث دقيقة بغير ارتباط او نتيجة . وآلاف المعارك التي لم تؤد شيئاً ولا احب مطالعة تربك العقل بلا فائدة . »

لقد رافقها فولتير على ذلك ، فهو يقول « ان التاريخ صورة عن الجرائم والكوارث ليس الاً ولكنه عبر لمدام شاتليه عن امله في ايجاد حل في تطبيق الفلسفة على التاريخ ، ومحاوله تتبع تاريخ العقل البشري من وراء تدفق الحوادث السياسية ، وقال لا ينبغي ان يكتب التاريخ سوى الفلاسفة . لقد شوهت الاساطير التاريخ عند جميع الشعوب . الى ان تقدمت الفلسفة لتثقيف الانسان وتنويره ، وعندما وصلت الفلسفة اخيراً بعد ان سلكت طريقها في وسط هذا

الظلام ، وجدت العقل البشري اعمى بسبب اخطاء القرون الطويلة ، ومن الصعب هديه ونصحه وارشاده . وتبين لنا بالدليل كذب الكثير من الحقائق والشغائر والآثار . وينتهي فولتير بقوله ان التاريخ لاشيء سوى مجموعة من الابطال والخدع التي نلعب بها على الاموات بحيث نحول الماضي ليتناسب مع رغباتنا في المستقبل .

راح فولتير يكدح كعامل في منجم ليجد في هذا النهر من الاكاذيب جذور حقيقة تاريخ العالم الحقيقي . ولكنه بعد سنة اتجه الى دراسات تحضيرية تمهيدية منها ، تاريخ روسيا ، تاريخ شارلز الثاني عشر ، عصر لويس الرابع عشر ، وعصر لويس الثالث عشر . عندما قام الاب دانيال اليسوعي بكتابة تاريخ فرنسا وضع امامه في المكتبة الملكية في باريس نحو الف ومئتي مجلد من الوثائق والمخطوطات ، وبعد ان امضي ساعة في القاء نظرة عليها اعادها بعد ذلك الى الاب تورنمين وهو معلم سابق لفولتير بقوله ، ان جميع هذه الوثائق والمخطوطات اوراق قديمة لا قيمة لها ولا يحتاجها في كتابته . اما فولتير فعلى عكس ذلك ، فقد قرأ كل شيء وقسح تحت يديه عن موضوعه ، وغاص في مئات المجلدات ، والمذكرات ، وارسل مئات الرسائل لمن بقي على قيد الحياة من رجال اشتركوا في الحوادث المشهورة ، واستمر في دراسته حتى طبع انتاجه وأدخل تحسينات على كل طبعة .

ولكن جمع المعلومات لم يكن سوى عمل تمهيدي ، فقد احتاج الى وسيلة جديدة في الاختيار والترتيب . ان مجرد الحقائق لا يكفي ، وحتى لو كانت تفي بالمهمة وهذا امر نادر الوقوع ؛ فانها ليست سوى حقائق «ان التفصيلات التي لا تؤدي الى شيء تكون بالنسبة الى التاريخ بمثابة الامتعة من الجيش ، يجب ان ننظر الى الامور نظرة اوسع ، لان عقل الانسان صغير جداً ويفرق تحت وطأة التفاصيل . يجب ان يقوم على جمع الحقائق محللون بحيث ترتب في شكل قاموس تاريخي يجد به الشخص هذه الحقائق التي يحتاج اليها كما يجد الكلمات في القاموس » .

لقد كان فولتير يبحث عن طريقة موحدة ينسج حولها كل تاريخ المدينة في أوروبا في خيط واحد . واقتنع ان هذا الخيط هو تاريخ الحضارة . وعزم ان لا يتناول في بحثه التاريخي الملوك بل الحركات والقوى الجماهير . وان لا يتناول الدول بل الجنس البشري ، وان لا يتناول الحروب بل سير وتقدم العقل البشري « ان المعارك والثورات ، امر ثانوي في مشروعه ، كما ان الجيوش والفرق والنصر والهزيمة وسقوط المدن واعادة الاستيلاء عليها امور تشترك فيها كل كتب التاريخ ... جرد التاريخ من الفنون وتقدم العقل وسوف لا تجد فيه شيئاً . » « لا اريد ان اكتب تاريخاً عن الحروب ولكن عن المجتمعات ، وان أؤكد كيف عاش الناس في داخل اسرهم وعائلاتهم ، وما هي الفنون المشتركة التي هذبوها وارتقوا بها .. ان موضوعي هو تاريخ العقل البشري وليس مجرد عرض تفصيلي للحقائق الجميلة . وسوف لا اقي اهمية على تاريخ اللوردات والاسياد .. ولكني اريد ان اعرف حقيقة الخطوات التي خطتها بها الناس من العصور البربرية الى المدنية . » . لقد كان امتناع فولتير عن ادخال الملوك في بحثه التاريخي جزءاً من الثورات الديمقراطية التي ابعدهم عن الحكم اخيراً . وبدأت رسالته في الاخلاق في تجريد اسرة البوربون من الحكم في فرنسا .

وهكذا فقد انتج اول فلسفة عن التاريخ ، اول محاولة منظمة لتتبع مجاري الاسباب الطبيعية في تطور العقل الاوروبي . وكان من المتوقع ان يغفل فيها التفسيرات التي تقوم على المعجزات والظواهر الطبيعية الخارقة . لن يقف التاريخ على ساقيه حتى نبعث اللاهوت عنه . لقد وضع كتاب فولتير كما يقول « بوكل » الاساس لعلم التاريخ الحديث . ولا شك ان جيمون ونيبور وبوكل وجرون مدينون له بالكثير . ولا يجاريه حتى الآن احد في هذا الميدان الذي اكتشفه اولاً .

ولكن لماذا كان اعظم كتاب له سبباً في نفيه؟ لانه ضايق كل انسان بذكره

الحقيقة! لقد اغضب على وجه الخصوص طبقة رجال الدين بتبنيه وجهة النظر التي تطور بها جييون بعد ذلك ، وهي ان غزو الديانة المسيحية للوثنية في روما وتحويلها من دولة وثنية الى مسيحية قد ادى الى تفسخ الامبراطورية الرومانية من الداخل . ومهد الى سقوطها فريسة سهلة في يد الغزاة البرابرة . وزاد في سخط رجال الدين أكثر انه لم يفسح فراغا كبيرا في كتابه عن ارض الميعاد والبلاد المسيحية ، ولم يتحدث عن الصين والهند وفارس وعن دياناتها بانصاف وعدل . لقد كشف هذا الكتاب عن عالم جديد واسع . وادى الى جفاف العقائد نسبيا . واصدر الملك قرارا يقضي بمنع دخول هذا المواطن الفرنسي الذي تجاسر على اعتبار نفسه انسانا اوليا وفرنسيا ثانيا ، وان لا تطأ قدماه ارض فرنسا بعد ذلك .

٦ - فيرني - كنديد

كانت الضيعة التي اشتراها منزلا مؤقتا الى أن يجد له مسكنا يستقر فيه . وفي عام ١٧٥٨ وجد هذا المسكن في فيرني ، داخل الحدود السويسرية ، وعلى مقربة من الحدود الفرنسية ، حيث يشعر بالأمان بعيدا عن السلطة الفرنسية ، ويكون قريبا من ملجأ فرنسي لو حاولت الحكومة السويسرية مضايقته . وقد وضع هذا المسكن الجديد حدا لطوافه المتقلب هنا وهناك . لقد دل طوافه من مكان الى آخر على توتر اعصابه ، كما دل على خوفه من المطاردة .

انه الآن في الرابعة والستين ، ولأول مرة يعيش في بيت يملكه نفسه . هناك مقطع في خاتمة احدى قصصه « اسفار سكارمينتادو » ينطبق عليه . « بعد أن رأيت ما رأيت من جمال العالم ، عزمت على الا أرى في المستقبل شيئا سوى بيتي ، لقد اتخذت زوجة ، وسرعان ما بدأت أشك في اخلاصها لي ، ولكن على الرغم من هذا الشك فأني لا ازال اجد أن هذا اسعد حالات الحياة كلها » انه بلا زوجة الآن ، ولكن ابنة اخيه تعيش معه ، وهذا أفضل بالنسبة الى رجل عبقرى . لم نسمع عن رغبته في العودة الى باريس ابدا ... لاشك أن هذا المنفى قد مد في حياته .

كان سعيداً في حديقته ، يزرع اشجار الفاكهة التي لم يتوقع ان يراها
تزدهر وتحمل في حياته . وعندما أثنى معجب به على العمل الذي قام به لأجل
ذريته أجاب « نعم ، لقد زوعت اربعة آلاف شجرة . وكان يرسل كلمة لطيفة
لكل انسان ، ولكنه اذا اثير يندفع في كلمات أشد حدة من الابر . وذات
يوم سأل زائراً عن أرسله له . - فأجابه « لقد أرسلني اليك السيد هلر . » - فقال
فولتير : - « انه لرجل عظيم ، وشاعر عظيم ، وعالم عظيم ، وفيلسوف عظيم ،
وعبقري عالمي . » - ان ما تقوله ياسيدي هو اعظم التقدير للرجل ولكنه
لا يقدر كما تقدره . وهنا قال فولتير : « آه ، ربما نكون كلانا
مخطئين . »

لقد اصبحت (فيرني) الآن عاصمة العالم المثقف . وزاره فيها كل عالم
او حاكم مثقف بشخصه او بادلته الرسائل . وزاره رهبان دخل الشك الى ايمانهم ،
وأرستقراطيون أحرار ، وسيدات مثقفات ، وسمعي الية جيبون ، وبوزويل ،
من إنجلترا ، وثار عصر التنوير وغيرهم كثيرون .

لقد أرق هذا السيل من الزوار فولتير وكبده الكثير من النفقات .
وكان يشكو من ذلك بقوله ، انه أصبح مدير فندق لأوروبا كلها وكان
يقول - « احفظني يارب من اصدقائي وسأحافظ على نفسي من اعدائي . »

اضف الى هذه الضيافة المستمرة ، سيلاً من الرسائل التي لم يشاهدها
العالم من قبل . لقد وردت عليه الرسائل من كل صوب وحذب . ومن رجال
على اختلاف انواعهم ومراكزهم . لقد كتب له عمدة بلد في المانيا - « يسأله
بثقة عن وجود الله او عدم وجوده . رويسأله الجواب بعودة البريد . لقد اعتقد
ملك السويد جوستاف الثالث بزهو أن فولتير قد لمح عن بلاده وكتب له يقول ،
أن هذا اعظم تشجيع لهم ليبذلوا جهدهم هناك . واعتذر كريستيان السابع

ملك الدنيمرك لعدم قيامه فوراً بجميع الإصلاحات . وأرسلت له كاترين الثانية ملكة روسيا هدايا جميلة ، وكاتبته باستمرار ، ورجت أن لايعتبرها لجوجة ملحاحه . وحتى فردريك بعد سنة من السكوت عاد الى مراسلته بقوله :

لقد ارتكبت معي اخطاء كبيرة ، وقد عفوت عنها جميعها ، وارىد ان انساها . ولولا جنوني بحب عبقريتك النبيلة لما استطعت ان تهرب بريشك وتنجو بنفسك ... هل تحب سماع اشياء حلوة ، حسنا جدا ، سأخبرك بعض الحقائق ، أني ارى فيك أعظم عبقري ولدته الأجيال . وأكبر شعرك ، واحب نترك ...

ما جاء كاتب قبلك أبدا بمثل حصافتك وذكائك وذوقك وبلاغتك . انك ساحر الحديث . وتعرف كيف تدخل المتعة الى قلوب الناس وكيف تعلمهم في وقت واحد . انك اعظم مغر عرفته اطلاقا . وقادر على اثاره حب الناس لك اذا اردت . ولديك من نعمة العقل ما يمكنك من الاساءة لمن يعرفونك مع ضمان تسامحهم معك . وبالاختصار فأنت كامل لو لم تكن انسانا .

من كان يتوقع من مثل هذا الانسان المرح ان يكون مصدرا للتشاؤم لقد رأى في شبابه الجانب المشرق من الحياة عندما كان شابا طروبا يرتاد صالات باريس على الرغم من دخوله الباستيل . ومع ذلك فقد ثار حتى في تلك الأيام العابثة على التفاؤل غير الطبيعي الذي اظهره لينتز ، وكتب الى شاب متحمس هاجمه كتابة ووافق مع لينتز على ان هذا العالم أفضل من جميع العوالم الممكنة ، بقوله ، يسرني ان اسمع ياسيدي أنك كتبت كتابا ضدي . وان هذا يشرفني ... عندما اوضحت شعرا او نقرا ، لماذا يقضي الكثيرون من الناس على حياتهم في هذا العالم الأفضل من جميع العوالم . وسأكون شاكرا لك كثيرا .

وأنا في انتظار مناقشاتك ومحاوراتك ، وشعرك وذمك وشمك . واؤكد لك من اعماق قلبي ، اننا كلانا لانعرف شيئا عن المسئلة .

لقد مزق الاضطهاد وخيبة الأمل ايمانه بالحياة . كما ان تجاربه في برلين وفرانكفورت قضت على حدة حماسه وتحطم ايمانه وحماسه الأكثر عندما جاءت الاخبار في نوفمبر عام ١٧٥٥ عن وقوع زلزال مخيف في لشبونة ذهب ضحيته ثلاثون الفا من السكان . لقد وقع هذا الزلزال في يوم القديسين ، وامتلأت الكنائس بالمصلين . لقد تأثر فولتير تأثرا بالغا ، واحتدم غضبا عندما سمع أن رجال الدين الفرنسيين اعتبروا هذه الكارثة التي نزلت بسكان لشبونة عقابا لهم على خطاياهم وذنوبهم . وانفجر فولتير ونظم شعرا مؤثرا عبر فيه تعبيرا عنيفاعن هذه المعضلة القديمة .

أنا جزء صغير من الكل الكبير
نعم ، لقد حكم على جميع الحيوانات بالحياة
لقد ولدت جميع المخلوقات بمقتضى القانون ذاته
وهي تتألم مثلي ومثلي تموت
يشد الصقر على فريسته الوجلة
ويطعن بمنسره الدامي اطرافها المرتعشة
ويبدو كل شيء على ما يرام في عينيه لفترة
ويمزق النسر الصقر الى قطع شر تمزيق
ويرشق الانسان النسر بنباله ويقتله
ويسقط الانسان في غبار معارك الحروب
ويختلط دمه بدماء القتلى من رفاقه
ويصبح بدوره طعاما للطيور الكاسرة

وهكذا كل شيء في هذا العالم يثن ويتألم
لقد ولد الجميع للعذاب والموت
ومن فوق هذه الفوضى الشاحبة ستقول
ينزل الشر بواحد لخير الجميع .
ما هو النعيم ! عندما تصرخ بصوت فان يرثى له كل شيء حسن .
ان الكون يناقضك ، ويناقض قلبك
ويدحض مئة مرة اوهام عقلك
ما هو رأي هذا العقل الأوسع ؟
صمتا ، ان كتاب القدر مغلق علينا
ان الانسان غريب في بحثه ولا يعرف من اين يجيء والى اين يذهب .
ذرات معذبة في فراش من طين يتلعمها الموت ، سخرية القدر
ان وجودنا مزوج باللانهاثي ولن نرى انفسنا او نعرفها ابدا .
ان هذا العالم مسرح للكبرياء والخطأ يعج بالمجانين المرضى الذين
يتحدثون عن السعادة .

لقد غنيت مرة بانغام اقل كتابة وحزنا بان السرور المشرق هو الحكم
العام ولكن الوقت قد تغير
وعلمي تقدم العمر ان اشارك الناس في انكسارهم وابحث عن ضوء
وسط الظلام العميق .
لا اقدر الا ان اقا سي ولن اتدمر أو أتضجر .

وبعد اشهر قليلة اشتعلت حرب السبع سنوات ، واعتبرها فولتير
جنونا وانتحارا وتدميراً لأوروبا سواء فازت فرنسا او بريطانيا ببضعة فدادين

من الأراضي الثلجية في كندا . لقد رد جين جاك روسو على قصيدة فولتير عن لشبونة ، ووضع روسو اللوم في هذه الكارثة التي نزلت بلشبونة على الناس ، بقوله ، لو عشنا في الحقول خارج المدن ولم نعش في المدن ، لما بلغت الخسارة في القتلى الى هذه النسبة العالية ، ولو كنا نعيش تحت السماء ، لا في البيوت ، لما سقطت البيوت علينا ، لقد اثارَت الشعبية التي استقبلها مقال روسو الدهشة في فولتير ، وثار على تمریح اسمه بالتراب من جانب هذا المغامر ، وادار على روسو سلاح السخرية الخفيف الذي لم يحاره في استخدامه انسان ابدا . وفي ثلاثة ايام في عام ١٧٥١ كتب كتابه كنديد :

لانجد كاتبا يناقش التشاؤم بسرور وحبور مثل فولتير في هذه القصة . ولا نجد انسانا يضحك من اعماق قلبه على الرغم من معرفته بأن هذا العالم عذاب وألم ، ومن النادر ان نجد قصة بمثل هذا الفن البسيط الممتع . لقد كتبها بسرعة ، ولكن القلم يجري ويضحك بين اصابع فولتير كما يقول اناطول فرانس . قد تكون اجمل قصة في الادب كله .

ان كنديد كما يدل اسمه عليه شاب بسيط وامين وهو ابن بارون عظيم وتلميذ العالم بانجلوس .

كان بانجلوس استاذا في الميتافيزيقا واللاهوت والكون ... وقال ان من الممكن اثبات ان كل شيء وجد من اجل افضل غاية . لاحظ ان الأنف قد شكل ليحمل النظارة .. والسيقان قد وضعت بشكل واضح من اجل الجوارب ، والحجارة لبناء القصور .. والحنازير لنا كل لحمها طيلة السنة ، وبناء على ذلك فان اولئك الذين يؤكدون ان الككل حسن يقولون قولاسخيفا وكان الواجب ان يقولوا ان الككل للاحسن .

وبينا كان الاستاذ بانجلوس يتحدث ، هاجم جنود الجيش الهنغاري

التصر والقوا القبض على كنديد وجعلوا منه جنديا . وعلوه كيف يدور يمينا ويسارا ، ويسحب البندقية ويعيدها الى مكانها ، ويستعد ويطلق النار ، ويسير . . وعزم في يوم جميل من ايام الربيع على المشى ، فانطلق ماشيا الى الامام معتقدا ان من حق الناس والحيوانات ايضا استعمال ارجلهم كما يحبون ، لقد تقدم فرسخين ، وادركه اربعة جنود اباطال طول كل واحد منهم ستة اقدام ، واثقوه وحملوه الى السجن ، وخبروه بين ان يجلده كل جندي في الغرفة ستا وثلاثين جلدة ، او يتلقى مرة واحدة رصاصتين في رأسه ، وحاول عبثا ان يقنعهم بحرية ارادة الانسان ، وانه لا يريد ان يختار لاهذا ولا ذاك ، واجبر على الاختيار ، وعزم بموجب هبة الله التي تسمى الحرية ، ان يتلقى من الجلد ستا وثلاثين جلدة . وتحمل هذا الجلد مرتين .

وهرب كنديد وسافر الى لشبونه بحرا ، وتقابل على السفينة مع الاستاذ بانجلوس ، الذي حدثه عن قتل البارون والبارونة وتدمير القصر ، وانهى حديثه بقوله كل هذا لامفر منه لأن مصائب البعض لخير الجميع والكل . وكما زادت مصائب البعض الخاصة كان ذلك لمنفعة الكل العامة . ووصلوا الى لشبونه في الوقت الذي حدث فيه الزلزال تماما . وبعد انتهاء الزلزال راحوا يتحدثون عما اصابهم من مخاطر وعناء . واخذت خادمة عجوز تؤكدهم ان مصائبهم لاتقارن بمصائبها . فائلة لهم : لقد اوشكت على قتل نفسي مئة مرة ، ولكنني احببت الحياة ، قد تكون هذه النقيصة المضحكة ، احدي صفاتنا المينة . اذ هل هناك شيء اكثر سخافة من ان ترغب في حمل عبء متواصل يمكن الانسان ان يلقيه عن ظهره دائما ؟ او بعبارة اوضح ، فان جميع الناس يعتبرون حياة الملاح افضل من حياة قاضي القضاة ، ولكنني اعتقد ان الفرق تافه ولا يستحق مشقة الفحص .

ويهرب كنديد من محاكم التفتيش الى براغواي ، هنالك يملك الآباء
اليسوعيون كل شيء ، والشعب لا يملك شيئاً . ويأتي الى مستعمرة هولندية، ويجد
عبدا زنجيا بيد واحدة ، ورجل واحدة ، وقطعة بالية من القماش يستر بها
جسده ، فشكى له العبد بقوله عندما نشتغل في قصب السكر وعلقت اصبع من
اصابعنا في طاحونة القصب يقطعون يدينا ، وعندما نحاول الهرب يقطعون
رجلنا ... هذا هو الثمن الذي تأكلون به السكر في اوروبا . لقد وجد كنديد
الكثير من الذهب الذي لم يكتشفه احد في الداخل ، وعاد الى الساحل واستأجر
مركبا ليأخذه الى فرنسا ، ولكن ربان السفينة اجر بالذهب وترك كنديد
يفكر ويتفلسف على شاطئ المرفأ . واشترى كنديد بالقليل الذي تبقى معه
تذكرة على سفينة متجهة الى باردو ، وبدأ حديثه مع عالم مسن ،
يدعى مارتين .

هل تعتقد ، قال كنديد ، ان الناس كانوا يذبحون بعضهم بعضا دائما كما
يفعلون اليوم وبأنهم كانوا دائما كذبة ، مخادعين ، خونة ، ناكرين جاحدين ،
قاطعي طريق ، حمقى ، لصوصا ، سفلة ، شرهين ، سكيرين ، بخلاء ، حسودين ،
طموحين ، سفاكي دماء ، مفترين ، فاسقين ، متعصبين ، منافقين ومجانين ؟ .
فأجاب مارتين ، هل تعتقد ان الصقور كانت تفترس الحمام دائما حيث وجدته ؟
بلا شك قال كنديد .

حسنا اذن قال مارتين ، اذا كانت الصقور لم تغير من طباعها ، لماذا
تتصور الناس قد غيروا من طباعهم ؟ .

آه قال كنديد ، هناك فرق كبير شاسع ، لحرية الارادة ، وهنا
وصلوا الى باردو .

اننا لانستطيع ان نتبع كنديد الى بقية مغامراته التي تشكل تعليقا

مبسّطاً حول لاهوت العصور الوسطى وتفاؤل ليبنتز . وبعد ان تعرض كنديد الى ضروب مختلفة من الشرور على ايدي رجال كثيرين سكن في تركيا واشتغل مزارعا وتنتهي القصة بحوار اخير بين الاستاذ والتلميذ .

كان بانجلوس يقول احيانا الى كنديد :

يوجد ارتباط بين الحوادث في هذا العالم الذي هو افضل العوالم لأنك لو لم تطرد من القصر العظيم ... ولو لم تطاردك محاكم التفتيش ، ولو لم تسافر الى امريكا ... ولو لم تفقد كل ذهبك ، لما كنت هنا تأكل هذا النارج المحفوظ والفتق الحلبي .
كل هذا حسن قال كنديد ، ولكن دعنا نزرع حديقتنا .



٧ - الموسوعة والقاموس الفلسفي

ان الشعبية التي استقبل بها هذا الكتاب الجريء « كنديد » تعطينا فكرة عن روح العصر ، عن الحضارة العظيمة في عهد لويس الرابع عشر . لقد علم الناس ان ينتسموا في وجه العقائد والتقاليد . ان فشل الاصلاح الديني في اكتساح فرنسا لم يترك امام الفرنسيين طريقا وسطا بين الكفر والايان وبين الخطأ والعصمة عن الخطأ . وفي الوقت الذي كان فيه الفكر في المانيا وانجلترا يتحرك براحة في خطوط التطور الديني كان العقل الفرنسي يقفز من الايمان الحار الذي ادى الى ذبح البروتستانت الى العداء البارد الذي انقلب فيه لامتر وهلفيتوس وهولباخ وديدرو على ديانة اباؤهم . دعنا ننظر قليلا الى البيئة الفكرية التي تحرك فيها فولتير في المدة الاخيرة وعاش فيها .

كان لامتر (١٧٠٩ - ٥١) طبيبا في الجيش . لقد فقد وظيفته لانه كتب كتابا اطلق عليه اسم « تاريخ النفس الطبيعي » ونفي من فرنسا بسبب رسالة اطلق عليها اسم « الانسان آلة » ولجا الى بلاط الملك فردريك ، الذي كان نفسه مفكراً متقدماً وعزم على الاحاطة بالثقافة الاخيرة في باريس . لقد تناول لامتر فكرة الآلية التي تخلى عنها ديكارث الوجمل ، كولد احرق

اصابعه . واعلن بشجاعة ان كل العالم بما في ذلك الانسان عبارة عن آلة ،
 والنفس مادة ، والمادة نفسانية ، ولكن مهيا كانتا فان الواحدة تؤثر على
 الاخرى وتعمل فيها ، وتنموان وتفنيان مع بعضها بطريقة لا تترك سكا في
 تشابهها الضروري واعتمادها المتبادل . اذا كانت النفس روحاً محضة ، كيف
 تستطيع الحماسة ان تدفئ الجسم ، او ان تعكر حمى الجسم عملية
 الفكر ؟ جميع الاجسام الحية تطورت من نطفة اصلية خلال العمل المتبادل
 للجسم والبيئة . والسبب في ان للحيوانات عقلاً ، والنباتات ليس فيها عقل ،
 هو ان الحيوانات تتحرك للحصول على طعامها ، بينما تستمد النباتات ما يأتي لها .
 والانسان يمتاز بالعقل والذكاء الاعظم لأن لديه اعظم الرغبات ، واوسع
 التحركات . ان الكائنات المجردة من الرغبات كائنات بلا عقول ايضا . وعلى
 الرغم من ابعاد لامتر ونفيه بسبب ارائه هذه ، فقد تناول هلفيتوس (١٧١٥ -
 ٧١) اراء لامتر كقاعدة لكتابه عن الانسان ، واصبح واحداً من اغنى
 الاغنياء في فرنسا ، وارتفع الى مقام الشرف والمركز العالي . هنا نجد في هلفيتوس
 اخلاق الاحاد ، كما وجدنا في لامتر ميثافيزيقا الاحاد . فهو يقول ان
 جميع الاعمال تملها الانانية الذاتية أي حب النفس ، وحق البطل يتبع الشعور
 الذي يرتبط مع اللذة الكبرى فيه ، والفضيلة هي الانانية مزودة بنظارة والضمير .
 ليس صوت الله ولكنه الخوف من الشرطة . انه الرواسب الباقية في داخلنا من
 سيل المهرمات والمنوعات التي تنصب على نفوسنا النامية من ابائنا ومعلمينا
 وصحفنا وكتبنا . يجب ان لا تقوم الاخلاق على الدين واللاهوت بل على علم الاجتماع
 كما ان حاجات المجتمع المتغيرة ، لا وحي العقيدة الثابتة التي لا تتغير ، هي التي
 ينبغي ان تقرر الخير .

ان اعظم شخصية بين هذه الجماعة هو دينيس ديدرو (١٧١٣ - ٨٤)

لقد عبر عن ارائه في كتابات متنوعة جرى بها قلمه ، وفي كتاب «نظام الطبيعة» لبارون هولباخ (١٧٢٣ - ١٨٩) الذي كان سالونه مركز نشاط ديدرو وجماعته يقول هولباخ ، اذا عدنا الى البداية نجد ان الآلهة قد وجدت في نفوس الناس بسبب الخوف والجهل او بعبارة اوضح ، فان الجهل والخوف بين الناس هما مصدر تصور الناس بوجود آلهة . وان الوهم والخيال والحماسة ، والخسداع زينتها او شوحتها . والضعف عندها ، والتصديق والتسليم وسلامة النية حافظت عليها ، والعرف يحترمها ويقرها ، وحكم الطاغية يؤيدها كي يستخدم عمى الناس وغفلتهم لمنافعه ويسخرهم امصالحه . ويقول ديدرو ان الايمان بالله مرتبط بالتسليم بحكم الفرد او الحكم المطلق ، كلاهما ينهضان ويسةطان معاً ، ولن يتحرر الناس اطلاقاً الى ان يشنق آخر ملك بأمعاء ومصارين آخر قسيس . وتضحو الأرض على نفسها عند تدمير السماء ، وقد تكون المادية تسهلاً كبيراً للعالم وقد تكون كل انواع المادة حية بالفريزة ، ومن المستحيل تقليل وحدة الوعي والشعور للمادة والحركة ، ولكن المادية سلاح ماض ضد الكنيسة ، ويجب ان نستخدمها الى ان نجد شيئاً افضل منها . وفي الوقت ذاته يجب على الانسان ان يعمل على نشر المعرفة وتشجيع الصناعة ، اذ ان الصناعة ستحقق السلام ، والمعرفة ستخلق اخلاقاً طبيعية جديدة .

هذه هي الآراء التي اجتهد ديدرو والعالم الرياضي دلامبرت في بذور بذورها ونشرها في الموسوعة الكبيرة التي اصداهاها جزءاً فجزءاً من عام ١٧٥٢ - ١٧٧٢ . لقد اوقفت الكنيسة الاجزاء الاولى ، وعندما زادت المعارضة ، تخلى اصداق ديدرو عنه ، ولكنه واصل عمله بنشاط وحيوية يدفعه غضبه وسخطه ، وقال « انا لا اعرف شيئاً فاحشاً وشائناً ، اكثر من تخمس رجال الدين ضد العقل ، والذي يسموهم يفترض ان الناس لا يمكنهم ان يدخلوا الى

صدر المسيحية الا كما يدخل قطيع الماشية الى حظيرته . . . لقد كان ذلك العصر عصر العقل كما قال «بين» ، ان هؤلاء الرجال لم يرتابوا ابدا بان العقل هو الامتحان البشري النهائي لكل انواع الحقيقة والخير . لقد قالوا دع العقل ينطلق ويتحرر وسيقوم ببناء حياة مثالية فاضلة في اجيال قليلة . لم يخطر على بال ديدرو بان جان جاك روسو الشهواني العصبي الذي قدمه الى رجال الفكر في باريس كان يحمل في عقله او في قلبه بذور الثورة ضد تنويج العقل . وهى ثورة كانت تسلحها وتدعمها آراء « عمانويل كانت » الغامضة التي سرعان ما استولت على كل قلعة من قلاع الفلسفة .

ومن الطبيعي ان يحيط هؤلاء الملحدون الذين تعاونوا على وضع الموسوعة التي ذكرناها ، بفولتير الذي كان مهتما بكل شيء وله يد في كل معركة ، وكانوا سعداء في اعتباره زعيما لهم ، ولم يرفض البخور الذي احرقوه حوله والعطر الذي رشوه فوق رأسه ، على الرغم من ان افكارهم كانت في حاجة الى شيء من التشذيب والتهديب . وطلبوا منه ان يكتب مقالات لمشروعهم العظيم ، واستجاب لرغبتهم بسهولة وخصوبة اثلجت صدورهم واطربت نفوسهم . وعندما فرغ من مقالاتهم قام باصدار موسوعة خاصة به اطلق عليها اسم القاموس الفلسفي . تناول فيها بجرأة لامثيل لها الموضوع تلو الموضوع حسب الترتيب اليجدي . وصب في كل موضوع جزءا من معرفته وحكمته التي لا تنضب ولا تكمل . تصور رجلا واحدا يكتب عن كل شيء وينتج موسوعة علمية تعتبر من اعظم انتاجه روعة واكثرها قراءة يجانب رواياته . كل مقال فيها نموذج في الاختصار والوضوح والذكاء ، قد يطيل البعض في كتابة كتاب واحد ، ولكن فولتير محكم ومختصر في المئة كتاب التي وضعها . وهنا على الاقل يثبت لنا فولتير بأنه فيلسوف .

فهو يبدأ مثل بيكون ، وديكارت ، ولوك وجميع الفلاسفة المحذنين بالشك . ويقول « لقد اتخذت لي مرشداً ومثلاً اعلى القديس توما ديديموس الذي اصر دائماً على الفحص والتجربة بيديه . » ويشكر بايل الذي علمه الشك ، وهو يرفض جميع النظم « ويظن ان رئيس كل مذهب من مذاهب الفلسفة كان دجالاً نوعاً ما » ويقول كلما سرت اكثر ، كلما زادت اقتناعي بفكرة ان الميتافيزيقا بالنسبة الى الفلاسفة كالقصص بالنسبة الى النساء . ان الدجالين ، والمشعوذين هم الذين على يقين وحدهم . نحن لانعرف شيئاً عن العلة الاولى ، والحقيقة انه من المغالاة والتطرف تعريف الله والملائكة والعقول ، وان نعرف بدقة لماذا خلق الله العالم ، في الوقت الذي لانعرف فيه لماذا نحرك اذرعنا بارادتنا . ان الشك ليس حالة مناسبة او موافقة ، ولكن اليقين حالة سخيصة ومضحكة ، انا لا اعرف كيف وجدت ، وكيف خلقت ، وكيف ولدت ، انا لا اعرف شيئاً اطلاقاً طيلة خمس وعشرين سنة اسباب ما رأيت وسمعت وشعرت ... لقد رأيت ما يسمى بالمادة ، سواء أكانت في نجم كلب الجبار او في اصغر ذرة يمكن ادراكها بالمجهر ، ولا اعرف حقيقة هذه المادة .

وهو يتحدث عن قصة « الكاهن البرهمي الصالح » الذي تمنى « لو لم يولد ابداً ! » .

فسألته : لم لا ؟

فأجاب ، « لأنني قضيت اربعين سنة في الدراسة وخسارة الوقت ... اعتقد انني مركب من المادة ، ولكنني لم اقدر على اقتناع نفسي بحقيقة ذلك الذي يولد الفكر » كما اني جاهل تماماً فيما اذا كان تفكيري مقدرة بسيطة كمقدرتي على المشي والهضم او اذا كنت افكر برأسي بنفس الطريقة

التي امسك بها شيئاً بيدي ... اني اتحدث كثيرا وعندما اتحدث ابقى مبلبلا
مخجولا بما قلت .»

لقد تحدثت في نفس اليوم مع امرأة عجوز تعيش بجوار ذلك البرهمي
الصالح ، وسألتهما فيما اذا كانت مغمومة ومكتئبة لعدم فهمها لكيفية خلق
نفسها ؟ ولم تدرك حتى سؤالي ، وقالت بعد ذلك انها لم تفكر في مثل هذه
الاشياء التي يعذب فيها البرهمي الصالح نفسه ، وانها لم تفكر فيها لحظة واحدة .
انها تعتقد اعتقادا راسخا من اعماق قلبها في تغير اله الهندوس ، وقسالت
انها جاءت بقليل من ماء النهر المقدس لتتوضأ به ، وتعتقد انها اسعد
امرأة ، وبعد ان تأثرت بسعادة هذه المرأة الفقيرة عدت الى فيلسوفي
وقلت له .

الا تشعر بالحجل من شقائك وبؤسك ، بينما تعيش امرأة على بعد
خمسين يارده منك لاتفكر بشيء وتعيش راضية ؟ . واجابني بقوله « انك
على حق لقد قلت لنفسك الف مرة بانني لو كنت رجلا جاهلا كجارتني
العجوز لكنت سعيدا ، ومع ذلك فان مثل هذه السعادة لا اريدها ولا
ارغب فيها . »

لقد ترك جواب البرهمي اعظم الاثر في نفسي اكثر من اي شيء
آخر مضى .

حتى ولو انتهت الفلسفة بشك تام مثل شك مونتاني ، فانها أنبسل
شيء في الانسان واعظم تجربة له . ولنقنع بتقدم معتدل في المعرفة ، بدلا من
ان نحيك انظمة جديدة من وهمنا الكاذب .

يجب الا نقول ، لنبدأ بابتكار المبادئ ، وبذلك قد نقتد على تفسير

كل شيء ، بل يجب ان نقول :

لنقم بتحليل تام للمادة ، وبعدئذ نحاول ان نرى بتحسب اكثر ، هل
تتناسب مع اي مبدأ ... لقد اوضح لنا سيكون الطريق الذي ينبغي ان
يسير فيه العلم ... ولكن جاء ديكارت وفعل عكس ما كان ينبغي ان يفعل ،
اذ انه بدلا من ان يدرس الطبيعة اخذ يقدها ... ينبغي علينا ان نحسب ،
ونزن ونقيس ونلاحظ ، هذه هي الفلسفة الطبيعية ، وكل ما تبقى فهو
وهم وخيال .



٨ - اسحقوا العار :

من المحتمل ان لا يخرج فولتير عن هذا الشك الفلسفي الى المناقشات والمجادلات المتعبة في سنواته الأخيرة لو كانت الظروف التي واجهته في هذه السنوات الأخيرة ظروفًا عادية .

لقد وافقت الدوائر الارستقراطية التي حركها على وجهة نظره القائلة بعدم وجود حافز على المناقشة . وحتى القساوسة ابتسموا معه حول مصاعب الايمان . ما هي الاحداث التي حولته من مجرد السخرية المهدبة من مذهب اللادارية الى عدو مرير ضد رجال الدين لا يقبل المهادنة فراح يشن حرباً لا هوادة فيها على رجال الدين .

كانت طولوز لا تبعد كثيراً عن فيرني التي يعيش فيها فولتير ، وكانت في ذلك الوقت المدينة الفرنسية السابعة ، وكان رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بسلطة مطلقة في هذه المدينة في ايام فولتير ، لا يسمح لاي بروتستانت في طولوز بأن يكون محامياً أو طبيباً ، صيدلياً او بقالاً ، او بائع كتب ، او طباعاً . ومنع الكاثوليك من استخدام أي خادم او كاتب بروتستانت في عام ١٧٤٨ حكم على امرأة بغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك لأنها استعانت بقابلة بروتستانتية . وحدث ان كان يعيش في طولوز رجل بروتستانت يدعى جان كالاس ،

وكانت له ابنة تحولت الى المذهب الكاثوليكي ، وولد شقيق نفسه ، بسبب فشله في الحصول على عمل على ما نظن . وكان القانون في طولوز يقضي بأن يوضع جثمان المنتحر عاريا على حاجز من العيدان المشبكة ووجهه الى الاسفل ، ويسحب بهذه الطريقة عبر الشوارع وبعدئذ يعلق على المشنقة . ولكي يتجنب الأب وقوع هذا طلب من اقاربه واصدقائه ان يشهدوا على ان ولده توفي وفاة طبيعية ولم ينتحر . وعلى اثر ذلك انتشرت اشاعة بأن الوالد قتل ابنه ليمنعه من التحول الى المذهب الكاثوليكي . والقي القبض على الاب وبدأوا في تعذيبه ومات بسرعة على اثر التعذيب (١٧٦١) وتداعت عائلته ، وأمام المطاردة هربت الى فيرني وطلبت مساعدة فولتير . واستقبلهم فولتير في بيته وواسى جراحهم واثارت دهشته واشمئزازه قصة مطاردتهم وتعقبهم .

وفي الوقت ذاته تقريبا جاءت اخبار مصرع اليزابيت سيرفينس ، وانتشرت الاشاعة مرة ثانية انها دفعت الى بئر وهي في طريقها لتعلن تحولها من البروتستانتية الى الكاثوليكية . واعتقل شاب صغير في السادسة عشرة من عمره على اثر هذه الاشاعة في عام ١٧٦٥ ، يدعى لبار ، بتهمة تشويه الصليب وعليه صورة المسيح وانزل به العذاب ، واعترف بذنبه ، فقطع رأسه . وقذف بجسمه الى النار ، وسط هتاف الجماهير وتصفيقها ، واحترقت معه نسخة من كتاب القاموس الفلسفي لفولتير وجدت في حوزته .

وهنا يتحول فولتير لأول مرة في حياته من الهزل الى الجد ، وعندما ابدى دلامبرت اشمئزازه من الدولة والكنيسة والشعب وكتب بأنه سيسخر من كل شيء ، اجابه فولتير ، بقوله ، ليس هذا وقت التهكم والسخرية ، ان الفطنة والسخرية لا تتفقان مع المجازر والقتل ... هل هذه البلاد موطن الفلسفة والسعادة ؟ كلا ، انها بلاد المجازر والقتل ... لقد حدث مع فولتير الآن ،

ما حدث مع اميل زولا واناتول فرانس في قضية دريفوس ، لقد اثاره هذا الظلم والطغيان ، واحاله من كاتب رسائل وكتب الى رجل اعمال ايضا . ووضع الفلسفة جانبا واستعد للحرب ، او بالاحرى وجه فلسفته الى قوة دافعة عنيفة لا ترحم . وغادرت الابتسامة وجهه كما يقول « كل ابتسامة افلتت مني رغم ارادتي في ذلك الوقت كانت تثير في نفسي التبكيت وكأنها جريمة ارتكبتها . » وهذا تبني شعاره المشهور « اسحقوا العار . » وحرك ررح فرنسا ضد مظالم الكنيسة . لقد بدأ يصب نارا فكرية ادت الى تحطيم الرهبانية في فرنسا ، وساعدت في قلب العرش . لقد ارسل دعوة الى اصدقائه واتباعه يدعوهم الى المعركة . « وحدوا انفسكم واقهروا التعصب والأوغاد ، واقضوا على الخطب المضلة والسفسطة الخزية والتاريخ الكاذب ، ... لا تتركوا الجهل يخضع العلم ، سيدين لنا الجيل الجديد بعقله وحريته . »

لقد حاولت الكنيسة في هذه الأزمة شراء ذمته ، وعرضت عليه قبعة كاردينال في محاولة الوصول الى تسوية وصلاح معه ، وكان منصب الكاردينال المعقود اللسان في ذلك الوقت سيثير اهتمام رجيل كانت له السيادة الفكرية في العالم بلا منازع . ورفض فولتير العرض ، ووقف رسائله التي كان يرسلها تحت شعار « اسحقوا العار » وبدأ في توزيع رسائله عن التسامح الديني ، وقال انه ما كان ليهتم بالعقيدة لو اقتصر رجال الدين على اقامة شعائهم ، وتسامحوا مع الذين يختلفون عنهم في المذهب ، ولكن موقفهم وتعصبهم الذي لا نجد له اثرا في الانجيل هو مصدر النزاع الدامي في التاريخ المسيحي ، « ان الانسان الذي يقول لي آمن كما او من والا فان الله سيعاقبك ، سيقول لي الآن آمن كما او من والا سأغتالك . » ان التعصب المقرون بالخرافات والجهل كان اساس البلاء في جميع القرون ، ولن يتحقق السلام الدائم ، ما لم يتسامح الناس مع بعضهم

ويتعلم كل واحد منهم كيف يتسامح مع من يخالفه في الامور الفلسفية والسياسة والدينية . ان القضاء على السلطة الكهنوتية التي تعيش في ارضها جذور التعصب هو الخطوة الاولى في بناء مجتمع سليم .

لقد اتبع فولتير رسالته عن التسامح الديني سيلا من المنشورات التاريخية ، والمحاورات والرسائل والتعاليم الدينية التي بسطها عن طريق السؤال والجواب ، والخطب التشهيرية والهجو والتقريع والمواعظ والشعر والحكايات والقصص والتعليقات والمقالات التي كانت تحمل اسم فولتير ومئات الاسماء الاخرى المستعارة . وهذا العمري اعظم حملة من الدعاية الواسعة التي يقوم بها رجل واحد . لم تقم الفلسفة ابدا بمثل هذه الدعوة الواضحة والحيوية المتدفقة . لقد حلق فولتير ياسلوبه لدرجة تجعل الانسان لا يشعر بانه كان يكتب فلسفة . لقد قال عن نفسه باعتدال كبير ، اني اعبر عن آرائي بوضوح كاف ، وانا كالجدول الصغير الشفاف ترى ما في قاعة لقلة عمقه . لقد قرأ له عدد كبير من القراء وحتى رجال الدين كانوا يقرأون منشوراته التي بلغ عدد بعضها ثلثمائة الف نسخة بيعت كلها على الرغم من ان عدد القراء كان اقل بقليل من عددهم الآن .

لا نرى شبيها لها في تاريخ الادب اطلاقا . لقد كان يقول ان الكتب الكبيرة مضى عهدها ، وهكذا فقد ارسل رسائله الصغيرة التي كانت بمثابة الجنود تباعا اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر بهمة لا تعرف الكلل ، مثيرا دهشة العالم بغزارة افكاره وخصوبة آرائه ، وحيوية اعوامه السبعين . قال هلفيتوس لقد اجتاز فولتير نهر الريبكون ووقف على ابواب روما .

بدأ بتوجيه نقد عنيف حول صحة الانجيل والوثوق به . لقد استمد الكثير

من كتاباته من سينوزا ومن مذهب الايمان بالله وحده وانكار الوحي والانظمة الدينية وهو مذهب انجليزي ، ولكنه استمد معظم افكاره من قاموس بايل الانتقادي . (١٦٤٧ - ١٧٠٦) ولكنه احال هذه الافكار بقلمه الى نور و نار . وكان عنوان احدى هذه الرسائل « اسئلة زاباتا » وهو مرشح للرهبانية . يتساءل زباتا ببراءة بقوله « كيف نشرع في اثبات ان اليهود الذين تحرق منهم المثقات كانوا شعب الله المختار طيلة اربعة آلاف سنة ؟ ويواصل الاسئلة التي تظهر التناقض الروائي والتسلسل التاريخي في التوراة . »

« عندما يلعن مجلسان احدهما الآخر كما يحدث دائماً ، اي مجلس منها هو المعصوم عن الخطأ » وعندما فشل زباتا في الحصول على اي جواب ، اخذ يدعو الى الله بشكل بسيط جداً . واعلن الى الناس عن الأب المشترك ، المجزي ، المعاقب ، الغفور . وانتشل الحقائق من الاكاذيب وفصل الدين عن التعصب ، ودعا الى الفضيلة وعمل بها ، لقد كان لطيفاً ومعتدلاً ورفيقاً وأحرق في عام الخير في ١٦٣١ .

يظهر لنا فولتير كيف ان كل الشعوب القديمة كانت تؤمن بخرافات واساطير وينتهي الى القول بأن هذه الخرافات والاساطير من صنع وابتكار القساوسة والكهنة . « لقد كان اول كاهن أول محتال يقابل اول احمق » على كل حال ان فولتير لم ينسب الدين نفسه الى الكهنة والقساوسة ، ولكنه نسب لهم علم اللاهوت ، ان الخلافات البسيطة في علم اللاهوت هي التي سببت هذا النزاع المرير والحروب الدينية ، ليس الشعب البسيط العادي ... الذي اثار هذه الخلافات السخيفة المميتة مصدر الخوف والرعب الشديد ... انهم الكهنة الذين يعيشون على كدكم وتعيبكم في راحة وكسل ؛ ويثرون على حساب كدحكم وبؤسكم . ويتنافسون على شراء الذمم واقتناء العبيد ويوحون لكم بالتعصب المذموم ،

ليتمكنوا من سيادتكم والسيطرة عليكم ، وينشرون بينكم الخرافات والأساطير
لا لتخافوا من الله بل لتخافوهم وترهبوهم .

ولكن يجب الا نفترض من هذا ان فولتير كان رجلاً بلا دين . فقد رفض
الاحاد رفضاً باتاً ، حتى ان بعض الملحدين الذين اشتركوا في كتابة الموسوعة التي
تحدثنا عنها اتجهوا ضده ، وهو يقول في كتابه الفيلسوف الجاهل ، انه قرأ
سبينوزا واراؤه حول وحدة الكون وتأليهه ولكنه ابتعد عنها على اساس
كونها اراء ملحدة . وهو يكتب الى ديدرو بقوله :

اعترف بأذني لا اوافق ساندرسون الذي انكر الله لأنه ولد فاقد البصر ،
وقد اكون على خطأ ولكني لو كنت في مكانه لاعترفت بوجود عقل كبير
عوضني الكثير عن فقدان بصري كالعقل والادراك والتأمل والعلاقات العجيبة
التي تربط جميع الاشياء . وانا مشتاق جدا لرؤيتك والتحدث معك معها كنت .
فأنت جزء هام من ذلك الكل العظيم الذي لا افهمه .

ويشير الى هولباخ بان عنوان كتابه ذاته « نظام الطبيعة » يدل على عقل
منظم مقدس هو الله ، وهو من جهة اخرى ينكر بشدة المعجزات وتأثير
الصلاة .

« لقد كنت أقف امام دير للراهبات عندما قالت الأخت فوسي الى
الاخت كونفيت : « ان الله يولي عنيته ويحيطني برعايته ، فانت تعرفين
انني احب عصفوري كثيراً ، وكان سيموت لولا اني صليت صلاة العذراء تسع
مرات اطلب فيها شفاءه » ..

وقال لها عالم ميتافيزيقي « يا اختاه ، لا شيء افضل من صلاة العذراء
وخصوصاً عندما تقرأ ما فتاة باللغة اللاتينية في ضواحي باريس ، ولكني لا

ان صدق أن الله منهمك ومشغول لهذه الدرجة بعصفورك على رغم كونه عصفوراً جميلاً ، وارجو ان تعتقدي بان لدى الله اموراً اخرى للقيام بها . . . فأجابت الأخت فوسي يا سيدي اني اتذوق في حديثك طعم الكفر والاحاد . وسيستدل الاب الذي اعترف له من قولك انك لا تؤمن بالله .

فقال العالم الميتافيزيقي ، « انني اعتقد بعناية الهية عامة يا اختي العزيزة وهي التي وضعت منذ الابدية القانون الذي يحكم جميع المخلوقات والاشياء كالضوء من الشمس ، ولكنني لا اعتقد ان عناية الهية خاصة ستغير من نظام انعام لاجل عصفورك . »

ويرى فوليتز ان الحظ يقرر كل شيء في حياة المخلوقات ، كما ان الصلاة الحقيقية ليست في طلب اختراق القانون الطبيعي ، ولكن في قبول القانون الطبيعي على اساس كونه ارادة الله الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل .

وهو بالمثل ينكر الارادة الحرة ، أما بالنسبة الى النفس فهو لا ادرى ويقول ان قراءة اربعة آلاف كتاب عن الميتافيزيقا لن تعلمنا ما هي النفس « لقد كان يجب ان يؤمن بالخلود أو الحياة الاخرى وخصوصاً في سن شيخوخته ولكنه وجدها مسألة صعبة .

« لا احد يفكر في اعطاء نفس خالدة للبرغوث ، فكيف يمكن اذن ان يكون هناك نفس خالدة للفيل او القرد او خادمي ؟ والجنين الذي يموت في رحم امه عندما تلبعث فيه روح ، هل سيبعث مرة ثانية جنيناً ، ام ولدأ ام رجلاً ؟ ولتبعث مرة ثانية ، وتكون نفس الشخص الذي كنت عليه ، ينبغي ان تكون ذاكرتك سليمة وحاضرة تماماً ، لأن الذاكرة هي التي تعطيك ذاتك فان ضاعت ذاكرتك ، كيف يمكنك ان تكون نفس الشخص ؟ . .

لماذا يمدح الناس انفسهم باعتقاد الخلود والابدية فيهم فقط ؟ .. ربما يعود هذا الى الافراط في زهوم والتطرف في غرورهم . انا على يقين تام من ان الطاووس لو استطاع ان يتكلم لرفع صوته متفاخراً بروحه وقال انها موجودة في ذيله البديع » .

وهو في اخلاقه المبكرة يرفض الاعتقاد بان الايمان بالابدية والخلود ضروري لتدعيم الاخلاق وتقويتها ويقول ان العبرانيين القدماء كانوا مجردين عن الاخلاق ، ومع ذلك كانوا يعتقدون بالابدية وبكونهم « شعب الله المختار » كما كان سبينوزا مثالا ونموذجاً للاخلاق على الرغم من الحاده .

ولكنه غير رأيه في الايام الاخيرة ، واصبح يعتقد بان الايمان بالله ليست له قيمة اخلاقية كبيرة ما لم يكن مقروناً بالايمان بالخلود والثواب والعقاب . وقد يكون الثواب والعقاب امرين ضروريين بالنسبة الى عامة الشعب ، كضرورة الايمان بالله منعم ومنتقم . وعندما سأله بايل ، هل من الممكن لمجتمع من الملحدون ان يستمر ، اجابه فولتير « نعم ، اذا كان ابناء هذا المجتمع كلهم من الفلاسفة ، ولكن من النادر ان يكون كل الناس فلاسفة . ولا بد للبلد ليكون صالحاً ان يكون له دين . اريد من زوجتي وخطاطي ومحامي ان يؤمنوا بالله وبذلك يقل غشهم وسرقاتهم لي . واذا كان لا وجود لله يجب علينا ان نخترع لها ، لقد بدأت اعلق اهمية اكثر على السعادة والحياة من الحقيقة . » لقد دافع عن نفسه برقة ضد اصدقائه الملحدون ووجه كلامه الى هولباخ في مقال له عن الله في القاموس الفلسفي بقوله :

« لقد قلت انت نفسك ان الايمان بالله ... قد ساعد في ابعاد بعض الناس عن ارتكاب الجرائم ، ان هذا وحده يكفيني ، فاذا كان هذا الايمان

يمنع من وقوع عشرة اغتيالات وعشر وشايات ، فانه يجعلني اتمسك بان يؤمن كل العالم بهذا الدين ، انك تقول ان الدين قد سبب ايضاً في كوارث لا حصر لها وكان الاجدر بك ان تقول الخرافات الدخيلة على الدين التي تتحكم في عالمنا البائس . هذه الخرافات والاساطير هي اقصى عدو لنا يصرفنا عن عبادة الله عبادة خالصة تليق به . دعنا نقت شبح الخرافات التي ادخلت على الديانات فشوهتها . واولئك الذين يجاربون الخرافات هم اصحاب الفضل في الجنس البشري . ان هذه الخرافات ثعبان يهز الدين في حضنه ، ويجب علينا سحق رأسه من غير ان نجرح الأم التي تطعمه .

ان التفريق بين الخرافات والدين امر أساسي بالنسبة الى فولتير . وهو يضيف على المسيح الصفات السامية والعظيمة التي لا تضاهيها صفحات النشوة والغيوبة المقدسة . ويصور المسيح بين الحكماء يبكي على الجرائم التي ارتكبها الناس باسمه . وقام فولتير اخيراً ببناء كنيسة قال عنها انها الكنيسة الوحيدة التي بنيت في اوروبا لعبادة الله ، ويتجه الى الله بصلاة جلييلة وفي مقاله « المؤمن بالله » نجده يعبر اخيراً عن ايمانه بوضوح .

« ان المؤمن هو الانسان المقتنع بوجود اله قوى وصالح خلق جميع الاشياء والكائنات . وهو يعاقب من غير قسوة على كل الذنوب ، ويجزي بالخير على كل اعمال الفضيلة والخير . وهو لا ينضم الى اي مذهب من المذاهب المختلفة التي تناقض بعضها بعضاً . ان دين الله هو اقدم الاديان واكثرها اتساعاً ، لأن عبادة الله البسيطة سبقت جميع الانظمة في العالم . وهو يتكلم لغة يفهمها كل الناس ، بينما لا يفهم الناس بعضهم بعضاً . وهو صديق الحكماء . وليس الدين عنده ما جاء في المتيازيقا من اراء ، ولا المظاهر التافهة ، ولكن في العبادة والعدل . وعمل الخير هو عبادة الله ، والتسليم له هو شريعته . وهو يغيث الملهوف ويولي المعوز ويحمي المظلوم » .

٩ — فولتير وروسو

لقد انشغل فولتير في الكفاح ضد طغيان الكهنة ورجال الدين لدرجة اجبرته في السنوات الاخيرة من حياته على الانسحاب من الحرب ضد الظلم والفساد السياسي ، وهو يقول « ان السياسة ليست من شغلي ، لقد اوقفت نفسي دائماً على بذل جهدي المتواضع لاجعل من الناس اقل سخافة واكثر شرفاً . » وهو يعرف مدى ما تصل اليه الفلسفة السياسية من تعقيد . « لقد تعبت من هؤلاء الناس الذين يحكمون الدول من علباء قصورهم . هؤلاء المشرعون الذين يحكمون العالم ويعجزون عن حكم زوجاتهم او عائلاتهم ، ويتلذذون في تنظيم الكون . ان من المستحيل تسوية هذه المسائل كلها بإيجاد صيغة بسيطة وعامة ، او بتقسيم جميع الناس الى حمقى وخدم من جهة ، وحكام واسباب من جهة اخرى . ان الحقيقة ليست اسما يطلق على حزب . » .

ولكونه غنيا فقد كان موقفه محافظاً ، اذ لا شيء يدفع الانسان الى التغيير في الاوضاع السياسية اكثر من الجوع ، ويرى ان علاج الخلل الاجتماعي يكن في زيادة عدد الملاكين ، لان الملكية تكسب الانسان شخصية ، وترفع من كرامته ، ان روح التملك تضاعف من معنوية الانسان وقوته ، ومن المؤكد ان مالك الضيعة أقدر على تربية اولاده وتثقيفهم من الفقير المعدم .

وهو يرفض تبني اي نوع من انواع الحكومة ، ولكنه يميل نظرياً الى

النظام الجمهوري ، ويعرف عيوب هذا النظام الذي يجيز الانقسامات التي ان لم تؤد الى حرب اهلية على الاقل فانها تدمر وحدة الشعب . والنظام الجمهوري في نظره يتناسب مع الدول الصغيرة التي تحميها حدود جغرافية ، والتي لم تفسدها الثروة ويعتقد بصورة عامة ان الناس غير كفاء لحكم انفسهم . ان الجمهوريات سريمة الزوال ، وهي اول تشكيل للمجتمع الذي ينشأ من اتحاد العائلات . لقد عاش الهنود الحمر الامريكيون في جمهوريات قبلية . وافريقيا لا تزال مليئة بمثل هذه الديمقراطيات الجمهورية . ولكن التفريق والتمييز في الوضع الاقتصادي سيضع حداً لهذه الحكومات . والتفريق الاقتصادي مقرون دائماً بالتطور . وهو يتساءل ايها افضل الحكومة الملكية أم الحكومة الجمهورية ؟ ويقول لقد اثير هذا السؤال منذ اربعة آلاف سنة ، واذا سألت الاغنياء عن الجواب ، يجيبونك بأنهم يفضلون الحكومة الارستقراطية ، واذا سألت عامة الناس تجدهم يفضلون الديمقراطية ، والملوك وحدهم يفضلون الحكم الملكي . ولكن ما هو السبب في ان معظم شعوب العالم يحكمها ملوك ؟ اسأل الجردان التي اقترحت وضع جرس في رقبة القط ، الجواب على هذا السؤال . وعندما قال له احد المرسلين ان الحكومة الملكية هي افضل انواع الحكومات اجابه شريطة ان يكون ماركوس ارايوس (الملك الفيلسوف) هو الملك . اذ ما هو الفرق بالنسبة الى الرجل الفقير سواء اكله اسد او مئة من الجردان .

وهو ايضا لا يهتم بالقوميات كالرحال المسافر الذي لا يهتم غالباً بالشعور الوطني بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، ويرى فولتير ان الوطنية او القومية تعني ان يكره الانسان جميع البلدان الا بلده . فاذا احب الانسان بلده الخير والازدهار والرخاء ، ولكن لا على حساب البلدان الاخرى فهو وطني عاقل ومواطن عالمي . وكأوروبي صالح فقد اثنى على الادب الانجليزي واطرى على

ملك بروسيا في وقت كانت فيه فرنسا في حرب مع هاتين الدولتين. وما دامت الدول تحترف الحروب فليس لدينا الكثير من الاختيار بينها .

فقد كره فولتير الحرب اكثر من اي شيء آخر . « ان الحرب ام الجرائم واعظم الشرور . وكل دولة تحاول الباس جريمتها ثوب العدل . ان القتل حرام وجميع انواع القتل يعاقب عليها في زمن السلم . أما اذا نفتح في الصور واعلنت الحرب فيصبح القتل بالالوف مباحا » . ولديه صورة عامة مريعة عن الانسان وهو يقول في ختام مقال له عن الانسان في قاموسه الفلسفي :

« يحتاج الانسان الى عشرين سنة كي يبلغ اشده منذ كان جنينا في بطن امه فحيوانا في طفولته وشابا حيث يبدأ نضوج عقله ، وثلاثة آلاف سنة ليكشف القليل عن بنائه ، والابد الى ان يعرف شيئا عن نفسه . ولكن دقيقة واحدة تكفي لقتله . » .

هل يعتبر فولتير الثورة علاجاً لحل مشاكل البلد ؟ كلا . فهو لا يثق بالشعب أولاً : « عندما يتولى الشعب الحكم كل شيء يضيع . » . ان الاكثوية الساحقة مشغولة جدا ومنهمكة في اعمالها وليس لديها الوقت لادراك الحقيقة أو تفهم امور الدولة ، الى ان يجعل التغيير الحقيقة خطأ . وتاريخ الشعوب ليس سوى احلال خرافة محل خرافة اخرى . « وعندما يتم استتاب الامر لخطأ قديم . تستخدمه السياسة كلقمة وضعها الناس في افواههم ، الى ان تأتي خرافة اخرى فتحطم هذا الخطأ ، وتستفيد السياسة من الخطأ الثاني كما استفادت من الاول . » وهكذا دواليك . ان عدم المساواة بين الناس امر لا مفر منه ، وهو اساس من اساس المجتمع . ومن الصعب التخلص من عدم المساواة بين الناس ما بقي الرجال رجالا والحياة كفاحا . « اولئك الذين ينادون بالمساواة بين الناس يقولون صدقا

لو عنوا بقولهم مساواة الناس في الحرية والفرصة وامتلاك الاشياء وحماية القانون ولكن المساواة اكثر الاشياء طبيعية واكثرها خيالا وهمما في الوقت ذاته . فهي طبيعية اذا اقتضت على الحقوق وغير طبيعية اذا حاولت مساواة الناس في الحكيم والسلطة والاملاك والمتاع . لأن المواطنين ليسوا جميعهم على قدم المساواة في القوة ، ولكن يمكن مساواتهم في الحرية ، هذه المساواة في الحرية هي التي فاز بها الشعب الانجليزي ... وكونك حرا يعني ان لا تكون خاضعا لشيء سوى القانون . ، هذه رسالة الاحرار من تورغو وكوندورسي وميرابو وغيرهم من اتباع فولتير الذين حاولوا القيام بثورة سلمية ، ولكن هذه الثورة لم ترض المظلومين الذين لم يطالبوا كثيرا بالحرية بقدر ما طالبوا بالمساواة . لقد ارادوا المساواة حتى على حساب الحرية . لقد كان جان جاك روسو صوت عامة الشعب . وبما انه كان حساسا بالنسبة الى الفوارق الطبقيية التي واجهته في كل مرحلة ، فقد طالب بالمساواة وازالة الفوارق . وعندما وقعت الثورة في يد اتباعه مارا رروبسيير جاء دور المساواة وارسلت الحرية الى المقصلة لقطع رأسها .

لقد كان فولتير يشك في مقدرة المشرعين الذين يحاولون اقامة بناء جديد للعالم من وحي خيالهم وأوهامهم . والمجتمع بالنسبة له عبارة عن تطور ووقت . وعندما يقذف الشعب بتقاليد وماضيه من الباب فانها تعود الى الدخول من النافذة . والمشكلة هي ان نظهر بدقة أي نوع من التغييرات تمكننا من تقليل البؤس والظلم في العالم الذي نعيش فيه في الحقيقة . لقد اظهرت الحقيقة ابنة العقل فرحتها في اعتلاء لويس السادس عشر عرش فرنسا ، وتوقعت اصلاحات عظيمة على يديه ، فأجابها العقل قائلا ، « يا ابنتي ، انك تعرفين جيدا انني ارغب في هذه الاصلاحات كما ترغبين فيها واكثر ، ولكن كل هذا يحتاج الى وقت وفكر . انني اكون سعيدا دائما عندما احصل على بعض الاصلاحات التي

ناقت نفسي لها طويلا . « ومع ذلك فقد ابتهج فولتير ايضا عندما استولى تورغو على السلطة وكتب . « اننا غاطسون في العصر الذهبي حتى اعناقنا . » .
والآن فقد تحققت الاصلاحات التي نادى بها طويلا . ومنها نظام المحلفين والغاء العشور واستثناء الفقراء من جميع الضرائب الى غير ما هنالك . ألم يكتب تلك الرسالة المشهورة ؟ .

« كل شيء آراه ينبؤ عن بذور ثورة لا مفر من وقوعها في يوم من الايام ، والتي لن اسعد برؤيتها . ان الفرنسيين يأتون متأخرين جدا دائما ، ولكنهم يأتون في النهاية ، ان الضوء يمتد من الجيران الى الجيران . وسيحدث انفجار ثوري عظيم في اول فرصة ، ويعقبه هياج نادر ، بالسعادة الشباب لانهم سيشاهدون اشياء بديعة جميلة . » .

ومع ذلك فانه لم يتحقق مما سيحدث له . وهو لم يقصد اطلاقا بقوله « انفجار ثوري » ان تقبل فرنسا بحماس شديد فلسفة جان جاك روسو الذي كان يهز مشاعر العالم من جنيف الى باريس . بقصص عاطفية ومنشورات ثورية . لقد بدا ان روح فرنسا المعقدة قد قسمت نفسها بين هذين الرجلين الفرنسيين على الرغم من اوجه الخلاف الشاسع بينها . لقد وصف نيتشه فولتير على ما نعتقد بقوله « اقدام خفيفة وذكاء ونار وجلال ومنطق قوي » ، ونضع الآن روسو بجانب فولتير فنقول انه ، رجل يفيض بالحرارة والنزوة والخيال النبيل الضعيف ، الذي اعلن مثل باسكال ان للقلب تفكيرا لا يفهمه العقل ابداً .

اننا نرى في هذين الرجلين مرة ثانية الصراع القديم بين العقل والغريزة ، لقد آمن فولتير في العقل دائما « اننا نستطيع تثقيف الناس واصلاحهم بالخطاب والقلم . » . ولكن روسو لم يؤمن بالعقل الا قليلا ، ويريد العمل ولم ترهبه مخاطرة

زج البلاذ. في ثورة . واعتمد على مشاعر الاخوة لاعادة توحيد العناصر الاجتماعية التي بعثرتها الاضطرابات واستئصال العادات القديمة . فلنتخلص من القوانين وبعدهنذ يحصل الناس على حكم المساواة والعدالة . وعندما ارسل الى فولتير رسالته عن اصل عدم المساواة التي هاجم فيها المدنية والاداب والعلوم ودعا الى العودة الى الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها الانسان ، كما تبدو واضحة في حياة الحيوانات والمتوحشين ، اجابه فولتير : « لقد تلقيت كتابك الجديد يا سيدي ، الذي تهاجم فيه المدنية والعلوم والاداب واشكرك على ارساله . . . لم يقيم احد بمثل هذه المحاولة التي تحاول فيها تحويلنا الى وحوش وحيوانات » . لقد احزنه ان يواصل جين جاك روسو تجاهه الى الوحشية في كتابه « العقد الاجتماعي » . ونراه يكتب بهذا الخصوص الى مدام بوردي فيقول . « انك ترين الان ان روسو يشبه الفيلسوف كما يشبه القرد الانسان » .

ومع ذلك فقد هاجم فولتير السلطات السويسرية لمصادرتها كتاب روسو واحراقه ، تمسكا ببداه المعروف : « انا لا اتفق معك في كلمة واحدة بما قلته ، ولكني سأدافع عن حقك في الكلام وحرية التعبير عن افكارك حتى الموت » . وعندما هرب روسو من مئات الاعداء الذين كانوا يطاردونه ويحاولون الاعتداء عليه ، ارسل له فولتير دعوة صريحة كريمة ليقيم معه .

لقد اعتقد فولتير ان ما ذهب اليه روسو من نبذ المدنية والحضارة والعلوم ليس سوى هذيان صياني سخي . وان حياة الانسان في حالة المدنية افضل من حياته في حالة الوحشية . وهو يذكر روسو بان الانسان بطبيعته

وحش مفترس ، وان المجتمع المتمدن يعني تقييد هذا الوحش وتكبيله بالقيود والسلاسل ، وتخفيف وحشيته ، هذا بالإضافة الى امكانيه تطور العقل والتفكير عن طريق المجتمع المنظم ويوافق على : « ان الحكومة التي تسمح لفئة من الناس بأن تقول ، ان دفع الضرائب ينبغي ان يقع على عاتق الناس الذين يعملون ، اما نحن فسوف لا ندفع الضرائب لأننا لا نعمل ، ان هذه الحكومة ليست افضل من حكومة الافريقيين في جنوب افريقيا . ان لباريس معالمها التي تستحق ان نفتديها حتى في وسط فسادها وانحلالها . ويروي لنا فولتير قصة الملاك الذي ارسل بابوك الى مدينة بيرسيبولس لينظر في امر هذه المدينة ويقدم له تقريراً عن اوضاعها ، وهل تستدعي اوضاع هذه المدينة تدميرها والقضاء عليها ، واتجه بابوك الى هذه المدينة ، ودخلها وهاله تفشي الرذيلة والفجور فيها ، ولكنه بعد ان اقام فترة من الزمن في هذه المدينة بدأ يحب سكانها الذين وجد فيهم رقة في المشاعر ودمائة وكرما ، على الرغم من تفشي الرشاية والنميمة وتقلب الالهواء والباطل بينهم ، وخاف ان ينزل الملك حكمه على هذه المدينة ، وخشي ان يقدم تقريره عنها . واخيراً قام بتقديم تقريره عن هذه المدينة ، بأن امر اربع سبائك في المدينة بصنع تمثال من خليط من المعادن والتراب والاحجار الثمينة والرخيصة في آن واحد ، وحمله الى الملك ، وقال : « اعتقد انك سوف لا تحطم هذا التمثال ، لانه ليس مصنوعا كله من الذهب والاحجار الكريمة . وعدل الملك عن تدمير المدينة وعزم على ترك العالم يسير في طريقه . واخيراً عندما يحاول احداثا تغيير نظم المجتمع من غير ان يقوم بمحاولة تغيير طبيعة الناس ، فان هذه الطبيعة الغير متغيرة سرعان ما تبعت الحياة في هذه النظم التي تم تغييرها .

وهنا نواجه الحلقة القديمة ، الناس يشكلون النظم ، والنظم تشكل

الناس ، كيف يمكن ادخال التغيير الى هذه الحلقة ؟ يعتقد فولتير والاحرار ان هذا التغيير يأتي من طريق التثقيف والتعليم تدريجيا بالوسائل السلمية . ولكن روسو والمتطرفين اعتقدوا بأن هذه الحلقة لا يمكن تحطيمها الا عن طريق العمل العاطفي الغريزي الذي يقضي على النظم القديمة ، ويبني نظما جديدة يكون الحكم فيها للحرية والمساواة والاخوة . قد تكون الحقيقة بين هذين المعسكرين المنقسمين ، وهو ان تقضي الغريزة على النظم القديمة ، ولكن العقل وحده هو الذي يقدر على بناء النظم الجديدة .

١٠ - ختام

وفي الوقت ذاته راح الفيلسوف العجوز الضاحك يفلح الارض المحيطة بالفيلا ويزرعها ويقول : « ان الفلاحة والزراعة افضل عمل تقوم به على هذه الارض » . لقد كان يتمنى ان تطول حياته ليم المهمة الملقاة على عاتقه . واستجاب الله الى امنيته ومد في عمره ، وعمره ثلاثة وثمانين عاما . لقد كان كريما سخيا مضيافا ، لا حدود لكرمه . وسعى الناس اليه من كل صوب طلبا لحكمته ورأيه ومشورته وقلبه . ووجه عنايته الى الفقراء المتهمين بسوء سلوكهم ، وكان يسعى لدى السلطات للحصول على العفو عنهم ، ويعمل بعد ذلك على تعيينهم في اعمال شريفة . ويواصل في الوقت ذاته مراقبتهم وارشادهم ونصحهم . وعندما ركع امامه شابان صغيران طلبا للعفو منه لانهما سرقا بعض امواله ، انحنى واخذ بيديهما ووقفهما ، وعفا عنهما وسامحهما ، وقال لهما ، ان الركوع لله وحده ، ولا ينبغي لهما الركوع امام احد سوى الله .

وفي عام ١٧٧٠ قام اصداقاه واقباعه في جمع تبرعات لاقامة تمثال نصفي له . ومنع الاغنياء من ان يساهم كل واحد منهم باكثر من فلس ، لان الالوف من الناس ارادوا الاشتراك في هذا الشرف العظيم . وعندما سأل الملك فردريك الكبير عن المبلغ الذي يجب ان يتقدم به في هذه المناسبة ، قيل له ان يتقدم باسمه ولقبه وقطعة من تاجه .

انه الان في الثالثة والثمانين من عمره ، وقد اخذه الشوق والحنين لرؤية باريس قبل موته . لقد نصحه الاطباء ان لا يخاطر في رحلة متعبة شاقة كهذه . لقد عاش طويلا وعمل كثيراً ، وربما شعر بحقه في ان يموت في باريس التي ابعدها عنها مدة طويلة . وسار يمتاز الاراضي الفرنسية ميلاً بعد ميل . وعندما وصلت عربته اخيراً الى باريس ذهب رأساً الى صديق شبابه دارجنتال قائلاً : « لقد استهزت بالموت وجئت لارك » . وفي اليوم الثاني احتشدت الغرفة بالزوار الذين بلغ عددهم نحو ثلثمائة ، فرحبوا بقدومه ترحيبهم بملك ، الامر الذي جعل الغيرة تأكل قلب الملك لويس السادس عشر . وكان بنيامين فرانكلين (الفيلسوف والسياسي الامريكي) بين الذين اتوا لزيارته مصطحباً معه حفيده للحصول على بركات فولتير الذي وضع يده النجيلية على رأس الطفل وطلب منه ان يكرس حياته الى « الله والحرية » .

اشد به المرض الان الى درجة استدعاء القسيس ليسمع اعترافه . وسأله فولتير عن ارسله ، فاجابه ان الله قد ارسله ، فسأله فولتير ان يقدم له اوراق اعتماده . وانصرف القسيس من غير ان يغتم بغنيمته . وارسل فولتير بعد ذلك في طلب قسيس آخر . ولكن هذا القسيس رفض تقديم الغفران الى فولتير ما لم يوقع على اعترافه وايمانه بالمذهب الكاثوليكي ايماناً راسخاً . ولكن فولتير ثارت ثورته لهذا الطلب وكتب بدلاً من ذلك بياناً قدمه الى سكرتيره (واجنر) ذكر فيه : « اموت على عبادة الله ، ومحبة اصدقائي ، وكراهية اعدائي ، ومقتي للخرافات والاساطير الدخيلة على الدين . » ووقع هذا البيان ، في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٧٨ .

وعلى الرغم من مرضه وتداعي صحته فقد سار في عربته الى الاكاديمية

الفرنسية وسط الجماهير المحتشدة التي تسلقت على عربته ومزقت العباءة الثمينة التي اهدتها له كاترين ملكة روسيا الى قطع صغيرة لتحتفظ بها تذكارا له . لقد كان هذا الاستقبال العظيم الذي استقبلته به الجماهير من اعظم الاحداث التاريخية في ذلك القرن . ولم يجاره في هذا الاستقبال العظيم شخص آخر . ووقف في الاكاديمية والقى خطابا حافلا بحماس الشباب اقترح فيه تنقيح القاموس الاقرنسي . وفي الوقت ذاته فقد اصر على حضور احدي رواياته التي كانت تعرض في احد المسارح في ذلك الوقت على الرغم من نصيحة اطبائه بعدم الذهاب . لقد كانت الرواية ضعيفة . ولم يبد الناس دهشتهم من ضعف الرواية بقدر ما ابدوا دهشتهم من قدرة فولتير وهو في سن الثالثة والثمانين على كتابة رواية ، واغرقوا حديث الممثلين في الرواية بوابل من الهتاف والتصفيق تمجيذا وتشريفا لمؤلف الرواية .

وعندما عاد ملك الديان والفصاحة الى منزله في ذلك المساء كان يقترب من الموت وشعر بالاعياء والتعب الشديد . وبأنه استنفذ النشاط العجيب والحيوية المتدفقة التي وهبتها له الطبيعة اكثر من اي انسان اخر . وكافح عندما شعر بالحياة تبتعد عنه ، ولكن الموت قاهر الرجال استطاع ان يقهره . وتوفي في الثلاثين من شهر مايو عام ١٧٧٨ .

لقد رفضت السلطات دفنه في مدفن مسيحي في باريس . ولكن اصدقاءه وضعوه في عربة وخرجوا به من باريس ، متظاهرين بانه لا زال على قيد الحياة ، ووجدوا قسيسا يفهم ان الاحكام الدينية لا تقف في وجه العباقرة . ودفنوه في ارض مقدسة . وفي عام ١٧٩١ اجبرت الجمعية الوطنية

التي تألفت بعد انتصار الثورة ، لويس السادس عشر على نقل رفاة فولتير الى
مدفن عظماء الامة . وقام بحراسة رفاة اثناء مروره بباريس طابور يتألف
من مئة الف من الرجال والنساء . بينما اصطف على جانبي الشارع الذي مر به نحو
ستمئة الف من الجماهير . وكتب على العربة التي حملت جثمانه هذه الكلمات :

« لقد اعطى فولتير العقل قوة دافعة عظيمة ، واعدنا وهبانا

للحرية . »

وكتب على قبره هذه الكلمات الثلاث :

هنا يرقد فولتير .

الفصل السادس

عما نويل كانت والمذهب المثالي الالماني

١ - الطريق نحو كانت

لم يشهد تاريخ الفكر فلسفة بلغت من السيادة والنفوذ في عصر من العصور ما بلغته فلسفة عما نويل « كانت » من النفوذ والسيادة على الافكار في القرن التاسع عشر . فبعد ستين عاما من التطور الهادىء المنعزل قام « كانت » بهز العالم وايقاظه من نومه العقائدي في عام ١٧٨١ باخراج كتابه المشهور « نقد العقل الخالص » . لقد سادت فلسفة شوبنهاور فترة قصيرة الموجة الرومانتيكية التي انفجرت في عام ١٨٤٨ . كما اجتاحت نظرية التطور كل شيء امامها بعد عام ١٨٥٩ . وفازت فلسفة نيتشه بقلب المسرح الفلسفي في نهاية القرن التاسع عشر . ولكن هذه الفلسفات لم تكن سوى تطور سطحي يتدفق تحته تيار فلسفة « كانت » القوي الثابت اشد عمقا واتساعا . ولا تزال فلسفة كانت حتى يومنا هذا قاعدة لكل فلسفة اخرى . فقد سلم نيتشه بكل ما جاء به كانت واعتبره قضية مسلما بها . وذكر شوبنهاور عن كتاب « العقل الخالص » الذي وضعه كانت بانه اعظم الكتب في الادب الالماني واكثرها اهمية . وعنده ان

الانسان يبقى طفلاً في معرفته الى ان يفهم كانت . لم يستطع سبنسر فهم كانت .
وقد يكون هذا هو السبب في انه لم يبلغ الذروة في الفلسفة . وما اجدرنا بهذه
المناسبة ان نذكر العبارة التي قالها هجل في سينوزا ، فنقول عن كانت ، لكي
يكون المرء فيلسوفاً لا بد من ان يدرس كانت اولاً .

لذلك يجب علينا دراسة كانت . ولكن من الصعب دراسة هذا الفيلسوف
بطريقة مباشرة ، بأن نعد الى كتبه فوراً ونكتب على دراستها مباشرة ؛
والافضل اذا اردنا ان نقرأه ان نسبق قراءة ما كتبه بما كتب عنه . وان يكون
آخر ما يجب ان نقرأه هو ما كتبه كانت نفسه . لانه يكتب بأسلوب يحيطه
الغموض والتعقيد . ولا يحاول سياق الامثلة لتوضيح افكاره ، زاعماً انها تطيل
كتابه الذي بلغ ثمانئة صفحة على الرغم من محاولته اختصاره ، وهو يقول انه
يكتب للفلاسفة المحترفين ، وهم ليسوا بحاجة الى الشرح والتوضيح وسياق
الامثلة . ومع ذلك فقد عجز هؤلاء عن فهم كتابه ، وذلك عندما ارسل كانت
نسخة منه الى صديقه هرز ليطلع عليها . وكان هرز معروفاً بسعة اطلاعه
وعمق تأمله . اعاد هرز الكتاب الى كانت بعد ان قرأ نصفه قائلاً : انه يخشى
على نفسه الجنون لو واصل قراءة الكتاب . فاذا كان هذا هو الحال مع من اتخذ
الفكر والفلسفة حرفة له ، كيف السبيل اذن لتفهم هذا الفيلسوف ؟ .

دعنا ندنو منه في حرص واهتمام . بأن نبدأ في الاقتراب منه عن بعد عنه .
وان نبدأ في نقاط مختلفة من مدار موضوعه . وبعدئذ نتلمس طريقنا الى تلك
الفلسفة المهمة والكنز الملق .

من فولتير الى كانت

ان الطريق هنا يتجه من العقل النظري المجرد عن العقيدة والايان بالدين ، الى العقيدة والايان بالدين المجرد عن العقل النظري . ان اسم فولتير يدل على عصر التنوير ، ودائرة المعارف وعصر سيادة العقل . لقد اهتم حماسة فرانسس بيكون الحارة وایمانه بالعقل اوروبا بأسرها (ماعدا روسو) واخذت تثق ثقة عمياء بقوة العلم والمنطق في حل كل ما يواجه الانسان من مشكلات والتدرج به نحو الكمال . فكتب كوندورسي وهو في السجن كتابه التاريخي التصويري عن تقدم النفس الانسانية في عام ١٧٩٣ الذي اوضح فيه ثقافة القرن الثامن عشر في المعرفة والعقل . واعتقد بأن الوصول الى الحياة المثالية لن يأتي سوى عن طريق التعليم الشامل العام . لقد غالى سكان باريس في عهد الثورة في تمجيد العقل الى درجة دفعتهم الى عبادة « الالهة العقل » المجسمة في شكل امرأة حسناء من نساء باريس .

لقد ولد هذا الايمان بالعقل في سينيوزا اقامة بناء عظيم من الهندسة والمنطق فقد ذهب سينيوزا كما رأيت الى ان الكون نظام رياضي يمكن وصفه عن طريق لاستدلال من البديهيات المقبولة . وتمخض الايمان بالعقل الذي دعا اليه بيكون عن الالحاد والنزعة المادية من جانب هوبز الفيلسوف البريطاني الذي قال ، لا شيء يبقى سوى النوات والفراغ . واخذ الايمان بالدين يتحطم امام الايمان بالعقل منذ ايام سينيوزا الى ديدرو . واخذت العقائد الدينية في الاختفاء

الواحدة تلو الاخرى . وتداعت الكنندراية الفوطية في القرون الوسطى . وسقط الاله القديم عن عرشه وملكوته بسقوط اسرة البوربون عن العرش في فرنسا . وتحولت اللجنة الى مجرد اسماء ، والجحيم الى مجرد تعبير عاطفي . ونجح هلفيتوس وهو لباخ وغيرهم من كبار الملحدين في نشر الاحاد والكفر في صالونات باريس ونوادياها الى درجة شملت رجال الكنيسة انفسهم . واتجه لامر الى المانيا لنشر الاحاد فيها برعاية ملك بروسيا نفسه . وعندما اعلن ليسنج الى جاكوبي في عام ١٧٨٤ . نه من اتباع سينوزا دل هذا على ان الايمان بالدين قد بلغ الحضيض كما دل على انتصار العقل في المعركة بينه وبين الدين . ولكن الايمان بالدين الذي يحمل في جوانبه الامل والرجاء ، والذي تنادت به مئات الالوف من الكنائس المنتشرة في كل بقعة من بقاع اوروبا ، كان قد تأصل بعمق في قلوب الناس وانظمة الشعوب . ومن الصعب ان يستسلم الى هجوم العقل المعادي له . ولم يلبث ان نهض الايمان بالدين الى استجواب اهلية العقل الذي حكم عليه بالبطلان ودعا الى اختبار العقل الذي نصب نفسه حاكما على اهلية الدين ، ما هو هذا العقل الذي يقترح تدمير معتقدات وديانات آمن الناس بها منذ آلاف السنين؟ ما هو هذا العقل الذي يحاول تدمير معتقدات يؤمن بها الملايين من الناس في جميع انحاء العالم؟ هل هذا العقل معصوم عن الخطأ؟ هل هو منزه عن الزلل؟ او هل هو عضو انساني كبقية الاعضاء الانسانية . ام هو محدود بمحدود عمله وقواه؟ لقد حان الوقت لمحاكمة هذا الحاكم او القاضي الذي يسمى بالعقل . لقد حان الوقت لاختبار هذه المحكمة الثورية القاسية التي حكمت بالموت على كل أمل وايمان وعقيدة . لقد حان الوقت لتقد العقل الذي نصب نفسه حاكما على كل شيء . لقد جاء « كانت » ووضع هذا العقل موضع الاتهام واخذ في نقده والحكم عليه .

٢ — من لوك الى كانت

لقد مهد لوك ، وبركلي وهيوم الطريق لهذا الاختبار للعقل . ومع ذلك فان ما وصل اليه هؤلاء الفلاسفة من نتائج كانت معادية للدين ايضاً .

لقد اقترح جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) تطبيق الاختبار الاستقرائي ووسائل فرنسيس بيكون على علم النفس . ولقد ارتد العقل لاول مرة في الفكر الحديث على نفسه يختبرها في مقالة لوك العظيمة عن العقل البشري (١٦٨٩) وبدأت الفلسفة في تفحص الاداة التي ركنت اليها ووضعت ثقتها فيها مدة طويلة . ولم تعد تأمن العقل وضعفت ثقتها به .

كيف تبدأ المعرفة وكيف تنشأ ؟ هل لدينا آراء فطرية عن الخير والشر والله مثلاً كما يقول بعض الناس الصالحين . آراء يرثها العقل من ولادة الطفل وسابقة لجميع انواع التجربة ؟ لقد خشي علماء اللاهوت ان يزول الايمان بالله من نفوس الشر ، لان احداً من الناس لم ير الله في التلكوب او العين المجردة ، وفكروا بامكانية تقوية الايمان والاخلاق ، بالقول بأن الآراء الرئيسية التي يقوم عليها الايمان والاخلاق امور غريزية وفطرية في كل نفس . ولكن جون لوك على الرغم من انه كان مسيحياً فاضلاً وصالحاً ، وعلى استعداد للدفاع والنقاش بفصاحة عن معقولية المسيحية لم يقبل هذه الافتراضات اللاهوتية . فقد اعلن بهدوء ان جميع انواع المعرفة تأتي لنا من التجارب عن طريق حواسنا .

وان لا شيء في العقل سوى ما تنقله له الحواس . وقال ان العقل يكون عند ولادة الطفل كالصفحة البيضاء خاليا من كل شيء . وتأخذ الحواس والتجارب في الكتابة على هذه الصفحة بوسائل كثيرة . الى ان تملد الحواس الذاكرة والذاكرة تلد الآراء . وكل هذا يؤدي الى النتيجة المفزعة ، وهي انه باعتبار ان الاشياء المادية وحدها هي التي تؤثر على حواسنا ، فنحن لا نعرف شيئا سوى المادة . واننا يجب ان نقبل بهذه الفلسفة المادية . فاذا كانت الحواس هي وسائل الافكار ، عندئذ تكون المادة بالضرورة هي التي يستمد منها العقل افكاره وآرائه .

ولكن جورج بركلي (١٦٨٤ - ١٧٥٣) يختلف مع ما وصل اليه لوك من نتيجة على الرغم من انه يسلم بالمقدمات التي جاء بها لوك . ان تحليل لوك للمعرفة يدل على ان المادة لا توجد سوى كصورة في العقل . الم يخبرنا لوك بأن معرفتنا كلها مستمدة من الحواس ؟ لذلك فان كل معرفتنا عن اي شيء تكون مجرد احساسنا بذلك الشيء ، والآراء مستمدة من هذه الحواس . ان الشيء مجرد حزمة من الاحساسات . احساسات منظمة ومفسرة . انك تحتج فتقول ان طعام فطورك اكثر مادية رامية من ان يكون حزمة من الاحساسات . وان المطرقة التي تعلمك النجارة مادة صرف وتبدو فيها المادة بشكل واضح . ولكن فطورك ليس سوى مجموعة من حواس البصر والشم واللمس اولا ، والذوق ثانياً ، وبعدئذ راحة داخلية وحرارة ، وكذلك المطرقة فهي مجموعة من احساسات اللون والحجم والشكل والوزن ، واللمس الى آخر ما هنالك . ان حقيقة المطرقة بالنسبة لك ليس في ماديتها ولكن من الاحساسات التي انبعثت من ايهام يدك الذي يلمسها . واذا كنت مجرداً عن الحواس ، فان المطرقة لن تكون موجودة اطلاقاً بالنسبة لك . وقد تصيب هذه المطرقة

اهتمامك المشلول طرقاً مستمراً متواصلًا من غير ان تثير اهتمامك ، انها حزمة من الاحساسات فقط ، او مجموعة من الذكريات ، انها حالة للعقل .

ان جميع انواع المادة كما نعرف ، حالة عقليه ، والحقيقة الوحيدة التي نعرفها مباشرة هو العقل . اذن فنحن لا ندري عن الشيء الخارجي الا الاحساسات التي تنبعث اليها من ، والافكار التي تتولد من هذه الاحساسات عند وصولها الى الذهن .

فالبرتقالة مثلا يصل اليها عن طريق البصر ، ورائحتها عن طريق حاسة الشم وهي الانف ، وطعمها عن طريق الذوق ولمسها عن طريق اللمس في اعصاب اليد ، فلو تناول هذه البرتقالة انسان ضرير كفيف البصر . فانه يعرف عنها كل شيء سوى لونها . وقد تطرق المطرقة يدك المشلولة فلا تشعر بها فلو لا الحواس لما كان للاشياء الخارجية وجود . فالحواس هي التي كونتها ، ولذلك لم يتردد باركلي في انكار المادة انكاراً تاماً . ولم يعترف بوجود شيء الا حقيقة واحدة يحسها في نفسه الا وهي العقل .

ولكن بركلي لم يعمل حساب دافيد هيوم (١٧١١ - ١٧٢٦) الذي هز العالم المسيحي وهو لا يزال في سن السادسة والعشرين برسائله عن طبيعة البشر . وهي رسالة تعتبر احدي روائع الفلسفة الحديثة . قال هيوم ، اننا نعرف العقل فقط كما نعرف المادة عن طريق الاحساس ، على الرغم من انه داخلي في هذه الحالة . اننا لا ندرك بالحواس العقل اطلاقاً كذات مستقلة ، وكل ما ندركه او نشعر به هو مجرد اراء منفصلة وذكريات ومشاعر الى اخر ما هنالك . ان العقل ليس جوهرًا ، او عضواً له اراء ، انه اسم مجرد فقط لسلسلة الآراء . ان المشاعر والذكريات والاحساسات هي العقل . وليس هناك نفس منظورة وراء عملية الفكر .

ونتيجة لذلك فقد قضى هيوم على العقل كما قضى بركلي على المادة . ولم يترك شيئاً . ووجدت الفلسفة نفسها وسط انقراض خربة قوضتها بنفسها ودمرتها بيدها .

ولكن هيوم لم يقتنع بتدمير الدين عن طريق تدمير النفس وتبديدها . وحاول تدمير العلم بجل فكرة القانون ايضاً . ان العلم والفلسفة شبيهان . فقد ساهما منذ ايام برونو وجاليليو بالكثير من القانون الطبيعي .

وهكذا اجهز بركلي على المادة وقضى عليها ومحاهها من صفة الوجود ، ولكنه اشفق على العقل وسلم بوجوده . وجاء هيوم فسارع بتدمير العقل والدين عن طريق تدمير النفس وتبديدها . ولم يقنع بذلك بل اقترح ايضاً تدمير العلم بجل فكرة القانون . وانهار العقل كما انهارت المادة ولم يبق شيئاً منهما فاجاء « كانت » وقرأ في عام ١٧٧٥ ترجمة المانية لكتب ديفيد هيوم ، فروعته هذه النتائج واثارته وايقظته من نعاسه العقائدي الذي سلم فيه بغير سؤال بضروريات الدين واسس العلم . هاله ان يستسلم الدين والعلم الى الشك . ما العمل من اجل انقاذها وتخليصها مما الم بها .

٣ - من روسو الى كانت

نادى رجال عصر التنوير بأن العقل ينتهي الى تأييد المذهب المادي . فأجاب بركلي بأن المادة لا وجود لها . واجاب هيوم بأن العقل ليس له وجود ايضاً . ومن الممكن الاجابة ايضاً بأن العقل ليس المرجح او الاختيار النهائي في الحكم على الامور . هناك نتائج نظرية تتنافى مع كياننا ، ولاحق لنا بالاعتراض بوجود كبت مطالب طبيعتنا هذه انصاعاً لاوامر المنطق الذي هو بعد كل شيء ليس سوى البناء الحديث لجزء ضعيف متقلب خداع منا . فكم من مرة ترفض مشاعرنا هذه النتائج المنطقية التي تريد منا ان نتجة في سلوكنا اتجاه الارقام والاشكال الهندسية . قد يكون العقل بلا شك وخصوصاً في تعقيدات الحياة المدنية وامورها المصطنعة خير دليل ومرشد لنا . ولكننا نشق في مشاعرنا في الازمات الكبيرة التي تواجهنا في حياتنا ، وفي قضايا الايمان والسلوك اكثر من الثقة بعقولنا . فاذا كان العقل ضد الدين ، فان هذا ليس في جانب العقل او مصلحته . فليس العقل قاضياً ينتهي بقوله كل زعم وادعاء . اذ اننا نميل بفطرتنا وشعورنا الى رفض الكثير من النتائج المنطقية التي ينتهي اليها العقل . ولا مبرر لرفض ما يلميه على شعوري وفطرتي لاستمع الى املاء العقل المنطقي وحده ، مع ان هذا العقل احدث من ذلك الميل الغريزي عهداً واضعف بناء .

هذا ما نادى به جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) الذي وقف وحده في فرنسا يحارب المادية ويكأنح الاتحاد الذي جاء به عصر التنوير .

كان روسو شابا سقيما وعصيبا ضعيف البنية . دفعه اعتلال صحته وعدم شعور والديه واساتذته بالعطف عليه الى الانطواء على نفسه والابتعاد عن الحياة العملية الى حياة الفكر والتأمل . لقد هرب من عالم الحقيقة الى عالم الاحلام ، حيث يعوض عليه الخيال ما حرمته الحياة من حب وعطف وصحة . ان اعترافاته تكشف عن مركب متناقض من العواطف والمشاعر تنطوي على الامانة والكرامة والشرف الذي يدل على سمو اخلاقه .

وفي عام ١٧٤٩ اعدت اكااديمية ديجون جائزة لمن يكتب احسن مقال حول موضوع « هل ادى تقدم العلوم والفنون الى افساد الاخلاق ام الى اصلاحها ؟ وفاز المقال الذي كتبه روسو بالجائزة . لقد ذكر روسو في مقاله هذا بأن الثقافة اقرب الى الشر منها الى الخير . و اشار الى الفوضى التي سادت اوربا اثر انتشار الطباعة والقراءة فيها . فحيثما تنشأ الفلسفة تفسد الاخلاق بين الشعوب . وهناك قول شائع بين الفلاسفة انفسهم وهو انه بظهور رجال العلم اختفى اصحاب الامانة . اعلن روسو بجرأة بأن التفكير مناقض لطبيعة الانسان . وان الانسان المفكر حيوان سافل فاسد الاخلاق . ومن الافضل لنا التخلي عن تطورنا العقلي السريع والاتجاه بدلا من ذلك الى رياضة القلب والمحبة . ان التعليم لا يحيل الانسان فاضلا وصالحا ، ولكنه يجعل منه حاذقا وبارعا في الغش عادة . والفريضة والمشاعر جديدة بالثقة أكثر من العقل .

لقد شرح روسو باسهاب في قصته المشهورة هلواز تفوق الشعور على العقل . واصبح التظاهر بالخير ورقة الاحساس سائدا « مودا » بين نساء

الطبقة الأرستقراطية وبعض الرجال ، وافسحت حركة العقل الاوروبي العظيمي في القرن الثامن عشر الطريق الى الادب العاطفي من عام (١٧٨٩- ١٨٤٨) وانعش هذا التيار العاطفي الشعور الديني ، وتأثرت الحركة الدينية بافكار روسو الى مدى كبير . وخلاصة ما جاء به روسو هو انه على الرغم من ان العقل يتجه اتجاها معاديا للايمان بالله والدين والخلود ، فان الشعور يؤيدها تأييدا كبيرا . لماذا لا نثق اذا بشعورنا الفطري هنا بدل ان نسنسلم الى ياس الشك المجدب الذي يسوقنا له العقل .

وعندما قرأ « كانت » كتاب « اميل » الذي كتبه روسو ، انصرف اليه بكل اهتمامه ، حتى انه الغى خروجه لزيارته اليومية تحت اشجار الزيفون واقبل على الكتاب بكل قلبه ليفزغ منه في ساعته . لقد كان ما قرأ في هذا الكتاب حادثا هاما في حياته اذا وجد فيه رجلا آخر يشق طريقه للخروج من ظلام الاحاد ، رجلا اكد بشجاعة اسبقية الشعور على العقل النظري . هنا في هذا الكتاب يكمن نصف الجواب على الاحاد والكفر . بحيث يمكن الآن تمزيق شمل اهل الشك والسخرية بالدين . اخذ « كانت » في جمع خيوط هذه المناقشة ولفها بعضها ببعض ، وتوحيد اراء بركلي وهيوم مع تمجيد روسو للشعور وانقاذ الدين من العقل ، وفي الوقت ذاته العمل على انقاذ العلم من الشك هذه هي المهمة التي كرس كانت نفسه لها .

ولكن من هو عما نويل كانت

٢ .. كانت نفسه

ولد كانت في كونسبرج في بروسيا عام ١٧٢٤ . لم يغادر مسقط رأسه باستثناء فترة قصيرة قضاها في التدريس في قرية مجاورة لبلده . لقد احب هذا الاستاذ الصغير القصير ان يحاضر كثيراً في جغرافية وعلم اصول السلالات البشرية عن البلدان النائية . المحدث من اسرة فقيرة نزحت عن اسكتلندا قبل ولادته ببضع مئات من السنين . كانت امه امرأة تقية وكانت عضواً في جماعة دينية مذهبية تمسكت باهداب الدين واقامة الشعائر الدينية تمسكاً شديداً لا لين فيه ولا تساهل . وبحكم نزعة امه الدينية فقد غاص الى عنقه ابان طفولته في الدين من الصباح الى المساء . وادى به هذا الانغماس الشديد في الدين الى نتيجتين ، اولاهما ان احدث هذا التطرف في العبادة في نفسه رد فعل ادى به الى اعتزال الكنيسة في ايام نضجه ورجولته . وثانيهما هو انه احتفظ الى النهاية بطابع الكآبة الذي يميز الالمانى المتدين . وشعر عندما تقدمت به السن بجنين كبير ورغبة شديدة للمحافظة على الاقل باصول ذلك الايمان الذي غرسته فيه امه ايام طفولته .

ولكن شاباً مثله شب في عصر فردريك الكبير ملك بروسيا ، وفولتير ، من

الصعب ان يعزل نفسه وينأى بها بعيداً عن تيار الشك الذي اجتتاح اوروبا في ذلك الوقت. تأثر « كانت » تأثيراً كبيراً بالرجال الذين وجه همه اخيراً الى دحض آرائهم وافكارهم . وربما تأثر بعدوه المفضل دافيد هيوم اكثر من غيره . وسرى فيما بعد كيف تحولت كانت عن آرائه المحافظة التي امتازت بها افكاره في ايام نضجه ورجولته الى اعتناق مذهب الاحرار والايان بالحرية والدعوة لها بشجاعة وجرأة في ايام فردريك الكبير . كان من الممكن الحكم عليه بالاعدام بسبب هذه الافكار الحرة التي تتنافى مع نظام الحكم في ذلك الوقت ، ولم يشفع له سوى كبر سنه وشهرته حيث كان قد بلغ من العمر سن السبعين وطبقت شهرته الآفاق . وعندما نقرأ ما كتبه « كانت » في ايامه الاخيرة يخيل لنا اننا نقرأ فولتير . حتى في محاولته استرداد هيبة الدين وتخليصه من الشك الذي تعرض له . قال شوبنهاور مما يدل على التسامح الفكري وحرية الافكار في عهد فردريك الكبير ، هو ان يتمكن كانت من نشر كتابه «نقد العقل الخالص» اذ من المتعذر في عهد حكومة اخرى ان يمرؤ استاذ موظف لدى الحكومة على مثل هذه المجازفة في نشر مثل هذا الكتاب . لقد اجبر كانت بعد ذلك على ان يقطع على نفسه عهداً لخليفة الملك العظيم على ان يتوقف عن الكتابة في مثل هذه المواضيع الحرة . وتقديراً لهذا التسامح الفكري الذي قابله كانت من فردريك الكبير ، قام باهداء كتابه هذا الى زدلتز وزير المعارف في عهد فردريك الكبير ، تقديراً لهذه الحرية التي اطلقها فردريك للفكر والكلام في عهده العظيم .

وفي عام ١٧٥٥ بدأ كانت عمله كمحاضر خاص في جامعة كونسبرج ، وبقي

في هذا المنصب خمسة عشر عاماً . ورفضت الجامعة طلبه الذي تقدم به لتعيينه استاذاً فيها مرتين . واخيراً عين استاذاً للمنطق والميتافيزيقا في عام ١٧٧٠ . وبعد سنوات في التدريس اكتسب فيها خبرة واسعة وضع كتاباً عن فن التعليم والتدريس ، قال عنه انه تضمن الكثير من الآراء القيمة في هذا الموضوع لم يتمكن من تطبيقها . ومع ذلك فقد كان مدرسا افضل منه كاتبا . واحبه تلاميذه حبا شديداً . ومن بين مبادئه العملية هي ان يوجه المدرس قسطاً وافراً من عنايته واهتمامه الى التلاميذ من ذوي القدرة المتوسطة اذ لا جدوى في مساعدة الاغبياء من التلاميذ والعناية بهم . أما العباقرة والنوابغ منهم فلا يحتاجون مساعدة غيرهم لهم وعنايتهم بهم .

لم يتوقع احد ان يخرج هذا الاستاذ المعتدل الهادىء نظاماً جديداً للميتافيزيقا يهز العالم بأسره . وهو نفسه لم يتوقع ان تحدث آراؤه ذلك الاثر الكبير الذي افزع أوروبا وهزها هزاً قوياً . لقد كتب وهو في سن الثانية والاربعين : «لحسن الحظ ان اكون عاشقاً محباً للميتافيزيقا، ولكن عشيقتي لم تطلعني الا على القليل من جمالها وفضلها . » لقد تحدث في تلك الايام عن البحث في الميتافيزيقا بأنه هاوية سحيقة لا قاع لها ولا قرار . وانه محيط مظلم لا شواطئ له ولا منائر يتهدى بضوئها في خضمه ، تبعثرت فيه حطام الكثير من السفن الفلسفية التي غصفت بها امواجه . وهاجم « كانت » المشتغلين بالميتافيزيقا وشبههم بالخياليين الذين يسكنون في ابراج عالية من التأمل والخيال حيث تكثر الرياح فتعصف بارائهم وتأملاتهم . ولكنه لم يتنبأ بأن بحثه عما وراء الطبيعة سيثير اكبر عاصفة شاهدها العالم في الميتافيزيقا .

لقد وجه اهتمامه في هذه السنوات الهادئة الى البحث في الطبيعة اكثر من الاهتمام فيما وراء الطبيعة . فكتب عن الكواكب ، والزلازل ، والنار ، والرياح ، والاثير والبراكين ، والجغرافيا واصول الاجناس البشرية ، ومئات المواضيع من هذا القبيل .

لقد كانت نظريته في الاجرام السماوية عام (١٧٥٤) شبيهة بالنظرية السديمية التي ذهب اليها « لابلاس » حاول فيها ان يقدم تفسيراً آلياً لحركة الكواكب وتطورها . اعتقد « كانت » بأن جميع الكواكب قد سكنها الاحياء او سيسكنونها . وابتعد هذه الكواكب عن الشمس يعيش فيها نوع من الكائنات الذكية العاقلة ارقى واسمى بكثير من الكائنات التي تعيش على ظهر هذه الارض التي نعيش عليها . لان تلك الكواكب البعيدة عن الشمس اقدم عهداً ، واطول عمراً وتعرضت الى مرحلة من التطور والنمو اطول من الارض لقد ذكر في كتابه عن الاجناس البشرية الذي تم جمعه من المحاضرات التي القاها في حياته بإمكانية انحدار الانسان من الحيوان ، وانه تعرض الى الكثير من التطور والتغيير قبل ان يصل الى هذه المرحلة التي هو عليها الان . ويستدل على ذلك بقوله ، لو كان الطفل يصرخ عند ولادته في العصور الاولى البعيدة التي كان الانسان فيها لا يزال تحت رحمة الوحوش الضارية - المفترسة ، ولو كان الطفل يملأ بعويله وصراخه المكان الذي ولد فيه كما يصرخ اليوم ، لما استطاع ان يعيش ساعة واحدة ، لان صراخه سيدل الوحوش المفترسة على مكانه فتفترسه وتأكله . لذلك من المرجح ان الانسان اليوم في ظل المدنية والرقى يختلف عما كان عليه في العصور الاولى السحيقة في عهد البربرية والوحشية . ويتساءل كانت : « أما كيف احدثت الطبيعة مثل هذا التطور في الانسان ، وما هي العوامل التي ساعدت عليه ؟ فهو امر لا نعرفه ... ان اشارة « كانت » هذه حول تطور

الانسان تنقلنا الى طريق طويل . فهي تشير الى فكرة احتمال حدوث بورة عظيمة في الطبيعة تؤدي الى انقلاب هذه المرحلة الحاضرة من التاريخ ، تعقبها مرحلة ثالثة يتطور فيها الاورنغوتان «الانسان الوحشي» او الشمبانزي باعضاء يستخدمها في المشي واللمس والكلام الى بناء الانسان المفصلي ، بالاضافة الى عضو مركزي يستخدمه للفهم ، وتتقدم فصيلة الشمبانزي والاورنغوتان تدريجياً بفضل النظم الاجتماعية التي تقيمها فيما بينها . هل اراد كانت بهذا التنبؤ عن المستقبل ان يذكر لنا بطريقة حريصة غير مباشرة رأيه حول تطور الانسان من مرحلة الوحشية الى المرحلة التي هو عليها الآن ؟ .

وهكذا فاننا نشاهد التطور البطيء الذي اتسم به هذا الفيلسوف الضئيل الحجم الذي لم يتجاوز الخمسة اقدم في طوله ، والذي امتاز بالاعتدال والانطواء على نفسه ، وكان يحمل في رأسه اعظم ثورة في الفلسفة الحديثة . لقد صب كانت حياته في قالب لا يجيد عنه من النظام والدقة كما يقول احد مترجمي حياته . فكان يستيقظ في الصباح فيبدأ بشرب القهوة ، فالكتابة ، فالخاضرة ، فالغداء ، والخروج من منزله طلباً للمشي والنزهة . ويقول «هان» ان لكل من هذه الامور وقتها المحدد . وعندما كان يظهر عمانويل كانت . بمعطفه الرمادي وعصاه في يده على باب منزله ، ويبدأ بالسير نحو الشارع الصغير الذي تكتنفه اشجار الزيزفون ، والذي لا يزال يحمل اسم (نزهة الفيلسوف) . يعرف الجيران ان الساعة قد بلغت منتصف الرابعة تماماً . وهكذا كان يأخذ في النزهة والترريض ذهاباً واياباً في جميع فصول السنة . وعندما يكون الجو قاتماً او مكفهرًا وغائماً يتبعه خادمه الكهل بقلق متأبطاً مظلة كبيرة ليقيه شر المطر .

لقد كان الفيلسوف « كانت » ضعيف البنية مما اضطره الى التحفظ كثيرا لوقاية نفسه . وكان يعتقد بأن الوقاية خير من العلاج واستشارة الطبيب . و افقد عاشر ثمانين عاما . وكتب وهو في السبعين من عمره مقالا عن « مقدره » مفر على السيطرة على الشعور بالمرض بقوة العزيمة . « ومن بين عاداته المفضلة لوقاية نفسه . البرد الا يتنفس الا من انفه ، وخصوصا اذا كان خارج منزله ، وكان لا يسمح لاحد ان يكلمه في نزهته اليومية في فصول الشتاء والخريف والربيع ، اذ سيضطره الكلام الى التنفس من فمه وكان يقول ، الصمت خير من المرض بالبرد . لقد طبق الفلاسفة حتى على ربط جواربه ، فكانت له طريقة خاصة في ربطها برباط يمر يجيوب بنطلونه . وكان يفكر في كل شيء تفكيرا طويلا قبل ان يقدم عليه . وبقي عازبا طيلة حياته . لقد فكر بالزواج مرتين ، ولكنه اطال التفكير في المرة الاولى الى ان تقدم للسيدة التي اراد الزواج بها خطيب آخر اشد سرعة واكثر شجاعة منه وفي المرة الثانية انتقلت السيدة التي اراد ان يخطبها من مدينة كونسبرج قبل ان يستقر قراره على الزواج منها . وربما اعتقد مثل نيتشه بأن الزواج سيحول بينه وبين البحث الامين عن الحقيقة .

قال تاليراند : « ان الرجل المتزوج على استعداد لأن يبيع نفسه ويفعل كل شيء مقابل الحصول على المال . » وكتب وهو في سن الثانية والعشرين بكل ما في الشباب من حماس وقوة : « لقد رسمت لنفسى الطريق الذي سأسير عليه في حياتي وعزمت على السير فيه ،

وسأدخل في هذا الاتجاه ولن يمنعني شيء من متابعته والسير فيه .
وهكذا واصل السير في طريقه وسط الفقر والغموض ، كاتبا
ومنقحا كتابه العظيم الذي فرغ منه عام ١٧٨١ بعد ان استغرق خمسة عشر
عاما . لقد احدث كتابه انقلابا مفرعا في عالم الفلسفة ، لم يحدثه اي
كتاب آخر .



٣ - نقد العقل الخالص

ما هو المقصود من هذا العنوان « نقد العقل الخالص » ان كانت لا يعني مجرد النقد ، ولكنه يريد النقد التحليلي ، فهو لم يهاجم العقل الخالص بل كان يرجو ان يظهر امكانياته ، ويرفعه ويضعه فوق المعرفة غير النقية التي تأتي الينا عن طريق المعرفة المشوهة التي تنقلها الحواس . لأن العقل الخالص في نظره يعني المعرفة التي لا تأتي عن طريق الحواس . ولكنها معرفة مستقلة تماماً عن كل انواع التجربه او الحواس . معرفة خاصة بنا بحكم طبيعة العقل وتركيبه فقد اراد ان يرى هل في طبيعة العقل التي فطر عليها ما يمكنه من الوصول الى بعض المعرفة دون اعتماده على ما تأتي به الحواس من العالم الخارجي .

لقد محمدى « كانت » في البداية ما ذهب اليه لوك والمدرسة الانجليزية : فقال بأن المعرفة ليست مستمدة كلها من الحواس ، كما ذكر لوك والمدرسة الانجليزية . لقد انكر هيوم النفس والعلم ، وقال ان عقولنا ليست سوى افكارنا المتتابعة المتعاقبة . وانه لا يجوز لنا ان نقطع برأي يقين . وان ما نسميه بالأراء اليقينية ليست سوى احتمالات معرضة دائماً لخطر نقضها ونفيها . واجاب « كانت » على ما ذهب اليه هيوم بقوله ان هذه النتائج الباطلة التي انتهى اليها هيوم . هي نتيجة للمقدمات الباطلة التي افترضها . لقد زعم هيوم ان كل معرفة الانسان

تأتي عن طريق الاحساس المنفصلة والمختلفة . ان هذه السلسلة من الاحساس لا تقدم لك تتابعاً ضرورياً او سياقاً ثابتاً يجعلك على يقين الى الابد . وطبيعي ان لا تتوقع ان ترى نفسك حتى بأعين الحاسة الداخلية . نحن نسلم بان اليقين المطلق للمعرفة امر مستحيل ، لو كانت كل المعرفة تأتي عن طريق الاحساس ، من عالم خارجي مستقل لا يعدنا بالسير بانتظام . اذ لو كان هذا هو مصدر المعرفة الوحيد لسلمنا بنتيجة هيوم من ان يقين المعرفة مستحيل . ولكن ما هو رأي هيوم لو وجدنا في انفسنا معرفة ليست مستمدة من التجربة الحسية ، معرفة نجزم بصحتها وحقيقتها حتى قبل التجربة ، وقبل ان يستقبل الذهن احساساً واحداً من العالم الخارجي . عندئذ الا تكون الحقيقة المطلقة والعلم المطلق ممكنين هل هناك مثل هذه المعرفة المطلقة التي لا تعتمد في وجودها على الحواس والتجربة؟ هذه هي قضية الكتاب الاول من النقد التي اراد كانت بحشها فهو يقول : « ان سؤالي ، هو ، ماذا نرجو ان نبلغ بالعقل ، اذا ابعدا كل مساعدة للتجربة الحسية . » لقد اورد كانت في كتابه تحليلاً مفصلاً لاصل الافكار ، واختباراً لاصل النظريات والافكار وتطورها وتحليلاً لتركيب العقل الموروث . وهو يعتقد بأن هذا هو قضية الميتافيزيقا كلها فهو يقول « لقد استهدفت الكمال في هذا الكتاب ، وانا اجرؤ على القول بأنك لن تجد قضية واحدة من قضايا الميتافيزيقا الا الفيت حلاً لها فيه ، او على الاقل وجدت مفتاحاً تستعين به على حلها .

ان نقد العقل الخالص يدخل فوراً في صلب الموضوع . ويقول كانت : « ان التجربة ليست الميدان الوحيد التي تحدد فهمنا ، لذلك فهي لا تقدم لنا اطلاقاً حقائق عامة ، وبذلك فهي تشير عقلنا المهتم بهذا النوع من المعرفة بدل ان تقنعه وترضيه . لذلك لا بد ان تكون الحقائق العامة التي تحمل طابع الضرورة

الداخلية مستقلة عن التجربة واضحة ومؤكدة في نفسها . « اذ لابد ان تكون حقيقية ، بغض النظر عن نوع تجربتنا الاخيرة ؛ وحقيقية حتى قبل التجربة » ، ويصور لنا كانت بمثل رياضي رائع الى اي مدى نستطيع ان نتقدم مستقلين عن كل انواع التجربة فيقول ان المعرفة الرياضية ضرورية ومؤكدة . ولا نستطيع ان نتصور ما ينقضها في تجربة المستقبل . قد نعتقد ان الشمس قد تشرق غدا من الغرب ، او ان النار سوف لا تحرق العصي الخشبية في عالم لا تحرق فيه الاشياء . ولكننا لن نعتقد او نصدق طيلة حياتنا بان اثنين زائد اثنين يمكن ان يسفر عن عدد غير الاربعة . ان مثل هذه الحقائق حقيقية قبل التجربة . ولكن من اين نحصل على هذه الحقائق المطلقة والضرورة ؟ ليس من التجربة ، لان التجربة لا تعطينا شيئاً سوى احساس منفصلة وحوادث قد تغير تعاقبها في المستقبل . ان هذه الحقائق تستمد نوعها الضروري من تركيب عقولنا الفطري ، من الطريقة الطبيعية الختمية التي يجب ان تعمل عليها عقولنا . لان عقل الانسان ليس لوحاً جامداً من الشمع تكتب عليه الاحاسيس ؛ والتجربة ارادتها المطلقة والمتقلبة وليس سلسلة من الحالات العقلية . انه عضو نشيط يسبك وينسق الاحساسات الى افكار ، عضو يحول ضروب التجربة الكثيرة المشوشة وغير المنظمة الى وحدة من الفكر المنظم المرتب .

١ - الحس السامي

ان محاولة الاجابة على هذا السؤال ، هو دراسه التركيب الفطري للعقل او قوانين الفكر الفطرية . وهي ما يسميها كانت بالفلسفة السامية ، لانها تسمو على التجربة الحسية وتفوقها . فهو يقول « انني اسمي المعرفة سامية اذا كانت لا تعنى كثيرا بالاشياء بقدر ما تعنى بافكارنا الفطرية البديهية عن الاشياء . » في وسائلنا . في وصل تجاربنا الى معرفة . وهناك مرحلتان في عملية تحويل مادة الاحساس الخام الى انتاج الفكر التام . المرحلة الاولى ، هي تنسيق الاحاسيس الاتية من الخارج واضفاء قسالي الادراك الحسي وتطبيقه عليها - وهما المكان والزمان .

والمرحلة الثانية ، وهي تنسيق هذه المدركات الحسية المتطورة عن المرحلة الاولى بتطبيق انواع الرأي عليها - حتى نخرج منها مدركات عقلية .

وان ما هو المقصود بكلمة احاسيس ، وكلمة مدركات ؟ وكيف يغير العقل هذه الاحاسيس ويحولها الى مدركات ؟ . ان الاحاسيس في حد ذاتها ليست سوى وعي للدافع او الحافز . فقد نحس بطعم على اللسان او رائحة في الانف ، او صوت في الاذن ، او حرارة على الجلد ، او لمعة خاطفة من الضوء على شبكة

العين ، او ضغط على اصابع اليدين . هذه الاثار الحسية هي المادة الخام التي تبدأ بها التجربة « وهي التي تكون لدى الطفل في الايام الاولى من تلمس حياته العقلية . انها لم تبلغ حد المعرفة ، لانها منفصلة مفرقة . ولكن اذا اجتمعت هذه الاحاسيس المختلفة حول شيء في المكان والزمان ، في التفاحة مثلا ، اذا اجتمعت الرائحة في الأنف ، والطعم على اللسان ، والضوء على شبكة العين ، والضغط على الاصابع واليد ، اذا اجتمعت ووحدت نفسها حول الشيء ، فان هذا يؤدي الى ادراك ذلك الشيء ، وبذلك يكون الاحساس قد تحول الى معرفة .

لان هذه الاحاسيس قد جاءت لنا عن طريق اقنية الحواس المختلفة ، عن طريق الالوف من الاعصاب التي تمر من الجلد والعين والاذن ، واللسان الى داخل المخ . ياله من خليط كبير من الرسائل عندما يجتمع ويحتشد في داخل جدران العقل ، وكل واحد منها يدعو العقل الى الانتباه ، لاغرابة ان يتحدث افلاطون عن لغط الحواس « فلو ترك هذا الجمع المحتشد وشأنه فسيبقى في لغط وفوضى عاجزا عن تنظيم نفسه الى معنى وغرض وقوة . وهو بذلك شبه بمجموعة من الرسائل وردت الى قائد عسكري من مئات مناطق جبهة القتال ، تترام فوق بعضها وتلتف حول نفسها بلا مساعدة للوصول الى تفهم للموقف الحربي واتخاذ قرار فيه . لا بد لهذه الرسائل من منظم يتناولها وينسقها ويوحدها وينظمها ويصل عن طريقها الى قرار بشأن الخطة التي ينبغي اتباعها . لا بد من منظم ومشرع لهذا الجمع من الاحاسيس . لا بد لها من قوة موجهة ومنسقة لاتتلقى الاحاسيس فقط ، بل تأخذ هذه الذرات من الاحساسات وتصوغها وتسبكها الى معنى من المعاني .

وجدير بنا ان نلاحظ اولاً ، انه ليس كل ما يبعث من الرسائل يقبل ،
اذ ان الالوف من المؤثرات التي تندفع الى جسمك ، وتتلعب به
في تلك اللحظة ، عاصفة من الحوافز والبواعث والمؤثرات الحسية الخارجية
تضرب اطراف الاعصاب ولكننا لا نختار كل هذه المؤثرات . اننا نختار من بين
هذه الاحساسات الواردة اليها ما يمكن سبكه وصياغته الى ادراكات حسية
تناسب مع غرضنا في تلك اللحظة . او تلك الاحساسات التي تنذر بالخطر . ان
الساعة تدق ، ولكنك لاتسمع دقاتها ، ولكنك تسمع دقات هذه الساعة حالاً
اذا كان ذلك يتناسب مع غرضك مع ان دقاتها لم ترتفع عما كانت عليه سابقاً .
كما ان الام النائمة الى جانب فراش طفلها ، لاتسمع شيئاً من الضوضاء حولها ،
ولكنها تهب من نومها لمجرد حركة خفيفة من ولدها كفواص يشق طريقه بسرعة
من الاعماق الى سطح البحر . وهذا يدل على اننا لا نختار من الاحساسات
الواردة اليها الا ما لا يمكن سبكه وصياغته الى ادراكات حسية ، تناسب مع
غرضنا في تلك اللحظة . فاذا كان غرضنا هو الجمع فان الرقم (٢) والرقم (٣)
يؤدي الى الجواب (٥) واذا كان غرضنا هو الضرب ، كانت النتيجة (٦) مع
ان الاحساس المنبعث من الرقمين واحد لم يتغير في كلتا الحالتين . والذي تغير
هو الغرض ، مما ادى الى اختلاف في معنى احساس بعينه . ان علاقة
الاحساسات او الافكار ليست متوقفة على مجرد التقارب في المكان
والزمان ، ولا في التشابه ، او الجودة او التكرار او شدة التجربة ، اذ انها
خاضعة فوق كل شيء الى غرض العقل ، ان الاحساسات والافكار خدم لنا ،
تنتظر دعوتنا . ولا تأتي الى اذهاننا الا اذا احتجناها . اذ ان فينا وكيلا يقوم

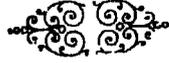
بالتوجيه والاختيار في استخدامها ، وهو سيد لها . الا وهو العقل الموجود
بالاضافة الى هذه الاحساسات والافكار .

يعتقد كانت . ان هذا الوكيل الذي يشرف على الاختيار والتنسيق ،
الا وهو العقل ، يستخدم اولا وسيلتين بسيطتين في ترتيب المواد المقدمة له :
وهما معنى المكان ومعنى الزمان ، كما يرتب القائد العسكري الرسائل التي
ترد اليه حسب المكان الواردة منه ، والزمان الذي كتبت فيه ، وبهذا ينظمها
وينسقها . فكذلك العقل يرتب الاحساسات التي ترد اليه من العالم الخارجي
حسب مكانها وزمانها ، ويعزوها الى هذا الشيء او ذاك الى الوقت الحاضر او
الماضي ، ولكن ليس الزمان والمكان امرين مدركين ، ولكنها كيفية
للادراك ووسيلة لوضع معنى في الاحساس ، ان المكان والزمان وسيلتان
للادراك الحسي .

انها مسلم بهما بالاستدلال العقلي ، لان كل التجربة المنظمة تشملها
وتفترض وجودهما ، وبغيرهما لا يمكن للاحاساسات ان تنمو الى ادراكات
حسية ، انها مسلم بهما بالاستدلال العقلي لاننا لن نصادف اي تجربة في المستقبل
لا تشملها . ولانها مسلم بهما ، فان قوانينها وهي قوانين الرياضيات ، مسلم بها
بالاستدلال العقلي ، ومطلقة وضرورة ، عالم بلا نهاية ، انها ليست مجرد
احتمال ، انه امر يقيني باننا لن نجد خطأ مستقيماً لا يكون اقصر مساف
بين نقطتين ، لقد تم انقاذ الرياضيات على الاقل من شك دفيد
هيوم المتنافر .

هل من الممكن انقاذ بقية العلوم بالمثل ؟ نعم ان انقاذها ممكن اذا

اظهرنا صحة قانونها الاساسي ، قانون السببية الذي مؤداه ان العلة المعينة
ينبغي ان يتبعها دائما معلول معين . فلو اثبتنا ان هذا القانون فطري موروث في
جميع مراحل الفكر كما في الزمان والمكان ، بحيث لا يمكن تصور تجربة
في المستقبل تخالفه او تخرج عليه . هل السببية ايضا مسلم بها بالاستدلال العقلي ،
ضرورة لازمة وحالة لجميع انواع الفكر .



٢ - التحليل السامي

وهكذا ننتقل من ميدان الاحساسات والمدركات الحسية الفسيح الواسع الى غرفة الفكر الضيقة . من الحس السامي الى المنطق السامي ، واولا الى تسمية وتحليل تلك العناصر في تفكيرنا التي لم تقدم الى العقل عن طريق الادراكات الحسية بقدر ما قدمت الى الادراكات الحسية عن طريق العقل . تلك الرافعات التي ترفع المعرفة الادراكية للاشياء الى معرفة فكرية ذات علاقات وسياق ، وقوانين . تلك الادوات في العقل التي تصفي وتنقي التجربة الى علم تماما كما تنظم الادراكات الحسية ، الاحساسات حول الشيء في الزمان والمكان ، هكذا تنظم الادراكات العقلية الادراكات الحسية (وهي الاشياء والحوادث) حول افكار السبب ، والوحدة والعلاقة المتبادلة والضرورة ، والملاسة الخ .. هذه الحالات وغيرها هي التركيب الذي يستقبل الادراكات الحسية والذي يرتبها ويسبكها ويصوغها الى مدركات فكرية منظمة . هذه هي مميزات العقل الجوهرية ان العقل هو تنسيق وتنظيم التجربة .

لا حظ هنا مرة ثانية نشاط هذا العقل الذي اعتقد لوك وهيسوم انه مجرد قطعة جامدة سلبية من الشمع تشكلها التجربة الحسية كما تريد . اذن فالعقل بالنسبة الى كانت ليس مجرد قطعة جامدة من الشمع ، ولكنه عقل نشيط فعال يتلقى التجربة فيرتبها وينظمها ويسبكها ويصوغها في فكر . فلو نظرنا الى

نظام فكري كفلسفة ارسطو ، هل من الممكن ان يكون هذا النظام الشامل العالمي من المعلومات قد اتى تلقائيا عن طريق هذه المعلومات المشوشة الآلية نفسها . انظر الى فهرس اسماء الكتب وعناوينها في المكتبات العامة . والتي رتبت ونظمت بذكاء . وفقا للحاجة منها ، وبعدئذ تصور هذه البطاقات التي كتبت عليها اسماء الكتب وقد القيت كلها على الارض واختلطت بعضها ببعض في غير نظام . فهل تتصور او تصدق ان هذه البطاقات المبعثرة في وسعها سحب نفسها والتجمع من تلقاء نفسها والموودة بهدوء الى اماكنها في الصناديق حسب ترتيبها الاليجدي والموضوعي . ثم يعود كل صندوق الى مكانه المعين . هذه هي القصة العجيبة التي يقدمها لنا دعاة الشك . بقولهم ان الاحاسيس اذا وصلت الى العقل استطاعت ان تنظم نفسها وان تتحول الى فكر منظم مرتب .

ان الاحاسيس بواعث غير منظمة . والادراكات الحسية هي احاسيس منظمة ، والمدركات العقلية هي مدركات حسية منظمة ، والعلم هو المعرفة المنظمة ، والحكمة هي الحياة المنظمة . وكل واحد عبارة عن درجة اعظم من النظام والسياق والوحدة . من اين جاء هذا النظام وهذا السياق والوحدة : انه لم يأت من الاشياء نفسها ، لاننا نعلم تلك الاشياء عن طريق الاحاسيس التي ترد علينا عن طريق الالف الاقنيه في كثرة وفوضى وازدحام . ان غرضنا هو الذي وضع نظاما وسياقا ووحدة على هذه الثورة الملحفة . اننا انفسنا بشخصياتنا وعقولنا القينا ضوءا على هذه البحار المظلمة . لقد اخطأ « لوك » عندما قال « لاشيء في العقل الا ما كان في الحواس اولا » وكان « ليبينتز » على صواب عندما قال « لاشيء الا العقل نفسه . » يقول كانت « بأن الادراكات الحسية بغير المدركات العقلية عمياء » فلو كانت الادراكات الحسية قادرة وحدها على تنظيم نفسها بطريقة آلية الى فكر منظم ولم يكن للعقل اثر فعال في تحويل

فوضى الاحساس الى نظام الفكر . كيف يمكن ان تسفر التجربة الحسية ذاتها التي يتعرض لها رجلان ، فتنتهي بالرجل الاول الى ان يكون عاديا ووسطا ويرتفع الثاني بفضل نشاطه وروحه المتوثبة الى ضوء الحكمة ومنطق الحقيقة وذروة المعرفة ؟

ادن للعالم نظام . ولكن هذا النظام ليس موجودا في العالم نفسه ، ولكن الفكر الذي عرف العالم وادركه هو المنظم لهذا العالم . ان المرحلة الاولى لترتيب التجربة الحسية التي تنتهي اخيرا الى العلم والفلسفة . ان قوانين الفكر هي قوانين الاشياء ايضا . لاننا نعرف الاشياء فقط عن طريق الفكرة التي تسير وفقا لهذه القوانين ، اذن فالقوانين العقلية هي نفسها قوانين الطبيعة . وكما قال هيجل ان قوانين المنطق وقوانين الطبيعة شيء واحد ، ويندمج المنطق والميتافيزيقا . اذن فقوانين العلم ومبادئه ضرورية ، لانها هي قوانين الفكر ، الداخلة - والمتضمنة لكل تجربة ماضية وحاضرة ومستقبلية ، ان العلم مطلق والحقيقة خالدة .

٣ - المنطق السامي

ومع ذلك فان هذا اليقين ، وهذا الاطلاق الاعلى لتعميمات المنطق والعلم محدود ونسي ، محدود تماما داخل ميدان التجربة الحقيقية ، ونسي تماما لهيئة تجربتنا البشرية ، اذا لو كان تحليلنا صوابا فان العالم كما نعرفه يكون بناء ، وانتاجا تاما ، شيئا مصنوعا اشترك في تشييده عاملان ، العقل من ناحية ، والاشياء نفسها من ناحية اخرى . العقل بما فيه من قوالب السبك والصياغة ، والشيء بما يبعثه من مؤثرات تؤثر على الحواس . فظاهر الشيء كما يبدو لنا قد يكون مخالفا كل المخالفة للشيء الخارجي قبل ان يجيء في دائرة حواسنا ، ويستحيل علينا ابدا ان نعرف حقيقة ذلك الشيء الاصيل . لان الانسان لايعرف الا ما يصادفه في تجربته ، فان وقع الشيء في ذاته في حدود التجربة تغير اثناء مروره خلال الحواس والفكر « اننا نجعل ماهية الاشياء وحقيقتها المستقلة عن ادراك الحواس جهلا تاما . اننا لانعرف شيئا عن الاشياء الا كيفية ادراكنا لها ، ولما كانت تلك الكيفية خاصة بنا ، لم يكن من الضروري ان يشترك فيها كل الكائنات ولو انها لاريب غامة بين البشر جميعا . »

ان القمر كما هو معروف لدينا مجرد مجموعة من الاحساسات (كما ارتأى هيوم) وحدتها (وذلك ما لم يره هيوم) تركيب عقلنا عن طريق تنقيسه

الاحساسات الى ادراكات حسية ، وتنقية - الادراكات الحسية الى مدركات عقلية او افكار - والنتيجة فان القمر بالنسبة لنا ليس سوى افكارنا .

ولكن هذا لايعني ان « كانت » يشك في وجود المادة والعالم الخارجي ولكنه يقول باننا لانعرف شيئاً يقينياً عنها خلا وجودهما . وان معرفتنا المفصلة عنها تتعلق بمظهرها وظاهريتها . بما لدينا عنها من احساسات فجزء كبير من كل شيء قد خلقته صور الادراك الحسي والعقلي ، فنحن نعلم الشيء بعد تحويله الى فكرة اما ما كان الشيء قبل هذا التحول فلا نستطيع ان نعرف . واذا ظن العلم انه يتناول الاشياء في حد ذاتها ، اي في حقيقتها كما هي فهو واهم ومخدوع . والفلسفة اكثر من العلم وهما وضلالا ان زعمت ان مادة العلم كلها لا تتألف من احساسات ، وادراكات حسية ومدركات عقلية بل من الاشياء نفسها . قال شوبنهاور : (ان فضل كانت يكمن في تمييزه مظهر الشيء عن الشيء في نفسه) .

ويتبع ذلك ان كل محاولة يبذلها العلم او الدين في تعريف الحقيقة النهائية تنتهي لان تكون مجرد محاولة نظرية . لان العقل لا يمكن ان يتجاوز حدود الظواهر الحسية . فان مثل هذا التجاوز ينتهي بالعلم الى مناقضة نفسه وبالدين الى المغالطة . ومهمة المنطق السامي المسيرة هي فحص شرعية محاولات العقل التملص والفرار من دائرة الحس والظواهر والدخول في عالم الاشياء في ذاتها وهو عالم مجهول .

ان التناقض هو المعضلة التي لا حل لها الناجمة عن محاولة العلم تخطي التجربة فمثلا عندما يحاول العقل ان يقرر فيما اذا العالم محدود اولا نهائي من حيث

المكان وقع العقل في تناقض واشكال ، ورفض كل فرض من هذين الفرضين .
فنحن مسوقون الى التصور بأن وراء كل حد شيئاً ابعده منه ، وهكذا الى ما لا
نهاية ، ومع ذلك فان اللانهاية في حد ذاتها امر لا يمكن ادراكه . ومرة ثانية لو
حاول العقل ان يعرف هل كان للعالم ابتداء زمني وقع في الاشكال نفسه .
لاننا لا نستطيع ان نتصور الازلية التي ليست لها نقطة ابتداء ، ولكننا في
في الوقت ذاته لا نستطيع ان نتصور اية لحظة في الماضي نسميها بدء الزمن ، اذ
لا يسعنا الا ان نشعر باننا قد كان قبل تلك اللحظة الاولى شيء . ثم لو تساءل
العقل هل لسلسلة العلة والمعلول التي يدرسها العلم بدء ، اي هل للعالم علة اولى
نشأ عنها ، اجاب العقل بالايجاب والنفي معا ، فبالايجاب لانه لا يستطيع ان
يتصور سلسلة لا نهاية لها . وبالنفي لانه لا يمكن تصور علة اولى لا علة لها . هل
هناك مخرج لهذه المتعطفات والاشكال في الفكر ؟ ويجيب كانت على هذا
السؤال بالايجاب نعم يمكن وجود مخرج هذه الاشكال في الفكر لو تذكرنا بأن
المكان والزمان والعلة ليست سوى وسائل للادراك الحسي والادراك العقلي ،
والتي يجب ان تدخل الى كل تجربتنا باعتبار انها مفتاح وبناء التجربة ، وبدونها
لا تكون لنا تجربة ولا معرفة . هذه المشاكل ناجمة عن افتراضنا بأن المكان
والزمان والعلة اشياء خارجية مستقلة عن الادراك . وعلى الرغم من ان كل
ما نصادف من تجارب لا يمكن فهمه وتفسيره الا اذا صغناه بعبارات الزمان
والمكان والسببية ، فلن تكون لنا فلسفة صحيحة ، اذا فاتنا ان هذه ليست
اشياء واقعة ، ولكنها وسائل لتفسير التجارب وفهمها فقط .

كذلك يقع الدين في المغالطة والاشكال التي وقع بها العلم عندما يحاول
اللاهوت ان يبرهن بالعقل النظري ان الروح خالدة لا يجوز على عنصرها
الفساد ، وان الارادة حرة ولا تخضع لقوانين السببية ، وان في الكون كائناً

موجود بالضرورة هو الله . هنا يجب على المنطق السامي ان يذكر اللاهوت ان العنصر والسببية والضرورة كلها صور محدودة ووسائل يطبقها العقل في ترتيب وتنظيم التجربة الحسية . وهي لا تكون مشروعة ويمكن الاعتماد عليها الا اذا طبقناها على الظواهر الحسية التي تظهر لمثل هذه التجربة . لا نستطيع ان نطبق هذه المدرجات العقلية على عالم الظن والحدس والاستنتاج لذلك لا يمكن اقامة البرهان على صحة الدين بالعقل النظري .

وهكذا ينتهي الكتاب الاول في النقد ، وكأننا نتخيل (دفيد هيوم) يستعرض هذه النتائج التي توصل لها كانت ، وتعلو وجهه ابتسامة مصطنعه تهكمية . هنا كتاب واسع ، يقع في ثمنئة صفحة ، يحاول وضع حل لجميع مشاكل الميتافيزيقا وانقاذ العلم والدين . ماذا انجز هذا الكتاب في الحقيقة . لقد دمر عالم العلم البسيط وحدد من مداه حتما ان لم يكن في درجته ، لقد حصره في عالم الظواهر السطحي ، فان تجاوز هذا العالم انتهى امره بالتناقض . وهكذا (انقذ) العلم . ويتناول كانت بفصاحة وبلاغة في جزء من كتابه موضوع الدين وحرية الروح وخلودها والخالق فيقول ، انها لا يمكن للعقل اثباتها واقامة الدليل عليها . وبهذا فقد « انقذ » الدين ايضا .. ولا غرابة ان رفض رجال الدين في المانيا هذا الانقاذ للدين الذي قدمه لهم كانت واحتجوا عليه احتجاجاً شديداً ، وانتقموا لانفسهم منه بأن اطلقوا اسم « عما نويل كانت » على كلابهم .

ولا غرابة ان قارون « هيني » . بسين « كانت » النجيل البنية الضعيف و « روبسيير » الخيف فقال ان روبسيير لم يقتل الا ملكا واحداً وبضعة آلاف قليلة من الفرنسيين - هي جريمة قد يتسامح فيها الرجل الالماني ، اما « كانت » فقد قتل الله وقوض اعظم الاركان والدعائم الغالية التي يقوم عليها بناء

اللاهوت . (ان الخلاف كبير بين حياة هذا الرجل الخارجية وبين افكاره الهدامة التي هزت العالم وارجفته رعبا . ولو قدر سكان كونسبرج اهمية هذه الافكار البالغة لارتاعوا من وجود هذا الرجل بينهم اكثر من خوفهم من جلاد ينفذ حكم الاعدام بالناس فقط . ولكن الناس لم يروا فيه الا استادا للفلسفة . وعندما كان يخرج ويمر بهم في ساعة خروجه المحددة التي لا يجيد عنها كانوا يميون بهز رؤوسهم تحية الصداقة ويضبطون ساعاتهم .)
هل كان هذا صورة كاريكاتورية هزلية ام وحيا والهاما .

٤ — نقد العقل العملي

إذا كان الدين لا يمكن ان يقوم على اساس من العلم واللاهوت ، علام يقوم اذن ؟ لان بناءه على اساس من اللاهوت ليس مأمون الجانب ويعرضه للخطر . اذن فالأفضل التخلي عن اللاهوت النظري ، والقضاء عليه بالابتعاد بالدين عن متناول حكم العقل وسيادته . ولنشيد الدين على اساس الاخلاق ، ولكن يجب ان تكون اساس الدين الاخلاقية مطلقة ، غير مستمدة من التجربة او الاستنتاج المزعزع ، والا يفسدها العقل المعرض للزلل والخطأ . يجب ان نستمد اساس الاخلاقي من باطن النفس بادراك وبصيرة مباشرة . يجب ان نجد اخلاقا عامة وضرورية ، مبادئ اخلاقية مسلما بها ، ومطلقة ويقينية كالرياضيات . ويجب ان نظهر ان العقل الخالص يمكن ان يكون عمليا ، وانه يمكنه بطبيعته ان يقود الارادة مستقلا عن اي شيء تجريبي ، وان الاخلاق فطرية فينا ، ولم تستمد من التجربة ، وان الاوامر الاخلاقية التي نحتاج لها لتكون اساسا للدين يجب ان تكون عامة ومطلقة مستمدة من فطرة الانسان . ان هذا الشعور الفطري للاخلاق حقيقة تظهر في كل تجاربنا بشكل واضح يبعث الدهشة ، فكلنا نشعر شعوراً لا مفر منه اذا تعرضنا للاغراء ان هذا او ذلك العمل خطأ . قد نشتم للخطأ ، ولكن الشعور بالخطأ موجود فينا على اية حال ، اذ لا يسعنا على الرغم من استسلامنا للخطأ الا ان نشعر بأننا قد اخطأنا . فقد

ارتكبت سخافة راعرف انني ارتكبت سخافة ، واعزم مرة ثانية على عدم ارتكاب مثل هذه السخافة . ما هو الشيء الذي يشير فينا الندم والتبكيث ، ويدعونا الى اعتزام تجنب الخطأ . انه الأمر في نفوسنا ، انه الضمير الذي يأمرنا ان نعمل وكأن مبدأ عملنا سيصبح قانونا عاما للطبيعة . نحن نعلم لا بالتفكير ولكن بشعورنا القوي المباشر اننا يجب ان نتجنب السلوك الذي لو اتبعه الناس جميعا يؤدي الى تعذر الحياة الاجتماعية واستحالتها . قد اقع في مأزق حرج ، ولاستطيع الخروج من هذا المأزق الا اذا كذبت . ولكنني في الوقت الذي اريد التخلص فيه من هذا المأزق بالكذب لا احب ان يكون الكذب قانونا عاما بأي حال من الاحوال . لان تحت مثل هذا القانون تضيع الثقة وتنتفي الوعود والعهود بين الناس . ولذلك فاني احس في نفسي انه لايجوز ان اكذب حتى ولو كان الكذب في صالحني ومنفعتي . ان الحكمة امر افتراضي وشعارها الامانة اذا كانت الامانة تؤدي الى افضل النتائج السياسية ، ولكن القانون الاخلاقي في قلوبنا مطلق بلا قيد ولا شرط .

وبموجب هذا القانون الاخلاقي المفطور في نفوسنا يكون العمل فاضلا وصالحا لاسبب ما ينتج عن هذا العمل من نتائج حسنة وطيبة او بما فيه من حكمة ولكن لان هذا العمل قد أدي وفقا لهذا الشعور الداخلي بالواجب . هذا القانون الاخلاقي الذي لم يأت عن طريق تجاربنا الشخصية ولكنه فطري طبيعي فينا . والخير الوحيد في هذا العالم هو ارادة الخير ، وهي الارادة التي تتبع القانون الاخلاقي ، بغض النظر عما يعود علينا من كسب او خسارة . اذ ليس المهم هو السعادة وانما هو الواجب . « اذاً ليست الاخلاق مبدأ يعلمنا كيف نجعل انفسنا سعداء ، ولكن كيف نجعل انفسنا جديرين

بالسعادة . « دعنا نسعى الى سعادة الآخرين ، ولكن بالنسبة الى انفسنا يجب ان نسعى الى الكمال سواء قدم لنا هذا الكمال سعادة او المأ . ولكي تبلغ الكمال في نفسك والسعادة في الاخرين . اعمل وكأنك تعامل الانسانية سواء أكانت ممثلة في شخصك او في اي شخص آخر ، كغاية في كل حالة ، ولا يجوز لك قط ان تعتبرها وسيلة فقط » يجب ان يكون هذا المبدأ اساساً لحياتنا فان تمسكنا بهذا المبدأ فسرعان ما نخلق لانفسنا مجتمعا مثالياً فاضلاً . والسبيل الى خلق مثل هذا المجتمع ان نعمل كما لو كنا ننتهي اليه من قبل . يجب ان نطبق القانون الكامل في الدولة الناقصة . قد نقول انها اخلاق عسيرة صعبة تلك التي تضع الواجب فوق الجمال ، والاخلاق فوق السعادة . ولكن بهذه الوسيلة فقط نتوقف عن مرتبة الحيوانية وترتفع من حيوانات لنصبح الهمة .

وجدير بنا ان نلاحظ ان هذا النداء المطلق لاداء الواجب يدل نهائياً على حرية ارادتنا . اذ كيف نستطيع ان نتصور فكرة الواجب ، لو كنا لانشعر بانفسنا احراراً ؟ اننا لانستطيع ان نقيم الدليل على هذه الحرية بالعقل النظري . ويمكننا ان نقيم الدليل على هذه الحرية بالشعور بها شعوراً مباشراً اذا ما وقفنا موقف الاختيار بين سلوكين . اننا نشعر بهذه الحرية في داخل انفسنا « في الذات الخالصة » نشعر في داخل انفسنا بنشاط العقل التلقائي وهو يسبك ويصوغ للتجربة ، ويختار الاهداف . وعندما نبادر في اعمالنا ، يبدو لنا انها تتبع قوانين ثابتة لا تتغير . ولكن هذا يبدو لنا لاننا ندرك نتائج اعمالنا بواسطة الحواس التي تلبس كل ما تحوله ثوب قانون السببية . ولكن هذه السببية من صنع عقولنا ، ومع ذلك فاننا فوق القوانين التي تصنعها لنفهم تجاربنا الحسية .

اذ ان كل واحد منا مركز قوة ابداعية خالقة ، وكل واحد منا حر فيما يفعل رغم ما يقيد الاعمال من سببية ظاهرة ، ونحن نشعر بهذه الحرية ولكن لا يمكننا اقامة الدليل عليها .

ومرة ثانية كما استنتجنا حرية ارادة الانسان عن طريق صوت الواجب الذي فطرنا عليه ، فاننا نشعر باننا خالدون . اننا نشعر بخلود الانسان ولكننا لانستطيع ان نقيم عليه الدليل . اننا نعلم بان الحياة ليست كما يحب الناس ، اذ ما يحبه الناس في هذه الحياة انزال العقاب بالمسيء ، ومكافأة المحسن بالثواب ، ولكن الحياة على نقبض ما يحبه الناس ، اذ لالعقاب فيها للمسيء ، ولا ثواب للمحسن . وتعلمنا الحياة كل يوم ان حكمة الثعبان افضل من رقة الحمامة وان السرقة تؤدي بصاحبها الى الفوز اذا كان المال المسروق كبيرا جدا او يكفي لتغطية معالم السرقة . فلو كان مجرد النفع في هذه الدنيا والوصول الى الغاية هو كل ما يبرر الفضيلة ، لما كان من الحكمة ان نكون فضلاء وان نتمسك باهداب الفضيلة . ولكن على الرغم من معرفتنا لكل هذا الذي يواجهنا كل يوم ويتكرر في حياتنا باستمرار فاننا لانزال نشعر بافضلية التقوى والفضيلة وعمل الخير ، ونعرف ان الواجب يدعونا الى عمل الخير على الرغم من عدم موافقته لنا وتنافيه مع مصالحنا . كيف يمكن لهذا الشعور بالحق ان يعيش ، ان لم نكن نحس في اعماق قلوبنا وقرارة نفوسنا ان هذه الحياة ليست الا جزءا من حياة ، وان هذا الحلم الدنيوي ليس الا مقدمة لميلاد جديد ، وبعث جديد . كيف يمكن لهذا الشعور بالحق ان يعيش اذا كنا لانحس وندرك بطريقة غامضة ان في الحياة الاخرى الاطول امدا سيجزى كل انسان فيها اضعافا مضاعفة من الحسنات والاجر على ما قدمه من اعمال صالحة في هذه الدنيا .

واخيرا فان هذا الدليل الذي اثبت حرية الانسان وخلوده ينهض برهاناً على وجود الله . لانه اذا كان الشعور بالواجب يتضمن ويبرر الايمان في الجزاء الذي سيأتي اي في التسليم بالخلود ، فان الخلود لا بد ان يتبعه فرض وجود علة متكافئة مع معلولها او بعبارة اخرى فان هذا يؤدي الى التسايم بوجود الله . وليس هذا ايضا برهاناً بالمعقل . بل هو مستمد من شعورنا الخُلقي الفطري الذي يفوق المنطق النظري الذي لم يتطور الا لمعالجة الظواهر الحسية . ان عقولنا تجيز لنا ان نعتقد بان وراء الاشياء إلها ، وشعورنا الاخلاقي يأمرنا بالاعتقاد في ذلك . لقد كان (روسو) على صواب حين قال : (ان شعور القلب فوق منطق العقل واصاب بسكال عندما قال : (ان للقلب اسباباً خاصة به لا يمكن ان يفهمها العقل) .

٥ - في الدين والعقل

لم يكن (كانت) فيما دعا له مبتذلاً وهيباً او رجعيًا محافظاً والعكس هو الصحيح فقد كان جريئاً وشجاعاً في انكاره اللاهوت النظري ، وانكاره ان يكون الدين قائماً على العقل . لقد اثار ما ذهب اليه من خفض الدين والنزول به الى مجرد ايمان اخلاقي جميع رجال الدين في المانيا فقاموا بالاحتجاج . لقد تطلبت عاصفة احتجاج رجال الدين في المانيا شجاعة كبيرة من كانت . لقد ابدى شجاعة نادرة عندما نشر وهو في سن السادسة والستين كتابه (نقدالحكم) واعقبه بكتابه (الدين في حدود العقل الخالص) الذي نشره وهو في سن التاسعة والستين .

وهو في اول هذين الكتابين يعود الى التحدث عن الرأي القائل بأن وجود غاية يهدف اليها العالم ويقصدها دليل على وجود الله ، وكان قد رفض هذا الرأي في كتابه الاول نقد العقل على اساس انه لايدل دلالة كافية على وجود الله . وهو يبدأ في ربط القصد بالجمال ويعتقد بأن الجميل هو اي شيء يكشف عن تناسق ووحدة في البناء ، كأن عقلاً قد رسمه ووضع تصميمه وقصده وهو يلاحظ ان التأمل في تناسق تصميم الكون وقصده يقدم لنا دائماً

سعادة نزيهة . وان الاهتمام في جمال الطبيعة يدل دائما على الخير . ان الكثير من الاشياء في الطبيعة تظهر لنا مثل هذا الجمال ومثل هذا التناسق والوحدة ، وتدفعنا الى التفكير بوجود قصد فوق الطبيعة مما يحملنا على التفكير بانها تسير الى غاية معينة ، ولكن « كانت » يقول ، ولكن هناك في الطبيعة امثلة كثيرة على الفوضى والاهمال والعبث والتكرار والتكاثر الذي لا فائدة فيه . ان الطبيعة تحفظ الحياة ولكن على حساب الكثير من الالم والموت ، لذلك فان مظهر الكون الخارجي وجماله وتناسقه ووجدته وابداعه ليس دليلا قاطعا على وجود الله ، وعلى رجال اللاهوت الذين يعتمدون على هذه الفكرة في التدليل على وجود الله ان يتخلوا عنها وينبذونها . وعلى رجال العلم الذين تخلوا عن هذه الفكرة ورفضوها ان يستردوها ويستخدموها ، لانها فكرة عظيمة ودليل جليل يؤدي الى كشف المئات من الامور الغامضة . اذ لاشك ان في العالم قصدا وتصميا ، ولكنه قصد داخلي ، قصد وضعه الكل لاجزائه ، ولو قام العلم بتفسير اجزاء الكائن العضوي ومعنى هذه الاجزاء بالنسبة الى الكل ، فان هذا سيؤدي الى توازن عظيم لمبدأ البحث الآخر الذي يقوم على نظرية آلية الحياة ، ان هذه النظرية حول آلية الحياة تنطوي على الفائدة ايضا ، ولكنها وحدها لا تكفي لتفسير نمو ورقة واحدة من اوراق الاشجار او حشيشة واحدة من العشب .

أما رسالته عن الدين فهي انتاج عظيم بالنسبة الى رجل في التاسعة والستين من عمره . وقد بلغ كانت في هذه الرسالة ذروة الجرأة والشجاعة . وهو يقول في هذه الرسالة ان الدين لا يجوز ان يقوم على اساس منطق العقل النظري .

ويجب ان يقوم على العقل العملي للشعور الاخلاقي . ذلك ان اي كتاب من الكتب المقدسة وكل ما ينزل به الوحي ، يجب ان يحكم عليه بما له من قيمة اخلاقية ، ولا ينبغي ان يكون هو نفسه الحاكم او القاضي الذي يرجع اليه في القانون الاخلاقي . ان قيمة الكنائس والمعتقدات الدينية تكون بمقدار ما تعاون الجنس البشري على التطور والرفق الاخلاقي ، اما اذا تحول الدين الى مجموعة من المراسيم والعقائد والطقوس الشكلية وعلق الناس اهمية بالغة على هذه الطقوس والمراسيم وفضلوها على الناحية الاخلاقية التي جاء بها الدين وجعلوا المراسيم والطقوس امتحانا تقاس به الفضيلة فان هذا يعني انتهاء أمر الدين وزواله . ان الكنيسة الحقيقية هي جماعة من الناس مهما بلغ تفرقهم وانقسامهم يجمعهم ويوحدهم ولاؤهم لقانون اخلاقي مشترك . وقد عاش المسيح ومات لتأسيس مثل هذه الجماعة . لقد اسس المسيح هذه الكنيسة الحقيقية للقضاء على نفاق ورياء رجال الدين ومراسيمهم وطقوسهم الشكلية ، ولكن ظهر بيننا طبقة كهنوتية من رجال الدين والقساوسة بطقوسهم ومراسيمهم التي طغت على فكرة الديانة المسيحية الاصلية النبيلة . (لقد قرب المسيح ما بين مملكة الله والارض ، ولكننا اخطأنا في فهمه فاستبدلنا مملكة الله بمملكة الرهبان والقسيسين التي نشأت بيننا .

ومرة ثانية عادت الطقوس والعقائد الدينية الى الظهور . وحلت محل الحياة الفاضلة الطيبة . وبدل ان يرتبط الناس بعضهم ببعض برباط الدين ، انقسموا الى الف مذهب . وراحوا يعتقدون بأن هذيان الورع نوع من العبادة يسترضي فيها الانسان عن طريق الرياء والنفاق حاكم السماء ، وكان الله حاكم من حكام

الارض يمكن الوصول، الى رضاه عن طريق التزلف والرياء والنفاق . هذا كما ان المعجزات لا يمكن ان تؤيد الدين وتدل عليه ، لاننا لانستطيع التعويل على شهادة من يؤيد هذه المعجزات . ولا فائدة في الصلاة اذا كانت تستهدف تعطيل قوانين الطبيعة التي تدل على صحتها التجارب . واخيرا فان هذا الانحراف عن الدين يبلغ الحضيض عندما تصبح الكنيسة اداة طيعة في يد حكومة رجعية . حيث يصبح رجال الدين الذي يقضي عليهم واجبهم تخفيف ويلات الانسانية وتعزيتها في نكباتها وهداياها عن طريق الايمان الديني والأمل والاحسان ادوات ظلم سياسي .

لقد كان « كانت » جريئا جدا في نشر هذه الاراء التي تعرض فيها الى وصف الاوضاع في بروسيا في ذلك الوقت . فقد توفي فردريك الكبير عاهل بروسيا في عام ١٧٦٦ وخلفه في الحكم فردريك وليام الثاني الذي كان رجعيا . فقد أقال « زدلتز » وزير المعارف في عهد فردريك الكبير ووضع في مكانه القسيس فلتر الذي كان يتظاهر بالورع والتقوى ، والذي وصفه فردريك الكبير بكونه قسيسا متآمرا وخائنا مخادعا يضيع وقته سدى في تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب « السيمياء » لقد سعد هذا القسيس الى السلطة بعد ان وعد بتقديم نفسه اداة طيعة في تطبيق سياسة العاهل الجديد الذي اراد استرداد العقيدة الدينية بالقوة . وفي عام ١٧٨٨ اصدر هذا الوزير قانونا يحرم على كل مدرسة او جامعة ان تعلم ما لا يتفق مع التعاليم البروتستانتية اللوثرية ، وفرض رقابة شديدة على كل وسائل النشر ، وأمر بطرد كل مدرس مشبوه بالاحاد والزندقة . لقد ترك « كانت » اول الامر بعيدا عن هذه المضايقة والملاحقة الحكومية بسبب كبر سنه ، فقد قال عنه احد رجال البلاط

بأنه رجل تقدمت به السن ، ولا يقرأ كتبه سوى عدد قليل من الناس ، وهؤلاء الذين يقرأون له لا يفهمونه . ولكن لما اصدر « كانت » كتابه عن الدين كان اسلوبه جليا واضحا ومفهوما ، قرع فيه ناقوس الحقيقة بحماس الدين ، بطريقة فولتير واسلوبه ، فلم يفلت من يد الرقابته وامرت المطبعة التي تعهدت بطبعه بعدم طبعه ونشره .

وهنا ثارت ثائرة « كانت » فأبدى شجاعة لانتظر من رجل في السبعين من عمره ، وارسل الكتاب الى بعض اصدقائه في (بيننا) وقامت مطبعة الجامعة هناك في طبعه ونشره . لقد كانت « بيننا » خارج بروسيا تحت حكم الدوق « فيمار » المتحرر الذي افسح المجال امام حرية الرأي والفكر ، والذي كان يرعى الشاعر الفيلسوف (جوته) ويفسح له المجال ليفكر ويكتب وينظم بحرية تامة . وكانت نتيجة نشر هذا الكتاب ان تلقى (كانت) في عام ١٧٩٤ رسالة بليغة ارسلتها له الوزارة بأمر من ملك بروسيا جاء فيها : « لقد اساء الى ذاتنا العملية اساءة بالغة سوء استعمال فلسفتك وتقويضها لكثير من اهم مبادئ الكتاب المقدس الاساسية والديانة المسيحية . ونأمرك ان توضح موقفك توضيحا دقيقا على جناح السرعة . ونتوقع ان تتوقف في المستقبل عن مثل هذه الاهدانات التي وجهتها الى الدين . وان تستخدم مواهبك وصلحياتك بحيث تتفق مع واجبك حتى نتمكن من بلوغ هدفنا الابوي . اما اذا واصلت معارضتك لما نأمرك به ، فلتتوقع من العواقب ما لا يرضي ولا محمد عقباه .)

واجاب (كانت) على هذه الرسالة بانه يجب ان يكون لكل عالم الحق في الافصاح عن آرائه افصاحا مستقلا في الامور الدينية ،

والحرية في نشر آرائه بين الناس ، ولكنه يمد بأن يلوذ بالصمت ابان
حكم الملك الحالي .

لقد لام بعض المؤرخين (كانت) لهذا الرضوخ لامر الملك .
ولكن يجب ان لا يغيب عنا انه كان في السبعين من عمره ، ضعيفا ،
سقيا لا يقوى على النضال والكفاح فضلا عن اقتناعه انه قام بواجبه ، وبلغ
العالم رسالته .

٦ - في السياسة والسلام الدائم

كان من الممكن ان تتسامح الحكومة البروسية مع ما نشره (كانت) من آراء في الدين على الرغم مما جاء فيها من الحاد ولكن لم يكن من السهل التسامح في آرائه السياسية المتطرفة في ذلك العهد . فقد جمع بين الاحاد في الدين والتطرف في السياسة ايضا . فبعد ثلاث سنوات من اعتلاء فردريك وليام عرش بروسيا ، اندلعت الثورة الفرنسية وزلزلت قوائم العروش كلها في اوربا . وفي الوقت الذي هرع فيه اساتذة الجامعات في بروسيا لتقديم ولائهم وتأييدهم للنظام الملكي ، استقبل (كانت) انباء الثورة الفرنسية بالبشر والسرور على الرغم من كهولته ، وقال لاصدقائه والدموع تغمر عينيه : « استطيع الآن ان اقول ما قاله «سيمون» يا الهي اسمح لعبدك ان يفارق العالم بسلام ، لأنني رأيت خلاصك وانقاذك . »

وكان (كانت) قد نشر في عام ١٧٨٤ ، شرحا موجزا لنظريته السياسية تحت عنوان : (المبدأ الطبيعي للنظام السياسي وعلاقته بفكرة التاريخ الدولي العام) لقد بدأ (كانت) هذا البحث بالاعتراف في النزاع بين الفرد والمجتمع ، ذلك النزاع الذي افزغ «هوبز» ، لقد اقر «كانت» هذا النزاع بين الفرد والكل ورأى فيه وسيلة طبيعية لتطور امكانيات الحياة المستترة . اذ لو كان جميع الناس

اجتماعيين بطبعهم ويميلون للنزعة الاجتماعية ، لادى هذا الى خلود همة الانسان وركود نشاطه . ولا بد من مزيج بين النزعة الفردية والمنافسة لتساعد في بقاء البشر وتطورهم . وهو يقول لولا ما لدى الناس من نزعات وصفات فردية ، وعزوفهم عن الحياة الاجتماعية ... لعاشوا عيشة بسيطة يعمرها السرور والسعادة والانسجام التام والقناعة والحب المتبادل . ولكن هذا النمط من المعيشة والحياة يخنق المواهب ويقضي عليها في مهدها .

(وبهذا يختلف « كانت » مع جان جاك روسو الذي فضل العودة الى هذه الحياة البسيطة ورأى فيها منجاة وخلصا للبشر للتخلص من قيود المدنية ومتاعبها .) ويقول : « نشكر الطبيعة على ما وهبتنا من نزعة فردية ادت الى اذكاء روح الغيرة والحسد والزهو والطموح والى رغبة جشعة للتملك والقوة والسلطة ... ان الانسان يجب ان يعمش في صفاء ووثام ووفاق ولكن الطبيعة ادري منه بما يعود بالنفع على البشر فالطبيعة تريد التنافر والنزاع والحصام الذي يجبر الانسان على حفز قواه من جديد والتطور بمواهبه وامكانياته الطبيعية تطورا متواصلا .»

اذن ليس النزاع من اجل البقاء شراً . ومع ذلك فقد اعتقد الناس وجوب تقييده ضمن حدود معينة ، وتنظيمه بالاحكام ، والعادات والقوانين . وهنا بدء اصل المجتمع المتمدن وتطوره . ان نفس هذه النزعة الفردية التي اجبرت الناس على ايجاد المجتمع هي السبب الذي يدعو كل حكومة الى التمسك بحريتها الكاملة في علاقاتها الخارجية مع الدول الاخرى . ونتيجة لذلك فان كل دولة تتوقع من الدول الاخرى نفس الشرور والمظالم التي كانت تنزل بالافراد قبل تنظيم المجتمع الذي اجبرهم على الدخول في اتحاد مدني ينظمه القانون . لقد

حالت الوقت الآن لخروج هذه الدول من حالتها الطبيعية الوحشية ، والدخول في اتفاقات لحفظ السلام . ان حركة التاريخ في معناها تتجه الى الحد من العنف والخصام وتوسيع رقعة السلام في العالم .

اننا اذا استعرضنا تاريخ الجنس البشري كمجموعة لوجدناه يتجه الى تحقيق خطة خفية للطبيعة تستهدف اقامة نظام سياسي كامل يتيح التطور لكل الامكانيات والطاقات التي وهبتها الطبيعة للناس تطوراً كاملاً ولولا هذا التطور والتقدم الى الامام ، لكانت جهود اعمال المدنيين المتعاقبة اشبه شيء بما حدث الى « سيفيوس » الذي حاول الصعود الى قمة الجبل رافعا بين يديه حجرا كبيرا مستديرا ، وكلما اوشك على بلوغ القمة اقلت الحجر منه وتدحرج الى الوادي ليبدأ سيفيوس مرة ثانية في رفعه من جديد . ولو لم يتجه التاريخ في سيره نحو تحقيق هذه الغاية التي تهدف اليها الطبيعة لكان سخفا يدور في حلقة من السخافة لا تنتهي . وفي هذه الحالة يمكننا ان نقول ما يقوله الهندوسي بأن الارض هي المكان الذي يكفر فيه الناس عن خطاياهم وذنوبهم .

وتعتبر رسالة « كانت » « السلام الدائم » تطورا بديعا ونيلا حول هذا الموضوع . لقد كان كانت يشكو بقوله : « ان حكماننا لا يملكون المال للانفاق على تعليم الشعب وثقافته لانهم حولوا كل مواردهم المالية في الاستعداد للحرب القادمة . » ولن تتمدن الشعوب حقا ما لم تعمل على تسريح الجيوش القائمة فيها والغائها . لاشك ان هذا الاقتراح حول تسريح الجيوس وتصفيتها كان ينطوي على جرأة بالغة ، لان بروسيا اول من بدأت في عهد والد فردريك الكبير في فرض نظام التجنيد الالزامي على الجميع . (ان الجيوش

تثير المنافسة بين الدول وتدفعها الى زيادة عدد جنودها الذي لا يقف عند حد . ويصبح السلم في النهاية اشد ظلما من حرب قصيرة بسبب الافراط في تسليح الجيوش الذي يقع عبء الانفاق عليها على عاتق الشعوب . وهكذا تصبح هذه الجيوش القائمة سببا في الدخول في حروب عداوية تخوضها الدول لكي تتخلص من هذا العبء .) وذلك لان الجيش في زمن الحرب يعتمد في تزويد نفسه على البلد باجبار الشعب على تقديم ما يلزمه من مؤونة ومساكن او عن طريق السلب والنهب . ويفضل ان يلجأ الى مثل هذا العمل في ارض العدو ، ولكنه يقوم بذلك في بلاده اذا استدعت الضرورة لذلك . وحتى هذه الحالة الاخيرة خير من ارهاق مالية الدولة وتبديدها في الانفاق على الجيش .

يعتقد « كانت » ان هذه النزعة العسكرية سببها توسع اوربا في امريكا وافريقيا واسيا ، وما ينجم عنه من صراع وقتال بين اللصوص على الاسلاب والغنائم الجديدة التي تقع في ايديهم « ان سلوك هذه الدول المشين البعيد عن الانسانية وخصوصا الدول التجارية في قارتنا الاوروبية ، والمظالم التي تنزلها في شعوب البلدان الخارحية يملأ نفوسنا بالرعب . ان مجرد زيارة هذه الدول لتلك الشعوب تعتبر كافية لغزوها . فقد اعتبرت الدول الاوروبية الاستعمارية البلاد التي اكتشفتها كامريكا وبلدان الزنوج ، وجزر التوابل ، ورأس الرجاء الصالح وغيرها بلادا مباحة لا تخص احدا . ولم تقم وزنا لسكانها الاصليين . وقد وقع هذا كله من أمم ملأت العالم ضجيجا ولفظا بتقواها ووروعها . وفي الوقت الذي تسقي فيه هذه الامم الظلم كالماء ، تعتبر نفسها سفوة الدين وشعب الله المختار .

لقد نسب (كانت) هذا الشره الاستعماري الى نظام الحكم الالجزائري « حكم القلة » الذي كان يسود الدول الاوربية ، حيث كانت تتسرب الاسلاب والغنائم الى الاقلية الحاكمة . اما اذا قامت حكومة ديمقراطية وحلت محل حكومات الاقلية ، وساهم كل الشعب في السلطة السياسية فان غنائم النهب والسراقات الدولية هذه ستوزع على افراد الشعب . ولا يصيب الواحد منهم الا مقداراً ضئيلاً لا يفرى على المخاطرة في الحرب من اجل الغنائم والاسلاب . لذلك فقد كانت المادة الاولى لتعريف شروط « السلام الابدي » الذي دعا اليه « كانت » هي « ان يكون الدستور المدني لكل دولة دستورا جمهوريا ، وان لاتعلن الحرب الا باستفتاء جميع المواطنين . لاننا اذا خيرنا الذين تقع عليهم اعباء الحرب وينكفون بنا رهابين السلم والحرب ، فانهم سيختارون السلم حتماً ، وبذلك لن يعود التاريخ يسطر بالدماء . اما في الدولة التي لا ينص دستورها على حق الشعب في التصويت والانتخاب ولا يشترك الشعب فيها بالحكم ، ولا يكون فيها نظام الحكم جمهوريا ، فان قرار الدخول في الحرب يكون في ايدي القلة الحاكمة . ويكون الحاكم في هذه الحالة لا مجرد مواطن فحسب بل مالك للدولة . وبفضل كونه حاكماً فلن يتعرض الى احوال الحرب ومخاطرها وآلامها . ولن يكون ملزماً بالتضحية بملذاته في قصوره بين الموائد والحفلات والخروج الى الصيد والقنص وما شابه ذلك . لذلك فهو يعلن الحرب لاسباب تافهة وكأنها ليست سوى رحلة للصيد . اما بالنسبة الى تبرير اعلان الحرب فيتركه بلا اهتمام الى الهيئات الدبلوماسية التي تكون دائماً على استعداد لتقديم خدماتها من اجل هذا الغرض » .

لقد بعث انتصار الثورة الفرنسية على جيوش الرجعية في عام ١٧٩٥ روح الامل في « كانت » ورجا ان ينتشر النظام الجمهوري في جميع انحاء اوروبا . وان يسود العالم نظام دولي يقوم على الديمقراطية والغناء الرق والعبودية والاستغلال . وان يتعهد هذا النظام الدولي بنشر السلام في العالم . ان مهمة الحكومة هي الاخذ بيد الفرد ومساعدته على النمو والتطور ، وليس استخدامه وانتهاك حقوقه واستغلاله « ان احترام الفرد واجب لذاته ، وانها لجريه ضد كرامة النرد كانسان ان تقوم الحكومة باستخدامه كوسيلة لتحقيق مطامعها وآربها في الخارج . » انه جزء من مجموعة المبادئ الخلقية التي اذا تجرد الدين منها يتحول الى نفاق ورياء وسخافة مضحكة . ولذلك فان « كانت » يدعو الى المساواة بين افراد المجتمع ، واتاحة الفرص امامهم للتطور بالمواهب والامكانيات الكامنة فيهم . وهو يرفض كل ضروب الامتيازات الطائفية والعائلية والطبقية . وهو يعزو جميع انواع الامتيازات الوراثية الى اعمال الغزو والعنف الذي ظفرت فيه الاسر بهذه الامتيازات في الماضي .

لقد وقف « كانت » مؤيدا للديمقراطية والحرية في الوقت الذي اجتمعت فيه الرجعية والظلم واتحاد ملوك اوروبا على سحق الثورة الفرنسية . وقد اتخذ موقفه هذا على الرغم من انه كان في السبعين من عمره . لقد دعا الى اقامة النظام الديمقراطي والحرية في كل مكان ولم يشاهد التاريخ كهلا دعا الى مبادئه بشجاعة لا تقل عن شجاعة

الشباب مثله . لقد استنزف الكفاح وضعف الشيخوخة قواه ، لقد
جرى في سباقه وحارب معركته ، واصابه خرف بسيط انتهى اخيرا
الى جنون مؤذ ، واخذت قواه ومشاعره تقارقه الواحدة بعد
الاشرى وفي عام ١٨٠٤ اسلم روحه يهدوء وسقط كورقة شجرة ذابلة في
ايام الحريف .



٧ — نقد وتقدير

والإن كيف استطاع هذا الصرح المركب الذي شيده « كانت » الصمود أمام العواصف والاعاصير الفلسفية التي عصفت به طيلة قرن من الزمان ؟ كيف استطاع هذا الصرح الذي يجمع بين المنطق ، والميتافيزيقا ، وعلم النفس ، والاخلاق والسياسة ان يقف الى اليوم ؟ من الممتع الاجابة بأن الكثير من هذا الصرح لا زال باقيا ، وان الفلسفة النقدية التي اقامها ذات اهمية دائمة في تاريخ الفكر على الرغم من تداعي بعض النواحي التفصيلية في هذا البناء العظيم الذي قام بتشيينه .

ان اول ما اخذ عليه من وجوه النقد هو فكرته عن المكان . فهل اصاب « كانت » عندما قال ان المكان صورة حسية ليست له حقيقة مستقلة عن العقل المدرك ، والاجابة على هذا السؤال هو نعم ولا ، نعم ، لان المكان فكرة ذهنية تظل فارغه حتى تملؤها المدركات الحسية ، اذ ليس معنى المكان الا اشياء بعينها في موضع معين بالنسبة الى الشخص المدرك ، او هو مسافة تقاس بالنسبة الى اشياء مدركة . ويستحيل على الانسان ان يدرك الاشياء الخارجية ادراكا حسياً الا وهي في مكان . اذن لاشك ان المكان صورة

ضرورة لا بد منها للحس الخارجي ولا ، لأن ثمة حوادث تقع في المكان دون ان يدركها الانسان ادراكا حسيًا ، وفي مثل هذه الحالة يكون المكان مستقلا عن الادراك الحسي ، ولا يكون كما قال « كانت » صورة عقلية يستخدمها الانسان في صياغة المدركات الحسية . والمثال على ذلك دورة الارض حول الشمس كل سنة . فهي تتم في المكان دون ان يدركها الانسان بجواسه . فليس صحيحا ان ما زعمه « كانت » من ان الانسان يتلقى احساسات لا مكانية فيخلع عليها عقله المكان ، بل الصحيح اننا ندرك المكان في نفس الوقت الذي ندرك فيه الاشياء .

وكذلك ليس الزمان حقيقة ذاتية فحسب ، بل هو ايضا موضوعي موجود في الخارج بغض النظر عن الانسان . فهذه الشجرة المعينة تكبر وتذوى وتتلشى سواء ادركنا نحن مرور الزمن عليها وقسناه ام لم ندركه . والحقيقة ان « كانت » كان مهما جدا في اقامة الدليل على ان المكان ذاتي محض ، وليس له وجود في الخارج . لعله ينبج من المذهب المادي ، فخشي ان يقرر موضوعية المكان ولا نهايته فينتج عن ذلك وجود الله في مكان ووجوده في المكان يعني ماديته .

لقد انتهى العلم الحديث بنظرية النسبية الى نفس ما قاله (كانت) عن الزمان والمكان . ولكن يؤخذ عليه ما ذهب اليه من ان الحقيقة مطلقة من حيث الثبوت واليقين . فقد جاءت الدراسات الحديثة التي قام بها بيرسون في المجلترات وماش في المانيا وهنري بونيكايري في فرنسا مؤيدة لهيوم فاثبتت بأن جميع العلوم حتى الرياضيات الدقيقة نسبية في حقيقتها . واصبح العلم يقنع برجحان كفه الاحتمال دون ان يطالب بحقيقة مطلقة .

ولكن اعظم ما وصل اليه « كانت » هو ما ذكره عن ان الانسان لا يعلم عن العالم الخارجي الا ما يأتيه عن طريق الحواس ، وان العقل ليس مجرد صفحة بيضاء عاجز عن العمل وضحية للحواس . ولكنه وكيل ايجابي يقوم باختيار واعادة بناء التجربة عندما تصل اليه .. ولكن هنالك من يشكون في فطرية هذه الصور الذهنية . اي في وجودها عند الانسان قبل ان يصل اليه من الخارج احساس ما . فيقول « سبنسر » ان ذلك قد يكون صحيحا في الفرد ، ولكنه خطأ بالنسبة للجنس كله ، اعني ان الانسان كجنس قد استمد هذه الصور الذهنية من العالم الخارجي ، ثم ورثها لافراده . وهنالك من يقول ان هذه الصور الذهنية اقنية فكرية ، او عادات كونتها تدريجيا الاحساسات ثم المدركات الحسية ، فاصبح للانسان بعد تكوينها القدرة على الادراك الحسي والعقلي ، ويقول هذا الفريق من المفكرين ان الذاكرة (اي الصور الحسية المحفوظة في الذهن ، والتي جاءت من الخارج على مر الايام) هي التي تفسر الاحساسات التي تأتينا عن طريق الحواس المختلفة وهي التي تنظمها وتبويبها وتحولها الى مدركات حسية ، ثم تحول هذه المدركات الحسية الى افكار فالذاكرة هي التي تسبب ما للعقل من وحدة وتماسك - واذن فوحدة العقل مكسوبة لاموهوبة كما قال « كانت » وقد يفقد الانسان ما اكتسبه من وحدة العقل في بعض الحالات كالجنون مثلا . وعلى ذلك تكون كل مدركاتنا العقلية من صنعنا وليست فطرية موروثه .

لقد تناول الناقدون في القرن التاسع عشر نظرية « كانت » في الاخلاق بالنقد الشديد ، وانكروا اطلاقها وفطريتها ، وذهبت فلسفة التطور الى ان شعور الانسان بواجبه ليس صادرا عن اخلاقية فطرية كما ذهب اليه « كانت »

ولكنه مستمد مما اودعه المجتمع في الفرد من قواعد للسلوك ، وان الضمير مكتسب على الرغم من ان النزعة الغامضة في الانسان نحو السلوك الاجتماعي فطرية . فالاخلاق ، والانسان الاجتماعي « ليس مخلوقا خاصا » صنعه الله كما هو عليه الان ، ولكنها نتيجة تطور استغرق فترة طويلة من الزمان ، وليست الاخلاق عامة مطلقة ، ولكنها قانون للسلوك يتطور وينمو بما هو ملائم لحياة الجماعة . وهي متغيرة بتغير طبيعة الجماعة وظروفها . فالنزعة الفردية مثلا تتنافى مع الاخلاق في شعب يحاصره العدو ، ولكنها تكون وسيلة ضرورية بالنسبة الى امة فتية آمنة لاستغلال ثروتها ومصادرها الطبيعية وتكوين اخلاقها القومية ، وتساعدتها في تطورها وتقدمها ونهوضها . فليس هناك عمل خير في ذاته كما يقول « كانت » .

لقد ادت به تربيته الدينية في ايام شبابه ، وحياته الحشنة التي كانت يسودها الشعور بالواجب وقلة اقباله على الملذات الى ميل اخلاقي ، فقد انتهى اخيرا الى تأييد الواجب من اجل الواجب في حد ذاته ، وهكذا وقع بفسير قصد بين ذراعي البروسية المطلقة . ان « كانت » يواصل السير في اصلاحات لوثر والرواقين ، كما واصل فولتير نهضة مونتسني والابيقوريين . لقد كانت « كانت » يمثل رد فعل قوي ضد الانانية وعبادة اللذة او مذهب السرور الذي طبع فيه هلفيسوس وهولباخ حياة المرحلة المحطمة التي عاشوا فيها . لقد ثار مثل لوثر على حياة الترف والتهاون التي كانت تسود ايطاليا في ذلك العهد . ولكننا نجد انفسنا بعد قرن من الثورة ورد الفعل على اخلاق كانت مرة ثانية نتمرغ في وحل من عبادة الشهوات ، ونغوص في بحر من اللا اخلاقية والفردية القاسية التي لم يخففها الضمير الديمقراطي او الشرف الارستقراطي .

وقد يجيء الوقت الذي ترحب فيه مدنيه منحلة على وشك الانهيار بدعوة
الواجب التي دعا لها « كانت »

ان ما يسترعي النظر في فلسفة « كانت » هو انة عاد في كتابه النقدي
الثاني الى اعادة احياء فكرة الله ، وحرية الارادة والخلود التي دمرها في
في كتابه الاول . وقد قال عنه احد النقاد « انك تشعر عندما تقرأ كتب
« كانت » انك في سوق ريفية . وانك لاتستطيع ان تشتري منه اي شيء
تريد من حرية الارادة وجبرها ، المثالية ودحضها ، الاحاد والايان بالله .
فهو اشبه شيء بالحاوي يخرج من كيسه الحاوية كل شي ، اذ تراه يخرج من
فكرة الواجب ، الها وخلودا وحرية . مثيرا دهشة القارىء . ويعتقد
« شوبنهاور » ان « كانت » كان في حقيقة الامر شاكا كفرد بالدين نفسه ،
ولكنه تردد في هدم ايمان الناس اشفاقا على الاخلاق العامة من ان
يصيبها الدمار .

« لقد كشف « كانت » عن الاسس العقلية الواهية التي يقوم عليها
اللاهوت الشعبي من غير ان يمسه ، ودعمه بطريقة اكثر نبلا يجمله الايمان يقوم
على الشعور الاخلاقي . « وكأنه ادرك الخطأ الناجم عن هدمه اللاهوت القديم
فاتجه الى اللاهوت الاخلاقي يستمد منه بعض الدعائم الواهية المؤقتة عسى ان
يظل البناء قائما ليتمكن من الفرار قبل ان تسقط انقاضه عليه وهكذا
فاننا نجد « هيني » يمثل « كانت » بطريقة كاريكاتورية هزلية مقصودة بمد
ان هدم صرح الدين ، يسير في نزته المعتادة مع خادمه « لامب » وفجأة
يرى الدموع تجري في عيني خادمه الكهل ، فتأخذه الشفقة ويحاول ان يثبت
للعالم انه ليس مجرد فيلسوف عظيم بل انسان طيب وصالح ايضا . ويريد ان

يدخل السعادة الى قلب خادمه الذي لا يستطيع ان يعيش بغير اله ،
وفي ذلك فقد ذهب الى ان العقل العملي يضمن وجود الله ، واذا
كان هذا صحيحا فاننا يصح ان نسمي كتابه النقدي الثاني « الغاز
الخائق الثاني »

ولكن يجب ان لا تأخذ بعين الجدل داخلية « كانت » ، وكونه
يبطن في نفسه الحادا ، فان لهجته الحماسية في مقاله عن « الدين في حدود
العقل الخالص » تدل على اخلاص شديد لا يمكن الشك فيه ، كما ان محاولته
تغيير الاسس الدينية من لاهوت نظري الى اخلاقي ، ومن عقيدة الى سلوك ،
تدل على عقلية دينية عميقة . فقد كتب الى صديقه ميندلسون في عام ١٧٦٦
يقول انني افكر في اشياء كثيرة اوقن بصحتها ... ولكنني لم اجد الشجاعة
اطلاقا على الافضاء بها . ولكن لن اقول شيئا اطلاقا لا اعتقد بصحته .
« وطبيعي ان تتضارب التفسيرات وتتناقض التعليقات حول كتاب « النقد
المعظم لما فيه من غموض واسهاب . لقد ذكر راينهسولد في تعليق له على هذا
الكتاب بعد سنوات قليلة من ظهوره كثيرا من اوجه النقد والتعليق التي
نشرها حوله اليوم فقال « لقد اعلن المتدينون المعقائديون بأن « نقد العقل
الخالص » محاولة شاك يحاول بها تقويض يقين المعرفة . وقال اصحاب
الشك ، ان هذا الكتاب ادعاء وقح يحاول بناء صورة جديدة من اليقين في
العقيدة على انقاض الانظمة الماضية . وقال المعتقدون بما فوق الطبيعة
انه حيلة مدبرة خبيثة لمحو اسس الدين التاريخية واقامة المذهب الطبيعي
بلا جدال . وقال الطبيعيون انه دعامة جديدة لفلسفة الايمان التي

تحتضر . وقال الماديون انه مثالية تحاول نقض حقيقة المادة ، وقال الروحانيون ، انه تحديد لامبر له للحقيقة كلها وحصرها في العالم المادي .

« والواقع ان عظمة هذا الكتاب ومجده تقع في تقديره بلبيع وجهات النظر وذكاء « كانت » نفسه ، ولعله قد وفق بينها وصهرها جميعها في بوتقة من وحدة الحقيقة لم تشاهد الفلسفة لها مثيلا في تاريخها الماضي كله .

اما بالنسبة الى تأثير آرائه ، فحسبنا ان نقول ان افكار القرن التاسع عشر الفلسفية كانت تلف وتدور حول آرائه . واخذت المانيا كلها تتحدث عن الميتافيزيقا من بعده . وقام شيلر وجوته بدراسته واقتبس بيتهوفن باعجاب شديد كلماته المشهورة عن غرائب الحياة الاثنين السماء المرصعة بالنجوم فوقنا ، والقانون الاخلاقي فينا « وانتج فخته ، وشلنج ، وهجل وشوينهور في تماقب سريع انظمة من الافكار استمدت ثقافتها منه . وفي هذه الايام المثمرة من ايام المانيا كتب جين باول ريشتر هذه العبارة :

« لقد منح الله الفرنسيين البر ، والانجليز البحر ، والالمان امبراطورية السماء . »

« لقد مهد نقد « كانت » للعقل ، وتمجيده للشعور الطريق لمذهب الارادة في شوينهور ، ونيتشه ، والوجدانية في برجسون والبراجمازم في وليام جيمس . كما استمد هجل نظاما تاما من الفلسفة من تشبيهه قوانين

الفكر بقوانين الحقيقة . واثـر « الشـيء في ذاته » على سبـنسر تأثيرا كبيرا ، كما ان كيرد وجرين وولاس وواتسون وبرادلي وكثيرين غيرهم في انجلترا مدينون في الهامهم الى كتاب كانت « النقد الاول » وحتى نيتشه استمد فلسفته في المنطق والمعرفة من كانت . وبعد صراع استمر قرنا من الزمان بين مثالية كانت وماديه عهد التنوير ، يبدو ان النصر في جانب « كانت » .

٨ - تعليق حول هجل

ولد جورج ولهم فردريك هجل في شتجارت عام ١٧٧٠ وكان والده موظفا صغيرا في وزارة المالية في ولاية فرتمبرج . لقد كان هجل تلميذا نشيطا ، وقام بتحليل كل الكتب الهامة التي قرأها تحليلا مفصلا . لقد اثارت مطالعته ودراساته للادب اليوناني حماسة شديدة للحضارة الاثينية بقيت في نفسه الى النهاية ، على الرغم من ان حماسة لفروع اخرى من فروع الادب والمعرفة في شبابه خف تدريجيا كلما تقدمت به السن فقد كتب (ان الالماني المثقف يجد نفسه في بيته عندما يطلع على حضارة اليونان . لقد اخذ الاوروبيون دينهم عن الشرق . ولكنهم استمدوا علومهم وفنونهم ، وكل ما يرفع من شأن حياتهم ويضفي عليها الجمال والرضى عن اليونان بطريقة مباشرة او غير مباشرة . لقد آثر هجل فترة من الوقت دين اليونان على المسيحية . وكتب كتابا انكر فيه معجزات المسيح وانكر الوهيته ، واعتبره ابنا لمريم ويوسف ، ولكنه قام باتلاف الكتاب بعد ذلك .

كما اظهر روحا ناثرة في السياسة ايضا على الرغم من ولائه وتأييده لموضع الراهن . فقد دافع دفاعا مجيدا بالاشتراك مع شلنج عن الثورة الفرنسية.

وانجبه ذات صباح ليفرس شجرة الحرية في سوق المدينة . لقد تخرج من جامعة
توبنجن عام ١٧٩٣ بشهادة اطرت على اخلاقه وتفوقه في اللاهوت وفقه اللغة ،
وضعفه في الفلسفة . لقد كان فقيرا لدى تخرجه واضطر لكسب عيشه الى
التدريس في بيرون وفرانكفورت . وقد ساعدته هذه السنوات التي قضاها في
التدريس على بناء افكاره وارائه . وفي الوقت الذي تمزقت فيه اوروبا الى
شيع قومية ، كان هجل يجمع امره وينمي مداركه .

توفي والده في عام (١٧٩٩) وترك له ما قيمته « ١٥٠٠ » دولار . وشعر
بانه اصبح غنيا بهذا المال فاعتزل التدريس . وكتب الى صديقه شلنج يسأله
رأيه في مكان تتوفر فيه بساطه العيش ووفرة الكتب . و اشار عليه شلنج
بالانجاء الى « بينا » التي كانت مدينة جامعيه يحكمها دوق فيمار ، وكان شيار
استاذ التاريخ في جامعة المدينة ، بينا كان فخته وشلنج في دور اعداد
فلسفتيها . وصل هجل الى تلك المدينة في عام ١٨٠١ وفي عام ١٨٠٣ عين
استاذا في جامعتها .

لقد كان هناك في عام ١٨٠٦ عندما القت انتصارات نابليون على الجيش
البروسي هذه المدينة العلمية الصغيرة في جو من الرعب والفوضى . واغار
الجنود الفرنسيون على بيت هجل . فلاذ بالفرار كفيلسوف بارع يحمل معه
نسخة من اول كتاب هام له « علم تجسد الروح » وبقي فترة من الوقت يعاني
العوز مما دفع صديقه جوته ان يطلب من كنيبال مساعدته بقليل من المال .
ولفترة من الوقت قام بتحرير صحيفة في بامبرج ، وفي عام ١٨١٢ ترأس مدرسة
ثانوية في نورنبرج ، وكتب اثناء رئاسته لهذه المدرسة كتابه « المنطق » (١٨١٢
- ١٦) الذي اثار المانيا بغموضه ، وجعله يفوز بمنصب استاذ الفلسفة في جامعة

هايدلبرج حيث كتب هناك « موسوعة العلوم الفلسفية » وقد رفعت هذه الموسوعة من ذكره وشأنه وعين استاذا في جامعة برلين . ومنذ ذلك الوقت الى نهاية حياته ساد عالم الفلسفة بلا منازع ، كما ساد جوته عالم الادب وبيتهوفن عالم الموسيقى . لقد ولد بعد جوته بيوم واحد ، وتحتفل المانيا الفخورة بهابيديها كل سنة .

لقد طلب مرة احدالفرنسيين من هجل ان يجمل فلسفته في جملة واحدة ، ولكنه لم يفلح تماما مثل ذلك الراهب الذي طلب منه تعريف المسيحية وهو واقف على قدم واحدة فقال : « ان تحب الخير لجارك كما تحبه لنفسك . » لقد فضل هجل الجواب على ذلك السؤال باخراج عشرة مجلدات واشتكى بعد كتابتها ونشرها وحديث العالم باسره عنها بقوله : « لم يفهمي سوى رجل واحد ، وحتى ذلك الرجل لم يفهمني جيدا . ان معظم كتاباته تتألف مثل ارسطو من مذكرات محاضراته او مذكرات تلاميذه التي دونها اثناء سماعهم لهذه المحاضرات . ولم يكتب بيده سوى كتابيه « المنطق » « وعلم تجسد الروح » وما كتابان في غاية الغموض والابهام . ويصف هجل كتاباته بكونها « محاولة لتعليم الفلسفة النطق والتحدث باللغة الالمانية » وقد افلح في ذلك .

ان كتابه المنطق لايجتوي على وسائل التفكير ولكن على النظريات المتبعة في التفكير . وهي الكيف والكم ، والصلة وغيرها . ان مهمة الفلسفة الاولى هي تشريح هذه الافكار المرتبطة في جميع تفكيرنا . واكثرها شمولا وانتشارا هي الصلة او العلاقة . ان كل فكرة تتألف من مجموعة من الصلات والعلاقات . اتنا لانستطيع التفكير بالشيء الا اذا قارناه بشيء آخر ، وادركنا اوجه الشبه والخلاف فيه . والفكرة تكون فكرة فارغة اذا تجردت

عن العلاقات . ولا يمكن لشيء ان يوجد او يكون له معنى اذا كان مجردا عن العلاقات والصلات .

واكثر هذه الصلات والعلاقات شمولاً هي صلة التعارض او التناقض . فهو يقول ان كل حالة لفكرة او شيء ، وكل رأي وكل موقف في العالم يؤدي الى موقف معارض له ، وبعدئذ يتحد هذا المعارض او المضاد معه لتشكيل كل اعلى . ان هجل يدخل هذه « الحركة المنطقية » في كل ما كتبه من كتب والقاه من محاضرات . انها فكرة قديمة طبعاً ، اشار اليها امبيزوقليس ، وتجسمت في «الوسط الذهبي» الذي ذهب اليه ارسطو الذي قال ان معرفة الاضداد امر واحد . « يمتد هجل بأن الحقيقة (مثل الالكترون) وحدة عضوية لاجزاء مضادة . وبهذا فان الحقيقة في مذهب المحافظين والمتطرفين في السياسة هو مذهب الاحرار . ان تشكيل ارائنا بالنسبة الى القضايا الكبرى هو التذبذب بين قطرين . اذ اننا نجد حركة التطور هي حركة دائمة للتطور بين الاضداد والتوفيق بينها ودمجها . وهو يقول ان شلنج على صواب في قوله بوجود تماثل بين الاضداد كما أن فخته على صواب في ان الموضوع وضده وتوحيدهما معايشكل سر التطور وكل الحقيقة . فمثلا الرأسمالية نظام والشيعوية نظام آخر مضاد للرأسمالية والتوحيد بين هذين النظامين او الفلسفتين يؤدي الى التطور بهما ومن هذا التطور ينبثق نظام ثالث ارقى منها .

ليست الافكار وحدها خاضعة لهذا التطور الذي يتحدث عنه هجل . اذ ان الاشياء ايضا خاضعة لذلك ، فكل قضية تحتوي على تناقض وتعارض ينتهي به النمو والتطور الى وحدة وانسجام وتوفيق بين هذه الامور المتعارضة .

ان نظمنا الاجتماعية تخفي بآكلا وتعارضاً في ذاتها . فالنزعة الفردية الباعثة . التي نحتاجها في فترة المراهقة والمصادر التي لم تستثمر بعسء ، تثير في وقت متأخر النزعة والميل الى التعاون المشترك بين افراد الامه او بعبارة اوضح الى دولة تعاونية . وسوف لا يشاهد المستقبل الحقيقة الحاضرة ، ولا المثل الاعلى الخيالي . ولكن الوحدة والانسجام بين هذه الحقيقة والمثل الاعلى ستؤدي الى حياة ارقى وافضل وهذه الحياة الافضل والارقى ستنقسم ايضا الى اطراف متعارضة ومتناقضة ، وتنهض الى مستوى ارقى وافضل من التنظيم والتركيب والوحدة . لذلك فان حركة الافكار هي نفس حركة الاشياء . اذ يكمن في كل واحدة منها نفس التطور والتسلسل من وحدة الى تعارض ومن تعارض الى وحدة . ان الافكار والكون يتبعان نفس القانون . والمنطق والميتافيزيقا امر واحد . العقل وسيلة لا بد منها لادراك هذه العملية المنطقية ، وهي التطور من وحدة الى تعارض ومن تعارض الى وحدة . ان عمل العقل ومهمة الفلسفة هي اكتشاف الوحدة الكامنة في التعارض او التغير . ومهمة علم الاخلاق هي توحيد السلوك والاخلاق ومهمة السياسة هي توحيد الافراد في داخل الدولة . ومهمة الدين هي بلوغ المطلق وهو الله والشعور بانه ذلك الذي تحللت فيه جميع المتناقضات في وحدة ، ذلك المقدار الكبير للكون الذي اتحدت فيه المادة والعقل ، والفاعل والمفعول ، والخير والشر في واحد . ان الله هو نظام الصلات الذي تتحرك بسه جميع الاشياء وتعيش ، وتوجد وتجد فيه اهميتها . ان المطلق ينهض في الانسان الى وعى ذاتي . ويصبح الفكرة المطلقة ، وذلك ان الفكرة تدرك نفسها كجزء من المطلق . متجاوزة حدود الفرد واغراضه ممسكة تحت الصراع العام الانسجام

المستتر لجميع الاشياء . ان العقل هو جوهر الكون . . ان تصميم الكون عقلي اطلاقا .

ليس الصراع والشر مجرد تصورين سلبيين . انها حقيقة ، ولكنها في نظر الحكمة مراحل لبلوغ الخير وتحقيقه . ان الصراع قانون النمو . كما ان الاخلاق تتشكل في الشدائد في هذا العالم . والانسان يصل الى سموه الكامل عن طريق الالزام والحاجة والمسئوليات والشدّة والالم . وحتى الالم فيه تعليل عقلي . انه علامة الحياة والحافز لاعادة البناء . والعاطفة ايضا لها مكان في عقل الاشياء . اذ لم يتم انجاز شيء عظيم في هذا العالم من غير ان يكون مقرونا بعمل عاطفي وحتى طموح نابليون الاناثي يساهم بغير قصد في تطور الامم . ان الحياة لم توجد للسعادة بل لتحقيق الاعمال وانجازها . « ان تاريخ العالم ليس مسرحا للسعادة ، وفتترات السعادة صفحات بيضاء فيه ، لانها فترات انسجام خالية من الصراع . » وهذا الرضى البليد غير جدير بالانسان . ان التاريخ يصنع فقط في الفترات التي يقرر فيها النمو والتطور اضداد الحقيقة والوجود . كما يمر تردد وارتيابك الشباب الى سهولة ونظام سن الرجولة والنضج . ان التاريخ حركة منطقية وهو في الغالب سلسلة من الثورات . يستخدم فيها المطلق الشعوب اثر الشعوب والعباقرة اثر العباقرة ادوات في تحقيق النمو والتطور . ان اعظم الرجال ليسوا الخالقين للمستقبل ولكنهم وسطاء في تحقيق هذا المستقبل وما يقومون بفعله ليس سوى تحقيق لما ترسمه روح العصر . ان العبقري لا يضع سوى حجرا آخر في كوم البناء كما يفعل الآخرون ، « ولكن لحسن حظ العبقري انه يجيء اخيرا ، وعندما يقوم بوضع حجره يقف البناء على دعائمه » ان مثل

هؤلاء الافراد لا يشعرون بالفكرة العمامة التي يقومون بكشفها . . .
ولكن لديهم بصيرة في حاجات الزمن ، وما هي الامور التي تم نضجها
وآن حصادها .

يبدو ان مثل هذه الفلسفة عن التاريخ تؤدي الى نتائج ثورية . ان هذه
العملية المنطقية في سير التاريخ تجعل من التغيير مبدأ الحياة الاساسي اذ لا
شيء خالد ، وفي كل مرحلة من مراحل الاشياء يوجد تناقض وتعارض لا يقوى
على حله سوى صراع الاضداد ، لذلك فان الحرية هي قانون السياسة ، وهي
طريق مفتوحة للتغيير ، والتاريخ هو نمو الحرية وتطورها . وتكون الدولة او
ينبغي ان تكون حرية منظمة . ومن جهة اخرى فان المبدأ الذي يقول ان
« الحقيقة معقولة له لون محافظ ، اذ ان كل حالة على الرغم من ان مصيرها
الزوال فيها الحق المقدس الذي يخصصها كمرحلة ضرورية في التطور . بمعنى انه
حقيقة قاسية « كل شيء يكون فهو حق » وكما ان الوحدة هي هدف التطور
فان النظام هو اللازم الاول للحرية .

واذا كان هيجل قد مال في السنوات الاخيرة من حياته الى وجهة النظر
المحافظة بدلا من التوريطات المتطرفة في فلسفته فذلك لان روح العصر كانت
قد ملت التغيير فقد كتب بعد ثورة ١٨٣٠ : « اخيرا بعد حروب واضطرابات
استمرت اربعين سنة ، يسر الانسان ان يرى نهاية لهذا الصراع ، ويرى بدايه سلام
يسوده الرضى » من غير الطبيعي ان يتحول هذا الفيلسوف الداعي الى الصراع
كوسيلة للنمو والتطور والرقي الى مؤيد - للقناعة والرضى . ولكن الانسان

في سن الستين له الحق في ان يطلب الهدوء ومع ذلك فان التناقض في افكاره كان اعمق بكثير من ان يحقق السلام . وانقسم اتباعه من بعده الى يمين ويسار . لقد تطور كارل ماركس بفلسفة التاريخ الهجلية الى نظرية صراع الطبقات التي تؤدي حسب الضرورة الهجلية الى اشتراكية لا مفر منها ، فقد قدم ماركس بدلا من المطلق الذي يقرر التاريخ عن طريق روح العصر ، الحركات الجماهيرية والقوى الاقتصادية كاسباب اساسية لكل تغيير اساسي سواء في عالم الاشياء او في حياة الفكر . لقد فقس هجل الاستاذ الامبراطوري بيض الاشتراكية .

رفض هجل المتطرفين واتهمهم بالخيال ، واخفى كتاباته الاولى المتطرفة بجرص وحالف الحكومة البروسية وربط نفسه بها . وباركها بكونها التعبير الاخير عن المطلق . وتمتع مقابل هذا التأييد والولاء للحكومة في شمس ما عرضت عليه من مركز علمي كاستاذ في الجامعة واطلق عليه اعداؤه اسم الفيلسوف الموظف .

اخذت امارات الكبر والهرم تبدو عليه بسرعة ، وبدا عليه شرود الذهن حتى انه مرة دخل الى غرفة المحاضرات بفردة حذاء واحدة في قدمه ، حيث ترك الفردة الثانية من غير ان يشعر في الطين ، وهو في طريقه للجامعة .

وعندما تفشى مرض الكوليرا وطرق ابواب برلين في عام ١٨٣١ كان هجل يجسمه المظنى الضعيف من اولى ضحاياها . ومات بعد مرض استمر يوما واحدا

فقط . لقد خرجت روحه بهدوء وهو في نومه . وكما شاهدت اوروبا مولد
ثلاثة من العباقرة وهم نابليون وبيتهوفن وهجمل في سنة واحدة فقد
فقدت المانيا بين عامي ١٨٢٧ - ١٨٣٢ جوته ، وهجمل وبيتهوفن .
لقد كانت خاتمة عهد ، لآخر مرحلة عظيمة من عصر المانيا الذهبي
العظيم .



الفصل السابع

شوبنهاور

١ - العصر

ارتفعت اصوات التشاؤم في النصف الاول من القرن التاسع عشر في اوروبا ، وعلت اصوات الشعراء المتشائمين في كل مكان « بيرون » في المجلترا « ودي موسيه » في فرنسا ، « وهيني » في المانيا ، « ليوباردي » في ايطاليا ، « بوشكين وليرمونتوف » في روسيا . وظهرت طائفة من الملحنين الموسيقيين المتشائمين من امثلل شوبرت وشوبان . وشوبن وحق بينهوفن كان موسيقيا متشائما يحاول ان يقنع نفسه بانه متفائل . ولكن ارثر شوبنهاور الفيلسوف الالماني طغى على هؤلاء جميعا في روح التشاؤم التي طبعت حياته وفلسفته .

لقد ظهر كتابه «العالم كارادة وفكرة» في عام ١٨١٨ . لقد كان عصر الحلف المقدس الذي اتحدت فيه اوروبا ضد نابليون وهزمته في معركة واترلو . وبذلك تم القضاء على الثورة الفرنسية وابتعد نابليون الى صحرة

سانت هيلانه في البحر البعيد ، ان شيئا من تمجيد شوبنهور للارادة يعود الى تأثره بنابليون ، كما ان شيئا من يأسه يعود الى تأثره بخاتمة نابليون المحزنة ، لقد هزمت الارادة اخيرا بهزيمة نابليون ، وانتصر الموت كعادته في كل الحروب وعاد « البوربون » الى الملك في فرنسا ، وعاد امراء الاقطاع للمطالبة في استرجاع اراضيهم ، وانتشرت حركة رجعية استغلت مثالية الاسكندر المسألة وراحت تعمل على قمع التقدم في كل مكان .

وانتهى العصر العظيم ، وقال جوته في ذلك العصر : اشكر الله ، بانني لست شابا في مثل هذا العالم المضطرب الذي انتهى فيه كل شيء بالخراب .

لقد كانت اوربا كلها خرابا منهوكة القوى ، وقضت الحرب على ملايين الرجال الاشداء ، وتركت الملايين من فداين الاراضي مهملة ، وكان على الحياة ان تبدأ من جديد من اول المرحلة ، تدريجيا وبتضحية مقرونة بالالم لاسترداد اقتصاديات البلاد التي استنزفتها الحرب .

لقد تأثر شوبنهور اثناء سفره وطوافه بفرنسا والنمسا عام ١٨٠٤ بما شاهده من حياة الفوضى والدمار والقذارة في القرى ، والفقر المدقع الذي انتشر بين الفلاحين والبؤس والتوتر الذي ساد المدن . لقد كانت اوربا مسرحا للقتال الدائر بين جيوش نابليون وجيوش اعدائه ، وخلفت هذه الجيوش اثار الدمار والخراب في كل بقعة من بقاع اوربا . وتحولت موسكو الى رماد . وحتى في انكلترا الفخورة بانتصارها على نابليون ، فقد اصاب الفلاحين ازمة

اقتصادية شديدة بسبب هبوط اسعار القمح . وتعرض العمال فيها الى جميع انواع الرعب والخوف التي رافقت النظام الصناعي الناشيء الذي لم يكن خاضعا للاشراف من جانب الحكومة . واطاف تسريح الجيوش الى عدد البطالة والعاقلين عن العمل .

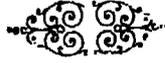
ومع ذلك فقد ماتت الثورة الفرنسية ، وماتت معها روح الحياة في اوروبا ، كم من الوف الابطال والمؤمنين بمبادئ هذه الثورة حاربوا من اجل انتصارها ؟ وكيف اتجهت افئدة الشباب في كل مكان في اوروبا صوب الجمهورية الفرنسية الفتية ، وعاشوا على ضوء الامل فيها ، وكم من الناس حاربوا من اجلها وآمنوا بها حتى النهاية .

واخيرا وقمت هذه النهاية بهزيمة جيوش الثورة في واترلو ومصير نابليون في سانت هيلانه ، ومؤتمر فينا ، وعودة اسرة البوربون الى عرش فرنسا المتخنة بالجراح ، عادوا ولم يتعلموا شيئا من مأساة الحرب ولم ينسوا شيئا ، هذه هي الحاتمة المجيدة لعهد من الامل والرجاء والجهد لم يشاهد له تاريخ الانسانية مثيلا من قبل ... اية رواية هزلية اقترنت بهذه المأساة المروعة ، التي امتزجت فيها الافراح بالاتراح ، والضحك بالدموع .

لقد لاذ الكثير من الفقراء في تلك الايام التي سادها الالم وخيبة الامل الى الدين طلبا للسلوى والعزاء . وفقد قسم كبير من الطبقة العليا ايمانهم ، ونظروا الى هذا العالم الذي يسوده الدمار والخراب نظرة الكفر والاحاد والشك في وجود حياة اخرى يحل فيها العدل والجمال محل هذا

الخراب والدمار الذي روع هذا العالم . واصبح من المتعذر الايمان
بوجود إله رحيم كريم يهيم على شؤون هذا العالم كما شاهده الناس
في عام ١٨١٨ .

وانتصر الشيطان على الخير والصلاح ، واستبد اليأس بالامل والرجاء .
لقد زرع فولتير ارض الثورة ، وجاء شوبنهاور لحصد هذه الارض .



٢ - الرجل

ولد شوينهور في دانزج في الثاني والعشرين من شهر فبراير عام ١٧٨٨ . وكان ابوه تاجرا امتاز بالمقدرة وحدة الطبع ، واستقلال الشخصية وحب الحرية ، وقد غادر دانزج التي جردها البولنديون من حريتها بضمها الى بولندا في عام ١٧٩٣ . وكان ابنه ارثر شوينهور في الخامسة من عمره في ذلك الوقت . لقد نشأ شوينهور الصغير في جو مشبع بروح العمل وكسب المال . وعلى الرغم من انه هجر حياة التجارة التي دفعه والده اليها ، فقد تركت اثرها في نفسه وطبعت نظرته الى الحياة بطابع الواقعية في التفكير ومعرفة بطبيعة الناس ، ومات والده منتحرا على الارجح في عام ١٨٠٥ . وتوفيت جدته وهي مصابة بالجنون .

لقد قال شوينهور انه ورث من ابيه خلقه وارادته ، وعن امه ذكائها . لقد بلغت امه اوج شهره في عالم القصص والروايات ، وغدت احدي مشاهير كتاب القصة في ذلك الوقت . لم تكن امه سعيدة في حياتها مع زوجها الذي لم تساعده ثقافته على الامتزاج معها ، وعندما توفي زوجها انطلقت - تبحث عن الحب المتحرر بعد ان تحررت من قيود هذه الحياة الزوجية . وارتحلت الى مدينة « فيمار » التي تنسجم مع هذه الحياة المنطلقة التي كانت تتوق لها . وقد ثارت

ثورة شوبنهور على هذا الاتجاه الجديد من امه ، و اثر النزاع بينها على نفسه
واثار فيها مقتته الشديد للنساء الذي رافقه طيلة حياته ، ولا يسعنا هنا الا ان
نسرده فقرات من خطاب ارسلته له يصور لنا مدى النزاع بين الام وولدها .
حيث تقول له : « انك عبء ثقيل لا يطاق ، والحياة معك عسيرة لا تحتمل .
لقد طغى غرورك بنفسك على كل صفاتك الطيبة . وغدوت لا فائدة ترجى منك
لعجزك عن منع نفسك من تسقط هفوات الناس وعيوبهم . » وهكذا تم
الاتفاق بينها على ان يعيشا منفصلين بعد ان تعذرت الحياة بينها واصبح
شوبنهور لا يتردد على منزل امه الا كما يتردد عليها الضيوف والزوار من وقت
لاخر . وكانت الكلفة والمجاهلة المصطنعة تطبع هذه الزيارات تماما كما يطبع
التكلف المصطنع حديث الاغراب لا حديث الام لولدها . وقد زاد في توتر
هذه العلاقة ان « جوته » الذي كان يحب ام شوبنهور لانها كانت تسمح له
باحضار كريستيان معه ، ان قال للام يوما بانه سيكون لولدها شأن عظيم ،
وسيفقدو رجلا مرموقا ومشهورا . وقد اثار هذه الملاحظة استياء الام وغيرها
من منافسة ولدها لها في شهرتها ، فهي لم تسمع بظهور نابغتين في اسرة واحدة .
واخيرا في ذروة نزاع بينها ، دفعت الام ولدها ومنافسها في نبوغها من اعلى
درج منزلها . ولكنه نهض واقفا وقال لها بصوت مختنق من المرارة والحسرة ،
ان الاجيال القادمة لن تعرفها ، وتسمع بها الا عن طريقه ، وهو بشهرته وذووع
صيته سيخلد اسمها واسرع فيلسوفنا في مغادرة مدينة « فيار » وعلى الرغم من
ان امه عاشت بعد ذلك اربعة وعشرين عاما فانه لم يرها بعد ذلك الحادث
بينها . ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ان « بيرون » الشاعر الانجليزي قد
ولد في عام (١٧٨٨) وهو العام الذي ولد فيه شوبنهور ، وكان حظه مع امه

سيئا مثل شوبنهاور . وقد انتهى به هذا الحرمان من عطف امه الى ما انتهى اليه شوبنهاور من تشاؤم ، فالانسان الذي يحرم من حنان الام وحبها ولا يعرف سوى مقتها وكراهيتها ، لن يفتنه او يفريه بعد ذلك شيء من محاسن الدنيا ومباهجها .

وفي الوقت ذاته فقد واصل شوبنهاور العابه الرياضية ودراسته الجامعية ، واستوعب من المعلومات فوق ما درسه في برامج الجامعة . وسخر من الحب والعالم والقي بها من وراء ظهره . وقد طبع هذه الاتجاهات حياته وترك اثره في اخلاقه وفلسفته . وغدا كئيذا ساخرا مراتبا ، قلقا تستبد به المخاوف ويخشى على نفسه من شرور الناس وغدرهم . واغلق على نفسه الابواب . ولم يسلم ذقنه ورقبته اوسى الحلاق اطلاقا . ونام ومسدسه محشوا بالرصاص دائما الى جانبه في انتظار من تحدته نفسه من اللصوص بالسطو عليه وكان لا يحتمل الجلبة والضجيج وهو يقول في ذلك : « اعتقد ان طاقة الانسان على تحمل الضوضاء والضجيج من غير ان يضيق به دليل على مقدرته العقلية ويكون مقياسا لها . . . ان الضجة والجلبة تعذيب للمثقفين الاذكياء الذين يعملون بعقولهم . . . لقد سببت لي الضجة والجلبة الناجمة عن الدق والطرق عذابا يوميا طيلة حياتي . » كان شوبنهاور يحس في اعماق نفسه بعظمته ، على الرغم من عدم اعتراف الناس به ، وعندما فاته النجاح والشهرة انقلب الى نفسه ، يعضاها ويقرضها باسنانه .

لقد عاش وحيدا بلا ام ولا زوجة ولا ولد ، ولا اسرة ولا وطن ولا صديق . ولم تلهب حسي الحماس الوطني التي اجتاحت عصره شعوره واهتمامه . لقد تأثر في

عام ١٨١٣ بجاس « فخته » للدخول في حرب تحررية ضد نابليون ، وفكر بالتطوع واشترى بعض الاسلحة اللازمة للقتال ، ولكن الحكمة اوقفته في الوقت المناسب ، وعدل عن التطوع مقنعا نفسه بان نابليون لم يزد عن الافصاح عن تأكيد ذاته وشهوته في الاستزادة من الحياة التي يشعر بها ضعاف الناس ويخفونها في صدورهم مرغمين . وبدلا من الذهاب للحرب ، اتجه الى الارياف وكتب رسالة في الفلسفة لنيل شهادة الدكتوراة .

وبعد كتابة هذه الرسالة التي كان موضوعها عن « العقل » انصرف بكل وقته وقوته على كتابة كتابه الذي اطلق عليه اسم « العالم كارادة وفكرة » وعندما ارسله للناسر علق عليه بقوله : « ان هذا الكتاب ليس مجرد سرد لافكار واره قديمة ، ولكنه بناء شامخ متماسك من الاره الاصيله ، والبيان الواضح ، ولا يخلو من الجمال على الرغم من عنف اسلوبه ، انه كتاب سيكون في المستقبل مصدرا وموردا لمئة كتاب .

لقد كان شوبنهاور على ثقة تامة بانه قد حل في كتابه هذا جميع مشاكل الفلسفة حتى انه فكر في صنع خاتم منقوش عليه صورة ابي الهول ، وهو يلقي بنفسه في الهاوية ، حيث تعهد بان يفعل ذلك اذا حلت رموزه وطلاسمه .

ومع ذلك فان هذا الكتاب لم يلق رواجاً او اهتماماً ، فقد كان العالم فقيراً ومتعباً ، ولا حاجة به لقراءة كتاب عن فقره وتعبه وبعد ستة عشر عاماً من طبع الكتاب ابلغ شوبنهاور ان جزءاً من نسخه بيعت بالجملة ورقاً تالفاً

ليستخدم في رزم ولف البضائع . وقد اشار شوبنهور في مقال عن الشهرة في « حكمة الحياة » الى كتابة العظيم هذا بجرقة واسى بقوله : « ان كتابا مثل هذا اشبه بمرآة ، اذا نظر فيها حمار فلا ترجو ان يرى فيها ملاكا . » وهل اذا اصطدم رأس وكتاب وانبعث من احدهما صوت اجوف ، ايكون الاجوف هو الكتاب دائما ، ويواصل شوبنهور كلامه بصوت الكبرياء التي اصاها جرح : « كلما كان الكاتب او الفيلسوف عبقريا ويكتب للاجيال القادمة ، او بعبارة اوضح للانسانية بوجه عام ، كان غريبا بالنسبة الى معاصريه الذين يعيش بينهم ، لان كتابه ليس موجها لهم وحدهم ، بل يخاطبهم كجزء من الانسانية عامة . لذلك سيكون هذا الكتاب خاليا من الصبغة المحلية التي تستهويهم ، وتسترضيهم وتقال قبولهم .

وبعدئذ يقول في فصاحة الثعلب في قصة العنب :

« هل يشعر الموسيقي بالمديح والاطراء عندما يعلو استحسان جمهور سامعيه له ، اذا عرف ان - اكثرهم صم لا يسمعون ، وانهم اوصوا شخصا او اثنين ليصفقوا عنهم ليخفوا عاهتهم وماذا هو قائل اذا عرف ان ذلك الشخص او الشخصين كانا مدفوعين بالرشوة لتقديم اعظم استحسان لاضعف عازف موسيقي ؟ .

لقد افرغ شوبنهور نفسه افراغا تاما لكتابه هذا ، وكل ما كتبه بعد ذلك كان تعليقا على هذا الكتاب . وبذلك فقد اصبح معلقا وشارحا ومفسرا ، لهذا الكتاب الذي جعله انجيل حياته ، ففي عام ١٨٣٦ نشر مقالا عن الارادة في الطبيعة ادت الى توسيع الطبيعة لكتابه هذا «العالم كارادة وفكرة»

الذي نشره في عام ١٨٤٤ ، وفي عام ١٨٤١ اصدر كتابا عن « مشكلة الاخلاق الاساسية » وظهر له مجلدان هامان في عام ١٨٥١ عن « النتائج والفضلات » ترجما الى اللغة الانجليزية . وقد تلقى شوبنهاور مقابل هذين الكتابين الطافحين بالحكمة والذكاء ، عشر نسخ منها تعويضا له على اتمائه ، لا شك ان التفاؤل في مثل هذه الظروف امر متعذر ومستحيل .

ولم يعكر صفو عزلته الرتيبة بعد ان غادر « فيار » سوي مخاطرة كانت نفسه تتوق من اجلها منذ مدة طويلة ، وهي ان تسنح له الفرصة ليحاضر عن فلسفته في احدى الجامعات الكبيرة ، وقد اتبحت له هذه الفرصة في عام ١٨٢٣ عندما دعي الى جامعة برلين لبسط فلسفته امام طلابها كمحاضر خاص . فتعمد ان يحدد لالقاء محاضراته نفس الأوقات التي كان يلقي فيها « هجل » محاضراته ، وكان « هجل » في ذلك الحين في اوج شهرته . وكان شوبنهاور على ثقة تامة بان الطلاب سيقارنون بينه وبين « هجل » بعين الاجيال القادمة فيفضلونه ويقبلون عليه . ولكنه احسن الظن كثيرا في مقدرة الطلاب على تقديره ، ووجد نفسه يلقي محاضراته امام صفوف من المقاعد الخاوية . فاستقال من منصبه وانتقم لنفسه من « هجل » بالتشهير به ، وفي عام ١٣٨١ انتشرت الكوليرا في برلين ، وفر « هجل » وشوبنهاور من المدينة . ولكن « هجل » عاد الى برلين قبل ان ينتهي تطهيرها من الوباء تماما ، فاصيب بها ومات بعد اصابته بايام قليلة ، اما شوبنهاور فلم يتوقف اطلاقا وواصل سيره الى ان وصل الى فرانكفورت حيث امضى البقية الباقية من حياته التي طالت الى سن الثانية والسبعين .

وكمتشائم حساس فقد تجنب الوقوع في حفرة المتفائلين ، وابتى ان يسخر قامه للكسب اسوة بسقراط الذي كان يرفض اجرا من تلاميذه . لقد ورث حصة من مصنع خلفه ابوه وعاش في اعتدال على ريع هذه الحصة . واستثمر ماله بحكمة بالغة لاتتفق مع فيلسوف مثله ، وعندما فشلت احدى الشركات التي كان قد اشترى اسهما فيها ، عرضت عليه تعويضه بدفع ٧٠٪ من قيمة اسهمه ، وقد رضى بقية المساهمين بهذا التعويض ، ولكنه رفض وواصل مسعاه للحصول على قيمة اسهمه كاملة وظفر بذلك . وممكنه دخله هذا من استئجار غرفتين في بنسيون ، عاش فيها الثلاثين سنة الباقية من حياته بلا صديق سوى كلبه ، الذي اطلق عليه اسم « اطما » (وهو اسم يطلقه البرهمى على روح العالم) ولكن مجان المدينة اطلقوا على كلبه اسم « شوبنهور الصغير » وقد جرت عادته ان يتناول طعام غدائه في مطعم يتردد عليه الانجليز وكان يضع دينارا ذهبيا على مائدة الطعام امامه في كل مرة قبل تناول طعامه ، ويعيده الى جيبه بعد انتهاء كل وجبة ، وسأله خادم المائدة في شيء من السخط عن هذا التصرف فاجابه شوبنهور ، انه قد اخذ على نفسه عهدا بالقاء هذا الدينار الذهبي في صندوق الفقراء في اول مرة يسمع فيها الضباط الانجليز الذين يأكلون في المطعم يوميا يتحدثون في شيء اخر سوى الحديث عن الخيل والنساء والكلاب . وهو يعيده الى جيبه لانهم لا حديث لهم سوى في هذه الامور .

لقد تجاهلته الجامعات وتجاهلت كتبه ، وكانها بذلك قد ايدت زعمه بان ما احرزته الفلسفة من تقدم كان خارج جدران المعاهد العلمية ، قال نيتشه « لاشيء اساء الى اساتذة الجامعة والعلماء الالمان اكثر من مخالفة شوبنهور

لهم . « ولكنّه صبر وكان على ثقة من اعتراف الناس به مهما جاء هذا الاعتراف متأخرا . وقد تحقق رجاؤه فاقبل المثقفون من ابناء الطبقة المتوسطة من محامين واطباء وتجار على قراءة كتبه لانهم وجدوا فيه فيلسوفا لا يقصر بحثه على ادعاء معرفة اوهام الميتافيزيقا الخيالية ، بل يقدم لهم دراسة وافية واضحة عن ظواهر الحياة الحقيقية .

لقد اتجهت اوروبا التي خيبت ظنها المثالية والجهود التي طبعت عام ١٨٤٨ بطابعها الى فلسفته التي صورت حالة اليأس التي عرفتها اوروبا في عام ١٨١٥ ، ان هجوم العلم على اللاهوت ، وآثار الحرب وانتشار الفقر ، والكفاح من اجل البقاء والدعوة الى النظم الاشتراكية ، كلها ساعدت شوبنهاور ورفعته الى ذروة المجد والشهرة .

لم يكن قد بلغ من الكبر عتيا ليقعده عن التمتع بشعبيته وشهرته ، واخذ يقرأ بشغف وشره كل ما كتب عنه من مقالات . وطلب من اصدقائه ان يرسلوا له كل ما يصل الى ايديهم من تعليقات تنشرها الصحف حوله . وتمهد ان يدفع لهم اجرة البريد . وفي عام ١٨٥٤ ارسل له فاجنر نسخة عن قطعة من روائع موسيقاه مرفقة بكلمة تقدير لفلسفته الموسيقية . وهكذا اوشك ان يتحول المتشائم العظيم الى متفائل في ايام شيخوخته وراح يعزف على القيثارة كل يوم بعد الغداء . ويحمد الوقت الذي خلصه من نيران الشباب . وهرعت جموع الناس من جميع أنحاء العالم لرؤيته . وعندما احتفل ببلوغه السبعين من عمره انهالت عليه التهاني من كل بلد وكل قارة .

لم يحن الوقت بعد ، فقد عاش بعد ذلك سنتين ، وفي اليوم
الحادي والعشرين من شهر سبتمبر جلس وحده لتناول طعام
الافطار ، وكان يبدو وافر الصحة ، ووجدته ربة الدار بعد
ساعة لا يزال جالسا على المائدة ساكنا لا يتحرك وتقدمت منه
فوجدته ميتا .

٢ - العالم كفكرة

ان ما يشير دهشة القارئ لدى قراءة كتاب « العالم كإرادة وفكرة » هو سهولة أسلوبه ويسر فهمه . فقد خلا من تعقيد المصطلحات التي نجدها في كتب « كانت » والتشويش الموجود في « هجل » ومصطلحات الهندسة في سيدنوزا . لقد كان كل شيء في كتاب شوبنهاور واضحا ومنظما ومركزا تركيزا يدعو الى الإعجاب حول نظريته الأساسية وهي ان العالم ارادة ، وعلى ذلك يكون العالم ككفاح ، ويترتب على الكفاح بؤس وشقاء . لقد امتاز كتابه هذا بنزاهة البحث وامانته وعنفه وعدم تساهله ، وجاء زاخرا بالأمثلة لتوضيح فكرته ، وجديدا في فكاهته ، وابتماده عن الفموض الذي ميز سابقه من الفلاسفة ولكن ما هو السبب في عدم رواج هذا الكتاب وكساده وعدم تحمس القراء له ، قد يكون السبب هو ان شوبنهاور هاجم في كتابه اولئك الذين كان في وسعهم الدعاية له ، وهم اساتذة الجامعة ، فقد كان (هجل) الحاكم بأمره في عالم الفلسفة في المانيا في عام ١٨١٨ ، ومع ذلك فان شوبنهاور لم يعبا به ولم يضيع وقتا في مهاجمته . ونقده . فقد ذكر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه :

لا شيء يسيء للفلسفة في وقت من الاوقات اكثر من اتخاذها وسيلة

للتعيش وكسب الرزق والوصول الى مطامع واهداف سياسية .. لقد اتخذ هؤلاء السادة من الفلسفة وسيلة لكسب الرزق وعملوا وفقا للمثل القائل من يأكل من مال السلطان يحارب بسيفه ، او المثل القائل اغني اغنية من آكل من خبزه ، واعتبروا مثل هذا العمل صالحا . لقد اعتبر الفلاسفة الاقدمون اكتساب المال عن طريق الفلسفة صفة من صفات السفسطينيين . ولا شيء يمكن ان نجنيه من الذهب سوى الاعتدال وعدم التطرف في الاراء الفلسفية . . من المستحيل لعصر مجد (هجل) واعتبره اعظم الفلاسفة طيلة عشرين سنة . تقدير من اخذ عليهم تقديرهم (هجل) ان الحقيقة ستبقى دائما هدف القليل من الناس وستبقى في انتظار هؤلاء القلة بصبر وهدوء .

ان الحياة قصيرة ، ولكن الحقيقة « بعيدة الاثر وحياتها اطول » .

هذه كلمات نبيلة ولكنها ممزوجة بالمرارة والاستياء اذ اننا لانجد انسانا كان يتوق لاستحسان الناس له واعجابهم به اكثر منة ، وكان مما يزيد في نبل كلامه ان لا يتعرض الى هجل بشيء من هذا ، اذ لا شيء نستطيع ان نقوله عن وسيلة التعيش وكسب الرزق سوى الخير ، اما بالنسبة الى الاعتدال في الاراء الفلسفية التي اخذها شوبنهاور على هجل فامرته متروك لاعتراف الناس به ، لقد اعتاد شوبنهاور ان يقول : « انني لا ارى شيئا تم تحقيقه في الفترة الواقعة بين (كانت) وبينني » فهو يقول : « اعتقد ان هذه الفكرة وهي ان العالم ارادة هي الفكرة التي بحثت عنها الفلسفة ، ان ما اقصده فقط هو تعريف وشرح فكرة واحدة فقط ، وعلى الرغم من جميع محاولاتني في ايجاز شرحها لم اجد وسيلة لاختصارها باقل من هذا الكتاب .. » اقرأ الكتاب مرتين ، مستخدما الصبر وطول البال في المرة الاولى . ليس الاعتدال في الفلسفة

سوى نفاق وتواضع مصطنع .

ولكننا لا نجد تواضعا في العبارة الاولى التي صدر بها شوبنهاور كتابه الذي بدأه بقوله « العالم فكرة » وهو يقصد بذلك ما ذهب اليه « كانت » من اننا نعرف العالم الخارجي عن طريق احساساتنا وافكارنا . واتبع شوبنهاور هذا بعرض واضح قوي للمذهب المثالي ، ولكن هذا العرض على الرغم من قوته اضعف اجزاء الكتاب واقلها اصالة في الرأي .. وكان من الافضل له تأخير هذا العرض وبجته في اخر الكتاب لا في اوله . بقي شوبنهاور مجهولا من العالم جيلا من الزمان لانه اخفى افكاره وراء مئتي صفحة تحدث فيها عن المذهب المثالي . ان اهم جزء في الفصل الاول من الكتاب هو هجومه على المذهب المادي . فهو يتساءل بقوله : كيف يمكننا ان نفسر العقل بانه مادة ما دمنا لانعلم المادة الا عن طريق العقل .

كلا من المستحيل ان نصل الى حل لغز الميتافيزيقا ، وان نستكشف كنه الحقيقة ، بان نبدأ ببحث المادة اولا ، ثم ننتقل منها الى بحث الفكر ، بل يجب ان نبدأ بذلك الذي نعرفه معرفة مباشرة قريبة - انفسنا . « اتنا لن نصل ابدا الى طبيعة الاشياء الحقيقية من الخارج ، مهما طال بحثنا ولن نصل الى شيء سوى صور واسماء . » ونحن في ذلك مثل رجل يدور حول قصر يبحث عبثا عن مدخل واحيانا يرسم الواجهة . دعنا ندخل الى الداخل ، اننا اذا استطعنا كشف طبيعة عقولنا النهائية فقد نظفر بمفتاح العالم الخارجي .

٤ - العالم كإرادة

١ - إرادة الحياة

أقصد اتفاق العلماء جميعاً بغير استثناء على أن جوهر العقل هو الفكر والادراك ، والآنسان عندهم حيوان عاقل . (يجب أن ننبذ هذه الغلطة القديمة العامة ونطرحها جانباً) لأن الإدراك مجرد قشرة سطحية لعقولنا ، ونحن لانعلم شيئاً عما في داخل هذه القشرة السطحية كما في الأرض لانعلم عنها سوى قشرتها ، إذ أن تحت العقل الواعي إرادة واعية أولاً واعية ، وهي قوة حيوية مكافحة ملحة وهي فاعلية تلقائية . إرادة ذات رغبة أمره هائية . قد يبدو العقل أحياناً وكأنه هو الذي يقود الإرادة ، ولكنه بذلك كالدليل الذي يقود سيده فقط ، أن الإرادة (هي الرجل الأعشى القوي الذي يحمل على كتفيه الرجل الأعرج المبصر) فنحن لانريد شيئاً لاننا وجدنا أسباباً له ، ولكننا نجد أسباباً له لاننا نريده ، كما أننا وضعنا الفلسفة والدين واحكمنا صنعهما لنحجب فيهما رغباتنا ، ولهذا يسمى شوبنهاور الإنسان « بالحيوان الميتافيزيقي » لأن الحيوان يرغب بغير اللجوء إلى الميتافيزيقي . والآنسان مسوق بإرادته لابعقله . يقول شوبنهاور لا شيء أكثر إثارة وتهيجاً للأعصاب عندما نحاول اقناع إنسان عن طريق الأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، ونبدل جهودنا والمما

في محارلة اقناعه ، ثم يتضح لنا اخيرا انه لم يفهم وسوف لن يفهم ، واننا ينبغي ان نخاطبه عن طريق اثاره ما يريد ويرغب ، اي عن طريق ارادته . ومن هنا يتضح عدم فائدة المنطق . ولم يتمكن احد اطلاقا من اقناع احد بالمنطق رحتى علماء المنطق انفسهم يستخدمون المنطق وسيلة لكسب العيش فقط . لكي تقنع انسانا يجب ان تلجأ الى اثاره ومصالحته الشخصية الى رغباته وارادته . انظر كيف نتذكر انتصاراتنا مدة طويلة من الزمان وكيف ننسى هزائمنا بسرعة . ان الذاكرة خادمة الارادة . اننا نخطيء في اعداد حساباتنا خطأ يكون في الاغلب لمصلحتنا اكثر مما نخطيء لمصلحة غيرنا ، ويقع هذا الخطأ منا بغير ادنى اى قصد سيء من جانبنا ، ومن جهة اخرى فاننا نلاحظ ان عقل اغبي انسان يتحول الى ذكاء مرهف عندما تكون المسألة المطروحة للبحث متمشية مع رغباته . وعلى العموم فان العقل ينمو ويتطور في الخطر كما في الثعلب او بدافع الحاجة كما في المجرم . ولكنه دائما يكون خاضعا للرغبة واداة في يدها . وعندما يحاول العقل ان يحل محل الارادة فان الاضطراب يتبع هذه المحاولة ، ولا يتعرض الى الخطأ اكثر من الشخص الذي يحكم عقله وفكره فقط .

تأمل في كفاح الناس لتأمين طعامهم وزوجاتهم او اطفالهم . هل يمكن ان يكون هذا من عمل العقل ؟ كلا ولا ريب ، والسبب هو ارادة الحياة النصف واعيه ، ارادة الحياة كاملة . « قد يبدر للناس انهم مسحوبون من الامام والواقع انهم مدفوعون من الخلف » فهم يفكرون انهم مسوقون بما يرون ، بينما هم في الحقيقة مدفوعون بما يشعرون بالفرصة التي لا يدركون عملها نصف الوقت ليس العقل سوى وزير للخارجية . « فقد انتجته الطبيعة لخدمة ارادة الفرد ، وقد اعد فقط لمعرفة الاشياء طالما هي دوافع للارادة ، لا ان يبحث عنها ليدرك

حقيقة وجودها وان الارادة هي الدائم الثابت الوحيد في العقل . . . وهي التي تعطي عن طريق غرضها الثابت وحدة لمشاعر الانسان ووعيه وتربط جميع ارائه وافكاره بعضها ببعض وجمعها في انسجام دائم مستمر .»

ان شخصية الانسان تكمن في ارادته ، وليس في عقله ، وشخصية الانسان واخلاقه ايضا استمرار للغرض ووجهة النظر ، وهذه ارادة . ان اللغة الشعبية صحيحة عندما تفضل القلب على الرأس وهي تعرف ان الارادة الطيبة اعمق من العقل الخالص واكثر اعتمادا . وعندما تسمى الانسان داهية او عالما ، او ماكرافهي تدل على ريبتها فيه وكراهيتها له . ان نبوغ العقل يستشير الاعجاب والتقدير ولكنه يستحيل ان يحظى بالحب ، هذا كما ان جميع الديانات تعد بالجزء وتنادى به ... لحسنات الارادة والقلب ، ولكنها لا تعد بمجازاة نبوغ العقل والفهم بالحسنات .

وحتى الجسم نفسه فهو من انتاج الارادة ، فالدم الذي تدفعه تلك الارادة التي نسميها بغموض بالحياة ، يبني اوعيته التي يجري فيها بشق اقنية في جسم الجنين ، وتزداد هذه الاقنية عمقا وتنغلق وتصبح عروقا وشرايين . ان ارادة الانسان ان يعرف تبني المخ ، تماما كما ان ارادته في ان يقبض على الاشياء تكون الايدي ، و ارادته ليا كل تتطور بالجهاز الهضمي ، وليس هذا الازدواج ، وهو صور الارادة من جهة وصور الجسد من جهة اخرى - الا جانبا لعملية واحدة وحقيقة واحدة ، وافضل طريقة لرؤية هذه العلاقة بين الارادة والجسد هي العواطف حيث ترى الشعور يتبعه تغيرات بدنية معينة وحيث يشكل الشعور والتغيرات الجسدية الداخلية وحدة مركبة واحدة .

ان عمل الارادة وحركة الجسم ليسا شيئين مختلفين ، معروفين بالموضوعية
توحدهما رابطة السببية ، وليس بينها علاقة العلة بالمعلول ، بل هما شيء واحد ،
ولكنها يحدثان بطرق مختلفة - كل الاختلاف - حالا ومرة ثانية في الادراك ..
ان عمل الجسم ليس الا عمل الارادة مجسدا ، وهذا صحيح في كل حركة . من
حركات الجسم ، وليس الجسم كله سوى ارادة مجسدة .. لذلك يجب ان توافق
اجزاء الجسم الرغبات الاساسية التي توضح فيها الارادة نفسها توافقا تاما ، ولا
بد ان تكون هذه الاجزاء هي التعبير المرئي لهذه الرغبات . فالاسنان والحلق
والامعاء هي الجوع مجسدا ، واعضاء التناسل هي الرغبة الجسدية مجسدة ..
ويشكل الجهاز العصبي كله السلك الموصل للارادة الذي تمده في الداخل
والخارج ... وكما ان الجسم الانساني بصفة عامة يوافق الارادة الانسانية
بصفة عامة ، فكذلك البنية الجسدية للفرد توافق ارادة الفرد ، اي
شخصية الفرد .

ان العقل يتعب ، اما الارادة فلا تتعب اطلاقا ، والعقل يحتاج الى النوم ،
ولكن الارادة تعمل حتى في حالة النوم ، ان التعب كالالم له مكان في المنح ،
والعضلات التي لاتتصل بالدماغ كالقلب مثلا لاتتعب اطلاقا والعقل يتغذى في
النوم ، اما الارادة فلا تحتاج الى تغذية لذلك نجد الحاجة الى النوم تشتد اكثر
عند الذين يعملون بهقولهم (يجب ان لاتؤدي بنا هذه الحقيقة الى الافراط في
النوم لان الافراط يتحول الى مضیعة للوقت) . ان حياة الانسان تهبط في
النوم الى مستوى النبات ، وحينئذ تعمل الارادة وفقا لطبيعتها الأصلية الجوهرية
لازعجها شيء من الخارج ، ولا تقلل قوتها فاعلية المنح وما يبذل من مجهود في
سبيل المعرفة ، وهي اثقل الوظائف العضوية .. لذلك فان كل قوة الارادة

تتوجه اثناء النوم الى الاحتفاظ بالجهاز العضوي وتحسينه ، وبذلك يتمكن الجسم من استرداد ما فقدته من نشاط وحيوية اثناء النوم ، لقد اصاب « برداخ » عندما اعلن ان النوم هو الحالة الاصلية والجنين يكاد ان يكون لومه متصلا ، والرضيع ينام معظم الوقت تقريبا . ان الحياة صراع ضد النوم وفي بادىء الامر تفوز بالنصر ضده ، ولكنه في النهاية يسترد منا ما سلبناه في انتصارنا عليه . ان النوم قطعة من الموت استعرتها لتجديد ما استنزفناه من حيوية وحياة اثناء النهار « ان النوم عدونا الابدي ، وهو يملكنا جزئيا حتى في يقظتنا .

وفضلا عن ذلك ماذا نتوقع من عقول يتعرض أعقلها واحكمها كل ليلة الى احلام غريبة لا معنى لها ، وفي النهار يستمد الانسان افكاره وتأملاته منها ؟

اذن فالارادة هي جوهر الانسان ، والان ، ما المانع ان تكون جوهر الحياة في جميع صورها ، وان تكون جوهر الجماد؟ وماذا يمنع ان تكون الارادة هي الشيء في ذاته الذي بحثنا عنه طويلا ويئسنا من الوصول اليه — وان تكون الارادة هي الحقيقة النهائية الداخلية ، وكنه جميع الاشياء الخفي ؟ .

دعنا نحاول اذن تفسير العالم الخارجي بالارادة ، ولنتجه من فورنا الى اعماق الموضوع ، فنرفض ما قاله الآخرون من ان الارادة شكل من القوة ، ونقول ان القوة شكل او صورة من الارادة ، ونجيب على سؤال هيوم عن السببية فنقول ان السببية هي الارادة . فكما ان الارادة هي العلة العامة في انفسنا ، فهي كذلك علة الاشياء وما لم نفهم العلة على انها ارادة ، فستبقى السببية عبارة غامضة ولا معنى لها . وما لم نفهم العلة على انها ارادة فسنظل

مسوقين الى ترديد صفات غامضة مثل «القوة» والجاذبية، وغيرها ، نحن لانعرف ما هي هذه القوى ولكننا نعلم على الاقل بوضوح اكثر قليلا ما هي الارادة . دعنا نقول اذن بان الدفع والجذب والتركيب والانحلال والمغناطيسية والكهرباء والجاذبية والتبلور هي ارادة ؟ لقد عبر « جوته » عن هذه الفكرة في عنوان احدي قصصه ، عندما سمي تجاذب الحبيبين الذي لايمكن مقاومته بالامتزاج الانتخاوي ، ان القوة التي تجذب الاحبة هي القوة التي تجذب الكواكب .

وهكذا في حياة النبات ، فكلمنا هبطنا الى اسفل صور الحياة ، كلما صغر الدور الذي يلعبه العقل ، ولكن هذا لا يحدث في الارادة اذ انها تبقى كما هي :

ان ما فينا من ارادة تتابع اغراضها في ضوء المعرفة ، ولكن الارادة في النبات ، تكافح كفاحا اعمى وابكم بطريقة ثابتة لجهة واحدة لاتتغير ، ومع ذلك يجب ان تندرج تحت اسم الارادة في كلتا الحالتين . . . ان اللاشعور هو الحالة الاصلية والطبيعية لسائر الاشياء . ولذا فهو الاساس الذي تفرع عنه الشعور وبخاصة في الكائنات الحية ، حيث يكون الشعور تفتحها وتجوهرها الاسمي ، ولكن اللاشعور تبقى له السيطرة دائما . وعلى ذلك فان معظم الموجودات تكون بلا شعور ولكنها مع ذلك تعمل وفقا لقوانين طبيعتها -اي بارادتها ، وفي النباتات شبه ضعيف جدا من الشعور او الوعي . وليس في احط انواع الحيوان الافجر وبداية هذا الشعور ، وحتى بعد ان يصعد الشعور مجتازا مراحل الحيوان الى ان يصل الى الانسان وعقله ، فان اللاشعور في النبات الذي بدأ منه الشعور يبقى هو الاساس ، ويمكننا اقتفاء اثره في ضرورة النوم .

لقد كان ارسطو على حق عندما قال بوجود قوة في ذلك الذي يشكل كل صورة في النبات والكواكب والحيوان والانسان ، ان غريزة الحيوان بصفة عامة تقدم لنا افضل مثال لما بقي من فلسفة البحث عن غايات الطبيعة «الفلسفة الغائية» لأن الغريزة عمل شبيه لذلك الذي تقوده فكرة الغاية ، وهكذا فان كل بناء في الطبيعة يشبه ذلك الذي تهديه فكرة الغاية ، ومع ذلك فهو خال منها تماما .

ان البراعة الالية العجيبة في الحيوان تظهر لنا بوضوح كيف ان الارادة اسبق من العقل ، انظر الى ذلك الفيل الذي سيق الى اوروباوعبر وهو في طريقه مئات من الجسور . كيف رفض عبور جسر ضعيف على الرغم من انه رأى كثيرا من الجياد والناس يعبرونه ، وانظر الى ذلك الكلب الصغير «الجرو» كيف يخشى القفز من المائدة وهو لا يخشى القفز عن طريق البرهان العقلي (لأنه لم يسبق له تجربة من هذا النوع من القفز) انه يخشى القفز بالغريزة ، وانظر الى قروود «الاورانج اوتانج» وهي تقترب من النار التي وجدت امامها لتتعم بدفئها ولكنها يستحيل ان تحطىء فتحاول اكل هذه النار ، ومن هنا يتضح لنا ان هذه الاعمال غريزية ، وليست نتيجة لمنطق او تفكير ، انها ليست تعبيراً للعقل بل الارادة .

ان الارادة طبعا هي ارادة الحياة ، ازادة لبلوغ حد اعلى من الحياة ، كم هي عزيزة هذه الحياة بالنسبة الى جميع المخلوقات الحية ، ان البذور الجافة تبقى محتفظة بقوة الحياة الكأمنة فيها ثلاثة الاف سنة ، وعندما تصادف في النهاية الظروف المناسبة تنمو وترعرع الى شجرة او نبات ، وفكر في هذه

الضفادع البرية التي وجدت بين احجار الجير تدل على ان حياة الحيوان
قادرة على ارجاء نفسها حيث بقيت هذه الضفادع بين احجار الجير عدة
الاف من السنين تنتظر العودة الى الحياة ، ان الارادة هي ارادة الحياة ،
وعدوها الابدي هو الموت

ومن يدري فقد تتغلب ارادة الحياة هذه على الموت ؟



٢ — ارادة التناسل

تستطيع ان تهزم الموت بالتناسل اذ ان كل كائن عضوي عادي يسارع الى تضحية نفسه من اجل التناسل اذا ما بلغ حد النضوج ، من العنكب الذي تلتهمه انثاه بمجرد تلقيحه اياها ، والزنبور الذي يكرس حياته في جمع القوت لنسل لن يراه ابدا ، الى الانسان الذي يحمل نفسه اعباء جسيمة ينوء تحت اثقالتها ليطعم اولاده ويلبسهم ويعلمهم ويثقفهم ، فالنسل هو الغرض النهائي لكل كائن عضوي ، وهو اقوى الغرائز ، وهو الوسيلة الوحيدة التي تمكن الارادة من قهر الموت ، ولكي تضمن الارادة قهر الموت فقد تعمدت الاتضع ارادة النسل تحت رقابة العقل او المعرفة والتأمل ، وحتى الفلاسفة فقد تناسلوا وانجبوا اولادا .

ان الارادة تبدي نفسها في التناسل مستقلة عن المعرفة وهي تعمل في هذا المجال بطريقة عمياء كما تعمل في الطبيعة اللاشعورية . . . ولذلك فقد جاءت اعضاء التناسل مركز الارادة ، وتشكل المركز المقابل للمخ الذي يمثل المعرفة . . واعضاء التناسل هي اساس حفظ الحياة لانها تضمن حياة لاتنتهي ، ومن اجل هذا السبب فقد عبدها اليونان والهندوس .

فقد ذكر هوزيود وبارمنيدس ان اله الحب هو الاول وهو الخالق الذي صدرت عنه جميع الاشياء ، ان العلاقة بين الجنسين .. هي في الحقيقة النقطة المركزية الخفية لجميع الاعمال والسلوك ، وهي تسترق النظر الى كل مكان على رغم جميع الحجب والافنعة التي القيت عليها ، وهي سبب الحرب وغاية السلام ، وهي اساس الجد والرصانة وهدف الهزل والمزاح ، وينبوع النكتة الفيض الذي لا ينضب ، ومفتاح كل وهم خداع ، ومعنى كل تلميح مبهم وغامض ... فنحن نراها في كل برهة تبرز نفسها كسيده العالم ووارثته الحقيقية . جالسة على عرش الإباء في كمال قوتها تنظر من عليائها نظرة ازدراء واستخفاف وسخرية وتضحك على ما يعده الناس من قيود لتقييدها وكتبها وسجنها ، او تحديدها على الاقل او لاختفائها كلما امكن الى ذلك سبيلا ، او السيطرة عليها واخضاعها والتقليل من شأنها ، او تخفيف الاهتمام بها والنزول بها الى مرقبة ثانوية من مراتب الحياة .

ان ميتا فيزيقا الحب تدور حول تبعية الاب للام او الوالد لولده ، او الفرد للنوع ، وقانون الجاذبية الجنسية اولا ، هو ان اختيار الوليف او العشير مهما كان اختيارا ، لا شعوريا يتقرر الى مدى كبير بحيث يتلاءم الوليفان لانتاج النسل .

كل وليف يبحث عن وليفه الذي يحسو منه عيوبه ونقائصه حتى لا تورث ، فالرجل الضعيف البنية يبحث عن امرأة قوية البنية ... وكل واحد سيرى في عينيه جيلا كل ما ينقصه من كمال موجود في وليفه ، ويصف بالجمال نواحي النقص في وليفه التي تناقض نواحي النقص فيه نفسه ..

ان الصفات الجسدية في الوليفين تكون بحيث تحتفظ للنوع بصفاته المميزة

بقدر الامكان ، بحيث يكون الواحد منهما مكملًا ومتممًا للآخر وهو ما يرغب فيه رغبة خاصة . . . ان شعورنا العميق عندما نفكر في كل جزء من الجسد ، وارتيابنا ووسوستنا في النظر الى المرأة التي تبدأ في اسعادنا ... كل هذا يحدث للفرد من غير ان يعرف به ، بدافع نظام فوق نفسه . .

كل فرد يفقد جاذبيته للجنس الآخر بمقدار ابتعاد كل واحد منهما عن انسب فترات حياته للتناسل ولذلك فان للشباب جاذبية حتى ولو خلا من الجمال ولكن لا جاذبية لجمال بغير شباب ..

ومع ذلك فان اشقى حالات الزواج هو الزواج الذي تم على اساس الحب والسبب في ذلك هو ان هدف الزواج هو بقاء النوع لا لذة الفرد . يقول المثل الاسباني « ان الذي يتزوج عن حب سيعيش في كرب » ان نصف مشا كل الزواج ناجمة عن التفكير في الزواج بانه لذة وتوليف بدلًا من التفكير فيه كنظام لحفظ الجنس ان الطبيعة لا تبالي فيما اذا دامت سعادة الزوجين يوما واحدا او الى الابد ما دام التناسل ممكنا . ان اسعد الزواج هو ما يتم باشراف آباء الزوجين ، وهو اسعد من زواج الحب . ومع ذلك لا يسعنا الا تقدير المرأة التي استجابت لنداء الحب فتزوجت بمن تحب مخالفة نصيحة ابويها ، لانها بذلك قد استجابت لروح الطبيعة وفضلت ما هو اهم . بينما كانت نصيحة والديها تقوم على روح الانانية الفردية ، ولكن الحب هو افضل وسيلة لتحسين النسل .

وبما ان الحب خديعة تدبرها الطبيعة لاداء اغراضها فالزواج يبلي الحب ويقضي عليه ، ولا يسعد بالزواج سوى الفلاسفة ولكن الفلاسفة لا يتزوجون .

ان خضوع الفرد لنوعه ، وانه مجرد أداة يتخذها الجنس لاستمرار بقائه ، يظهر مرة ثانية في اعتماد حيوية الفرد على حالة خلاياه التناسلية .

يجب اعتبار الفريزة الجنسية كحياة شجرة النوع الداخلية التي تنمو عليها حياة الفرد ، فالفرد من نوعه كالورقة من الشجرة تتغذى منها وتساعد في تغذيتها ، وهذا هو السبب في قوة الفريزة الجنسية ، وفي انها تنبع من اعماق طبيعتنا فاذا قمنا بخصي فرد نكون بخصينا له قد قطعناه من شجرة النوع التي ينمو عليها مما يؤدي به الى الذبول والوهن ، والمحطاط قواه العقلية والجسدية . ان خدمة الفرد للنوع اي عملية الاخصاب والتلقيح يتبعها دائما تعب موقت وانهاك والمحطاط في كل القوى في الحيوان . ويتبعها موت عاجل عند معظم الهوام والحشرات . اما بالنسبة الى الانسان ، فان خمود القوى التناسلية معناه ان الفرد يدنو من الموت ، كما ان الافراط في استخدام هذه القوة في كل سن يؤدي الى تقصير العمر ، بينما الاعتدال في استخدامها يزيد في قوة الانسان كلها ، وخصوصا القوى العضلية ، وقد روعي هذا الاعتدال في تدريب الرياضيين الاغريق . كما ان كبح الحشرة عن التلقيح قد يطيل حياتها ويمتددها ربيعا آخر ، كل هذا يشير الى ان حياة الفرد في اعماقها مستعارة من حياة النوع ... ان التناسل هو الذروة العليا الذي يهوي منها الفرد بعد بلوغه اياها هوبا سريعا او بطيئا بينما تؤكد الحياة الجديدة (المولود) للطبيعة بقاء النوع ، وهي تعيد الظاهرة نفسها ... وهكذا فان تعاقب الموت والانسال بمثابة نبضات القلب للنوع ... ان الموت بالنسبة الى النوع كالنوم بالنسبة الى الفرد ، هذا هو مبدأ

الخواود العظيم .. لان العالم باسره يجميع ما فيه من ظواهر ، هو تجسيد لارادة واحدة خفية ... الفكرة التي تنسب اليها جميع الافكار الاخرى كما ينسب الانسجام الى الصوت المنفرد .. يقول « جوته » ... : « ان لارواحننا طبيعة لاينالها الفناء ونشاطها يمتد من الابد الى الابد ، انها كالشمس التي تبدو لاعيننا بانها غاربة ولكنها في الحقيقة لاتغرب ابدا وتضيء بلا انقطاع » لقد اخذهومني هذا التشبيه ولست انا الذي اخذته عنه .

ان الزمان والمكان يظهران اننا كائنات منفصلة ، لانها يشكلان مبدأ الفردية التي تقسم الحياة الى كائنات عضوية متميزة كما تظهر في اماكن او ازمنا مختلفة ... اذ ليس الزمان والمكان الاحجابا وهما يخفي عنا وحدة الاشياء . اذ ليس في الحقيقة الا نوعا واحدا ، وحياة واحدة وارادة واحدة . ان جوهر الفلسفة هو ان تفهمك في وضوح ان الفرد ليس الا ظاهرة وليس الشيء في ذاته ، وان تريك « دوام الصورة الثابتة من خلال تغير المادة المستمر » ان شعار التاريخ هو كلما تغيرت الاشياء اكثر كلما بقيت نفسها اكثر .

ان من لم تظهر الناس وجميع الاشياء في عينيه دائما مجرد اشباح واوهام ليست لديه مقدرة على الفلسفة ... ان فلسفة التاريخ الحقيقية تكمن في ادراك وجود ثابت لا يتغير ، وان ظهر لنا كما نراه متغيرا تغيرا لانهاية له في الحوادث المتشابكة ، وهو يتابع اليوم نفس الغايات التي تابعها بالامس والتي سيتابعها الى الابد ، وعلى فيلسوف التاريخ ان يتعرف على الصفة المتأصلة في كل الحوادث ... وان يرى الانسانية هي نفسها في كل مكان على الرغم من اختلاف الظروف الخاصة للمعادن والاخلاق والازياء ... ان قراءتك

« هيرودوتس » من وجهة نظر فلسفية تكفي لدراسة التاريخ . . . ان
رمز الطبيعة الحقيقي في كل مكان وزمان هو الدائرة ، لانها تشير
الى التكرار .

اننا نميل الى الاعتقاد بان التاريخ كله ليس سوى خطوات تمهيدية
ناقصة قصد منها ان تؤدي الى العصر العظيم الذي نعيش فيه ، ولكن هذه
الفكرة عن تقدم العالم ليست سوى مجرد خداع وهم ، لقد تحدث الحكماء
بصفة عامة عن نفس الحكمة في جميع العصور ، وتشابه الحمقى من الناس
في اعمالهم في جميع العصور . وهكذا ستستمر الحال لاننا كما يقول « فولتير »
سنرث العالم كما وجدناه في سخافته وشره وفساده .

اننا نرى على ضوء ما تقدم معنى جديدا للجبرية التي لا مفر منها ،
كما يقول « سبينوزا » لو كان للحجر الذي يلقى في الهواء ادراك لاعتقد انه
يتحرك بارادته الحرة ، وانا اضيف الى قوله ان الحجر على صواب ، لان
الحافز الذي يدفع الحجر هو الحافز الذي يدفعني ، وان ما يظهر في
الحجر من تماسك وجاذبية وصلابة ، هو في طبيعته الداخلية ، هو ما اراه في
نفسي ايضا واسميه الارادة وهو ما كانت الصخرة ستسميه بالمعرفة لو اوتيت
المعرفة ، ولكن الارادة ليست حرة لا في الحجر ولا في الفيلسوف . . ان
الارادة كمجموعة تكون حرة ، لانه لا يوجد ارادة اخرى يجانبها
لتحددها . ولكن كل جزء من الارادة العامة - كل نوع ، كل كائن عضوي
وكل عضو يقرره الكتل .

يعتقد كل انسان بانه حر حرية تامة ، حتى في اعماله الفردية ويعتمد

انه قادر في كل لحظة على ان يبدأ اتجاهاً جديداً من الحياة ، وهذا يعني انه يستطيع ان يكون شخصاً آخر ، ولكن التجربة تدله على انه ليس حراً وانه خاضع لحكم الضرورة . ولا يستطيع ان يغير من سلوكه وسيره على الرغم من جميع افكاره وعزمه ، وانه لا بد له طيلة حياته من اولها لآخرها ان يحمل نفس الاخلاق التي يقرعها ويحاول تغييرها كما هي ، وان يلعب الدور الذي اسند اليه الى النهاية .



٥ - العالم شر

ولكن اذا كان العالم في حقيقته ارادة ، لا بد ان يكون مليئا بالالم والعذاب ، وذلك لان الارادة نفسها تعني الرغبة ، وهي دائما تطلب المزيد عما حصلت عليه ، وفي اشباع رغبة يطل من ورائها عشرات الرغبات التي تطلب اشباعها وتحقيقها ، ان الرغبة لا نهاية لها ، ومن المتعذر اشباعها جميعا انها كالصدقة التي ندفعها للفقير تغنيه عن الجوع اليوم ليوافه البؤس والفقير غدا ... ما دامت الارادة تطفى وتلأ شعورنا ، وما دمنا خاضعين لتجمع الرغبات وآمالها ومخاوفها الدائمة ، وما دمنا خاضعين للارادة ، فلن نبلغ السعادة الدائمة او السلام اطلاقا ، هذا بالاضافة الى ان تحقيق الرغبات لا يستتبع القناعة ، ولا شيء يقتل المثل الاعلى اكثر من بلوغه وتحقيقه ، ان اشباع العاطفة يؤدي في الغالب الى الشقاء بدلا من السعادة لان حاجاتها كثيرا ما تتعارض مع مصلحة صاحبها الى ان ينتهي الامر بالقضاء على هذه المصلحة . كل فرد يحمل في نفسه متناقضات هدامة ممزقة والرغبة المشبعة تولد رغبة جديدة تريد اشباعها وهكذا الى ما لا نهاية . والسبب في هذا هو ان الارادة لا بد ان تعيش على نفسها ، اذ لا يوجد شيء بجانبها ، وهي ارادة جائعة ؟.

ان مكيال الالم في كل فرد امر لا مفر عنه تقرره طبيعته وهو مكيال يستحيل ان يظل فارغا او يتسع اكثر من عياره .. فاذا ازيح عن صدورنا هم كبير يضغط عليها .. حل مكانه على الفور هم آخر ، لقد كانت مادة هذا الهم موجودة من قبل ، لكنها لم تتمكن من شق طريقها الى الشعور بها لعدم توفر متسع لها .. اما الان وقد توفر متسع لها فانها تتقدم وتحتل عرشها .

ان الحياة شر لان الالم دافعها الاساسي وحقيقتها ، وليست اللذة سوى مجرد امتناع سلبى للالم ، ولقد اصاب ارسطو عندما قال : ان الرجل الحكيم لا يبحث عن اللذة ، ولكن عن التحرر من الالم والهم .

ان كل ضرور القناعة والرضى ، او ما يسمى عادة بالسعادة سلبى في حقيقته وجوهره فقط ... فنحن لانشعر تماما بما لدينا من النعم والفوائد ، ولا نقدرها حقيقة قدرها ، بل نفكر بها باعتبارها شيئا عاديا ليس الا ، وذلك لانها ترضينا بشكل سلبى فقط ، بان تخفف من عذابنا وتكبح جماحه ، ولا نشعر بقيمتها ونقدرها حق قدرها الا اذا فقدناها ، لان الحاجة والحرمان والحزن هي الجانب الايجابى الذي يتصل بنا اتصالا مباشرا ... ما الذي دفع الكلبين الى طرح اللذة ونبذها في كل صورها ان لم يكن الالم في الواقع ممزجا باللذة دائما قليلا او كثيرا .

ان الحياة شر لانه لا يكاد الانسان يشعر براحة من الالم والحاجة حتى يملكه شعور بالسامة والملل مما يدفعه الى البحث عن شيء يعوضه شعوره بالملل والسامة ، ويبدأ في مواجهة المزيد من الالم ، وحتى لو تحققت احلام الاشتراكيين في اقامة المدينة الفاضلة فسبقى من الشرور ما لا يحصيه العد ، لان بعضها بالكفاح مثلا امر ضرورى للحياة . واذا تمكنا من القضاء

على كل شر ، ووضعنا حداً للكفاح في هذه الحياة أصبحت السامة عبئاً لا
يحتمل كالألم سواء بسواء ، وهكذا نجد الحياة تتأرجح كالبنديول الى الامام
والخلف بين الألم والسأم .. وبعد ان قلب الانسان آلامه وعذابه الى فكرة
الجحيم ، لم يبق لديه شيء عن الجنة سوى الملل . اننا كلما ازددنا في الحياة
نجاحاً ازددنا مالا ، وكما ان الحاجة هي السوط الدائم الذي يلهب ظهور الناس ،
فكذلك السامة هي السوط الذي يلهب ظهر العالم الحديث .

والحياة شر لانه كلما صعد الكائن العضوي وارتقي كلما زاد ما
يقاسيه من آلام ، وان زيادة - معرفته لن تحل مشكلة آلامه .

لانه كلما ازدادت ظاهرة الارادة كلما ازداد العذاب وضوحاً ، وفي
النبات لا يكون الاحساس قد اكتمل بعد ، ولهذا لا يشعر النبات بالألم ، ان
احط انواع الحيوان يشعر قدراً صغيراً جداً من الألم مثل النقايعات ، وحتى في
الحشرات لا تزال امكانية الشعور والألم محدودة ، واول ما تظهر امكانية الشعور
بدرجة عالية باكمال تكوين الجهاز العصبي للحيوانات آكلة الاعشاب ، وتزداد -
اكثر بنمو العقل . وهكذا يزداد الألم كلما ازداد العقل ، اي بمقدار اقتراب
المعرفة من الدقة ويزداد الألم ويبلغ ذروته في الانسان ، ويزداد ما يحسه
الانسان من الألم كلما دقت معرفته واشتد ذكاؤه ، والعبقري الموهوب اشد
انواع الناس مقاساة للألم .

ان زيادة المعرفة في الانسان تؤدي الى زيادة آلامه ، كما ان ذاكرة
الانسان وبعد نظره يزيد ان في آلامه ، لان الشطر الاكبر من آلامنا كامن في تأمل
الماضي او في التفكير بما سيقع في المستقبل .

ان الالم في حد ذاته قصير ، ان الانسان يتألم من فكرة الموت اكثر من الم الموت نفسه ، واخيراً وفوق كل شيء ، الحياة شر لانها حرب ، اينما وليت وجهك لا تقع عينك الا على صراع – ومناقسة ونزاع ، وتبادل انتحاري بين الهزيمة والنصر ، وكل نوع يقاقل للفوز بالمادة والارض والسيطرة .

انظر الى الهيدرا (افعوان البحر) التي تنمو كالبرعوم من امها الكبيرة ثم تفصل نفسها عنها ، كيف تقاتل وهي لا تزال متصلة بامها لكي تظفر بالفريسة التي تعرض نفسها امامها وكل واحدة منها تختطفها من فم الاخرى . ان النملة الاستراتيجية تقدم لنا اغرب الامثلة من نوعها اذ تنقسم النملة الى قسمين وتبدأ المعركة بين الرأس والذنب ، ويأخذ الرأس بعض الذنب باسنانه ، ويدافع الذنب – عن نفسه بشجاعة بلذغ الرأس ، وقد تدوم المعركة بينهما نصف ساعة الى ان يموتا او يسحبها بقية النمل ويروى لنا « يونجهان » انه شهد في « جاوا » سهلا يمتد على مدى البصر تغطيه تماماً هياكل عظمية وظن انه في ساحة قتال ، ولكنها لم تكن سوى هياكل سلاحف كبيرة ... خرجت من البحر لتضع بيضها ، فهاجتها الكلاب الوحشية فالقتها ارضاً على ظهورها ، ونزعت – القشرة الصغيرة عن معدتها وراحت تلتهمها وهي حية وكثيراً ما ينقض نم على هذه الكلاب ... من اجل هذا ولدت السلاحف .. وهكذا تفتقر ارادة الحياة نفسها في كل مكان .. ويكون غذاؤها في اشكال مختلفة . الى ان يهيء في النهاية الجنس البشري الذي يحسب لأنه اخضع كل شيء اخر بان الطبيعة اعدت له وصنعت من اجله ، ومع ذلك فحتى الجنس البشري .. يكشف في نفسه عن ابشع انواع الصراع والنزاع . وهو النزاع بين الارادة ونفسها . ان الانسان ذئب للانسان وان لم تكن ذئباً اكلتك الذئاب .

ان صورة الحياة في مجملها مؤلمة جداً اذا تأملناها ، وهي تعتمد على جهلنا بها .

اننا لو عرضنا امام نظر الانسان ما تتعرض له حياته دائماً من ضروب الالم والبؤس المروع عرضاً واضحاً لامتلاً رعباً ، ولو دخلنا بالمتفائل الشديد في تفاؤله الى المستشفيات وملاجيء العجزة والمقعدين وغرف العمليات الجراحية ولو دخلنا به الى السجون وغرف التعذيب ، وحظائر العبيد ، ولو اخذناه الى ميادين القتال واماكن الاعدام ولو فتحنا له كل مساكن البؤس والفاقة المظلمة حيث يوارى البؤس نفسه من نظرات الفضول السمجة الباردة واخيراً لو سمعنا له بالنظر الى السجون التي يموت الناس فيها جوعاً ، لعلم هذا المتفائل اخيراً طبيعة هذا « العالم افضل العوالم » والا من اين جاء دانتى « بمادة جحيمية » لقد استمدتها طبعاً من هذا العالم الواقعي الذي نعيش فيه واستطاع ان يصور من هذا العالم جحيماً ما بعدها من جحيم . ولكنه اصطدم بمشكلة لم يفلح في التغلب عليها عندما اراد ان يصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم وذلك لان عالمنا لا يصلح ان يكون مادة لتصوير فردرس « الجنة » ، ان كل الملاحم التمثيلية لا يسمها الا ان تصور نزاعاً وجهداً وقتالاً من اجل السعادة ولكنها لا تحتل السادة نفسها ابدأ وهي تسير بابطالها الى الاف المخاطر والمصاعب للوصول الى الهدف المنشود وبمجرد ان يبلغ هؤلاء الابطال اهدافهم تسارع القصة الى اسدان الستار اذ لم يعد لها شيء بعد ذلك لتظهره سوى ان الهدف اللامع البراق الذي توقع البطل ان يجد فيه السعادة قد خيب امله ، وانه لم يكن بعد بلوغه اسعد حالاً منه قبل بلوغه .

نحن نعيش في زواجنا ، في عزوبتنا وعزوفنا عن الزواج ، نعيش في انعكافنا ووحدةنا نعيش في اجتماعنا بالناس اننا كالفنائف تقترب من بعضها لتعثر بالدفء ولا تشعر بالراحة اذا اشتد التصاقها ، ومع ذلك فهي تعيش في ابتعادها عن بعضها ، ان الحياة مضحكة ولكنه ضحك كالبكاء - فلو استعرضنا حياة الفرد في مجموعها واعمنا النظر في ابرز معالمها فقط لوجدناها مأساة في الحقيقة ، اما اذا تناولناها في تفصيلها لوجدناها مليئة مضحكة . انظر وفكر وتدبر .

يدخل الصبي منا وهو في الخامسة من عمره الى مغزل القطن او اي مصنع اخر ، ويظل منذ ذلك الوقت يذهب الى المصنع كل يوم ، ويعمل في بادىء الامر عشر ساعات وتزيد الى اثنتى عشرة الى ان تصل اخيرا الى اربع عشرة ساعة ، يؤدى فيها نفس العمل الآلي ليشتري باغلى الاثمان انفاس الحياة . ولكن هذا هو مصير الملايين من البشر . ان تحت القشرة الارضية قوى طبيعة كامنة جبارة ، اذا ما اتيح لها الخروج من مكمنها لا بد ان تدمر القشرة الارضية وكل ما عليها من كائنات حية ، كما وقع ثلاث مرات على الاقل على هذه الارض ، وقد يتبع هذا اكثر في المستقبل . ان الزلازل التي وقعت في لشبونة وهاييتي وتدمير بومبي ليست سوى اشارات لما يمكن ان يقع في المستقبل .

امام كل هذه الآلام والكوارث ألا يكون التفاؤل سخرية من ويلات البشر ، لقد صور فولتير في كتابه كنديد الام البشر تصويرا عظيما ، وخلاصة القول فان طبيعة الحياة تقدم لنا نفسها كأنها مقصودة - ومدبرة لتوقظ فينا الاعتقاد بان لا شيء فيها جدير بكفاحنا وجهودنا وجهادنا وان ما فيها من طيبات وخيرات فهو باطل ومن متاع الغرور ، وان العالم مصيره الافلاس والحياة عمل فاشل لا يقوم بتغطية نفقاته .

ولكي يكون الانسان سعيدا ينبغي ان يكون في جهل الشباب الذي يظن ان السعادة بالكفاح والارادة ، لانه لم يتبين له بعد شره الرغبة المضني ونهمها الذي لا يشبع ، وظمأها الذي لا يرتوي ، ولم يعلم ان مثل من يحاول اشباع رغباته كمن يضرب مسبارا في ماء او يصب ماء في برميل مثقوب ، اذ لا حدود للرغبات ومن المستحيل اشباعها ، كما ان الشباب لم يجرب بعد اثر الهزيمة المحتومة .

ان فرح الشباب ومرحه ناجم عن اننا لا نرى الموت عندما نكون صاعدين الى ربوة الحياة ، لان الموت يكون في اسفل الجانب الاخر من الهضبة ... فاذا اقتربنا من نهاية الحياة فان كل يوم يمر بنا يبعث في نفوسنا نفس الاحساس الذي يحس به المحكوم عليه بالاعدام ، في كل خطوة يخطوها وهو في طريقه الى المشنقة .. لكي يعلم الانسان مدى قصر الحياة لا بد ان يعيش طويلا ..

فمنذ بدأنا عملنا حتى السادسة والثلاثين من عمرنا نكون بتبديدنا لنشاطنا وبدلنا لحيويتنا اشبه بالذين يعيشون على ارباح اموالهم يعوضون في الغد ما ينفقونه اليوم ، ولكن موقفنا بعد ان نتجاوز السادسة والثلاثين من عمرنا يكون كموقف صاحب المال الذي بدأ الانفاق من رأس ماله ... ان فزع الانسان من هذه البلية يزيد في حبه للمال كلما تقدم في السن .

ان اسعد اوقات الحياة هي الابتعاد عن ايام الشباب ، وما اصدق افلاطون عندما قال في - مستهل كتاب الجمهورية ، من الافضل ان نقدم احسن الجزاء لذوي السن المتقدمة ، لان الشيخوخة تحرر صاحبها من العاطفة الحيوانية التي استبدت به ولم تتوقف عن تحريكه حتى ذلك الوقت ، ومع ذلك لا يجوز لنا ان ننسى انه بعد خمود هذه العاطفة فانها تأخذ معها حبة الحياة ونواتها ولا يبقى سوى القشرة الجوفاء وتتحول الحياة عندئذ الى مهزلة بدأت بمثلين حقيقيين وانتهت اخيرا باشباح آلية ارتدت ملابسهم وحلت في مكانهم .

وفي النهاية نواجه الموت ، وفي الوقت الذي تبدأ التجربة في تنسيق نفسها والتحول الى حكمة يبدأ العقل والجسم في التدهور والانحطاط ، ان كل شيء لا يعيش الا برهة ويسرع الى الموت والفناء ، فاذا امهلنا الموت وطال اجلنا فهو يلعب بنا كما يلعب القط بالفسار الضعيف الذي لا حول له ، اذ من الواضح اننا

في مشينا نتجنب السقوط ما امكن الى ذلك سيلا ، ونحن في حياتنا نتجنب الموت ونحاول دفعه وابعاده ما امكن . لذلك يحتفظ طغاة الشرق بين حليمهم النفيسة وملابسهم الفاخرة بقارورة من السم . « ان فلسفة الشرق تفهم وجود الموت في كل مكان وتقدم لطلابها هدوء المظهر والصبر والكرامة في تحمل الحياة ومواجهة الموت الناشئة عن ادراكهم لقصر حياة الانسان . ان خشية الموت هي بدء الفلسفة وهي العلة النهائية للدين ، والانسان العادي عاجز عن التوفيق بين نفسه وبين الموت ، لذلك فهو يضع فلسفات وديانات لا تحصى . ان ما يسيطر على الناس من عقيدة الايمان بالخلود لدليل على خوف الناس وفزعهم من الموت .

وكما ان الدين واللاهوت مهرب من الموت ، فكذلك الجنون مهرب من الالم ، ان الجنون وسيلة يلجأ اليها الانسان لتجنب الالم والهروب منه ، فهو توقف لخيوط الادراك الذي ينقذه من الامة ، اننا نستطيع التغلب على المخاوف بنسيانها فقط .

كثيراً ما نفكر باشياء رغم ارادتنا تضر بمصالحنا وتجرح كبرياءنا وقصطدم مع رغباتنا ، على الرغم من الصعوبة التي نواجهها عند وضع هذه الاشياء امام عقولنا لنتناولها بالبحث الدقيق .. وفي مقاومة الانسان لارادته والساح بما هو نقيضها ان يوضع تحت بحث العقل ، تكمن الثغرة التي ينفذ الجنون منها الى العقل.... فاذا بلغت مقاومة الارادة ضد استيعاب معرفة ما الى حد تعطيل عملية العقل تعطيلاً يعجزه عن اداء عمله على الوجه الاكمل ، عندئذ يتكون في العقل عناصر وظروف معينة تكبت فيه كبتاً تاماً ، لان الارادة لا تطبق رؤيتها ، وعندئذ لضرورة الاتصال تمتلئ الفجوات التي حدثت باللذة ويظهر الجنون ، لان العقل قد سلم بطبيعته لارضاء الارادة ، ويبدأ

الانسان في تصور اشياء وهمية لا وجود لها ، ومع ذلك فان الجنون الذي نشأ على هذا النحو هو في الواقع نسيان وسلوان للام شديدة غير محتملة ، وبهذا يكون الجنون العلاج الاخير من طبيعة ارادتنا المزعجة .

اما المهرب الاخير فهو الانتحار ، هنا اخيراً يتغلب الفكر والخيال على الغريزة وهو امر يدعو الى الدهشة . لقد قيل ان « ديوجينيس » وضع حداً لحياته بان رفض ان يتنفس . ياله من انتصار رائع على ارادة الحياة ! ولكنة مجرد انتصار فردي . لان الارادة لا تزال في حياة النوع ، ان الحياة تضحك من الانتحار وتبتسم للموت ، لأن كل انتحار مقصود يتبعه الاف المواليد غير المقصودة . ان الانتحار وهو القضاء الارادي على وجود الفرد الظاهري عمل ينطوي على العبث والسخافة ، لان الشيء في ذاته ، وهو النوع والحياة والارادة صفة عامة لا تتأثر به وتبقى كما يبقى قوس قزح مهما بلغت سرعة تساقط نقط الماء الذي يكونه . ان البؤس والكفاح يبقيان بعد موت الفرد ولا بد ان يبقيا ما دامت الارادة تستعبد الانسان وتسيطر عليه ، ويستحيل الانتصار على امراض الحياة الا اذا تم اخضاع الارادة للمعرفة والعقل اخضاعاً تاماً .

٦ — فلسفة الحياة

١ — الفلسفة

تأمل اولاً في سخافة الرغبة في نزوعها الى اقتناء الاشياء المادية والحصول عليها . اذ يظن سخفاء الناس انهم يستطيعون ارضاء ارادتهم واشباعها اشباعاً تاماً ببلوغ الثروة وجمع المال ، ويفترضون ان صاحب الثروة لديه الوسيلة لاشباع كل رغباته . كثيراً ما يعاب على الناس رغبتهم في المال وسعيهم لجمعه اكثر من اي شيء آخر ، وحبهم له اكثر من سواه ، ولكن من الطبيعي ان يحب الناس المال ، وهو امر لا بد منه لانه قادر على اشباع رغباتهم الهائلة ، اذ كل شيء خلا المال لا يشبع سوى رغبة واحدة ، والمال وحده هو الخير المطلق . . . لانه استجابة مجردة لجميع الرغبات . « ومنع ذلك فان اتجاهنا لتكريس حياتنا لجمع المال لا فائدة فيه الا اذا عرفنا كيف نحول هذا المال الى سعادة . وهو فن يحتاج الى ثقافة وحكمة ، إذ يستحيل ارضاء الرغبات المتلاحقة .

ولا بد للانسان ان يفهم اغراض الحياة ، كما لا بد ان يفهم فن تحصيل وسائل الحياة « ان الناس يميلون الى جمع المال والثروة الف مرة اكثر من ميلهم الى تحصيل الثقافة ، مع ان اليقين الذي - لا شك فيه هو ان سعادة الانسان تتوقف على ثقافته اكثر ما تعتمد على ماله وثروته »

فالرجل المجرد عن المقدرة العقلية لا يدري كيف يملأ اوقات فراغه ،

فهو يندفع اندفاع الشره النهم من مكان لآخر بحثاً عن اللذات واشباع
الرغبات وملء الفراغ والحاجات الحسية الجديدة ، الى ان تقهره اخيراً السامة
الهة الانتقام من الاثرياء والكسالى .

كلا ، ليست الثروة هي الطريق القويم بل الحكمة ففي الانسان ناحيتان
في آن واحد ، فهو من ناحية كفاح عنيف من الارادة التي مركزها الجهاز
التناسلي ، ومن ناحية اخرى شخص خالد حر حكيم ذو معرفة خالصة ومركزه
المخ ، والعجيب ان تتمكن المعرفة احياناً من السيطرة على الارادة مع انها
وليدتها . ان امكان استقلال المعرفة عن الارادة يبدو اولاً في استخفاف العقل
احياناً بمطالب الرغبة (فقد يرفض العقل ان يطيع الارادة مثال ذلك حينما
نحاول عبثاً تركيز عقولنا على شيء ما) حيث تريد الارادة ان يفكر العقل ،
فيرفض العقل ان يطيع) او حينما نحاول عبثاً استدعاء الذاكرة لاستحضار
شيء ما ائتمنتها الارادة على حفظه ، وانه يتضح لنا العلاقة بين الارادة والعقل
واختلافهما في غضب الارادة من العقل في مثل هذه الاحوال ، قد يتأثر العقل
احياناً من غضب الارادة فيستحضر ما اريد منه بعد بضع ساعات او في اليوم
التالي ، وقد يفعل هذا فجأة وبغير مناسبة « ومن هذه العلاقة الناقصة قد
يتحول العقل ويصبح سيد - الارادة بعد ان كان خاضعاً لها . فقد يقدم الانسان
مثلاً على اشد الاعمال رعباً والمما بشجاعة وقلة اهتمام ، كأن يقدم على الانتحار
والقتل والمهالك وتعرض حياته لاشد الاخطار ، ويقبل بصفه عامة على
ارتكاب اشياء ضد طبيعته الغريزية وهذا يظهر لنا بوضوح الى اي مدى استطاع
العقل ان يسيطر على هذه الطبيعة الحيوانية فينا .

ان سيطرة العقل على الارادة تفسح لنا طريق التطور والرقى . فالمعرفة

تعدل الرغبة وتسكنها واللجوء الى الفلسفة الجبرية يساعدنا مساعدة كبيرة في تخفيف حدة رغباتنا وتعديلها ، لأن الفلسفة الجبرية تسلم بان كل شيء نتيجة حتمية لسوابقه ، ونستطيع التغلب على تسعة امور مثيرة تمكر صفونا وتنفس حياتنا من بين كل عشرة تواجهنا ، اذا نحن ادركنا اسبابها ادراكاً ، وعرفنا حقيقة طبيعتها وضرورة وقوعها ... ففي وسع العقل ان يكون من ارادة الانسان بمثابة اللجام من الجواد الجموح . لا شيء يبعث فينا الانسجام اكثر من المعرفة الدقيقة . وكلما ازددنا معرفة لعواطفنا كلما قلت سيطرتها علينا . ولا شيء يحميننا اكثر من السيطرة على نفوسنا ، فاذا اردت ان تخضع كل شيء لنفسك اخضع نفسك لعقلك . ان قاهر العالم لا يثير فينا الاعجاب كما يثيره قاهر نفسه .

وهكذا تصفو الارادة بالفلسفة ، ولكن ينبغي ان نفهم الفلسفة على اساس انها تجربة وفكر ، لا مجرد قراءة ومطالعة ودراسة .

ان تعرض عقولنا باستمرار لتدفق افكار غيرنا لا بد ، ان يحصر افكارنا ويكبح انطلاقها ، ويؤدي في النهاية الى شل قوة تفكيرنا ، ان ميل معظم العلماء للقراءة هو نوع من امتصاص الفراغ وذلك لان - اجداد عقولهم يدفعهم الى سحب افكار الاخرين رغماً عنهم . ومن الخطر ان نقرأ عن موضوع قبل ان نكون قد فكرنا فيه بانفسنا ... فنحن عندما نقرأ لغيرنا يكون غيرنا يفكر لنا ، ولا نكون حينئذ الامعدين لافكار غيرنا . لذلك فان الشخص يفقد تدريجياً مقدرته على التفكير اذا قضى ايامه في قراءة غيره ، فالخبرة التي نكتسبها من الحياة يمكن اعتبارها متن كتاب ، وشرح هذا المتن والتعليق عليه هو التفكير والمعرفة . فاذا كانت ثقافة الانسان وتأملاته واسعة ولكن خبرته في الحياة قليلة كان كالكتب التي تحتوي كل صفحة من صفحاتها على سطرين من المتن واربعين سطرأ من التعليق والتوضيح .

لذلك فان اول نصيحة نوجهها هي الاستفادة من خبرة الحياة وتجاربها
اولا قبل الكتب ، وثانيا مطالعة الكتب نفسها قبل مطالعة ما كتب حولها من
تعليقات . وان نقرأ ما كتب المؤلفون قبل قراءة ما كتب النقاد والمعلقون .
اذ لا يمكن تلقي الافكار الفلسفية الا من المؤلفين انفسهم . لذلك ينبغي على كل
من يشعر بنفسه ميلا الى الفلسفة ان يبحث عن معلمها الخالدين في معبد انتاجهم
ومؤلفاتهم . ان كتابا واحدا من عبقرى يساوي الفا من كتب المعلقين .

ان السعي وراء المعرفة والثقافة ضمن هذه الحدود امر ذو قيمة ، لان
سعادتنا تعتمد على ما في عقولنا من علم لا على ما في جيوبنا من مال ، وحتى
الشهرة نفسها سخف وحمق ، لان سعادة الانسان الحقيقية ليست في تقدير الناس
له . ان نظرة الناس للشخص ليست مهمة جداً ، لان كل شخص في النهاية يقف
وحده . ان السعادة التي نستمدها من انفسنا اعظم من تلك التي نتلقاها من
يحيط بنا . ان العالم الذي يعيش فيه الانسان يشكّل بحسب نظرة الانسان له .
وما دام لا يوجد شيء او يقع للانسان الا في ادراكه ، ولا يحدث إلا له وحده ،
لذلك فان اهم شيء له هو تشكيل ادراكه . . . وقد صدق ارسطو عندما
قال : « اذا اردت ان تكون سعيدا ، ينبغي ان يكون لديك
اكتفاء ذاتي »

ان السبيل لانقاذ الانسان من شر رغبات الارادة التي لاتنتهي هي في
تأمل الحياة تأملا عقليا ومطالعة ما كتبه اعظم الرجال في جميع العصور
والبلدان . فالمقل الاريحي الخالي من الاثرة يصعد فوق اخطاء الارادة وسخافاتهما
كما تصعد رائحة العطر الزكية . لن يرتفع معظم الناس ابدا فوق النظر الى
الاشياء باعتبارها مواضع رغبة ، ومن هنا ينشأ بؤسهم ، والصعود للحرية هو ان
ننظر للاشياء نظرة خالصة باعتبارها موضوعا للفهم .

إذا ما انتشلنا بفتة من سيل الرغبات المتدفقة التي لاتنتهي استعداد خارجي او داخلي ، وانقذ المعرفة من استعباد الارادة ، فان اهتمامنا سيعدل عن الاتجاه الى بواعث الارادة (ويدرك الاشياء منفصلة وحررة عن علاقاتها بالارادة ، وبذلك ينظر اليها نظرة مجردة عن المصلحة الشخصية اي ينظر اليها نظرة موضوعية خالصة ، اذا انصرف العقل بكليته الى الاشياء باعتبارها افكارا - لا باعتبارها دوافع مثيرة للرغبة ، عندئذ يحل بنا السلام الذي طالما بحثنا عنه والذي كان يهرب دائما منا في طريق الرغبات ، ونصل الى حالة مجردة عن الالم ، وهي الحالة التي امتدحها « ابيقور » ووصفها بأنها الخير الاسمى وانها حياة الالهة ، لاننا نكون قد حررنا انفسنا من كفاح الارادة - التعميس .

٢ — العبقري

العبقري هو اعلى صورة من صور هذه المعرفة التي تجردت عن الارادة ، كما ان احط ضروب انواع الحياة هو ما كان ناجما عن ارادة بحتة ، بغير معرفة . والانسان بصفة عامة تغلب عليه الارادة اكثر من المعرفة ، اما العبقري فتغلب فيه المعرفة وتقل الارادة ، وفي العبقري ، تكون الملكة العارفة قد نمت وتطورت تطورا كبيرا يزيد عما تتطلبه خدمة الارادة ، وهذا يؤدي الى انتقال بعض القوة من النشاط التناسلي الى النشاط العقلي . « والصفة الاولى للعبقرية هي سيطرة غير مألوفة للحساسية والغضب وقوة التأثير على القوة التناسلية ومن هنا كانت العداوة بين العبقري والمرأة ، لان المرأة تمثل التناسل وخضوع العقل لارادة الحياة » قد يكون للنساء موهبة عظيمة ، ولكنها لن تبلغ العبقرية ، لانهن ذاتيات وكل شيء فيهن شخصي وينظرن الى الامور نظرة ذاتية شخصية كوسيلة لمصلحتهن الشخصية .

اما العبقرية فهي النظرة اللاشخصية السامية المجردة عن المصلحة الشخصية تماما . ان العبقرية هي القوة التي يتمكن فيها الفرد من نبذ مصالحه ورغباته واغراضه وابعادها تماما عن بصره . والقوة التي يستطيع بها انكار شخصيته انكاراً تاماً ، مدة من الوقت ، ليبقى معرفة خالصة وبصيرة واضحة بالعالم ،

ولهذا فان العبقريه هي سيادة المعرفة على الارادة سيادة واضحة ، اما في الحالات العادية فان الارادة تسود على المعرفة ، والمعرفة تنشط بدافع الارادة فقط ، بحيث تكون المصالح الشخصية والمنفعية هي الموجه للمعرفة .

فادا تحرر العقل من الارادة استطاع ان يرى الشيء كما هو فالعبقريه تمسك لنا بيدها المرآة السحرية التي يظهر لنا فيها كل ما هو ضروري وهام مرتبطا ببعده ببعض وواضحا وضوحا تاما ، اما ما هو عرضي واجنبي فيبقى مطروحا في الخارج ، وفي العبقريه ينفذ الفكر خلال العاطفة ، كما تنفذ اشعة الشمس من خلال السحب ، فيكشف عن قلب الاشياء ، ويسمو الفكر ، ويتجاوز الفردي والخاص الى (المثال الافلاطوني) او الجوهر العام الذي هو صورة عنه . تماما كما يرى الرسام في الشخص الذي يرسمه لا مجرد ملامحه وشخصيته الفردية ، بل يرى صفة عامة وحقيقة خالدة ليس الفرد سوى رمز لها ووسيلة للكشف عنها ، فسر العبقريه اذن يكمن في ادراك الحقيقة الموضوعية والجوهرية العامة ادراكا واضحا وعادلا

ان هذا الانكار الذاتي والشخصي في العبقري يجعله غريبا في هذا العالم الذي تسوده المصالح الذاتية والرغبات النفعية والدوافع الشخصية . لذلك نجد العبقري بامتداد بصره الى الامور البعيدة ورؤيته لها ، لا يلتفت الى الاشياء القريبة فلا يراها .

انه شاذ وشارد الذهن وقد يتجه ببصره الى السماء يتأمل النجوم فيقع في حفرة اثناء سيره وانشغاله بالتفكير ، وهذا هو السبب في انطوائه على نفسه وعزلته ، وابتعاده عن مخالطة الناس ومعاشرتهم لانه مشغول عنهم بالتفكير في اصل الاشياء الموقته الخاصة السريعة ، فليس بين عقله وعقولهم صلة مشتركة

ولن يتقابلا ابدا « القاعدة ان يكون الرجل اجتماعيا بمقدار ما هو عامي وضعيف العقل . » ان العبقرى له ما يعوضه عن هذا الانطواء على ذاته ووحده وعزله ، فهو ليس بحاجة الى الرفيق والزميل كعامية الناس الذين يعتمدون في حياتهم دائما على ما هو خارجي عنهم « فالسعادة التي يستمدونها العبقرى من الجمال على اختلاف صورته والسلوى التي يقدمها له الفن ، وحاس الفنان الذي يتصف به تمكنه من نسيان مشاغل الحياة ، وتعوضه عن الالم الذي يزداد في الانسان بنسبة وضوح ادراكه ووحده الموحشة بين جنس من البشر يختلف عنه تمام الاختلاف . »

ويتبع ذلك ان يجبر العبقرى على التزام العزلة التي قد تؤدي به احيانا الى الجنون . ان التطرف في الحساسية التي تسبب له الالم بالاضافة الى الخيال والوجدان وقوة الادراك ، بالاضافة الى العزلة والانصراف عن الحياة ، تعمل جميعها على قطع الروابط التي تمسك العقل ليتمكن من الانصراف في تفكيره الى الحقيقة ، وقد كان ارسطو على صواب عندما قال : « ان الممتازين من الرجال في الفلسفة او السياسة والشعر والفن كلهم من ذوي المزاج المكتئب او الجنون الساكت » والاتصال المباشر بين الجنون والعبقرية يؤيده تاريخ اعظم الرجال مثل روسو وبيرون الفييري وغيرها ، « وبعد بحث دقيق في مستشفيات المجانين وجدت حالات فردية لمرضى كانوا من ذوي المواهب العظيمة وكانت تظهر لي عبقرتهم جلية واضحة من خلال جنونهم » ومع ذلك ففي انصاف المجانين العباقرة هؤلاء تكمن الارستقراطية الحقيقية للجنس البشري .

« ان الطبيعة من حيث العقل ارستقراطية الى مدى كبير . وقد

اوجدت من الفوارق بين الناس ما يفوق الفوارق التي اوجدتها مميزات المولد والرتب ، والثروة والطبقة . ان الطبيعة لا تمنح العبقرية الا للقليل من الناس ، لأن العبقرية تعوق سير الحياة العادية التي تقتضي التركيز في الامور الخاصة السريعة ، لقد ارادت الطبيعة ان يكون حتى المتعلمين والمثقفين حارثين للارض ، واساتذة الجامعات يشملهم هذا المستوى .

٣ - الفن

ان مهمة الفن هي تحرير المعرفة من استعباد الارادة ، ونسيان الذات الفردية ومصالحها المادية . والسمو بالعقل الى مرتبة تأمل الحقيقة اللاارادي . فان كان موضوع العلم هو الكلي الذي يشمل جزئيات كثيرة ، فموضوع الفن هو الجزئي الذي يشمل الكلي « وحتى الصورة التي يرسمها الفنان للشخص يجب ان تكون كما يقول (ونكلمان) المثل الاعلى للشخص ، وفي رسم الحيوانات تكون اكثر الصور اظهارا للطابع المميز للحيوان هي اجملها ، لانها تكشف عن النوع كشفا واضحا لذلك يقاس نجاح الفن بنسبة ما يقدمه من المثل الافلاطوني للشيء او الصفة العامة للنوع الذي ينتمي له ذلك الشيء الذي رسمت صورته ، لذلك يجب على الفنان ان لا يقصر همه على اجادة الصورة الفوتوغرافية من حيث الدقة الفوتوغرافية اذا اراد ان يصور رجلا ، بل ينبغي عليه ان يعرض في هذه الصورة كل ما يمكن عرضه من صفات الانسان العامة الضرورية ، فالفن اعظم من العلم لأن العلم يتقدم عن طريق التفكير الحذر والمثابرة الشاقة في تجميع المعلومات بينما يصل الفن الى هدفه دفعة واحدة بالتمثيل والبصيرة . والعلم يشق طريقه بالموهبة ، ولكن الفن يحتاج الى العبقرية .

ان استمتاعنا بالطبيعة كما في الشعر والتصوير مستمد من تأمل الشيء والتفكير فيه من غير ان نمزج به الارادة الشخصية . فنهر الراين بالنسبة الى الفنان عبارة عن سلسلة مختلفة من المناظر الساحرة الخلابة ، التي تثير فيه الاحساس والخيال بما توحيه له من جمال . اما المسافر الذي تشغله اموره الشخصية ، « فلا يرى في نهر الراين وضافه سوى خط تقطعه خطوط اخرى هي الجسور » لأن الفنان قد حرر نفسه من مشاعله الشخصية « بحيث يتساوى لدى الفن رؤية غروب الشمس من سجن او قصر . « هذه هي نعمة الادراك المتحرر من الارادة - الذي يخلع فتنة خلابسة وسحراً على الماضي والبعيد ويقدمها لنا في ضوء جميل . وحتى الاشياء المعادية اذا تأملناها بغير استفزاز الارادة وبغير احساس بخطر قريب بدت لنا في غاية الروعة والسناء والجلال . ومما يزيد في قدرة الرواية التمثيلية وجمال فنها هي ان تبتعد بنا عن كفاح الارادة الفردية ، وتمكننا من مشاهدة الألم بشكل اعم واوسع . والفن يلطف ويخفف من امراض الحياة باطلاعنا على العنصر الابدي العام وراء المؤقت الفردي . لقد كان سينوزا على حق حين قال « ان العقل يشترك في الابدية بمقدار ما يرى الاشياء في مظهرها الخالد » .

تفوق الموسيقى بقية الفنون في مقدرتها على رفعنا والسمو بنا فوق كفاح الارادة . ليست الموسيقى مجال من الاحول كبقية الفنون الاخرى نسخة من المثل او جواهر الاشياء ، ولكنها نسخة من الارادة نفسها ، فهي تظهر لنا الارادة في حركتها وكفاحها وطوافها الدائم ، التي لا تلبث ان تعود الى نفسها بعد طواف طويل لتبدأ كفاحها من جديد . وهذا هو السبب في ان قأثير الموسيقى اقوى اثرأ واكثر تغلغلا من بقية الفنون . لان الفنون تتحدث عن

اشباح فقط بينما الموسيقى تعبر عن الاشياء نفسها . وهي تختلف ايضاً عن بقية
الفنون لانها تؤثر في شعورنا تأثيراً مباشراً لا عن طريق الافكار ، انها تخاطب
فينا شيئاً ارق من العقل . ان الازان من الموسيقى كالتناسق من فنون النحت
والتصوير ، لذلك كانت الموسيقى وفن العمران فنين متقابلين ويقول « جوته »
ان فن العمران عبارة عن موسيقى متجمدة والتناسق في فن العمران اوزان
موسيقية صامتة .

٤ - الدين

لقد ادرك شوبنهاور في ايام نضجه ان نظريته في الفن ، وهو الانسحاب من الارادة ، والانصراف الى تأمل الحقيقة الخالدة الشاملة ، تصلح ان تكون ايضاً نظرية للدين . لقد تلقى شوبنهاور في شبابه قليلاً من الثقافة الدينية ، ولم يكن بطبعه ميالاً لاحترام النظم الكنائسية السائدة في عصره . وكان يشعر بمقت لرجال اللاهوت واعتبار الناس لهم المرجع الاعلى في الامور الدينية . ووصف الدين بكونه « ميتافيزيقا الجاهير » ولكنه بدأ يرى في السنوات الاخيرة من حياة اهمية عميقة في بعض الشعائر والمعتقدات الدينية « ان الجدل بين من يعتقدون بكفاية العقل دون الوحي وبين من يعتقدون بالوحي والمعجزات يكمن في جهلهم ادراك الطبيعة المجازية في جميع الديانات فالديانة المسيحية مثلاً فلسفة تشاؤمية عميقة ، وجوهر المسيحية قائم على مبدأ الخطيئة الاصلية (وهو تقرير للارادة) والتكفير عن الخطايا (وهو انكار للارادة) كما ان الصوم فيه نفع في اضعاف تلك الرغبة التي يستحيل ان تؤدي الى السعادة ، بل تؤدي الى خيبة الامل او الى التطلع الى رغبة اخرى . ان القوة التي بفضلها استطاعت المسيحية التغلب على الديانة اليهودية اولاً ، ثم على وثنية اليونان والرومان تكمن في نظرتها التشاؤمية واعترافها بان حالنا يسودها التطرف في البؤس والخطيئة اما اليهودية والوثنية فقد كانتا متفائلتين واعتقدتا ان الدين عبارة عن رشوة

يقدمها الناس الى الآلهة لتساعدهم على النجاح في الدنيا . اما المسيحية فقد رأت في الدين درعا واقيا لحماية الناس من غزو الملذات الارضية الزائلة التي لا خير فيها . لقد رفعت المسيحية مثلها الاعلى الذي يتجلى في حياة القديس المتبتل الزاهد في وسط عالم يطفح بالترف والبذخ والجاه والسلطان . ودعت الى جهاد النفس والتغلب على الارادة الفردية تغلبا مطلقا .

والديانة البوذية اكثر عمقا من المسيحية . لانها تجعل من هدم الارادة غاية الدين واساسه . وهي تدعو الى اخماد الشهوات الجسدية ، وتبشر بسعادة النفس في عالم الخلود حيث الراحة الابدية . والهندوس ابعده غوراً واشد عمقا من مفكري اوروبا ، لانهم يفسرون الدنيا تفسيراً داخلياً ووجدانياً لا خارجياً وعقلياً . والعقل في نظرهم يقسم كل شيء اما الوجدان فيوحد كل شيء . وقد رأى الهنود ان « انا » وهم وخداع وان الفرد عرضي زائل ، وان الحقيقية هي « الواحد اللانهائي » وان كل من صفت روحه وبصره بحيث يرى اننا جميعا اعضاء من كائن عضوي واحد ، واننا جميعا تيارات ضئيلة في محيط الارادة فهو « بالغ كل فضيلة وبركة » ، وسائر في طريق الخلاص والتكفير عن ذنوبه « ولا يعتقد شوبنهاور ان في وسع المسيحية ان تحل محل البوذية في الشرق . وكل محاولة منها مصيرها الفشل كمن يطلق رصاصة على جبل . ويعتقد بأن الفلسفة الهندية ستتدفق على اوربا وانها ستغير من معرفة الاوربيين وتفكيرهم تمييزاً عميقاً . وان الادب الهندي (السنسكريتي) سيتغلغل في اوروبا تغلغلا لا يقل عمقا عن تغلغل الآداب اليونانية عند بعثها في القرن الخامس عشر .

وعلى هذا تكون الحكمة النهائية هي في اخماد الشهوات وهبوط الانسان

بذاته الى حد ادنى من الرغبة والارادة ، لأن ارادة العالم اقوى من ارادتنا
ولذلك يجب ان ندعن لها ونستسلم لها فوراً . وكلما خف تهييج الارادة
وانارتها كلما خفت الامنا ومتاعبنا. وان يكون السلام الذي يسمو على العقل
وهده الروح الكامل ، والراحة العميقة والثقة الحصينة انجيلا لنا . حيث
تبقى المعرفة وتزول الارادة .

٧ - حكمة الموت

ولكننا بحاجة الى شيء اكثر . يستطيع الفرد ان يبلغ السعادة بفضل « النرفانا » وهي نظرية هندوسية تمتد بلوغ حالة من السعادة الناجمة عن كبت الرغبات والشهوات وايقافها ايقافا تاما . يستطيع ان يبلغ الفرد السلام والخلاص من رغباته بفضل « النرفانا » ولكن ما الذي يخلص الانسانية باسرها؟ ان الحياة لتسخر وتضحك من موت الفرد لانها ستبقيه حيا في ذريته ونسله ، او في ذرية ونسل الآخرين . وحتى لو جف نبع ماء حياته الصغير فهناك الالوف من الجداول والينابيع التي تتفجر وتجري بعمق وانسياب وتدفق اكثر في كل جيل . وما هي الطريق لانقاذ الانسان وخلاصه ؟ اليس ثمة نرفانا تشمل الجنس كله كما تشمل الفرد ايضا .

وهنا يبدو لنا بوضوح ان الوسيلة الوحيدة والاخيرة لقهقار الارادة تكمن في ايقاف منبع الحياة وهو ارادة النسل « ان اشباع الفريزة الجنسية هو الملموم لانه اقوى ما يقوى شهوة الحياة ، ماذا جنى هؤلاء الاطفال لندفع بهم الى الحياة وآلامها ؟

اننا لو تأملنا صخب الحياة واضطرابها لوجدنا الناس جميعهم مشغولين في تلبية حاجاتها وشقاها . مستنزفين كل قواهم في ارضاء حاجاتها التي لانهاية

لها وابعاد احزانها المختلفة . وليست لديهم الجرأة في التفكير في شيء آخر سوى الاحتفاظ بهذه الحياة المعذبة لفترة قصيرة من الوقت . ومن العجيب ان نشاهد وسط صخب الحياة وشغبها نظرات الاحبة والعشاق وهي تتقابل في لهف واشتياق في تستر وخفاء ، وخوف ووجل . لماذا يلتقي هؤلاء الاحبة في مثل هذه التستر ؟ لانهم خونة يطلبون دوام هذه الحاجة المضنية التي لولاها لانتهى امرها بسرعة . هذا هو السبب العميق لما يحيط عملية التناسل من خجل .

ان المتهمة هنا هي المرأة ، وعليها تقع مسؤولية الجريمة ، لأنه اذا رجحت معرفة الرجل على ارادته ، تعود المرأة باغرائه على التناسل . وليس لدى الشباب من الذكاء ما يكفي ليرى ان سحر المرأة ومفاتنها قصيرة الامد ، فاذا اكتمل عقله ونضج تفكيره تكون الفرصة قد افلتت من يده وفاته الوقت .

لقد وهبت الطبيعة الفتيات جمالا آخاذا وسحرا وافرا لسنوات قليلة . يستطعن خلالها اسر قلوب الرجال ، وايقاعهم في حباثلن وحبين . وهكذا يسارع الرجال في قبول شرف الانفاق عليهن . ولو فكر الرجال لما اقدموا على تحمل عبء الانفاق على النساء . . . وكما يحدث دائما في طبيعه هذا العالم ، وكما تفقد النملة جناحها بعد ان يقوم الذكر بتلقيحها ، فان المرأة تفقد جمالها ويذبل سحرها بعد انجاب ولد او اثنين ، ولو فكر الرجال بان النساء السلواتي أوحين لهم باغاني العشق واناشيد الغرام قد ولدن قبل عشرين سنة لما القوا عليهن نظرة واحدة . واخيرا فان الرجال اجمل كثيرا وخصوصا في تركيب الاجسام من النساء .

لا شك ان الرجل الذي اطلق على النساء اسم الجنس اللطيف قد غيمت

سحب الغريزة الجنسية على عقله ، واعمت الشهوة بصره ، اذ كيف يمكن ان يطلق هذا اللقب على ذلك الجنس النسائي القصير القامة ، الضامر الاكتاف ، العريض الافخاذ القصير الساقين اسم الجنس اللطيف . ولا شك في ان جمال المرأة قائم كله على الغريزة الجنسية وحدها . وكان الاجدر ان نسمي النساء بالجنس الذي لا يتذوق الفن ، فهن خلو من قابلية التأثر بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة . ويتظاهرن التأثر بهذه الفنون لادخال السرور على قلب من يحاولن استدراجه وصيده من الرجال . وهن عاجزات عن تذوق كل فن . واذا استعرضنا تاريخ النساء المثقفات لما وجدنا منهن واحدة قد ابدعت في تاريخ الفنون لوحة فنية او قطعة موسيقية او قصيدة شعرية واحدة ذات اصالة وابداع . او قدمت للعالم اية قيمة خالدة في اي موضوع .

ان هذا التوقير الذي يبديه الرجل للمرأة وليد الديانة المسيحية والحنو والاحساس الالمانى . وهو سبب لتلك الحركة الرومانتيكية التي تمجد الشعور والغريزة والارادة وتضعها جميعا فوق العقل . والاسيويون افضل منا علما بطبيعة المرأة ويعترفون اعترافا صريحا بانحطاطها وانها دون الرجل . « وينبغي على القانون الذي يساوي المرأة مع الرجل في الحقوق ان يساوي بينها في العقول ايضا . » كما ان آسيا اظهرت امانة اكثر منا في نظم الزواج واعترفت بنظام تعدد الزوجات اعترافا قانونيا . وفي الوقت الذي يستنكر فيه الاوروبيون نظام تعدد الزوجات بالكلام نراهم ينفذونه بالعمل ، ولن نجد بينهم من يقتصر على معاشره زوجته ويطبق مبدأ الزوجة الواحدة بامانة واخلاص .

ومن الحماقة ايضا ان نبيح للنساء حق الارث . لانهن يملن للتبذير والاسراف باستثناء القليل ويفكرن بأن الرجال قد خلقوا لكسب المال وتقديمه لهن لينفقن بغير حساب . هذه هي نظرة النساء في تقسيم العمل . « اعتقد بعدم

السماح اطلاقاً للنساء بإدارة مصالحهن ، وان يكن دائماً خاضعات لاشراف الرجال ، كالأباء والاولاد والازواج او تحت اشراف الحكومة كما في هندوستان . وان لا يخولن صلاحية كاملة في ادارة اي عقار مالم يكن من ثمره عملهن واتعايبن . ، لقد ادى تبذير النساء وحياة البذخ التي كن يعشن فيها في بلاط لويس الثالث عشر الى فساد الحكومة مما ادى الى اشتعال الثورة الفرنسية .

لذلك كلما قل اتصال الرجل بالمرأة وخفف علاقتهم بها ، كان ذلك افضل واحسن . وليس النساء شراً لا بد منه كما يقال ، لأن الحياة بغيرهن اكثر أمناً واوفر هدوءاً . ولتبيين الرجال احابيل النساء وشراكن السكمنة في جاهن . ووضع نهاية لمهزلة ارادة التناسل . ان تطور العقل والذكاء سيضعف او يؤخر ارادة التناسل . وسيتمكن بذلك من استئصال الجنس . لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما اسدل على هزيمة او موت ، وعن كفاح جديد وهزيمة جديدة ؟ الى متى ننخدع بهذه الحياة والميت كلب والجنائز حارة . والى متى نصبر على هذا الالم الذي لا يؤدي الا الى نهاية اليمة . متى سنجد الشجاعة فنتحدى الارادة ونخبرها ان حب الحياة اكذبوبة ، وان الموت اعظم بركة ونعمة للناس .

والجواب الطبيعي لمثل هذه الفلسفة هو ان نخضع الانسان والمصر الذي يعيش فيه الى فحص وتشخيص طبي .

اذ ينبغي ان لا يفوتنا اننا نشاهد في هذا العصر الذي عاش فيه شوبنهاور فترة شبيهة تماما بالفترة التي اعقبت حكم الاسكندر في اليونان ، وقصر في روما . حيث تمرضت اليونان اولا وروما ثانيا الى سيل جارف من العقائد والافكار الشرقية . اذ ان من مميزات الشرق ان ينظر الى الارادة الخارجية في الطبيعة بأنها اقوى بكثير من ارادة الانسان وهذا يؤدي الى التسليم بالقضاء والقدر واليأس . وكما ان انحلال اليونان جعلها عرضة للرواقية الشاحبة، والابيقورية المستسلمة فقد احدثت الكوارث والفوضى التي خلفتها الحروب النابليونية في اوربا فتورا ومللا وحزنا جعلها تصفي الى شوبنهاور وتجعل منه صوتا لفلسفتها . لقد كانت اوربا تعاني صراعا خفيفا في عام ١٨١٥ .

لقد اعترف شوبنهاور ان سعادة الانسان تتوقف على الانسان نفسه اكثر من توقفها على الظروف الخارجية . ان التشاؤم تهمة تقع على عاتق المتشاؤم نفسه . لقد استمد شوبنهاور فلسفته من مزاجه العصبي وفراغ حياته وعزلته

ووجدته وانطوائه على نفسه الذي طبع حياته بطابع السأم والملل المعتم القاتم . هذا بالإضافة الى الآلام والاحزان التي كانت تسود عصره . اذ لا شيء يبعث التشاؤم في الانسان اكثر من الفراغ وحياة الكسل . والحياة النشيطة تؤثر على النفس وتقوي من معنوياتها وتزيد في نشاط العقل والبدن . لقد كان لديه من المال ما يساعده على الاستمرار في حياة الفراغ والراحة ، ووجد ان الفراغ المستمر لا يحتمل واشد عبثاً من العمل المستمر . ولعل نزوع الفلاسفة الى الكتابة يعود الى خلو حياتهم من النشاط والعمل ، وملازمة الجلوس وعدم الحركة .

ان الترفانا هي المثل الاعلى للانسان فاتر الهمة . ان الانسان الذي يبدأ حياته بالطموح الى الوصول الى غايات كبيرة واهداف عظيمة وينتهي امره بالفشل في تحقيق هذه الغايات والآمال يمضي بقية حياته في ضجر ونزق . ولا شك ان تجارب شوبنهاور المبكرة مع النساء احدثت في نفسه ريبة شاذة وحساسية ضدهن . كما حدث مع نيتشه وفلاوبرت وشتند هال . فقدنا ساخرأ منزلاً ، فهو يقول « لا تخبر صديقك بشيء تخفيه عن عدوك . » وينصح بحياة هائلة ناسكة رتيبة . وهو يخشى المجتمع ، ولا يتذوق متعة الاجتماع بالناس . والواقع ان السعادة لا معنى لها اذا لم يشاركنا فيها الآخرون .

لا شك ان في التشاؤم من الحياة قدرا كبيرا من الانانية وحب الذات . واذا كان العالم لم يضحك بوجه لنا انقلبنا عليه وتحولنا عنه والعينا التبعة عليه . ولكننا بذلك نكون قد نسينا الدرس الذي القاه « سينوزا » وهو ان رضانا وسخطنا ولومنا للعالم ليس سوى احكام بشرية لا تتناسب في الاغلب اذا طبقناها على العالم . وربما كان اشمئزنا من العالم بسبب اشمئزنا من

انفسنا ، وقد يكون الخطأ والزلل منا ولكننا نضع اللوم على البيئة او العالم ،
الذين ليست لهما السنة يدافعان بها عن نفسيهما . ان الانسان الناضج ليقبل ما
في الحياة من حدود طبيعية ، ولا يتوقع من العناية الالهية ان تتحيز الى جانب
وتراعي خاطره وتفضل مصلحته . ولا يطلب منها ان تؤثر بزهر الطارلة
الرابح « النرد » ليلعب به لعبة الحياة ، ويتفق مع « كارليل » بأن من السخف
والحمق ان نلعن الشمس لانها لم تشعل لنا سيجارتنا ، مع ان الشمس قد تفعل
ذلك لو اوتينا من العلم شيئاً . وقد ينقلب هذا الكون الفسيح المحايد الى مكان
سعادة عظيمة لو ساعدناه بشيء من ضياء نفوسنا واشراق روحنا . والواقع
ان العالم ليس معنا او علينا ، فما هو الامادة اولية في ايدينا ، وقد يكون
نعيماً او جحيماً وفقاً لما جبلت عليه نفوسنا .

ان بعض التشاؤم في شوبنهاور ومعاصريه ناجم عن وجهة نظرم
الرومانتيكية والآمال الكبيرة التي علقوها على المستقبل . ان الشباب
واسع الآمال ويتوقع الكثير من العالم . والتشاؤم هو الصباح الذي يعقب أمس
التفاؤل . وكما دفع عام ١٨١٥ ثمن اعمال عام ١٧٨٩ ، فان التمجيد الرومانتيكي
وتحزير الشعور والغريزة والارادة ، والاحتقار الرومانتيكي للعقل وكبح الشاعر
والنظام كل هذه الامور انتهت بأن يدفع العالم ثمناً باهظاً لها . وعندما تبين
للرومانتيكي ان مثله الاعلى في السعادة قد انتهى به الى شقاء حقيقي ، لم يوجه
اللوم الى مثله الاعلى ، بل وجه اللوم الى العالم ، وان هذا العالم ليس جديراً
بانسان منظم مثالي مثله . اذ كيف يمكن ان يرضي عالم هوائي متقلب الاطوار
روحاً هوائية متقلبة الاطوار ؟

لقد اوحى الى شوبنهاور بأولية الارادة ونهايتها ما شاهده في العالم من

نهض نابليون الى السلطة والامبراطورية وما دعا اليه روسو من رفض العالم والمدنية ، وفلسفة « كانت » ونقده للعقل وقد تكون معركة واترلو ومصير نابليون في سانت هيلانه قد اوحى له بفلسفة المتشائمة . فقد كان نابليون اعظم ارادة فردية ظهرت في تاريخ العالم ، وبسط نفوذه وسيطرته على اوروبا وغيرها من قارات العالم ، ومع ذلك فقد كان مصيره الفشل كحشرة تحمل الموت المحتم في جنباتها في اليوم الذي جاءت فيه الى هذه الدنيا . وكان الاجدر بشوبنهاور ان يفهم بأن من الافضل ان نحارب في هذه الحياة وان نخسر المعركة من ان نقعد ولا نحارب اطلاقا . ولم يشعر مثل « هجل » الاكثر رجولة واشد عنفاً بمجد الكفاح والنضال في هذا العالم . لقد تأقت روح شوبنهاور الى السلام . لانه عاش في وسط الحرب ، وكان الكفاح يجري حوله في كل مكان ، ولم يستطع ان يرى وراء هذه الحرب مساعدة الجيران الودية ، وبهجة الاطفال ، ومرح الشباب ، ورقص الفتيات ، ونضحيات الابهاء والاحبة ، وجود الارض ، وجمال الربيع .

ثم ماذا يضير من ان رغباتنا لا تنتهي ، وان اشباع رغبة يؤدي الى بحث رغبة اخرى ، وقد يكون من الافضل لنا الانقنع ونرضى . فالسعادة كما قال القدماء هي في بلوغ المتى والمراد وليست في الامتلاك والشبع . والانسان السليم العقل والصحة لا يبحث عن السعادة بقدر ما يبحث عن فرصة تمكنه من ممارسة قواه ومواهبه . وهو على استعداد لان يدفع عن طيب خاطر ثمن هذه الحرية من عنائه وآلامه . اننا لفي حاجة الى المقاومة لترفعنا كما ترفع الطائرة والطائر ونحن بحاجة الى العقبات لندلف بها قوانا وننمش نمونا . والحياة بغير مأساة ليست جديرة بالانسان .

لقد ذهب شوبنهاور الى أن زيادة المعرفة تستتبع زيادة الالم ، وان ارقى الكائنات نظاما هي اشدها تعرضاً للالم . وهو على صواب في قوله

هذا . ولكن من الصواب ايضا ان نفهم بأن زيادة المعرفة تزيد في السرور كما تزيد في الألم ، وان الانسان الراقى المتطور هو وحده الذي يتمتع بأعظم الفرح وأشد الألم . وقد اصاب « فولتير » عندما أثر لنفسه شقاء الحكمة البرهمية على نعيم جهل المرأة الفلاحة . اننا نحب ان نختبر الحياة اختبارا عميقا وذكيا ولو كان على حساب ما نقاسيه من آلام . ونحب ان نخاطر ونجازف في كشف اسرارها ولو كان على حساب فشلنا وخيبة آمالنا . لقد مل « فرجل » الذي تذوق كل لذة ، وعرف كل ترف من كل شيء في هذه الحياة الا لذة الفهم وبهجة المعرفة .

هل اللذة سلبية كما يقول شوبنهاور ، كلا ان اللذة ليست سلبية في جميع الحالات . ان اللذة هي انسجام ما تقوم به غرائزنا من عمل وكيف يمكن ان تكون اللذة سلبية الا اذا كانت الغريزة الدافعة اليها غريزة تراجع وتقهر ، لا تقدم واقترب . ان لذة الهرب والراحة والاستسلام والامن ، والانعزال والهدوء لذات سلبية بلا شك ، لأن الغرائز التي تدفعنا لها غرائز سلبية - فهي حالات من الخوف والهرب . ولكن من منا يقول ان المذات الناجمة عن الغرائز الايجابية كغرائز التحصيل والامتلاك والحكمة والسيادة والعمل واللعب والاجتماع والحب لذات سلبية ؟ وهل من المعقول ان نعتبر المرح والسرور والبهجة لذات سلبية ، وهل من الممكن ان يكون مرح الطفولة ، واغنية الطير لوليفه ، او صياح الديك في بهجة الفجر ، او نشوة الفن الاصيل لذات سلبية ؟ ان الحياة نفسها قوة ايجابية ، وكل عمل عادي فيها يفتح بالمتعة والسرور .

ويقول شوبنهاور ان الموت مفزع ومرعب ، وهو على حق في قوله ، اذ لا شك ان الموت مفزع ومرعب ولكن الخوف من الموت يزول لو عاش الانسان حياة عادية . ولكن هل الخلود وعدم الموت سعادة لنا اذ من منا يحسد مصير « اهاسورس » الذي حكمت عليه الآلهة بالخلود في الحياة ككاشد

عقاب يمكن ان تنزله بانسان؟ والواقع ان الفزع من الموت دليل على ان الحياة حلوة وممتعة . ولا حاجة بنا لان نردد ما قاله نابليون بان جميع الذين يخشون الموت يحملون بين جنبتهم قلوباً ملحدة وكافرة وأن شوبنهاور بتخطيه السبعين من عمره قد تجاوز مرحلة التشاؤم من حياته، وفي ذلك يقول « جوته » لاتشاؤم بعد سن الثلاثين او قبل العشرين . لان التشاؤم في حقيقته فيض الشعور بالذات ، وشعور الامة في الشاب . ويشعر به الشاب الذي خرج من حرارة الاسرة وعطفها وحبها الى برودة العالم الذي تسوده الفردية والمنافسة والجشع . عندئذ يشعر ذلك الشاب بحنين الى حياة الاسرة . شاب قذف بنفسه امام طاحونة الحياة وشرور العالم فعصفت بمثله وطحنت احلامه . ان بهجة الجسد قبل العشرين وبهجة العقل بعد الثلاثين . فقبل العشرين يشعر الانسان بلذة الامن والحماية . وبعد الثلاثين بلذة الابوة والاسرة .

ولكن كيف يمكن لشوبنهاور ان يتجنب التشاؤم وقد عاش طيلة حياته في غرفتين في فندق وتخلي عن طفله الوحيد وتركه لايحمل اسما شرعيا طيبة حياته . ان السبب في شقائه وتشاؤمه ناجم عن نبذه للحياة ، ونبذه للنساء والزواج والاطفال . فهو يعتبر الابوة اعظم الشرور ، بينما يعتبر الانسان السليم الابوة اعظم السعادة والرضى . وهو يعتقد بان التستر في الحب ناجم عن الخجل من عملية التناسل واستمرار الجنس . ولا شك ان اعتقاده هذا ينطوي على الخماقة والادعاء ، اذ هل يمكن لشيء ان يكون اكثر بطلانا وادعاء من هذا الاعتقاد؟ وهو يرى في التناسل تضحية من جانب الفرد للجنس فقط . ويتجاهل متعة الغريزة في مقابل هذه التضحية . هذه المتعة العظيمة التي كانت مصدر الهام لكل ما عرفه العالم من شعر وغناء وموسيقى . فهو لايعرف من النساء سوى

الاثم واخطيئة والنهم ، ولا يطبق ان يتصور وجود نساء فاضلات قانعات
مخلصات شريفات . وهو يعتقد بحمق الرجال الذين ينفقون على نسائهم ، ولكن
من الواضح ان هؤلاء الرجال ليسوا اكثر سخافة وقناعة من رسول التعاسة
والهم والكدر الأوحى . وكما يقول بلزاك ، ان الانفاق على الرذيلة لا يقل عن
الانفاق على العائلة . وهو يحط من جمال المرأة ، ولست ادري اي نوع من
الجمال يمكن ان يعوضنا عن جمال المرأة ، وكأنه يريد منا بابتعادنا عن المرأة ان
نحرم انفسنا من لون الحياة وشذاها وعطرها . اي كره للنساء واي نكبة
ولدت هذه الروح التعميسة .

هناك مشاكل ومصاعب اخرى اكثر فنية واقل حيوية في هذه الفلسفة
المنعشة البارزة ، اذ كيف نفسر وقوع حوادث الانتحار في عالم تكون الارادة
فيه هي القوة الدافعة الحقيقية الوحيدة للحياة . اذ كيف يقدم على الانتحار
من يريد الحياة ويتشبث بها . وكيف يمكن للعقل مولود الارادة وخادمها ان
يستقل عنها ؟ هل العبقرية تكمن في المعرفة المنفصلة عن الارادة ، وهل تحتوي
كقوة دافعة لها على قوة كبيرة من الارادة . وحتى على مزيج كبير من
الطموح والغرور ؟ وهل الجنون مرتبط بالعبقرية وملازم لها بصفة عامة . او
انه مرتبط فقط بالذوق الرومانتيكي من العباقرة من طراز (بيرون ، شيلي ،
بوي ، وهابني ، وسونبرن ، وشترنبيرج ، ودوستوفسكي وغيرهم .) وهل
يمكن لاحد ان يشك في سلامة عقل العباقرة الاكثر عمقا من طراز
(سقراط وافلاطون وسبينورا ، وبيكون ونيوتن وفولتير وجوته ، ودارون
وويتات وغيرهم ؟) وماذا اذ لم يكن عمل العقل والفلسفة انكار الارادة بل
تنسيق الرغبات وسبكها في ارادة موحدة منسجمة ؟ ثم ماذا اذا كانت

الارادة نفسها مجرد وهم خرافي كيوهم القوة . إلا كنتيجة موحدة لهذا
التنسيق ؟

ومع ذلك فان في هذه الفلسفة من الامانة ما يجعل الكثير من
المذاهب المتفائلة نفاقا . من المعقول ان نقول مع سبينوزا بأن الخير
والشر عبارتان موضوعيتان واصطلاحات انسانية . ومع ذلك فانتنا
مضطرون لان نحكم على هذا العالم من ناحية آلام البشر الواقعيه وحاجاتهم :
لقد فعل شوبنهاور خيرا بأن اجبر الفلسفة على مواجهة حقيقة الشر الاولى ،
ووجه الافكار الى مهام الانسان في التخفيف من هذه الشرور والالام .
واصبح من الصعب على الفلسفة منذ ذلك اليوم ان تعيش في جو المنطق
والمتافيزيقا الوهمي ، وبدأ المفكرون يعرفون بأن الفكر المجرد عن العمل
ليس سوى مرض .

لقد فتح شوبنهاور اعين علماء النفس الى قوة الغريزة . لقد سقط المذهب
العقلي (الذي اعتقد بأن الانسان حيوان مفكر أولا وقبل كل شيء) مريضا
على يد روسو والترم القرأش على يد كانت ، وخر ميتا على يد شوبنهاور . وبعد
قرنين من التحليل والفحص والتأمل وجدت الفلسفة ان وراء الفكر الرغبة
ووراء العقل ، الغريزة . تماما كما وجد علم الطبيعيات بعد قرن من المذهب
المادي وجود الطاقة وراء المادة . اننا مدينون الى شوبنهاور لانه كشف لنا
عن خفايا قلوبنا ، واظهر لنا ان رغباتنا هي قاعدة فلسفاتنا . وارضح الطريق
امامنا لان نفهم الفكر لا على اساس كونه تقديرا مجردا لاحداث غير شخصية ،
ولكن على اساس كونه اداة للعمل والرغبة .

واخيرا وعلى الرغم من تهويله وتطرفه ، فقد علمنا ضرورة العبقرية ،

وقيمة الفن . ورأى بأن الجمال هو الخير النهائي وان ابداع الجميل هو السعادة
وانضم الى جوته وكارليل في استنكار محاولة هجل وكارل ماركس وبوكلي
في اسقاط العبقرى كأداة اساسية في صنع تاريخ البشرية . ونادى بتعظيم
الابطال وتمجيدهم ورفع منزلتهم في وقت كفر فيه الناس بكل عظمة وعظيم .
وعلى الرغم من جميع اخطائه فقد افلح في وضع اسمه في قائمة العظماء .

الفصل الثامن

هربرت سبنسر

١ - كومت ودارون

لقد اعلنت فلسفة « كانت » عن نفسها بانها مقدمة تمهيدية لكل مايجيء في المستقبل من اجاث في الميتافيزيقا ، فكانت بعمد طعنة قاتلة لطريقة التفكير التقليدي ، وبغير عمد ضربة مؤذية للميتافيزيقا كلها . فقد كان القصد من دراسة الميتافيزيقا . (ما وراء الطبيعة) في مراحل تاريخ الفكر كلها هو محاولة الكشف عن طبيعة الحقيقة النهائية . ولكن ها هم الناس قد تعلموا من اعظم الثقة في الموضوع ان من المستحيل ان يجد الانسان الحقيقة عن طريق الخبرة والتجربة . وعرفوا ان الحقيقة هي معنى نتصوره ولكننا لانعرفه ، وان اعظم العقول لم تستطع ان تعدر الظواهر او تتجاوزها ، وعجزت عجزا تاما عن ان تنفذ الى الجوهر وتكشف عن نقاب الحقيقة . لقد اسرف فخته وهجل وشلنج في بحوثهم الميتافيزيقية اسرافا شديدا ، ومطالعتهم للاحاجي والالغاز القديمة وكتاباتهم عن الذاتية والفكرة والارادة ، ونسخ كل منهم ما كتبه الاخر ،

وعدت نتيجة دراستهم في النهاية صفرا ، وبقي الكون حتى عام ١٨٣٠ محتفظا بسره المعلق . وبعد جيل من « المطلق » اخذ العقل الاوروبي عهدا على نفسه بأن يقف ضد الميتافيزيقا من اي نوع .

وكان من الطبيعي ان يخرج من بين الفرنسيين الذي عرفوا بالشك من يؤسس الحركة الايجابية ، وهو « اجست كومت » او كما كان والداه يسميانه « اسيدور اوجست ماري فرانسوا كرافير كومت » الذي ولد في « مونتبلية » في عام ١٧٩٨ ، وكان مثله الاعلى ومعبوده في ايام صباه هو « بنيامين فرانكلان » الذي كان كومت يسميه « سقراط » الحديث ، وقال عنه انه قد اعتزم وهو في الخامسة والعشرين من عمره ان يبلغ الحكمة ويفقدو حكيما ، واستطاع ان يحقق امله وانجز وعده ، وقد اخذت على نفسي عهدا ان احذو حذوه واقتفي اثره وابلغ من الحكمة شأوها ، وكان هذا جراءة بالغة مني ، اذ لم اكن قد بلغت العشرين من عمري ، وقد استهل كومت حياته استهلالا حسنا بان اصبح سكرتيرا للكاتب المثالي العظيم الذي كان يحلم باقامة المدينة الفاضلة « سانت سيمون » الذي اشعل في نفسه حماسة اصلاح « تورجوت وكندرست » والفكرة القائلة بان الظواهر الاجتماعية كالظواهر الطبيعية يمكن النزول بها الى قوانين وعلم ، وان الفلسفة كلها يجب ان تركز جهودها في اصلاح النوع البشري اصلاحا اخلاقيا وسياسيا .

ولكن كومت كغيره من المصلحين الذين تصدوا لاصلاح العالم ، وجد صعوبة في ادارة اموره وفي عام ١٨٢٧ بعد عامين من المنغصات الزوجية والمتاعب العائلية ، اصيب بمرض عقلي وانهار عصبي وحاول الانتحار بالقاء نفسه في نهر السين ، ونحن مدينون لمنقذ حياته بشيء ما من الخمسة مجلدات في « الفلسفة الايجابية » التي ظهرت ما بين عامي ١٨٣٠ - ١٨٤٢ والاربعة مجلدات عن السياسة الايجابية التي ظهرت بين عامي ١٨٥١ - ١٨٥٤ .

وهي مجلدات تأتي في المرتبة الثانية في مداها وطول اناتها من فلسفة سبنسر، فهو يبوب العلوم تبعا لتدرج مادتها في البساطة والتعميم ، الرياضيات ، فالفلك فالطبيعة فالكيمياء ، فعلم الاحياء ، فعلم الاجتماع ، وكل واحد من هذه العلوم يركز على نتائج العلوم التي قبله ، لذلك فقد كان علم الاجتماع رأس العلوم كلها وذروتها، ولا تبرير لوجود العلوم الاخرى الا بمقدار ما تمدنا به من توضيح وشرح لعلم الاجتماع ، ويرى كومت ان العلم بمعنى المعرفة اليقينية قد سار من موضوع الى آخر على الترتيب السابق ، ومن الطبيعي ان تكون ظاهرة الحياة الاجتماعية المعقدة آخر ما يخضع ويستسلم للطريقة العلمية . ان مؤرخ الفكر يستطيع ان يلحظ في كل ميدان من - ميادين الفكر قانونا ذا مراحل ثلاث : فقد كان الانسان في اول الامر ينظر الى الموضوع من وجهة نظر لاهوتية ويفسر جميع المسائل تفسيراً الهيا ، ويعتقد بوجود اله ما وراء جميع المسائل التي لا يستطيع فهمها . مثال ذلك عندما اعتبر النجوم آلهة او عربات للالهة وانتقل بعد ذلك بهذا الموضوع نفسه الى مرحلة الميتافيزيقا، وراح يفسر الاشياء تفسيراً ميتافيزيقياً مجرداً ، فاعتقد ان النجوم تسير في دوائر ، لان الدائرة هي اكمل الاشياء ، واخيراً نزل هذا الموضوع الى مرتبة العلم الايجابي او اليقيني الذي يقوم على الملاحظة الدقيقة ، والفروض ، والتجربة ، واخذ يعمل الظواهر عن طريق قانونية العلة والمعلول . واستسلمت ارادة الله الى ذاتيات وهمية كالمثل العليا عند افلاطون والفكر المطلق عند هيجل ، واستسلمت هذه بدورها الى قوانين العلم ، واعلن « كومت » ان الميتافيزيقا حاجز معطل وموقف للتطور وان الوقت قد حان للتخلي عن هذه الولدات والسخافات الصيبانية ، وان الفلسفة لا تختلف عن العلم ، اذ هي تنسيق للعلوم كلها بالنظر الى تحسين الحياة الانسانية .

« و لكن كومت » غير من تعصبه للمذهب العقلي الذي يبدو في فلسفته

الايجابية التي يمكن ان تعكس خيبة امله وانعزاله ، ففي عام ١٨٤٥ استولت مدام « كلوتلددفو » على زمام قلبه وكان قد حكم على زوجها بان يمضي حياته في السجن ، لقد اشعل حبه لها قلبه وادفاً افكاره ولون فلسفته ، وادى الى رد فعل في تفكيره ، فمجدد الشعور ووضعها في منزله اسمى من العقل ، واعتبره اقوى من العقل كقوة دافعة للاصلاح ، وانتهى الى ان العالم لا يمكن خلاصه وانتشاله الا بدين جديد يغذي في قلوب الناس محبة الغير الواهنة ويقويها بتمجيد الانسانية واتخاذها ديناً جديداً وموضوعاً للعبادة . وقد امضى « كومت » ايام كهولته في ابتكار نظام معقد من القساوسة والطقوس الدينية ، والصلوات لهذا الدين الجديد ، دين الانسانية . واقترح تقويماً جديداً استبدل فيه اسماء الالهة الوثنية وقديسي العصور الوسطى بابطال الرقي والتقدم الانساني .

لقد وجدت هذه الحركة الايجابية صدى في مجرى التفكير الانجليزي الذي استمد روحه من الحياة الصناعية والتجارية ، والذي كان ينظر الى الحقائق الواقعة نظرة توقير واحترام ، فقد تحولت فلسفة بيكون بالتفكير الانجليزي في اتجاه الاشياء ، والمقل في اتجاه المادة ، كما ان مذهب هوبز المادي ولوك في مذهبه الاحساسى وهيوم في شكه ، وبنتم في مذهبه النفعية الذي - يمتقد بان النفع غاية الفضيلة كانت كلها جوانب الفلسفة عن الحياة العملية ، لقد كان بركلي - الايرلندي نشازاً في وسط هذه السمفونيات الانجليزية الداخلية ، فقد رأى هؤلاء جميعاً من قبل ما رآه « كومت » و « سبنسر » من تعريف الفلسفة بانها تعميم نتائج العلوم كلها ، وهكذا فقد وجدت هذه الفلسفة الايجابية مؤيدين لها في إنجلترا اكثر من مما وجدت في مسقط رأسها فرنسا ، ربما كان هؤلاء الاتباع الانجليز لهذه الحركة الايجابية اقل حماسة وحرارة من حماسة وحرارة ليتري ولكنه حماس مقرون بالولاء والتمسك المعروف عن الانجليز الذي جعل جون ستيوارت مل (١٨٠٦-٧٣) وفرديريك هاريسون (١٨٣١-٩٢٣)

مخلصين وموالين طيلة حياتهم لفلسفة « كومت » .

اخذت الثورة الصناعية في تنشيط العلوم وابعاشها فنزل نيوتن وهرشل بالنجوم الى إنجلترا وفتح بويل ودافى كنوز الكيمياء وقام فارادي بالاكتشافات التي ستكهرب العالم ، وكان راموفود وجول يقومات باثبات امكانية تحويل ومعادلة القوة وصيانة الطاقة . وكان العلم قد وصل الى مرحلة من التعقيد ، ولكن علم الاحياء كان قد بلغ من النمو والتطور مكانة اثرت على إنجلترا تأثيرا كبيرا وهزتها هزا قويا اكثر من اي شيء اخر في ايام شباب سبنسر ، لقد كان مبدأ التطور هذا دوليا في مداه ، فقد تحدث « كانت » عن امكانية تطور القرد الى انسان ، وكتب « جوته » عن تطور النبات ، وتوسع اراموس ودارون ولامارك في نظرية ان النوع قد تطور من انواع ابسط بوراثه تأثير الاستعمال وعدم الاستعمال . وهز هيلير اوروبا في عام ١٨٣٠ وادخل السرور على قلب جوته الكهل بانتصاره على كوفي في ذلك النقاش المشهور حول التطور الذي بدا ثورة اخرى على النظريات القائلة بوجود قواعد ثابتة ونظم ثابتة لعالم ثابت لا يتغير .

وفي عام ١٨٣٠ كان التطور يملأ الجو لقد عبر سبنسر عن فكرة التطور في مقال له حول هذا الموضوع «نظرية التطور» في عام (١٨٥٢) قبل دارون بزمن طويل ، وفي كتابه مباديء علم النفس « في عام (١٨٥٥) وفي عام (١٨٥٨) قام دارون وولاس بنشر أبحاثها المشهورة في روسيا ، وفي عام (١٨٥٩) اهتز العالم القديم ورجال الدين الافاضل اهتزازا كبيرا بنشر كتاب دارون عن « اصل الانواع » لم يكن هذا الكتاب مجرد عرض لفكرة غامضة عن تطور الانواع العليا من انواع سفلى ، ولكنه جاء مفصلا وحافلا بالدلة عن حقيقة عملية التطور بواسطة الانتخاب الطبيعي أو بقاء الاجناس المفضلة في تنازع البقاء .

وراح العالم بأسره يتحدث عن نظرية التطور طيلة عشرين عاما ، وجاء سبنسر وامتطى صهوة موجة نظرية التطور بفضل صفاء فكره ، ووضوح عقله ، فتناول فكرة التطور بالتطبيق على كل ميدان من ميادين الدراسة ، وكما سادت الرياضيات على الفلسفة في القرن السابع عشر وانجبت للعالم ديكارت وهوبز وسبينوزا وليبنتز وبسكال ، وكما اخذ علم النفس يسطر الفلسفة في اراء بركلي وهيوم وكوندلاك وكانت ، فقد كان علم الاحياء في القرن التاسع عشر عمود الآراء الفلسفية الفقري في اراء شلنج وشوبنهاور وسبنسر ونيتشه وبرجسون .

لقد كانت هذه الآراء من انتاج رجال كثيرين ، ولكنها ارتبطت باسم الرجال الذين تناولوها بالتنسيق والترتيب والتنظيم والتوضيح وكما حمل العالم الجديد « امريكا » اسمه من امريكو الذي رسم خريطة هذا العالم ، فقد كان مبررت سبنسر امريكو عصر دارون وواضع خريطة واحدة مكنشفية ايضا .

٢ - نشأة سبنسر

ولد في دربي عام ١٨٢٠ ولم يكن اجداده لابيه وامه من التابعين او المنشقين ، وكانت جدته لابيه من اتباع جون ويسلي ، وعلى الرغم من ان عمه توماس كان قسيسا انجليكانيا ، فقد تزعم حركة لاتباع ويسلي في داخل الكنيسة ، ولم يستمع في حياته قط الى جوقة موسيقية او يحضر رواية مسرحية ، واشترك اشتراكا فعالا في حركات سياسية اصلاحية . لقد اشتدت نزعة الالحاد في ابيه ، وبلغت ذروتها فيه نفسه . فقد رفض والده تفسير الامور بالمعجزات وخوارق الطبيعة رفضا باتا ، ووصفه احد معارفه بانه رجل لا دين له ولا ايمان في قلبه ، على الرغم من ان ابنه سبنسر اعتبر هذا القول مبالغه في حق والده ، لقد كان ابوه يميل الى العلم وكتب كتابا في الهندسة ، وكانت فرديا في السياسة مثل ابنه ، ولم يخلع قبعته لانسان قط مهما كانت منزلته او رتبته ، واذا كانت زوجته توجه اليه سؤالا ولا يفهمه ، كان يلوذ بالصمت ولا يسألها عن السؤال ويفضل عدم الاجابة . وقد استمر على هذه الطريقة طيلة حياته على الرغم من عبث موقفه هذا الذي لم يتحسن . ان موقف الوالد هذا يذكرنا بموقف هربرت سبنسر ابنه في الايام الاخيرة من الحكومة ومقاومته لتوسع اعمالها وصلحياتها

لقد كان والده وعمه وجدته لابيه معلمين في مدارس خاصة ، ومع ذلك فقد بقي سبنسر الذي كتب له ان يكون اشهر فيلسوف انجليزي في القرن التاسع

عشر بغير تعليم حتى بلغ الاربعين من عمره، فقد كان كسولا، وكان ابوه مشغولا
واخيرا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره ارسله ابوه الى « هينتون » ليدرس
هناك تحت مراقبة عمه الذي كان معروفا بالصرامة والشدة، ولكن سرعان ما
هرب سبسر من عمه واتجه الى منزل والده في دربي مشيا على الاقدام حيث قطع
في اليوم الاول ثمانية واربعين ميلا وفي اليوم الثاني سبعة واربعين ميلا، وفي اليوم
الثالث عشرين ميلا مستعينا على ذلك بقليل من الخبز والجمعة، وعلى الرغم من
هذه الرحلة الشاقة فقد اعاده والده الى « هينتون » بعد ثلاثة اسابيع فلبث فيها
اعواما ثلاثة، كانت الفترة الوحيدة التي تلقى فيها تعليما منظما في حياته، وهو لا
يستطيع فيما بعد ان يتذكر المواضيع التي درسها في هذه الاعوام الثلاثة، ويقول
في كبرياء واعتزاز انني لم اتلق درسا واحدا في اللغة الانجليزية لا في ايام الطفولة
ولا في عهد الشباب، كما اني لم اتعلم قواعد اللغة حتى هذه الساعة « وفي الاربعين
من عمره حاول ان يقرأ الالبادة وهو يقول ولكني شعرت بعدما قرأت منها ما
يقرب من الستة فصول بصعوبة مواصلة القراءة وجسامة المهمة التي اخذتها على
عائقي وشعرت انني افضل ان ادفع مبلغا كبيرا من المال على ان اوصل قراءتها
حتى نهايتها . ومحدثنا كولبير سكرتيره انه لم يقرأ كتابا واحدا في العلوم الى
اخره، وحتى في مواضيعه المحببة وميادينه المفضلة لم يتلق دراسة منظمة، وحتى
سن الثلاثين لم تكن لديه فكرة اطلاقا عن الفلسفة، وبعدئذ قرأ لويس وحاول
ان يقرأ « كانت » ولكنه لم يكذب يبدأ في قراءته حتى اصطدم بما اعتبره كانت
من ان الزمان والمكان صورتان للادراك الحسي وليسا حقيقتين موضوعتين فحكم
عليه بالغباء والقي بالكتاب جانبا، ويخبرنا سكرتيره انه الف كتابه الاول
« التوازن الاجتماعي » دون ان يقرأ في موضوع علم الاخلاق الا كتابا قديما
ولم يقرأ في الموضوع قبل كتابته الا « هيوم ومنسيل ورايد » وهكذا كان شأنه
في « علم الاحياء » بعد ان قرأ كتابا عن علم وظائف الاعضاء من تأليف

كاربنتر . وكتب كتابه عن علم الاجتماع من غير ان يقرأ كومت « وتيلر » .
وكتابه عن الاخلاق من غير ان يقرأ « كانت » او « مل » او اي عالم
اخلاقي اخر باستثناء « سيدجويك » ومن هنا يتضح لناقلة ثقافته ومطالعته
بالمقارنة مع ثقافة جون ستوارت مل ومطالعة الواسعة .

فمن اين استمد اذن هذه الالوف من الحقائق التي ساقها في كتاباته
ومناقشاته ؟ لقد استمدها من الملاحظة المباشرة اكثر من القراءة . لقد امتاز
بشدة الملاحظة وحب الاستطلاع ، وكان يوجه دائما اهتمام رفاقه الى بعض
الظواهر الهامة التي لم يرها حتى ذلك الوقت احد سواه . وبعد ان استقر قراره
على ما يريد وحدد هدفه ، وبعد ان ركز اهتمامه حول فكرة التطور اصبح
دماغه كالمغناطيس في جذب المواد التي لها علاقة بموضوعه ، ثم يبدأ فكره
المنظم تنظيما كبيرا ، والذي لم يسبق له مثيل في المقدرة على التنظيم في تبويب
هذه المواد بطريقة آلية . ولا عجب ان وجدت كتبه قلوبا واعية واذانا صاغية
بين طبقة العمال ورجال الاعمال ووجدوا في عقله عقلا ينسجم مع عقولهم بعيدا
عن مطالعة الكتب وبريئا عن الثقافة . ومع ذلك فقد امتاز بالمقدرة على معرفة
الحقائق بفضل دراسته وتجاربه العملية .

كان مضطرا لان يعمل من اجل كسب عيشه وقوت الاعمال التي مارسها
تفكيره العملي ، فقد اشتغل مساحا ومشرفا ومخططا للجسور وخطوط سكك
الحديد او بصفة عامة فقد كان مهندسا وقد هيأت له هذه الحرفة مجالا واسعا
لملاحظاته وتجاربه وكانت له في كل يوم تجارب جديدة - واختراعات جديدة
ولكنها كثيرا ما كانت تنتهي بالفشل . وكان يعود على مراجعتها بشغف كبير
لا يقل عن شغف الوالد لولده العنيد المتشبت برأيه ، ولبت نباتيا في طعامه فترة
من الزمن ولكنه عدل عن ذلك عندما رأى صديقا نباتيا له يصاب بقر الدم

« الانيميا » وقد احس نفسه بضعف في صحته واضطر الى اعادة ما كتبه ايام كان نباتيا ، لافتقار ما كتبه الى القوة . لقد كان يخضع في تلك الايام كل شيء الى التجربة والملاحظة والتفكير الطويل ، وفكر مرة في الهجرة - الى زيلنده الجديدة ، ناسيا ان هذه البلاد الصغيرة لا تحتاج الى فلاسفة ، فاعد كشوفا وبيانات وازى فيها الاسباب التي تؤيد هذه الرحلة والاسباب التي تعارضها معطيا قيمة عددية للاسباب المؤيدة والمعارضة ، وكان مجموع هذه الارقام المؤيدة لبقائه في إنجلترا (١١٠) والتي تؤيد السفر (٣٠١) ومع ذلك فقد بقى في إنجلترا ولم يسافر .

ومع ذلك فقد افقدته نظركه الواقعية العملية روح الفن وحماسة الشعر ، وخلت المجلدات العشرون التي وضعها من لمسات الشعر الا ما ادخله الناشر عليها من وقت لآخر من قصائد شعرية يصف فيها سبنسر نبوءات علمية ، وبما يميزه مقدرة على جمع الادلة لتأييد وجهة نظره . ولكنه كان لا يقدر وجهات نظر الاخرين ، لقد امتاز بصراحة جريئة مقرونة بشيء من الغطرسة والتشبث برأيه ، ومقاومة شديدة لكل انواع التملق والمداهنة ورفض ان يقبل القاب الشرف التي قدمتها له الحكومة ، وواصل عمله المضني طيلة اربعين عاما قضاها في عزلة معتدلة وضعف مزمن لازم صحته . لقد تركت عزوبته وعزائمه اثرا في عواطفه الانسانية وكان يفتقر للحرارة في عواطفه لقد كانت له علاقات مع الكاتبة الانكليزية العظيمة « جورجى البيوت » ولكنها كانت على جانب كبير من الذكاء - ولم تفاجح في اسعاده وادخال السرور الى قلبه . لقد كان ينقصه المرح ، وعندما خسر مرة في لعبة البلياردو وهي لعبة المفضلة ، انحى اللوم على من غلبه متهما اياه بانة قد صرف الكثير من وقته في هذه اللعبة فاجادها واصبح خيرا بها .

وهو يذكر لنا في ترجمة حياته انه كان يقوم باستعراض كتبه السابقة ،

ولا شك ان هذه المهمة اضطرت الى ان ينظر الى الحياة نظرة جديدة . اكثر مما تستحق ، وعند ما كان في باريس ادهشه ما رأى في الفرنسيين من صبيحة وهو يقول انهم لا يتوقفون عن كونهم صبياناً ويقول لقد رأيت رجالاً ونساء ، ابيضت رؤوسهم بالشيب يركبون على الفريرات والمراجيح تماماً كما يفعل الصغار في معارضنا وملاعبنا . وكان مشغولاً كثيراً في تحليل الحياة ووصفها حتى لم يبق له من الوقت ما يعيش فيه . وعندما شاهد شلالات نياجرا ذكر في مفكرته انه رأى فيها اكثر مما كان يتوقع ، وكانت له مقدرة على وصف الامور العادية بمخالفة كبيرة ، ومن ابرز صفاته مقدرة منطقية كبيرة فقد كان قادراً على تنظيم استدلالته بدقة لاجب الشطرنج . وهو اقدر من عرفهم التاريخ الحديث في توضيح وتبسيط اكثر الموضوعات تعقيداً ، فقد كتب في اعوص المشاكل واشدها تعقيداً ، واكثرها صعوبة ، في وضوح وصفاء - ونورانية جعلت العالم بأسره مدى جيل كامل يتعشق الفلسفة ويقبل عليها . وهو يشير الى مقدرته العجيبة في عرض الموضوعات وتنسيقها فيقول « لدى مقدرة عجيبة على العرض واستطيع ان اعرض وابين معلوماتي وتفكيري ونتائجي بوضوح وتماسك غير مألوف . » وهو مولع بالتعميمات الفسيحة كما اضفت نظرياته على انتاجه متعة اكثر من ادلته وبراهينه .

وعندما كان يقوم بتنقيح مقالاته في عام ١٨٥٨ ، تمهيداً لنشرها ، راعه فيها وحدة التفكير ، وتسلسله ولعت في رأسه فكرة مشرقة كما يلعب ضوء الشمس المشرقة على زجاج نوافذ البيوت وابوابها ، وهي احتمال تطبيق نظرية التطور على جميع العلوم كما امكن تطبيقها على علم الاحياء ، وانها لا

تقتصر على تفسير الانواع والاجناس ولكنها تتناول بالتفصيل الكواكب والطبقات والتاريخ الاجتماعي والسياسي والنظريات الاخلاقية وفن الذوق والجمال . وما لبث ان اندفع بحماس شديد لوضع سلسلة من الكتب يبين فيها تطور المادة والعقل من السديم الى الانسان ومن الوحش الضاري الى شكسبير . ولكنه يئس من مواصلة السير في هذا العمل بعد ان وجد نفسه قد قارب الاربعين من عمره ، اذ كيف يمكن لانسان في عمره ان يستعرض ما وعته الانسانية من معرفة قبل ان يتداركه الموت .

لقد كان فقيراً ومع ذلك لم يطل التفكير في كسب عيشه ، اشتغل محرراً في مجلة الايكونومست ولكنه استقال من تحريرها بعد ان تلقى مبلغ الفين وخمسمائة جنيه اوصى له عمه بها . ولكنّه مسالبت ان بدّد هذا المبلغ وفكر في جمع اشتراكات مقدمة عن كتبه التي اعترزم اصدارها ، وقد نجح في جمع اربعمئة واربعين اشتراكاً من اوروسا ، ومثقي اشتراك من امريكا ، بلغ مجموعها الفاً وخمسمئة جنيه في السنة ، وشعر بالرضى وبأشرف عمله بعزم وتصميم ولكن الكثيرين من هؤلاء المشتركين قاموا بسحب اشتراكاتهم بعد ان نشر كتابه « المبادئ الاولى » عام ١٨٦٢ ، وذلك بسبب ما جاء في الجزء الاول من الكتاب اذ حاول التوفيق بين العلم والدين ، فهاجم الدين والعلماء على السواء ، واصبح كتاب « المبادئ الاولى » وكتاب « اصل الانواع ميداناً لمعركة عنيفة بين الكتاب قام فيها هكسلي بدور الجنرال في الدفاع عن نفوات الدارونية واللاادرية « مذهب اللا ادرية القائل بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الالاهي » ونشر في هذه المعركة سيلا دافقا من الكتب ، وابتمد الناس الافاضل من ذوي المكانة المحترمة عن انصار التطور واتهموم بالخروج عن قواعد الاخلاق . وتطوع الناس لعمل الخير في مهاجرتهم علانية ، وانخفض عدد المشتركين في كتب سبنسر وتحمل هذه الخسارة وواصل النشر دافعا من

جيبه المعجز في كل طبعة الى ان نفذ ماله وانهارت شجاعته ، واعلن لبقية
المشركين عن عجزه في مواصلة عمله .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، ووقع ما لم يقع في تاريخ
الفكر من تشجيع وتقدير للنبوغ والموهبة وتقدم جون ستيوارث مل اعظم
منافس لسبنسر والذي احتل مكان الصدارة في الفلسفة الانجليزية قبل ان
يقوم سبنسر بنشر كتابه ، المبادئ الاولى ، والذي احس بعد نشر هذا الكتاب
بان سبنسر فيلسوف التطور قد طغى عليه وحل محله فارسل الى سبنسر بالرسالة
التالية في الرابع من شهر فبراير عام ١٨٦٦ .

سيدي العزيز ،

عندما وصلت الى هنا في الاسبوع الماضي ، وتصفححت عدد شهرديسمبر
من سلسلة كتابك في علم الاحياء ، ولست بحاجة الى التعبير عن اسفي الشديد
لدى رؤية الاعلان في الصحيفة المرفقة بالعدد ، من رأيي ان تواصل نشر
رسائلك القادمة وساتعهد بدفع قيمة الخسارة الى الناشر ، وارجو الاتعتبر
اقتراحي هذا مساعدة شخصية لك ، وحتى لو كان كذلك فلا زلت ارجو ان
تسمح لي بالتقدم به ، ولكن لاشيء من هذا القبيل ، بل هو اقتراح للتعاون على
غاية هامة عامة وهبت من اجل تحقيقها عمك وصحتك .

صديقك المخلص

جون ستيوارث مل ،

ولكن سبنسر رفض بلباقة ودمانة هذا العرض ، فاتجه «مل» الى
اصدقائه واقنع كثيرا منهم على ان يشترك كل واحد منهم في مئتين وخمسين
نسخة ورفض سبنسر مرة ثانية ، ولم يتزعزع في رفضه ، وصله خطاب من
الاستاذ يومانز يقول فيه ، ان المعجبين الامريكيين بفلسفته قد اشتروا باسمه

اسها قيمتها سبعة الاف دولار وان ربيعها سيرسل له ، واستسلم لهذا العرض في هذه المرة ، فقد جددت هذه الهبة الهامة وحماسه واستأنف مهمته ، وربط كتفيه في عربة العمل طيلة اربعين عاما ، الى ان وصلت فلسفته التركيبية بامانة الى دار الطباعة والنشر ، ان انتصار العقل والارادة على المرض والوف العقبات هو احدى النقاط المشرفة في سجل تاريخ الانسان .

٣ - المبادئ الأولى

١ - الحقيقة المغلقة

يقول سبنسر في مطلع كتابه (المبادئ الأولى) اننا ننسى غالباً ان في الشر روحاً من الخير وان في الخطأ روحاً من الحقيقة لذلك فهو يرى ان نقوم بفحص الآراء الدينية واضعين نصب أعيننا البحث عن جوهر الحقيقة وراء الصورة المتغيرة في كثير من الديانات . هذه الحقيقة التي اضفت على الدين قوته الملحة على روح الانسان .

وهو يرى ان كل نظرية عن اصل الكون تسوقنا الى امور لا يدركها العقل ويقف حياها عاجزاً لا يستطيع ان يفهم عنها شيئاً ، فالملحد الذي ينكر وجود الله يحاول ان يفكر في عالم قائم بذاته ، لم ينشأ عن علة وليس له بداية ، ولكننا لا يمكننا ان ندرك او نتصور شيئاً لا بداية ولا علة له ، اما معلم اللاهوت او رجل الدين الذي يقول ان الله خلق العالم ، فانه يترك المشكلة بلا تفسير بل يؤخرها خطوة الى الوراء ، ويرد عليه السؤال الذي لا يتوانى الطفل عن سؤاله ، ولكن من اوجد الله ، وجميع الآراء الدينية نعجز عن فهمها فيها منطقياً .

ويقف على قدم المساواة مع الديانات في هذا الموضوع جميع الآراء العلمية ، فهي كلها وراء الادراك العقلي .

ما هي المادة ؟ لقد قسمناها الى ذرات ، ووجدنا انفسنا بعد ذلك مضطرين الى تقسيم الذرة الى ذرات ، ثم الى اخرى ادق ، وهذا يسوقنا الى المعضلة بان المادة قابلة للتجزئة الى ما لا نهاية له من الاجزاء ، وهو امر من الصعب ادراكه وتصوره وقبوله . وان هناك حدا يقف عنده التقسيم وهو امر من الصعب ادراكه ايضا .

وعندما نحلل المادة لا نجد شيئا في النهاية سوى قوة ، ومن سيخبرنا ما هي القوة ؟ وفي التحول من العلوم الطبيعية الى علم النفس نأتي الى العقل والشعور ، وهنا نصادف الغازا - اشد حيرة من سابقها . عندئذ تكون الآراء العلمية النهائية تقديما لحقائق لا يمكن ادراكها... فان البحث العلمي في جميع الاتجاهات ينتهي في مواجهة الغاز واحاجي لا يمكن حلها فالعلم يعرف بسرعة مدى عظمة وتفاهة العقل الانساني .. وقوته في تناول كل ما يدخل في نطاق التجربة وعجزه عن تناول ما يخرج عن نطاق التجربة ويتجاوزها ، وهو يعرف تماما انه لا يمكن معرفه حقيقة طبيعة الاشياء النهائية . وان الفلسفة الامينة الوحيدة كما يقول هكسلي هي الفلسفة اللادرية .

والسبب الرئيسي العام لهذا الغموض هو نسبية جميع انواع المعرفة . اذ ان التفكير امر نسبي ، وليس هناك فكرة يمكنها التعبير عن اكثر من نسب تقريبية... فقد اعد العقل البشري لكي يفهم ظواهر الاشياء ، وعندما نحاول استخدام هذا العقل في فهم ما وراء الظواهر فاننا نزع انفسنا في عبث - لا طائل تحته . ومع ذلك فان هذه الظواهر والامور النسبية التي يدركها العقل ولا يستطيع ان يتجاوزها تدل بطبيعتها واسمها على وجود شيء وراءها ، وهو شيء نهائي ومطلق . « عندما نرقب افكارنا نرى كيف ان المستحيل التخلص من الشعور بوجود حقيقة كامنة وراء الظواهر . وكيف يترتب من هذه الاستحالة ايماننا القوي الذي لا يتزعزع في وجود هذه الحقيقة ، ولكن ما هي هذه الحقيقة ؟ لا نستطيع ان نعرف .

وعلى هذا الاساس من وجهة النظر يصبح التوفيق بين العلم والدين امرا هينا
وميسورا « الحقيقة عادة تقع في تنسيق الاراء المتخاصمة المخالفة .. » فليعترف
العلم بان قوانينه تنطبق على الظواهر والامور النسبية فقط . وليعترف الدين ان
لاهوته خرافة لتبرير ايمان يتنافى مع العقل . وليتوقف الدين عن تصوير الله
بشكل انسان عظيم ، والاسوأ في تصويره بالقسوة والقدر والتعطش لسفك
الدماء ومحبة النفاق والرياء من الناس . وليتوقف العلم عن انكار وجود الله ،
او التسليم بالمادية على اساس انها قضية مسلمة . ان كلا العقل والمادة ظواهر
نسبية ، وهما معلول مزدوج لعلة نهائية ينبغي ان تظل طبيعتها مجهولة .. ان
الاعتراف بهذه القوة الغامضة هو جوهر الحقيقة في كل دين ، وبداية الفلسفة .

٢ - التطور

وبعد ان اشرنا الى هذا المجهول او الحقيقة الغامضة المبهمة ، لا يسع الفيلسفة ابي العقل ، الا ان تعترف بمجزها عن ادراك هذه الحقيقة الكامنة وراء ظواهر الاشياء . وان تدبر وجهها الى ما يمكن ادراكه ومعرفته . لان الميتافيزيقا او البحث فيما وراء الطبيعة سراب خادع . و افضل ميدان تعمل فيه الفيلسفة هو في تلخيص وتوحيد نتائج العلم . ان تمام هذا التوحيد يحتاج الى قانون عام يشمل جميع التجارب ، ويصف المعالم الرئيسية لجميع انواع المعرفة ، هل هناك قانون من هذا النوع ؟

قد نقرب من هذا القانون بمحاولة توحيد اعلى التعميمات في العلوم الطبيعية . وهي عدم تلاشي المادة او فناؤها ، وبقاء الطاقة ، واستمرار الحركة ، وثبات العلاقات بين القوى (حرمة القانون الطبيعي) وامكانية التحويل والمساواة للقوى (حقى القوى العقلية والطبيعية) واتزان او نظم الحركة . ان هذا التعميم الاخير الذي لم يعترف به عادة يحتاج الى الاشارة اليه فقط . ان الطبيعة كلها موزونة او منظومة ، من خفقان الحرارة الى اهتزاز اوتار الكمان ، من تموجات الضوء والحرارة والصوت الى حركة المد والجزر في البحار ، ومن تعاقب الجنس الى دوران الكواكب والمذنبات والنجوم ، ومن تعاقب الليل والنهار الى تعاقب الفصول ، وربما الى اتزان التغيرات المناخية ، ومن تذبذب الذرة ، الى نشأة وسقوط الشعوب والامم ومولد وفناء النجوم .

وترد جميع هذه القوانين عن الاشياء المعلومة لنا الى قانون نهائي للقوة
الثابتة . ولكن هذا القانون يحوطه الجمود والسكون ، وهو لا يشير الى سر
الحياة ، ما هو القانون المؤثر في الحقيقة ؟ وما هو قانون النمو والانحلال لجميع
الاشياء ؟ اذ يجب ان يكون هذا القانون قانون تطور وانحلال . اذ ان التاريخ
الكلي لجميع الاشياء هو ظهورها من بدء مجهول غير مدرك ، واختفاؤها في
مجهول غير مدرك . وهكذا يقدم لنا سبنسر قانونه المشهور عن التطور الذي
شرحه في عشرة مجلدات استغرقت اربعين عاماً . يقول سبنسر ان «التطور تجمع
لاجزاء المادة يلزمه تثبيت او تبديد للحركة ، تنتقل المادة خلاله من حالة
التجانس المنقطع غير المحدود الى حالة التباين المتلاصق المحدود .» ما معنى هذه
العبارة ؟ ان معناها هو .

ان تجمع المادة يتضح في تكوين الكواكب من السديم ، وتشكيل
البحار والمحيطات والجبال على الارض ، وتطور القلب في الجنين واتحاد العظام
بعد الولادة ، وتوحيد الاحساسات والذكريات الى معرفة وفكر ، ومن معرفة
الى علم وفلسفة . وتطور العائلات والاسر الى قبائل ومدن ودول واحلاف
« واتحاد العالم » هذا هو تجمع المادة . كل هذه امثلة لتجمع اجزاء الاشياء
المنفصلة في كتل وجماعات وكل . ان هذا التجمع طبعاً يلزمه تحديد وتقليل في
حركة الاجزاء ، تماماً كما يجد تطور الدولة من حرية الفرد فيها . ولكن تجمع
الاجزاء هذا يقدم للاجزاء اعتماداً متبادلاً ، ونسيجاً من العلاقات الوقائية
التي تشكل التصاقاً وتنمي تضامناً واتحاداً مشتركاً من اجل البقاء . كما ان
عملية التجمع هذه تحدث تحديداً اكبر في شكل الاجزاء وعملها . فالسديم
لاشكلى له ومع ذلك فقد تكون منه نظام الكواكب الاهليلجي البيضاوي ،
وخطوط سلاسل الجبال الحادة الى اخر ما هنالك . هذا بالاضافة الى ان

أجزاء هذا الكتل المتجمع تصبح متناثرة ومتباينة في طبيعتها وعملها . فقد كان السديم الأول مركبا من مادة متجانسة يشبه بعضها بعضا ، ولكنها سرعان ما تنوعت الى غازات وسوائل واجسام صلبة ، فاصبحت الارض خضراء تكسوها الاعشاب ، او بيضاء كما في قمم الجبال او زرقاء في تجمع البحار ، انظر الى الجبلية الاولى (البروتوبلازما) المتجانسة نسبيا وما سينشأ عنها من مختلف اعضاء الغذاء والتناسل والافراز والادراك . واللغة الواحدة البسيطة التي تملأ قارات باسرها باللهجات الكثيرة المتزايدة . والعلم الواحد الذي يتفرع عنه مئة علم . والاساطير الشعبية لشعب من الشعوب كيف تنمو وتزدهر الى الوف الانواع من الفن الادبي .

تنمو الشخصية ، وتتطور كل امة وشعب بنبوغها الخاص بها ، تجمع وتباين ، وتجمع الاجزاء في كل اكبر فاكبر ، وتنوع الاجزاء الى اشكال مختلفة اكثر . هذه هي امثلة دورة التطور ، كل شيء يمر من الانتشار الى التجمع والوحدة ، ومن بساطة التجانس الى تعقيد التباين ، يسير في مجرى التطور . وكل شيء يعود من التجمع الى الانتشار ، ومن التعقيد الى البساطة ، فهو يسير في تيار الانحلال .

ولكن سنسر لايقنع بهذا القانون التركيبي ويحاول ان يظهر كيف يتبع هذا ضرورة لا مفر منها ناجمة عن عملية القوى الآلية الطبيعية . حيث يوجد ، اولا عدم استقرار معين في المتجانس ، اذ ان الاشياء المتجانسة او المتشابهة لا يمكنها ان تبقى متجانسة ، لانها خاضعة الى قوى خارجية ، وسرعان ما تتعرض الاجزاء الخارجية في المتجانس الى الهجوم كما تتعرض المدن الساحلية الى الهجوم في ايام الحرب . وكما تفرق الاعمال المختلفة الرجال

المتشابهين الى مئات الحرف والاعمال . هذا بالاضافة الى « تعدد النتائج » اذ قد ينتج عن السبب الواحد او الباعث الواحد نتائج مختلفة تساعد على ايجادخلاف في العالم . وهناك قانون التفرقة او ان شئت قانون « التمييز العنصري » حيث تطرد اجزاء الكتل المتجانس النسبي الى مناطق منفصلة مختلفة ، تؤثر عليها البيئات المختلفة وتشكل منها انتاجا مختلفا ، كما اصبح الانجليز اميركيين او كنديين او استراليين وفقا للمكان . هذه هي الطرق التي تبني فيها قوة الطبيعة اشكال هذا العالم المتطور .

هذه هي الحياة تجمع وتفرق ، تآلف وتنافر ، تأتلف الاجزاء وتتجمع في وحدة لاتزال تطرد في النمو ، حتى يدركها تنافر الاجزاء ثم يشتد هذا التنافر ، ويشتد حتى تتلاشى وتنحل .

واخيرا يأتي التوازن الذي لا بد عنه ولا مفر منه ، فكل حركة تعاني من المقاومة ما يؤدي بها الى الانتهاء ان عاجلا او آجلا . ويضيق فلك الكواكب السيارة شيئا فشيئا ، وتقل حرارة الشمس وضروؤها كلما تقادم عليها الزمان ، ومرت بها السنين ، وقبطنيء الدماء في عروقنا ويصيبها البرود ، ويتحول التوازن بسرعة الى المحلال ، وهو خاتمة التطور التمس . فتتحلل المجتمعات وتنفرك الشعوب ، وتتلاشي المدن ، وتتحول الى بقاع مظلمة حياة الفلاحة والزراعة ، وتمعجز الحكومات عن جمع هذه الاجزاء المبهثرة من الشعب . وينسى الناس النظام الاجتماعي ، كما ان الوحدة في الفرد ايضا ستتحول الى تمزق وفسخ ، وينتهي ذلك التناسق وهو الحياة الى تقشي الفساد وهو الموت ، وستتحول الارض الى مسرح من الفوضى والدمار والفساد وتنتهي الى السديم والقبار الذي اتت منه . وبذلك تصبح دورة التطور والانحلال دورة تامة ، ولكن ستبدأ هذه الدورة من جديد مرة ثانية ، وثالثة الى ما لانهاية له من هذه

الدورات التي تبدأ بالتطور وتنتهي بالانحلال ، وكل مولد جديد فاتحه الى الفناء
والموت .

هذا هو كتاب « المبادئ الاولى » مأساة مروعة ، تروى لنا قصة العالم
في صعود وهبوط وتطور وانحلال الكواكب والحياة والانسان ، لاغرابة اذن
ان يشور الرجال والنساء الذين يعيشون على الايمان والامل على هذا الكتاب
الذي اوجز لهم باختصار قصة الوجود اننا نعرف بان مصيرنا الموت وان
الموت مكتوب على الجميع ، ولكننا نترك التفكير في الموت لشأنه ، ونفضل ان
نفكر في الحياة . لقد اقترب سبنسر من « شوبنهاور » كثيرا في اعتقاده بعث
الجهود الانسانية ، فقد ارتأى في اواخر ايام انتصاره بان الحياة تافهة حقيرة ،
لا تستحق الحياة فيها ، فاصابه بذلك ما اصاب الفلاسفة من مرض النظر البعيد ،
حيث مرت جميع مسرات الحياة والوانها واشكالها الممتعة من تحت انفه من
غير ان يراها .

٤ - علم الاحياء ، تطور الحياة

يبدأ سبنسر كتابه عن تطور الحياة بتعريف الحياة نفسها بأنها التوفيق المستمر بين الكائن الحي وبيئته ، ويتوقف كمالها على كمال هذا التوفيق ، وتكون الحياة كاملة عندما يكون التوفيق كاملاً . ان ما يميز الحياة هو توفيق العلاقات الداخلية ، لدى توقع تغيير في العلاقات الخارجية ، كما يحدث عندما يجثم الحيوان محاولاً ان يتجنب ضربة ستنزل به ، او يشعل الانسان النار ليسخن طعامه . ان عيب تعريف سبنسر للحياة يكمن لا في تجاهله فعالية اعادة التكوين في الكائن الحي على البيئة فحسب ولكن في فشل هذا التعريف تفسير القوة التي تمكن الكائن الحي من القيام بهذا التوفيق .

وكما يرى سبنسر في حياة الفرد بانها توفيق العلاقات الداخلية للعلاقات الخارجية ، فهو يرى في حياة النوع توفيقاً عجبياً بين خصوبة التناسل وحالات الموطن او البيئة . اذ يرفع التناسل في الاصل لاعادة التوفيق بين مكان الغذاء والكتلة المتغذية . فان نمو الحبيوبن ذو الخلية الواحدة مثلاً ، يشمل زيادة في الكتلة اكثر سرعة من الزيادة في المكان الذي تغتذي منه هذه الكتلة الزائدة . ويشترك في هذا الانقسام الذاتي في الحبيوبن ذي الخلية الواحدة الذي يتوالد

بالانقسام الذاتي ، التفريخ والتناسل الجنسي . وهو تقليل نسبة الزيادة في الكتلة بالنسبة الى مكان التغذية . لأن نمو الكائن الحي وراء نقطة معينة يشكل خطرا ، وبذلك يتجه النمو الى التناسل .

ولذا فان النمو يختلف عكسيا مع نسبة انفاق النشاط والحيوية . كما ان نسبة التناسل تختلف عكسيا مع درجة النمو . من المعروف مولدي الحيوانات ومربيها انه لو ترك للهمرة الصغيرة ان تحمل مهرا « تجبل » فان هذا الحمل سيحول دون بلوغها حجمها الطبيعي . كما ان الحيوانات المخصية كالديوك والخراف المخصية وخصوصا القطط يزيد حجمها اكثر من امثالها غير المخصية . كما ان نسبة التناسل تهبط بتقدم مقدرة الفرد . وعندما تكون مقدرة الحيوان على مقابلة الاخطار قليلة ، تكثر عنده خصوبة التناسل لتعويض الموت في هذا الحيوان ، وإلا تعرض هذا النوع من الحيوان الى الفناء والانقراض . وعلى العكس عندما يكون الحيوان قادراً مقدرة كبيرة على صيانة نفسه ، تكون الحاجة الى التناسل اقل ، خوفا من ان تزيد نسبة التكاثر في هذا الحيوان عن كمية الطعام . وعلى العموم هنالك تعارض بين الفردية والتناسل ، او بين تطور الفرد والخصب ، وهذه القاعدة تسري على الجماعات والنوع بانتظام اكثر من الافراد ، اذ كلما زاد تطور ورفي النوع او الجماعة ، كلما قلت نسبة التوالد بينها ولكنها تسري على الافراد ايضا . اذ انه كلما ارتقى الفرد في عقله وذكائه كلما قل نسله ، فاينا نجد خصبا في التناسل نجد بلادة في العقل . وحيثما يزيد نشاط العقل اثناء التعلم يتبع ذلك ضعف تام ، او جزئي في الخصب التناسلي ، (المعروف عن الفلاسفة تهريهم من الزواج) كما ان اقتراب النساء من الامومة يخفف من نشاطهن العقلي .

على الرغم من هذا التوفيق التقريبي بين نسبة التوالد وحاجة بقاء النوع ، فان هذا التوفيق لم يكن تاما ابدا ، وكان « ملثوس » على صواب عندما دعا الى ضبط النسل بسبب زيادة السكان على مواد الغذاء . لقد كان ضغط السكان الناجم عن زيادتهم منذ البدايه السبب المباشر للتقدم ، فقد ادى الى انتشار الجنس وارغم الناس على التخلي عن حياة السلب والنهب والغزو والاتجاه الى حياة الزراعة . كما ادى الى تنقية سطح الارض وارغم الناس على حياة الاجتماع ... وتطور الحياة الاجتماعية والمشاعر الاجتماعية وتحسين الانتساج ، وزيادة المهارة والذكاء ، وهو العامل الفعال وراء التنازع على البقاء الذي يجعل الحياة للاصلح ويرفع مستوى الجنس .

٥ - علم النفس : تطور العقل

ان الكتابين اللذين اصدرهما سبنسر عام ١٨٧٣ عن « مبادئ علم النفس » هما اضعف الحلقات في سلسلة مؤلفاته . لقد كتب كتابا سابقا في نفس الموضوع عام ١٨٥٥ ، دافع فيه دفاعا عنيفا عن المادية والجبرية ، وهنا في هذين الكتابين يفرط « سبنسر » في النظريات ولكنه لا يسوق من البراهين التي تؤيد هذه النظريات الا قليلا ، فهو غني في النظريات فقير في الادلة . ومن النظريات التي اوردها في هذين الكتابين ، نظرية عن اصل الاعصاب ونشأتها من نسيج تصل الخلايا اجزائه ، ونظرية في ان اصل الغرائز انعكاسات متراكمة وتحويل السلوك المكتسب من الاسلاف للاخلاف . ورأى بانه على الرغم من امكان تغير صور الاشياء في الادراك الحسي بحيث تكون شيئا يخالف حقيقتها ، الا ان لها وجودا خاصا مستقلا عن ادراكنا اياها ، ومثبات غير هذه من النظريات الغامضة التي تقترب من الميتافيزيقا منها الى البحث عن الامر الواقع ، وفي هذين المجلدين فاننا نترك المجلدات المعروفة بنزعها الواقعية ونعود الى طريقة « كانت » في البحث .

ولكن الذي يسترعي انتباهنا ويستلقت انظارنا فوراً ، هو ان نجد لاول مرة في تاريخ علم النفس ، باحثا يقدم لنا وجهة نظر تطويرية ، ومحاولة

لتفسير التناسل ، ومجهدا فائقا في تعقب تعقيدات الفكر المحيرة وارجاعها الى عمليات عصبية بسيطة ، ثم الى حركة بين اجزاء المادة . حقا بان مجهوده هذا قد انتهى بالفشل ولكن من ذا الذي كتب له النجاح . في مثل هذه المحاولة ؟ لقد بدأ في وضع برنامج عظيم للكشف عن عملية تطور الادراك ، واجبر في النهاية على وضع الادراك في كل مكان ، لبحث في تطوره . وهو يصر على ان عملية تطويرية واحدة مستمرة تنازلت الكون من السديم الى العقل ، واخيرا يعترف ان المادة لاتعرف الا عن طريق العقل فقط . ومع ذلك فان العقل قد تطور ، فتطورت طرائق استجابته للبواعث الخارجية من صور بسيطة الى اخرى معقدة ، من الانعكاس الى الميل الى الغريزة ، ثم الى الذاكرة والخيال الى الذكاء والعقل . اذا استطاع القارئ ان يطلع على هذا الكتاب الذي يتألف من الف واربعمئة صفحة من التحليلات السيكلوجية والفسولوجية فانه سيدوده شعور قوي بتسلسل الحياة والعقل . وسيرى تكوين الاعصاب ، وتطور الانعكاسات والفرائز ، وانتاج الادراك والفكر عن طريق اصطدام البواعث المتصارعة . ويقول « سينسر » ان ليس هنالك فارق بين الغريزة والعقل ، فكلاهما يعمل على الملائمة بين حالة الكائن الباطنية ، وبين الظروف الخارجية . وكل الفرق بينها هو فرق في الدرجة ، فالفرائز تنظم العلاقات البسيطة نوعا ما ، اما العقل فيستجيب للمواقف المعقدة . فليس العمل العقلي الا اجابة غريزية كتب لها البقاء بعد صراع نشب بينها وبين اجابات غريزية اخرى ، وذلك لصالحها ، هي بالنسبة الى الاجابات الاخرى التي اثارها الموقف . فالعقل والغريزة في صميمها شيء واحد ، والعقل والحياة شيء واحد .

اما الارادة ، فهي اصطلاح مجرد نطلقه على مجموع الدوافع التي تدفعنا الى العمل . وهي في حقيقة الامر فكرة تحولت الى عمل ولم تجد ما يعوقها دون

ذلك ، فالفكرة هي المرحلة الاولى للعمل والعمل هو المرحلة الثانية للفكرة .
كما ان الحركة هي المرحلة الاولى للعمل الغريزي ، وتعبير الحركة هو البداية
المفيدة للاجابة التامة .

اما صور الفكر مثل ادراك الزمان والمكان وفكرتي الكمية والسبب
التي افترض « كانت » انها فطرية ، فما هي الا طرائق غريزية للتفكير ، ولما
كانت الفرائز عادات اكتسبها الجنس ، ولكنها ذاتية وخلقية بالنسبة الى الفرد ،
لذلك فان هذه الصور الفكرية عادات عقلية اكتسبها الانسان ببطء على
مدى تطور الزمان . واصبحت الان جزءا من تراثنا العقلي .

ان هذه الافتراضات الشاملة التي اثارها سبنسر هي التي اثار التساؤل
في ما جاء في هذين الكنايين ، وجعلت منها عبثا .

٦ - علم الاجتماع : تطور المجتمع

يختلف حكمنا هنا في علم الاجتماع عن حكمنا على «سبنسر» في علم النفس فان هذه المجلدات الفنية التي وضعها في علم الاجتماع تعتبر اروع انتاجه . لقد استغرق في كتابتها ما يزيد عن العشرين سنة ، وبحث فيها موضوعه المفضل . وهي تظهر عظمته في الفلسفة السياسية . لقد اظهر اهتماما بالفلسا في مشاكل الاقتصاد والحكومة . وهو يبدأها مثل افلاطون في التحدث عن الاخلاق والعدالة السياسية . لم يقدم احد لعلم الاجتماع ما قدمه «سبنسر» وحتى «كومت» مؤسس هذا العلم لايباريه في ذلك .

وهو يدعو في مقدمة بحثه الذي اطلق عليه اسم «دراسة علم الاجتماع» الى الاعتراف والتطور بهذا العلم الجديد . فاذا كانت الجبرية صحيحة في علم النفس ، ينبغي ان يكون هنالك نظام من العلة والمعلول في الظواهر الاجتماعية ، ان من يدرس الانسان والمجتمع سوف لايقنع بمجرد ترتيب الوقائع التاريخية ، او تاريخ حياة الانسان ، ولكنه سيبحث في تاريخ الانسانية عن خطوط التطور العام ، والسياق السببي والروابط التي تحول الحقائق المحيرة الى علم . لا شك ان هناك الوف العقبات التي ينبغي على دراسة الاجتماع التغلب عليها قبل

ان يصل الاجتماع الى مرتبة العلم . ان دراسة الاجتماع اليابعة لا زالت تعاني الكثير من التحيز والمحابة الشخصية والثقافية، والدينية والاقتصادية والسياسية والقومية ، واللاهوتية . هناك قصة تحدثنا عن رجل فرنسي رحل الى انكلترا ، وبعد اقامة ثلاثة اسابيع فكر في ان يضع كتاباً عن انكلترا ، واعتقد ان هذه المدة لا تتمكن من الكتابة عنها . ولكنه بعد ثلاثة شهور شعر بأنه ليس على استعداد بعد لوضع الكتاب ، وآثر التريث لمواصلة دراسة البلاد . وبعد انقضاء ثلاث سنوات شعر بمعجزه وأيقن انه لا يعرف عن البلاد شيئاً . ان الناس ينفقون الشطر الاعظم من حياتهم قبل ان يصبحوا حجة في الكيمياء والفيزياء او علم الاحياء ، اما في العلوم الاجتماعية والسياسية فان كل صبي حلاق او بقال يعتبر نفسه حجة ومرجعاً يعرف كل حل لكل مطلب وحاجة في هذا العالم .

لقد اعد سبنسر نفسه لهذه المهمة الشاقه العسيرة اعداداً مثالياً ، يتناسب مع ضمير العالم المثقف . واستخدم ثلاثة مساعدين لجمع المعلومات له ، وتنظيمها وتبويبها في اعمدة تتناول النظم الداخلية والدينية والمهنية والسياسية والصناعية للامم . ونشر على نفقته الخاصة هذه المجموعة من المعلومات في ثمانية مجلدات كبيرة ، ليتمكن الطلاب الآخرون من مراجعة النتائج التي وصل اليها وتحويرها . ولكن الموت اختطفه قبل ان يتم نشرها جميعها ، وترك القليل من المال الذي وفره لاتمام المشروع . وظهر المجلد الاول لعلم الاجتماع في عام ١٨٧٦ ، ولم يتم اعداد الاخير من هذه المجلدات حتى عام ١٨٩٦ .

يعتقد « سبنسر » ان المجتمع كائن عضوي ، له اعضاء للتغذية ، وله دورة دموية ، وفيه تعاون بين الاعضاء كما له تناسل وافرار تماماً مثل الافراد .

حقاً ان الادراك في الفرد محلي ، بينما كل جزء في المجتمع يحتفظ بادراكه الخاص واراداته الخاصة . ولكن تركيز الحكومة والسلطة يميل الى الخفض من مدى هذا الفرق . والمجتمع كالفرد في هذه الميزات الضرورية ، فهو ينمو وكنما

ازداد نمواً اشدت تمقداً ، وكلما تمقدت ازدادت اجزاؤه استقلالاً ، وحياء المجتمع طويلة جداً بالنسبة الى حياة اجزائه التي يتألف منها . والمجتمع كالفرد يعتمده زيادة في التجمع مقرونة بزيادة من التباين . وهكذا فان تطور المجتمع يسير على قانون التطور ، فنمو الوحدة السياسية من الاسرة الى الدولة الى عصبه الامم ، ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المحلية الصغيرة الى الاحتكار ونقابات الانتاج ، ونمو وحدة السكان من القرى الى البلدان الصغيرة الى المدن ، كل هذا بالتاكيد يظهر لنا عملية التجمع والتكتل . بينما نرى من جهة اخرى ان تقسيم العمل وتعدد المهن والصناعات ، والتجارة وزيادة اعتماد الاقتصاد على التبادل بين المدن والارياف وبين امة واخرى يوضح لنا التطور بشطريه من تجمع الى تباين .

ان مبدأ تجمع المتنافرينطبق على كل جانب من جوانب المظاهر الاجتماعية ، من الدين والحكومة الى العلم والفن . فقد كان الدين اول الامر عبادة طائفة من الآلهة والارواح ، المتشابهة قليلا او كثيراً في كل امة .

وتطور الدين الى فكرة اله مركزي قوي قادر على كل شيء ، اتبع بقية الآلهة له ونسقى اعمالها ، وصلحياتها . لقد اوحى الاحلام والاشباح على ما يحتمل الى تصور اول الآلهة . ولا زالت كلمة روح تستخدم في التعبير عن الاشباح والآلهة . ويعتقد العقل البسيط البدائي ، ان - الشبح او الروح تغادر الجسم في حالة الموت او النوم او الفيضوية . وحتى اذا عطس الانسان فان قوى الموت ، تطرد الروح ، ومن هنا نشأ التعبير بقولنا «الله يرحمك ويباركك» ، او ما يقابل هذه العبارة كان يقترن دائماً في مثل هذه الحالة من العطس . وكان الصدى او الانعكاس في رأي هذه الشعوب البدائية اصواتاً ومشاهد لشبح او اكثر . وكان الواحد منهم يرقص عبور النهر لئلا يختطف التمساح شبحه فياً كله . لقد كان الله في اول الامر في اعتقادهم شبحاً دائم الوجود ، وان

اقوياء الرجال في هذه الدنيا تنتقل قواهم ، وسلطانهم الى اشباحهم التي تظهر بعد موتهم . وكان لا بد من استرضاء هذه الاشباح واستعطافها . وتطورت طقوس الجنائز الى عبادة ، واخذت جميع مظاهر الاستعطاف التي تقدم للزعيم او القائد على هذه الارض تستخدم في الاحتفالات والصلوات والتزلف والتقرب الى الآلهة . وبدأ تقديم الهدايا الى الآلهة ، وتطورت هذه الهدايا فأصبحت الدخل الذي تعتمد عليه الكنائس ومعابد الدين . كما تطورت الهدايا التي كانت تقدم الى زعيم القبيلة او العشيرة الى الدخل الذي تجمعه الحكومات من شعوبها . وتحول الركوع امام الملك الى ركوع وسجود امام محراب الله . لقد نبعت جميع الديانات من هذه العبادات القديمة . ومن الممكن تصوير هذه العادة الدينية من قصة رئيس القبيلة الوثني الذي رفض التنصير لانه لم يقتنع في الاجابة على سؤاله فيما اذا كان سيقابل في الجنة اجداده الذين لم يتنصروا وبقوا على وثنيتهم (ان شيئاً من هذا الاعتقاد قد تسرب الى الشجاعة الفائقة التي ابداهها اليابانيون في حرب عام ١٩٠٥ ، فقد استهانوا بالموت لاعتقادهم بان اباؤهم واجدادهم ينظرون اليهم من السماء .) ان الدين هو الركن الاساسي في حياة الشعوب البدائية البسيطة . فالحياة بينهم وضيفة ومزعزعة ، وهم يعيشون على امل ما سيأتي من الاشياء لا في الحقائق المرئية لها . كما ان الحرافات الدينية تلازم المجتمعات العسكرية والحربية . وعندما حلت الصناعة محل الحروب تحول الفكر من الموت الى الحياة ، وخرجت الحياة من قيود السلطة المقدسة الى طريق الحرية والمبادرة المفتوح . والواقع ان اعظم تغير طرأ على المجتمع في تاريخ المجتمع الغربي باسره هو الانتقال التدريجي من النظام الحربي الى النظام الصناعي . لقد جرت المادة على تقسيم المجتمعات حسب حكوماتها الى ملكية وارشتراطية او ديموقراطية ، ولكن هذه فروق تافهة لا تمس الصميم ، اما الحد الفاصل فهو الذي يفصل المجتمعات العسكرية عن المجتمعات الصناعية .

الامم التي تعيش على الحروب عن الامم التي تعيش على العمل ..

وللدولة العسكرية صفات تميزها عن غيرها ، فالحكومة فيها دائما حكومة مركزية ، وفي الغالب ما تكون حكومة ملكية . ومبدأ التعاون فيها يقوم على الارغام والتنظيم العسكري . وهي تشجع تسلط الدين ، وتعبد الله الحرب ، وتنمي الفوارق بين الطبقات ، وتشجع القوانين الطبقية ، وتعظم مكانة الرجل ، وتمنحه سلطة مطلقة على المرأة . ولان نسبة الموت في هذه المجتمعات الحربية عالية بسبب ما تشنه من حروب ، فانها تميل الى اباحة تعدد الزوجات ، وتخفض مقام النساء . لقد كانت معظم الدول دولا حربية ، لان الحرب تعزز سلطة الحكومة المركزية وتجعل جميع المصالح تابعة لمصلحة الدولة . والتاريخ حافل باعمال السلب والنهب والغدر والخيانة والقتل والانتحار القومي . إن أكل لحوم البشر يعتبر وصمة عار في جبين المجتمعات البدائية المتأخرة ، ولكن بعض الشعوب الحديثة لا تقل افتراسا واكل للحوم البشر عن هذه المجتمعات القديمة المتوحشة . ان بعض الامم الحديثة تستعبد وتبتلع شعوبا باسرها . ومالم تحظر الحروب وتحرم بين الامم ، فستبقى المدنية تتأرجح من كارثة لاخرى .

والامل في الغاء الحروب وبلوغ مجتمع تتحقق فيه العدالة الاجتماعية يكمن في تطور الصناعة في الشعوب الصناعية . اذ ان الصناعة تؤدي الى الديمقراطية والسلام . وعندما تتوقف سيادة الحرب لحياة الامم ، ينهض التطور الاقتصادي ، وتنشأ الوف المشاريع الاقتصادية وتوزع السلطة على جزء كبير من افراد المجتمع . وبما ان الانتاج الصناعي لا يتزعزع ويزدهر الا في ظل الحرية فان المجتمع الصناعي سيعمل على تحطيم السلطات التقليدية الكهنوتية والطائفية القبلية التي تزدهر في ظلها الدول الحربية . ولا يعود للجندي او العسكري هذه القيمة البالغة والشهرة العالية ، والصيت العظيم . وتصبح الوطنية حب الانسان لوطنه لا كراهية البلاد الاخرى . ويعود السلام في البلاد ضرورة رئيسية من اجل

الرخاء والازدهار . وبما ان رأس المال سيصبح دوليا وعالميا ، حيث يقوم استثمار المال في جميع انحاء العالم ، فان هذا سيؤدي الى ضرورة استتباب الامن والسلام العالمي ايضا . وعندما تقل الحروب الخارجية ، تخف القسوة في الداخل ، ويحل نظام الزوجة الواحدة محل نظام تعدد الزوجات بسبب قلة الحروب التي تستهلك الرجال . ويرتفع وضع المرأة ، ويصبح تحرير النساء قاب قوسين او ادنى . وتفسح الخرافات الدينية الطريق امام المذاهب الحرة التي تركز جهودها في اصلاح الحياة الانسانية ، والسمو بالاخلاق على ظهر هذه الارض ، وتعلم ميكانيكية الصناعة الناس ميكانيكية الكون . وتحل الابحاث الدقيقة عن الاسباب الطبيعية محل المعجزات والقوى الخارقة . ويبدأ التاريخ في دراسة الناس وهم في العمل بدلا من دراسة حياة الملوك وهم في الحرب . ويتحول التاريخ عن تسجيل حياة الشخصيات الى تسجيل احداث الاراء والافكار واعظم الاختراعات ، وتقل سلطة الحكومة وتزيد سلطة الجماعات المنتجة في داخل الدولة ، ويتغير الوضع من مساواة في التبعية للحكومة الى حرية المبادرة ، ومن فرض التعاون قسرا الى حرية التعاون طوعا . يعتقد المجتمع الحربي بان وجود الافراد من اجل منفعة الدولة . اما المجتمع الصناعي فيعتقد بوجود الدولة من اجل منفعة الافراد .

لقد اعتبر « سبنسر » موطنه إنجلترا مثلا للبلد الذي يقترب من المجتمع الصناعي ، على الرغم من انه استنكر بشدة نمو الروح العسكرية الحربية الاستعمارية فيها ، واعتبر كلا من فرنسا والمانيا مثلا للدولة العسكرية الحربية .

ويعتقد سبنسر بان الاشتراكية نتيجة طبيعية للنظم الاقطاعية

والعسكرية ، او بعبارة اوضح فان النظم الاقطاعية والعسكرية تنتهي الى نظم اشتراكية .

والنظام الاشتراكي كالنظام العسكري يقوم على النظام المركزي ، وتوسيع سلطة الحكومة ، والقضاء على المبادرة الفردية وتبعية الفرد واخضاعه . والنظام القائم وراء كل منظمة هو انها تميل الى الصلابة والشدة عندما تكتمل قوتها . والاشتراكية ستؤدي الى جماعة بشرية من النحل والنمل ، وستؤدي الى نظام من الاستعباد اشد قنوطا وبأساً من الوضع الحالي .

ان العلاقات الاقتصادية اشد صعوبة من العلاقات السياسية واكثر تعقيدا ، ولا تستطيع حكومة تنظيم كل هذه العلاقات من غير اللجوء الى الشدة والاستبداد من جانبها . ان تدخل الحكومة يتجاهل دائما بعض عوامل الموقف الصناعي المعقد . وقد فشلت جميع المحاولات التي قامت بها ، ويتضح لنا هذا من ملاحظة فشل قوانين تثبيت الاجور في انجلترا في العصور الوسطى ، وقوانين تثبيت الاسعار في فرنسا النائرة ، وينبغي ترك العلاقات الاقتصادية الى التوفيق الذاتي الآلي للعرض والطلب (على الرغم من نقصه وعدم كماله) اما ما تريده الشعوب اكثر فستدفع ثمنه اكثر واذا كان بعض الناس يتلقون اجورا اكثر من غيرهم ، فهذا لانهم كابدوا وخاطروا مقابل ما حصلوا عليه . والناس بطبيعتهم لن يتسامحوا او يغفروا مساواة فرضت عليهم فرضا بالقوة .

لقد كان سبنسر يشعر بالغثيان والمرض لمجرد التفكير في عالم يحكمه العمال ، ولم تفتنه او تستهوي قلبه دعاية زعماء النقابات والاتحادات التجارية في جريدة لندن تايمز . لقد اشار الى عدم جدوى اضراب العمال ، لانه عندما يفوز العمال عن طريق الاضراب برفع اجورهم ، سترتفع اسعار الحاجيات نتيجة لرفع الاجور ، وسيعود الموقف على ما كان عليه من قبل ، هذا بالاضافة الى « ان المظالم التي

تنزل باصحاب الاعمال موازية للمظالم التي تنزل بالعمال . ،
ومع ذلك فان ما توصل اليه سنسر من نتائج ليست محافظة رجعية عمياء ،
فقد ادرك فوضى وقسوة النظام الذي يعيش فيه ، وبحث باهتمام بالغ عن نظام
يحل في مكانه . وفي النهاية ابدى عطفه نحو الحركة التعاونية ، بحيث يصبح
تنظيم العمل اقل الزاما وقسرا عندما يتقدم المجتمع . وكل عضو سيكون سيد
نفسه بالنسبة الى عمله ، ولا يكون خاضعا الا للقوانين التي تسنها اكثرية الاعضاء
والتي تستدعيها الحاجة الى النظام ، ويتم التحول من التعاون العسكري الالزامي
الى التعاون الصناعي الطوعي . وهو يشك في امانة ومقدرة الناس في تنفيذ هذا
النظام الديمقراطي الصناعي وجعله فعالا . ولكنه يؤيد محاولة ذلك ، ويتنبأ
بالوقت الذي تزول فيه ادارة المصانع من يد اصحابها الذين يديرونها ادارة مطلقة .
وكما تحول الاعتقاد في المجتمع العسكري وهو ان الفرد يحيا من اجل الدولة ،
الى ان الدولة تحيا من اجل الفرد في المجتمع الصناعي ، فسيتحول الاعتقاد في
المجتمع الصناعي من ان الحياة للعمل الى الاعتقاد بان العمل من اجل الحياة في
المجتمع التعاوني الذي ينبثق عنه .

٧ - اخلاق : تطور الاخلاق

لقد ذهب سبنسر الى وجوب بناء الاخلاق على اساس بيولوجي اي على علم الحياة . باخضاعها الى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة . ولكن العالم «هكسلي» في محاضراته في جامعة اكسفورد عام ١٨٩٣ ، رفض ان يكون علم الحياة دليلا اخلاقيا ، وان الطبيعة ملطخة بالدماء نابا ومخلبا كما قال « تنسيون » اذ كيف ترك للطبيعة وضع اخلاقنا وهي التي تمجد القسوة والوحشية والخداع والمكر ، بدلا من العدالة والحب . ولكن سبنسر شعر بأن القانون الاخلاقي الذي يفشل امام امتحان الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء مصيره الفشل . والاخلاق كأى شيء آخر تكون خيرا او شرا بمقدار ملائمتها او عدم ملائمتها لغايات الحياة . واعظم الاخلاق واسماها هي التي تساعد على اعظم واكمل حياة . او على حد قانون التطور ، فان السلوك يكون اخلاقيا بمقدار ما يساعد الفرد او الجماعة على الكمال والوحدة في وسط تنافر الغايات . ولكن هذا التعريف للاخلاق تعريف غامض ، لان الملائمة بين الفرد والمجتمع تختلف من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان . وكذلك فكرة الخير تختلف عند الشعوب او سع لاختلاف . ويرى سبنسر ان الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق يميز به الطيب من الخبيث وهو مقياس اللذة والالم . فاللذة تشير الى منفعة الشيء من الناحية البيولوجية ، والالم يشير الى خطورة الشيء من الناحية البيولوجية . ومع ذلك فانا نجد اختلافا كبيرا لمفهوم الخير ،

فان الكثير من اخلاق الشعوب الغربية تعتبر لا اخلاقية لدى شعوب اخرى .
فان تعدد الزوجات والانتحار وقتل الانسان لمواطنيه وحتى قتله لابوية تعتبر
اخلاقاً فاضلة بين بعض الشعوب .

ان زوجات رؤساء قبائل « الفيجان » يعتبرن تعذيبهن بعد وفاة ازواجهن
واجباً مقدساً . لقد خلص « وليامز » احدى هؤلاء النساء من تعذيب قومها لها،
ولكنها هربت في الليل وعبرت النهر سباحة وقدمت نفسها لقومها ، وأصرت
على اتمام عملية التضحية ، وانها قد هربت في ساعة ضعف منها . ومحدثنا
« ويلكيز » عن امرأة اخرى اتهمت من انقذها بانتهاك حرمة واجبها المقدس،
وحملت له كراهية كبيرة بعد ذلك، ويذكر « ليفينجستون » ان نساء الماكولولو
على شواطئ « الزامبيزي » ابدن دهشة كبيرة عندما قيل لهن ان الرجل في
انجلترا يقتصر على زوجة واحدة ، اذ ان من يقتصر على زوجة واحدة لا يعد
محترماً في نظرهن ، ويذكر لنا « ريد » ان الرجل اذا تزوج في افريقيا
الاستوائية ، وكانت ظروفه تساعد على الزواج من زوجة اخرى ، فان زوجته
تلح عليه الزواج من اخرى ، وتتمه بالبخل لو رفض الزواج من ثانية .

ان هذه الحقائق طبعاً تصطدم مع الاعتقاد بوجود احساس اخلاقي فطري
يوجي الى الانسان بما هو صواب او خطأ . ولكن افتتان اللذة والألم بساوك
الخير والشر يشير الى وجود مقياس من الحقيقة في الفكرة . وقد تصبح بعض
النظريات الاخلاقية التي اكتسبها الجنس اخلاقاً موروثة في الفرد .

ان الاخلاق الفطرية تواجه مصاعب اليوم . من الفيسح ان يتناقض مبدأ
الاخلاق الذي نطبقه على حياتنا الواقعية تناقضاً كبيراً مع المبادئ التي ندعو
لها ونبشر بها في كنائسنا وكتبنا . ان الاخلاق المعترف بها في اوروبا وامريكا

هي الاخلاق المسيحية المسالمة ، ولكن الاخلاق الفعلية هي الاخلاق العسكرية الحربية التيتونية التي تعتمد على السلب والنهب التي استمدت منها الطبقات الحاكمة اخلاقها في معظم انحاء اوروبا . ان ممارسة المبارزة بالسيف في فرنسا الكاثوليكية والمانيا البروتستانتية اثر من اثار ومخلفات القوانين التيتونية .

سواء تطورت الامة بمواطنيها على مبادئ الاخلاق المسيحية او الاخلاق التيتونية فان هذا يعتمد على ما اذا كانت الحرب ، او الصناعة هي النظام الذي يسود هذه الامة . ان المجتمع العسكري يمجّد ويعظم فضائل معينة ، ويصفح ويتسامح عن ارتكاب اعمال تعتبرها الشعوب الاخرى جرائم . فان العدوان والسلب والنهب والغدر والخيانة امور مستباحة بين الشعوب المحاربة التي عودتها الحرب على هذه الصفات ، بخلاف الشعوب التي علمتها الصناعة والسلام قيمة الامانة والمسالمة وعدم الاعتداء . اذ تزدهر الانسانية والكرم اكثر حيث تقل الحروب . كما ان فترات الانتاج الطويلة الهادئة تولد في الناس فائدة تبادل المساعدة . ان المواطن في المجتمع العسكري يعتبر الشجاعة والقوة اسمى الفضائل بالنسبة الى الانسان والطاعة اسمى فضيلة بالنسبة الى الافراد والخضوع والاستسلام اسمى فضيلة في المرأة . لقد اعتقد قيصر المانيا بان الله قائد الجيش الالماني . كما اعتبر هنود امريكا الشماليون استخدام القوس والنبيل والرمح والهراوة الحربية ، اسمى وظائف الانسان ... واعتبروا الاعمال الزراعية والآلية اعمالاً منحطة .

ولم ترتفع قيمة الاعمال المهنية والزراعية وتأخذ مكاناً محترماً لها بجانب الاعمال العسكرية الا في الازمنة الحديثة عندما اصبحت مصلحة البلاد القومية تعتمد اكثر فأكثر على قوى الانتاج الكبيرة ، والتي بدورها تتمتع على القوى العقلية العظيمة .

والآن فان الحرب ليست الا اكلاً للحووم البشر بالجملة ، ما الذي يمنعنا من اعتبارها اكلاً للحووم البشر ، فنعلن تحريمها ومنعها واستنكارها كما نعلن تحريمنا لأكل لحوم البشر . لان العدالة لا يمكن ان تنمو وتزدهر الا اذا قل الخصاص والعداء بين الشعوب ، وزاد التعاون والانسجام بين افرادها . ولكن كيف السبيل الى تنمية هذا التعاون والانسجام ، كيف السبيل الى ترقية هذا التعاون المنسجم ؟ ان هذا الانسجام يأتي عن طريق الحرية اكثر من التنظيم . وعلى هذا يكون تعريف العدالة هو « ان يكون الانسان حراً في ان يفعل ما يشاء شريطة الا يتعارض ذلك مع حرية الآخرين . » وهذا التعريف للعدالة يتعارض مع نزعة الحرب . لان الحرب تمجد السلطة والتنظيم والطاعة العمياء . ان هذا التعريف يتناسب مع مجتمع صناعي مسالم ، لانه يحفز النشاط الصناعي مع مساواة الفرص امام الجميع . وهو تعريف يتناسب مع الاخلاق المسيحية لانه يعتبر كل انسان مقدساً ، ويحرره من روح العدوان والخصاص . وهو تعريف ينطوي على موافقة ذلك الحكم النهائي ، الا وهو الانتخاب الطبيعي . لانه يفتح مصادر الثروة في الارض امام الجميع ، ويفسح المجال لكل فرد في الاثراء وفقاً لمقدرته وعمله .

يعتقد سبنسر ان سيطرة الحكومة على الفرد ستخف عندما تقل الحروب . كما ستقل صلاحيات الحكومة وسلطاتها كما توطد السلام وطالت مدته ، ولا يعود للحكومة عمل سوى المحافظة على اقامة العدل .

ان مبدأ العدالة يقتضي ان تكون ملكية الاراضي عامة ، اذا كنا نقدر على فصل الاراضي عن التحسينات والاصلاحات التي ادخلها عليها اصحابها . لقد ايد سبنسر تأميم الاراضي في كتابه الاول وذلك لمساواة الفرصة الاقتصادية امام الجميع ، ولكنه تراجع عن رأيه هذا بعد ذلك (لقد اثار تراجعه هذا اشمزاز هنري جورج الذي اطلق عليه اسم الفيلسوف المحير .) والسبب في تراجعه هو ان افضل الاراضي انتاجاً واحسنها ادارة هي التي تملكها عائلات خاصة تثق

بتوريثها لابنائها ، وان جهودها واتعابها واعمالها في هذه الاراضي لن تضيع سدى . اما بالنسبة الى الملكية الخاصة فانها تستمد اصولها من قانون العدالة ، بان يتساوى الناس في الاحتفاظ بشمرة اقتصادهم وتوفيرهم . ان عدالة الموصى به ليست واضحة تماماً ، ولكن حق التوريث يشمله حق الملكية ، والا لا تكون الملكية نامة . هذا وينبغي ان تكون التجارة حرة بين الشعوب كما بين الافراد . والا يكون قانون العدالة مجرد قانون قبلي بل قانون علاقات عامة لا ينثلم .

هذه هي حقوق الانسان الحقيقيه باختصار ، حق الحياة والحرية والسعي من اجل السعادة التي يتساوى فيها الجميع . بجانب هذه الحقوق الاقتصادية لا يعود للحقوق السياسية اهمية كبرى في رأي سبنسر . ان تغيير شكل الحكومة لا يعني شيئاً عندما لا تكون الحياة الاقتصادية حرة . وبما ان الحقوق السياسية اوها م ، والحقوق الاقتصادية هي التي عليها الفائدة والمول ، فالنساء مخدوعات ويضعين اوقاتهن في المطالبة بالحقوق السياسية . ويخشى سبنسر ان تدفع غريزة الامومة في المرأة وحبها لمساعدة الضعيف والمحتاج الى انشاء دولة ابوية تقوم على الاحسان والصدقة . وهنا نلمس اضطراباً في تفكير سبنسر في هذه الناحية ، فهو يعتقد بان الحقوق السياسية لا اهمية لها ، ويعتقد باهميه عدم حصول النساء على هذه الحقوق السياسية ، وهو يستنكر الحرب وينبذها ، وبعدئذ يطالب بعدم اشراك النساء في التصويت في الانتخابات لانهن لا يشتركن في الحرب ولا يعرضن حياتهن لخطر الموت في القتال . من العار ان نسمع مثل هذه الآراء من اي رجل عانت امه العذاب في ولادته وقاست مر الآلام في تربيته . انه يخشى النساء بسبب الافراط في حبهن لمساعدة الغير ، ويميلن لمساعدة المحتاجين على الرغم من ان ذروة تفكيره في كتابه هو ان تؤدي الصناعة والسلام الى تنمية محبة الغير في قلوب الناس تنمية تتعادل وتتوازن مع الاثرة ومحبة الذات .

ان الصراع بين محبة الغير وبين محبة الذات تاجم عن الصراع بين الفرد والاسرة والجماعة والجنس . والمفروض ان السيادة والتغلب سيبقى للآثرة او محبة الذات ، وقد يكون هذا هو المطلوب والمرغوب فيه . اذ لو فكر كل انسان في مصالح الناس اكثر من التفكير في مصالحه فان هذا سيؤدي بنا الى الفوضى . « ان السعي وراء سعادة الفرد ضمن الحدود التي تفرضها الاحوال الاجتماعية هو اول ما نحتاج اليه لبلوغ اعظم السعادة العامة . » ان ما نتوقه على اي حال هو توسيع كبير لعاطفة الشفقة وتطور كبير في دوافع محبة الغير . وحتى الآن فاننا نجد الآباء يضحون عن طيب خاطر لابنائهم . كما ان رغبة من لا اولاد لهم في الحصول على اولاد ، وتبني الأولاد من لا اولاد لهم يظهر لنا مدى الحاجة الى هذه المحبة الغيرية لاشباع الذات في نفوسنا ، كما ان شدة التحمس للوطنية مثل آخر على تفضيل المصالح العامة على المصالح الخاصة . كل جيل في الحياة الاجتماعية يقوى من دوافع تبادل المساعدة . وسيعجن النظام الاجتماعي المتواصل الطبيعة البشرية الى ان تتحول لذة العطف والشفقة لمصلحة الجميع .

٨ — نقد

لا شك ان القارىء قد ادرك وجود بعض المصاعب في هذا التحليل الذي قدمه لنا سبنسر ، ان النقد السليبي ليس مرضياً دائماً وخصوصاً امام هذا الانتاج العظيم الذي قدمه لنا سبنسر ولكن جزءاً من مهمتنا يقتضي ان نرى ما احده الزمن في افكار هذا الفيلسوف .

١ - المبادئ الاولى

ان الحقيقة الاولى التي تواجهنا في كتاب « المبادئ الاولى » هي قوله بان هنالك حقيقة مغلقة لا سبيل الى ادراكها . ونحن وان كنا نسلم معه بان المعرفة الانسانية عاجزة عن ان تسبر اغوار محيط الوجود العظيم الذي لسنا سوى موجة سريعة عابرة على سطحه ، الا اننا ينبغي ان لا نبت في الموضوع نهائياً ، لاننا نخطئ منطقياً اذا ذهبنا الى ان شيئاً ما قد اغلق دون المعرفة اغلاقاً تاماً ، واستحال العلم به استحالة تامة ، لأن القول بعدم امكان معرفة الشيء اعتراف ضمني باننا قد عرفنا عنه شيئاً . والواقع ان سبنسر نفسه في مجلداته المشرة اظهر معرفة كبيرة لتلك الحقيقة المغلقة او المجهولة . وكما قال « هيجل » ان تقييد العقل بالمقل كمن يحاول السباحة من غير ان يدخل الماء .

ثم ماذا نقول في هذا التعريف الواسع الذي وضعه سبنسر عن التطور؟ فهو يعرف التطور بأنه سير من البسيط الى المركب، هل يفسر هذا التعريف من الكون شيئاً، كلا ان هذا التعريف لا يفسر الطبيعة، وهو كما قال عنه « برجسون » يحلل الطبيعة ولكنه لا يفسرها. ان اضعف نقطة في التعريف هي قوله بعدم استقرار المادة المتجانسة، وانتقالها الى حالة التنافر. فهل يعتقد سبنسر بان الكتل المتشابهة الاجزاء اقل استقراراً واكثر تغيراً وتحولاً من الكتل المتنافرة الاجزاء؟ اليس المفروض ان يكون المتنافر الاكثر تعقيداً بحكم تنافره اقل استقراراً واكثر تحولاً وتغيراً من المتجانس البسيط. ان علم اجناس الامم واصولها ومميزاتها وتفرقها والعلوم السياسية تعترف وتسلم بان التنافر والاختلاف في الاجناس يؤدي الى عدم الاستقرار، وان صهر المهاجرين الجدد في الولايات المتحدة مثلاً، في وحدة قومية يؤدي الى تقوية المجتمع وتعزيزه. ويعتقد « تاردي » بان المدنية تنجم عن زيادة في التشابه والانسجام بين افراد الشعب نشأت خلال اجيال من التقليد. وهذا يظهر لنا ان التطور عبارة عن تقدم يسير نحو التجانس والتشابه. واخطاء سبنسر في اعتقاده بان التطور يسير بالشيء من البسيط الى المعقد، فان فن المعمار القوطي كان اشد تعقيداً من المعمار اليوناني، ولكن هذا لا يعني انه كان ارفع شأنًا واسمى مرحلة من حيث التطور الفني. لقد تسرع سبنسر في افتراضه بان الاسبغ في الزمن يكون ابسط في التركيب والبناء، انه بافتراضه هذا قلل من تعقيد البرقوبلازما « المادة الزلائية الحيوية التي تتكون منها خلية الاجسام الحيوية » وذكاء الانسان البدائي واخيراً فان تعريفه اخفق في ذكر ما يرتبط اليوم ارتباطاً وثيقاً بفكرة التطور. الا وهو الانتخاب الطبيعي. قد يكون في وصف التاريخ بأنه تنازع من اجل البقاء وبقاء الاصالح - اصلح الكائنات الحية، واصالح المجتمعات،

واصلح الاخلاق واصلح اللغات ، واصلح الافكار ، واصلح الفلسفات اكثر وضوحاً وتنويراً على الرغم مما به من نقص) من قول سبنسر بانه تطور من التفكك الى التماسك ، من المتجانس الى المتنافر ، من التبدد الى التجمع .

لقد قال سبنسر عن نفسه « انني ساء الملاحظة في الانسانية المجسدة ، لانني اسرفت في التفكير فيما هو مجرد » ، ان اعترافه هذا امانة لها خطورتها ، لقد اسرف في استخدام الطريقة الاستنتاجية فاختلف كثيراً عن المثل الاعلى « لبيكون » وعن الطريقة الحقيقية للتفكير العلمي . لقد بدأ سبنسر كما يبدأ رجل العلم بالملاحظة ، ثم تقدم كما يتقدم رجل العلم في تكوين الفروض ، ولكنه لم يسلك بعد ذلك طريقة رجل العلم ، فهو لم يلجأ الى التجربة او الملاحظة العادلة بل لجأ الى اختيار المعلومات المفضلة التي تؤيد وجهة نظره ، وكان لا يحتمل الامثلة السلبية المعارضة لرأيه على نقيض « دارون » الذي وقع على معلومات تعارض نظريته فأسرع الى تسجيلها خوفاً من نسيانها ، لعلمه بان الانسان ينسى ما يتعارض مع افكاره ، أما المعلومات المؤيدة لنظريته وافكاره فتبقى في ذاكرته مدة اطول .

٢ — علم الاحياء وعلم النفس

لقد اعترف سبنسر بصراحة في حاشية مقاله عن التقدم ، ان فكرته عن التطور تقوم على نظرية « لامارك » حول انتقال الاخلاق المكتسبة . وهي ليست تقدماً عن « دارون » الذي تقوم فكرته على نظرية الانتخاب الطبيعي . فهو اذن فيلسوف « اللاماركية » اكثر من كونه فيلسوف « الدارونية » لقد كان في

الاربعين من عمره عندما ظهر كتاب « اصل الانواع » وفي الاربعين تكون افكار الانسان قد بلغت حد الثبات .

قال سبنسر ان النسل يقل كلما تقدم النوع في طريق التطور ، ولكن قوله هذا لا يتفق مع الحقيقة الواقعة ، وهى زيادة النسل في اوربا المتمدنة عنه في الشعوب المتوحشة . ان اكبر العيوب والنقائص في نظريته البيولوجية تكمن في اعتناؤه على « لامارك » وفشله في وضع فكرة قوية عن الحياة . وهو عندما يعترف « ان الحياة لا يمكن فهمها وادراكها بالوسائل الفسيولوجية الفيزيائية » فانه باعترافه هذا يقضي على فكرته حول التطور ، وعلى تعريفه للحياة ، وعلى تماسك الفلسفة التركيبية ، فهو يقول ان الحياة عبارة عن ملائمة الكائن الحي لحالاته الداخلية مع ظروف البيئة الخارجية ، وان هذه الملائمة تتم بطريقة طوعية وكان الافضل ان يقول ان سر الحياة يكمن في قوة العقل على توفيق الحالات الخارجية للحالات الداخلية او بعبارة اوضح ان هذه الملائمة تتم بالدى الكائن الحي من عقل . لان مقدمة سبنسر وهى الملائمة الطوعية بين الكائن الحي وبيئته تعني ان الملائمة التامة هي الموت ، لان الحياة تعني شيئاً من مقاومة الخضوع للطبيعة .

اما مجلداته عن علم النفس فهي تقديم لصيغ اكثر منها للافادة والاعلام . فقد اعاد تشكيل ما نعرفه في اصطلاحات موحشة معقدة ، تشير الغموض في الموضوع بدلا من توضيحه وتجهد القارئ وتستنزف قواه في الصيغ والتعاريف واختصار الحقائق السيكولوجية الى تركيبات عصبية تجعله يغفل عن ملاحظة ان اصل العقل والادراك قد ترك بلا تفسير . حقا ان سبنسر حاول ان يملأ هذه الفجوة في نظام تفكيره بقوله ان العقل هو الملازمة الذهنية لطرائق

الاعصاب التي تطورت آليا من السنديم الاول . ولكن ما هو السبب في وجود هذه الملازمة الذهنية بالاضافة الى الآلية العصبية ، فهو لا يجيب . وهذا طبعا هو بيت القصيد وراء علم النفس .

٣ اجتماع و اخلاق

ان كتابه العظيم عن الاجتماع ، الذي يتألف من الفتي صفحة يجعله عرضة للنقد والهجوم الذي يفترض فيه بان التطور والتقدم امران مترادفان . ان هذا التطور قد يحقق للحشرات والجرائم انتصارا ساحقا في حرب الابداء بينها وبين الانسان . هذا كما انه فرض ان الدولة الصناعية اكثر مسالمة و ارفع اخلاقا من الدولة الاقطاعية الحربية السابقة لها . والتي سادت في العصور الوسطى ، ولكن افتراضه هذا ينقصه الوضوح ويعوزه الدليل . فقد جاءت اكثر الحروب دمارا وتخريبا في اثنينا بعد مدة طويلة من زوال النظام الاقطاعي واستسلامه للنظام البورجوازي التجاري . وقامت دول اوروبا الصناعية بحروب طاحنة على الرغم من كونها دولا صناعية ، وقد تكون الدول الصناعية الاستعمارية ، حربية وعسكرية ، كالعائلات الاقطاعية الملكية . ان اعظم دولة عسكرية بين الدول الحديثة هي احدى اعظم دولتين صناعيتين في العالم . هذا بالاضافة الى ان تطور المانيا الصناعي السريع قام بفضل سيطرة الحكومة على بعض نواحي النقل والتجارة المعينة ، كما ان الاشتراكية لا تتطور عن العسكرية الحربية بل عن التصنيع . لقد كتب سبنسر اراءه في وقت ساد فيه هدوء نسبي على إنجلترا واضطرها الى اتخاذ موقف سلمي من اوروبا ، كما ان سيادتها التجارية والصناعية

في ذلك الوقت دفعتها الى الايمان بحرية التجارة . ولو طال به العمر اكثر وعاش ليرى كيف اختلفت نظرية حرية التجارة هذه باختفاء سيادتها التجارية والصناعية ، وكيف اختلفت روح انجلترا المسالمة وحبها للسلام عندما هدد هجوم المانيا على البلجيك عزلتها وسلامتها . هذا كما ان سبنسر بالغ كثيرا في فضائل النظام الصناعي ، فقد تعامى واغلق بصره عن الاستغلال الوحشي الذي رافق الصناعة في انجلترا . ولا غرابة ان اثار الصناعة اشمئزاز « نيتشه » فاندفع الى تعظيم العسكرية وتمجيد فضائل الحياة العسكرية الحربية .

ينبغي علينا ان نذكر ان سبنسر قد عاصر عهدين ، وانه كون اراءه السياسية في ايام عدم التدخل من جانب الدولة في شؤون البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، او بعبارة اوضح تحديد صلاحيات الدولة تحت تأثير « ادام سميت » بينما عاش في سنواته الاخيرة في فترة كانت انجلترا تكافح فيها لتصحيح اخطاء وهفوات نظامها الصناعي ، وذلك بالاشراف على النواحي الاجتماعية لم يتعب سبنسر او يميل من مهاجمة تدخل الحكومة ، فعارض اشراف الحكومة على التعليم وتمويله ، وعارض حماية الدولة للمواطنين ، من الاحتمالات والتدليسات المالية . وقد ذهب مرة الى وجوب ان تكون ادارة الحرب ادارة اخاصة لا حكومية . لقد حمل كتابه الى الناشر بنفسه ، لفقدان ثقته بموظفي البريد الحكوميين . لند كان رجلا فرديا شديدا ، ويصبر على الحياة وحيدا ، وكل قانون جديد في نظره هجوم على حريته الشخصية . انه لم يدرك ما قاله « بنيامين كيد » وهو انه باعتبار ان الانتخاب الطبيعي يعمل اكثر فاكثرا في الجماعات والطبقات والمنافسات الدولية ، واقل فاقل في الافراد ، فان التوسيع في مساعدة الاقوياء للضعفاء امر ضروري لا بد منه . لماذا تحمي الحكومة

المواطنين من القوى الطبيعية العنيفة ، وترفض حمايتهم من القوى الاقتصادية العنيفة ، هذا ما تجاهله سبنسر ، لقد احتقر تشبيه الحكومة من المواطنين بالأب من اولاده واعتبره تشبيها صبيانيا . ان سياسته اكثر « دارونية » مز علم احيائه .

يكفينا هذا النقد ، ولنعد الى الرجل مرة ثانية لئرى عظمة اعماله وانتاجا بمنظار المدل .

ختام

لقد جعل كتاب « المبادئ الاولى » من سبنسر على الفور اعظم فيلسوف في عصره . وسرعان ما ترجم هذا الكتاب الى معظم اللغات الاوروبية ، بما في ذلك اللغة الروسية ، حيث كانت روسيا تعاني اضطهاد الحكومة للشعب . لقد نودى به موضحا لفلسفة العصر ، ولم يقتصر تأثيره على الحركة الفكرية في اوروبا فحسب بل تعداها الى الحركة الواقعية في الادب والفن . لقد اثار دهشته ان قامت جامعة اكسفورد في تقرير كتابه (المبادئ الاولى) في مهاجمتها في عام ١٨٦٩ . وراحت كتبه بعد عام ١٨٧٠ تدر عليه دخلا استطاع ان يؤمن به حاجاته المالية . وارسل له المعجبون به هدايا ثمينة من وقت لآخر ، ولكنه كان يردها على اصحابها دائما . وعندما زار القيصر اسكندر الثاني مدينة لندن ، ابدى الى اللورد (دربي) رغبته في مقابلة افاض العلماء البارزين في انجلترا . فوجه اللورد دربي دعوة الى سبنسر وهكسلي وتندال وغيرهم ، فسارع الجميع في الحضور الا سبنسر فقد ابي ، وكان لا يجتمع الا بالقليل من اصدقائه ومعارفه . وكتب مرة بانه وضع اعظم افكاره في كتابه ، بعد ان صفاها وغربلها عن بقية الافكار التافهة التي تترجج بها في حديثه اليومي . وعندما كان يلح الناس على زيارته ورؤيته كان يجلس صامتا هادئا مستمعا الى احاديثهم . والغريب ان شهرته هبطت بسرعة كما صعدت بسرعة ، فقد طال عمره ،

وشاهد ذروة شهرته وهبوط مجده ، وشاهد في أيامه الاخيرة عجز طعنائه وهجماتة امام تيار التشريعات الحكومية وتدخلها لحماية الضعفاء من بطش الاقوياء ، وتحولها الى حكومة ابوية تحنو على ابنائها من افراد الشعب . واصبح مكروها تقريبا من كل فئة ومن كل طبقة . وتجاهل العلماء الذين غزا ميادينهم اراءه ، وترصدوا هفواته ، وتناولوا اخطائه بالنقد والتجريح ، واتحد القسس من كل مذهب على انزال القصاص الابدئي به ، وتحول العمال الذين احبوا فيه استنكاره للحرب عنه في غضب بعد ان اعلن عن ارائه في الاشتراكية وسياسة اتحادات عمال التجارة . واعرض عنه المحافظون الذين احبوا ارائه في الاشتراكية بسبب اتجاهه الى اللادارية ؛ لقد كان سبنسر مخلصا فاثار سخط كل جماعة بارائه الصريحة ، في كل موضوع . وبعد ان اظهر عطفه على العمال واعتبرهم ضحايا اصحاب العمل اضاف الى قوله بانهم لن يكونوا افضل من اصحاب العمل لو انتقلت السلطة الى ايديهم . لقد زادت وحدته في كهولته .

وعندما تقدمت به السن زاد رقة في معارضته واعتدالا في ارائه . لقد اعتاد ان يظهر سخريته من ملك الانجليز ويعتبره ملكا للزخرفة ، لكنه اعلن بعد ذلك ان حرمان الشعب من مليكه بمثابة حرمان الطفل من لعبته . واعتدل في موقفه من الدين ، وبدأ يتحقق بان العقائد الدينية والحركات السياسية تقوم على حاجات وبواعث حصينة من هجوم العقل عليها . وراح يعود نفسه على رؤية العالم يتدحرج في طريقه بغير التفات الى اكوام الكتب التي قذفها في اتجاهه . وعندما التفت الى ايام كفاحه لام نفسه على سخافة سعيه للشهرة الادبية وتفويت سعادة الحياة . وتوفي في عام ١٩٠٣ ، وفي اواخر حياته خيل اليه ضياع جهوده وعبث انتاجه .

ولكننا الان نعرف ان جهوده لم تذهب سدى . لقد كان افول نجمه وهبوط شهرته جزءا من رد فعل الانجليز على الحركة الايجابية . ان انتعاش مذهب الاحرار سيرفعه مرة ثانية الى مكانه ، كاعظم فيلسوف انجليزي في عصره . لقد قدم سبنسر للفلسفة اتصالا جديدا مع الاشياء ، و اضاف عليها واقعية جعلت الفلسفة الالمانية تبدو بجانبها ضعيفة شاحبة ومجردة . لقد اجمل سبنسر عصره كما لم يجمله رجل آخر منذ (دانتي) وقام بتنسيق حديقة واسعة من المعرفة الغزيرة ببراعة فائقة يقف امامها كل نقد صامتا ، خجلا من ضلالة انتاجه امام هذا الانتاج الشامخ . اننا نقف الان على ذروة وصلنا لها بفضل كفاحه ، وفزنا بها بفضل اعماله ، فان كنا نبدو جالسين فوقه ، فذلك لانه رفعنا على اكتافه . سيأتي يوم يزيد فيه انصافنا له ، بعد نسيان لذعات معارضته وطعنات افكاره .

الفصل التاسع

فردريك نيتشه

١ - نشأته

كان نيتشه طفل « دارون » واخا « لبسارك » او بعبارة اوضح فقد تأثر الى مدى واسع بنظرية دارون ، وسياسة بسارك . ولا يهمنا كثيراً سخريته من اتباع التطور في إنجلترا وانصار القومية في المانيا ، فقد اعتاد ان يهاجم الذين اثروا عليه اقوى الاثر . لقد كانت هذه طريقته اللاشعورية في تسديد ديونه لمن استمد منهم معظم افكاره وفلسفته .

فاذا كانت الحياة هي تنازع البقاء ، وبقاء الاصلح ، عندئذ تكون القوة هي الفضيلة الاساسية ، والضعف هو النقيصة الوحيدة . الخير هو الذي يحيا ويظفر ، والشر هو الذي يستسلم ويفشل . لقد اظهر اتباع دارون في إنجلترا ، ودعاة الفلسفة الايجابية في فرنسا ، والاشتراكيون في المانيا ، شجاعة كافية في رفض اللاهوت المسيحي ، ولكنهم لم يجرأوا على رفض الاخلاق المتفرعة عن المسيحية ، وهي الضعف والرقه ومحبة الغير وغيرها من صفات الليونة والضعف المتفرعة

عن هذه الديانة . لقد اظهروا جرأة في الاقلاع عن المذهب الكاثوليكي واللوثري والانجليكاني ، ولكنهم لم يجرأوا على الاقلاع عن الديانة المسيحية نفسها . هذا هو ما قاله فردريك نيتشه .

« لم يتخلف المفكرون الاحرار الفرنسيون من فولتير الى اوجست كومت عن المثل الاعلى للديانة المسيحية بل اضافوا عليها . فقد ذهب كومت الى الدعوة الى محبة الآخرين ، وتكريس الحياة من اجل مساعدتهم . كما ذهب شوبنهاور في المانيا وجون ستيوارت مل في إنجلترا الى الدعوة الى نظرية الشفقة ومساعدة الآخرين ، واعتبروها المبدأ الاساسي في العمل . كما وضع الاشتراكيون جميعهم افكارهم على اساس هذه المبادئ التي تحض على الشفقة والرحمة ومساعدة لغير . »

لقد اتم دارون بجرسة لا شعورية منه ما بدأه الموسوعيون (الانسيكلوبيديون الذين وضعوا الموسوعة او دائرة المعارف) من ازالة الاساس اللاهوتي الذي تقوم عليه الاخلاق الحديثة . ولكنهم تركوا مبادئ الاخلاق نفسها من غير ان يمسوها او يخرقوها . فقد تركوها معلقة في الهواء . ان ما نحتاج اليه في هذه المعركة التي نسميها بالحياة هو القوة لا الطبيعة والكبرياء لا الخضوع ، والذكاء الحازم لا حب الغير ومساعدة الناس . ان المساواة والديمقراطية مناقضة لنظرية الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح . كما ان هدف التطور هو العباقرة لا جماهير الشعب . والحكم الفصل في جميع الخلافات ومصائر الامور هو القوة لا العدالة . هذا هو ما اعتقده فردريك نيتشه .

والآن ، ان كان هذا حقاً ، فليس اعظم من بسارك ولا اكثر منه اهمية . اذ ينطبق عليه هذا الوصف الذي ذهب اليه نيتشه . فقد عرف بسارك

حقائق الحياة فاعلن في خشونة « ان لا محبة للغير بين الامم وان القضايا الحديثة في الدول لا ينبغي ان تقررها اصوات الناخبين ، ولا بلاغة الخطب ، ولكن الذي يقررها هو الدم والحديد » . اي ربح عاتية كان بسمارك بالنسبة الى اوروبا التي افسدتها الاوهام والديمقراطية والمثل العليا السائدة . فقد تمكن في شهور قليلة من فرض سيادته وزعامته على النمسا المتدهورة ، وفي شهور قليلة اخضع فرنسا التي كانت لا تزال تترنح نشوى باسطورة نابليون ، كما اجبر في هذه الشهور القليلة الدويلات الالمانية الصغيرة على دمج نفسها في امبراطورية قوية . لقد كان بسمارك رمزاً لهذه الاخلاق الجديدة التي دعاها نيتشه ، الاوهي اخلاق القوة . لقد احتاجت قوة المانيا العسكرية والصناعية المتزايدة الى صوت يعبر عنها ، كما احتاجت مشيئة الحرب ، و ارادة القتال المتحفزة الى فلسفة لتبريرها ، لأن الديانة المسيحية المسالمة لن تصلح لتبرير هذه الروح العسكرية الحربية المتفاقمة في المانيا الحديثة . ووجدت في الفاسفة الداروينية مبرراً وسنداً في تأييد اتجاهها ، لو اوقبت شيئاً من الجرأة وقد وجدت هذه الجرأة من ينادي بها ، وغداً نيتشه صوت المانيا المعبر عن روحها العسكرية وايمانها بالقوة .

٢ - فترة الشباب

كان والد نيتشه قسيساً ، وكان معظم اجداده من امه وابيه من رجال الدين ، وبقي هو نفسه مبشراً ونذيراً الى النهاية . لقد هاجم المسيحية لان فيه كثيراً من روحها الاخلاقية . وكانت فلسفته محاولة لموازنة المسيحية واصلاحها . كانت امه تقيه ورعة متمسكة باهداب الدين ، من نوع والدة «عمانويل كانت» مع فرق واحد وهو ان نيتشه بقي تقياً ورعاً وطاهراً وعفيفاً الى النهاية ، وهذا هو السبب في هجومه على التقوى والورع والطهارة ، فقد تأقت نفس هذا القديس الورع الى ارتكاب خطيئة .

ولد في روكن في بروسيا في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر عام ١٨٤٤ ، وهو يوم ميلاد فردريك وليام الرابع ملك بروسيا . لقد كان والده مريباً لكثيرين من ابناء الاسرة المالكة ، وقد ابتهج لهذه المصادفة الوطنية السعيدة ، واطلق على ابنه اسم فردريك تيمناً باسم الملك . ويقول نيتشه عن يوم مولده هذا « ان مولدي في هذا اليوم فائدة واحدة ، فقد عمت مظاهر البشر والفرح الناس اجمعين طوال ايام طفولتي » .

لقد توفي ابوه وتركه صغيراً فأشرف على تربيته جماعة من النساء التقيات الصالحات من افراد اسرته . واسرفن في تدليله وملاطفته . الى درجة ارهفت

شعوره واحساسه . فراح يفت ابناء السوء من جيرانه اذا ما سرقوا او كار الطيور وحرموها من فراخها وبيضها ، او اغاروا على البساتين والحدايق وجردوها من ثمارها ، او قاموا بالعب عسكرية خشنة يقلدون فيها الجنود ، او تحدثوا كذباً مما جعل اترابه في المدرسة يطلقون عليه اسم القسيس الصغير . ووصفه احدهم بانه كالمسيح في المعبد . وكان يستمتع في العزلة او يأخذ في قراءة الانجيل لنفسه ، او يقرأه على الآخرين بطريقة مؤثرة . تهن نفوسهم ، وترسل الدموع في مآقيهم . ومع ذلك فقد كان في نفسه كبرياء وفخر ، ومقدرة على كبح عواطفه ، وتملك اعصابه ، وامضى حياته كلها في البحث عن الوسائل الجسدية والعقلية التي تقوي من نفسه وتعزز مثاليته . وكان يسعى الى الفضيلة ايما كانت ليستزيد منها ويقوي نفسه بها .

وعندما بلغ الثامنة عشرة فقد ايمانه في اله آباؤه وامضى بقية حياته في البحث عن اله جديد . واعتقد انه وجدته في السوبرمان (الانسان الاعلى) وقال بعد ذلك انه لم يجد صعوبه في استبدال ذلك اله القديم بهذا اله الجديد . ولكنه كان يمتاز بسهولة خداع نفسه ، واصبح كمن قامر بكل شيء يملكه في حياته على جواد فاشل ، او ورقة يانصيب خاسرة ، وخسر الرهان . فقد كان الدين قلب حياته ولبها ، واصبحت حياته بعد ذلك فراغاً يبابا لا معنى لها . لقد عافت نفسه النساء والخمر والتدخين ، واعتقد بمعجز المدخنين او المقبلين على شرب الجمعة ، عن صفاء الادراك ووضوح الفكر .

وفي عام ١٨٦٥ وقع في يده كتاب شوبنهاور « العالم كإرادة وفكرة » ووجد فيه على حد قوله « مرآة رأيت فيها العالم والحياة وطبيعة نفسي مصورة

في عظمة مخيفة « وذهب بهذا الكتاب الى منزله وراح يقرأ كل كلمة فيه في جوع
ونهم . ويقول « لقد بد لي ان شوبنهاور كان يخاطبني شخصياً ويوجه كلامه لي ،
فقد شعرت بحماسة وخيل لي انه مائلاً امامي . فقد كان كل سطر في هذا
الكتاب ينادي بصوت عال للاستسلام والانكار والتسليم . « لقد اثر لون
فلسفة شوبنهاور الاسود القائم على افكاره تأثيراً دائماً . ولم يقتصر تأثير هذه
الفلسفة على نفسه ايام تحمسه لشوبنهاور واعتباره مريباً ومثقفاً (كما اشار
بذلك في عنوان احدي مقالاته) بل لازمة حتى في الايام التي رفض فيها التشاؤم
كعامل من عوامل الانحطاط والانحلال . فقد بقي تمييزاً في قرارة نفسه ،
ويبدو ان جهازه العصبي كان مرهفاً الى درجة كبيرة جعلته قابلاً للتأثر والالم
ولم يكن لينقذه من شوبنهاور سوى مطالعته لسبينوزا وجوته ، فقد كان
ينقصه صفاء ذهن الحكيم وهدوء التوازن العقلي .

وفي سن الثالثة والعشرين انخرط في سلك الخدمة العسكرية ، وكان يسعده
ان تعفيه الحكومة من الجندية بسبب ضعف في بصره ، ولانه الابن الوحيد لأمه
الأرملة . ولكن الجيش الذي لا يتورع عن تجنيد حتى الفلاسفة اصر على
بقائه . ولكن حدث ان هوى مرة من على ظهر جواده ، واصيب باصابة بالغة
في عضلات صدره ، اضطرت قائد فرقته الى تسريحه والاستغناء عنه . وقد
لازمته هذه الاصابة البالغة طيلة حياته ، ولم تقو الايام على شفائها . لقد كانت
خبرته بالجندية قصيرة جداً ، وترك الجيش حاملاً في رأسه نفس الاوهام التي
حملها عن الجنود والحياة العسكرية عندما التحق في الجيش . لقد استهوته حياة
الجندية واثرت على خياله الحياة العسكرية الاسبرطية ، التي كانت تطبع الجندية
الالمانية وما امتازت به من نظام وطاعة وتحمل وجلد . والآن بعد ان غادر
الجيش واصبح من المتعذر عليه ان يحكم على حياة الجندية حكماً ماصائباً لقصر الفترة

التي امضاها في الجيش ، راح يعبد الحياة العسكرية ويقدمها لان صحته حالت بينه وبينها .

انتقل من حياة الجندي الى نقيضها وهي الحياة العلمية واعد رسالة نال بها اجازة الدكتوراة في الفلسفة . ولما بلغ الخامسة والعشرين عين استاذا في فقه اللغة القديمة في جامعة بال . وراح من ذلك المكان الامين البعيد عن احوال المارك يعلن اكباره ، وتقديره لاعمال بيسارك ، التي اتسمت بالعنف والشدّة واسالة الدماء . واخذ يظهر اسفه لاشتغاله بهذا العمل الذي اقعده عن حياة القتال ، وحال بينه وبين البطولة . وكان يتمنى لو انصرف الى مهنة عملية تتصف بالنشاط كالطب ، وفي الوقت ذاته بدأت الموسيقى تجتذبه . فقد اغرم بالموسيقى الى درجة دفعت الى تعلم العزف على البيان ، وكتب بعض الالحان . ومن اقواله ان الحياة خطأ بغير موسيقى ، ولم يكن (ريتشارد فجنر) الفنان الموسيقي للملهم بعيدا عن مدينة بال التي كان يعيش فيها نيتشه . اذ كان يسكن في مدينة « تريشين » مع زوجة رجل آخر . ودعا ليقضي معه عيد الميلاد عام ١٨٦٩ . واظهر نيتشه حماسا حارا بالفنان العبقرى ومرسقى المستقبل . ووجد فيه فجنر داعية لموسيقاه في الاوساط العلمية في الجامعات . لقد تأثر بسحر الملحن العظيم ، وبدأ يكتب اول كتاب له بدأه بالدراما اليونانية ، ومجد فيه فجنر تمجيذا كبيرا . وانجبه الى جبل الالب ليكتب هذا الكتاب في هدوء بعيدا عن جلبة الحياة وصخبها ، وهناك في عام ١٨٧٠ ، وصلت اخبار اشتعال الحرب بين المانيا وفرنسا .

لقد تردد قليلا ، هل يلي نداء الوطن والواجب ويتطوع في القتال ، ام يبقى في عزله وانصرافه الى الكتابة . ها هي روح اليسوتان وعرائس الشعر والادب ، وآلهات الروايات والقصص والفلسفة والموسيقى قد مدت له يدها المقدسة ، ولكنه لم يستطع مقاومة نداء وطنه ، الذي لا يقل تأثيرا على نفسه من

نداء الشعر . لقد شاهد في فرانكفورت وهو في طريقه الى الحدود فيلقا من الجنود الفرسان يسرون عبر المدينة في موكب عسكري جليل وسط قعمعة السلاح . وهناك ، قفزت الى رأسه فكرة كانت اساسا فيما بعد لفلسفته كلها . « لقد شعرت للمرة الاولى ان اقوى واسمى ارادة للحياة لا تجرد تعبيرها لها في الصراع البائس من اجل البقاء ، ولكن في ارادة الحرب ، ارادة القوة ، ارادة السيادة ! » ولكن ضعف بصره ابعده عن الاشتراك في القتال ، فاكتفى بالقيام باعمال التمريض في الجيش . وعلى الرغم من انه شهد في مهمة التمريض هذه الكثير من الوان الرعب والخوف ، الا انه مع ذلك لم يعرف احوال المعارك الوحشية في ميادينها ، والتي جعلها مثلا اعلى له لقلته خبرته فيها . لقد كان حساسا رقيقا حتى في مهمة التمريض . فقد اثر منظر دماء الجرحى على صحته فوقع مريضا ، وارسل الى بلده محطما مهدما ، ومنذ ذلك الوقت كانت له روح الفتاة مرقدية درع الجندي المحارب .



٣ — نيتشه وفجر

وفي اوائل عام ١٨٧٢ نشر نيتشه اول كتاب له وهو « مولد المساة من روح الموسيقى » لقد وضع هذا الكتاب في اسلوب شعري وجداني غنائي يهي لاينتظر اطلاقا من عالم لغوي . وقد تحدث في هذا الكتاب عن الالهين اللذين كانا موضع تقديس وعبادة الفن اليوناني : واولهما « ديونيسوس » او « باكوس » وهو اله الخمر والمرح ، والحياة الصاعدة والبهجة والسرور في العمل ، والفتنة والعواطف والالهام ، والغريزة والمخاطرة الذي يصبر على الالام ويتحمل المشاق بجرأة وبسالة اله الغناء والرقص والموسيقى والمسرحية ، ثم تحدث عن (ابولو) وهو اله السلام والراحة والسكون ، وفتنة العواطف والتأمل العقلي ، والنظام المنطقي والهدوء الفلسفي ، اله التصوير والنحت والشعر الغنائي . لقد اتحد هذان المثلان الاعليان فابدعا انبل واسمى آيات الفن اليوناني ، اذ امتزج ما في ديونيسوس من قوة الرجولة الفيضة المتبرمة بما في ابولو من جمال الانوثة الوديع الهادي . وكان ديونيسوس يوحى الى الدراما بالموسيقى وكان ابولو يوحى بالحوار .

لقد كان اعتمق ما في معالم الدراما اليونانية هو روح التشاؤم الذي غزا به ديونيسوس اليونان عن طريق الفن ، اذ لم يكن اليونان شعبا متفائلا فرحا كما

يحدثنا عنهم الشعراء الطواقون في ايامنا . فقد قاسوا من الام الحياة ومرارتها واكتووا بنارها ، وادركوا قصر امدها . وعندما سأل ميداس (سيلينوس) عن احسن مصير يواجهه الانسان اجابه بقوله : (انتم يا شعوب هذه الايام ، يا من تستثيرون الشفقة ، يا ابناء الاحداث والاسى ، لماذا تضطرونني الى القول عن احسن مصير لم يسمع به بعد ؟ ان افضل مصير شيء عسير النوال ، وهو الا بولد الانسان وان يكون عدما ، ويتبع هذا في الافضية ان يموت الانسان فتى مبكرا) من الواضح ان هؤلاء اليونان لم يكونوا في حاجة ليتعلموا شيئا عن التشاؤم من شوبنهاور او الهنود . ولكنهم تغلبوا على ظلام احزانهم وخيبة آمالهم ببريق فنيهم . واستمدوا من آلامهم مشاهد مسرحياتهم ، ووجدوا في الفن ملاذا ومبررا لهذا العالم ، وهذه الحياة الحافلة بالمآسي والاحزان . (لان الصفاء والسناء هو التقلب الفني على الخوف والام .) فالتشاؤم علامة الضعف والانحطاط ، والتفاؤل علامة السطحية في التفكير وقصر النظر . اما التفاؤل الحزين او التفاؤل في المأساة ، فهو صفة الرجل القوي الذي ينشد شدة التجربة واتساع مداها ، ولو كان ذلك على حساب ما يواجهه من ويل وهم . ويسعده ان يجد في الكفاح قانون الحياة ، (فالمأساة نفسها دليل على ان اليونانيين لم يكونوا متشائمين) لقد كان العصر الذي انتج الرواية الاخيالوسية والفلسفة السابقة لسقراط من اعظم عصور اليونان .

الى ان جاء سقراط نموذج الرجل النظري ، فكان علامة لتراخي قوة الخلق اليوناني ، وحلت الثقافة العقلية المخدرة محل قوة الجسد والروح الرياضية القديمة . قد ادت هذه الثقافة العقلية الى اضعاف القوى الجسدية والعقلية ، وحلت الفلسفة النقدية محل الشعر الفلسفي الذي اتصف به العصر السابق لسقراط ، وحل العلم محل الفن ، والعقل محل الغريزة ، والحوار والنقاش محل اللعب والرياضة .

وتحول افلاطون الرياضي تحت تأثير تعاليم سقراط الى افلاطون الفنان الذي يتذوق الفن والجمال ، وانقلب افلاطون الكاتب القصصي والمسرحي الى افلاطون المنطقي عدو العاطفة ومطارد الشعراء ، فكان مسيحيا قبل المسيحية وراح يسعى وراء المعرفة والمنطق ، لقد نقش على معبد (دلفي) هاتان العبارتان اللتان تطفحان بالحكمة المجردة عن العاطفة (اعرف نفسك) و (تجنب الافراط في الامور) فتوهم سقراط وافلاطون ان المعرفة والعقل هما الفضيلة الوحيدة / وجاء ارسطو فائبط الهمم بنظرية الوسط الذهبي ، ان الشعوب تنتج الاساطير والشعر في شبابه وفتوتها والفلسفة والمنطق في انحلالها وكهولتها . فقد انجبت اليونان في صباها (هوميروس) و (اسخيلوس) وقدمت لنا في انحطاطها (يوربيدز) الذي يكتب القصة بالمنطق ، ويهدم الاسطورة بالعقل ، ويهدم تفاؤل عصر الرجولة بالعاطفة . وهو صديق سقراط الذي استبدل بموسيقى ديونيسوس حوار ابولو وخطابته .

فلا غرابة اذن ان اطلقت راعية معبد (دافني) على سقراط احكم اليونان واعتبرت يوربيدز احكم اليونان من بعده . ولا غرابة ان جمع (ارستوفان) بغريزته السديدة شعور المقت والكراهية نحو هذين الرجلين ورأى فيهما علامة لانحطاط الثقافة . لقد تراجع هذان الرجلان عن موقفها ، وحاولا اصلاح خطأها ، فوضع يوربيدز اخر قصة له وهي (باخي) التي استسلم فيها الى ديونيسوس وكانت فاتحة لانتحاره . وراح سقراط وهو في سجنه يتغنى بموسيقى ديونيسوس ليخفف من وخز ضميره ، ويسائل نفسه بقوله (ان ما لا افهمه لا يعنى انه غير معقول لاني لم افهمه افلا يجوز ان يكون هنالك عالم الحكمة يتلاشى فيه المنطق ؟ اليس من المحتمل ان يكون الفن ضرورة لازمة ومتممة للعلم ؟) ولكن هذا الاعتراف بالفن جاء متاخرا بعد ان ترك رجال العقل والمنطق هؤلاء

اثراً عميقاً في النفوس . وفسدت الرواية والقصة والاخلاق عند اليونان . لقد كان الشاعر يور بيدز والفيلسوف سقراط خاتمة لعصر الابطال ونهاية لفن ديونيسوس .

ولكن عصر ديونيسوس قد يعود ، الم يحطم « كانت » بضربة واحدة العقل النظري ؟ والانسان النظري ؟ الم يعلمنا شوبنهاور عمق الغريزة ومأساة الفكر ؟ اليس ريتشارد فجنر « اسخيلوس » آخر جاء لاسترجاع الاساطير وتوحيد الموسيقى والمأساة مرة ثانية في نشوة روحية وطرب ديونيسي . لقد تفرغ من جذور ديونيسوس المتأصلة في الروح الالمانية ، قوة لا تشترك مع الثقافة السقراطية في شيء... الا وهي الموسيقى الالمانية ... في فلکها الواسع الفسيح من باخ الى بيتهوفن ، ومن بيتهوفن الى فجنر . لقد تأثرت الروح الالمانية كثيراً بفن ابرو الذي ساد ايطاليا وفرنسا .

وينبغي على الشعب الالمانى ان يدرك ان غرائزه اصدق من هذه الثقافات المنحلة المنحطة . وان يصلح الموسيقى كما اصلح الدين ، وان يصب في الفن والحياة قوة الاصلاح العنيفة الشديدة التي صبها لوثر في السدين . فمن يدري ، عسى ان تتمخض الروح الحربية الالمانية عن عصر آخر من عصور البطولة ، وعسى ان يبرز من روح الموسيقى فجر مأساة جديد .

وفي عام ١٨٧٢ عاد نيتشه الى بال ، وعلى الرغم من انه كان لا يزال يعاني ضعفاً في قواه الجسدية ، فقد كانت روحه مشتعلة بالطموح . لقد عافت نفسه القاء المحاضرات المرهقة ، وخاب امله بنتائج الحرب ، واعتقد ان الامبراطورية الالمانية قد استأصلت الروح الالمانية . وبعد ذلك انتقل الى مهاجمة الجامعات

الالمانية ذات النعرة القومية فهو يقول ، « لقد علمتنا التجارب ان لا شيء يقف في طريق تطور اعظم الفلاسفة اكثر من عادة تأييد اسوأ الفلاسفة في الجامعات ... ولا نجد دولة تقدم على مناصرة فلاسفة مثل افلاطون وشوبنهاور ... لان الدولة تخشى فلسفة هذين الفيلسوفين . » ودعا الى اعادة بناء الاخلاق والدين على اساس نظرية التطور ، وان عمل الحياة لا يتجه الى تحسين حال الاكثرية من الشعب ولكن الى خلق عباقرة ، ورفع اعظم واسمى الرجال . لقد اظهر تحمساً شديداً في احدى مقالاته بالموسيقي الموهوب «ريتشارد اجنر ، الذي وصفه بانه لا يعرف للخوف معنى ، واطلق عليه اسم باعث الفن فالحقيقي ، لانه اول من صهر الفنون في اسلوب فني جميل ، ولكنه لم يلبث ان خاب رجاؤه في فن فجنر . لقد شارك نيتشه افلاطون مخاوفه في ان الفن لا يعلم الرجال الحشونة .



٤ - اغنية زرادشت

اننا الآن نجد نيتشه يلوذ بالعلم ويتحول عن الفن بعد ان خيب الفن امه . ويلجأ ايضاً الى الفلسفة التي وجد فيها مأوى لا يقوى على دخوله احد من الطغاة . وراح يحاول تهدئة عواطفه المضطربة ، فلجأ الى تحليلها وفحصها كما فعل سينوزا ، وكان يقول « اننا نحتاج الى كيمياء من العواطف » وهكذا تحول الى عالم نفساني ، ووضع كتاباً حلل فيه ارق المشاعر واغلى المعتقدات واخذ في تشريحها بقسوة لا تقل عن قسوة الطبيب الجراح . واهدى كتابه هذا الى فولتير وارسل نسخة منه الى فيجنر وكان هذا آخر اتصال بينها .

وفي عام ١٨٧٩ اصيب وهو في زهرة عمره بمرض جسدي وأوشك على الموت . واخذ يعد نفسه للنهاية بطريقة تنطوي على التحدي فقال لاختمه « عديني اذا مت ان لا يقف حول جثاتي الا الاصدقاء، وان لا يدخل الفضوليون من الناس . ولا تدعي قسيساً ينطق بالباطيل والاكاذيب على قبري في وقت لا استطيع فيه الدفاع عن نفسي ، اريد ان ادفن في قبري وثناً شريفاً . » ولكنه استعاد صحته وشفى من مرضه ، وتأجل طبعاً خروج هذه الجنازة البطولية . ونهض من فراش المرض محباً للصحة والشمس والحياة والضحك

والرقص وموسيقى الجنوب . كما خرج من المرض بارادة اقوى بعد ان كافح الموت وانتصر عليه . وشعر بجلاوة الحياة وبهجتها حتى في اشد احزانها ومرارتها . وراح يؤمن بالجبر والقدر مثل سبينوزا ، « ليست العظمة عندي ان تتحمل احكام الضرورة وتصبر عليها بل تحبها » ولكن يا اسفاه ما اسهل القول واصعب العمل .

ثم اصدر كتابين وهما فجر اليوم ، في عام ١٨٨١ و « الحكمة الفرحة » في عام ١٨٨٢ . وامتاز اسلوبه في هذين الكتابين برقة ووداعة عن الكتب التي اصدرها بعد ذلك . امامه الان سنة يتمتع فيها ببهجة الحياة في هدوء ، ويعيش على معاش تقدمه له الجامعة . وهنا وجد نفسه يقع في الحب فجأة . ولكن من احبها لم تبادل له الحب ، لقد كانت عيناه حادتين عميقتين جداً ولا تبعث الراحة . وهنا انطلق نيتشه هائماً على وجهه من مكان الى مكان ، في حالة من اليأس الشديد ، يرسل الحكمة تلوا الحكمة ضد النساء ايناسارواينا محل . والحقيقة انه كان ساذجاً بسيطاً ، ومتحمساً خيالياً ، لطيفاً ورقيقاً الى حد البساطة . وكانت حربه على الرقة محاولة لتعويض الفضيلة ادت به الى وهم مرير وجرح لم يندمل ابداً .

انه الآن لا يجد الوحدة والعزلة التي يريدتها . اذ من الصعب عليه ان يعيش مع الناس ، لان الصمت امر عسير ، فانتقل من ايطاليا الى قمم جبال الالب ، لا يحمل في قلبه حبا لاحد من الرجال او النساء ، وراح يصلي من اجل تفوق الانسان وبعث الانسان الكامل الاعلى .

وهناك على قمم جبال الالب هبط عليه الالهام الذي اوحى له باعظم كتاب له :

جلست هناك انتظر - ولا انتظر شيئا
وانعم بما هو فوق الخير والشر
فانعم بالضوء تارة وبالظل طورا
ولم اجد الا نهارا وبحيرة وظهيرة وزمانا ابديا
وفجأة يا صديقي اصبح الواحد اثنين
ومر بي زرادشت .

وهنا ارتفعت روحه ، وطفح كأسها وفاض ماؤها ، فقد وجد في زرادشت
معلما جديداً وأوها جديداً وهو السورمان والانسان الاعلى كما وجد دينا جديدا
وهو التكرار الابدي . واخذ يعني . لقد امتطت الفلسفة صهوة الشعر بفضل
حرارة الهامه وقوة حماسه . « استطيع ان اغني اغنية وساغنيها على الرغم من
وحدتي وانزالي ، وسأغنيها واردها على مسامعي ، ايها النجم العظيم الساطع ،
ما عسى ان تكون سعادتك لو لم ينعم العالم بضيائك ... ها ، لقد اعيتني
حكمتي ، واصبحت كالنحلة التي جمعت من العسل كثيرا ، اني بحاجة الى ايد
لجمعه . وهكذا كتب كتابه « هكذا تكلم زرادشت » في عام ١٨٨٣ .

لقد كان هذا الكتاب آية في الابداع ، وقد عرف نيتشه ذلك فقال ، ان هذا
الكتاب درة وحيدة يعجز عن الاتيان بمثله الشعراء ، ولا شيء يساويه في سحر
الفاظه وعمق افكاره . ولو جمعنا كل ما شاهده العالم من خير وروح في اعظم
الرجال ، لما استطاعوا جميعهم ان يأتوا بمحدث واحد من احاديث زرادشت .
يا لها من مبالغة بسيطة ! ولكنه بلا ريب من اعظم الكتب التي انتجها القرن
التاسع عشر . ومع ذلك فقد وجد نيتشه صعوبة في طبعه . فقد ارجيء نشر
الجزء الاول منه بسبب انشغال مطابع الناشر في طبع نصف مليون نسخة

من كتاب تسابيح دينية ، تبعتها سيل من النشرات ضد السامية . هذا كما رفض الناشر طبع الجزء الأخير من الكتاب رفضاً باتاً ، لعدم صلاحيته من الناحية التجارية ، وقد اضطر هذا نيتشه ان يطبع كتابه على نفقته الخاصة . وباع من الكتاب اربعين نسخة فقط ، واهدى منه سبعا ، واعترف به واحد فقط ، ولم يدعه او يطري عليه احد ، لانجد انسانا عانى من الوحدة مثل نيتشه .

واليك موجزا عن هذا الكتاب :

ينزل زرادشت وهو في الثلاثين من عمره من جبله الذي آوي اليه واعتكف فيه ، سابجا في تأملاته وفكره ، ليعظ الجماهير ويرشدها سواء السبيل ، اسوة بشيخه الفارسي « زرادشت » ولكن الجماهير تحولت عنه لانشغاله بمشاهدة رجل يرقص على الجبل . ولا يلبث هذا الراقص على الجبل ان يسقط من على الجبل ويموت ، فيحمله زرادشت على كتفيه ويذهب به بعيدا ، ويناجيه بقوله ايها الراقص على الجبل ، سادفك بيدي ، لان حياتك كانت حافلة بالاعطال . وانا ادعو الى حياة المخاطرة واقدر البطولة واقول « عش في خطر ، وشيد مدنك قرب بركان فيزوف ، وارسل سفنك لاكتشاف البحار المجهولة وعش في حرب دائمة . »

ولكن تذكر ان تكفر بالديانات جميعها . ويقابل زرادشت وهو هابط من الجبل ناسكا هرما اخذ يحدته عن الله ، وانزوى زرادشت وراح يخاطب نفسه بقوله : « هل يمكن ان يكون ما قاله الناسك حقا ؟ يبدو ان هذا الناسك المسن لم يسمع بعد وهو في غابته ان الله قد مات ! » ولكن الله قد مات حتما وماتت جميع الآلهة .

لقد انتهت حياة الالهة منذ عهد بعيد ، حقا لقد نت نهاية طيبة ومرحة كما
لهؤلاء الالهة !

لم يترشوا في موتهم في السحر ، كما تخبرنا تلك الاكذوبة ، وعلى النقيض فقد
اضحكوا انفسهم حتى الموت !

وقام الهه فالقى كلمة ابعد ما تكون عن صفات الالهية اذ قال : « لاله الا
الله ولا الهة من قبلي »

وضحك الالهة جميعا حتى اهتزوا على عروشهم وصاحوا « اليس من الدين
ان يكون هنالك الهة عدة ؟ » فليسمع كل من له آذان . هكذا تكلم
زرادشت .

اي الحاد طافح بالبشر والفرح هذا ؟ اليس من التقوى ان لا يكون هنالك
آلهة ؟ وماذا عسى ان يخلق لو كان هنالك الهة ؟ اذ لو كان هنالك الهة كيف
اطبق الا اكون الها ؟ لذلك لا وجود للآلهة . اي انسان اشد كفرا والحادا
مني لسكي امتع النفس بتعاليمه ؟

« اتاشدكم يا اخواني واستحلفكم ان تبقوا على اخلاصكم وولائكم لهذه الارض ،
والا تصدقوا اولئك الذين يحدونكم عن الامال السهاوية ، انهم ينقشون فيكم
السموم ، سواء علموا بذلك ام لم يعلموا . »

هل هذه وقاحة ؟ ولكن زرادشت يشكو من انه لم يعد بين الناس من يعرف
التوقير والتبجيل . ويعتبر نفسه اتقى من لا يعتقدون في الله . وبعدئذ يعلن عن
اسم الاله الجديد .

« لقد ماتت جميع الالهة ، ونزيد الان ان يعيش السوريمات » الانسان
الاعلى «

انني اعلمكم عن الانسان الاعلى سينحدر من الانسان من يفوقه ويسمو عليه
فماذا فعلتم لتفوقوا على الانسان وتسموا عليه؟ ان اعظم ما في الانسان انه جسر لا
هدف ، وما يحب في الانسان انه انتقال وتدمير . انني احب اولئك الذين
لا يعرفون الحياة الا بالموت ، فهؤلاء هم الذين يتسامون .

احب المستهينين بالحياة ، والمستخفين بالموت ، لانهم اعظم المتدينين
والصالحين . فهم سهام تتوق الى بلوغ حياة افضل . احب الذين يضعون
بجياتهم من اجل هذه الارض التي نعيش عليها ، لا من اجل ما وراء النجوم .
لكي تصبح الارض يوما مسكن الانسان الاعلى .

لقد حان للانسان ان يعرف هدفة ، لقد آن للانسان ان يبذر بذور اسمي
آماله وغايته . اخبروني يا اخواني اليس الانسان ناقصة اذا كان ينقصها
الهدف ؟ ...

يبدو ان نيتشه قد تنبأ بأن كل قارئ سيظن نفسه بأنه الانسان الاعلى ،
فأعلن بأن الانسان الأعلى لم يولد بعد ، واننا لسنا الا جذوره وترتيبه . «لا ترغب
في شيء فوق طاقتك ... ولا تكن فاضلا فوق قدرتك ، ولا تطلب من نفسك
شيئا فوق احتمالك .» ليست لنا السعادة التي لا يعرفها سوى الانسان الاعلى . ان
اسمي هدف لنا هو العمل . لقد توقفت منذ مدة طويلة عن الكفاح من اجل
سعادتي ، وانا الان اكافح من اجل عملي .

ولم يقنع نيتشه في خلق اله في صورة نفسه بل اراد ان يكتب الخلود
لنفسه فقال . سيعود كل شيء في هذه الحياة بالتفصيل الدقيق مرة بعد مرة ،
ومرات لانهاية لها ، حتى نيتشه سيعود وستعود المانيا ذات الدم والحديد
والحرب ، والنار والرماد . كما ستعود كل جهود العقل البشري منذ بدأ في

ازمنة الجهل الى « زرادشت » انه لمبدأ مخيف ولكن كيف يمكن الا يكون كذلك ؟ ان اشكال الحقيقة محدودة ، ولكن الزمان لا نهائي غير محدود ، ولا بد ان تجتمع الحياة والمادة يوماً على صورة سبق لها ان اجتماعهما ، وهكذا سيعيد التاريخ نفسه مرة ثانية ، وسيبدأ كما بدأ ، وينتهي كما انتهى . ولا عجب ان يشعر « زرادشت » بالخوف ويتوقف عن الحديث عندما وصل في حديثه الى درسه الأخير هذا ، الى ان سمع صوتاً يناديه « ما بك بازرادشت ؟ قل كمتك وحطم نفسك إلى شظايا .

٥ - اخلاق البطل

لقد اتخذ نيتشه من صكتابه زرادشت انجيلا له في حياته ، ولم تكن كتبه التالية الا تعليقا عليه . واذا كانت اوروبا لم تقدر شعره حق قدره فانها قد تقدر نثره .

انه الان وحيد اكثر من اي وقت مضى . فقد بدا كتابه هذا شاذا ومريبا في نظر اصدقائه ، وناح عليه زملاؤه العلماء في جامعة بال الذين اظهروا تقديرهم واعجابهم بكتابه السابق ، « مولد المأساة » وبكوا فيه عالما لغويا لامعا ، وشاعرا فاشلا . وتركته اخته فجأة وتزوجت من رجل لا يحبه نيتشه ، وسافرت الى باراغواي لإقامة مستعمرة اشتراكية . وطلبت من اخيها العليل الشاحب ان يرافقها رحمة بصحته ، ولكنه آثر حياة العقل على صحة البدن . ورغب في البقاء وسط المعركة الفكرية ، فقد كانت اوروبا بالنسبة له « متحفا ثقافيا » وراح يطوف في أنحاء اوروبا متنقلا من سويسرا الى البندقية وجنوا ونيس وتورين . وكان يحلو له الكتابة بين اسراب الحمام التي كانت تتجمع قرب تماثيل الاسود في قيصرية سانت مارك . واعتاد ان يقول « ان هذا المكان هو غرفة عملي المفضلة . » ولكن تعرضه لوهج الشمس اضر بعينه المريضتين . فأغلق على نفسه

باب غرفة باردة في طابق علوي واحكم ستائرهما : واقعه ضعف بصره عن تأليف الكتب واكتفى بكتابة الحكم الاخلاقية .

وجمع هذه الحكم والمبادئ في كتابين اولهما تحت عنوان « ما فوق الحسير والشر » عام (١٨٨٦) وثانيهما « تاريخ تسلسل الاخلاق » عام (١٨٨٧) وكان يرجو في هذين الكتابين تدمير الاخلاق القديمة ، وتمهيد الطريق لاخلاق الانسان الاعلى . ولفترة من الوقت عاد في بحثه عالما لغويا . و اراد ان يدعم مبادئه الاخلاقية بمشتقات لغوية . فيقول ان في اللغة الالمانية كلمتين بمعنى سيء . احدهما تستعملها الطبقة العليا في حديثها عن الطبقة السفلى ومعناها عادي او عامي ، وتحولت هذه الكلمة بعد ذلك فاصبحت تستخدم بمعنى كلمة ، سوقي ، نافه سيء . اما الكلمة الاخرى فقد كانت تطلقها الطبقة السفلى على الطبقة العليا ومعناها ، غير مألوف غير عادي او خطير ، او مضر ، فقد كان نابليون سيئا على هذا المعنى ، كما ان كلمة حسن لها معنيان ايضا يقابلان كلمتي سيء . تستخدم الطبقة الارستقراطية هذه الكلمة بمعنى قوي ، وشجاع جبار محارب او الهى . اما بقية الشعب فيستعمل هذه الكلمة بمعنى مسالم ، غير مضر او لطيف .

اذن هناك تقديران متناقضان للسلوك الانساني ، أو وجهتان للنظر في الاخلاق : اخلاق السادة ، و اخلاق الطبقات العامة . لقد كانت الفضيلة بالنسبة الى الروماني العادي ، تعني الرجولة والشجاعة والاقدام والجرأة . اما الاخلاق الثانية فقد جاءت من آسيا وخاصة من اليهود ايام خضوعهم السياسي . لأن الخضوع يولد الذل والضعف ، والعجز ينتج طلب المساعدة من الغير . وهكذا اجتاحت اخلاق الضعف والسلام والأمن وهي اخلاق الطبقات الضعيفة المحكومة

والمستعبدة والمغلوبة على امرها ، اخلاق الاسباد وهي حب المخاطرة والقوة .
وحل المكر محل القوة ، وحل الغدر محل الثأر ، والشفقة محل العنف ، والتقليد
محل الابتكار ، وصوت الضمير محل الكبرياء والشرف . ان الشرف وثني روماني
واقطاعي ارستقراطي . اما الضمير فيهودي مسيحي بورجوازي ديمقراطي .
ان فصاحة الانبياء هي التي جعلت من اخلاق الطبقات المحكومة الضعيفة
مقياسا للاخلاق العامة ، واصبحت الدنيا والجسد عنوانا للشر ، واضحى الفقر
برهانا على الفضيلة .

لقد بلغ هذا التقدير او المقياس الاخلاقي ذروته في تعاليم المسيح الذي نادى
بالمساواة بين الناس في الاقدار والحقوق . وتفرعت عن تعاليمه ومبادئه المبادئ
الديمقراطية والاشتراكية . واصبحت هذه الفلسفات العامة الشعبية مقياسا
وتعريفا لكل تقدم ، ورمزاً لكل مساواة . والواقع ان الحياة التي تقوم على
مثل هذه المبادئ الشعبية هي حياة في طريق الانحلال والانحدار . ان آخر
مرحلة لهذا الانحلال والانحدار هي تمجيد الشفقة ، وتعميم التضحية بالنفس ،
والشعور بالمعطف على المجرمين . ان المعطف امر مشروع اذا كان فعلا ، اما
الشفقة فهي ضرب من الشلل العقلي ، ومضيفة للشعور في اصلاح من لا يرجو
اصلاحهم من المعجزة والمشوهين والاشرار والمرضى والمجرمين هذا بالاضافة الى
ما تنطوي عليه الشفقة من السهافة وقلة الادب . ان زيارتنا للمرضى هي نزعة
استعلاء منا نحو هؤلاء المرضى العاجزين .

ان الاخلاق هي ارادة القوة . والحب ذاته رغبة في التملك . ومطارحة
الغرام معركة ، والزواج سيادة . لقد قتل « دون جو » حبيبته « كارمن »
ليحول بينها وبين رجل آخر يريد امتلاكها . يظن الناس تجردهم عن الانانية في

الحب عندما يساعدون شخصا ، وقد تتنافى هذه المساعدة مع منافعهم ، ولكنهم بمساعدتهم له يريدون امتلاكه . وحتى حب الحقيقة ليس الرغبة في امتلاكها . على امل ان يكون الباحث عنها اول مالك لها ، بأن يجدها عذراء لم يسبقه احد في الاستمتاع بها .

ان العقل والاخلاق عاجزان امام ارادة القوة هذه . وهما سلاحان في يدها . « والنظم الفلسفية ليست الا سرايا خادعا . » وما نراه ليس الحقيقة المنشودة التي طال بحثنا ولكنه انعكاس لرغباتنا ليس الا . هذه الرغبات الداخلية ، هذه النبضات لارادة القوة ، هي التي تقرر افكارنا « يستمر الشطر الاعظم من نشاطنا العقلي بطريقة لا شعورية لانشر بها . . كما ان التفكير الشعوري هو اضعف التفكير . » وذلك لان الغريزة وهي العملية المباشرة لارادة القوة ، لايزعجها الادراك الشعوري ، والغريزة هي اعظم انواع الذكاء الذي عرفه الانسان حتى الان . « لقد بالغ الانسان في تقدير الادراك العقلي ، وليس الادراك سوى عملية ثانوية لا اهمية لها ولا لزوم .

قلما يحاول اقوياء الرجال اخفاء رغباتهم وراء ستار من العقل . ونقاشهم بسيط وهو « انا اريد . » والرغبة تبرر نفسها في النفوس القوية السليمة ذات السيادة والسيطرة التي لا تبعد فيها الضمير والشفقة والندم منفذا ليدخلها . ولكن بعد ان سادت الاخلاق اليهودية المسيحية الديمقراطية في الازمنة الحديثة ، اصبح الاقوياء يخجلون من قوتهم وصحتهم ، وراحوا يتلمسون الاسباب لما يبتغون . ان الفضائل والقيم الارستقراطية آخذة في الانطفاء والاختفاء ، واوروبا يهددها غزو بوذي جديد . ولم ينج « شوبنهاور » « وفجتر » من هذه المسيحية البوذية واصبحا بوذيين شفوقين . ووضحت اخلاق اوروبا كلها وقيمها

قائمة على اساس منفعة الطبقة العامة في الشعب . ولم يسمح للاقوياء باستخدام قوتهم ، للنزول بهم الى مستوى الضعفاء . واصبح الخير « الا » نفعل شيئا لانقوى على فعله .

الم يدع « كانت » ذلك الصيني العظيم من كونسبرج ، الى عدم استخدام لناس كغايات ؟ ويترتب على ذلك ان الغرائز في الاقوياء كغريزة الصيد والقتال والغزو والفتح والحكم والسيطرة تتحول الى صراع داخلي لعدم وجود مخرج لها . ويؤدي هذا الى التقشف للعين او الضمير السيء . اذ ان جميع الغرائز التي لا تجد منفذا لها الى الخارج تتحول الى الداخل .

ان فضائل الطبقات السفلى من الشعب (عامة الشعب) لو انتقلت عدواها الى الزعماء والقادة الاقوياء ، وحولتهم الى طينة عامة الشعب لكان ذلك بدء الانحلال والفساد . لذلك ينبغي قبل كل شيء ان نازم مبادئ الاخلاق على الانحناء امام تدرج المراتب واختلاف الطبقات . ويجب على عامة الشعب ان تفهم تماما انه مما يتنافى الاخلاق ان نقول ، ان ما يحق للفرد يحق للفرد الاخر ، لان اختلاف الاعمال يقتضي اختلافات في الصفات . والفضائل الشريرة التي يتميز بها الاقوياء ضرورية للمجتمع كالفضائل الخيرة التي يتصف بها الضعفاء . فالقسوة والعنف والخطر والحرب لها قيمتها كاللطف والشفقة والسلام . واعظم الرجال لا يظهرون الا في اوقات الخطر والعنف والشدة والقسوة التي تستدعيها ضرورة الموقف . واعظم ما في الانسان هو قوة الارادة وثبات العاطفة ، اذ بدون العاطفة يكون الانسان مائعا وحليبا لا يصلح للعمل . كما ان الشره والحسد وحتى الكراهية امور لا بد منها في

الكفاح واختيار الأفضل وبقاء الاصلح : والشر من الخير بمثابة الابتكار من العرف . من المستحيل ان يتقدم الشعب ويتطور الا اذا حطم العرف واخترق التقاليد القديمة والنظم الجامدة . ولو لم يكن في الشر خير لاختمى وزال من الوجود . فحذار من الاسراف في الخير . وعلى الانسان ان يزيد في خيره وشره .

يعتقد نيتشه بأن الحياة طافحة بالشرور والقسوة ، وان الانسان القديم كان يشعر بنشوة كبرى وفرحة عظيمة بارتكاب اشد اعمال البطش والقسوة . ويعتقد بأن الانسان اشد الحيوانات قسوة ، ويشعر بسعادة كبرى لا يضاهيها شيء من السعادة عندما يشاهد منظر صراع الثيران واعمال الصلب وغيرها من المآسي والمناظر المؤلمة . وعندما اخترع الانسان فكرة عذاب جهنم . اراد ان يعزي نفسه بفكرة تعذيب اعدائه ومضطهديه وظالمية في الحياة الاخرى .

يجب ان نحكم على الاشياء بقدر قيمتها للحياة ، ونحتاج الى تفسير نفساني لجميع القيم . والمقياس الحقيقي لاختبار الفرد او الجماعة او الجنس هو الحيوية والمقدرة والقوة . واللاطعمة المختلفة اثار عقلية مختلفة . فالديانة البوذية وليدة الارز والميتافيزيقا الالمانية نتيجة لشرب الجعة . والفلسفة تكون صحيحة او باطلة تبعا لتعبيرها عن حياة صاعدة او حياة هابطة .

يقول الضعيف فاطر الهمة ، « ان الحياة لا تساوي شيئا » وخير له ان يقول ، « انني لا اساوي شيئا . » لقد فقدت الحياة قيمتها عندما

تخلينا عن اخلاق البطولة ، واخذنا بمبادئ المساواة الديمقراطية التي تكفر
بمعظم الرجال .

ان الاوروبي العامي في ايماننا هذه يجد ويمظم صفاته الضعيفة ، كالرقة
والمساواة والاعتدال والشفقة ، وانه لطيف وصبور ونافع للمجتمع . ويعتقد
ان هذه الصفات من مميزات الانسانية .

* * *

٦- السوبرمان «الانسان الاعلى»

وبما ان القوة وحدها وليست الشفقة هي الاساس للاخلاق ، لذلك ينبغي على الانسانية الاتجه يجهودها الى رفع طبقة العوام والاكثرية من الشعب ، ولكن الى النهوض بأقوى وافضل الافراد في الشعب . « وان يكون هدف الانسانية هو الانسان الاعلى وليس الجنس البشري بأسره . » وآخر ما ينبغي للعقلاء المفكرين ان يتصدوا له هو تحسين الانسانية واصلاحها . اذ لا صلاح للانسانية ، بل ليس للانسانية وجود على الاطلاق . وهي لفظ مجرد فقط ، وكما هو موجود هو مجموعة افراد اشبه شيء بمصنع كبير تجري فيه التجارب الكثيرة التي لاينجح منها الا القليل . وليس المقصود من التجارب سعادة الجماهير بل تحسين النوع . والافضل على المجتمع ان يفنى اذا لم يعمل على بعث انسان اسمى . المجتمع اداة لرفع قوة الفرد وشخصيته ، والجماعة ليست غاية في حد ذاتها .

يبدو من حديث نيتشه اولاً بأنه كان يروج بعث نوع جديد من الانسان ، ولكنه اخذ يفكر بعد ذلك في ان الانسان الاعلى فرد متفوق يرتفع بشجاعته من وسط الشعب بفضل تربيته القوية لا بفضل الانتخاب الطبيعي . لذلك يجب

علينا اذا اردنا ان نخلق الانسان الاعلى ان نشرف على التربية ولا ندع الامر فوضى في يد الانتخاب الطبيعي ، لان طبيعة الحياة تعارض افضال الرجال . والطبيعة اقسى ما تكون على افضل افرادها . انها تميل الى الفرد المتوسط العادي وتعمل على حمايته ، وفي الطبيعة ميل دائم الى الهبوط بافضال الرجال الى مستوى عامة الشعب واخضاعهم لهم . فهي تنتصر دائما للكثرة على الصفاة الممتازة ، اذن لا أمل في ان تختار لنا هذه الطبيعة الانسان الاعلى ، وعلينا اختيار الانسان الاعلى عن طريق وسائل تحسين النسل والتعليم الذي يرفع من قيم الرجال واقدارهم .

من السخافة ان نسمح لافضل الرجال الزواج عن طريق الحب ، بأن يتزوج الابطال من الخادومات ، والعباقرة من الخياطات . ونساء الازياء . لقد كان شوبنهاور على خطأ ، حين ظن ان الحب عامل من عوامل تحسين النسل . وعندما يقع الانسان في الحب ينبغي ان لا نسمح له باتخاذ قرارات تؤثر على مجرى حياته كلها . فالحب يعمي البصيرة ويفقد الحكمة . وان لا نسمح بزواج يقوم على الحب . وان يتزوج خير الرجال من خير النساء . اما الحب فلنتركه لحثالة الرجال . اذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل ، بل يجب ان يكون ايضا وسيلة للتطور والرفق .

ان النبل مستحيل بغير حسن المولد ، والعقل وحده لا يؤدي الى النبل ، بل العكس هو الاصح ، فالعقل يحتاج الى ما يشرفه ويرفع قدره ، ماذا نريد اذن ؟ نريد الدم .. (سلامة المنصر) وبعد توفير حسن المولد وتحسين النسل ، تكون الخطوة الثانية لصياغة الانسان الاعلى ، مدرسة عنيفة قاسية تستهدف

الأخذ بيد التلاميذ نحو الكمال ، حيث يتدربون على تحمل المسؤوليات الجسيمة ، دون ان ينعموا بكثير من اسباب الراحة . بتدريب الاجسام على تحمل الآلام في صمت ، وتدريب الارادة على اطاعة الاوامر ومهام القيادة . وان تبعد هذه المدرسة في نظامها عن التساهل والحرية التي تضعف القوة الجسدية والخلقية . ولكن ينبغي ان تفسح هذه المدرسة المجال امام التلاميذ ليتعلموا ويضحكوا من صميم قلوبهم ، ويجب ان يقوم تخريج الفلاسفة من هذه المدرسة على اساس مقدرتهم على الضحك . فمن يبلغ ذروة القوة يضحك من مآسي الحياة . كما يجب ان يخلو تعليم الانسان الكامل في هذه المدرسة من التطرف في الاخلاق كاللثقف والزهد واحتقار الجسد .

يمثل هذا المولد وهذه التربية يرتفع الانسان فوق الخير والشر . ولا يتردد في اللجوء الى العنف والقسوة في سبيل الوصول الى غاية . بحيث يكون شجاعا لا صالحا او خيرا . « ما هو الخير ؟ ... الخير هو الشجاعة » ، « ما هو الخير ؟ هو كل ما يزيد الشعور بالقوة ، هو ارادة القوة ، هو القوة نفسها في الانسان . وما هو الشر ، الشر هو كل ما ينشأ عن الضعف . » قد يكون اميز ما يميز الانسان الاعلى هو حبه للمخاطرة والكفاح ، شريطة ان يكون لها هدف . ولا يجوز له ان يسعى الى السلام اولا ، وسيترك السعادة الى عامة الناس . لقد احب (زرادشت) الرحلات البعيدة التي تمتاز بالمخاطرة والمغامرة ، وكان يكره ان يعيش بعيدا عن الاخطار . لذلك كل الحروب خير على الرغم من حقارة اسبابها في الازمنة الحديثة . وحتى الثورة خير ، ولكنها ليست خيرا في حد ذاتها ، لانها تؤدي الى سيادة الجماهير وعامة الشعب وهو اسوأ انواع الحكم . ولكن الثورة كفاح ، والكفاح يبرز العظمة الكامنة في الرجال ، التي لم تصادف

من قبل فرصة او حافزا للظهور . ومن بين الفوضى يبرز اعظم الرجال كالنجوم اللامعة الراقصة ، كما يبرز نابليون من بين انقراض وفوضى الثورة الفرنسية . وكما خرج من فوضى عهد النهضة والعنف الذي رافقها شخصيات عظيمة قوية لم تشاهدها اوروبا ابدا . الحيوية والعقل وعزة النفس هي التي تصنع الانسان الاعلى ، ولكن ينبغي ايجاد الانسجام بينها . ولن تصبح المواطف قوة دافعة الا اذا وحد بينها هدف عظيم يصوغ شتات الرغبات في شخصية قوية . ويل للمفكر الذي يكون ارضا لافسكاره لا باستانبا منظما ومشذبا لها .

ان من ينساق لمواطفه وغرائزه هو الضعيف الذي تنقصه قوة الكبت والكبح ، والذي ليس لديه من القوة ليقول (لا) اذا استدعى الامر الى قولها . لانه انسان متنافر منحط . ان اعظم الامور هو تنظيم الانسان لنفسه ، (والانسان الذي لا يريد ان يكون فردا عاديا من عامة الشعب ينبغي الا يكون متساهلا مع نفسه .) وان يتخذ لنفسه هدفا كبيرا شاقا على الآخرين ، وان يسلك في سبيل الوصول الى هدفه هذا كل طريق خلا خيانة الاصدقاء . هذا هو الهدف الاسمى لبلوغ النبل والوصول الى مرتبة الانسان الاعلى .

لن نحب الحياة ونسويها الا اذا جعلنا من هذا الانسان هدفا لنا ومكافأة لاتعابنا . وان نبعد عن هدف يوحد بيننا ، ويؤلف بين قلوبنا ، ويربطها بالهبة . ولنكن عظماء او خدما وادوات للعظماء . يا له من منظر رائع عندما قدم الملايين من الاوروبيين انفسهم لنابليون بونابرت ، من اجل تحقيق اهدافه وغاياته ، لقد ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر له وراحوا يتغنون

اسمه وهم يسقطون في ميدان المعركة . قد يتحول العقلاء منا الى الدعوة
والتبشير لهذا الانسان الاعلى وتهيئ الطريق لهيئه . وان نتعاون جميعا على
اختلاف اوطاننا وازماننا لبلوغ هذه الغاية . ولن يسع (زرادشت) الا ان
ينشد ويفني على الرغم من آلامه لو سمع اصوات هؤلاء المحبين للانسان الاعلى
منشدا لهم . (انتم يا من تعيشون وحدكم اليوم وتقفون جانبا ستصبحون
شعبا في يوم من الايام ، ومنكم يا من اخترتم انفسكم سينهض شعب مختار
يخرج منه الانسان الاعلى .)

٧ _ الانحطاط

بناء على ما تقدم تكون الطريق الى الانسان الاعلى هي الارستقراطية ،
اما الديمقراطية وهي سخافة حكم الاكثية والعدد فيجب استئصالها والقضاء
عليها قبل فوات الفرصة وتأخر الوقت . واول خطوة لتحقيق ذلك هي تحطيم
المسيحية . فقد كان انتصار المسيح بدء الديمقراطية « لقد كان المسيحي الاول
في اعماق نفسه نائرا على كل ضروب الامتياز . فقد عاش وكافح في سبيل
المساواة بين الناس في الحقوق . » ولو عاش هذا المسيحي الاول في يومنا هذا
لقضي عليه بالنفى والابغاد الى سيبيريا ، اليس هو القائل « سيد القوم خادمهم » .
ان هذا قلب للحكمة السياسية والعقل السليم . والواقع ان من يقرأ هذا
الانجيل يشعر بأنه يقرأ كتابا روسيا ، وان ما جاء فيه من آراء لا يمكن
ان تتأصل وترسل جذورها الا في الطبقات السفلى وفي عصر انحط فيه الحكام
وعجزوا عن الحكم . وعندما يتربع العبد على عرش الحكم ينشأ التناقض
ويصبح احقر الناس افضلهم .

وكما ادى غزو المسيحية لاوروبا الى القضاء على الارستقراطية القديمة ، فقد
اى كذلك غزو النبلاء التيتون المحاربين الى احياء الفضائل والرجولة القديمة .

وغرسوا في ارضها جذور الطبقات الارستقراطية الحديثة . لم يكن هؤلاء النبلاء مثقلين « بالاخلاق » بل كانوا احراراً من جميع القيود الاجتماعية . هؤلاء هم الرجال الذين كونوا الطبقات الحاكمة في المانيا واسكندناوا وفرنسا والمجلترا وابطاليا وروسيا .

لا صحة لما يقال من ان الدول نشأت بتعاقد الافراد فيما بينهم ، ولكن الذي انشأ الدول جبايرة من الغزاة العتاة والسادة الاقوياء ، من ذوي المقدرة الحربية والتنظيم العسكري . الذين انشبووا بمخالبهم الخفية في سكان بلاد تفوقهم عددا . اذ ما قيمة العقود مع من خلق بطبعه ليكون قائداً وسيدا وعنيفاً قويا ؟

ولكن هذه الفئة الحاكمة افسدتها الفضائل الكاثوليكية المخنثة الضعيفة اولا ، والمبادئ الشعبية العامة الناجمة عن الاصلاح الديني ثانيا ، والتزواج مع الطبقات السفلى ثالثا .

لقد افسدت البروتستانتية وشرب الجمعة الذكاء الالمانى ، هذا بالإضافة الى الاوبرا الفجائية التي ساهمت ايضا في افساد ذكاء الالمان . ونتيجة لذلك اصبحت بروسيا الالمانية اليوم الد اعداء الثقافة . لاشك ان هذه الحالة الحاضرة في المانيا تقف عقبة امام تفهم الشعب لفلسفتي . فاذا كان الزمن الطويل وحده هو القادر على فناء العالم كما يقول « جون » فان الزمن الطويل وحده سيقضي على الفكرة الباطلة التي تسود المانيا . لقد كانت هزيمة المانيا لنابليون نكبة على الثقافة كهزيمة لوثر للكنيسة . فقد اخذت المانيا منذ ذلك الوقت تنصرف عن نوابغ رجالها امثال (جوته) (وشوبنهاور) وبيتهوفن) وراحت تعبد رجال

الوطنية ، واخشى ان يكون هذا خاتمة للفلسفة الالمانية . ومع ذلك فان الشعب الالماني يمتاز بطبيعة رزينة وعمق يبعث الامل في ان تنهض المانيا يوما لتخليص العالم وانقاذه . اذ ان في الشعب الالماني من فضائل الرجولة اكثر مما في الشعب الفرنسي او الانجليزي . هذا بالاضافة الى اقصاف الالمان بالمثابرة والصبر والجد - مما ادى الى تبجرهم في العلم والى نظامهم العسكري . ومن الممتع ان نشاهد اوروباً كلها قلقه من قوة الجيش الالماني . ولو امكن ايجاد تعاون بين قوة المانيا التنظيمية ومصادر الثروة والرجال في روسيا لبزغ فجر عصر سياسي عظيم . اننا في حاجة الى الدمج بين الجنسين الالماني والسلافي ، كما اننا بحاجة الى براعة اليهودي المالية ، وبذلك قد نتمكن من سيادة العالم . اننا بحاجة الى اتحاد غير مقرون بشروط مع روسيا وبغير ذلك سينتهي بنا الامر الى التطويق والاختناق . ان مشكلة المانيا ناجمة عن بلادة في التفكير . وتنقصها الثقافة العميقة التي جعلت من الفرنسيين اكثر الشعوب الاوروبية صفاء في الفكر والذكاء . انا لا اؤمن الا بالثقافة الفرنسية ، واعتبر كل ثقافة اوروبية اخرى بجانب الثقافة الفرنسية كلاماً فارغاً . وعندما يقرأ الانسان كتب فرنسيين من امثال (مونتيني) و (لارشفوكو) و (شامفورت) يشعر الروح القديمة اكثر من قراءة اية جماعة اخرى من كتساب الشعوب لآخرى . واعتبر (فولتير) سيد العقل العظيم و (تين) اول المؤرخين لمعاصرين . كما ان الكتاب الحديثين منهم من امثال (فلوير) و (بورجيه) . (اناطول فرانس) يفوقون غيرهم من الكتاب الاوروبيين في وضوح الفكرة واللغة .

د اي وضوح وصفاء ودقة تميز هؤلاء الكتاب الفرنسيين ! ان ما نجده في

اوروبا من سمو في الذوق ونبل في الشعور والاخلاق هو من صنع فرنسا ، اعني فرنسا القديمة التي ازدهرت في القرنين السادس والسابع عشر . وعندما حطمت الثورة الفرنسية الطبقة الارستقراطية حطمت معها دعائم الثقافة ، وغدت الروح الفرنسية الان هزيلة شاحبة بالمقارنة مع ما كانت عليه سابقا . ومع ذلك فلا تزال في فرنسا بعض الصفات الحميدة ، فلها دقة في الابحاث الفنية والنفسانية لاتضاهيها فيها المانيا ... وفي الوقت الذي نهضت فيه المانيا كدولة عظمى في عالم السياسة فازت فرنسا اهمية جديدة في عالم الثقافة .

اما روسيا فهي وحش اوروبا الاشقر ... ويمتاز شعبها بعناد وايمان بالقضاء والقدر تميزه عن الشعوب الغربية . وتحكم روسيا حكومة قوية لاتعرف هذه « الغباوة البرلمانية » وقد اجتمعت وتركزت فيها قوة الارادة منذ مدة طويلة ، وهي الان تهدد لايجاد منفذ لها . ولن يكون عجيبا اذا وجدنا روسيا تبسط سلطانها وتصبح سيدة لاوروبا . ولا يسع الفكر الذي يهتم بمستقبل اوروبا ان يسقط من حسابه اليهود والروس كعناصر فعالة في صراع القوى ، كما ان الايطاليين هم اجمل الشعوب الاوروبية المعاصرة واشدها عنفا ، اذ ان الانسان ينمو قويا شديدا في ايطاليا كما يقول « الفيري » في اقتحار وزهو . وفي الايطاليين جلد الرجولة ، وكبرياء الارستقراطية التي تجدها حتى في اقل الطبقات الايطالية .

ان اسوأ الشعوب هم الانجليز ، وهم الذين افسدوا العقل الفرنسي باوهام الديمقراطية « ان اصحاب الدكاكين والبقر والنساء والانجليز وغيرهم من الديمقراطيين ينتمون الى بعضهم بعضا وبعضهم من بعض قريبا . » والنفعية الانجليزية

هي آفة الثقافة الاوروبية . اذ لا يمكن لانسان ان يتصور بان الحياة نزاع على مجرد البقاء الا في بلاد بلغ فيها التنافس الى حد التناحر وقطع الرقاب . ولا يمكن للديمقراطية ان تنشأ وتتغلب على الارستقراطية الا في بلاد تعج اصحاب الدكاكين واصحاب السفن . هذه الهدية التي قدمتها انجلترا الى العالم ، الا من يخلص اوروبا من انجلترا ، ومن يخلص انجلترا من بالديمقراطية ؟

٨ - الارستقراطية

ان الديمقراطية معناها انحراف ، معناها ان يسمح لكل جزء في الانسان بالانطلاق في المسرات والرغبات . معنا انحلال التماسك وتبادل التعاون ، وتقويض الفوضى والحرية . ومعناها عبادة اوساط الناس ومقت التفوق والنبوغ . ومعناها استحالة ظهور الرجال العظماء . اذ كيف يمكن لاعظم الرجال الازعان الى غش واكاذيب الانتخابات ؟

اية فرصة تقدمها الانتخابات لاعظم الرجال ؟ ان الشعب يكره صاحب الروح الحرة عدو القيود ، الذي لا ينتمي الى حزب من الاحزاب ، كما تكره الكلاب الذئب . كيف يمكن ان يتزعزع الانسان الاعلى في مثل هذه التربة ؟ وكيف يمكن لامة بلوغ العظمة اذا لم تنتفع وتستخدم اعظم رجالها باثباط مهمتهم وتركهم لا يسمع بهم احد ؟ ان مثل هذه الامة سرعان ما تفقد اخلاقها بتمجيدها صاحب اكثرية الاصوات في الانتخابات بدلا من الموهوب المتفوق النابغ . في مثل هذا المجتمع تتشابه الاشياء وتتحول النساء الى رجال والرجال الى نساء .

ان مساواة المرأة بالرجل في الحقوق هي النتيجة الطبيعية للمبادئ

الديمقراطية والديانة المسيحية . لقد استخفت النساء في هذا المجتمع بضعف الرجال فطالبن بالمساواة والتشبه بالرجال . لقد فقدت المرأة قوتها ونفوذها بمد ان تم لها تحريرها ، والا فإين للنساء اليوم تلك المكانة العظيمة التي كانت لهن في ظل حكم البوربون ؟ والمساواة بين الرجال والنساء مستحيلة لان بينها حربا سجلا ابدية ، ولن يتحقق السلام بينهما الا بانتصار احدهما وفرض سيادته على الاخر . ومن الخطر مساواة الرجل بالمرأة لانها لن تسعد بذلك وتؤثر الخضوع الى الرجل ، هذا اذا كان الرجل رجلا ، لان سعادتها وكما لها تكمنان في الامومة . ان الرجل بالنسبة الى المرأة وسيلة ، والغاية هي الطفل دائما ولكن ما هي المرأة بالنسبة الى الرجل ؟ ... انها لعبة خطيرة . يجب اعداد الرجال للحرب ، والنساء للترفيه عن المحاربين . وكل ما عدا ذلك فسخافة ، ومع ذلك فان المرأة الكاملة اسمي انسانية من الرجل الكامل ، ولكن هذه المرأة السامية في الانسانية امر نادر الوقوع ... ولا يستطيع الرجل ان يكون لطيفا تماما مع النساء .

ان من اسباب شقاء الزواج يكمن في تحقيق رغبات المرأة وملء حياتها ، والتضييق على خناق الرجل وافراغ حياة . عندما يتودد الرجل للمرأة يعدها بان يقدم لها العالم . وعندما تتزوجه يفعل ذلك ، وينبغي عليه ان ينسى العالم مجرد ان يرزقه الله طفلا ، ويتحول الحب الى اثره عائلية . ان الامانة والابداع من نعم العزوبية . وجميع الأزواج مشبهين من ناحية التفكير الفلسفي ، ومن الحق ان يشغل انسان مفكر نفسه باعباء الاهتمام بالاسرة وكسب العيش وتوفير الامن والراحة لزوجته واطفاله . لقد مات الكثير من الفلاسفة بعد ولادة اول طفل لهم .

وينبثق عن المساواة ، الاشتراكية والفوضوية وكلها متفرعة من الديمقراطية .
فاذا كانت المساواة السياسية عدلا لماذا لايساوي بين الناس في القوة الاقتصادية
ولماذا يكون بين الناس زعماء وقادة ؟ هناك بين الاشتراكيين من يقدر كتاب
« زرادشت » ويعجب به ولكن لاحاجة بنا الى تقديرهم واعجابهم . وهناك
نفر من الناس يدعون الى مذهبي في الحياة . ولكنهم في الوقت ذاته يدعون الى
المساواة .. اريد ان اكون واضحا ، وان لاحدث بلبلة حول موقفي من هؤلاء
الذين ينادون بالمساواة ، فاقول ان لامساواة بين الناس « ان العدالة لتصرخ في
دخيلتي ان لامساواة بين الناس » ان طبيعة الانسان تأبى عليه المساواة ، واولئك
الذين يدعون الى المساواة يدعون لها لعجزهم عن ان يكونوا جبابرة طغاة
ان الطبيعة تحب اختلاف الافراد والطبقات والانواع . كما ان الاشتراكية تتنافى
مع الاسس البيولوجية : ان عملية التطور تقتضي ارتفاع الاقوياء بالضعفاء . ان الحياة
استغلال ، وتقوم كل حياة على افتراس حياة اخرى ، فالسمك الكبير يتلغ
الصغير وهذه هي الحياة بتمامها . ان الاشتراكية تعني الحسد ، « والاشتراكيون
يريدون انتزاع بعض ما في ايدينا . تثور الطبقات السفلى مطالبة بالاشتراكية
ظنا منها ان هذه الثورة ستحررها من تبعيتها التي هي نتيجة طبيعية لضعفها
وعدم كفايتها . ومع ذلك فان العبد لا يكون نبيلًا الا اذا ثار . »

ومها يكن من امر هؤلاء العبيد فانهم خير من البورجوازيين سادة العصر
الحديث . انه لمن علامة انحطاط ثقافة القرن التاسع عشر ان يكون رجل الممال
موضع هذا التقديس والتعظيم والحسد . كما ان افراد هذه الطبقة من رجال
الاعمال عبيد ايضا ، فهم عبيد العمل الآلي الرقيق ، وضحايا العمل ، وليس
لديهم الوقت للاطلاع على الاراء الجديدة ، والتفكير عندهم حرام ، كما ان

متعة العقل ولذة التفكير فوق امتناولهم ووراء بلوغهم . وهذا هو السبب في
ضجرهم وبحثم المتواصل عن السعادة . ان منازلهم الكبيرة ليست بيوتاً ،
وبندخهم بلا ذوق ، وترفهم بلا طعم ومتعمهم الشهوانية تهبط بالعقل ولا تنعشه .
يالتفاهتهم ، انهم يحنون المال ولا يزيدهم هذا المال الا فقراً ، انظر اليهم وهم
يقلدون الطبقة الارستقراطية فيكبلون انفسهم بقيودها من غير ان ينعموا بما
تنعم به هذه الطبقة من لذة التفكير ، ومتعة التأمل وملكة العقل . انظر اليهم
كيف يصعدون بسرعة كالقردة بعضهم فوق بعض الى ان يجذبوا انفسهم الى
الهاوية والوحل . لا خير في هؤلاء الاثرياء الذين يجمعون المال لانهم لا يستطيعون
ان يخلعوا عليه جلالا باستخدامه استخداما نبيلاً في رعاية الآداب ونصرة
الفنون . لا ينبغي ان يحرز المال سوى ذوي العقول ، لأن الآخرين يفكرون بالمال
غاية في نفسه ، ويسعون وراءه ويفنون حياتهم في جمعه . انظر الى جنون الامم
المعاصرة وهي تسعى لانتاج اقصى ما في وسعها لتبلغ من الثراء اقصى حد
مستطاع . انظر الى افراد هذه الطبقة البورجوازية وهم يتربصون لبعضهم
بعضاً ، ويبحثون عن افه الارباح حتى من بيع اللامة والنفاية . ان اخلاق
طبقة التجار هذه لا تختلف شيئاً عن اخلاق قراصنة البحار . يشترون من ارض
الاسواق ويبيعون في اغلاها . ومع ذلك يصرخون ويطالبون بعدم تدخل
الحكومة في شئونهم ، ليبقوا وحدهم ، مع ان هذا الصنف من الرجال . يجب
مراقبتهم والاشراف عليهم اكثر بكثير من غيرهم . ان موقفهم هذا يسوغ
اتخاذ اجراءات اشتراكية على الرغم من خطورتها . يجب ان ننتزع جميع
فروع التجارة والنقل التي تسعى الى تكديس المال والثروة ، وخصوصاً
الاسواق المالية من ايدي الافراد او الشركات الخاصة ، وان نعتبر الافراط

في الثروة والافراط في الفقر مصدرين من مصادر الخطر التي تهدد كيان الامة .

يعتقد نيتشه بان الجندي اعلى قدراً من البورجوازي ، واقل مرتبة من الارستقراطي فالقائد الذي يوجه جنوده في ميدان المعركة حيث يسعدون بالموت في نشوة المجد اكثر نبلا من صاحب العمل الذي يستخدم عماله في آلاته التي تدر عليه ربحا . انظر كيف ينطلق الناس في فرحة الى ميادين القتال ويؤثرون الموت على البقاء في المصانع والقمبارك . لم يكن نابليون جزارا ، بل كان محسناً نافعاً . فقد قدم للناس موتا عسكريا شريفا بدل ان يموتوا في ميادين الجوع او مخاوف الفاقة . وقد التف الرجال حوله لانهم آثروا مخاطر المعارك على حياة المصانع . سيجيء يوم يجد فيه الناس نابليون ويخلدون ذكراه . لانه رفع من قدر المحارب على التاجر والنفعي . ان الحرب افضل علاج للشعوب التي دب فيها الضعف والترف والراحة والهوان والحسة . لانها تثير الغرائز التي افسدها السلام . والحرب والتجنيد العام ترياق لسموم تخنت النظم الديموقراطية . وعندما تتحول الامة عن الحرب والغزو ، فان هذا من علامات انحطاط الامة ، وانها اصبحت ثمرة ناضجة للوقوع في يد الديموقراطية وحكم التجار . ومع هذا فان اسباب الحروب الحديثة ابعث ما تكون عن النبيل ، والحروب التي اثارها الخلافات الدينية والعائلات المالكة افضل قليلا من لجوء التجار الى المدافع والبنادق لحل الخلاف بينهم . ستخوض هذه الحكومات الديموقراطية الاوروبية غمار حرب طاحنة في صراع على الاسواق العالمية وستقع هذه الحرب خلال الخمسين سنة القادمة ولكن قد تنتهي هذه الحرب الطاحنة المجنونة بتوحيد اوروبا . وهي وحدة يرخص في سبيلها كل ثمن حتى ولو كان حربا تجارية . اذ لن يسفر توحيد اوروبا الا عن ارستقراطية عليا حاكمة قد تؤدي الى انقاذ اوروبا وخلصها .

ينبغي على السياسة ان تعمل على ابعاد رجال الاعمال عن الحكم ، لان رجل

لاعمال ينقصه بعد النظر واتساع المدى المتوفر في الارستقراطي . لان ارفع الرجال لهم حق مقدس في الحكم ، وهو حق المقدرة السامية ، وللرجل العامي مكانه ، وليس مكانه العرش طبعاً ، والرجل العامي سعيد في مكانه وفضائله ضرورية للمجتمع كفضائل الزعيم . ان المدينة السامية كالهرم لا تستقر الاعلى قاعدة فسيحة ضرورية من الطبقة الوسطى القوية السليمة المتأسكة . والناس اينما وجدوا ، بعضهم خلقوا قادة وبعضهم اتباعا ، وسترضح الاكثرية وتشعر بالسعادة في العمل تحت اشراف هؤلاء الزعماء الاقوياء وتوجيههم العقلي .

والمجتمع المثالي هو الذي ينقسم الى ثلاث طبقات .

١ - طبقة المنتجين وتشمل المزارعين والعمال ورجال الاعمال .
٢ - طبقة الموظفين وتشمل الجنود . ٣ - وطبقة الحكام . وللحكام ان يديروا سياسة الدولة بان يكونوا ساسة وفلاسفة لا موظفين . لان عمل الموظفين عمل حقير لا يتناسب مع الحكام . ان سلطة الحكام تكمن في السيطرة على الجيش والمال ولكنهم يعيشون كالجنود لا كرجال المال . بان يكونوا حكاماً وحماة كالذين وصفهم افلاطون . لقد اصاب افلاطون عندما قال ان الفلاسفة هم اسمى الرجال واعلاهم مكانة . وان يكونوا رجال شجاعة وقوة وبأس وثقافة وان يمزجوا بين العلم والقيادة . وان تربطهم الاخلاق الفاضلة والصدقة المتينة .

هل ينبغي ان تكون هذه الفئة الحاكمة طائفية وسلطتها وراثية ؟ والجواب على هذا السؤال نعم الى مدى كبير . والا تمزج دماً جديداً الى دمها الا نادراً ، اذ لا شيء يضعف الارستقراطية ويفسدها ويلوث دمها اكثر من الزواج من الاغنياء العوام السوقة . كما هو متبع في الارستقراطية الانجليزية . لقد دمر هذا التزاوج اعظم هيئة حاكمة شاهدها التاريخ الا وهي مجلس الشيوخ الارستقراطي الروماني . اذ لا مصادقة في المولد ، والانسان الكامل ثمرة اجيال من الاعداد وحسن الانتخاب . لقد دفع آباء واجداد الانسان الكامل ثمن كماله .

هل تؤدي هذه الفلسفة آذاننا التي استمعت طويلا الى مبادئ الديمقراطية؟
ان الشعوب التي لا تحمل سماع هذه الفلسفة مصيرها الفناء . واما الشعوب التي
تباركها وترى فيها نعمة كبرى فستصبح سيدة العالم . لن نجد الشجاعة والبصيرة
الا في هذه الطبقة الارستقراطية التي ستوحداوروبا وتقضي على النزعات القومية
السائدة . ولنكن اوروبيين صالحين كما كان نابليون ، وجوته ، وبيتهوفن ،
وشوبنهور ، وشتاندهال وهيبي . لقد طال انقسامنا وتشقتنا الى اجزاء يمكن
جمعها في واحد لا يتجزأ . اذ كيف يمكن لثقافة عظيمة ان تنمو وتزدهر في
هذا الجو الاقليمي والقومي الضيق . لقد مضى زمن السياسة الاقليمية الجزئية ،
وجاء عصر فرض السياسة العظيمة . متى سيظهر هذا الجنس الجديد ، والزعماء
الجدد ، متى ستولد اوروبا .

ان هذه الفلسفة لقصيدة شعرية وقد تكون شعراً أكثر منها فلسفة . اننا نرى في فلسفته اموراً يستحيل تحقيقها ، فقد ذهب بعيداً في محاولة تقويم نفسه ، ولكننا نرى مقدار ما تكبده من الم ومجهود في كل سطر من سطور ه . ولا يسعنا الا ان نحبه على الرغم من نقدنا له . يمر بنا وقت نمل فيه الحنو والرقه والوهم ، ونستطيب لذعة الشك والانكار ، وهنا يكون نيتشة بالنسبة لنا كدواء مقو وهواء طلق وريح منعشة بعد صلاة دينية طويلة في كنيسة مكتظة . « ان من يعرف كيف ينعم بانقاس كتابتي يشعر بانها انسام السمو ، وتفحات القوة . » اما عن اسلوبه فلنقرأ ما كتبه هو عن نفسه « ان في اسلوبي رقصاً ورماحاً وطعنأ ولغتي سخية كريمة وعصبية عنيفة . انه اسلوب لاعب السيف بسرعتة ولعانه . » ولكننا باعادة قراءته نشعر بان شيئاً من بريق اسلوبه يكمن في مبالغته ، والى سهولة بالغة في قلب كل قيمة مقبولة ، وفكرة مألوفة ، والسخرية من كل فضيلة ، ومدح كل رذيلة . واخيراً فان هذا البريق في اسلوبه يلهب اعصابنا كسوط ينهال على اجسادنا . وهناك مسحة تيتونية من المباهاة في اسلوبه العنيف ، ويعوزه الكبح وهو اساس الفن . كما ينقصه الانسجام

والتوازن ودمائة النقاش ومع ذلك فهو اسلوب قوي يملكنا بماطفته وتكراره .
ان نيتشه لا يحاول اقامة الدليل ، بل يعلن افكاره ويكشفها ، ويقدم لنا
خيالا لا منطقاً ، ويظفر بنا بخياله اكثر من منطقته . وهو لا يقدم لنا فلسفة
وشعراً فحسب بل ايماناً جديداً واملًا جديداً ودينًا جديداً .

ان افكاره واسلوبه تكشف عن انه ابن الحركة الرومانتيكية . وفي
اعتقاده ان ما ينبغي ان يطلبه الفيلسوف من نفسه اولاً واخيراً هو ان يسود
عصره بنفسه . لقد اعتاد نيتشه ان يهاجم من يدين لهم بفلسفته . فقد هاجم
افلاطون الذي استمد الكثير من افكاره . والواقع ان فلسفة نيتشه
الاخلاقية والسياسية هي فلسفة افلاطون . وقد فشل تماماً في ان ينفذ بعمق
الى الروح اليونانية .

لقد غالى نيتشه كثيراً في نظامه الاخلاقي . فنحن نوافق على الحاجة الى
حث الرجال على ان يكونوا اكثر شجاعة واصلب عوداً واقوى مراساً ، فقد
طالبت كل فلسفة اخلاقية بهذا . ولكن لا داعي الى حث الناس لان يكونوا
اشد قسوة واكثر شراً . هذا وليس من الانصاف ان نشكو من ان الاخلاق
سلاح في يد الضعيف يستخدمه للحد من قوة القوي . والواقع ان الاقوياء لم
يتأثروا بالاخلاق كثيراً ، بل استخدموها استخداماً يتناسب مع منفعتهم .
هذا بالاضافة الى ان معظم مبادئ الاخلاق قد فرضت من الاعلى على
الاسفل .

قد تكون بصيرته السياسية اصدق من بصيرته الاخلاقية ، فقد ذهب الى
ان الارستقراطية هي الحكومة المثالية ، ولا احد ينكر هذا . (في كل شعب
من الشعوب فئة من افضل الرجال وأحكامهم وأذكارهم وأشجعهم ، وفي وسعنا
ان نجدهم وتتوجههم ملوكاً علينا ، ولكن من هي هذه الفئة العظيمة من

الرجال ؟ وهل ينبغي ان تكون قاصرة على فئة معينة من العائلات ؟ وهل يعني هذا ان نقيم علينا حكومة ارسطراطية وراثية ؟ ولكننا جربنا مشل هذه الحكومة الارستقراطية الوراثة التي كانت تؤدي الى ايشار مصلحة طبقتها وركودها . كما ان تزاوج هذه الطبقة الارستقراطية من الطبقة المتوسطة قد أدى الى انقازها في بعض الحالات كما أدى الى القضاء عليها في حالات اخرى . وقد استطاعت الطبقة الارستقراطية الانجليزية الاحتفاظ بمركزها بتزواجها من ابناء الطبقة المتوسطة . وهذا بالاضافة الى ان الارستقراطية لا تميل الى توحيد العالم كما اعتقد نيتشه ، ولكنها تميل الى سياسة قومية ضيقة . اذ لو تخلت هذه الحكومات الارستقراطية عن المبادئ القومية لفقدت المتبع الاساسي لسلطتها الا وهو ادارة السياسة الخارجية . هذا وقد لا تكون الدولة العالمية التي نادى بها نيتشه صالحة ونافعة للثقافة كما اعتقد . لأن الشعوب الكبيرة بطيئة الحركة . وقد تكون المانيا قد خدمت الثقافة قبل وحدتها اكثر مما خدمتها بعد وحدتها وامبراطوريتها وتوسعها .

ومن الاوهام الشائعة ان فترات الثقافة العظمى كانت عصور ارسطراطية وراثية . والعكس هو الصحيح . فقد كانت عصور بركلس ومديتشي واليزابيت عصوراً مزدهرة تغذت بثروات الطبقة البورجوازية الناشئة . كما ان روائع الادب والفن لم ينتجها ابناء الطبقة الارستقراطية بل ابناء الطبقة البورجوازية المتوسطة ، من امثال سقراط ابن القابلة وفولتير ابن المحامي ، وشكسبير ابن الجزار . والواقع ان الثقافة ازدهرت دائماً في العصور التي رافقها التغير والحركة - عصور تصعد فيها طبقة جديدة عنيفة الى مركز السلطة والفخر . ومن السخافة ان نستثني في سياسة ايضاً عباقره لم ينحدروا من الطبقة الارستقراطية والافضل ان يكون المجال مفتوحاً امام العبقرية اينما وجدت وولدت . وقد جرت العادة ان يولد العباقرة في الاثر الاماكن غريبة واستهجاناً . والافضل ان يحكمنا

افضل الرجال وأحكامهم بغض النظر عن مولدهم وطبقاتهم . ليست
الارستقراطية مولداً ونسباً بل كفاءة ومقدرة . ارستقراطية تغذيها ديمقراطية
تفتح ابواب فرصها على قدم المساواة امام الجميع .

ولكن على الرغم من النقد والاستنكار الذي وجه الى نيتشه لا يسمنالاً ان
نقول انه لا يزال يقف طويلاً راسخاً في الفكر الحديث ، وجبلاً شامخاً في النثر
الالماني ، على الرغم من مبالغته قليلاً في اطراء نفسه عندما قال ، ان المستقبل
سيقسم الماضي الى ما قبل نيتشه وما بعده . ولكنه افلح في تقديم قيمة لم تكن
معروفة عملياً في الاخلاق ، الا وهي الارستقراطية . وانه كتب اجمل النثر
وأعظمه في ادب القرن الذي عاش فيه . هذا بالاضافة الى دعوته الى الانسان
الاعلى المتفوق على الانسان الحالي . لقد كانت المرارة تطبع اسلوبه ولكنها
مرارة مقرونة باخلاص كبير . لقد نفذت افكاره عبر سحب العقل الحديث
وانسجته بسرعة البرق وشده الريح . فقد صفا سناء الفلسفة الاوروبية ، وراق
جوها . وزاد انتماشنا بنسبها بعد ان كتب فيها نيتشه .

١٠ - خاتمة

قال « زرادشت » احب من يسعى الى خلق شيء اسمى منه ثم يموت . «
لا شك ان تفكير نيتشه الشديد قد استهلك حياته قبل اوانها . كما اذت
المعركة التي خاضها ضد عصره الى اختلال توازن عقله . لقد اعلن حرباً شعواء
في اواخر ايام انتاجه على الاشخاص والآراء والانبياء من فجنز الى المسيح
وغيرهم . وبعد انهيار عقله بدت العصبية جليلة حتى في ضحكك . ولا شيء
يصور لنا مدى ما وصلت اليه حالته اكثر من قوله . « ربما اعلم اكثر من
غيري السبب في ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك ، لانه وحده
الذي يتألم اشد الالم الذي اجبره على اختراع الضحك . « لقد اثر مرضه وضعف
بصره الذي اوشك ان يقترب به من العمى على انهيار عقله . واخذت تطارده
اوهام العظمة والاضطهاد . فقد ارسل احد كتبه الى « تيني » مرفقاً بكلمة
يصف فيها الكتاب بكونه اعظم كتاب ظهر في العالم . وملاً كتابه الاخير
بالاطراء والثناء على نفسه .

اخذ بعض الناس في تقديره ، ولكن تقديرهم جاء متأخراً ، فقد ارسل
له « تيني » كلمة اطرى فيها عليه في الوقت الذي تجاهله فيه الجميع . وكتب له
براندينز يخبره بانه يلقي محاضرات في جامعة كوبنهاجن عن ارستقراطية نيتشه

الراديكالية . وارسل له احد المعجبين مبلغ اربعمئة دولار . ولكن هذه التقديرات المضيئة وصلت عندما كان نيتشه يعيش في ظلام العمى والعقل ، وفقدان الرجاء والامل .

لقد نزلت به الضربة الاخيرة في تورين في شهر يناير من عام ١٨٨٩ . لقد كانت ضربة الجنون . وراح يتعثر في عماءه في غرفته ، واخذ يكتب رسائل بدا فيها الجنون واضحا . فارسلوه الى المارستان ولكن سرعان ما جاءت امه المعجوز لتأخذه معها ليعيش تحت عنايتها . وبقي معها الى ان توفيت واخذته اخته ليعيش معها في فيمار . لقد صنع له « كرامر » تمثالا رقيقا ظهر فيه ذلك العقل الجبار الذي امتاز به سابقا ضعيفا محطما . ومع ذلك فان المرحلة الاخيرة من حياته لم تكن كلها شقاء . فقد طبع السلام والهدوء الذي حرم منه دائما حياته الآن . لقد رحمته الطبيعة بعد ان ألقتهم مجنوننا . وفي مرة لمح اخته تبكي وهي تنظر اليه ولم يستطع ان يفهم السبب في دموعها وسألها « لماذا تبكين يا ليزبيت ؟ هل انت حزينة ؟ » وفي مرة سمعها تتحدث عن الكتب فأضاء وجهه الشاحب وقال ، في تألق وبهجة ، « آه ! لقد كتبت انا ايضا كتابا حسنة » ومررت لحظة التألق .

توفي في عام ١٩٠٠ . لانجد عبقريا دفع ثمنا غالبا لعبقريته ما دفعه نيتشه .

الفصل العاشر

الفلاسفة المعاصرون في أوروبا

برجسون، كروتشي، وبرتاند رسل

١ - هنري برجسون

الثورة المادية

من الممكن ان يكتب تاريخ الفلسفة الحديثة على اساس كونه صراعا بين علم النفس والعلوم الطبيعية . قد يبدأ الفكر الانساني بدراسة نفسه ، ويحاول ان يدخل العقل في دائرة المظاهر المادية والقوانين الميكانيكية . او يبدأ بنفسه مسوقا بضرورة المنطق الى تصور ان جميع الاشياء من خلق العقل وانشائه . ان فضل العلوم الرياضية والميكانيكية في تطور العلم الحديث وانتعاش الصناعة والعلوم الطبيعية تحت ضغط الحاجة الى التوسع ، قدم للتفكير والتأمل قوة مادية دافعة . واصبحت اكثر العلوم نجاحاً نماذج للفلسفة على الرغم من اصرار « ديكارت » والحاحه في ان تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ومن ثم تتابع طريقها الى العالم

الخارجي . لقد دفع تصنيف اوربا الغربية الفكر بعيداً عن الفكر ، واتجه به الى الاشياء المادية .

لقد كانت فلسفة سبنسر ذروة التعبير عن وجهة النظر الميكانيكية هذه . على الرغم من المناادة به بأنه فيلسوف الدارونية . والواقع ان سبنسر كان صدى لحركة التصنيع وانعكاساً لها . فقد اضى على الصناعة مجداً وفضيلة ، وهو يبدو لنا ميكانيكياً او مهندساً شغلته النواحي المادية اكثر من كونه بيولوجياً يشعر بالحياة . لقد احتلت البيولوجيا المكان الذي كانت تحتله العلوم الطبيعية في الافكار الحديثة ، واخذ الاتجاه يميل الى النظر الى جوهر العالم وخفاياه في حركة الحياة لا في الاشياء . والواقع ان المادة نفسها كادت تدب فيها الحياة في يومنا هذا ، لقد قدمت دراسة الكهرباء والمغناطيسية والايكترون صبغة حيوية للعلوم الطبيعية . وهكذا تقدم علم النفس .

لقد كان شوبنهور اول من أكد اهمية الحياة على القوة . وجاء برجسون في عصرنا الحاضر وتناول هذه الفكرة بالبحث واستطاع ان يجذب اليها انظار هذا العالم الذي طغت عليه روح الشك بفضل قوة ابرانه واخلاصه .

ولد برجسون في باريس عام ١٨٥٩ من ابوين فرنسيين يهوديين . وكان طالباً نجيباً نال جميع الجوائز التي وضعتها المدرسة للمتفوقين من تلاميذها . لقد تخصص في بادىء الامر في الرياضيات والعلوم الطبيعية . ولكن مقدرته على التحليل سرعان ما وضعت وجهها لوجه امام المشاكل الميتافيزيقية الكامنة وراء كل علم . فاتجه في الوقت ذاته الى دراسة الفلسفة . وفي عام ١٨٩٨ التحق في مدرسة المعلمين العليا ، وعين بعد ان تخرج منها استاذاً للفلسفة في احدى المدارس .

وهناك في عام ١٨٨٨ كتب اول مؤلف له « الزمن والارادة الحرة » واعقبه بكتاب آخر بعد ثمانية اعوام وهو «المادة - والذاكرة» وهو اشد كتبه صعوبة . وفي عام ١٨٩٨ عين استاذاً في دارالمعلمين العليا. وفي عام ١٩٠٠ استاذاً بالكوليج دي فرانس التي بقي فيها حتى وفاته في عام ١٩٤١ . وذاع صيته في العالم عام ١٩٠٧ بعد ان اخرج الى العالم اروع كتبه « التطور المبدع » واصبح في يوم وليلة اكثر الشخصيات شعبية في عالم الفلسفة . وفي عام ١٩١٤ انتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية . ومما يبعث على الدهشة ان برجسون الذي كتب له ان يسدد ضربة قوية للمذهب المادي كما سدد داود ضربته القاتلة الى جوليت الجبار كان في شبابه من المتحمسين الى « سبنسر » ولكن المعرفة العميقة تؤدي دائما الى الشك ، واصحاب الشك في شبابهم ينتهي شكهم الى ايمان . لقد قلل « باستور » من اهمية الاعتقاد بتوليد الحياة من المادة غير الحية . وبعد نظرية استمرت مئة سنة ومئات التجارب فشل الماديون في حل مشكلة اصل الحياة . ومرة ثانية على الرغم من وصل الفكر والعقل فان هذا الوصل بقي غامضا كما كان . فاذا كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن نتيجة آلية لحالات محايدة ليس الا ، فما فائدة الشعور اذن ؟

يقول المذهب المادي ليس ثمة حياة ارادية اي ليس في الوجود تلك القوة الحيوية التي تريد هذا فتعمله ولا تريد ذلك فتنبذه . وكل ما هنالك حالات مادية متتابعة ، كل حالة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها . وهنا يتساءل برجسون : اذا كان الوجود بكل ما يحوي في لحظة معينة نتيجة آلية للحظة التي سبقتها ، دون ان تكون هنالك قوة مدركة تنشيء وتخلق وتختار ، واذا كانت تلك

اللحظة السابقة اثرا آليا للتي سبقتها . وهكذا دواليك ، فنحن نرجع في هذا التسلسل الى ان نصل الى السديم الاول ، وتتخذ منه سببا لكل ما طرأ على الكون من احداث ، وان نعتقد بان السديم هو السبب في كل سطر كتبه شكسبير وانه العلة في فصاحة « هملت » و « عطيل » و « مكبث » و « ولير » في كل جملة وعبارة قالوها .

★ ★ ★

٢ - العقل والمخ

يقول برجسون اننا بطبيعتنا نميل الى النزعة المادية لاننا نميل الى التفكير في صيغة المكان . ولكن الزمان امر جوهري كالمكان . ولا شك ان الزمان هو جوهر الحياة ، وقد يكون جوهر الحياة كلها . وما ينبغي علينا فهمه هو ان الزمان تراكم ونمو ودوام . والدوام هو استمرار تقدم الماضي الذي تتزايد احداثه قليلاً الى ان يتضخم ويكون المستقبل . وهذا يعني ان الماضي يمتد للحاضر ويبقى هناك حقيقة وعملاً . والبقاء يعني ان الماضي يبقى ولا يضيع منه شيئاً . وبما ان الزمان عبارة عن تراكم الصور التي مرت على الوجود ، فيستحيل ان يكون المستقبل مشابهاً للماضي ، لان في كل خطوة زيادة تضاف الى ذلك التراكم . وفي كل دقيقة ينشأ شيء جديد غير منتظر . والتغير اكثر تطرفاً مما نعتقد .

والذاكرة عندنا هي وعاء البقاء ، وخادمة الزمان التي تحفظ لنا الكثير من صور الماضي المتراكمة لكي تكون لنا عوناً في حياتنا . وكلما اتسع مدى الحياة اتسع معها نطاق الاختيار . اي انه يعرض للانسان مؤثرات عدة تستدعي منه سرعة اختيار للتلبية المناسبة لكل من هذه المؤثرات . وهذه

المؤثرات وتلبياتها تكون في الانسان ادراكاً يستعين به في كل ما يفرض له من مشكلات .

ويبدو ان الادراك يتناسب مع قوة الكائن الحي على الاختيار . وهو يضيء منطقة القوى التي تحيط بالعمل . ويملاً المسافة بين ما عمل وما ينبغي ان يعمل . فهو مسرح للتصور ، تصور فيه التلبيات وتفحص قبل الاختيار . اذن فالكائن الحي مركز للعمل في الحقيقة ، وهو كتلة فعالة مؤثرة ، لانه يضيف الى العالم قوة ونشاطاً . وليس الانسان آلة ميكانيكية كما صوره الماديون لا حول لها ولا قوة ، بل مركز قوة منبهة ، وقوة خالقة متطورة ، وينتج عن الادراك حرية الارادة ، وكوننا احراراً يعني اننا نعرف ما نفعل .

قلنا ان وظيفة الذاكرة هي استدعاء الصور الذهنية الماضية المشابهة للصور الذهنية الحاضرة مقرونة بما سبقها وما تلاها لتساعدنا في اختيار قرار نافع لنا . ولكن ليس هذا كل شيء ، فان للذاكرة عملاً آخر فوق هذا ، اذ نستطيع عن طريقها ان نستوعب البقاء في لحظة واحدة وفي ذلك تحرير لنا من قيود الضرورة الطبيعية التي تخضع لها الاشياء الجامدة . يخطيء اذن من يحسب الانسان آلة صماء في يد القوانين المادية . انما هو كائن مدرك ، حر الارادة قادر على اختيار سلوك معين ، والاختيار خلق وانشاء ، فليس الانسان رتيباً في حياته كالحيوان المحدود بغيرائزه .

اذن ليس العقل والمنح شيئاً واحداً . صحيح ان الادراك العقلي يعتمد على المنح وينحط معه ، ولكن كما تعتمد الملابس على علاقة الملابس تهوي معها اذا ما سقطت من مكانها . وبديهي ان ذلك لا يدل على ان الملابس والعلاقة شيء

واحد . فالمخ مجموعة من التصورات وردود الافعال . اما الادراك فهو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعه ما تريد . المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الادراك ، ولكن ليس الماء ومجراه شيئاً واحداً ، وان يكن ذلك محدوداً بهذا ، ولا بد له ان يخضع لتعريجه والتوائه .

واذا كان كذلك ، فما الذي دفعنا الى الاعتقاد بان العقل والمخ شيء واحد؟ والسبب في هذا ان جزءاً من عقولنا وهو ما نسميه بالذكاء ، قد نشأ وتطور لكي يتناول الاجسام المادية ويتفهمها ، فاكسب من هذا الميدان المادي كل تصورات وقوانينه . وهكذا اخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة ينمو شيئاً فشيئاً حتى انتهى بنا الامر الى الظن بانها شيء واحد . ولكن هذا الذكاء الذي يفكر في الصور المادية لا يستطيع ان يدرك ما في الكون من حياة ، لانه يلتقط صوراً متلاصقة بعضها يجيء في اثر بعض ، اي انه يلتقط صورة الكون في هذه اللحظة ، ثم صورته في اللحظة التي تليها ، ثم صورة ثالثة في التي تليها وهكذا . ومعنى ذلك ان العالم الخارجي في نظر العقل عبارة عن جملة صور لحظية تملأ كل صورة منها الكون بأسره ، وهذه الصور تنال الواحدة منها الاخرى لحظة بعد لحظة . وكل صور لحظية من هذه الصور تمثل الحقيقة الخارجية في لحظة من اللحظات . ثم من تتابعها يتألف مجموع الحقائق الخارجية من اول الماضي الى اخر المستقبل ، الا ان الصور تظل مستقلة في الذهن ، لا يتناولها الاستمرار او الحركة التي تربطها جميعها ، مع ان الحياة ليست الا في وصل هذه الصور المجزأة ، ومثل العقل في ذلك كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عدداً من الصور المتلاصقة ، لاحياة في كل منها على حدة ، فاذا ما دبت فيها الحركة والاستمرار ، واتصل بعضها ببعض ، كونت حياة او شيئاً يشبه الحياة ،

وإن يكون شيء من الحياة في هذه الصور التي تصلنا عن طريق الحواس ، حتى يتناولها تيار الحركة الدائم الذي يربط اشتاتها ، ويكون منها حقيقة واحدة يطرأ عليها التغيير والتبديل كلما مر عليها شطر من الزمان .

صحيح ان كل صورة حسية هي جزء من الحياة ، ولكن مجموعها لا يكون مجموعة الحياة الى ان يتحقق في اجزائها شرط الاتصال والربط ، فكما ان كل جزء من الخط المنحني يمكن ان يكون جزءاً من خط مستقيم بدليل ان المنحني والمستقيم يتكونان من نقط ، غير انك لا تستطيع ان تقول بما ان اجزاء هذا بعينها اجزاء ذلك ، اذن فالخط المنحني هو الخط المستقيم ، كذلك قل في الحياة والمظاهر الطبيعية ، فليست الحياة مجموعة المظاهر الطبيعية ، على الرغم من ان تلك الظواهر هي الجزئيات التي تتكون منها الحياة .

يستنتج من هذا ان العقل ليس هو الاداة الصالحة لادراك الحياة لان هذا مطلب فوق مقدوره ، واكثر مما يستطيع . اذ ان العقل كما بينا يميل الى استعمال الوجود لصالحه ، وهذا يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدب في الكون وتجزئة الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً ، فالعقل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منها تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، اي انها تتناول الوجود في ظاهره ، ولكنها لا تنفذ الى باطنه . ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تتمشى مع الوجود في تحوله ، وتتغلغل في بواطن الاشياء ، وتحسها احساساً مباشراً كما يحس الحمل الوديح وجوب الفرار من غائلة الذئب ، فالبصيرة وحدها هي الاداة الصالحة لذلك النوع من المعرفة المباشرة لانها حاسة الحياة التي تنقل الينا الوحدة الحيوية التي تربط اجزاء الوجود .

٣ - التطور الخلاق

وهذا فان تطور الحياة يبدو لنا مغايراً عن تلك الصورة الآلية العمياء المظلمة عن الصراع والفناء التي وصفها لنا دارون وسبنسر . نحن نفهم بالتطور الخلقى المستمر وتراكم القوى الحيوية واختراع الحياة والعقل ، والتحسين المستمر في الجديد . اننا على استعداد لان نفهم لماذا رفض احدث الخبراء الباحثين من امثال « جيننج » « وماوباس » النظرية الآلية لسلوك وحيد الخلية « برتوزوني » ولماذا انهى الاستاذ ويلسون عميد علماء الخليات (اي الوحدات التي يتكون منها الحيوان والنبات) كتابه عن الخلية بقوله « يبدو ان دراسة الخلية قد وسعت بدل ان تضيق الفجوة الكبيرة التي تفصل ابسط اشكال الحياة عن العالم اللاعضوي والانسان يسمع في كل مكان في عالم الاحياء ثورة ضد دارون .

ان مذهب دارون يعني ان الانتخاب الطبيعي هو الاساس الذي تقوم عليه نشأة الاعضاء والوظائف والانواع . ولكن هذه النظرية لم يمض عليها نصف قرن من الزمان حتى بدأت تواجه مشاكل ومتاعب كثيرة .

كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي ان يفسر نشأة العين مثلاً ، والصعوبة في تفسير هذا نجية للأمل ، لا بد ان نعلم انه من المستحيل ان تكون العين قد

نشأت على هذه الصورة المعقدة من بادىء الامر ، فاذا فرضنا انها تكونت بعد سلسلة من الاطوار ، فهل من اليسير ان تقنع عقلاً سليماً ان تلك الادوار التي التي مرت بها عين الانسان تطابق تمام المطابقة الادوار التي مرت بها الحواس الابصارية لانواع الحيوان جميعاً ؟ هم ان الافتخاب الطبيعي اساسه المصادفة المحضة . وهل من الجائز ان تكون سلسلة المصادفات التي تعاقبت على عين الانسان وسائر اعضائه الاخرى هي التي تعاقبت على اعضاء الحيوانات كلها؟ فاذا سلمنا جدلاً فقط بان هذه المصادفة العجيبة جائزة في انواع الحيوانات لتشابه المؤثرات التي تحيط بها جميعاً ، فما قولك في الحيوان والنبات ، وهما نوعان يسيران في طريقين مختلفين تماماً في التطور . كيف يتفق الاثنان على طريقة واحدة للتناسل ؟ كيف يوفق الحيوان عن طريق المصادفة الى اختراع الذكورة والانوثة اداة للتكاثر ثم يوفق النبات الى الطريقة عينها وبالمصادفة ايضا . او خذ حاسة البصر في نوعين مختلفين تماماً وهما الحيوان الهلامي والحيوان الفقري ، كيف يمكن لهذه التغيرات الصغيرة التي لا يمكن حصر عددها ان تكون قد حدثت في نفس النظامين على خطين مستقلين من التطور ؟

يتضح لنا مما تقدم ان في التطور شيئاً اكثر من النظرية الالية المادية . يستحيل ان يكون هذا الاساس الواهي قاعدة التطور ، ولا بد ان يكون في اجزاء الوجود مهما تنوعت اشكالها قوة كامنة متشابهة في الجميع هي الحياة . وهذه الحياة الحالة في كل شيء تخلق فيما تحل فيه ميلاً خاصاً وتوجيهاً معيناً يؤثران في كل جزئي من جزئياته . وهكذا يظل الجسم المبتدىء بتشكيله ويتغير حسب ذلك التوجيه الذي تليه تلك الحياة الدافعة الكامنة فيه . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور كما ذهب دارون واتباعه . ان الحياة اكثر من الاجسام المادية . انها قوة نامية وتستطيع ان تسترد

نفسها . وهذا لا يعني وجود تصميم خارجي يعمل على التطور . لقد فكرنا اولاً ان هناك ارادة شبيهة بالانسانية تحرك الاشياء وتستخدمها في لعبة الكون ، وفكرنا ان الكون مادي لاننا قد تأثرنا بعصرنا الالي الذي طغى على اخلاقنا وفلسفتنا . هناك تصميم وقصد للاشياء ، ولكنه في داخلها وليس خارجها . ان الحياة هي الحافز المولد للعالم . وهي ضد الجمود والمصادفة ، وتسير في اتجاه في نموها . فهي تسعى جهدها للتغلب على الجمود المادي . وهي تتغلب على الموت بالتناسل وان ضحت في ذلك بالافراد . وهي تبذل كل ما تملك من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وقيودها ، فالوقوف والحركة والسعي وكل ضروب الحركة والنشاط مظاهر من تحدي الحياة لقوانين المادة وقيودها وانتصار عليها .

لقد كانت الحياة في مبدأ ظهورها اشبه ما تكون بالمادة في جمودها واستقرارها . فقد اتخذت شكلاً ساكناً لها . وكأن الباعث الحيوي فيها كان ضعيفاً لا يقوى على المخاطرة بالحركة . وكان هذا السكون وعدم الحركة هدف الحياة في مرحلة عظيمة من التطور . لقد كانت الحياة في مبدأ ظهورها تتمثل في النبات وحده . ولكنها لم تقنع في البقاء سجيناً في النبات . واتجهت في تقدمها دائماً من مخابيء الامن الى الحرية . من غطاء الساجفة وحراشف السمك الى حرية وسهولة انطلاق الطير . وهكذا حلت سرايا جنود الفرسان محل جنود المشاة القديمة ، والمدفعية الخفيفة السريعة محل الفرسان بدروعهم القديمة الثقيلة . وعلى العموم فقد كان اعظم النجاح في تطور الحياة كما في تطور المجتمعات لاولئك الذين قبلوا اعظم المخاطر . وتوقف الانسان ايضاً عن التطور باعضاء جديدة له في جسمه واستعاض عنها بالاسلحة والالات التي كان يتركها جانبا عندما لا يكون في حاجة لها .

والغرائز ادوات العقل . فقد اصبحت هذه الغرائز كبقية الاعضاء الثابتة المتصلة عبثاً على الانسان عندما اختفى الزمن او البيئة التي استدعت وجود هذه الغرائز . لقد كانت هذه الغرائز وسائل ناجحة حاسمة بالنسبة الى المواقف التي كانت يتعرض لها اسلافنا ، ولكنها اليوم لا تمكن الانسان من ان يقابل تعقيدات الحياة الحديثة ببرونة وسهولة . ان الغرائز وسائل الامن بينما العقل والذكاء عضو الحرية المخاطرة .

ان الحياة تزداد الحرية والتحرر من قيود المادة . ونحن نضحك عادة عندما نشاهد كائناً حياً يتصرف كما تتصرف المادة الجامدة ، كآلة ، او عندما يسقط شخص عزيز علينا يسير على ارض مغطاة بالثلوج الجامدة . ان الحياة الهندسية التي ذهب اليها سبينوزا وخلط بينها وبين الله تدعو الى الضحك والبكاء .

ومن هنا يتضح لنا ان الحياة سارت اثناء تطورها في مراحل ثلاث .

الاولى مرحلة النبات حيث كانت اقرب ما تكون الى سكون المادة وجودها ، حيث وجدت هناك مكاناً آمناً آلاف السنين والمرحلة الثانية مرحلة الحيوان الغريزي كالنحل والنمل الذي يسير ويتحرك بالغريزة . والمرحلة الثالثة ، هي مرحلة الحيوان الفقري حيث اتخذت الحياة خطوة جريئة نحو الحرية ، واتجهت بشجاعته الى مخاطرات الفكر التي لا نهاية لها . ان الغريزة لا تزال الوسيلة الاعمق في رؤية الحقيقة والوصول الى جوهر العالم ، ولكن الذكاء ينمو ويتطور بقوة وشجاعة اكثر ومدى اوسع . وقد وضعت الحياة اخيراً املها ومصالحها في هذا الذكاء في تحقيق حرية اوسع لها .

هذه الحياة الملحة الخالقة التي تجعل من كل فرد ونوع مسرحاً لتجاربه هي الله . ان الله والحياة شيء واحد . ولكن الله هذا محدود ، وليس قادراً على كل

شيء ، وتقيدته المادة ، ويحاول التغلب على قيودها بجهد وعناء خطوة خطوة . كما انه ليس عالما بكل شيء ولكنه يتلمس طريقة للمعرفة والادراك والضوء تدريجيا . وهكذا فان الله على هذا التعريف هو الحياة المستمرة ، وهو العمل والحرية . والخلق ليس غامضا ، فنحن نجربه في انفسنا عندما نعمل بحرية ، وعندما نختار اعمالنا ونسير على حياتنا بوعي منا . ان كفاحنا وآلامنا وطموحنا وهزيمتنا ، وسعينا لتحسين وتقوية انفسنا ، كلها صوت للحياة فينا ، للحافز الحيوي الذي يدفعنا الى النمو والتطور ويجول هذا العالم الى مسرح من الخلق الذي لا نهاية له .

ومن يدري بان الحياة قد تنتصر في النهاية اعظم انتصار لها على عدوها القديم الا وهو المادة فتتغلب على الموت ويتحقق لها الخلود ؟ فلنفتح عقولنا حتى بالنسبة الى آمالنا ، فان كل شيء ممكن بالنسبة الى الحياة اذا طال الزمن . ولنفكر بما صنعته الحياة والعقل في فترة الف سنة بغابات اوربا وامريكا . ان من السخافة وضع المراقيل امام اعمال الحياة العظيمة . ان الحيوان يقف فوق النبات ، والانسان يتجاوز مرحلة الحيوانية ، والانسانية كلها في المكان والزمان جيش ضخم كبير يعدو ويجري امام ووراء ويجانب كل واحد منا في مهمة ساحقة لتحطيم كل مقاومة وتمهيد الطريق من كل عقبة جسيمة والانتصار حتى على الموت .

يبدو ان برجسون اراد ان يقطع طريق النقد على ناقديه فقال « انني اعتقد ان الوقت الذي ينفق في دحض الفلسفة ونقدها يذهب سدى . » فماذا بقي لنا من الهجمات الكثيرة التي وجهها المفكرون بعضهم لبعض . لم يبق شيء ؛ او لم يبق سوى القليل جداً من هذا النقد . وما بقي هو النزر المهم الا وهو الحقيقة الايجابية التي جاء بها كل من هؤلاء المفكرين ، ان القول الحق قادر بنفسه على ان يحتل مكان الفكرة الباطلة . وهو خير وسيلة للدحض والتفنيد من غير ان نكلف انفسنا عناء دحض هذا المفكر او ذاك . ان هذا صوت الحكمة نفسها . اذ اننا عندما نبرهن على صحة فلسفة او خطئها فاننا بذلك نقدم فلسفة اخرى هي كالاولى عرضة للخطأ لانها مثلها مزيج من التجربة والامل . وعندما تتسع التجربة ويتغير الامل فاننا قد نجد حقيقة اكثر فيما اعتبرناه باطلا واستنكرناه . او قد نجد باطلا اكثر فيما اعتبرناه من قبل حقيقة خالدة . اننا اذا ارتفعنا على اجنحة الثورة فاننا نميل الى مذهب الجبرية والى النزعة المادية الالية التي تنطوي على السخرية والشيطنة . ولكن عندما يقترب منا الموت ويلوح لنا فجأة نحاول ان نجد وراءه املاً آخر . ان الفلسفة عمل وتعبير عن حالة العصر السائدة .

ان ما يسترعي انتباهنا ويشير اعجابنا عندما نقرأ برجسون هو اسلوبه المشرق الذي امتاز به الاسلوب الفرنسي الواضح السهل . فان وجدنا برجسون غامضاً احياناً فان هذا يعود الى الثروة الوفيرة في خياله وامثلته وتشبيهاته .

لقد هاجم برجسون العقل وارادنا ان نأخذ بحكم البصيرة ، وكان الافضل منه ان يعقد امله على عقل ارقى واطوع من البصيرة . لان البصيرة الباطنية التي اعتمد عليها قد تخطيء كما تخطيء الحواس الخارجية . وكل واحدة منها يجب اختبارها وتقويمها بالتجربة العملية . هذا كما ان برجسون قد بالغ حين زعم ان العقل لا يدرك الا حالات متقطعة من الحقيقة والحياة ، وانه عاجز عن ان يدرك ما في هذين من تدفق وحركة واستمرار . اذ الفكر على نقبض ما ذهب اليه ، عبارة عن سيل متصل من الافكار كما قال « جيمس » قبله ، والافكار مجرد نقط تختارها الذاكرة في سيل الفكر . والتيار العقلي يعكس استمرار الادراك وحركة الحياة .

كان من الانسب ان يذهب برجسون في بلاغته الى الحد من تطرف المذهب العقلي الذي اسرف في الاعتداد بالعقل اسرافاً كبيراً . ولكنه لم يصب في وضع البصيرة مكان العقل لانه بفعله هذا كمن يصحح اوهام الشباب بخرافات الطفولة . والافضل ان نقوم افكارنا ونتقدم بها الى الامام لا ان نعود بها الى الخلف . ان الاحتجاج والهجوم الذي صوب الى العقل وسدد الى التفكير من « روسو » و « شاتوبريان » الى « برجسون » و « نيتشه » و « جيمس » قد أدى فعله وكان له تأثيره . اننا نوافق « برجسون » على تجريد العقل من

عرشه شريطة ان لا نشعل الشموع امام البصيرة وحدها . ان الانسان يعيش
بغريزته وبصيرته ولكنه يتقدم بعقله وذكائه .

ان اعظم ما في برجسون هو هجومه على النزعة المادية الآلية . فقد اسرف
علماءنا في مختبراتهم في الثقة في انفسهم ، واعتقدوا انهم قادرون على عصر
الكون كله وصبه في انبوبة من انابيب اختباراتهم . ان المادية كالقواعد اللغوية لا
تعترف الا بالاسماء ولكن الحقيقة كاللغة ؛ تشمل الاعمال والافعال والاشياء
والمفاعيل والاسماء والصفات والحياة والحركة والمادة ايضاً .

لو واجه برجسون هذه العقائد الجديدة بشك نظيف لكان اقل انشاء وبناء
في فلسفته ، ولكنه سيكون اقل عرضة للنقد والاجابة عليه . لقد ذاب شكه
عندما بدأ تشكيل فلسفته . انه لم يتساءل ابداً ما هي المادة ، وهل يمكن ان
تكون اقل جوداً وسكوناً اكثر مما نفكر ، وهل من الممكن ان لا تكون
المادة عدوة الحياة ولكنها خادمتها وطوع امرها لو عرفت الحياة عقلها .
انه يفكر بان العالم والروح والجسم والنفس والمادة والحياة امور يعادي ويخاصم
بعضها بعضاً . ولكن المادة والجسم والعالم ليست سوى امور تنتظر من العقل
والذكاء والارادة ان تعمل على تشكيلها . ومن يدري فقد لا تكون هذه
الاشياء اشكالا الحياة بل من تكهنات العقل .

ان نقد برجسون للدارونية ينبع من حيويته . فقد واصل التقليد الفرنسي
الذي اقامه « لامارك » ورأى ان الدافع والرغبة عاملان فعالان في التطور .
فقد رفض مزاجه الروحاني ما ذهب اليه سبنسر من ان التطور ناجم عن
توحيد المادة الآلي وتبديد الحركة . ان الحياة قوة ايجابية . ومجهود يبني اعضاءه
عن طريق الحاح رغباته . ولكننا لايسعنا الا ان نقدر المام برجسون الواسع

في النواحي البيولوجية ، واطلاعه الادبي العميق . وقراءته للنشرات والمجلات الدورية التي توارت العلوم الحالية فيها عشرات السنين . لقد قدم لنا علمه ولودعيته واطلاعه العميق بأسلوب متواضع يختلف عن أسلوب سبنسر الذي يسوده الاعتزاز بالنفس والتعظيم الذي يملأ كل صفحة من صفحات كتبه .

كان موقف برجسون في نواح كثيرة بالنسبة الى عصر « دارون » مثل موقف « كانت » من « فولتير » فقد كافح « كانت » لصد موجة الاحاد الكامنة في المذهب العقلي الذي بدأه « بيكون » و « ديكارت » وانتهى في شك « ديدرو » و « هيوم » واسفر مجرود « كانت » بان اعلن قصور العقل في ميادين المشاكل والبحوث السامية . ولكن « دارون » بغير قصد و « سبنسر » بقصد ووعي عادا وجددا هجمات « فولتير » واتباعه على الدين والايان القديم ، وعادت النزعة المادية الآليه التي تقهقرت امام « كانت » وشوبنهور فاكتسبت كل قوتها القديمة في مستهل هذا القرن . فتصدى لها « برجسون » ولكن لا بنقد العقل كما فعل « كانت » ولا بالجدل المثالي الذي يقول ان المادة لا تعرف الا عن طريق العقل ، ولكن بالقول بوجود عنصر حيوي مبدع نشيط فعال يفسر كل أغاز الحياة .

لقد نال برجسون شعبية كبيرة سريعة وارتفع الى ذروة الشهرة لانه دافع عن الآمال التي كانت تحفق في قلوب الانسانية . عندما وجد الناس من وطد في قلوبهم الايمان بالله والخلود ، من غير ان يفقدوا ثقمتهم بالفلسفة ، فشعروا بالسعادة والغبطة . وغدت الغرفة التي كان يلقي فيها محاضراته صالونا للنساء الجليلات اللواتي وجدن في بلاغته ما يحقق لهن رغبات قلوبهن ويؤيد ايمانهن . ومن الغريب ان يشترك في سماع محاضراته بعض الاشتراكيين المتحمسين الذين وجدوا في نقده للمذهب العقلي تبريراً لانجيلهم الذي ينادي « بالاقلال من

الفكر وزيادة العمل « ولكن هذه الشهرة المبالغتة التي احاطت به دفعت ثمنها ،
اذ ان تأييد فئات مختلفة المشارب والميول له أدى الى هبوط اتباعه . وبهذا فانه
واجه مصير « سينسر » الذي عاش وشاهد دفن شهرته .

ومع ذلك فان برجسون اعظم الفلاسفة المعاصرين . لقد كنا نفكر قبل
برجسون بان العالم رواية تم صنعها ومصيرها ، لا نملك من امرها زماماً ولا
مبادرة ، وان جهودنا تذهب عبثاً، ولكننا بعدة اخذنا نرى العالم كمسرح ومادة
انشأناهما بقوانا . لقد كنا قبله اسنان عجلات لآلة واسعة لا حياة فيها . ولكننا الآن
نستطيع ان اردنا ان نساهم في كتابة رواية الخلق .

٢ - بندتو كروتشي

١ - الرجل

من المستحيل ان نجد شيئاً بين فلسفتي « برجسون » و كروتشي ، فان
برجسون صوفي يعبر عن أفكاره في وضوح خداع . اما كروتشي فمرتاب يعبر
عن أفكاره بطريقة المانية غامضة . ان لبرجسون نزعة دينية لكنه يتحدث لنا بأسلوب
التطور . اما كروتشي فعدو للنظام الكهنوتي ويكتب لنا بطريقة امريكية
هجلية . ان برجسون يهودي فرنسي ورث تقاليد سبينوزا ولا مارك . اما
كروتشي فكاثوليكي ايطالي فقد دينه باستثناء فلسفته اللاهوتية وتعبداً
الجمال .

ربما كان اجداب ايطاليا في الفلسفة في القرن الاخير يعود الى احتفاظها
بالاساليب والآراء المدرسية حتى من جانب المفكرين الذين تجاوزوا عن اللاهوت
القديم . من الممكن وصف ايطاليا بانها بلاد ازدهرت فيها نهضة ، ولكنها لم
تعرف الاصلاح . انها على استعداد لان تضحي بنفسها من اجل الجمال ، واكنها

تشك في وجود الحقيقة عندما تفكر بها . قد يكون الايطاليون اعقل منا جميعاً ، ووجدوا ان الحقيقة سراب خادع . وان الجمال هو الحقيقة . فقد كان اعلام الفن في ايطاليا ايام النهضة باستثناء (ميخائيل انجلو البروتستانتي) لا يهتمون ابدأ بالاخلاق والدين . ما دامت الكنيسة قد اعترفت بعبقريتهم وفنهم ودفعت لهم ثمن رسومهم . وغدا العرف في ايطاليا ألا يتعرض رجال الثقافة الى الكنيسة بسوء ، اذ كيف يقسو ايطالي على كنيسة سادت العالم ، وجمعت الجزية والخراج من كل بلد لتجعل من ايطاليا معرضاً للفن في العالم ؟

من اجل هذا بقيت ايطاليا موالية للايمان الديني القديم . وقنعت بفلسفة « توماس اكويناس » لقد جاء « جيام باتستافيكو » وحرك العقل الايطالي مرة ثانية ، ولكنه مات وماتت الفلسفة معه . وفكر « روزيني » بالثورة في وقت من الاوقات ولكنه عاد فاستسلم .

ولكن كروتشي شذ عن هذه القاعدة . ولد « بندتو كروتشي » عام ١٨٦٦ في مدينة صغيرة في مقاطعة « اكويليا » وكان الابن الاوحد لاسرة كاثوليكية محافظه ثرية . وتلقى دراسة تامة في الديانة الكاثوليكية احدثت اخيراً في نفسه رد فعل ودفعت به الى الالحاد . اذ لا يوجد طريق وسط بين الجمود الديني من ناحية ، والكفر المتطرف من ناحية اخرى ، في بلاد لم تعرف الاصلاح الديني . لقد كان كروتشي في اول حياته تقياً ومتديناً جداً الى درجة دفعته الى الاصرار على دراسة كل موضوع ديني ، الى ان بلغ اخيراً فلسفة هذا لدين ، وبطريقه لا شعورية احتلمت دراسته هذه مكان ايمانه .

وفي عام ١٨٨٣ نزلت به ضربة قاسية ، كانت كفيلة ان ترده الى ايمانه .

فقد وقع زلزال ودمر البلدة الصغيرة التي كان يعيش فيها وقضى على والديه
واخته الوحيدة . ولبت هو نفسه تحت الانقاض عدة ساعات ، وتكسر بعض
عظامه . وبعد عدة سنوات استرد صحته . ولم تظهر اعماله وحياته في ايامه
الاخيرة أي ضعف في روحه ، او فتور في همته . لقد قوى دور النقامة
والابلال من مرضه من ميله للمطالعة وتذوقه للمعرفة . واستخدم الثروة المعتدلة
التي خلفها له ابوه في جمع مكتبة تعتبر من افخم المكتاتب في ايطاليا . وغدا
فيلسوفاً من غير ان يدفع ثمناً لفلسفته من الفقر والحاجة . وحقق الحكمة القائلة
بان الحكمة خير اذا رافقها المال الموروث .

ظل كروتشي طيلة حياته طالباً ، محباً للأدب والراحة . وقد دفع الى
دخول ميدان السياسة دفعاً على غير رغبة منه عندما عين وزيراً للمعارف . وقد
يكون قبوله لهذا المنصب هو اضافة جو من كرامة الفلسفة في وزارة يتولاها
وزراء من رجال السياسة المحترفين . وانتخب عضواً في مجلس الشيوخ ، وعضوية
الشيوخ في ايطاليا دائمة مدى الحياة . وبذلك اصبح كروتشي مثلاً فريداً في
عصره بان جمع بين السياسة والفلسفة ، وهو امر غير مألوف في روما القديمة
وفريد في ايامنا هذه . واكفته لم يوجه اهتماماً كبيراً للسياسة بل كرس معظم
وقته لتحرير مجلته العالمية المشهورة « لأكريتيكا » .

وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى ، اشتعل كروتشي غضباً ورأى فيها
نزاعاً اقتصادياً يوقف تطور العقل الاوروبي ونموه . وان الواجب كان يقضي
بمنعها . وانها جنون وانتحار . على الرغم من ان الضرورة دفعت بايطاليا الى
الدخول في هذه الحرب بجانب الحلفاء . وبقي بمعزل عن قومه واصبح مكروها

منهم فكان حظه بذلك مثل حظ « برتراند رسل » في انجلترا و « رومان رولان » في فرنسا . لكن ايطاليا صفحت عنه وغفرت له موقفه . وعقد الشباب عليه آمالهم ورأوا فيه مرشداً مستقيماً وفيلسوفاً وصديقاً . واصبح منهم بمثابة المعهد العالمي الذي لا يقل اهمية في توجيهه عن الجامعات . وقد قيل عنه ان تفكيره سيبقى اعظم غزو فكري للفكر المعاصر . فلنبحث عن سر هذا النفوذ الذي تمتع به كروتشي .

٢- فلسفة الروح

كان اول كتاب اصدره كروتشي سلسلة من المقالات (١٨٩٥ - ١٩٠٠) موضوعها « مادية التاريخ ومبادئ كارل ماركس الاقتصادية » اُقد تأثر كروتشي باستاذة في الجامعة « انتونيو لابرولا » واقبل على مطالعة كتاب ماركس عن رأس المال . وهو يقول في هذا الصدد « لقد تأثرت كثيراً ببطالعاتي للمبادئ الماركسية ومتابعتي للصحف الاشتراكية الالمانية والاطالية التي حركت كياني كله ، وايقظت في نفسي لأول مرة الشعور بالحماسة للسياسة ، واصبحت كرجل وقع في الحب لأول مرة في حياته في سن متأخرة ، ينبغي عليه ان يرقب في نفسه هذه العاطفة الجديدة ، ولكن خمر الاشتراكية والاصلاحات الاجتماعية لم تسكره طويلاً ، وسرعان ما عاد الى محراب الفلسفة .

لقد كانت احدى نتائج هذه المطالعات الاشتراكية ان عاد كروتشي الى تعظيم فكرة « فائدة المساواة عن طريق الخير والجمال والحقيقة . » ان هذا لا يعني تسليمه بوضع اعظم الاهمية على العوامل الاقتصادية كما ذهب الى ذلك « ماركس » و « انجيز » لقد اطرى على هذين الرجلين وضع نظرية على الرغم

من نقصها فانها لفتت الانظار الى معلومات تجاهلها العالم من قبل وقلل من اهميتها . ولكن كروتشي رفض التسليم بمبدأ تفسير التاريخ على اساس اقتصادي صرف، واعتبره استسلاماً الى ايجاء البيئة الصناعية . ورفض قبول المذهب المادي كفلسفة للبالغين او حتى وسيلة للعلم ، فقد كان العقل لا المادة بالنسبة له هو الحقيقة الاولى والاخيرة حتى انه اطلق على فلسفته عندما كتبها « فلسفة الروح » .

وذلك لان كروتشي مثالي ولا يعترف بفلسفة بعد فلسفه « هجل » وعنده ان الحقيقة كلها عبارة عن فكر . فنحن لا نعلم شيئاً الا كما تصوره لنا حواسنا وافكارنا . فقد كان يحاول ان يبرهن على ان جوهر الكون افكار خالصة مجردة . فلا يعنيه ان يعرف فكرة او يوضحها بتخفيضها الى ما ينشأ عنها من نتائج عملية ، بل كان يفضل ان يخفض النواحي العملية الى افكار وعلاقات بين افكار .

والفكرة المجردة معناها عنده الفكرة الكلية ، مثال ذلك الكم والكيف والتطور ، او اي فكرة يمكن تطبيقها على الحقيقة كلها . ويتقدم في الحديث عن هذه الافكار الكلية بطريقة غامضة وكأن روح « هجل » قد تجسدت فيه . وكأنه اراد ان ينافس استاذ الغموض « هجل » في شهرته . وقد اطلق كروتشي على مجته اسم المنطق ليقنع نفسه بانه يزدرى الابحاث الميتافيزيقية وانه قد احتفظ بطهارته ونأى بنفسه عنها . فلا يعتقد بان الميتافيزيقا صدى لعلم اللاهوت ، وان استاذ الفلسفة في الجامعات الحديثه هو صورة اخيرة طبق الاصل من رجل الدين والكهنوت في القرون الوسطى . وهو يمزج بين مثاليته وبين قسوة ارائه عن الديانات ، فهو ينكر الدين ، ويعتقد

بحرية الارادة ، ولكنه لا يؤمن بخلود الروح . ويستبدل الدين بعبادة الجمال والثقافة . « ان دينهم تراث فكري ورثوه عن الشعوب المتأخرة البدائية . اما ديننا فهو تراثاً الفكري الذي ورثناه عن انفسنا . »

« ... لا ندرى ما هي الفائدة التي يجنيها هؤلاء الذين يريدون المحافظة على الدين جنباً الى جنب مع نشاط الانسان النظري وفنه ، ونقده ، وفلسفته . فالفلسفة تنزع من الدين كل اسباب البقاء . »

... وباعتبار ان الفلسفة علم للروح فهي تنظر الى الدين نظرتها الى ظاهرة عرضية ، وحقيقة انتقالية مؤقتة .

اننا نواجه هنا في فلسفة كروتشي مزيجاً من الفلسفة الطبيعية والروحية ، واللاادرية واللاحتمية ، والعملية والمثالية ، والاقتصادية ، وتقديس الذوق والجمال . حقاً انه ابدى اهتماماً بنواحي الحياة النظرية اكثر من اهتمامه بنواحيها العملية ، ولكن جوهر المواضيع التي تناولها في مقالاته تشهد على انه بذل جهوداً امينة للتغلب على نزعتة المدرسية العلمية . وكتب مجلداً ضخماً سماه « فلسفة الجانب العملي » احتوى على جزء كبير من المنطق مع اختلاف الاسم ، وجزء آخر عن ابحاث ميتافيزيقية عن مشكلة حرية الارادة القديمة . ووضع كتاباً آخر عنوانه « في التاريخ » ذهب فيه الى ان التاريخ فلسفة متحركة ، وان المؤرخ هو الذي لا يظهر الطبيعة في صورة نظرية مجردة بل في صورة من الحقيقة العملية التي تؤثر فيها الاسباب والمسببات . ويطالب كما طالب فيكون من قبله بوجود ان يكتب الفلاسفة التاريخ . ويمتقد ان التاريخ العلمي قد بلغ من الدقة العلمية حداً بعيداً اضاعت من المؤرخ الحقيقة المرجوة لسعة اطلاعه .

يعترف كروتشي بتعذر كشف الماضي على حقيقته ويستشهد بتعريف

« روسو » للتاريخ بانه « فن اختيار اكدوبة تشبه الحقيقة من بين جملة اكاذيب » وهو لا يجب البحث النظري في التاريخ ويعتقد بان النظريين من امثال « هيجل » و « ماركس » يشوهون الماضي بتحويله الى منطق ينتهي الى تحاملهم . وعلى الفيلسوف الذي يكتب التاريخ ان يكرس نفسه للكشف عن الاسباب والنتائج والارتباط في حوادث التاريخ . وان يتذكر ان هذا الشطر وحده من الماضي يمتاز بقيمة عالية معاصرة في اهميتها وتنويرها . قد يكون التاريخ ما سماه نابليون « الفلسفة الحقيقية الوحيدة وعلم النفس الحقيقي الوحيد » لوقام المؤرخون في كتابته كسفر يكشف القناع عن الطبيعة ويكون مرآة للانسان .

٣ - ما هو الجمال ؟

بدأ كروتشي دراسته بالتاريخ والآداب وانتهت به هذه الدراسة الى الاقبال على الفلسفة . كان طبيعياً ان تأخذ فلسفته لونا يتجه فيه الى النقد وتذوق الفن والجمال . واعظمة مؤلفاته هو كتابه عن « الجمال » الذي نشره في عام (١٩٠٢) وفيه يفضل الفن على الميتافيزيقا والعالم . ان العلوم تقدم لنا فائدة ولكن الفنون تقدم لنا الجمال . ان العلوم تباعد بيننا وبين الفرد والحقيقة وتنقلنا الى عالم حافل بالمجردات الرياضية . حتى تصل « كما في اينشتين » الى نتائج خطيرة ليست لها اهمية عملية . اما الفن فينتج بنا مباشرة الى الشخص المعين والحقيقة الفريدة ، الى الكلي الفلسفي المعروف بالبداهة في صورة الفرد المعين . « المعرفة صورتان : فهي اما وجدانية او منطقية ، معرفة نحصل عليها عن طريق الخيال او معرفة نحصل عليها عن طريق العقل ، معرفة الفردي او معرفة الكلي ، معرفة الاشياء الفردية او معرفة ما بينها من صلات . فهي اما ان تكون نتيجة الصور الفردية او الافكار الكلية . » لذلك فان اصل الفن يكمن في القدرة على تكوين الصور الذهنية . « والفن يحكمه الخيال وثروته الصور الذهنية فقط . والفن لا يبوب الاشياء ولا يحكم عليها بانها حقيقية او خيالية . ولا يصفها او يعرفها ، بل يحس بها ويصورها ليس الا » . وبما ان

الخيال يسبق الفكر وهو شرط ضروري له ، كانت فاعلية العقل الفنية ، أي قدوته على تكوين الصور الذهنية ، اسبق من فاعليته المنطقية ، أي التي تكون الافكار الكلية . فلا يكاد الانسان يقوى على التخيل حتى يصبح فناناً قبل ان يبلغ المقدرة المنطقية بزمن طويل .

واعلام الفن يفهمون ما ذكرنا ، فقد قال « ميخائيل الجبلو » « ان الانسان لا يرسم بيده بل برأيه » وقال « ليوناردو » ، « ان عقول العباقرة اكثر نشاطاً وابداعاً في اقل الاعمال خارجية وكلنا نعرف القصة التي تروى عن « دافنشي » عندما كان يصور « العشاء الاخير » فقد جلس عدة ايام امام لوحته ساكناً بلا حركة قبل ان يمس اللوحة بما ضايق رجل الدين الذي كلفه بالعمل وانتقم الفنان لنفسه من رجل الدين الذي كان يلح عليه بشدة لبدأ العمل بان اتخذ من وجه رجل الدين نموذجاً لصورة هوذا .

ان جوهر الفاعلية الفنية ، يكمن في هذا المجهود الساكن الذي يبذله الفنان وهو صامت ليتصور الصور الكامنة المتقنة التي تعبر عن الموضوع الذي في ذهنه . فليست معجزة الفن في اظهار الصورة واخراجها بل في تصور الفكرة ، لان اخراج الصورة ليس الا صياغة آلية وبراعة يدوية .

« بعد ان نسيطر على الكلمة الباطنية ، وبعد ان ندرك الشكل او التمثال ادراكاً واضحاً جلياً وبعد ان نجد موضوعاً موسيقياً فان التعبير سيد كأملاً ولا حاجة بنا لاكثر من ذلك . . فان فتحنا بعمدنا افواهنا للكلام او الغناء . . . فما علينا عندئذ الا ان نرفع صوتنا بما قلناه من قبل في سرنا وباطننا ، وان نرفع صوتنا بالغناء بما غنينا من قبل في السر في دخيلة نفوسنا . فاذا عزفت ايدينا على دساتين البيان ، او تناولنا قلماً او إزميلاً فلسنا نعمل الاعمال ارادياً

(يتعلق بالجانب العملي من الانسان ألا بالفاعلية الفنية) وما نقوم به عندئذ في حركات كبيرة هو تنفيذ ما نفذناه في باطننا بسرعة وإيجاز .

هل هذا يساعدنا في الاجابة على السؤال المثير ، ما هو الجمال ؟ ان في الجمال آراء بقدر ما في العالم من رؤوس ، وكل محب للجمال يعتبر نفسه حجة في هذا الموضوع لا مرد لرأيه . ويمتد كروتشي بان الجمال هو التكوين العقلي للصورة الذهنية ، او (لسلسلة من الصور) يبدو فيها جوهر الشيء المدرك . فالجمال يمت الى الصورة الباطنية اكثر منه بالصورة الخارجية التي هي تجسيد للباطنية . اننا نميل الى التفكير بان الفرق بيننا وبين « شكسبير » هو فرق في طريقة التعبير الخارجي فقط ، وان لدينا نفس الافكار التي طافت بذهن شكسبير ولكننا لا نجد الكلمات التي تعبر عنها . ولكن هذا وهم باطل ، فليس الفرق في قوة اخراج الصورة بل في المقدرة على تكوين الصورة الباطنية التي تعبر عن الشيء .

وحتى الاحساس بالجمال تعبير باطني ، فدرجة فهمنا او تقديرنا للعمل الفني تعتمد على قدرتنا في ان نرى الحقيقة المصورة ببصائرنا مباشرة ، اي قدرتنا على ان نكون لانفسنا صورة ذهنية معبرة . اننا نعبر عن بصائرنا دائما عندما نستمتع بالعمل الفني الجميل ... فبصيرتي انا هي التي تكون الصورة الذهنية « لهملت » او « عطيل » حين اقرأ شكسبير . اذن فسر الجمال هو الصورة الذهنية المعبرة سواء في الفنان الخالق او المتفرج المتامل لتلك الصور . الجمال تعبير سديد وبما انه لا وجود لتعبير حقيقي الا اذا كان سديداً يمكننا الاجابة على السؤال القديم ببساطة بقولنا ان الجمال تعبير .

ان افكار كروتشي مظلمة قليل بلا نجوم ، ان « فلسفة الروح » هذه تنقصها الروح ، « وفلسفة الجانب العملي » ليست عملية وتنقصها انفس الشواهد والمراجع الحية . ومقاله « عن التاريخ » يقف على ساق واحدة من الحقيقة باقتراحه التوحيد بين التاريخ والفلسفة ، ولكنه يفقد الساق الاخرى لعجزه عن ان يرى بان التاريخ يصبح فلسفة عندما يكون تركيباً تحليلياً . وان لا يكون تاريخاً ممزقاً (يقدم في كتب منفصلة ، قصة منفصلة عن النشاط الاقتصادي والسياسي والفلسفي والديني والادبي والفني) ولكن ما يمكن ان نطلق عليه اسم التاريخ المتزوج - تاريخ تقدم فيه جميع اوجه الحياة الانسانية في فترة معينة - بطريقة موجزة تقتضيها مقدرة الفرد المحدودة ، بحيث تدرس اوجه الارتباط فيها ، واستجاباتها المشتركة لحالات مشابهة ، وفي تأثيرها المتبادل المختلف . ان هذا سيكون صورة لعصر ، صورة لتعميد وحيرة الانسان . وسيوافق الفيلسوف على كتابة مثل هذا التاريخ .

اما بالنسبة الى الجبال ، فلنترك الحكم للآخرين . هل صحيح ان الانسان يكون فنانياً بمجرد تكوينه للصورة الذهنية ؟ وهل يكمن جوهر الفن في التصور الباطني فقط لا في الاخراج ؟ ألم يحدث لنا ابداً ان كانت لدينا افكار ومشاعر

اجمل من كلامنا ؟ كيف نعرف ما هي الصورة الباطنية التي كانت في ذهن الفنان ، وفيما اذا كان العمل الذي حاز على تقديرنا يحقق فكرة الفنان او يبتعد عنها .

من الممتع والمربك ايضا بلا شك ان نعرف رأي الفنانين في هؤلاء الفلاسفة الذين يتحدثونهم عن الجمال ، وعمما هو الجمال . ان اعظم فنان معاصر لنا ابتعد عن الاجابة على هذا السؤال وقال « اعتقد اننا لن نعرف ابدأ السبب في جمال الشيء . »

٣- برتراند رسل

١- المنطقي

عندما كان « برتراند رسل » يحاضر في عام ١٩١٤ في جامعة كولومبيا في موضوع فلسفة المعرفة والمنطق ، كان يبدو نحيلاً شاحباً كموضوعه الذي يحاضر فيه . فقد كان ضعيفاً يتوقع الانسان موته في كل لحظة . وعندما اشتعلت الحرب العالمية الاولى تألم هذا الفيلسوف المحب للسلام والرفيق المزاج أشد الألم ، لدى رؤية اعظم القارات مدنية تهبط الى حالة من البربرية الهمجية . وعندما يراه الانسان ثانية بعد عشر سنوات ، لا يسهه الا ان يشعر بالسعادة عندما يجده على الرغم من انه كان في الثانية والخمسين من عمره ، قد انقلب قويا طروباً يفيض بحبوية نائرة ، على الرغم من ان السنوات الاخيرة قد حطمت آماله ، وابتعدت عنه اصدقاءه ، وقطعت جميع خيوط حياته الارستقراطية التي كان يجد فيها مأوى يحميه من نوايب الزمن .

لانه سليل اسرة « رسل » وهي من اقدم الاسر في انجلترا ، واعرقها حسبا وابتعدا صيتاً ، بل من اشهر الاسر في العالم . اسرة انجبت للدولة البريطانية قادة سياسيين شغلوا ارفع المناصب السياسية اجيالاً عدة . فقد كان

جده « اللورد جون رسل » رئيساً للوزارة البريطانية علي مذهب الاحرار .
وانا حرباً لا هواة فيها ليظفر بحرية التجارة ، وتعميم التعليم المجاني ، وتحرير
الطائفة اليهودية ، والعمل من اجل الحرية في كل ميدان . وكان ابوه «الفيكبونت
امبرلي » مفكراً حراً لم يثقل ابنه بتعاليم اللاهوت الغربية الموروثة . وكان
« لبرتراند رسل » الحق في ارض الايرل رسل الثاني ولكنه أبى الا ان يكسب
معيشته بنفسه لانه لا يؤمن بنظام الوراثة . وعندما فصلته جامعة كامبردج من
عمله فيها بسبب ميوله السلمية التي تتنافى مع سياسة بريطانيا ، جعل من العالم
جامعة له فراح يطوف ويلقي المحاضرات في كل بلد داعياً الى ما يؤمن به ، وقد
استقبله العالم بالبشر والسرور .

لقد اتجه رسل في الفترة الاولى من حياته الى المنطق والرياضيات ولكنه
خرج من الحرب العالمية الاولى تتملكه نزعة شيوعية . لقد كانت به نزعة رقيقة
غامضة دائماً تمثلت اولاً في اكداس من الصيغ الجبرية التي كان يحشو بها كتبه
وبعدئذ وجدت تعبيراً لها في الاشتراكية . ومن اول مؤلفاته كتابه « التصوف
والمنطق » الذي مجد فيه الطريقة العلمية وهاجم التصوف .

وهو يخبرنا بأنه لم يحضر السينما ابداً الى ان قرأ ما كتبه برجسون من ان
هنالك حاسة تدرك الزمن والحركة ، وقرأ تشبيهه بالحياة بشريط السينما ،
ولكنه لم يتأثر بأراء برجسون التي بدت في عينيه شعراً جميلاً ليس الا ، فقد
كان رسل لا يتخذ معبوداً آخر مع الرياضيات . ولم تكن به رغبة في دراسة
الآداب القديمة ، وراح يجادل بشدة وكأنه « سبنسر » آخر داعياً الى المزيد من
تدريس العلوم في نظام التعليم . وشعر ان مصائب العالم وآلامه ناجمة الى مدى
كبير عن غموض في التفكير . وعنده ان قانون الاخلاق الاول هو ان يفكر

الانسان تفكيراً قويمًا . « خير للعالم ان يفنى من ان اصدق ، او يصدق أي
انسان آخر اكذوبة ... هذه هي ديانة الفكر الذي يحرق بلهبه المشتعل
او هام العالم » .

لقد طالب رسل بجلاء الفكر ووضوحه . وقد دفعت به هذه النزعة الى
دراسة الرياضيات ، لما رأى من دقة في هذا العلم الارستقراطي الهادي . « اننا
اذا استعرضنا الرياضيات استعراضاً صحيحاً لما وجدنا فيها الحقيقة فحسب ،
بل وجدنا فيها جمالا ساميا ، جمال البرود والقسوة والصرامة ، كالجمال الموجود
في صناعة نحت التماثيل ، الذي لا يتجه الى جوانب الضعف في طبيعتنا ، ولا
ينصب لنا من الجائل ما تنصبه لنا الموسيقى او التصوير . ومع ذلك فهو جمال
فيه الصفاء والسناء والمقدرة على بلوغ الكمال الذي لا يتاح الا لاعظم الفنون .
« يعتقد رسل ان تقدم الرياضيات في القرن التاسع عشر كان اعظم معالم هذا
القرن ، وخاصة حل المصاعب التي كانت تحيط سابقاً فكرة اللانهاية في
الرياضيات ، وهو اعظم ما يفاخر به عصرنا . فقد تم في قرن واحد من الزمن
دك قلعة الهندسة القديمة التي سادت عالم الرياضيات مدى الفي عام . ووضع
من الكتب في هذا العلم ما حل محل كتاب « اقليدس » اقدم كتاب مدرسي
في العالم » من العار على المجترات مواصلة تدريس هذا الكتاب للاولاد . »

ولعل مصدر الابداع في الرياضيات الحديثة هو نبذها للبديهيات ، ولكم
ابتهج « رسل » حين وجد رجالا نهضوا فتحدوا هذه البديهيات ، وألحوا
باصرار على اقامة الدليل عليها . فقد اغتبط حين سمع من قال بان الخطيين
المتوازيين قد يلتقيان في مكان ما ، وان الكل قد لا يكون اكبر من احد
اجزائه . يجب « رسل » ان يفزع القاري والبري ، بألفاظ محيرة مربكة بقوله

مثلا ، الاعداد الزوجية نصف الاعداد كلها ، ومع ذلك فهناك من الاعداد الزوجية ما يساوي في عدده كل ما يوجد من اعداد ، لأن لكل عدد زوجياً كان ام فردياً ، ضعفا زوجيا ، ثم يقول ، هذا هو كل شيء بالنسبة الى اللانهاية الرياضية ، فهي كل يحتوي على اجزاء في كل جزء منها من الاجزاء ما في الكل .

ان ما يستهوي « رسل » في الرياضيات ويجذبه نحوها هو ما تتصف به من موضوعية صارمة لا دخل للشخصية فيها . هنا وهنا فقط تكمن الحقيقة الخالدة والمعرفة المطلقة . ان نظريات الرياضيات الثابتة المسلم بها هي 'مشئ' افلاطون ونظام سبينوزا الخالد ، وجوهر العالم . ينبغي ان يكون هدف الفلسفة بلوغ ما في الرياضيات من كمال ، بان تقيد نفسها باقوال لها من الصحة والضبط ما للرياضيات ، ولها من الحق الثابت قبل كل انواع التجربة . اذ ينبغي ان تكون فروض الفلسفة قضايا مسلماً بها ، هذا هو ما يريده « رسل » الايجابي العجيب ، بان لا تشير هذه الفروض الفلسفية الى الاشياء بل الى صلات ، وصلات كلية . بان تكون مستقلة عن الحقائق الخاصة والحوادث ، حتى ولو تبدل كل جزئي في العالم ، تبقى هذه الفروض الفلسفية صحيحة ، مثال ذلك اذا فرضنا ان كل الالفات باءات ثم فرضنا ان (س) تساوي (ا) لكانت (س) تساوي (ب) فهذا حق مهما كانت (ا) . وسترد بالقياس المنطقي القديم حول فناء سقراط الى كلي ثابت مسلم به ، وتكون حقيقة حتمى في حاله عدم وجود سقراط او أي شخص آخز اطلاقاً . لقد كان افلاطون وسبينوزا على صواب ، اذ يمكن وصف عالم الكليات بأنه عالم الوجود . ان عالم الوجود ثابت صحيح ، جاف وسار بالنسبة الى الرياضي والمنطقي ومنشئ النظم الميتافيزيقية ، والى جميع

من يحبون الكمال اكثر من الحياة . فلو استطعنا ان نحصر كل الفلسفة في مثل هذه الصورة الرياضية ؛ وان نخرج منها كل ما فيها من الحقائق الجزئية وان نقرب الشبه بينها وبين الرياضيات لبلغنا ما نريد . هذا ما كان يطمح اليه « رسل » فيثاغورس العصر الحديث .

من المثير للدهشة ان يهبط « رسل » الى سطح هذه الارض بعد ان حلق بعيداً في سماء الرياضيات والمنطق وكتب عدة مجلدات فيها . وأخذ يبحث بعاطفة قوية مواضيع الحرب والحكومة والاشتراكية والثورة ، من غير ان يلجأ الى استخدام منطق الرياضيات .

لقد أدت بداية رسل في الرياضيات الى مصير محتوم من اللادرية والشك فقد وجد في المسيحية كثيراً من الاشياء التي لا تتفق مع ما في الرياضيات من قواعد ونظريات ثابتة فتخلى عنها باستثناء قانونها الاخلاقي . وأخذ يتحدث في ازدراء واحتمار عن مدينة تضطهد أناساً ينكرون المسيحية . ولم يستطع ان يجد الها في مثل هذا العالم المتناقض الذي لا يمكن ان يكون الا من صنع شيطان ساخر هازل . وهو يتابع « سبنسر » في رأيه عن نهاية العالم بالفناء ، ولكنه يشك فيما قيل في مذهب التطور من ان العالم سائر الى الامام ويقول « لقد قيل لنا ان الحياة العضوية قد تطورت تدريجياً من الخلية الاولى الى الفيلسوف ، وان هذا التطور تقدم لا سبيل الى الشك فيه ، ولكن لسوء الحظ ان من يؤكد لنا هذا هو الفيلسوف لا الخلية » ان الرجل الحر لا يستطيع ان يعزى نفسه بمثل هذه الآمال الصيبانية والالهة الرومية . بل عليه ان يحافظ على شجاعته ورباطة جأشه على الرغم من معرفته بان مصيره ومصير الاشياء كلها الفناء . وان لا يستسلم ، فان كان لا يستطيع الظفر ، يكفيه ان يستمتع

بلذة الكفاح . وانه بمعرفته التي تمكنه من ان يتنبأ بهزيمته يقف في منزلة اعلى من القوى العمياء التي ستعمل على تدميره وفنائه . ان الرجل الحر لن يتجه الى عبادة قوى العالم الخارجي القاسية التي تقهره بهجومها المستمر المجرد عن الهدف فتقوض كل ما يبني من منازل ومدنيات ، بل يتجه في عبادته الى ما في نفسه من قوى خلاقة لا تني تجاهد وتكافح اسباب الفشل .

هكذا كانت فلسفة برتراند رسل قبل الحرب .

٢ - المصلح

واشتعلت الحرب، وانفجر برتراند رسل الذي بقي مدفوناً مدة طويلة تحت انقال المنطق والرياضيات وفلسفة المعرفة ، واضطرم كاللهب المشتعل، وادهش العالم بشجاعته الفائقة ومحبهه ، وعطفه على الانسانية . وقفز العالم من وراء اكرام المنطق ، وراح يصب على اعظم رجال السياسة في بلاده سيلاً من النقاش والتعليق استمر بعد طرده من كرسيه في الجامعة وعزله وكأنه « جاليلو » آخر في حي ضيق في لندن ، فلئن شك الناس في حكمته فقد سلموا باخلاصه ، لقد أحدث هذا التحول المعجيب في شخصية رسل بلبله وارتبكا كادفعتهم الى مقاومته فترة من الزمن بتمصّب بمقوت لا يتفق مع ما عرف عن الانجليز ، من تسامح ، ووجد رسل ذنسه على الرغم من عراقة محته ، وكريم اصله ونبل عائلته ، طريداً منبوذاً من المجتمع ، وانكره الناس واعتبروه خائناً لوطنه الذي تغذى من لبنه وترعرع فوق ارضه .

وراء هذه الثورة المضطربة كان يكمن في نفسه رعب من المذابح والحروب ، فقد كان برتراند رسل مجموعة حساسة من المشاعر على الرغم من محاولته ان يكون عقلاً مجرداً ، وبدت له مصالح الامبراطورية البريطانية لا تستحق حياة الشباب الذين شهدهم يسرون في زهو الى ميدان القتال ليقتلوا ويموتوا ، وراح

يعمل للوصول الى أسباب هذه المجازر البشرية ، واعتقد بأنه وجد في الاشتراكية من التحليلات الاقتصادية والسياسية ما يكشف عن اسباب المرض والعلاج ، واعتقد ان الداء هو الملكية الخاصة والدواء هو الشيوعية .

لقد اشار الى ان الملكية الخاصة نشأت في الأصل عن اعمال العنف والنهب ، ان السرقة تتحول الى ملكية تحت سماع العالم وبصره في مناجم الماس ، في كمبرلي ومناجم الذهب في راند . لا خير للجماعة من أي نوع من وراء هذه الملكية الخاصة للارض ، ولو أصغى الناس لصوت العقل لأصدروا قانوناً بتحريرها غداً ، من غير تعويض للمالكين سوى دخل معتدل يجري عليهم في حياتهم .

وبما ان الملكية الخاصة تحميها الدولة ، والسرقات التي تنشأ عنها الملكية يقرها التشريع وتفرضها الاسلحة والحروب فالدولة اذن شر عظيم ، ومن الافضل تجريد الدولة من معظم اعمالها واعطائها الى نقابات المنتجين التعاونية ، لقد سحقت المجتمعات شخصية الفرد والحرية هي الخير الاسمي لانها السبيل الوحيد الى احتفاظ الفرد بشخصيته . لقد تعقدت الحياة والمعرفة في هذه الأيام حتى أصبحنا لا نستطيع ان نسلك طريقنا الى الحقيقة وسط ما يحيط بنا من أخطاء وتحامل وتحيز الا بالنقاش الحر ، ولنترك الناس حتي والمعلمين يختلفون في الرأي ويناقشون فيه اذ سينبثق عن هذا الخلاف في الآراء رأي نسبي ينجو بنا من اللجوء الى القتال والاستجابة لدعوة الحرب . لان الكراهية والحروب ترجع الى مدى كبير الى الآراء الثابتة والعقائد الجامدة . ان حرية الفكر والقول بمثابة الجرعة المطهرة التي تطهر العقل الحديث من الخرافات والاوهام والامراض العصبية .

لأننا لم نبلغ من التعليم درجة كبيرة كما نظن . ونحن لم نبدأ تجربة تعميم التعليم الا منذ وقت قريب ، ولم يتسع امامها الوقت . لتؤثر اثرها العميق على طرق تفكيرنا وعلى حياتنا العامة ، اننا نلبي ونعد المعدات ولكننا لا نزال بدائين في الوسائل والفن ، اننا نلن في التعليم وسيلة لتحويل مقدار معين من معرفة مسلم بصحتها الى اذهان التلاميذ ، في حين انها يجب ان تكون تطوراً وتقدماً لعادة العقل العلمية ، فان اهم ما يميز الرجل الجاهل هو سرعة تكوينه لأرائه واعتبارها اموراً مطلقة ، اما العالم فيمتاز ببطء الاعتقاد والايان والميل في كلامه الى التعديل والتحويل . ان التوسع في استخدام العلم والطريقة العلمية في التعليم في المدارس سيقدم لنا مقياساً لذلك الضمير العقلي الذي لا يؤمن الا بما في يديه من شواهد وأدلة ، ويكون دائماً على استعداد لان يقبل امكانية الخطأ في الرأي . قد يثبت التعليم بمثل هذه الوسائل انه انجح علاج لامراضنا وقد يجعل من احفادنا طلائع المجتمع الجديد ، ان الجزء الفطري في اخلاقنا قابل للتغير ، وقد تغيره الآراء والظروف الاجتماعية والمعاد العلمية ، التعليم قادر على تشكيل الآراء والميل بها الى تقدير الفن اكثر من تقدير المال والثروة كما كانت الحال في ايام النهضة الاوروبية ، وترقية ملكات الابداع والخلق في الناشئة ، وتقليل دوافع رغبة الامتلاك والثروة في النفوس ، هذا هو مبدأ النمو الذي يؤدي الى قاعدتين عظيمتين من الاخلاق الجديدة الاولى ، مبدأ الاحترام « وهو ترقية نشاط الافراد والجماعات كلما امكن الى ذلك ، سبيلاً » والثانية مبدأ التسامح وهو « ألا يكون فرد او الجماعة على حساب فرد آخر او جماعة اخرى ما أمكن الى ذلك سبيلاً . »

لن يقف امام الانسان شيء لا يستطيع فعله او القيام به لو تطورت برامج التعليم في مدارسنا وجامعاتنا ، واديرت ادارة حسنة امينة ، ووجهت توجيهها

عاقلاً حكيماً الى اعادة بناء الاخلاق الانسانية ، هذا هو السبيل للتخلص مما
ينتاب العالم من جشع اقتصادي ووحشية دولية ، هذا هو السبيل القويم لا
الثورة العنيفة او التشريع المكتوب على الورق ، لقد استطاع الانسان السيطرة
على جميع انواع الحياة الاخرى ، لان تكوينه ونموه استغرق وقتاً اكثر منها ،
وعندما يتوفر له وقت اطول وينفق هذا الوقت بحكمة اكثر ، فقد يتعلم حتى
السيطرة على نفسه واعادة بنائها من جديد بطريقة افضل ، ان مدارسنا مفتاح
المدينة الفاضلة .

٣ - ختام

لقد اسرف برتراند رسل في التفاؤل ؛ مع اننا نؤثر الخطأ في جانب الامل على الخطأ في تفضيل اليأس ، لقد صب رسل في فلسفته الاجتماعية تصوفاً ، وغموضاً وعاطفة تجنبها في آرائه الدينية والميتافيزيقية ، فهو لم يطبق على نظرياته الاقتصادية والسياسية نفس التدقيق وامعان النظر في الفروض ونفس الشك في البديهيات التي جعلته يرضى عن الرياضيات والمنطق ، فقد ساقه حبه للكمال « اكثر من الحياة » الى صور رائعة فاخرة تصلح لان تكون قصائد شعرية للتخفيف من اعباء العالم اكثر من كونها محاولات عملية للاقتراب من مشاكل الحياة . من الممتع ان تفكر في مجتمع يحترم فيه الناس الفن اكثر من الثروة كما يرجو « رسل » ولكن ما دامت الشعوب تنشأ وتسقط في مجرى الانتخاب الطبيعي للجماعات وفقا لقوتها الاقتصادية لا لقوتها الفنية التي يكون لها القيمة الاعظم في البقاء ستجد لها اتباعا اكثر بين الناس ، والفن ليس الا زهرة تنمو وتترعرع في تربة الثروة والمال . ويستحيل ان يحل الفن محل الثروة او يكون بديلا لها ، فقد سبقت اسرة « مديتشي » الثرية فن « ميخائيل انجلو » .

ولكن لا ضرورة للبحث عن عيوب هذا الحلم البراق الذي صورته لنا « برتراند » رسل اذ ان في تجربته الشخصية اقوى ناقد له ، فقد وجد نفسه عندما سافر الى روسيا وجهاً لوجه امام محاولة خلق مجتمع اشتراكي . واوشكت المصاعب التي تواجه هذه المحاولة في انشاء مجتمع اشتراكي على زعزعة ايمانه وتحطيم انجيله الاشتراكي ، وخيب امه خوفاً الحكومة الروسية من اتخاذ الاجراءات الديمقراطية التي اعتبرها اساساً بديهاً للفلسفة الحرة واثار سخطه كبت حرية الكلام والصحافة ، واحتكار الحكومة لكل وسائل الاعلام والدعاية وجعل الشعب الروسي واميته لان مقدرة القراءة في مثل هذا العصر الذي أجمت فيه الصحف وخضعت لاشراف الحكومة وتوجيهها تؤخر الوصول الى الحقيقة ، وراعه فشل تأمين الاراضي واستسلامه الى الملكية الخاصة ، وان الناس لن يفلحوا الارض ويزرعوها الا اذا علموا بانتقال ملكيتها وما ادخلوه في تحسينها الى ابنائهم من بعدهم ، يبدو ان روسيا في طريقها لأن تكون شعباً عظيماً يتألف من اصحاب الاراضي الفلاحين ، لقد بدأ يفهم بان هذا الانقلاب بكل ما فيه من تضحيات واعمال بطولية ليس الا روسيا كما كانت عام ١٧٨٩ .

ولعله شعر براحة اكثر عندما ذهب الى الصين ، وبقي عاماً يحاضر فيها ، فقد وجدها أقل آلية وأضيق خطى في سيرها ، اذ يستطيع الانسان ان يجلس ويفكر وان تقف له الحياة حيناً فيستطيع تشريحها وتحليلها . فقد انفسحت امام فيلسوفنا آفاق ومناظر جديدة في ذلك البحر الصيني الزاخر بالناس . وادرك ان اوروبا ليست سوى تجربة كاذبة امام قارة اعظم منها

وأقدم وربما أعمق منها ثقافة ، وذابت فلسفته وألحلت كما نلّس ذلك في قوله :

« لقد ادركت انه ليس للجنس الابيض تلك الاهمية التي كنت اعتقد ، فلو أبادت اوروبا وامريكا نفسها في الحرب فان هذا لا يعني فناء النوع البشري او انتهاء المدنية اذ سيبقى بعد ذلك عدد كبير من الصينيين . والصين اعظم امة رأيتها اطلاقاً من عدة وجوه ، فهي ليست أعظمها من الوجهة العددية والثقافية فحسب ، بل يبدو لي انها اعظمها من الوجهة العقلية ، ولا اعرف مدينة اخرى ما للصين من سعة العقل والواقعية والرغبة في مواجهة الحقائق كما هي ، دون محاولة تشويهها في قالب معين .

من العسير احياناً ان تبقى فلسفة « برتراند رسل » الاجتماعية كما هي فلا يطراً عليها تغيير او تبديل بعد تنقله هذا من انجلترا الى امريكا وروسيا والهند والصين ، فقد اقنعه العالم الفسيح الارحاء استحالة وضعه في صيغ من المنطق والرياضيات وان اتساع العالم وثقله لا يسمح له بالسير في السرعة التي يرغب بها فيلسوفنا « برتراند رسل » اننا نجدده الآن اكبر سناً واكثر حكمة . انضجه الزمن وحنكته الحياة ، انه لا يزال يقظاً كما كان دائماً مدركاً لامراض المجتمع ، ولكن النضوج علمه الاعتدال وصعوبة الاصلاح الاجتماعي .

يا له من انسان محبوب قادر على البحث في أعماق الميتافيزيقا وأدق الرياضيات في بساطة الحديث ووضوح الاسلوب ، فقد عكف على دراسة مواضيع ينضب فيها منبع الشهور ، ومع ذلك فقد كان يطفح بحرارة العطف والشفقة والرأفة

نحو الانسانية ، انه ليس مجاملاً او متزلفاً بل عالماً ولطيفاً ، وافضل مسيحية
من كثير ممن يتشدقون بهذه الكلمة ، ويسعدنا انه لا يزال قويا وصادقا
مخلصاً ، ولا تزال شعلة الحياة تضيء فيه نوراً . ومن يدري فلعل السنين القادمة
تزيد من حكمته بعد ان استفاق فتكتب اسمه بين اعظم الفلاسفة
الخالدين .

الفصل الحادي عشر

الفلاسفة المعاصرون في أمريكا

سنتيانا . جيمس . ديوي

مقدمة

تنقسم أمريكا فكريا الى امریکتين ، احدهما اوروبية والآخرى امریکية . ان امریکا الاوروبية تشمل الولايات الشرقية . حيث ينظر الرعيل القديم باحترام الى الفئات الارستقراطية الخارجية . ويلتفت المهاجرون الجدد بجنين واشتياق الى ثقافة اوطانهم التي جاؤوا منها . يشتد الصراع في امریکا الاوروبية هذه بين الروح الانجلوسكسونية الرصينة الدمثة ، وروح المهاجرين الجدد المبدعة المتوثبة المتبرمة . لا بد ان ترضخ طرائق الفكر والعادات الانجليزية في المستقبل لثقافة القارة التي تحيط بها وتغرقها في هذه المنطقة . ان المزاج البريطاني لا زالت له السيادة في الوقت الحاضر على الادب ، لكنه فقد سيادته على الاخلاق في امریکا الشرقية . ان مستوى الفن والذوق في المدن الاطلسية انجليزي ، والتراث الادبي تراث انجليزي ، والفلسفة تسير على النهج الانجليزي . ان انجلترا الجديدة هي التي انجبت « وشنطن » و« ارفينج »

و « امرسون » وحقى (بو) وهي التي سطرت كتب الفيلسوف الامريكى الاول ،
« جونانان ادواردز » وانجلترا الجديدة هذه هي التي استهوت وهيات وأعدت
المفكر الامريكى الغريب الاخير « جورج سنتيانا » لان سنتيانا فيلسوف امريكى
بحكم الجغرافيا فقط . فهو اوروبى ولد في اسبانيا وانتقل الى امريكا في ايام
طفولته المجهولة . وعاد الى اوروبا بعد نضجه كمن يعود الى فردوس بعد طول
غيباه .

اما امريكا الاخرى ذات الطابع الامريكى فتشمل الشعب الذي تأصلت
جذوره في التربة الامريكى لا الاوروبى . فهو امريكى قلبا وقالبا وحسا ،
وفكراً ، اخلاقاً ومثلاً . وهو الشعب الذي لا تتأثر روحه برقة العائلات التي
تزين « بوسطن » و « نيويورك » و « فيلادلفيا » ولا بعاطفة الاوروبين الجنوبيين
او الشرقيين المتقلبة . انهم رجال ونساء طبعوا على الحشونة الجسدية والاستقامة
العقلية ، وبساطة الحياة بحكم البيئة البسيطة التي عاشوا فيها ، والمهبات التي
قاموا بها . هذه هي امريكا التي انجبت « لنكلن » و « ثورو » و « يتان » و « توين » .
انها امريكا الحصان ورجال العمل .

وهي امريكا التي اثرت على « وليم جيمس » الذي غدا مبينا وناطقا
لفلسفتها . وهي امريكا التي انجبت الفيلسوف الامريكى « جون ديوي » .

سندرس « سنتيانا » اولاً على الرغم من التسلسل والترتيب الزمنى ، فهو على
الرغم من كونه اصغر فيلسوف بين كبار فلاسفتنا ، فانه يمثل مدرسة اجنبية اقدم .
كما ان عمق افكاره واريح اسلوبه لا يزال باقيا كعطر يفوح من غرفة نقلنا
الازهار منها . لن نحظى في امريكا بمثل سنتيانا ، لان امريكا بعده ستسطر فلسفة
امريكا وليس اوروبا .

١ - جورج ستتيانا

١ - حياته

ولد ستتيانا في مدريد عام ١٨٦٣ . وتوفي في روما عام ١٩٥٣ . لقد جاء الى امريكا عام ١٨٧٢ ، وبقي فيها حتى عام ١٩١٢ . وقد تخرج في جامعة هارفارد ، وعين فيها استاذاً ، ولبت فيها من سن السابعة والعشرين حتى بلغ الخمسين ولكنه لم يكن راضيا تماما بهذه البلاد التي اختارها لنفسه . فقد لطف العلم وروحه ، وأرهف الشعر احساسه ، وكان شاعراً اولاً وفيلسوفاً اخيراً . عانى الكثير من صخب حياة المدينة الامريكية وسرعتها واتجه بالغريزة الى « بوسطن » وكأنه اراد ان يكون قريباً من اوروبا مهما استطاع الى ذلك سبيلاً . ومن « بوسطن » انتقل الى كامبردج وهارفارد . عاش في خلوة اثر فيها افلاطون وارسطو ، على جيمس ورويس . وراح يبتسم في شيء من الاسى على شهرة زملائه . وبقي بعيداً عن الجماهير والصحافة . ولكنه كان يعرف حسن حظه لوجوده في اعظم مدرسة للفلسفة لم تشاهدها اية جامعة امريكية اخرى . فقد كانت صباحاً منعشاً ومشرقاً في حياة الفكر والعقل على الرغم من تلبده بالغيوم احياناً .

لقد كان اول مقال له في الفلسفة « حاسة الجمال » عام ١٨٩٦ . الذي يعتبر اعظم هبة امريكية في عالم الذوق والجمال . وبعد خمس سنوات اخرج مؤلفا رائعا في « تفسير الشعر والدين » وجد اقبالا اوسع من مقاله السابق . ولبت بعد ذلك سبع سنوات لا ينشر شيئا سوى مقطوعات شعرية ينشرها من وقت لآخر . حيث كان يعد اهم مؤلفاته الا وهو « حياة العقل » ولم يكذ يخرج الى الناس هذا الكتاب بمجلداته الخمسة « العقل في الادراك السليم ، العقل في المجتمع ، العقل في الدين ، العقل في الفن ، العقل في العلم » حتى ارتفع سنتيانا فوراً الى اوج الشهرة بين الاوساط الفلسفية . لقد كان سنتيانا مزيجاً صافياً من ارسطراطية شعوب البحر المتوسط ، والفردية الامركية . كان روحاً متحررة منيعة على روح عصره . يتحدث بلهجة العالم الوثني الذي جاء من مدينة الاسكندرية القديمة ليستعرض نظمنا الضئيلة بعين السمو وشعور الرفعة ، ويلطم احلامنا القديمة والجديدة باهدأ الفكر واروع النشر . لم تلبس الفلسفة ثوبا جميلا منذ افلاطون ما لبسته من جمال اللفظ ، وروعة الشعر في اسلوب سنتيانا . كلمات مطعمة بالحكمة ، وعبارات ناعمة النسيج ، يعطرها الذكاء ، ويحصنها النقد والعقل . يتحدث فيها الشاعر في ترف البيان ، والفنان في ريشة الاسلوب وسحر السياق في المقاطع . من الخير ان نجد انساناً يشعر باغراء الجمال ودعوة الحقيقة معا .

بعد ذلك جلس سنتيانا ناعماً على عرش شهرته ، قانعاً بنظم الشعر وتأليف بعض الكتب الثانوية . ثم غادر هارفارد الى انجلترا ليعيش فيها وظن العالم انه قد اتم واجبه ، وادى رسالته ، ولكنه اثار دهشة العالم مرة ثانية بنشره كتابه القيم « الشك وايمان الحيوان » في عام ١٩٢٣ . واعلن ان هذا الكتاب مقدمة لنظام فلسفي جديد . لقد كان من الممتع ان نرى رجلاً في الستين من عمره ، يبحر في رحلات بعيدة جديدة ، ويخرج كتاباً عنيفاً في فكره ، جميلاً في اسلوبه ، كغيره من كتبه السابقة . لا بد ان نبدأ في هذا الكتاب الاخير ، لأنه سيفتح لنا الباب لفهم افكار سنتيانا كلها .

٢ - الشك وإيمان الحيوان

يقول في مقدمة هذا الكتاب اننا « سنجد نظاماً آخر للفلسفة . فان وجد القارىء في نفسه رغبة في الابتسام فسأبتسم معه ... فأنا لا احاول ان اقدم للقارىء الا المبادئ التي يتجه اليها عندما يبتسم .» يبدي سنتيانا اعتدالا كبيراً في اعتقاده بإمكانية النظم الفلسفية الاخرى. وهذا غريب من فيلسوف. فهو يقول ، انا لا اطلب من احد ان يفكر بما افكر اذا كان يفضل تفكير الاخرين ، والأفضل اذا استطاع ان ينظف نوافذ روحه ، لينشر جمال المنظر وتنوع صورته اشراق ضوءه امامه .

يريد سنتيانا في هذا الكتاب الاخير ان يحو اولاً نسيج المناكب الذي نسجته نظرية المعرفة ، فمرقلت نمو الفلسفة الحديثة واخرت تقدمها . وقبل ان يعرف حياة العقل ، راح يتحدث عن اصل العقل البشري . لانه يعلم ان اسوأ ما يقع فيه الفكر هو قبوله الاراء التقليدية قبولاً اعمى ، ولهذا فهو يبدأ بالشك ، وهو على استعداد لان يشك في كل شيء . فيقول يصل اليها العالم الخارجي خلال الحواس فيمتزج بصفاتها وخصائصها ، وتأتي لنا الحوادث الماضية عن طريق الذاكرة التي تؤثر فيها الرغبة وتلونها كما تشاء . اذن فالعالم كما يظهر لنا والماضي كما نذكره قابلان للشك . اما ما يثق « سنتيانا » في صحته ثقة اليقين فهو تجربة اللحظة فهذا اللون وهذه الصورة ، وهذا الطعم وهذه الرائحة ، وهذه الصفة ، كل هذه وما شاكلها هي العالم « الحقيقي » وادراكها يكون « الكشف عن الجوهر »

ويقول « سنتيانا » ان المذهب المثالي صحيح ولكنه لا ينتهي الى نتيجة كبيرة . حقاً اننا نعرف العالم عن طريق افكارنا فقط ، ولكن ما دام العالم قد سار خلال الالف السنين تماماً على اساس الايمان بصدق احساساتنا ،

يمكننا اذن ان نقبل هذا القرار العملي من غير ان نخشى على المستقبل . قد تكون عقيدة الانسان خرافية ، ولكن هذه الخرافة نفسها خير ما دامت الحياة تصلح بها ، وصلاح الحياة خير من استقامة المنطق الصحيح اذا كانت الحياة تصلحها الخرافة اكثر مما يقومها القياس المنطقي . ان كثرة الشك في صحة ما تأتي به التجربة الحسية قد دفعت الألمان الى المرض ، فقد بالغوا في الشك مبالغه شديدة كالمجنون الذي يمضي حياته في غسل يديه لتنظيفها من اوساخ وهمية لا وجود لها .

٣ — العقل في العلم

ليس العقل عدواً للفرائز ، ولكنه يساعدها في توفيق ونجاح . والعقل فينا عبارة عن الطبيعة بلغت مرتبة الادراك ، فهي اذ تستهدي به انما تسترشد بضوء نفسها في تبين طريقها ومعرفة الغاية التي تسعى اليها . والعقل ازدواج سعيد من عنصرين — وهما الحافز الذي يحفز ويدفع والفكر الذي يفهم . ولو انفرط ما بين هذين العنصرين من رباط لا نقلب الانسان وحشا ضاريا او مجنوناً لا يعي . والعقل هو تقليد الانسان لله .

يقوم كتاب سنتيانا وهو « حياة العقل » على العلم : لأن العلم يشمل جميع انواع المعرفة التي يوثق بها ويركن اليها . ان سنتيانا يعرف مدى ما في العقل من تقلب وعدم ثبات ، وما في العلم من قابليه الزلل والخطأ ، ولكنه على الرغم من ذلك يرى وجوب اعتمادنا على العلم وحده . وهكذا صمم سنتيانا على ان يفهم الحياة شاعراً بما شعر به سقراط بأن الحياة بغير بحث ليست جديرة بالانسان . وان نخضع للعقل كل نواحي التقدم الانساني ، وكل ما يتصل بالانسان من مصالح وتاريخ .

ومع ذلك فاننا نجد سنتيانا معتدلاً ومتواضعاً ، فهو لا يقدم لنا فلسفة

جديدة ، بل يريد تطبيق الفلاسفة القديمة على حياتنا الحاضرة فقط . وهو يعتقد بأن افضل الفلاسفة هم اولهم واقدمهم ، ويضع على رأسهم « ديمقريطس » و « ارسطو » وهو يحب في الاول نزعة المادية الواضحة ، وفي الثاني راحة عقله وسلامة حكيمته . ويرى صحة ما ذهب اليه ارسطو في الطبيعة البشرية والاخلاق . وهكذا واجه سنتيانا مشكلات الحياة الحاضرة متسلحا بمذهب « ديمقريطس » الذري ، ونظرية ارسطو في الاخلاق وهي الوسط الذهبي ويقول سنتيانا في نزعة المادية .

« اني في الفلسفة الطبيعية مادي صميم .. ولكي لا ازعج اني اعرف ما هي المادة في ذاتها .. وانا انتظر من رجال العلم ان يخبروني بهذا .

... ولكن مهما تكن المادة فأنا اسميها مادة بكل جرأة ، كما اسمي معارفي واصدقائي « سميت » و « جونز » من غير ان اعرف اسرارهم »

ولا يسمح سنتيانا لنفسه باعتناق المذهب الحلوي وهو المذهب الذي يقول بوحدة الكون وتأليهه ، اي ان الله هو الكائنات التي هي الله . وهو يعتقد بان هذا المذهب الحلوي ليس الا مهربا عن الاحاد . ويقول اننا لا نضيف الى الطبيعة شيئا عندما نسميها الله . ولكنه كشاعر بطبيعته ادرك ان العالم اذا تجرد عن الله يكون بارداً ولا يبعث على راحة القلب والنفس . وهو يتساءل « لماذا ثار الضمير الانساني اخيراً على مذهب الطبيعيين وعاد الى الايمان بالغيب الخفي ؟ » قد يكون السبب في هذا هو « ان النفس الانسانية قريبة ومشابهة لما هو خالد ومثالي » فهي لا تقنع بما هو موجود امامها وتتوق الى حياة افضل وتحزنها فكرة الموت ، وتعلق املها على قوة تمكنها من الدوام والخلود وسط ما يحيط بها من تغير ومرور . ولكن سنتيانا ينتهي من تساؤله هذا بقوله في فتور وبرود : « انا لا اعتقد بوجود شيء خالد ... لا شك ان روح العالم وطاقته هما اللذان يعملان فينا ، كما ان البحر هو الذي يرتفع في كل موجة صغيرة . ولكن هذه الروح والطاقة او الحياة تمر في طريقها عبرنا ، غير آبهة او

حافلة بصياحننا وتواصل سيرها ، وكل ما نمتاز به هو اننا ندرکها وهي ماضية في طريقها . »

يذهب سنتيانا الى احتمال ان يكون اساس العالم كله آليا . ويرى ان افضل طريقة للبحث في علم النفس هي افتراض سيادة هذا المبدأ الآلي في كل العمليات النفسية ما خفي منها وما ظهر . ولن ينتقل علم النفس من الادب الى العلم الا اذا اخذ يبحث عن الاساس الآلي والمادي لكل حادث عقلي يحدث في العقل . وحتى ما ارتآه سيلينوزا في العواطف او الانفعالات - النفسانية ليس الا « ادبا نفسانيا » لانه لم يبحث عن الاساس الوظيفي (الفسلجي) والآلي لكل حافظ وعاطفة او احساس . لقد وجد السلوكيون اليوم الطريق الصحيح الذي ينبغي عليهم السير فيه بغير خوف او وجل .

الحياة كلها آلية ومادية ، والادراك العقلي ليس شيئا بل حالة وعملية لا فاعلية لها على الجسم . والفاعلية تقع في الحرارة التي تستخدمها الرغبات والدوافع في تحريك المخ والجسد . والفكر ليس اداة العمل ، ولكنه مسرح تنطبع فيه صور التجارب ، ويتلقى ما يسيرنا ويبهجنا من الاخلاق والجمال . ولو بحث « لالاند » الذي قيل انه يبحث في السماء بمرصده عن الله فلم يجده ، لو بحث بمجهره عن العقل في مادة المخ لما وجدته . . . والاعتقاد بوجود مثل هذه القوة فينا كاعتقاد بوجود السحر . والحقائق التي يراها العالم النفساني ليست الاحقائق مادية جسدية . . والنفس ليست سوى تنظيم دقيق سريع داخل مادة الحيوان ، وهي شبكة هائلة عظيمة من الاعصاب والانسجة تنمو من بذرة في كل جيل .

هل ينبغي علينا ان نقبل هذه النزعة المادية التي ذهب اليها سنتيانا ؟ من العجيب ان يتجه شاعر روحي ومفكر عميق مثل سنتيانا الى ربط عنقه في طاحون فلسفة مادية عجزت بعد جمود قرون عدة عن تفسير نمو شجرة او

ازدهار زهرة او ابتسامة طفل . ولكن اذا لم يكن للادراك تأثير على الجسم في حركته ، لماذا تطور ونما، ولماذا بقى في عالم لا بقاء فيه لاشياء عديمة التأثير والنفع .

ان الادراك اداة للحكم والبهجة ، ووظيفته الحيوية هي الاستجابة للمؤثرات . ولسنا بشراً الا بهذا الادراك . وقد يكون في الزهرة وبزرتها والطفل وابتسامته من سر الكون اكثر بكثير من أية آلة ارضية او بحرية . ومن الحكمة اكثر ان نفس الطبيعة بالحياة من ان نحاول فهمها بطريقة مادية ميتة . ويعلق سنتيانا على فلسفة برجسون بقوله .

ان برجسون يتحدث كثيراً عن الحياة ، ويشعر بأنه نفذ بعمق الى طبيعتها، ولكن ما هي هذه الغاية الخالقة المبدعة التي يقول برجسون بوجودها ؟ ما هي هذه الغاية الخالقة التي لا بد لها ان تنتظر الشمس والمطر لتبدأ حركتها وعملها ؟ ما هذه الحياة التي تحمد في الانسان على الفور اذا ما اصابته رصاصة ؟ ما هو هذا الدافع الحيوي الذي يختفي من الوجود ويزول لدى اقل هبوط في درجة الحرارة ؟

٤ - العقل في الدين

بقي سنتيانا محبا للمذهب الكاثوليكي على الرغم من طرحه للعقيدة لدينية ، ، كرجل لا يزال يشعر بالحب والحنين للمرأة التي خدعتة - « اصدقها على الرغم من انني اعرف كذبتها . » ويكي ضياع ايمانه ، ويعتقد ان الايمان غلطة جميلة « ثلاثم نوازع النفس اكثر من الحياة نفسها .

كان هذا الحب للمذهب الكاثوليكي ، وهذا الكفر المؤمن دافعا سنتيانا على كتابة مؤلفه العظيم « العقل في الدين » الذي تطفح صفحاته بالشك . الاحاد والحزن الرقيق . فقد كان سنتيانا يرى في جمال الكاثوليكية اسبابا كثيرة تدفعه على حبها . وهو يضحك من المذهب التقليدي الارثوذكسي والاعتقاد

بأن وجود العالم لخير الانسان . ولكنه في الوقت ذاته يزدرى العلماء الذين يتوهمون انهم قد اثبتوا بطلان الدين بالعلم ، من غير ان يبحثوا عن اصل الأفكار والمعادن التي نبعث عنها تلك العقائد الدينية ، ومن غير ان يعرفوا معنى هذه العقائد الدينية الاصلية وعلمها الحقيقي . امامنا ظاهرة تستدعي الالتفات وتستحق الاهتمام وهي ان الناس في كل مكان على ظهر هذه الارض يدينون بدين من الاديان ، فكيف نستطيع ان نفهم الانسان اذا كنا لا نفهم الدين ؟ ان مثل هذا الفهم والدراسة للديانات ستضع المرتاب الملحد وجها لوجه امام غموض فناء الكون . وتمكنه من تفهم العمق في هذه الديانات . ويعتقد سذيانا كما اعتقد « ليوكريتس » ان الخوف هو منشأ اعتقاد الانسان بالالهة ، اُضف الى هذا الخوف الخيال . فالانسان روحاني بطبعه ويميل الى العبادة ، ولا يمكن تحويله عن هذا الميل للعبادة وهو يميل الى تفسير جميع الاشياء تفسيراً دينياً . والى تجسيم الطبيعة وملئها بالالهة . فقد كان يعتقد ان قوس قزح اثر لمرور الالهة جميلة في السماء . وان هذا لا يعني ان الناس كانوا يؤمنون ايماناً حرفياً بهذه الاساطير الجميلة الفاخرة . ولكن الاسلوب الشعري الذي وضعت فيه هذه الاساطير ساعدهم على تحمل اعباء الحياة . لقد ضعفت النزعة الاسطورية في ايماننا هذه لما احده الاتجاه العلمي من رد فعل عنيف ضد الخيال . ولكن هذا الخيال لم يكبح وبقي منطلقاً بين الشعوب البدائية البسيطة وخاصة في الشرق الاوسط . وكتاب العهد القديم (التوراة) . يزخر بالوان الشعر والبيان من تشبيه واستعارة . واليهود الذين كتبوه لم يأخذوا بحرفية ما جاء في هذا الكتاب من مجاز واستعارة . ولكن عندما اخطأ الاوروبيون وهم اكثر حرفية واقل خيالاً في فهم هذا الشعر فهما علمياً . انتهى بهم تمسكهم الحرفي وتفسيرهم العلمي الى مولد اللاهوت الغربي . لقد كانت المسيحية في اول الامر مزيجاً من اللاهوت اليوناني والاخلاق اليهودية . ولكن هذا المزيج لم يكن راسخاً ومستقراً استقراراً قوياً . وكان لا بد ان ينفصل هذان العنصران احدهما عن الاخر . فانتصر العنصر اليوناني الوثني واستقل في المذهب الكاثوليكي .

وسادت صرامة الاخلاق العبرية في المذهب البروتستانتي . وكان الاول نهضة
والثاني اصلاح .

لم يقبل الشعب الالماني الذي يطلق عليه سنتيانا اسم برايرة الشمال
الديانة المسيحية الرومانية . وبقيت بين شعوب القرون الوسطى اخلاق غير
مسيحية ، كتعظيم الشجاعة وتمجيد الشرف . كما بقيت بينهم ثروة طائفة من
الاساطير والحرافات والمشاعر اللامسيحية . فقد كانت الكاتدرائيات القوطية
كاتدرائيات بربرية لا مسيحية رومانية . ورفعت النزعة الحربية العسكرية
التي توتنتونية رأسها فوق السلام الشرقي الذي يميز الديانة المسيحية الشرقية ، فغيرت
هذه الشعوب التي توتنتونية الحربية الديانة المسيحية من ديانة الحب الاخوي الى صفات
كلحة ذات فائدة عملية ، ومن ديانة الفقر الى ديانة الثراء والرخاء والقوة .

يعتقد سنتيانا ان لا شيء يضاهي المسيحية في جمالها شريطة ان لا تفهم
فهما حرفيا . ولكن الالمان اصرروا على اخذها بحرفيتها . وادى هذا الى انهيار
المذهب الارثوذكسي المسيحي في المانيا . لان الاخذ بحرفية العقائد الدينية
القديمة يؤدي الى بطلانها . كتعذيب الابرياء في جهنم ، ووجود الشيطان في هذا
العالم الذي خلقه اله وسعت رحمته وقدرته كل شيء . كما ان مبدأ التفسير الفردي
ادى بالطبيعة الى نشأة مذاهب متطرفة كثيرة بين الناس . والى المذهب الحلولي
بين القلة التي دعت الى هذا المذهب . اذ ان هذا المذهب ليس الا مذهب الطبيعيين
وضع في قالب شعري جميل . وكان « ليسنج » و « جوتة » و « كارليل »
و « امرسون » دعاة لهذا التغيير .

ان سنتيانا لا يشعر بمعطف على المذهب البروتستانتي بحكم تكوينه
الوراثي . وهو يفضل بخور الكاثوليكية التي شب عليها في شبابه . ويزدري
البروتستانت لتخليهم عن الاساطير الجميلة ، واغفالهم مريم العذراء التي يعتبرها
اجمل زهرة في باقة الشعر . وهو يزين جدران غرفته بصور العذراء والقديسين .

ويجب جمال المذهب الكاثوليكي اكثر من حقيقة اي مذهب آخر . ويفضل الفن على الصناعة من اجل هذا السبب نفسه .

٥ - العقل في المجتمع

ان المشكلة الكبرى التي ينبغي على الفلسفة ايجاد حل لها ، هي وسيلة تحمل الناس على التمسك بالفضيلة بغير اثاره آمال الغيب ومخاوفه في نفوسهم . لقد وجدت هذه المشكلة حلا نظريا لها في النظرية الاخلاقية التي قدمها « سقراط » و « سينيوزا » . فقد قدم هذان الفيلسوفان للعالم نظاما اخلاقيا كاملا . ولو استطعنا حمل الناس على اتباع احد هذين النظامين الاخلاقيين لادى هذا الى تحسين حياتهم واصلاح امورهم . ولكن من العسير أن نتجه الى مثل هذه النظم الاخلاقية الغاية في المثالية بسبب صعوبة تحقيقها . ويبدو انها ستبقى احلاما في اذهان الفلاسفة . اما بالنسبة الى الناس فان سبيل التطور الاخلاقي يقع في تنمية العواطف الاجتماعية التي تزدهر في جو الحب والوطن .

والواقع ان الحب كما قال شوبنهاور هو خداع الجنس للفرد ، وان تسعة اعشار اسباب الحب تكمن في المحب والحب يصهر النفس في سبيل لا شخصي اعمى . ومع ذلك فان كان في الحب اعظم تضحية يقوم بها الفرد فانه يجد فيه عظم سعادته فيعوض بذلك ما قام من تضحية و يروى عن « لابلاس » انه قال وهو على فراش الموت ، ان العلم امر تافه ، وان لا شيء حقيقي سوى الحب . والحب على الرغم مما فيه من خداع واوهام شعرية فانه عادة ينتهي بصلة بين الوالد والولد اكثر ارضاء للفرائض البشرية مما في حياة العزوبة من امن وهدوء . فالابناء هم خلودنا ونحن على استعداد للتضحية بالقاء كتاب حياتنا في اللهب عندما نجد ابداع ما في هذا الكتاب قد تم نسخه في نسخة اجمل الا وهي اولادنا .

والاسرة هي السبيل الى دوام الانسانية ، فهي لا تزال النظام الاساسي بين الناس وهي وحدها قادرة على دوام الجنس حتي ولو فشلت جميع النظم

الآخري . ولكن الأسرة وحدها لا تستطيع السير والرقي بالمدينة الا الى درجة بسيطة معينة . اذ تحتاج المدينة لاطراد تطورها ومواصلة سيرها وتقدمها الى نظام اوسع واكثر تعقيداً ، تحل فيه الدولة محل الأسرة . وقد تكون الدولة وحشاً طاغياً كما قال عنها « نيتشه » ولكن هذا الطغيان الذي يتركز على سلطة واحدة ، يقضي على جميع ضروب الطغيان الآخري التي كانت تكدر صفو الحياة وامنها قبل انشاء الدولة . فان كانت الدولة قرصانا يفرض علينا تقديم الخراج والضريبة ، فان تقديمنا لهذه الضريبة الى قرصان واحد يتقبلها بهدوء افضل من ان يستولي عليها مئات القراصنة بلا انذار او حدود . ومن هنا نشأت الروح الوطنية بين الناس . فهم يعرفون ان ما يدفعونه للحكومة من ثمن اقل من تكاليف الفوضى والاضطراب التي يتعرضون لها اذا لم تقم حكومة قوية بالاشراف على المجتمع والسهر على مصالحهم . ولكن سنتيانا يتساءل فيما اذا كانت مثل هذه الوطنية تؤدي الى خير الناس او الى ضررهم ؟ لان هذه الوطنية تميل الى اتهام دعاة الاصلاح والتغيير بعدم الاخلاص والحيانة . ان حب الانسان لبلاده يدفعه الى المطالبة بالتغيير وبذل الجهود للوصول بالبلاد الى الكمال . والوطنية القومية ضرورة لا مفر منها . وبعض الشعوب متفوقة على غيرها . والزواج بين الشعوب والاجناس المتفاوتة في التفوق امر خطير . وعظمة الشعوب المتفوقة تضعف بانصالها واندماجها مع الشعوب الاقل منها تفوقاً واستقراراً وتقدماً . واسوأ ما في الحكومة هو ميلها الى الحرب ، وتهديدها للشعوب المتأخرة الضعيفة . وهو يرى ان التطور بالالعاب الرياضية الدولية الاولمبية قد يحقق مخرجاً لروح المنافسة بين الجماعات . وسنتيانا لا يشارك سينسر افتتاحه وحبه للصناعة ، وهو يعرف جانبي الصناعة الحربي والسلمي . ويميل الى نظام الحكومة الارستقراطية القديم . ويعتقد ان ما عرفه العالم من ثقافة كان ثمرة لذلك النظام الارستقراطي . وليست المدنية في اعتقاده الا انتشار عادات نشأت في الطبقات الممتازة ، ولم تنبع من عامة الشعب ، ثم

فرضت نفسها على الشعب فرضاً. والدولة التي تتألف خاصة من العمال والفلاحين كما تتألف معظم الامم الحديثة هي دولة متأخرة متوحشة ، تقضي على كل تقاليد الحرية ، ويضيع فيها جوهر الوطنية العقلي والتاريخي . وسنتيانا يكره المساواة ويوافق افلاطون بأن المساواة بين غير المتساوين لا مساواة . ومع ذلك فهو لم يبسع نفسه تماماً للنظام الارستقراطي . وهو يعرف ان التاريخ قد جرب حكومات ارستقراطية ووجد فيها من العيوب ما يوازي فضائلها . فالحكومة الارستقراطية لا تفسح مجال التقدم والنمو الا امام القلة من ابناء العائلات العريقة . والحكومة الارستقراطية تؤدي الى الثقافة ولكنها تؤدي ايضا الى الطغيان واستعباد الملايين الذين يدفعون الثمن لحرية القلة من ابناء الطبقة الارستقراطية . ينبغي ان يكون مبدأ السياسة الاول ، ان تعمل الحكومة على رفع حياة افراد الشعب والنهوض بهم ، وتقوية امكانياتهم ومواهبهم . والديمقراطية من هذه الناحية افضل من الارستقراطية ولكن للديمقراطية مساوئها وشرورها ايضا . فهي بالاضافة الى فسادها وعجزها تمتاز بنوع من الطغيان خاص بها . وهو عبادة المساواة والتشابه التام بين افراد الشعب . ولن نجد طغيانا ممقوتا ومكروها اكثر من هذا الطغيان العامي الذي يقضي على كل تجديد ويسد الطريق امام كل موهبة وعبقرية .

ان اشد ما يكرهه سنتيانا هو الفوضى والسرعة الفاحشة التي ترافق الحياة الحديثة. ويتساءل هل كان الناس اسعد حالا في ظل النظام الارستقراطي القديم ، عندما كانت الحكمة هي الخير لا الحرية .

وبما ان الديمقراطية قد فتحت باب الحرية امام الجميع ، فان هذا سيؤدي الى فتح باب الشره والنهم وعدم القناعة امام الجميع . ويبدأ الصراع بين طبقات المجتمع . وكل طبقة تنتصر في هذا الصراع الذي فتحت الحرية فيه الباب على مصراعيه ستقضي على هذه الحرية . هذا هو انتقام الثورة ايضا . حيث تلجأ الطبقة المنتصرة لكي تحافظ على بقائها الى اقامة حكومة الطغيان التي دمرتها.

ان الثورات يكتنفها الابهام والغموض ونجاحها يتوقف على نسبة مقدرتها على تكييف نفسها واستيعاب ما ثارت عليه . لقد تركت الاف الاصلاحات العالم فاسداً كما كان . لأن كل اصلاح ناجح قد اوجد نظاماً جديداً وهذا النظام الجديد يحمل في جنباته بذور طرحه ونبذه وانتهاكه .

اذن ما هو شكل المجتمع او الحكومة التي يجب ان نسعى لها ونكافح من اجلها ؟ قد يكون الجواب ان لا نكافح من اجل حكومة معينة . اذ الفرق ضيق بينها . ولكن سنتيانا يميل الى تفضيل حكومة تقوم على حكم اصحاب المواهب والشرف من الرجال وهي ما تسمى بالحكومة « التيمقراطية » وهي حكومة ارستقراطية ولكنها ليست وراثية . والمجال مفتوح فيها امام الجميع وفقاً لمواهبهم وامكانياتهم ومقدرتهم . بأن يكون الطريق للوصول الى اعلى مناصب الدولة مفتوحاً امام كل رجل وامرأة وفقاً لمقدرتهم ومغلقاً امام المعجز وعدم القدرة والكفاءة مها بلغت مقدرة المرشحين على جمع الاصوات في الانتخابات والاستفتاء . والمساواة الوحيدة الباقية هي مساواة الفرصة امام الجميع . في هذه الحكومة ينحصر الفساد في اقل حيز ممكن . ويزدهر العلم والفن بما يبدان من تشجيع . وستكون هذه الحكومة جمعا وتركيبا من الارستقراطية والديمقراطية ، وهي ما ينشده العالم منذ زمن طويل لينجو بنفسه من الفوضى السياسية التي يتعرض لها اليوم . وهي حكومة لن يحكم فيها الا افضل الناس ، ولكنها تقدم فرصة متساوية لكل انسان بان يكون بين افضل الناس هؤلاء اذا اثبت جدارته واهليته . وهكذا فاننا نجد افلاطون يتحدث من جديد على لسان سنتيانا وتلوح فلسفة التي دعا فيها الى حكم الفلاسفة في كتابه الجمهورية في افق كل فلسفة سياسية بعيدة النظر . ومن هذا يتبين لنا اننا كلما امعنا النظر واطلنا الفكر في افضل حكومة ، عدنا الى افلاطون . وبهذا يتضح لنا اننا لسنا في حاجة الى فلسفة جديدة ، وكل ما نحتاج اليه هو الشجاعة وحدها لتطبيق اقدم فلسفة وافضلها .

٦ - تعليق

اننا نشعر في هذه الصفحات التي استعرضنا فيها سنتيانا كأبنة انسان ابتعد عن كل ما يجب. سنتيانا الاسباني الارستقراطي يعيش في امريكا ذات الطبقة المتوسطة ، وهو يتحدث في المجلد الاول من كتابه حياة العقل ، عن ان موضوع الفلسفة يتناول معنى الحياة الانسانية ، والتاريخ ، ولكنه في المجلد الاخير يتساءل مبدئياً دهشته بقوله ، هل هناك معنى او خطة للحياة ؟ وهو يصف بغير وعي منه مأساته الخاصة ، ان في الكمال مأساة ، لان الكون الذي ينشأ عنه الكمال ناقص في حد ذاته . وهو لم يشعر اطلاقاً مثل « شيلي » براحة على ظهر هذه الارض المعتدلة المتوسطة ، ويبدو ان حاسته الدقيقة في تذوق الجمال والفن قد سببت له الاما من بشاعة الاشياء وقبحها اكثر من بهجة الاستمتاع في جمال الدنيا وحلاوتها . وكان يبدو احياناً ساخراً وحاداً ويقف منزويًا ، سامياً ووحيداً ، ويتساءل ما هي الحكمة فيجب ان تحمل بعين واحدة مفتوحة وان تعزل العالم من غير ان تعاديه وان ترهب بالجمال العابر الزائل وترحم الالم العابر الزائل من غير ان تنسى زوالهما وعبورهما .

ولعيش الانسان عليه ان يتذكر الحياة اكثر من الموت ، وان يقبل الاشياء الواقعية القريبة كما يقبل الاممال المثالية البعيدة . والفلسفة التي تبتعد بالانسان لا تقل اعوجاجاً عن اوهام الخرافات والاساطير السبوية التي تشرذ فيها عين الانسان بحثاً عن العالم الاخر ، فتفقد سحر هذا العالم الذي نعيش فيه وخمره . ويقول سنتيانا بان الحكمة تنشأ عن زوال الوهم والامل الكاذب ولكن هذا بداية الحكمة فقط ، كما ان الشك بداية الفلسفة ، ولكنه ليس النهاية ، اذ ان النهاية هي السعادة . والفلسفة ليست سوى وسيلة ولو اتخذنا منها غاية نكون كالهندوسي الصوفي الذي لا غاية له في حياته الا تركيز بصره على سره بطنه .

قد تكون نظرية « سنتيانا » حول آلية الكون وماديته قد اثرت على حياته ودفعت به الى الانطواء على نفسه . فبعد ان جرد العالم من الحياة راح يبحث عنها في اعماق نفسه . وعلى الرغم من انه لا يوافقنا على ذلك ، ومع اننا لا نصدق له لا يسعنا الا ان نلقي سلاحنا ونستسلم لجمال احتجاجه واستنكاره .

يقول سنتيانا ان من تعود على الايمان بالله واليوم الاخر ، يجد في المذهب المادي تحطيماً لاماله ، ولكن المادي الاصيل الذي يؤمن ايماناً عميقاً بالمذهب المادي - يصبح فيلسوفاً ضاحكاً مثل ديمقريطس العظيم فيسعد بالمادية وتتحول بهجته بها الى اشكال جميلة مذهشة ، وتولد في نفسه عواطف مثيرة كثيرة ، ويشعر بنفس الحالة العقلية التي يشعر بها من يزور متحف التاريخ الطبيعي ، عندما يستعرض امام ناظره الاف الفراشات في اقفاصها والاسماك - الصدفية والفيلة البائدة والغوريلا ، لقد كانت هذه جميعها تغمرها الحياة ولكنها فنت وانتهى امرها .

ولكن لو كانت هذه الفراشات تقدر على النطق لقاتل لنا ان هذا المتحف الطبيعي كالفلسفة المادية ليس الا معرضاً لاشياء ميتة .

٢ - وليم جيمس

لا حاجة بنا الى تذكير القارئ ان فلسفة سنتيانا التي اوجزناها فلسفة اوروبية في كل شيء باستثناء المكان الذي وضعت فيه . وان سنتيانا من اصل اسباني جاء الى امريكا وهو صغير ، وبقي في تفكيره اوروبياً روحاً وقلباً ، وهي فلسفة يطبعها طابع الاستكانة والاستسلام الذي يميز الثقافة القديمة ، ويستطيع الانسان ان يلمس هذا في كل صفحة من صفحات كتابه « حياة العقل » ان هذا ليس صوتاً صادراً عن مواطن امريكي .

اما في وليم جيمس فاننا نجد الصوت والحديث والعبارة التي تبسم

جميعها بالطابع الامريكى ، وهو يستخدم في كتابته تعبيرات امريكية بسيطة مألوفة لتوضيح افكاره وتبسيطها حتى الى رجل الشارع .

ولد وليم جيمس في نيويورك عام ١٨٤٢ ، وبعد ان امضى بضع سنوات في المدارس الامريكية الخاصة ارسل مع اخيه هنري الذي يكبره بسنة واحدة الى المدارس الخاصة في فرنسا ، وهناك وقع على بعض الكتب في علم النفس ، واخذ في مطالعتها . لقد امضى اخوه هنري معظم حياته في الخارج وتجنس اخيراً بالجنسية البريطانية ، وبفضل اتصاله المتواصل بالثقافة الأوروبية اكتسب نضوجاً لم يحصل عليه وليم الذي عاد الى امريكا ، التي شعر بشباب شعبها وثروة امالها وفرصها المفتوحة امام الجميع . ولم يلبث ان صعد الى ذروة الشهرة ولمع نجمه وذاع اسمه ذيوماً كبيراً لم يشاهده فيلسوف امريكى اخر . وفي عام ١٨٧٠ نال اجازة الدكتوراه من جامعة هارفارد ، واشتغل بالتدريس فيها من عام ١٨٧٢ الى ان وافقته المنية عام ١٩١٠ . بدأ محاضراته الجامعية اولاً في التشريح وعلم وظائف الاعضاء ثم في علم النفس واخيراً في الفلسفة . ولعل اعظم مؤلفاته هو اولها صدوراً « اصول علم النفس » الذي نشره في عام (١٨٩٠) وهو مزيج رائع اخاذ من التشريح ، والفلسفة والتحليل . لقد كان علم النفس عند جيمس يستقي من امه ما وراء الطبيعة ، ومع ذلك فان الكتاب سيبقى اعظم الكتب في هذا الموضوع واعظمها استيماباً واحاطة وايجازاً .

لقد امتاز جيمس بروعة تحليله الذي انتهى به الى الاقبال على الفلسفة والعودة اخيراً الى الميتافيزيقا نفسها . وهو يقول ان الميتافيزيقا ليست سوى مجرد محاولة للتفكير في الاشياء في وضوح ، ويعرف الفلسفة بطريقته البسيطة بقوله « انها التفكير الوحيد بالاشياء في افضل طريقة شاملة مدركة » وهكذا كانت كل مؤلفاته التي نشرها بعد عام ١٩٠٠ في ميدان الفلسفة . فبدأ في كتابه « ارادة الايمان » عام ١٨٩٧ ، واعقبه بكتاب « انواع من التجربة الدينية »

عام ١٩٠٢ . تم انتقال الى كتبه الشهيرة في « البراجماتزم » عام ١٦٠٧ و « الكون المنعقد » عام ١٩٠٩ ، ومعنى الحقيقة « عام ١٩٠٩ . وبعد وفاته بعام واحد نشر له كتاب « بعض مسائل الفلسفة » عام ١٩١١ . واخيراً نشر له مجلد هام تحت عنوان « مقالات في المذهب التجريبي المتطرف » في عام ١٩١٢ ، وسنبداً في دراستنا له بهذا الكتاب الاخير ، لانه صور في هذه المقالات اسس فلسفته تصويراً دقيقاً واضحاً .

٢ — البراجماتزم

يتجه جيمس في افكاره دائماً الى الاشياء ، واذا كان قد بدأ بعلم النفس فانسه لم يتجه في بحثه كميستافيزيقي يجب ان يطلق نفسه في البحث عن امور سماوية روحية غامضة ، ولكن كواقعي ينظر الى الفكر كمرآة ضرورية للحقيقة الخارجية والطبيعية ، مهما كان الفكر مختلفاً عن المادة . والفكر مرآة افضل بكثير مما يعتقد البعض ، فهو لا يدرك او يعكس مجرد اشياء منفصلة كما ذكر هيوم ، بل يدرك ويعكس العلاقات او الصلات بين الاشياء فهو يرى كل شيء بالعلاقة او القرينة . كيف نضع معنى ونظاماً لاحساساتنا ؟ ان المعنى والنظام موجودان من قبل . وينكر جيمس على مذهب الترابط او التداعي تأليف الفكر من ظواهر منفصلة ويبين ان الظواهر الفكرية تجري في تيار متصل ، وان الفكر شيء يمتنع رده الى الظواهر الفيزيقية او الفسيولوجية . وان حالاته نوعان ، حالات يدل عليها باسما كقولنا تعقل وتخيل واحساس و ارادة ، وحالات متعدية كالعطف والاستدراك تؤلف التيار الفكري نفسه . وعلى ذلك يجب اعتبار الدماغ آلة نقل تصل بالجسم قوى فكرية مبيانية للقوى الجسمية .

لقد دفعت الرغبة في الوصول الى الحقيقة السريعة جيمس الى البراجماتزم او المذهب العملي . فقد كان يميل الى الوضوح بحكم دراسته في فرنسا ، ويمقت

الغرض والحذقة التي تتسم بها اصطلاحات الميتافيزيقا الالمانية التي اعتقد بعدم صحة بحاثها ، وراح يبحث عن معنى يثبت فيه بطلان هذه الافكار المجردة .

ووجد ما يبتغي في عام ١٨٧٨ في مقال مشهور للفيلسوف الامريكى تشارلز بيرس بعنوان « كيف نوضح افكارنا » قال فيه ، لكي نجد معنى للفكرة ينبغي ان نفحص النتائج العملية الناجمة عن هذه الفكرة . اذ بدون هذا فان النزاع حول معنى الفكرة لا ينتهي ولا يؤدي الى فائدة . لقد وجد جيمس في قول بيرس بداية حسنة ، واحب ان يسير في طريقه ، وراح يفحص الميتافيزيقا القديمة على هذا الاساس وتوصل الى تعريف جديد للحقيقة . فالحقيقة هي القيمة الفورية للفكر ، فعوضاً عن ان نتساءل عن مصدر الفكرة ومن اين جاءت او استمدت او ما هي مقدماتها ، فان البراجماتزم تفحص نتائجها . وهي تتعد عن كنهه الشيء ومصدره ، وتتجه الى نتيجة الشيء وثمرته وعقباه . فعوضاً عن ان نتساءل عن ما هو الشيء ونضيع انفسنا ونضل في البحث عن كنهه وماهيته او حقيقته او تتساءل عن اصله ، فان البراجماتزم تتساءل عن نتائج الشيء وبذلك تحول وجه الفكر الى العمل والمستقبل .

٣ — التعدد

دعنا نطبق هذه الطريقة على اقدم مشكلة في الفلسفة ، وهي وجود الله وطبيعته ، فقد وصفت الفلسفة المدرسية الله بالكمال واللانهاية والذكاء الخوهي صفات عظيمة جلية . ولكن ما معنى هذا ؟ وما هي النتائج بالنسبة الى الناس ؟ فاذا كان الله محيطاً بكل شيء وقادراً على كل شيء ، فان هذا يعني اننا لا نملك من امرنا شيئاً ولا نستطيع ان نغير من مجرى القضاء والمصير الذي فرضته ارادة الله وحدده وخططته منذ البداية . وبهذا يكون المذهب « الكلفينوسي » القائل بان الخلاص بنعمه الله وليس بالاعمال ، ومذهب القدرية « الاعتقاد بالقضاء والقدر » نتائج منطقية مثل هذا التعريف لله . ولو طبقنا

هذه الطريقة ذاتها على الآلية الجبرية فاننا نخرج بنفس النتائج . فاذا كنا نعتقد حقاً بذهب الجبرية فاننا سنتحول الى التصوف الهندوسي ونتخلى عن انفسنا فوراً ونستسلم للاقدار الجبارة التي تعصف بنا كريشة في مهب الرياح لا حول لنا ولا قوة . ولكننا طبعاً لا نقبل مثل هذه الفلسفات الكئيبة القائمة . لقد ارتأى العقل الانساني هذه الفلسفات لبساطتها المنطقية وتناسقها ، ولكن الحياة تتجاهلها وتغمرها وتتجاوزها .

يعتقد جيمس ان لا عيب في الفلسفة في وجوه اخرى ، ولكن هناك عيبين قاتلين لتطبيقها تطبيقاً شاملاً ، اولهما الا يكون مبدأ الفلسفة النهائي خبيراً لرغباتنا العزيزة وآمالنا الحبيبة . وثانيها وهو العيب الاسوأ في الفلسفة ان تتناقض مع نزعاتنا بان لا تقدم لها هدفاً معيناً متمسك به ، وهي فلسفة لا يتناسب مبدأها مع قوانا وتنكر عليها كل مطابقة في الشؤون الشاملة ، وتقضي بواعثها في ضربة واحدة ، فان مثل هذه الفلسفة ستكون ممقوتة اكثر من التشاؤم . وهذا هو السبب في فشل تبني المذهب المادي تبنياً شاملاً .

فالناس يقبلون الفلسفات او يندونها وفقاً لحاجاتهم وطباعهم لا وفقاً للحقيقة الموضوعية . وهم لا يتساءلون هل هذا منطقي ؟ بل يتساءلون عن مدى ما تتناسب الفلسفة مع حياتهم ومصالحهم .

ان تاريخ الفلسفة الى مدى كبير تعارض للطباع الانسانية . وهذه الطباع هي التي تختار الفلسفات وتقليها . ويمكن تقسيمها الى طباع رقيقة وطباع عنيفة . . ان الطباع الرقيقة هي الطباع الدينية ، وهي تميل الى التمسك بالعقائد المحدودة الثابتة والحقائق المسلم بها . وهي تؤدي بطبعها الى حرية الارادة والمثالية والوحدانية والتفاؤل . والطباع العنيفة لا دينية ومادية وتجريبية (تسير على الحقائق فقط) وتعود بالمعرفة للاحاساسات . وهي قدرية وتعددية ومتشائمة ومرتابسة . وفي كل فئة فجوات من التناقض . وهناك طباع تختار جزءاً

من نظرياتها من هذه الفئة ذات الطباع الرقيقة او تلك الفئة ذات الطباع العنيفة ، فهذه الفئة ذات طباع وعقول عنيفة في تمسكها بالحقائق واعتمادها على الحواس ، ومع ذلك فهي ذات عقول رطباع رقيقة ايضاً في خوفها من مذهب الجبرية وحاجتها الى ايمان ديني ، هل من الممكن ايجاد فلسفة تستطيع التوفيق بين هذه المطالب المتناقضة وبعث الانسجام فيها ؟

يعتقد جيمس ان الايمان بتعدد الكون والالهة يقدم لنا مثل هذا الانسجام ، ليس الكون نظاماً منسجماً ومغلقاً ، بل هو معركة لتيارات مختلفة واتجاهات متعارضة واهداف متضاربة . ومن العبث ان نقول ان هذه الفوضى التي نعيش فيها وتتحرك هي من صنع ارادة واحدة متماسكة . والكون يقدم لنا كل دليل وعلامة على التناقض والتعارض في نفسه . قد يكون الاقدمون اعقل منا واحكم . وقد يكون تعدد الالهة اصدق واحق من وجود اله واحد بالنسبة الى هذا الخلاف والتعارض في الكون . لقد كان الاعتقاد بتعدد الالهة الدين الحقيقي بالنسبة الى عامة الناس دائماً ولا يزال كذلك ، والناس على صواب والفلاسفة على خطأ ، ان الاعتقاد بوحداية الكون هو المرض الذي يصاب به الفلاسفة الذين يستبد بهم الجوع والعطش لا للوصول الى الحقيقة بل الى الوحدة ، وحدة العالم ! يعتقد جيمس بتعدد الكون وعدم اكتمال صنعه وعدم امكانية ادراكه مرة واحدة على خلاف المتألمين والماديين والآخرين الذين يقدمون صورة عن الكون تسودها معالم معينة تقرر مصيره في جميع الاوقات . اما العالم المتعدد فهو عالم ذو معالم كثيرة مختلفة لا يمكن ادراكها وفحصها مرة واحدة ، وينبغي دراستها بطريقة تجريبية . والقيمة في تعدد الكون تكمن في اننا نعلم على قوانا وارادتنا لمساعدتنا على تقرير ما يواجهنا من قضايا . فهو عالم تتصارع فيه القوى وتعارض التيارات والاتجاهات ولا استقرار فيه وتؤثر فيه الاعمال بينا فكرة العالم الواحد فكرة ميتة ، لاننا في مثل هذا العالم نقوم

كرهاً او طوعاً بتنفيذ الاعمال التي رسمها لنا الله القادر على كل شيء ، او السديم الاول . ولن تمحو دموعنا كلمة واحدة من الكتاب الابدى . هذا كما ان الفردية وهم وخداع في عالم كامل تام الصنع . والواقع ان انصار وحدانية الكون يؤكدون لنا باننا جميعنا اجزاء من جوهر واحد . ولكننا نستطيع ان نكتب بعض السطور في اعمالنا في العالم الذي لم يتم صنعه بعد . ويشكل اختيارنا الى مدى محدود المستقبل الذي سنعيش فيه . وفي مثل هذا العالم الذي لم يتم صنعه بعد نكون احراراً ، وهو عالم مصادفة وفرصة لا عالم قسمة وقدر . كل شيء فيه ليس نهائياً وتاماً . وقد نغير بافعالنا كل شيء فيه . تنقصنا الادلة النظرية على حرية الارادة هذه وعلى هذا الكون المتعدد والاله المحدود ، كما تنقصنا الادلة على الفلسفات الاخرى المعارضة لها ، وقد تختلف الادلة العملية من شخص لآخر ، ومن الممكن ان يجد بعض الناس نتائج افضل في حياتهم من فلسفة جبرية اكثر من فلسفة حرية الارادة . ولكن عندما لا يكون الدليل حاسماً ينبغي ان تقرر مصالحنا الحيوية والاخلاقية الاختيار .

لو وجدنا حياة افضل نسير عليها ، ولو كان هنالك فكرة يساعدنا الايمان بها للسير في تلك الحياة . عندئذ يكون من الافضل لنا ان نؤمن بتلك الفكرة ، ما لم يتضارب الايمان ويصطدم - مع فوائد اكثر نفعاً لنا .

والان فان الاصرار على الايمان بالله والتشبث بهذا الايمان يعتبر خير دليل على قيمة هذا الايمان الاخلاقية واهميته الشاملة . لقد اثار تعدد التجارب والمذاهب الدينية الكثيرة دهشة « جيمس » واسترعت اهتمامه . وهو بصفتها بعين العطف مع انه في معظم الاحيان لا يتفق معها ، ويرى شيئاً من الحقيقة في كل واحد منها ، ويطالب ان نفتح عقولنا لكل امل جديد واقتنع اخيراً في حقيقة عالم روحاني آخر .

ومع ذلك فهو لا يعتقد بفلسفة تقوم على التفكير والتأمل في الموت ، ولا قيمة للامور في نظره الا اذا ارشدتنا ودفعتنا الى تحسين اوضاع حياتنا واعمالنا على هذه الارض . وقد شغل حياته وكرس نفسه لمثل هذه الامور ، وكان عاملاً نشيطاً في مئات الجهود التي تستهدف تحسين الحياة الانسانية ، وكان دائماً يمد يد المساعدة للناس ، ويعتقد ان في كل فرد طاقات وامكانيات كامنة تولدها الظروف المناسبة ، وكان يدعو الى استخدام هذه الطاقات لكامنة ، ويبدى جزعاً كبيراً من تبديد طاقات الناس في الحرب ، ويدعو الى ايجاد مخرج افضل لدوافع القتال والحرب والسيادة بتوجيه الحرب على الطبيعة . لماذا لا يقدم كل انسان فقيراً كان او غنياً سنتين من حياته للدولة لا من اجل الحرب والقتال ضد الشعوب الاخرى بل للحرب ضد الامراض والوباء ، وتجفيف المستنقعات وري الصحارى ، وحفر الاقنية وبناء ما تدمره الحروب .

لقد ابدى جيمس عطفه على الاشتراكية ولكنه اظهر مقتنه على ما فيها من حط لقيمة الفرد والعقري ، اذ لا قيمة الا للفرد ، وكل ما عدا ذلك فهو وسيلة ويستوي في ذلك الفلسفة . وهكذا فنحن في حاجة الى دولة تفهم ان واجبها هو خدمة الافراد رجالا ونساء ، والسهر على مصالحهم ، وفلسفة تقدم لنا هذا العالم كمخاطرة ومغامرة لا كخطة مرسومة . وتحفز النشاط برفع العالم الى مكان - نفوز فيه بانتصارات في المستقبل على الرغم مما فيه من هزائم .

٤ - - تعليق

لا حاجة بنا الى ارشاد القارئ الى العناصر الجديدة والقديمة في هذه الفلسفة التي استعرضناها ، بايجاز . فهي جزء من الحرب الحديثة بين العلم والدين ، وهي محاولة اخرى شبيهة بجهود « كانت » و « برجسون » لانقاذ الدين والايان من آلية المذهب المادي . ان البراجماتزم لها جذورها في « كانت » « العقل العملي » وفي تمجيد « شوبنهاور » للارادة ، وفي نظرية « دارون » بان البقاء للاصلح و وفي المذهب النفعي الذي يقيس قيمة الاشياء بمنافعها واستخدامها . وفي تقليد الفلسفة الانجليزية التجريبية الاستقرائية ، واخيراً في اراء الحياة الامريكية .

هذا كما ان طريقة جيمس في التفكير طريقة امريكية . فان شهوة الامتلاك والحركة الامريكية تبدو واضحة تماماً في اسلوبه وتفكيره . وقد اطلق « هونيكر » على فلسفة جيمس اسم الفلسفة المادية النفعية . والواقع ان فيها شيئاً من هذا الاتجاه المادي . وكانت هذه الفلسفة رد فعل دفاعي صغير موجه ضد الميتافيزيقا الاوروبية والعلم الاوروبي .

ان فحص الحقيقة الذي جاء به جيمس ليس جديداً طبعاً ، وقد اعترف جيمس بهذا بامانة وصراحة بقوله ، ان فلسفة البراجماتزم اسم جديد لوسائل فكرية قديمة . فان كان هذا الاختبار الجديد للحقيقة يعني بان الحقيقة هي ما قامت التجربة والاختبار على صدقها فهو مقبول ، اما اذا كانت تعني بان المصلحة والمنفعة الشخصية هي المقياس والاختبار لصدق الحقيقة فهو امر مردود ، لان المنفعة الشخصية ليست سوى منفعة شخصية .

والواقع ان ما اراد جيمس ان يفعله هو ازالة الغشاء الذي احاط بالفلسفة فقد اراد ان يعيد بطريقة جديدة وجهة النظر الانجليزية القديمة نحو النظرية والعقيدة . فقد واصل عمل بيكون في تحويل وجه الفلسفة مرة ثانية في اتجاه عالم الاشياء الذي لا مهرب منه . وستذكره الاجيال بفضل تأكيده على الناحية التجريبية وهذه الواقعية الجديدة اكثر من نظريته عن الحقيقة . وقد تعظمه الاجيال كعالم نفساني اكثر منه كفيلسوف ، وهو يعرف بانه لم يجد حلاً او جواباً للأسئلة القديمة . واعترف بهذا بصراحة بقوله انه لم يأت بمجديد .

٣ — جون ديوي

١ — تعليم

لم تكن فلسفة البراجماتزم على اية حال فاسفة امريكية بكل ما في الكلمة من معنى . فهي لم تصور الروح الامريكية العظمى السكامنة في جنوب وغرب ولايات « نيوا انجلاند » . لقد دعت الى الاخذ بالنتائج العملية والامور الواقعية ، ولكنها قفزت بعد ذلك بسرعة من الارض الى السماء . لقد بدأت برد فعل سليم ضد الميتافيزيقا وفلسفة المعرفة وتوقع الانسان منها تقديم فلسفة عن الطبيعة والمجتمع ، ولكنها انتهت بالدعوة الى احترام كل عقيدة دينية وتبجيل كل ايمان . متى تتعلم الفلسفة ان تترك للدين تلك المسائل المحيرة حول الحياة الاخرى ، وتترك لعلم النفس مشاكل عملية المعرفة ومصاعبها ، وتوجه نفسها بكل قواها الى تصوير الاهداف الانسانية وتنسيق الحياة الانسانية والنهوض بها .

لقد اعدت الظروف جون ديوي للقيام بهذه المهمة واشباع هذه الحاجة ،

وايماز فلسفة تعبر عن روح امريكا الواعية المدركة المثقفة . ولد ديوي في (برلينجتون فيرهنونت في عام ١٨٥٩ وتلقى دراسته هناك . وكان الظروف قد اعدته لاستيعاب الثقافة القديمة هناك قبل الاتجاه الى الثقافة الجديدة. ولكنه سرعان ما اخذ بنصيحة « جريلي » واتجه غرباً وراح يعلم الفلسفة في جامعة « مينيسوتا » بين عامي (١٨٨٨ - ٩) انتقل بعدها الى « ميشغان بين (١٨٨٩ - ٩٤) ثم الى (شيكاغو) من (١٨٩٤ - ١٩٠٤) وعاد بعد ذلك شرقاً فاشترك في قسم الفلسفة في جامعة كولومبيا وترأس هذا القسم بعد ذلك . لقد اكسبته العشرون سنة الاولى التي عاشها في « فيرمونت » بساطة الحياة التي تميز هذه المنطقة وبقية هذه البساطة ملازمة له ، حتى في ايام مجده وذيوخ شهرته ، وتمجيد العالم له . ومكنته العشرون سنة التي قضاها في الغرب الاوسط من رؤية امريكا الفسيحة الواسعة التي يجهلها العقل الشرقي جهلاً تاماً . فدرس امكانياتها وقواها وحدودها . وعندما اخذ يكتب فلسفته قدم لتلاميذه وقرائه تفسيراً وشرحاً وافياً عن تلك المنطفة . لقد كتب ديوي فلسفة القارة الامريكية كلها لا فلسفة ولاية « نيوانجلاد » وحدها ، فقد كتب ديوي فلسفة القارة كما كتب « ويتمان » شعرها .

استلقت ديوي انظار العالم لأول مرة اثناء تدريسه في جامعة شيكاغو ، حيث كشف عن افكاره في السنوات التي قضاها هناك . ولعل اعظم كتاب له هو « الديمقراطية والتعليم » حيث جمع فيه خطوط فلسفته وركزها حول مهمة النهوض بجييل افضل . لقد اعترف بزعامته جميع الاساتذة والمعلمين ، وتأثرت بنفوذه معظم المدارس والجامعات الامريكية . كما ابدى نشاطاً فائتاً وجهوداً كبيرة في تجديد المدارس في انحاء مختلفة في العالم . وامضى سنتين في الصين حاضراً فيها امام المعلمين حول اصلاح التعليم . وقدم تقريراً الى الحكومة التركية

حول تجديد تنظيم المدارس الوطنية في تركيا .

لقد طالب « سينسر » بزيادة تدريس العلوم و اقلال دراسة الاداب في برامج التعليم . فجاء ديوي و اضاف على ذلك وجوب تدريس العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف و المهن ، لا طريق تعليم الكتب . اذ ينبغي ان تكون المدارس في مجتمع صناعي اشبه شيء بالمصنع الصغير ، و تقوم بتعليم طلابها بطريقة عملية ، يتدرب فيها التلاميذ باقامة التجارب العلمية و الاستفادة من اخطاء هذه التجارب . او بعبارة اوضح تطبيق نظرية التجربة و الخطأ ، و تدريس الفنون و النظم اللازمة بالنسبة الى النظام الاقتصادي و الاجتماعي و ان ينظر الى التعليم لا على اساس كونه مجرد اعداد للنضوج بل نمو و نهوض مستمر للعقل ، و تنوير مستمر للحياة ، اذ المدارس لا تقدم لنا سوى وسائل النمو العقلي ، و البقية تعتمد على مدى استيعابنا و تفسيرنا لتجاربنا ، و التعليم الحقيقي يأتي بعد تخرجنا من المدارس و يجب ان يستمر معنا طيلة حياتنا .

٢ — الفلسفة الادائية

ان ما يميز ديوي هو قبوله لنظرية التطور قبولاً تاماً سافراً لا غموض فيه ولا تسر . و العقل و الجسم في رأيه عضوان تطوراً في التنازع على البقاء الى شكلها الحالي من اشكال احط مرتبة . لقد كانت بدايته لكل موضوع بداية تطويرية دارونية .

عندما قال ديكارت ، ان طبيعة الاشياء يمكن ادراكها و تصورها ، اذا اعتقدنا بتطورها و مجيئها تدريجياً الى الوجود بسهولة اكثر من تصور انتاجها دفعة واحدة في حالة تامة كاملة ، شعر العالم تماماً بالمنطق الذي سيسوده و يوجه

حياته ، هذا المنطق الذي عبر عن نفسه تعبيراً علمياً في كتاب دارون عن « اصل
الانواع » ... وعندما قال دارون عن الانواع ما قاله « جاليلو » عن الارض
فقد حرر بقوله هذا الافكار التكوينية والخلقية تحريراً نهائياً ، وخرج بها عن
كونها اسئلة تبحث عن اجوبة لها .

لذلك ينبغي تفسير الاشياء لا على اساس العلة والمعلول وما فوق الطبيعة
بل على اساس مكانها ، وعملها في البيئة . لقد كان ديوي صريحاً في اتجاهه
الطبيعي ، واستنكر طريقة التفكير في هذا العالم بأسره بشكل واسع ، واعتبر
هذا الطراز من التفكير اعترافاً منا بعجزنا على السيطرة على مجرى الاشياء التي
تهمنا بشكل خاص ، وظهر شكه وعدم ثقته بارادة شوبنهاور والدافع الحيوي
الذي تحدث عنه برجسون ، وقال انها قد تكون موجودة ولكن لا حاجة بنا
الى عبادتها وتقديسها . والا له موجود في نفوسنا وليس في هذه القوى الكونية
المحايدة . ويجب ان نخلص لهذه الارض التي نعيش عليها .

لقد رفض ديوي الميتافيزيقا واعتبرها صدى لعلم اللاهوت المختفي وراءها
وهو في هذا يحدو حدو بيكون وهوبز وسبنسر ومل . ويعتقد ان مشكلة
الفلسفة دائماً اختلاط ابجاثها بالابجاث الدينية . وهو يقول « عندما كنت اقرأ افلاطون
بدأت الفلسفة تسير سيراً ضرورياً على اساس سياسي يستهدف تنظيم مجتمع
عادل . ولكنها سرعان ما ضلت في احلام العالم الاخر كما ادى اهتمام الفلسفة
الالمانية بالمسائل الدينية الى انحراف مجرى تطور الفلسفة . وفي الفلسفة الانجليزية
رجحت المصالح الاجتماعية على ابجاث ما فوق الطبيعية . لقد دارت رحى
الحرب طيلة قرنين بين المذهب المثالي الذي يمثل الدين والارستقراطية الاقطاعية
وبين المذهب الحسي الذي يعبر عن الايمان بالحرية في الديمقراطية التقدمية .

ولا زالت هذه الحرب دائرة ولم تنته بعد ، وهذا يعني اننا لم نخرج تماماً من العصور الوسطى ، ولن يبدأ العصر الحديث الا اذا تبنى وجهة النظر الطبيعية في كل ميدان ، ان هذا لا يعني الهبوط بالعقل الى المادة ، ولكنه يعني ان لا نفهم الحياة والعقل بالطريقة اللاهوتية الدينية ، ولكن بالطريقة البيولوجية ، كعضو او كائن حي في بيئة تؤثر عليه ويقاومها ، يجب الا ندرس حالات الادراك بل ندرس طرائق التلبية . والعقل عضو ذو تصرف معين لا لمعرفة العالم ، والفكر اداة لتجديد التوفيق وهو عضو تماماً كالأطراف والاسنان ، والافكار اتصالات تصورية ، وتجارب في التوفيق ، ولكنه ليس توفيقاً طوعياً ، وليس مجرد توفيق على طريقة سبنسر لان التوفيق التام للبيئة يعني الموت ، والنقطة الجوهرية في جميع التلبيات هي الرغبة في السيطرة على البيئة ، وعلى الفلسفة الا تتجه الى محاولة كيفية معرفة العالم الخارجي ولكن الى محاولة معرفة كيفية السيطرة عليه والاهداف من ذلك . ليست الفلسفة تحليلاً للاحساس والمعرفة (هذا من اختصاص علم النفس) ولكنها تنسيق بين المعرفة والرغبة .

ولنفهم الفكر ينبغي ان نلاحظه وهو ينشأ في مواقف خاصة ، وهو يبدأ من مواجهة الكائن الحي للمشاكل والمصاعب التي تصادفه فيأخذ في تكوين افتراضات يسترشد بها ، وبعدئذ يخضع هذه الافتراضات الى الملاحظة والتجربة .

والتفكير ايضاً اجتماعي ، وهو لا يحدث في المواقف المعينة فقط . لان الفرد من انتاج المجتمع تماماً كما ان المجتمع من انتاج الفرد ، وفي المجتمع شبكة واسعة من العادات والعرف والتقاليد المرعية والافكار التقليدية على استعداد لتكوين كل طفل مولود على صورة المجتمع الذي ولد فيه .

ان عمل المجتمع الوراثي هذا سريع جداً وتام الى درجة اخطأ فيها الناس فحسبوها وراثه جسدية او بيولوجية ، وحتى سببنا اخطأ في اعتقاده ان عادات او صور الفكر خلقية وذاتية في الفرد ، بينما هي في الواقع ليست الا من انتاج وصنع الانتقال الاجتماعي للعادات العقلية من البالغين للاطفال . لقد بولغ كثيراً في دور الغريزة ولم يوجه اهتمام كبير للتربية الاولى . لقد تم تعديل غرائز كالفريزة الجنسية وغريزة حب الخصام والسيطرة عليها عن طريق التدريب والتمرين والتعليم . ومن هنا يتضح لنا ان من الممكن تعديل الغرائز الاخرى كالفريزة حب الامتلاك والسيادة عن طريق التأثير الاجتماعي والتعليم . يجب ان نغير افكارنا حول ثبات الطبيعة البشرية وعدم تغييرها ، وقوة البيئة القادرة على كل شيء اذ لا حدود للنمو والتغيير . وقد لا يكون هنالك شيء مستحيل .

٣ - العلم والسياسة

ان النمو او التطور في نظر ديوي اعظم الاشياء وافضلها واجدرها بالاحترام والتبجيل . وقد جعل من النمو والتطور مقياسه الاخلاقي . فالنمو في نظرة هو المقياس الاخلاقي وليس الخير المطلق .

والكمال ليس هدفاً نهائياً ، والهدف في الحياة هو عملية مستمرة نحو الكمال والنضوح والتصفية والتنقية .. والانسان السيء مهما كان طيباً وخيراً في الماضي هو الانسان الذي بدأ في الانحطاط والفساد وقل نمو فضله ، والانسان الفاضل او الطيب مهما كانت اخلاقه ضعيفة من قبل يتجه في طريقه لتحسين نفسه . ان مثل هذه النظرية تجعل الانسان شديداً في الحكم على نفسه وانسانياً في الحكم على الاخرين .

ولكي تكون فاضلا لا يعني ان تكون طيعاً وانيساً ، اذ الفضل بغير
مقدرة فضل اعرج، ولن تنفعنا فضائل العالم كلها اذا كان ينقصنا الذكاء والعقل .
وليس الجهل نعمة وسعادة بل فقداناً للشعور واستعباداً ورقاً . والعقل وحده هو
الذي يمكننا من الاشتراك في تكوين مصيرنا . وحرية الارادة هي استضاءة
السلوك بالمعرفة . والطبيب او المهندس يكون حرا في افكاره او اعماله بمقدار
معرفته بعلمه وعمله . قد نجد هنا المفتاح لكل حرية . ينبغي ان نضع ثقتنا في
الفكر لا في الغريزة اذ كيف يمكن للغريزة التوفيق بيننا وبين البيئة المصطنعة
التي اوجدتها الصناعة حولنا ، والمشاكل المعقدة التي تربكنا وتحيرنا

والطريقة الوحيدة التي تمكننا من رؤية الموقف بطريقة ثابتة شاملة هو
ان نضع في اذهاننا ان المشكلة كلها تكمن في تطور العلم وتطبيقه على الحياة ،
وان تعود الاخلاق والفلسفة الى حبلها الاول ، حب الحكمة مرضعة الخير ، بان
تعود الى مبدأ سقراط مزودة بالكثير من وسائل البحث والاختبار
والفحص .

لقد قبل ديوي الديمقراطية مخالفاً بذلك معظم الفلاسفة على الرغم من
معرفته لاطاها . اذ ان هدف النظام السياسي ان يساعد الفرد على التطور
والنهوض بنفسه تطوراً تاماً . ولن نصل الى هذا الا اذا اشترك كل فرد على
قدر وسعه في تقرير سياسة جماعته ومصيرها . والارستقراطية والملكية اكثر
مقدرة وكفاءة من الديمقراطية ، ولكنها في الوقت ذاته اكثر خطورة منها .
ان ديوي لا يثق بالدولة ويفضل نظاماً متعدداً ، يقوم فيه بعمل المجتمع
بقدر المستطاع جمعيات طوعية اختيارية . ويرى ان في تعدد المنظمات والاحزاب
والشركات والنقابات وغيرها توفيقاً بين الفردية والعمل العام المشترك .

ولكن تجديد البناء السياسي لن يتحقق الا اذا طبقنا على مشاكلنا الاجتماعية الوسائل التجريبية والاراء التي اثبتت نجاحها في العلوم الطبيعية .

اننا لا نزال في المرحلة الميتافيزيقية في الفلسفة السياسية . ولا زلنا نكذب رؤوس بعضنا بالاراء المجردة . ولا نظفر بشيء من هذه المعركة . اذ لا نستطيع ان نعالج امراضنا الاجتماعية بهذه الاراء العامة ، ويجب ان تقابل كل مشكلة من مشاكلنا عن طريق الافتراضات الخاصة لا النظريات العامة ، الشاملة . وتقدم الحياة المثمر ينبغي ان يعتمد على التجربة والخطأ . لان الوسائل التجريبية تعتمد على الابحاث والتحليلات المفصلة بدلا من النظريات العامة ، وتعتمد على التحقيقات الخاصة لا على الاعتقادات العاطفية ، على الحقائق الجزئية لا على الاراء التي يتناسب حجمها مع غموضها . لا زال التفكير يسير في تعارض كبير في داخل العلوم الاجتماعية ، في الاخلاق والسياسة والتعليم . ولا زال يسير وسط تعارض نظري من النظام والحرية . والفردية والاشتراكية والثقافية والنفعية والنظام والطوعية والواقعية والتقليد . لقد انشغلت العلوم الطبيعية في الماضي بمثل هذه الاراء العامة التي كان تأثيرها العاطفي يتناقض مع وضوحها العقلي . ولكن بفضل تقدم الوسائل التجريبية اصبحت الطريقة اجراء التجربة على الموضوع وبحته قطعة فقطعة للوصول الى حل غموضه . انا لا اعرف قضية كتب فيها النصر نهائياً لفكرة من الافكار السابقة للوسائل التجريبية . لقد اختلفت هذه الافكار كلها بسبب زيادة عدم ملائمتها للحالة التي تم كشفها . وبزيادة كشف عدم ملائمتها اصبحت بلا معنى وقل الاهتمام بها . في هذا الميدان ، وفي تطبيق المعرفة الانسانية على خلافاتنا الاجتماعية ينبغي ان تعمل الفلسفة . ان الفلسفة تتشبه كغزالة اليقة في المشاكل والآراء القديمة ، حيث ترك الاهتمام والعمل المباشر للمشاكل والمصاعب الحالية للادب

والسياسة . والفلسفة اليوم تفر امام العلم ، لقد فرت العلوم الواحد تلو الاخر منها الى عالم الانتاج . وبقيت الفلسفة وحدها كأم مهجورة نضبت حيويتها وتركها اولادها . لقد انسحبت الفلسفة وابتعدت عن الاهتمام بشؤون الناس في هذا العالم ، وقبعت في زاوية متداعية تسمى فلسفة المعرفة . وهي تواجه خطر طردها كل لحظة من هذه المساكن الواهية المتداعية التي قبعت فيها . لان هذه المشاكل القديمة التي تتناولها قد فقدت معناها بالنسبة لنا . اذ اننا لا نقدم حلاً لها بل نحوم فوقها ، ويجب على الفلسفة كأى شيء اخر ان تتناول في بحثها الامور الدنيوية وتبقى على هذه الارض وتفوز ببقائها باضاءة الحياة وانارتها . ان ما يريد ان يعرفه اصحاب العقول الراجحة الجديدة الذين لا يعملون في الحقل الفلسفي هو ماهية التعديلات التي يمكن ادخالها على التراث الفكري والتي تحتاجها الحركات الصناعية والسياسية والعلمية . ومهمة فلسفة المستقبل هي توضيح اراء الناس بالنسبة الى الكفاح الاجتماعي والاخلاقي في الوقت الذي يعيشون فيه . وان تكون مهمتها انسانية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، واداة لتناول هذه المنازعات والمشاكل ، فالفلسفة هي التوفيق بين العوامل المتصارعة في الحياة . ان مثل هذه الفلسفة قد تنجب للعالم اخيراً فلاسفة جديرين بالحكم .

(انتهى)

الفهرس

	صفحة
الفصل الأول	٥
١ - افلاطون	
٢ - سقراط	١٠
٣ - تهيئة افلاطون	١٩
٤ - المشكلة الأخلاقية	٢٣
٥ - المشكلة السياسية	٢٧
٦ - المشكلة النفسانية	٣١
٧ - الحل النفساني	٣٤
٨ - الحل السياسي	٤٤
٩ - الحل الاخلاقي	٥٣
١٠ - نقد	٥٦
الفصل الثاني	٦٧
ارسطو والعلم اليوناني	
١ - النشأة التاريخية	
٢ - أعمال ارسطو	٧٣
٣ - أصل المنطق	٧٨
٤ - تنظيم العلم	٨٢
١ - العلم اليوناني قبل أرسطو	
٢ - الأخلاق وطبيعة السعادة	٨٦

	صفحة
٢ - ثقافة سبينوزا	١٨٨
٣ - حرمانه من الكنيس اليهودي	١٩٢
٤ - عزلته وموته	١٩٤
٢ - رسالته في الدين والدولة	٢٠٣
٣ - تحسين العقل	٢٠٨
٤ - الأخلاق	٢١٢
١ - الطبيعة والله	٢١٥
٢ - المادة والعقل	٢٢١
٣ - العقل والاخلاق	٢٢٥
٤ - الدين والخلود	٢٣٤
٥ - الرسالة السياسية	٢٣٧
٦ - تأثير سبينوزا	٢٤٦
الفصل الخامس	٢٤٨
فولتير وعصر التنوير الفرنسي	
١ - باريس	
٢ - رسائل عن الانكليز	٢٥٧
٣ - الروايات	٢٦٠
٤ - بوتسدام وفرديريك	٢٦٨
٥ - مقال الاخلاق	٢٧٤
٦ - فيرني - كنديد	٢٧٨
٧ - الموسوعة والقاموس الفلسفي	٢٨٧
٨ - اسحقوا العار	٢٩٤
٩ - فولتير وروسو	٣٠٣
١٠ - ختام	٣١١

	صفحة
الفصل السادس	٣١٥
عما نوبل كانت والمذهب المثالي الالمانى	
١ - الطريقت نحو كانت	
٢ - من فولتير إلى كانت	٣١٧
٣ - من لوك إلى كانت	٣١٩
٤ - من روسو إلى كانت	٣٢٣
ولكن من هو عما نوبل كانت	٣٢٦
١ - كانت نفسه	
٢ - نقد العقل الخالص	٣٣٣
١ - الحس السامى	٣٣٦
٢ - التحليل السامى	٣٤١
٣ - المنطق السامى	٣٤٤
٤ - نقد العقل العملي	٣٤٩
٥ - فى الدين والمقل	٣٥٤
٦ - فى السياسة والسلام الدائم	٣٦٠
٧ - نقد وتقدير	٣٦٧
٨ - تعليق حول هيجل	٣٧٥
الفصل السابع	٣٨٤
شوبنهاور	
١ - المعصر	
٢ - الرجل	٣٨٨
٣ - العالم كفكرة	٣٩٧

	صفحة
٤ - العالم كإرادة	٤٠٠
١ - إرادة الحياة	
٢ - إرادة التنازل	٤٠٨
٥ - العالم شر	٤١٥
٦ - فلسفة الحياة	٤٢٤
١ - الفلسفة	
٢ - العبقري	٤٢٩
٣ - الفن	٤٣٣
٤ - الدين	٤٣٦
٧ - حكمت الموت	٤٣٩
٨ - نقد	٤٤٣
الفصل الثامن	٤٥٢
هربرت سينسر	
١ - كومت ودارون	
٢ - نشأة سينسر	٤٥٨
٣ - المبادئ الأولى	٤٤٦
١ - الحقيقة المغلقة	
٢ - التطور	٤٦٩
٤ - علم الأحياء ، تطور الحياة	٤٧٤
٥ - علم النفس ، تطور العقل	٤٧٧
٦ - علم الاجتماع : تطور المجتمع	٤٨٠
٧ - اخلاق : تطور الاخلاق	٤٨٨
٨ - نقد	٤٩٤
١ - المبادئ الأولى	

	صفحة
٢ - علم الاحياء وعلم النفس	٤٩٦
٣ اجتماع واخلاق	٤٩٨
٩ ختام	٥٠١
الفصل التاسع	٥٠٤
فردريك نيتشه	
١ - نشأته	
٢ - فترة الشباب	٥٠٧
٣ - نيتشه وفجنر	٥١٢
٤ - اغنية زرادشت	٥١٧
٥ - اخلاق البطل	٥٢٤
٦ - السوبرمان « الانسان الأعلى	٥٣١
٧ - الانحطاط	٥٣٦
٨ - الارستقراطية	٥٤١
٩ - نقد	٥٤٨
١٠ - خاتمة	٥٥٢
الفصل العاشر	٥٥٤
الفلاسفة المعاصرون في أوروبا	
برجسون ، كروتشي ، وبرتراند رسل	
١ - هنري برجسون	
الثورة المادية	
٢ - العقل والمنح	٥٥٨
٣ - التطور الخلاق	٥٦٢
٤ - نقد	٥٦٧
٢ - بندتو كروتشي	٥٧٢
١ - الرجل	

	صفحة
٢ - فلسفة الروح	٥٧٦
٣ - ما هو الجمال ؟	٥٨٠
٤ - نقد	٥٨٣
٣ - برتراند رسل	٥٨٥
١ - المنطقي	
٢ - المصلح	٥٩١
٣ - ختام	٥٩٥
الفصل الحادي عشر	٥٩٩
الفلاسفة المعاصرون في أمريكا	
سنتيانا - جيمس - ديوي	
١ - جورج سنتيانا	٦٠١
١ - حياته	
٢ - الشك وايمان الحيوان	٦٠٣
٣ - العقل في العلم	٦٠٤
٤ - العقل في الدين	٦٠٧
٥ - العقل في المجتمع	٦١٠
٦ - تعليق	٦١٤
٢ - وليم جيمس	٦١٥
١ - البراجماتزم	٦١٧
٢ - التمرد	٦١٨
٣ - تعليق	٦٢٣
٣ - جون ديوي	٦٢٤
١ - تعليم	
٢ - الفلسفة الاداتي	٦٢٦
٣ - العلم والسياسة	٦٢٩

